كلمـــة

الأستاذ الدكتور احمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى افتتاح الندوة مساء ٢١ ابريل ١٩٧٣

السيد الأستاذ الدكتور لطفى دويدار رئيس الجامعة

سادتى

أرجو أن تأذنوا لى لأرحب بكم — باسم الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وباسمى فى يوم افتتاح هذه الندوة العلمية التى تعقدها جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع الجمعية لبحث موضوع «مجتمع الاسكندرية — دراسة تاريخية اجتماعية» .

ولعلكم تعجبون — وقد تعدون منى هذا تجاوزاً — أن أرحب بكم فى جامعتكم ، ولكن عذري فى هذا أن جامعة الاسكندرية هى صاحبة الفضل فى إقامة هذه الندوة ، إذ تبنتها فكرة ومشروعاً ، ثم عملت حتى اخرجتها إلى حيز الوجود ، وهنا نحن نجتمع الليلة لافتتاحها ، فاسمحوا لى مرة أخرى بأن أرحب بكم وأشكر للجامعة ، رئيسها وعميد الآداب فيها وأساتذتها جهودهم الموفقة .

وقد بنيت فكرة إقامة هذه الندوة فى ذهنى فى الصيف الماضى ، على شاطىء المنذرة حين كنت أفكر فى تنظيم الموسم الثقافى لجمعيتنا فى العام الحالى وخطر لى أن اخواننا أعضاء الجمعية الذين يقيمون خارج القاهرة طالما شكوا أن الجمعية تؤثر بنشاطها كله مدينة القاهرة ، بحيث لا تدع لهم إلا فرصاً ضئيلة للافادة من هذا النشاط إذا سنحت لهم ظروفهم بالحضور إلى القاهرة ، وفكرت فى أن تخرج الجمعية بجانب من نشاطها الثقافى خارج مقرها بالقاهرة فإن من حق الجامعات والهيئات العلمية والدوائر الثقافية خارج القاهرة —

أن من حقها علينا أن تسهم بما تستطيع من جهد فيما تقوم به من نشاط علمى وثقافى .

وفكرت ــ وأنا أسرح الطرف أمامى فى بحر الاسكندرية وشاطئها الجميل ــ أن يكون الثغر أول مكان تنفذ فيه جمعيتنا هذه الفكرة ، وليس أجدر من جامعة الاسكندرية وأحق منها بأن تكون الدار التى تتجه اليها لتحتضن الفكرة ، وتوفر لها أسباب النجاح ولم أحتج إلى وقت طويل وأنا لا أزال أسرح الطرف فى بحر الاسكندرية وشاطئها الجميل ــ لأقع على موضوع (مجتمع الاسكندرية دراسة تاريخية اجتماعية) ليكون موضوع البحث فى هذه الندوة العلمية التى سأقترحها على الجامعة فالدراسات التاريخية الاجتماعية أو التاريخ الاجتماعى لا تزال حديثة العهد عندنا وخاصة فى جامعاتنا ومراكز بحوثنا . ولعل الكفاح السياسى الذى استغرق جل جهودنا واستحوذ على تفكيرنا كان مسئولا عن انكبابنا على التاريخ السياسى لنفرغ فيه همنا ونستمد منه الدروس والعبر ، ثم بدأنا ــ بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ندخل فى مرحلة أخرى من الكفاح (الاجتماعى) إن صح هذا التعبير لاعادة بناء مجتمعنا على أساس من العدالة الاجتماعية وتذويب الفوارق بين الطبقات .

حقاً إن لجامعة الاسكندرية جهوداً موفقة سابقة فى خدمة الاسكندرية وتاريخها ، فمنذ سنوات تضافر أساتذة التاريخ فى الجامعة على خدمة تاريخ الاسكندرية فأصدروا مجلداً ضخما تتبعوا فيه بالبحث تاريخ الاسكندرية فى مختلف عصور تاريخها الطويل ، كما أنهم ــ فيما أعلم ــ كتبوا مجلداً آخر فى تاريخ البحرية المصرية ، والاسكندرية قاعدتها الأولى . فاختيار « مجتمع الاسكندرية » إذن ليدرس من الزاوية التاريخية والاجتماعية يتفق مع رسالة جامعة الاسكندرية فى خدمة مجتمعها من مختلف النواحى ، العلمية والثقافية والتطبيقية ، وهذا ما ينبغى أن تتجه اليه جهود جامعاتنا بحيث يتحقق الربط بينها وبين المجتمع .

وأقر مجلس إدارة الجمعية المشروع وتمنى له النجاح كما رحب زملائى

أساتذة كلية الآداب بالجامعة فى أقسام التاريخ والحضارة والآداب والاجتماع خاصة بالفكرة وتحمسوا وتقاسموا موضوعاتها ، كما رحب الأستاذ الدكتور لطفى دويدار رئيس الجامعة بالمشروع ، وأبدى كامل استعداد الجامعة لتبنيه وتيسير أسباب تحقيقه .

وهانحن اليوم نجتمع فى هذه الندوة العلمية وفى رحاب جامعة الاسكندرية لبحث موضوع «مجتمع الاسكندرية – دراسة تاريخية اجتماعية» فالشكر – مجدداً – أقدمه للأستاذ رئيس الجامعة لاحتضانه مشروع الندوة وتفضله بالحضور اليوم والقاء كلمة افتتاحها ، كما أشكر لحضراتكم – باسم الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – إقبالكم على حضور الندوة .

وسيلقى فى الندوة – على مدى خمسة أيام – على النحو المدون فى برنامج الندوة خمسة عشر بحثاً ، وقد استغرق الجانب التاريخى أكثر هذه البحوث فهناك أحد عشر بحثاً يلقيها أساتذة التاريخ والحضارة ، منهم أستاذان من جامعة عين شمس سيلتزمون فى بحوثهم بالجانب الاجتماعى والحضارى مارين بالتطور السياسى مرور الكرام على نحو ما اتفقنا عليه التزاماً منا بالخط الرئيسى لموضوع الندوة ، ثم يتلوها بحثان فى الأدب والصحافة فى الاسكندرية وهما متصلان بأوثق الاتصال بالمجتمع السكندرى ، يلقى أولهما زميل من أساتذة الجامعة ويلقى الآخر صحفى قديم خدم صحافة الثغر نحو نصف قرن ، هو الأستاذ شارل شميل ، ثم تختتم الندوة ببحثين يلقيهما أستاذان من قسم الاجتماع ، الأول يتناول حركة التغير فى المجتمع السكندرى الحديث ، ويتناول الآخر مركز هذا المجتمع بين مجتمعات حوض البحر المتوسط .

ولا شك أن مجال القول فى مجتمع الاسكندرية واسع ، وان ثمة موضوعات أخرى كان ينبغى أن يفسح لها مجال فى هذه الندوة ، ولكن عذرنا ضيق الوقت الذى حدد للندوة وأملنا أن تحظى هذه الموضوعات بندوة تالية .

ولقد كان اتفاقنا أن تقدم البحوث قبل عقد الندوة بوقت كاف يسمح بنسخها وتوزيعها على السادة المدعوين تمكيناً لهم من الاطلاع عليها والاستعداد لمناقشتها ، ولكن السادة المحاضرين لم يستطيعوا الوفاء بما تعاهدنا عليه : على أننا سنخصص جانباً من الوقت عقب كل محاضرة للتعقيب والمناقشة . وأملنا أن يتم جمع البحوث التى ستلقى فى الندوة عقب انتهائها ، وقد وعدت الجامعة مشكورة بطبعها ونشرها . فلزملائى الأساتذة الذين أسهموا فى هذه الندوة ببحوثهم أقدم خالص الشكر والتقدير .

ومجتمع الاسكندرية منذ بدأ يتكون فوق هذه البقعة المطلة على البحر المتوسط حيث مدخل مصر الشمالى ، والقريبة من حدودها الغربية حيث مدخلها الغربى ، ان المجتمع السكندرى بموقعه هذا يقدم لنا نموذجاً فريداً بين مجتمعات المدن المصرية ، لا ترجع أهميته إلى أن الاسكندرية كانت عاصمة البلاد المصرية طوال عدة قرون منذ تأسيسها أيام الاسكندر ٣٣٢ ق . م إلى أن فتحها العرب المسلمون فى القرن السابع الميلادى ، فنقلوا العاصمة إلى مدينة جديدة هى الفسطاط أقاموها قرب التقاء فرعى النيل الكبيرين . لقد كان بناء الاسكندرية فى مكانها هذا يهدف إلى ربط مصر بعالم البحر المتوسط ، وهو العالم الذى كانت تسوده الثقافة اليونانية كجزء من خطة كبيرة ترمى إلى نشر الثقافة اليونانية فى شتى أرجاء الشرق القديم ، وكانت الاسكندرية المصرية واحدة من (اسكندريات) عدة أقامها اليونان فى مراكز هامة على طول طريق امبراطورية الاسكندر الأكبر .

ولكن لم يكن من طبيعة الاشياء أن تظل الاسكندرية المصرية وهى على جزء من التراب المصرى مدينة يونانية ، حتى وإن كانت عاصمة الدولة البطلمية ، وهى إحدى الدول الاغريقية أو المتأغرقة التى قامت فى أجزاء من الامبراطورية الأغريقية الكبرى ، امبراطورية الاسكندر الأكبر . فما لبثت صبغتها المصرية ، كاحدى مدن مصر وأن كانت قد نجحت فى المداعمة بين الثقافة والمصالح والمقومات المصرية واليونانية وكان العامل الأكبر الذى مكنها من ذلك هو حرصها على أن تفيد من

موقعها على البحر من ناحية وعلى الأرض المصرية من ناحية أخرى ، هذا هو المقوم الأساسى الذى يعتمد عليه مجتمع الاسكندرية حتى اليوم ، فهى ، بموقعها على البحر تتزود بما يفد اليها عبره من ثمرات العقل البشرى ، كما أنها كقاعدة أمامية لأرض مصر تحمل اليها ثمرات الفكر المصرى والجهد المصرى ، ومجتمع الاسكندرية قادر على أن يتبادل وأن يأخذ ويعطى ، وأن يصنع من هذا كله مزيجاً انسانياً تفرد به مجتمع الاسكندرية . والمتتبع لتاريخ الاسكندرية تأخذه هذه الحقيقة الواضحة طوال تاريخها ، وفى الأوقات التى تتراخى فيها قدرة مجتمع الاسكندرية فى الافادة من موقعه الفريد ، بفعل ظروف هى — فى الغالب — فوق متناوله ، يضعف هذا المجتمع ويضمحل شأن الاسكندرية ، وأوضح مثال لذلك ما حدث للاسكندرية فى العصر العثمانى ، نتيجة تحول التجارة بين الشرق والغرب عن طريق البحرين الأحمر والمتوسط إلى طريق المحيطات ، فانكمشت تجارة الاسكندرية ، حتى غدت المدينة — كما وصفها أحد الرحالة فى تلك الأيام — لا تعدو أن تكون قرية كبيرة ، ثم عادت لها أهميتها بعودة النشاط التجارى إلى تلك البحار الداخلية فى القرن التاسع عشر .

هذا وغيره بعض الموضوعات التى سيناقشها الزملاء المحاضرون فى هذه الندوة ، التى يسرنى أن أسهم اليوم مع السيد رئيس الجامعة فى افتتاحها باسم الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، متمنياً لها كل توفيق .

المجتمع الأول للاسكندرية قبل انشائها

للدكتور رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

الواقع أن هذا الموضوع الهام يمثل الخلفية التاريخية الوطنية الأولى لعملية انشاء مدينة الاسكندرية ، وهذه الخلفية أساسية للغاية من أجل تفهم الظروف التاريخية والحضارية المصرية القديمة المحيطة بعملية تأسيس هذه المدينة الخالدة.

وتتركز هذه الظروف التاريخية بصفة خاصة فى تاريخ قطاع غرب الدلتا بالذات وما يتصل بذلك التاريخ من ملابسات جغرافية طبيعية وعوامل بشرية وظروف سياسية وحضارية مصرية قديمة ، وذلك على أساس أن الموقع الذى اختاره الاسكندر المقدونى لتأسيس الاسكندرية يتصل تاريخه اتصالا وثيقاً فى كافة المجالات ببعض الظواهر والخصائص التاريخية والمجتمعية الخاصة بموقع راقودة وقطاع غرب الدلتا بوجه عام .

وقبل التعرض إلى الأحداث التاريخية والحضارية التى مرت على منطقة غرب الدلتا ينبغى التعرف على حدود هذا القطاع جغرافياً فى العصور القديمة وكذلك طبيعة ظروفه الخاصة .

كان الخط الفاصل بين الرسوبات الغرينية أو الأراضى الطينية السوداء من ناحية والأراضى الحمراء ، وذلك حسب التعبيرات المصرية القديمة ، أو الصحراوية من ناحية أخرى هو الخط الفاصل بين الحياة والموت بالنسبة للانسان فى مصر الفرعونية . وقد نشأ هذا الاعتقاد على أساس أن الوادى هو مصدر الحياة الزراعية والاستقرار ، وأن الصحراء هى بداية للعالم الآخر وهى المنطقة التى تغرب فيها الشمس كل يوم لتبدأ حياتها فى العالم الآخر .

وقد بدأ هذا الاعتقاد منذ العصر الحجرى الحديث أى حوالى ٦٠٠٠ ق.م ، أى منذ بدأ الاستقرار لأول مرة فى تاريخ الانسانية فى مصر والشرق الأدنى القديم عندما اضطرت العناصر الحامية القاطنة فى الصحراء الكبرى إلى الاتجاه نحو وادى النيل بعد انتهاء العصر المطير وبداية الجفاف . وقد ثبت أثرياً وجود اتصال حضارى بين حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى فى قفصه فى تونس وانسان الواحات وانسان الفيوم أوكذلك اتصال الحضارة العاترية بتونس بالحضارة السبيلية فى مصر وقد استقرت هذه العناصر الحامية على حافة الصحراء وعلى المنحدرات المطلة على حافة الأراضى الطينية .

وكانت هذه العناصر تأتى لرعى الماشية بجوار الوادى . ومن الأمثلة الدالة على بداية الاستقرار قرية مرمدة بنى سلامة ، وهى أقدم قرية فى مصر لا تزال آثارها متكاملة حتى الآن وتقع شمال غرب القاهرة فى موقع أبو غالب عند الخطاطبة على الضفة الغربية لفرع رشيد . ولم تستطع تلك المجتمعات المبكرة التوغل فى الدلتا بل استمرت فترة طويلة على حافة الصحراء وذلك لأن الظروف الطبيعية للدلتا كانت لا تزال غير مستقرة ، بحكم أن أفرع النيل فى الدلتا لم تكن قد استقرت فى مجاريها بل كانت تمر بعدد من التغيرات التى أدت إلى تكون العديد من المستنقعات . وقد ظلت هذه الصورة الطبيعية غير المستقرة تماماً حتى عهد الدولة القديمة . وفى تصورى أن تلك الحالة الطبيعية تشبه لحد كبير الصورة الكائنة فى بعض مناطق سواحل البحيرات الواقعة فى شمال الدلتا الآن مثل المنزلة ومريوط وغيرها حيث تتواجد المستنقعات والبرك ، مما استوجب جهداً مصرياً كبيراً فى عمليات التجفيف التى عثر على أدلة مصرية قديمة على أداء المصريين لها .

وقد انعكست هذه الصورة الطبيعية للدلتا فى تركيز النشاط المبكر الحضارى والسياسى المصرى القديم فى مصر العليا أى فى الصعيد. هذا بالاضافة إلى كون الاتجاه الافريقى فى الحضارة المصرية القديمة هو الاتجاه نحو مصدر الحياة المصرية وهو نهر النيل أى نحو الجنوب . ولكن ذلك لا يمنع من وجود بعض مراحل الاستقرار الحضارى المبكر والهام فى غرب الدلتا ، فى مرمدة

بى سلامة وفى بوتو أو ابطو (كوم الفراعين) قرب دسوق ، وكذلك فى سايس (صا الحجر) وغيرها من المواقع .

ويمكن اعتبار الفرع الكانوبى أو أجاثو دايمون لنهر النيل وهو الفرع الذى كان يصب فى خليج أبو قير ، وسمى بالكانوبى نسبة إلى موقع كانوبوس بجوار أبو قير ، بمثابة الحد الغربى للدلتا أولمصر السفلى .

وبدأت القرى تنشأ على السفوح المطلة على فرع رشيد ، ولكن كانت تلك المجتمعات الزراعية الأولى فى غرب الدلتا تتعرض من آن إلى آخر إلى تسلل وتغلغل بشرى هام يفد اليها من الغرب . والواقع أن تاريخ غرب الدلتا يتصل اتصالا وثيقاً فى جملته بتاريخ الصحراء الغربية والليبية . ولم يكن ذلك قاصراً على غرب الدلتا بل على وادى النيل الأدنى بوجه عام ، مما استوجب ضرورة اقامة بعض الحصون والعمائر المحصنة منذ عصر ما قبل الأسرات الأخير ، والأسرتين الأولى والثانية فى هذه المناطق المواجهة للصحراء الغربية مثل حصون الكوم الأحمر وشونة الزبيب والكاب وغيرها . ويمكن اعتبار زخارف لوحة الحصون التى تسجل محاولة المصريين ايقاف هذه العناصر الحامية الوافدة اليها من الصحراء الغربية معبرة عن ذلك أيضاً .

ومن هنا يمكن القول أن ظاهرة القلاع والحصون المبنية على حافة الصحراء والهادفة إلى تأمين الحدود الغربية والشمالية كانت ظاهرة تاريخية لها وزنها التاريخى عبر العصور . وسيتضح ذلك بعد قليل عند التعرض إلى موقع راقودة الذى أقيمت عليه مدينة الاسكندرية . وقد دلت الآثار والنصوص المصرية القديمة على جهود الفراعنة فى عهد الدولتين القديمة والوسطى فى محاولة ايقاف هذا التغلغل البشرى الليبى فى منطقة غرب الدلتا .

وقد اشتد ضغط العناصر الحامية الليبية على منطقة غرب الدلتا أثناء عصر الامبراطورية المصرية فى عهد الدولة الحديثة ثم أثناء عصر الانتقال الثالث (العصر المتأخر) وبصفة خاصة خلال عهد الأسرتين ٢٢ ، ٢٣ . ولم يقتصر الموقف على الضغط البشرى الليبى بل أيضاً جاء ضغط بحرى

وافد من جزيرة كريت وشبه جزيرة البلقان وجزر سردينيا وصقلية وغيرها.
ومن المدهش أنه حدث تحالف بين العناصر الليبية وعناصر شعوب البحر أثناء عمليات تسربها إلى مصر . وقد تركزت هذه المواجهة البشرية الليبية من عناصر التمحو والليبو والمشواش على منطقة غرب الدلتا حوالى سنة ١٢٣٠ ق . م . فى عهد الملك المصرى مرنبتاح الذى سجل انتصاراته على الليبيين فى لوحته الحجرية الهامة المحفوظة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة . وفى حوالى سنة ١١٩٠ ، ١١٨٥ ق . م . سجل الملك المصرى رمسيس الثالث انتصاراته فى معبد مدينة هابو والتى تمكن فيها من النجاح فى القضاء على هجوم بحرى وبرى لتلك العناصر. وقد دونت النصوص المصرية تمكنه من أسر ألف أسير ليبى وأكثر من أربعين ألف من الماشية . وقرب أواخر الأسرة العشرين بدأت تظهر قوة ليبية الأصل فى منطقة أهناسيا (هيراقليوبوليس) بالفيوم ، وقد تمكن الأمير الليبى المتمصر ششنق من الاستيلاء على عرش مصر وبدأت الأسرة الثانية والعشرين وتلتها الأسرة الثالثة والعشرين . ثم جاءت العناصر النوبية بقيادة بعنخى فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين ، وخلالها جاءت أيضاً العناصر الآشورية ومكثت من سنة ٦٧٠ إلى سنة ٦٦٣ ق . م فى احتلال مصر . وفى عهد الأسرة السادسة والعشرين نجحت السيادة المصرية السياسية والحضارية فى العودة لفترة وجيزة ، ثم سرعان ما جاءت العناصر الفارسية الاكمينية بقيادة قمبيز الثانى وتمكنت من احتلال مصر واعتبارها ولاية فارسية منذ سنة ٥٢٥ ق . م .

وقد حاول المصريون الاستعانة بالجنود المرتزقة الليبية واليونانية الذين زاد نفوذهم بصورة واضحة أثناء عصر الانتقال الثالث ، ولم يكن ذلك فقط بسبب استخدامهم كجنود مرتزقة ولكن أيضاً بسبب نشاطهم التجارى واستقرارهم فى بعض المواقع فى غرب الدلتا .

ولم تعارض العناصر الليبية المتغلغلة فى غرب الدلتا وفود العناصر اليونانية بل لقد تحالفت معها ، وحتى أثناء الاحتلال الفارسى لمصر تمكن أحد الأمراء الليبيين فى غرب الدلتا حوالى سنة ٤٦٠ ق . م من الدخول فى تحالف مع أثينا التى أرسلت قوة بحرية معاونة ضد الفرس .

هذه الصورة التاريخية المقتضبة لغرب الدلتا بوجه عام تدل دلالة واضحة على مدى فاعلية الظروف الجغرافية الطبيعية والظروف البشرية التى أدت إلى تعرض هذه المنطقة إلى التغلغلات البشرية الليبية واليونانية منذ البداية والتى حتمت وجود مواقع محصنة دفاعية منذ عصور ما قبل التاريخ وأثناء العصر التاريخى. ولما كانت طبيعة العناصر اليونانية تغلب عليها صفة النشاط الاقتصادى وبصفة خاصة التجارة فقد نجحت هذه العناصر فى تكوين عدد من المراكز التجارية فى غرب الدلتا للقيام بتحقيق ذلك النشاط الاقتصادى. وعلى ذلك فان شكل المجتمع المصرى فى تلك المنطقة جمع بين المجتمع الزراعى المصرى الصميم وظاهرة تغلغل العناصر اليونانية التجارية والعناصر الليبية فيه. وقد استمرت الأخيرة فى أداء دورها التقليدى المعتمد على اقتصاديات الرعى بحكم بيئتها الصحراوية حتى الآن. هذا بالاضافة إلى الجوانب الدفاعية السالفة الذكر.

ومن الوثائق الهامة التى تلقى ضوءاً نصياً على بعض المواقع الأثرية فى هذه المرحلة السابقة لتأسيس الاسكندرية نص هيروغليفى مدون على كتلة حجرية من حجر البازلت الأسود عثر عليها فى أشمون بمحافظة المنوفية وموجود حالياً بالمتحف المصرى بالقاهرة تحت رقم ٤٥٩٣٦. وقد قام جوزج دارسى بدراسة هذا النص، ويغلب انتهاء هذا النص إلى الأسرة الثلاثين المصرية أى أثناء عصر الاحتلال الفارسى وقبل تأسيس الاسكندرية بفترة وجيزة. وتجسم الخريطة المرفقة رقم (١) المواقع الأثرية المصرية القديمة التى جاء ذكرها فى هذا النص ومن الناحية الأثرية اتجهت إلى محاولة حصر المواقع الأثرية الحالية فى محافظة البحيرة والتى اتضح لى بعد الدراسة أن هناك عشرات منها، (أنظر الخريطة رقم (٢))، تكمل الصورة الأثرية والحضارية التى وردت فى الخريطة التاريخية.

ويلاحظ أن غالبية هذه المواقع توجد بها آثار يونانية ثم آثار مصرية تنتمى إلى عصر الانتقال الثالث (العصر المتأخر). هذا وقد لمست ذلك شخصياً عندما قمت بحفر موسم أثرى فى موقع كوم فرين عثرت فيه

علي آثار تنتمي إلى جبانة اقليمية من العصر المتأخر . اومن الموقع الهامة للغاية أيضاً موقع كوم جعيف الذي حفر فيه بترى والذى يسجل فيه ضبخامة التراث المصري واليوناني ، وكذلك موقع كوم الحصن الذى حفر فيه مصطفي الأمير ، والذي يوضح أن آثار المقابر كانت خاصة بمحاربين حتي أن جثث الموتى كانت تدل على أنهم أصيبوا فى المعارك ضد الليبين ، وحتى اسم كوم الحصن ربما يدل علي الجانب الدفاعى ويغلب انتماؤه إلى عصر الانتقال الثاني .

من ذلك العرض الموجز تتضح الناحية العسكرية الدفاعية والناحية الاقتصادية التجارية فى المواقع الأثرية الكائنة فى غرب الدلتا .

ولا شك أن موقع رع قدت ، أنظر الخريطة رقم (١) ، وهو موقع قرية راقودة ، كان يجمع أيضاً بين هذه الصفات المشتركة الدفاعية والتجارية بوجه عام مثل طبيعة المواقع الأثرية الأخرى فى المنطقة . هذا بالاضافة إلى أن موقع راقودة موقع استراتيجى هام للغاية فهو محمى بطريقة طبيعية بحكم وجوده أمام جزيرة فاروس التى كانت تبعد حوالى كيلو متراً واحداً من راقودة مما يؤدى إلى حماية موقع راقودة من العواصف البحرية مما ساعد على وصول التجارة اليونانية اليها بسهولة. ومما يدل أيضاً على أهمية جزيرة فاروس بالنسبة للعناصر اليونانية قبل مجيء الاسكندر ذكرها فى الأساطير والملاحم اليونانية . ومن ناحية أخرى تطل راقودة أيضاً على بحيرة مريوط التى تحميها من الجنوب وتصلها بالمواقع المصرية الداخلية وقد أشارت المصادر اليونانية أنه كانت هناك ستة عشرة قرية فى هذه المنطقة ، وكانت راقودة بمثابة مركزها الرئيسى . ولا شك أن الحياة فى مجتمعها كانت تجمع بين الصيد والرعى والتجارة .

وقد أدرك الاسكندر المقدونى هذه ا ـ ميزة لراقودة وسرعان ما إتخذ موقعها موقعاً لمدينته الجديدة وقد أصبحت راقودة جزءاً من مدينة

الاسكندرية الجديدة وهي الآن تقع في المنطقة الواقعة بين حي ميناء البصل وباب سدرة وكوم الشقافة وكرموز وكانت تمثل الحي الوطني في المدينة .

وهناك آثار منتمية إلى المرحلة السابقة على تأسيس الاسكندرية من أهمها ماكشف عنه جونديه تحت الماء في شمال وغرب جزيرة فاروس في منطقة رأس التين والأنفوشي ، فقد كشف عن بقايا أرصفة ضخمة وحواجز أمواج وانشاءات ، أي آثار ميناء قديم ، (أنظر اللوحة المرفقة) . وكان هذا الميناء يمتد من شمال جزيرة فاروس إلى غربها ، وقد بني بكتل حجرية ضخمة يصل وزن بعضها إلى ستة أطنان وهي من نوع الأحجار المحلية في محاجر المكس والدخيلة المواجهة للميناء . ولا شك أن ضخامة أرصفة هذا الميناء القديم لتدل على مدى النشاط التجاري البحري لجزيرة فاروس وربما كان اقتصار معرفة المؤرخين به هو غرقه في العصور القديمة .

وقد اختلف العلماء في تأريخ هذه الانشاءات البحرية الغارقة الآن ، فبينما يعتقد جونديه أنها تنتمي إلى عصر الرعامسة وبصفة خاصة رمسيس الثاني يرى ويل أنها تمثل جزءاً من التوسعات الكريتية المينوية التي في رأيه تمكنت من احتلال هذا الشاطيء المصري . ويرى أنه ربما لم تعترض مصر الفرعونية على اقامة هذا الميناء الكبير على جزيرة مهجورة . وقد اعتقد البعض الآخر أن الفينيقين لهم دور في عملية البناء بحكم خبرتهم البحرية الطويلة.

وللأسف أنه لم يعثر على أية نصوص يمكن بواسطتها تحديد التأريخ السليم لذلك الميناء القديم . وقد أدى ذلك إلى اختلاف آراء العلماء في تأريخها وبالتالي في تفسير وظيفتها التاريخية . ويتجه ألن رو إلى الاعتقاد أن راقودة كانت بمثابة قلعة الحدود الرئيسية في الركن الشمالي الغربي للدلتا . والواقع أن هذا الرأي أقرب إلى الصواب وذلك لأن ظاهرة التحصين التي سبقت الاشارة اليها والتي لوحظت في آثار بعض مواقع غرب الدلتا تؤكد ذلك . وان العثور على آثار عديدة للملك رمسيس الثاني وما تلاه في مناطق متفرقة في محيط دائرة مدينة الاسكندرية ليساعد في امكانية القول بازدهار موقع

راقودة أثناء عصرى الدولة الحديثة والانتقال الثالث . ويؤكد ألن ويس ذلك أيضاً بالقول أن راقودة كانت أثناء العصر الفرعونى الأخير مدينة هامة ولم تكن قرية متواضعة، مما شجع الاسكندر المقدونى على اختيار موقعها لمدينته الجديدة . ولا شك أن ، حقيقة مميزات الموقع الاستراتيجى لكل من راقودة وفاروس كان له أثره الفعال أثناء العصر الفرعونى الأخير فى تحقيق كافة الأغراض التجارية البحرية والبرية الخارجية والداخلية ، وكذلك الأغراض الدفاعية ، مما اجتذب انتباه الاسكندر المقدونى إلى ضرورة بناء مدينة الاسكندرية الخالدة فى هذا الموقع المختار .

هذه لمحات موجزة عن المجتمع الأول للاسكندرية قبل انشائها .

قائمة ببعض المواقع الأثرية الهامة فى محافظة البحيرة

	اسم التل	المركز	التلال التى حدث بها حفائر	الآثار
١	أبو بللو	كوم حماده	جامعة ميتشجان ـ مصلحة الآثار	بآثار مصرية من عهد الدولة الحديثة وغيرها.
٢	بلتوس	كوم حمادة	—	—
٣	كوم الحصن	كوم حمادة	مصلحة الآثار ـ حفائر مصطفى الأمير	به آثار مصرية (دولة قديمة ودولة وسطى)
٤	كوم الخرز	الدلنجات	مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٥	كوم الحية	الدلنجات	—	—
٦	كوم جعيف	ايتاى البارود	حفائر ف . بترى	به آثار مصرية ويونانية
٧	كوم الحداد	ايتاى البارود	—	—
٨	كوم فرين	الدلنجات	حفائر المصلحة وحفائر رشيد الناضورى	به آثار مصرية من العصر المتأخر
٩	الركوية	الدلنجات	مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
١٠	أبو الزرازير	الدلنجات	مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
١١	حمريط	الدلنجات	—	—
١٢	الغز	الدلنجات	—	—
١٣	أم اللبن	الدلنجات	—	—
١٤	الكوم الأحمر	الدلنجات	—	—
١٥	الشمولى	حوش عيسى	—	—

	اسم التل	المركز	التلال التى حدث بها حفائر	الآثار
١٦	كوم قرطاس	الدلنجات	—	—
١٧	الحاصل	الدلنجات	مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
١٨	أبو حماد	دمنهور	مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
١٩	كوم دلنحية	الدلنجات	—	—
٢٠	البارود	الدلنجات	—	—
٢١	قمحة	الدلنجات	—	—
٢٢	سيدى أحمد	الدلنجات	—	—
٢٣	أبو الطبول	الدلنجات	—	—
٢٤	الزلط	الدلنجات	—	—
٢٥	العشرين	الدلنجات	—	—
٢٦	كوم البروجى	دمنهور البحرى	—	به آثار يونانية رومانية
٢٧	البرنوجى	دمنهور القبلى	—	به آثار يونانية رومانية
٢٨	العلوانى	دمنهور	—	—
٢٩	الشوكة	دمنهور	—	—
٣٠	الكوم الأحمر	المحمودية	مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٣١	كوم الوسط	المحمودية	مصلحة الآثار	بهآثارمصرية ويونانية رومانية

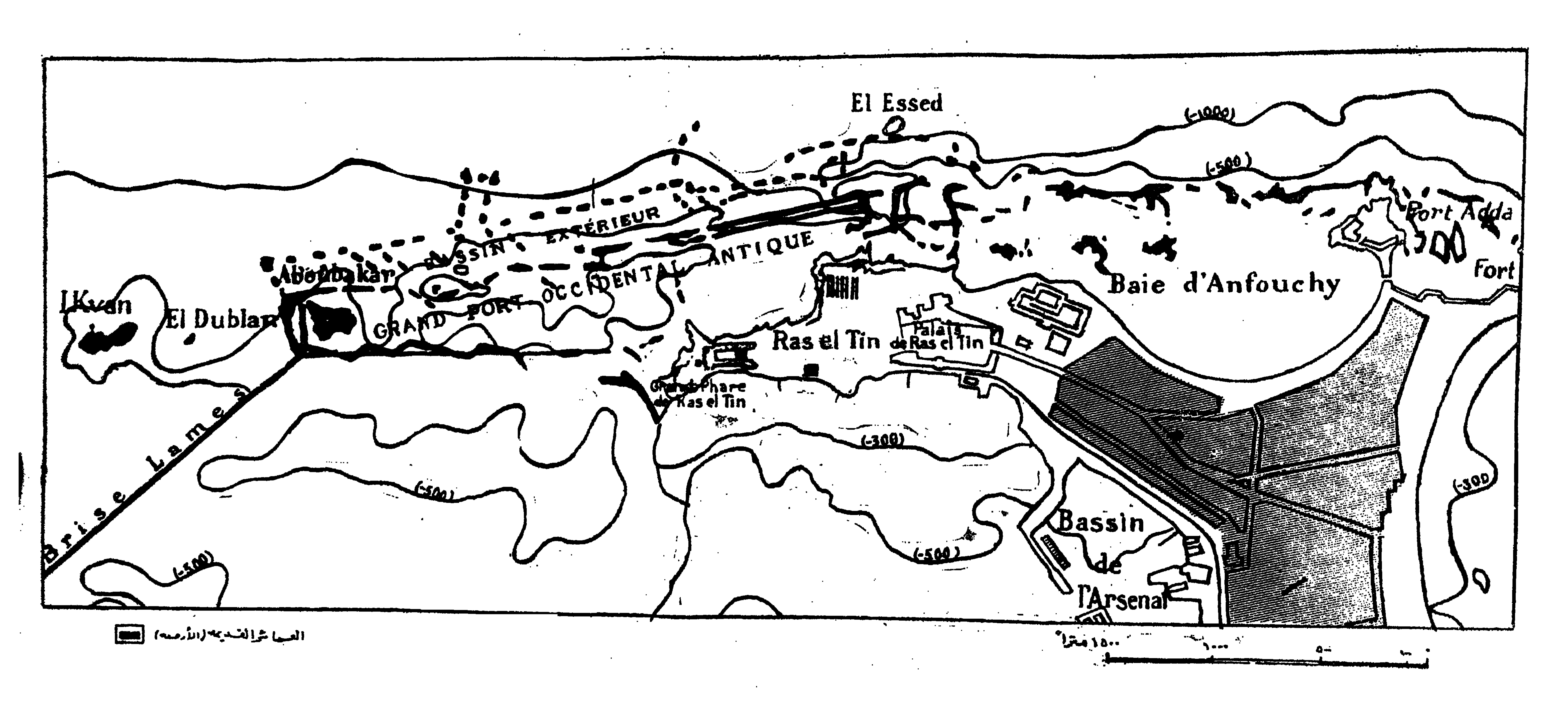
اسم التل	المركز	التلال التي حدث بها حفائر	الآثار
٣٢ كوم الغزف	المحمودية	—	به آثار يونانية رومانية
٣٣ المدينة	المحمودية	—	—
٣٤ سيدي عقبه	المحمودية	—	به آثار يونانية رومانية
٣٥ التجيلي	المحمودية	—	به آثار يونانية رومانية
٣٦ الدبية	دمنهور	—	—
٣٧ كفر الرحمانية	المحمودية	—	—
٣٨ ديبي	رشيد	—	به آثار يونانية رومانية
٣٩ كوم الدهب	رشيد	—	به آثار يونانية رومانية
٤٠ كوم النوام	دمنهور	—	به آثار رومانية
٤١ سيدى عبد الرازق	دمنهور	—	به آثار يونانية رومانية
٤٢ عاجوزة	دمنهور	—	به آثار يونانية رومانية
٤٣ كوم الدهب	دمنهور	—	به آثار يونانية رومانية
٤٤ كوم أبو حريز	حوش عيسى	—	به آثار يونانية رومانية
٤٥ البهرة	حوش عيسى	—	به آثار يونانية رومانية
٤٦ الأبقعين	حوش عيسى	—	به آثار مصرية

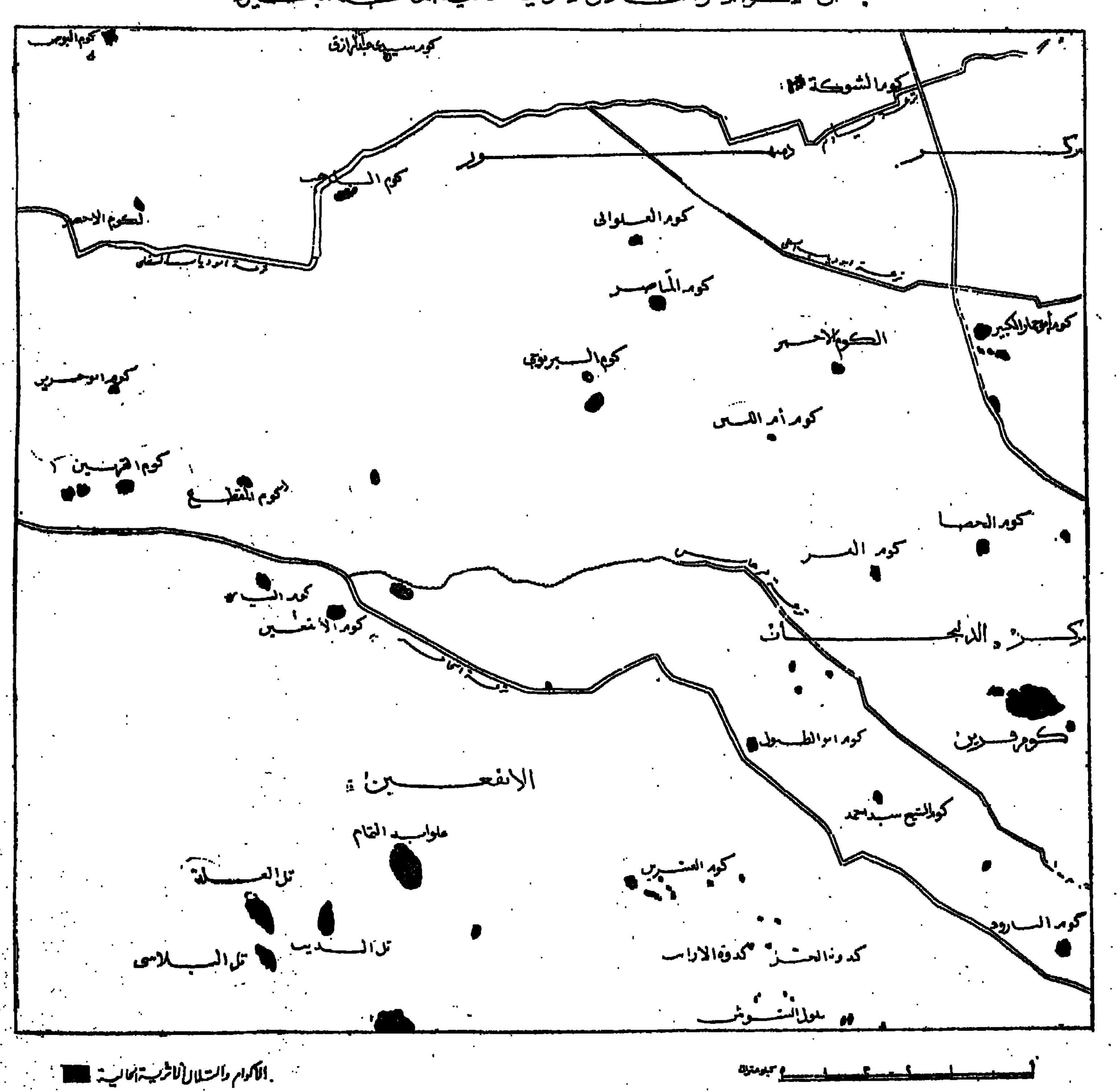
	اسم التل	المركز	التلال التى حدث بها حفائر	الآثار
٤٧	البقرة	حوش عيسى	—	به آثار يونانية رومانية
٤٨	القرنين	حوش عيسى	مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٤٩	الحربة	حوش عيسى	—	به آثار يونانية رومانية
٥٠	كوم الأخضر	حوش عيسى	—	به آثار يونانية رومانية
٥١	تلال أبو المطامير	أبو المطامير	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٥٢	كوم تروجى	أبو المطامير	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٥٣	الساقية	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٥٤	قناص	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٥٥	رضوان	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٥٦	القدح	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٥٧	أبو العدا	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٥٨	أبو نعامة	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٥٩	أبو الجدور	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٦٠	سعدان	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٦١	أولاد الشيخ	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٦٢	كوم صوان	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية

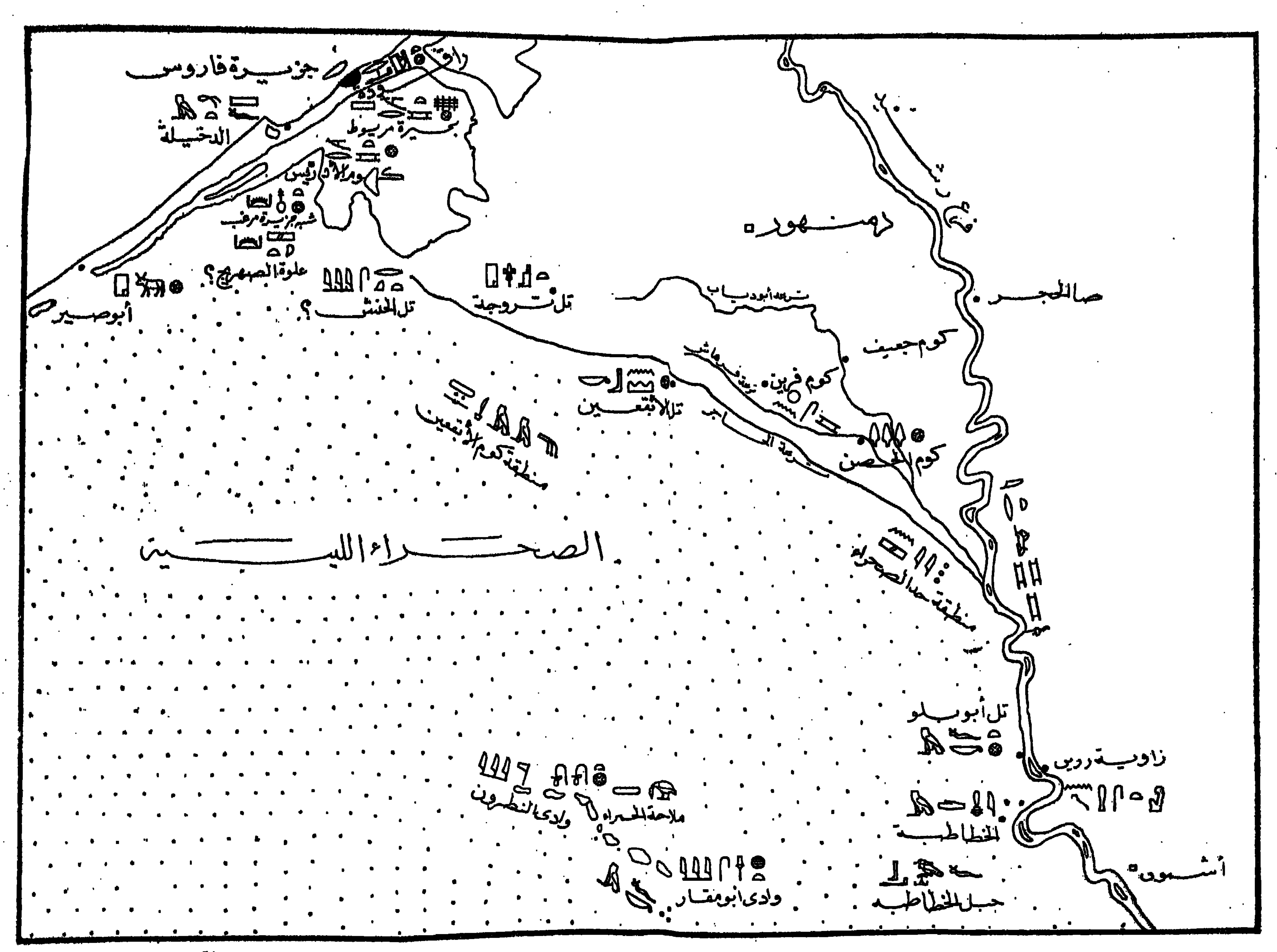
اسم التل	المركز	التلال التى حدث بها حفائر	الآثار
٦٣ الصعايدة	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٦٤ كوم الفرج	أبو المطامير	—	به آثار يونانية رومانية
٦٥ سيدى غازى	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٦٦ البركة	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٦٧ كوم القاضى	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٦٨ المحاير	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٦٩ الغاسولة	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٧٠ كدوة عبده باشا	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٧١ الخنفس	كفر الداور	—	به آثار يونانية رومانية
٧٢ كوم لسان	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٧٣ كوم الحاج	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٧٤ طرفاية	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٧٥ كوم الجيزة	كفر الدوار	—	به آثار يونانية رومانية
٧٦ كوم الحمام	كفر الدوار	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٧٧ عابورة	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٧٨ النخلة	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية

	اسم التل	المركز	التلال التي حدث بها حفائر	الآثار
٧٩	كوم هاشم	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٠	كوم عزيزة (١)	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨١	كوم عزيزة (٢)	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٢	كوم الضباع (١)	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٣	كوم الضباع (٢)	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٤	كوم صهيب	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٥	كوم أبو اسماعيل	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٦	كوم أبو خليفة	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٧	كوم القناطر	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٨	كوم رزق	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٨٩	كوم صوان	أبوحمص	—	به آثار يونانية رومانية
٩٠	كوم بكرج	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٩١	كوم شرعان	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٩٢	كوم الأحد	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٩٣	كوم القرية	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٩٤	كوم مشيلمة	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية

	اسم التل	المركز	التلال التي حدث بها حفائر	الآثار
٩٥	كوم النقوة	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٩٦	كوم كدوة البنات	أبو حمص	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٩٧	كوم البقر	أبو حمص	—	به آثار يونانية رومانية
٩٨	كوم الرزقة	أبو حمص	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
٩٩	منطقة الأمراء	كفر الدوار	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
١٠٠	منطقة أبو قير	المنتزة	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
١٠١	منطقة طابية الرمل	المنتزة	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية
١٠٢	منطقة المعمورة	المنتزة	حفائر مصلحة الآثار	به آثار يونانية رومانية


El Essed
(-1000)
(-500)
Port Adda
Fort
Baie d'Anfouchy
BASSIN EXTÉRIEUR
GRAND PORT OCCIDENTAL ANTIQUE
El Dublan
Ras el Tin
Palais de Ras el Tin
Grand Phare de Ras el Tin
(-300)
(-500)
(-500)
(-300)
(-300)
Bassin de l'Arsenal
Brise Lames
العمائر القديمة (الأرصفة)
١٥٠٠ مترا
١٠٠٠
٥٠٠


بعض الأكوام والتلال الأثرية الحالية بمحافظة البحيرة
مركز دمنهور
مركز الدلنجات
كيلومترات
الأكوام والتلال الأثرية الحالية



جزيرة فاروس
الدخيلة
بحيرة مريوط
شبه جزيرة مرغب
علوة الصهريج ؟
أبوصير
تل الخنش ؟
تل تروجة
دمنهور
صا الحجر
كوم جعيف
كوم فرين
كوم الحصن
تل الأبقعين
منطقة كوم الأبقعين
الصحراء الليبية
منطقة حد الصحراء
تل أبو بللو
زاوية رزين
الخطاطبة
أشمون
جبل الخطاطبة
ملاحة الحمراء
وادى النطرون
وادى أبو مقار

مجتمع الاسكندرية فى العصر البطلمى

مصريون واغريق

للدكتور مصطفى العبادى

مازالت أهمية موقع مدينة الاسكندرية فى العصر الفرعونى — قبل الاسكندر الأكبر — من مشاكل التاريخ التى تحتاج لمزيد من الدراسة الدقيقة . وهناك من الأدلة التاريخية ما يشير إلى أن الموقع كانت له أهميته بالنسبة لمصر الفرعونية ، وأقدم من يحدثنا عن هذا الموقع فى شىء من الثقة هو استرابون ، (١) فيقول : «ان ملوك المصريين الأوائل — نظراً لأنهم كانوا سعداء بما لديهم ، ومستغنين عن استيراد السلع ، ولعدم ثقتهم فى كل من ركبوا البحر وخاصة الأغريق ، الذين — بسبب ندرة الأرض عندهم — كانوا يغيرون ويطمعون فى أرض غيرهم ، أقام (هؤلاء الملوك) حامية عسكرية فى هذا المكان ، وكلفوها برد المغيرين . ومنحوهم موطناً لهم الموقع الذى يسمى راكوتس ، وهى التى تحتل الآن ذلك الجزء من الاسكندرية الذى يقع أعلى (جنوبى) الميناء ، وكانت فى ذلك الوقت قرية . ومنحوا الأرض حول القرية للرعاة — وهم قوم أشداء ليصدوا المعتدين المغيرين» .

يتضح من هذا النص أن موقع الاسكندرية القديم كانت له أهمية عسكرية على الأقل زمن المصريين القدماء ، وان حامية عسكرية اقيمت فى مكان مناسب من قرية راقودة ، ولابد أن هذا المكان المناسب كان

---

(١) استرابون ١٧ ، ١ ، ٦ . أقام استرابون بالاسكندرية بين ٢٥ — ٢٠ ق.م ، ولابد أنه اعتمد على مصادر أكثر قدما ، لم تصل الينا .

الربوة التى صبح يطلق عليها اسم السرابيوم فيما بعد . فالمصادر القديمة تتحدث عن السرابيوم على أنه قلعة (Acroplis) (٢) .

ويحدثنا نص آخر — أقل قيمة من حيث سنده التاريخى (٣) — من أن هذا الموقع — قبل الاسكندرية — كانت تزوده بالمياه العذبة قناة تمتد غرباً من الفرع الكانوبى للنيل عند موقع يقال له شديا (Schedia أى المعدية) ، وان موقع الاسكندرية كانت تنتشر فيه ست عشرة قرية — راكوتى احداها ، وان هذه القرى كانت تصلها بالقناة الكبرى اثنتا عشرة قناة فرعية . فاذا سلمنا بأن هذا القول يتضمن أساساً من الحقيقة ، تبين لنا أن قرية راقودة المصرية لم تكن معزولة بمفردها فى هذا الموقع ، وان هذه المنطقة المحصورة بين بحيرة مريوط وساحل البحر كان ينتشر فيها عدد غير قليل من القرى المصرية .

ولكن لماذا اختار الاسكندر موقع راقودة بالذات ليؤسس عنده مدينته ؟ لابد أولا انها كانت أكبر وأهم القرى جميعاً ، وهى القرية الوحيدة التى حفظ لنا التاريخ اسمها ، ويبدو أنها كانت منتشرة إلى ساحل البحر حتى ان استرابون أطلق عليها اسم مدينة ، فيقول : «ولكن الاسكندر عندما زار المكان قرر تحصين المدينة التى عند الميناء» . (٤) . وإذا اضفنا إلى موقعها عند ربوة مرتفعة اقامت عليها حامية عسكرية ، انها واجهت فى البحر جزيرة قريبة من الساحل هى جزيرة فاروس ، ادركنا ما جال فى عقل الاسكندر من امكان الوصل بين الجزيرة والساحل بواسطة جسر كبير (Heptastadium) تمتد عليه قناة لتوصيل الماء العذب إلى الجزيرة بعد استيطانها واستغلالها . وبذلك أمكن إنشاء مينائين كبيرين ، احداهما الميناء

(٢) بو ليبيوس ٥ ، ٣٩ ؛ اكونيوس (نشر ، فى (Botti, La Colonne Theodisienne, p. 23.

(٣) سيرة الاسكندر الأكبر ، المنسوبة لكاليستنيس Ps. Callisthes,i,31,2 - 5

(٤) استرابون ١٧ ، ١ ، ٦ .

الشرقية الرئيسية قديما والميناء الغربية الحالية التى أطلق عليها « العود الحميد » Eunostos (٥)

ويمكننا أن نتساءل : هل كانت فكرة انشاء ميناء فى هذا المكان جديدة فى جملتها ، وأن الاسكندر هو صاحبها ؟ فلقد عثر على ارصفة ضخمة ممتدة تحت سطح البحر أمام ساحل جزيرة فاروس الشمالى . ونظراً لضخامة حجم حجارتها اقترح مكتشفها جونديه انها تحصينات مصرية قديمة ترجع إلى زمن رمسيس الثانى (٦) فى حين اقترح آخر أنها جزء من أعمال امبراطورية الكريتيين فى منتصف الألف الثانى ق. م (٧) ، واعتقد غيرهما أنها جميعا من أعمال البطالمة (٨) . يتضح من هذا التباين الشديد فى الآراء أن معلوماتنا عن هذه الارصفة لاتتعدى مجرد وجودها وانها ضخمة الحجم . ولكن نظراً لأن جزيرة فاروس كانت معروفة لدى الأغريق منذ زمن هوميروس (٩) أى قبل الاسكندر الأكبر بخمسة قرون على الأقل ، فمن المحتمل انها كانت محطة على طريق الملاحة الرئيسية بين اليونان وميناء كانوب (أبى قير) ، عند مدخل الفرع الكانوبى ، الذى يحدثنا هيرودوت بأن الملوك المصريين ألزموا تجار الأغريق بالاتجاه اليه(١٠) .

ولنا أن نسأل الآن ماذا فعل الأسكندر بهذا الموقع ولماذا أسس عنده

---

(٥) المصدر السابق .

(٦) G. Jondet, Les Ports submergés de l'ancienne Ile de Pharos, Memoires présentes à l'Instiut Egyptien, vol. IX. (1961).

(٧) R. Weill, Les Ports antehelleniques de la côte d'Alexa ndrie, et l'empire Cretois, BIFAO, XVI (1919)

(٨) F. Petrie, apud Ed. Bevan, Ptolemaic Egypt, p. 7, n.l.

(٩) هوميروس ، أوديسيا ، ٤ ، ٣٥٤ .

(١٠) هيرودوت ، ٢ ، ١٧٩ .

أهلد أعماله جميعا وهى مدينة الاسكندرية ؟ تتفق المصادر القديمة على أن الاسكندر مر بهذا الموقع أثناء رحلته إلى واحة سيوه وأنه لحظ أهميته وأعجب به فأمر بتأسيس مدينة تحمل اسمه هناك ، وأنه أمر المهندس دينقراطيس بتخطيط المدينة ، وأنه رأى التخطيط بنفسه على الطبيعة وأقره ، ثم كلف كليومينيس وزير ماليته فى مصر بالاشراف على تشييد المدينة الجديدة (١١) . ثم رحل الاسكندر بعد ذلك ليستأنف حربه ضد الملك الفارسى ، ولم يعد ثانية إلى مدينته الا بعد موته ، حين استقر جثمانه بها فى مقبرة رائعة كانت محجة القاصدين والزائرين طيلة العصر البطلمى والرومانى (١٢) .

من هذه البداية البسيطة السريعة ، نمت الاسكندرية نموا هائلا قليل الحدوث ، فأصبحت طيلة الألف سنة التالية عاصمة لمصر ومركزا لحامية عسكرية وأهم ميناء فى البحر المتوسط ومن أشهر المراكز الحضارية فى العالم القديم ، ومن أكثر مدنه سكانا . هذه هى المعالم الرئيسية التى أثرت فى نمو مدينة الاسكندرية وتكوين سكانها . وما من شك أن هذه المعالم استغرقت زمنا طويلا لا يقل عن مائة سنة حتى استكملت ملامحها النهائية . ولكن يجب علينا ان نبدأ بالاسكندر لنرى كيف بذرت البذرة وكيف تعهدت فى مراحلها الأولى ، بحيث أمكن أن تنمو وتورق وتثمر بعد ذلك على نحو ما هو معروف فى التاريخ .

كانت خطة الاسكندر فى تأسيس المدن — وقد كان مؤسساً للمدن — واضحة بسيطة . وهى اقامة حامية مقدونية مع جماعة من الأهالى المحليين (١٣) وما من شك ان هذين الركنين من الخطة توافرا فى تأسيس الاسكندرية ،

---

(١١) ديو دور الصقلى ١٧ — ٥٢ — ١ استرابون ١٧—١— ٦، بلوتارخ . الاسكندر ٢٦ ، أريانوس ، ٣ — ١ — ٥ ، كوينتوس كورتيوس ٤ — ٨ — ٥ ، يوستينوس ١١ — ١١ — ١٣ .

(١٢) استرابون ١٧ — ١— ٨ .

(١٣) A.H. M. Jones, The Greek City, pp. 2 ff.

فبمجرد ما أقر تخطيط المدينة وأمر بانشائها أقام بها حامية مقدونية (١٤) .
أما بالنسبة للمصريين فقد أبقى على أهل راقودة وأضاف اليهم آخرين من سكان القرى والمدن الأخرى المجاورة (١٥) . ولكن نظراً لقصر مدة اقامة الاسكندر في مصر . فلعل تلك كانت رغبته وكلف كليومينيس بتنفيذها لأننا نرى كليومينيس بعد ذلك يقوم بعملية نقل أهالي كانوب إلى الاسكندرية (١٦)
ويمكننا ان نضيف إلى هذين العنصرين من السكان الأوائل اعداداً من الأغريق سواء من الجنود المرتزقة في جيش الاسكندر أو ممن كانوا قد استقروا في مصر من قبل في ممفيس أو من تجار مدينة نقراطس . وهؤلاء هم الذين استخدمهم كليومينيس في شبكته العالمية من التجار والسماسرة (١٧)
وقد يتضح من النشاط التجاري الكبير الذي ارتبط بشخصية كليومينيس أن الطابع التجاري للمدينة وجعلها ميناء كبرى ارتبط أيضاً بتخطيط المدينة الأول ، وأن اهتمام الاسكندر ببناء الجسر (Heptastadium) بين جزيرة فاروس والساحل وبناء الميناءين كان لهذا الغرض (١٨) . إلى هنا نجد أن خطة الاسكندر في تأسيس المدينة وأهدافه منها واضحة وانها طبقت بوضوح ونجاح أيضاً . وليس هناك خلاف بشأنه . ولكن طابعاً آخر أساسياً من شخصية المدينة لايبدو بمثل هذا الوضوح . وهو اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر ، متى حدث؟ وهل ارتبط بخطة تأسيسها الأولى ؟
ومن الغريب ان الكتاب القدماء لم يروا فيه غموضاً ولم يختلفوا بشأنه ، ولهذا قلما ذكروه . ولكن الخلاف نشأ بين المؤرخين الحديثين ، حين رأى كورنمان رابطة منطقية بين توقيت دفن جثمان اسكندر الأكبر في مدينة

---

(١٤) يوستينوس ١١ — ١١ — ١٣ .
(١٥) كورتيوس ٤ — ٨ — ٥ .
(١٦) كتاب الاقتصاد المنسوب لأرسطو جـ ٢ — ٣٣ .
(١٧) أنظر الكاتب « كليومينيس وسياسته المالية » مجلة كلية الآداب — اسكندرية ١٧ (١٩٦٤) ص ٦٥ — ٨٥ .
(١٨) استرابون ١٧ — ١ — ٦ .

الاسكندرية وبين اتخاذها عاصمة لمصر (١٩) ، ثم تبعه فى ذلك آخرون (٢٠) ولكن نظراً لاختلاف مصادرنا القديمة حول خط سير جثمان الاسكندر إلى مقره الأخير فى الاسكندرية وميعاده ، فمنهم من جعل بطلميوس الأول هو الذى يقوم بهذا العمل (٢١) ومنهم من نسبه إلى بطلميوس الثانى (٢٢) فقد اختلف العلماء الحديثون تبعاً لذلك حول توقيت اتخاذ الاسكندرية عاصمة . ويبدو ان منشأ الخطأ فى مثل هذا النوع من التفكير هو أنه ربط بين حادثتين مختلفتين ومستقلتين منطقاً وتاريخاً . ومن الطريف ان أحد كبار العلماء ممن أخذ بنظرية كورنمان فى أول الأمر وهو «هارولد ادريس بل» ، قد عدل من موقفه وقال فى شىء من التحذير « من المحتمل أن هذا الرأى فى حاجة إلى تعديل» (٢٣) وما من شاك ان بل كان محقاً فى تحذيره الذى لم يلق استجابة — فيما أعلم — حتى الآن .

فاذا نحن فصلنا بين الحادثتين — كما أقترح — وجدنا الأمر واضحاً ، لا لبس فيه ولا ابهام . وفى مثل هذه الأمور كثيراً ما يكون المصدر القديم أصح وأصدق من اجتهادات المحدثين التى تنطوى على كثير من الذكاء . فليس هناك مصدر واحد قديم يربط بين الحادثتين . على العكس من ذلك لدينا نص صريح لمؤرخ قديم ينص على أن الاسكندر عند «عودته من معبد

(١٩) Kornmann, Die Satrapen Politik des Eresten Lagiden, in Raccolta ... in onore d' Giacome Lumbrso, pp. 235—45

(٢٠) H.I. Bell, Alexandria, J.E.A. 13 (1927) p. 172; P. Jouguet, Trois Etudes, p. 5.
ابراهيم نصحى : مصرفى عصر البطالمة ج ١ ، ٦١ .

(٢١) ديو دور الصقلى ١٨ — ٢٦ — ٢٨ ، سيرة الإسكندر التى تنسب لكاليسثنيس ٣ — ٣٤ .

(٢٢) بوزنياس ١ — ٦ — ٣ ، ١ — ٧ — ١ ، أنظر استرابون ١٧ — ١ — ٨ . (Loeb, vol. 8, p. 35. n6)

(٢٣) H.I. Bell, Egypt from Alexander to Arab Con - quest, p.35.

الاله آمون أسس الاسكندرية وأمر بأن تكون مستعمرة مقدونية عاصمة لمصر» .

(Reversus ab Hammone Alexandream condidit et coloniam Macedonum caput esse Aegypti iubet.) (٢٤) .

هذه عبارة صريحة تجعل الاسكندر قد تصور وأراد الاسكندرية أن تكون عاصمة عند تأسيسها . ويبدو انها أخذت هذه الصفة منذ أيامها الأولى . فنجد ان كليومينيس و زيرمالية وحاكم مصر الفعلى زمن الاسكندر جعل مركزه الاسكندرية (٢٥) . ولكن رب قائل يقول ان الميناء الجديد كان انسب لنشاطه التجارى من العاصمة القديمة ممفيس وأنسب من المدينة اليونانية القديمة نقراطيس . ولكن هذا الاعتراض يسقط نهائياً حين نعلم ان دار السكة زمن الاسكندر انشئت فى الاسكندرية سنة ٣٢٦ ق . م (٢٦) وقياساً على ما هو مألوف وعلى ما حدث فعلا فى بابل زمن الاسكندر (٢٧) كانت دار السكة تقام فى العاصمة . ولا نعرف ان عملة الاسكندر صدرت أيضاً فى ممفيس . اعتقد ان هذه النقطة الأخيرة تثبت بما لا يدع مجالا للشك ان الاتجاه الرسمى نحو اتخاذ الاسكندرية عاصمة جديدة قد ارتبط بفكرة تأسيسها . ولكن ما من شك ان الانتقال الفعلى للادارة من ممفيس إلى الاسكندرية استغرق بعض الوقت ، ريثما يتم بناء المنشآت اللازمة فى المدينة الجديدة ، ريثما يتم تكوين الجهاز الادارى المركزى الجديد من عناصر اغريقية . ولا نعرف على وجه التحديد كم استغرق ذلك من زمن ولكن فى أول مناسبة نسمع فيها عن بطلميوس الأول من وثيقة مصرية معاصرة فى سنة ٣١١ ، نجد الكهنة المصريين يقولون انه «كان قد اتخذ مقامه فى قلعة الملك اسكندر » ، التى تسمى الاسكندرية على شاطىء البحر

(٢٤) يوستينوس ١١ — ١١ — ١٣ .

(٢٥) أنظر الكاتب مقالة « كليومينيس» سالفة الذكر .

(٢٦) C. Seltman, Greek Coins, p. 212.

(٢٧) ibid., p. 211.

الأيونى الكبير ، وكان اسمها من قبل راكوتى » . (٢٨) وبدراسة هذا النقش وتحليله أمكن ارجاع انتقال بطلميوس الأول إلى الاسكندرية إلى عام ٣٢٠ — ٣١٩ ق . م . على الأقل (٢٩) . ولا ينبغى أن يخفى عنا مقدار ما شعر به المصريون من مرارة وحزن لانتقال العاصمة والآلهة من ممفيس إلى الاسكندرية وقد لازمهم هذا الشعور طالما كانت الاسكندرية عاصمة ، ولم ينسوا أبداً اسمها القديم راكوتى .

بعد هذه المناقشة لنشأة المدينة وتأسيسها زمن الاسكندر الأكبر ، يجب أن ننتقل إلى صلب موضوعنا عن مجتمع الاسكندرية فى العصر البطلمى ذلك أن المدينة لم تبق على بساطتها الأولى طويلا ، وسرعان ما نمت وتطورت تحت رعاية البطالمة الأوائل واهتمامهم ، ونافست اثينا ذاتها . وأصبحت المدينة مقصد المهاجرين من كثير من شعوب العالم القديم ، ولكن الأغريق كانوا أكثر هؤلاء المهاجرين عدداً ، ونحن لا نعرف تفاصيل سياسة البطالمة لاستقدام مهاجرين من اليونان للعمل فى بناء الدولة الجديدة فى مجالات الجيش والادارة والاقتصاد . ومن المحتمل أن بطلميوس الأول لجأ إلى اتباع سياسة منظمة لاستيراد مواطنين من مدن يونانية معينة ، مثلما استورد انتجونوس اعداداً من الاثينيين والمقدونيين ليقيمهم فى مدينته الجديدة انتجونيا فى سوريا (٣٠) . ولكننا لانمتلك ما يفيد ان أحد البطالمة فعل ذلك . ومع ذلك فيبدو أن البطالمة لم يضطروا إلى أن يجهدوا أنفسهم كثيراً ليجتذبوا إلى مملكتهم الجديدة اعداداً كبيرة من الأغريق وغير الأغريق . فبالاضافة إلى الحامية العسكرية والجالية التى كان قد

---

(٢٨) هناك ترجمة كاملة للنص فى كتاب Ed. Bevan, Ptolemaic Dynasty, pp. 28 — 32. The original in K. S ethe, Hierogl. Urkunden, Griech — Rom, ii, pp. ii.

(٢٩) P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, p. 7, note 28.

(٣٠) Malalas, p. 201, ed. Bonn; cf. Jones, Cities of Eastern Roman Provinces, 2nd ed. (1971) p. 238, 448, n. 16; Greek City, p. 7.

تركها الاسكندر ، وما انضاف اليها من الأغريق المستقرين من قبلة فى مصر فلابد أن بطلميوس الأول — عندما عين ساترابا أو حاكماً لمصر — أحضر معه قوة عسكرية أيضاً . ولكن هذه الاعداد لم تكن تكفى حاجات انشاء الدولة الجديدة , ومن أجل تشجيع وتنظيم مزيد من هجرة الأغريق إلى مصر ، اتبع بطلميوس سياسة كانت معروفة فى مصر من قبل ؛ وهى منح الجنود قطعاً من الأرض تسمى Cleroi (٣١) ، يمكنهم أن يقيموا عليها ويستثمروها ، بدلا من نظام دفع الرواتب نقداً ، وهو ما لم يكن ممارساً فى ذلك الوقت . ومن دلائل تطبيق ونجاح هذه السياسة ما يرويه ديودور الصقلى ان بطلميوس الأول حين انتصر على ديمتريوس فى معركة غزة سنة ٣١٢ ق . م أسر من الجيش المنهزم ٨٠٠٠ جندى وأرسلهم إلى مصر وأمر بأن يوزعوا بين النومات (٣٢) . ولهذا كانت انتصارات بطلميوس الحربية تجلب له عدداً من الجنود المقدونيين والأغريق ، فى حين أن هزائمه لم تكن تفقده الكثير لأن جنوده كانوا يرفضون الانضواء تحت لواء خصمه ، وكانوا يحاولون الفرار إلى مصر حيث لهم أرض وأهل (٣٣) . على أى حال لم يجد بطلميوس مشقة فى الحصول على اعداد كبيرة من الأغريق ، فان اشتهار مصر بالغنى ، واشتهار بطلميوس بالكرم جعل جماعات كبيرة منهم تأتى إلى مصر (٣٤) . ويكفى ان نقرأ تلك الأبيات المشهورة لاحد شعراء القرن الثالث ق . م . وهو هيروداس Herodas ، لندرك شهرة مصر ومدينة الاسكندرية بالذات . فى هذه القصيدة ، التى تعتبر من نوع المنولوجات الاجتماعية الساخرة ، يحدثنا هيروداس عن امرأة رحل عنها زوجها (أو عشيقها) إلى مصر ، فقصدتها امرأة عجوز ، وأخذت تغريها بأن تحول عواطفها نحو شاب رياضى . ولكن المرأة تظل على وفائها ، وترفض اغراء العجوز بأسلوب مهذب رقيق . والذى يهمنا من هذه

---

(٣١) هيرودوت ٢ — ١٠٩ ١٦٨ .

(٣٢) ديو دور الصقلى ١٩ — ٨٥ — ٣ و ٤ .

(٣٣) ديودور الصقلى ٢٠ ٤٧ — ٣ و ٤ و ٢٠ ٧٥ — و ٢ ، ٢٠ — ٧٦ — ٧ .

(٣٤) Rostovzeff, Soc. Ec. Hist. Hell. World, I p. 409

القصيدة ، هو ما يذكره هيروداس على لسان المرأة العجوز من أن الزوج (أو العشيق) لن يلبث أن ينسى صاحبته بمجرد ما تطأ قدماه أرض مصر لكثرة ما فيها من مغريات : «فهناك فى مصر يوجد كل شيء وكل ما يمكن أن يوجد فى أى مكان آخر : ثراء ومعاهد الجمنازيوم وسلطان ورخاء ومجد ومسارح وفلاسفة وذهب وشباب ، ومعبد الأخ والأخت المؤلهين (Philadelphoi) ، الملك الكريم ، ومجمع العلماء ، والخمر ، وكل ما يشتهيه الفؤاد من طيبات الحياة ، ونساء أيضاً يفقن نجوم السماء عدداً ، وينافسن فى الحسن أولئك الربات اللائى احتكمن إلى باريس» (٣٥) .

يتضح من هذه الأبيات ان الشاعر هيروداس يتحدث عن مدينة الاسكندرية بالذات وانها قد بلغت فى القرن الثالث ق . م قمة فى الازدهار والثراء وانها قد أصبحت مقصد الطامحين من الشعوب الأجنبية فى الرفعة أو الشهرة أو المجد أو الثراء . فهناك ملك كريم ومجمع للعلماء ومكتبة كبرى ومعاهد وملاعب ومعابد ومسارح وشباب ونساء ونشاط جم فى كل مجالات الحياة . ولم يكن غريباً أن اجتذبت الأسكندرية منذ وقت مبكر عناصر من شعوب البحر الأبيض المختلفة . فوجدنا مجتمع الاسكندرية البطلمية يضم إلى جانب العنصرين الأساسيين من مصريين وأغريق يهوداً فى اعداد كبيرة وسوريين وجماعات من أسيا الصغرى مثل الفريجيين واللوكيين والكيليكيين ، ومن غرب البحر الأبيض رومانا وايطاليين وسيراكيوزيين وقرطاجيين أيضاً (٣٦) . وقد ظل هذا الطابع المختلط هو الصفة المميزة لمجتمع الأسكندرية طيلة العصرين البطلمي والروماني بعد ذلك .

وليس فى ميسورنا أن نخضع كل واحدة من هذه العناصر للدراسة

---

(٣٥) هيروداس ١ س ٢٣ وما يليه .

(٣٦) Fr. Heichelheim, Auswärtige Bevölkerung im Ptolemäer reich, Klio, Beiheft XVIII (1925) pp. 83 ff. ; Archiv Pap. 9 (1930) pp. 47 ff. 12 (1937) pp. 54 ff.; cf also SB 7169 (IIB.C.); Durrbach, Choix des Inscriptions de Delos, 107 (II B.C.)

التحليلية ولا أن نعرف نسبة تمثيلهم فى مجتمع الاسكندرية . فباستثناء المجموعات الكبرى مثل المصريين والأغريق واليهود، لا تكاد تذكر مصادرنا القديمة عن العناصر الأخرى شيئاً تفصيلياً يشفى حاجة الدارس . وسوف نركز حديثنا هذا على المصريين والاغريق ، ومما يشجعنا على ذلك ان هذين العنصرين كانا أكثر وضوحاً ، وأكثر تميزاً فى حياة المدينة . ويؤيد صحة هذا الانطباع ان المؤرخ بوليبيوس وصف لنا سكان الاسكندرية – كما رآهم فى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م – بهذه العبارة التى يغلب عليها طابع النقد والسخرية: «يسكن المدينة ثلاث طوائف : طائفة المصريين، من عنصر الأهالى الأصليين ، ويتصفون بحدة الطبع وعدم الاعتياد على الحياة المدنية ، وطائفة الجنود المرتزقة ، وتتصف بالعنف والضخامة وصعوبة الانقياد – فحسب تقليد قديم كانوا يتخذون من الأجانب جنوداً مسلحين، تعودوا أن يحكموا أكثر من أن يحكموا نظراً لتفاهة أشخاص الملوك – وثالثاً طائفة الاسكندريين ، وهى لم تألف الحياة المدنية المستقرة – للأسباب ذاتها ، ولكنهم مع ذلك أفضل من الآخرين . لأنهم رغم كونهم خليطاً من الناس فهم مع ذلك أغريق أصلا ، ولا زالوا يذكرون التقاليد المشتركة بين الاغريق » (٣٧) .

هذه العبارة – باعتبارها صادرة عن كاتب على جانب كبير من الثقافة والذكاء مثل بوليبيوس – لها دلالة خاصة . لأنها تثبت أن جميع العناصر الأجنبية فى الاسكندرية بما فيها اليهود قد انصهرت معاً واتخذت الطابع الأغريقى . فاذا استثنينا طائفة الجنود المرتزقة ، لم يكن الزائر للمدينة يميز فى شوارعها سوى طائفتين فقط، هما طائفةالمصريين وطائفة الأغريق، وذلك على أساس اختلاف اللغة والثياب . ولكن وهذا الوصف الذى يورده بوليبيوس – رغم طرافته – يظل وصفاً جزئياً ، لأنه لا يشتمل على تقسيمات أخرى نعرف ان سكان الاسكندرية كانوا ينقسمون اليها . ولمعرفة مزيد

---

(٣٧) هذه الفقرة لاتوجد فيما بقى من كتاب بوليبيوس ، ولكن أوردها استرابون ١٧ ، ١ ، ١٢ .

من التفصيلات عن عناصر سكان الاسكندرية وطريقة تنظيمهم يجب أن ترجع إلى الوثائق الرسمية البطلمية .

ذلك ان مدينة الاسكندرية كانت مدينة يونانية (Polis) ، وهناك من المعلومات ما يدل على أنها تمتعت بجميع نظم المدينة اليونانية : فكانت لها مواطنة (Politeia) خاصة بها ، يتمتع بها المواطنون فقط (٣٨) ، ولها قانون خاص (٣٩) ، وهيئةمن الموظفين أو الحكام المنتخبين بواسطةالمواطنين (٤٠) ، وكذلك مجلس تشريعي(Boulé) على الأرجح (٤١) ونظام المدينة يقوم أساساً على وجود المواطنة وهيئة المواطنين . ولذلك يجب أن نعرف هل اعتبر جميع سكان الاسكندرية مواطنين في المدينة . وقد يتبادر إلى الذهن بناء على عبارة بوليبيوس السابقة ان طائفة المصريين لم تكن ضمن هيئة المواطنين ، وان جميع العناصر المختلطة من أصل اغريقي كانت تكون هيئة المواطنين . ولكن عند مقارنة عبارة بوليبيوس بالوثائق الرسمية البطلمية من برديات ونقوش يتضح أن هذا التصور غير صحيح .

ولا يضاح هذه الحقيقة نقول ان وثائق العصر البطلمي تبين ان هيئة المواطنين كانوا منظمين — على أساس نظام مدينة أثينا — في قبائل (tribes=Phylae) وأحياء (تسمى demoi) هذه التقسيمات لم تكن خططاً أو أحياء طوبوغرافية ، ولكنها اتقسيمات ادارية أو وحدات سياسية (أشبه بالدوائر الانتخابية) ، كان للمواطنين فقط حق التسجيل فيها . وتعرف ان عدداً كبيراً من سكان المدينة لم يكونوا مواطنين ، ولذلك

---

(٣٨) M.A.H. el Abbadi, Alexandrian Citizenship, J. E.A., 48 (1962) pp. 106 ff.

(٣٩) P. Hal. I (second helf of III B.C.).

(٤٠) A.H.M. Jones, Cities of the Eastern Provinces, P. 302 f.

(٤١) H.A. Musurillo Acta Alexandrinorum, no. I p. 1ff and commentary pp. 83 ff. cf. the recent work of P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Oxford (1972).

لم يسجلوا فى سجلات القبائل واحيائها (الديمات) . ولدينا وثيقة على جانب كبير من الأهمية تظهر هذا الوضع وتكشف عن طريقة تنظيم البطالمة للاعداد الكبيرة المختلطة من سكان المدينة . وتتضمن هذه الوثيقة قراراً ملكياً (Prostagma) يحدد البيانات التى ينبغى اثباتها فى جميع الوثائق التى تقدم إلى محاكم الاسكندرية . وأهميتها الرئيسية لنا انها تلقى ضوءاً على طبقات السكان فى المدينة ، على النحو التالى :

ليثبت الجنود أسماءهم ومواطنهم الأصلية ، والوحدات العسكرية التى ينتمون لها ، والرتب العسكرية التى يحملونها . (ويثبت) المواطنون اسماء آبائهم واحيائهم (demoi) ، وإذا كانوا جنوداً ، (فليثبتوا) وحداتهم ورتبهم . (ويثبت) الآخرون اسماء ابائهم ومواطنهم الأصلية ونوع الحرفة التى يؤدونها (٤٢) .

لهذه الوثيقة أهمية خاصة ، فهى تدعم وتتفق مع عبارة بوليبيوس سالفة الذكر من ناحية ، وتزيد عليها تفصيلا . فهناك طائفة الجنود المرتزقة الذين جاءوا أصلا من مواطن مختلفة . ثم هناك جماعة المواطنين الذين كانوا جميعاً مسجلين فى أحياء (demoi) وبعضهم كان يشتغل بالجندية أيضاً . وأخيراً هناك «الآخرون» ، الذين لم يكونوا مصريين فقط ، ولكن شملوا عناصر أخرى من المهاجرين الأجانب ، ولذلك لزم ــ مثل الجنود المرتزقة أن يسجلوا مواطنهم الأصلية . ونظراً لأن هؤلاء «الآخرين» كانوا خارج التنظيم العسكرى للجيش وخارج التنظيم المدنى للمواطنين حسب احيائهم فقد طلب منهم اثبات حرفهم وصناعاتهم المسجلين للعمل فيها . ويبدو ان هذه الطريقة فى تنظيم الأهالى حسب أعمالهم كانت طريقة مصرية قديمة (٤٣) .

يتضح من هذا النص ان سكان المدينة لم يكونوا جميعاً مواطنين بها . ولدينا وثائق كثيرة أخرى تثبت ان كثيرين من الأغريق أنفسهم فى المدينة

---

(٤٢) P. Hamb. 168. (250 B.C. or earlier).

(٤٣) هيرودوت ٢ ، ١٦٤ .

كانوا غير مواطنين ، وانما كانوا رعايا الملك البطلمى مباشرة شأنهم فى ذلك شأن المصريين . ولكن النقطة الأخرى التى اختلف حولها العلماء كثيراً ولازالوا يختلفون ، هى هل كان جميع المواطنين فى الاسكندرية سواء من حيث الحالة المدنية ؟ ليس هنا مجال التعرض لهذا الموضوع بالتفصيل لتعقد طبيعته وشدة اختلاف الرأى بشأنه . ولكن يكفى أن أقول ان الاتجاه الغالب بين العلماء هو أن مواطنى الاسكندرية كانوا ينقسمون على الأقل إلى منزلتين أو طائفتين من حيث الحالة المدنية أو المركز القانونى ، أحداهما تشمل المواطنين كاملى الأهلية المدنية ، وهؤلاء كانوا مسجلين فى القبائل والأحياء (demoi) ، والطائفة الأخرى تشمل مواطنين أقل منزلة وغير مسجلين فى أحياء (demoi) ، وانما يطلق عليهم فقط اسم اسكندريين ولكن دراسة قمت بها لجميع المصادر القديمة الخاصة بهذا الموضوع اقتنعتنى أن هذا التقسيم فيه شىء من التعسف ، وليس هناك دليل قاطع على وجوده قديماً . وعلى ذلك فانى اعتقد ان جميع مواطنى الاسكندرية كانوا فى حالة مدنية واحدة ، ومركز قانونى واحد ، وانهم جميعاً كانوا مسجلين فى ديمات (demoi) (٤٤) ، ومما يطمئننى على صحة هذا الاستنتاج ان مزيداً من العلماء فى الخارج أصبحوا يميلون إلى الأخذ بهذا الرأى (٤٥) ، رغم ان هناك من لايزال يتمسك بوجهة النظر القديمة (٤٦) .

يتبين من ذلك ان مجتمع الاسكندرية القديمة كان مركب التكوين شديد الاختلاط من عناصر مختلفة ، وأن معلوماتنا عن بعض جوانبه لا زال يعتورها النقص وعدم الوضوح . وننتقل الآن للحديث عن أهم طائفتين فى المدينة ، وهما الاغريق والمصريون . ومن حسن الحظ أن لدينا قدرا من معلومات عنهما يساعد الباحث على الدراسة .

---

(٤٤) M.A.H. El Abbadi, Alexandrian Citizenship, J.E.A., 48 (1962) p. 101 ff.;

(٤٥) A.H.M. Jones, cities of the Eastern Roman provinces, 2nd. ed (1970) p. 474, note 8.

(٤٦) P.M. Fraser. Ptolemaic Alexandria, (1972) II. p. 130, n. 100.

ورغم ان الاسكندرية كانت مدينة يونانية ، أسست على النمط الأثيني ، وخططت حسب قواعد هندسة المدن الأغريقية كما عرفت فى القرن الرابع ق . م . وان الطابع الغالب على الحياة فيها هو الطابع الأغريقى ، فان مصادرنا تميز من بين جميع العناصر الأجنبية ، عنصراً واحداً نشعر أنه كان يتمتع بمنزلة ومكانة خاصة ، وذلك هو عنصر المقدونيين . فمن وجهة النظر الأغريقية لم يكن المقدونيون اغريقاً ، رغم انهم كانوا يسيرون نحو الاصطباغ بالصبغة الاغريقية بخطوات سريعة . ولكن نظراً لأنهم كانوا ينتمون إلى عنصر الاسكندر الأكبر أولا ثم الملك بطلميوس بعد ذلك ، ونظراً لأنهم كانوا يعتبرون أرقى وحدات الجيش وأهم عناصره ، فلم يكن غريباً ان شعروا بشيء من الاعتزاز والفخر بمكانتهم فى الجيش ويبدو فعلا ان الاسكندر ومن بعده بطلميوس أولوا العناصر المقدونية عناية واهتماماً خاصاً . وقد ذكرنا ان الاسكندر عند تأسيسه الاسكندرية جعلها مستعمرة مقدونية ، وأقام بها تبعاً للذلك حامية مقدونية (٤٧) . ولابد أن بطلميوس الأول قد أضاف اليهم قوة أخرى أحضرها معه من بابل عندما عين ساترابا على مصر عقب وفاة الاسكندر ، ومن المحتمل بعد ذلك ان بطلميوس قد حصل على عدد آخر منهم بعد انتصاره على برد يكاس (القائد العام بعد موت الاسكندر) حين حاول غزو مصر وتأديب بطلميوس سنة ٣٢١ ق . م (٤٨) . ولقد كان بطلميوس فى حاجة خاصة إلى هؤلاء المقدونيين لبناء جيشه الجديد فى مصر ، فهم جنود يعرف انه يستطيع أن يثق فيهم وأن يطمئن لولائهم فى تحقيق أهدافه السياسية فى مصر ، وفى مواجهة خصومه من القواد الآخرين ، خاصة بعد أن اثبت الجندى المقدونى تفوقه على الجندى الأغريقى تحت قيادة فيليب وابنه الاسكندر المقدونيين وقد اجزل بطلميوس لهم العطاء . ومنحهم كثيراً من الأرض ليستقروا عليها فى مصر فى زمن السلم (٤٩) ، ولكن ما من شك انه حرص على استبقاء

---

(٤٧) يوستينوس : ١١ ، ١١ ، ١٣ .

(٤٨) ديودور الصقلى : ١٨ ، ٣٣ ، ١ ومابعده ،

P. Cloché, Dislocation d'un Empire, pp. 70 ff.

(٤٩) M. Launey, Recherches sur Les Armées Hellenistiques, II, pp. 718 ff.

عدد كبير منهم فى الإسكندرية ليكونوا القوة الأساسية فى الحرس الملكى . ولقد استمر الوضع على هذه الحال فى عصر الملوك الثلاثة الأوائل من البطالمة ورغم أنهم لم يتلقوا اضافات جديدة من الدم المقدونى فى القرنين الآخرين من الدولة البطلمية ، إلا أن وحدات عسكرية ظلت تحمل اسم المقدونيين الى أن سقطت الدولة نهائياً والحقها أوغسطس بالدولة الرومانية . ويبدو أن هذه الوحدات احتفظت بالاسم فقط ، فى حين أن تكوينها أصبح من عناصر أخرى مختلفة .

لم يبق جميع المقدونيين جنوداً فقط ، وانما ظهروا فى أعمال مدنية أو حتى دينية أخرى ، فمنهم من كانوا كهنة (٥٠) ، ومنهم من شاركوا فى جوانب من النشاط المالى والتجارى (٥١) ، ومنهم أيضاً من دخل فى عداد مواطنى الاسكندرية وتولى المناصب المدنية الرفيعة فيها ، مثل منصب رئيس الجمنازيوم (٥٢) .

وما من شك ان صفة المقدونيين احتلت مكانة رفيعة فى الفترة الأولى من الحكم البطلمى ، وقد انعكس ذلك على مصادرنا بصورة واضحة . ففى القرن الثالث ق . م . كان المقدونيون من نفس عنصر الملوك ، وكونوا أهم وأقوى وحدات الجيش ، ونتيجة لذلك تمتعوا بوضع متميز على سائر الأغريق الآخرين . وقد اكسبهم ذلك أهمية سياسية عند تقرير خلافة العرش ومبايعة الملك الجديد (٥٣) . ولكن لا ينبغى أن نبالغ فى تقدير

---

(٥٠) O.G. I.S.733 = Breccia, Iscrizioni Gr. e Lat., no. 32 (after 186 B.C.)

(٥١) SB. III. 7169, Alexandria (mid. II B.C.); B.G.U. IV. 1052. 3(14 - 13 B.C.)

(٥٢) S.E.G. II. no. 864, Tell Timae (Lower Delta) (early Prolemaic).

(٥٣) يبدو ذلك واضحاً عقب مقتل برديكاس (٣٢١ ق. م. (: ديو دور الصقلى ١٨ ، ٣٦ ، ٣ — ٧ ، أريانوس ، خلفاء الاسكندر ، ٢٨ — ٣٠ . كورنيليوس نيبوس ، ٥ ، وعند اختيار بطلميوس الأول لخليفته : يوستينوس ١٦ ، ٢٧ ، اثينايوس ٥ ، ١٩٦ ومابعده .

هذه الأهمية ونظن أن المقدونيين أو الجيش كان مصدر السلطة فى الدولة (٥٤) ، لأن الملك البطلمى — شأنه فى ذلك شأن ملوك العصر الهلينستى — كان مصدر السلطات . ولكن الملك كان بطبيعة الحال حريصاً على ضمان تأييد الجنود له فى أمر هام مثل خلافة العرش . وفى مثل هذه الظروف كان لرأى الجنود المقدونيين أهمية خاصة (٥٥) . ويبدو أنه كان لهؤلاء الجنود المقدونيين تنظيم خاص بهم ، يمكنهم من الاجتماع فى « جمعية عمومية » (Politeuma) (٥٦) . وقد بقى لهذا التنظيم أهميته وتأثيره السياسى ، طالما كان العنصر المقدونى الأصلى قوياً فى الجيش . ولكن مع نهاية القرن الثالث وطيلة القرنين الثانى والأول ق . م . نجد ان المقدونيين الجدد يصفون انفسهم فى المصادر بأنهم « من السلالة » (tes epigones) أى أنهم ليسوا من مقدونيا مباشرة ، ولكنهم ولدوا فى مصر من سلالة المهاجرين المقدونيين الأصليين (٥٧). وكثير من أبناء هذه السلالة لم يجر فى عروقهم دم مقدونى خالص ، بل كانوا نتيجة زواج مختلط ، ولكنهم خلفوا أباءهم فى وحدات الجيش المقدونية واحتفظوا لأنفسهم بذلك بصفة المقدونية . وكانت تلك هى أولى خطوات التحول فى تكوين المقدونيين . ولكن سرعان ما تناقص اعداد المقدونيين بعد ذلك لعدم امكان الحصول على مهاجرين جدد ، ولم يعد الأفراد من أبناء سلالتهم يكفون لتعويض النقص . فلجأ الملك البطلمى فى اثناء القرن الثانى إلى أن يلحق بوحدات المقدونيين ابناء الجنسيات الأخرى . فنجد مثلا جندياً فى الجيش البطلمى يحمل لقب فارسى (Perses) فى سنة ١١٢ ق . م ، وإذا به فى سنة ١٠٨

---

(٥٤) كما اعتقد P. Jouguet, les Assemblées d'Aexalndrie, BSAA (1948) p. 80

(٥٥) كما يتضح عقب مقتل برد يكاس ، كما سبقت الإشاره فى رقم ٥٣ .

(٥٦) العباره الكاملة

ديودور الصقلى ١٨، ٣٩، ٤، ١٩ ، ١٥، ١، ١٩، ١٦، ١ ، ١٩، ١، ٥١، ١ ، راجع أيضاً Jonguet, loc. cit. p. 82.

(٥٧) أنظر القوائم باسمائهم فى Lesquier, Instittions Militaires des Lagides, 110.

ق . م يتخذ لقب مقدونى (Macedôn) ونظراً لأهمية وحدات المقدونيين في الجيش البطلمى أصلا ، فقد يتبادر إلى الذهن ان هذا التحول من لقب فارسى إلى لقب مقدونى ارتبط بترقية هذا الجندى (٥٨) . ورغم امكان حدوث ذلك أحياناً ، فيجب أن تنتبه إلى أن ذلك لم يكن قاعدة ، ولا ينبغى أن نظن ان صفة «المقدونى» كانت دائماً تعنى أرقى مراحل الجندية طيلة العصر البطلمى . ولدينا حالة أخرى من منتصف القرن الثانى ق . م . تثبت عكس ذلك ، فنجد واحداً من فرق الحراسة أو الشرطة (ephodoi) يحمل لقب مقدونى (Makedôn) ثم نجده بعد ذلك يلتحق بمنظمة الكريتيين عند ترقيته فى فرق الفرسان (Katoikos) Politeuma) Hippeus) (٥٩) . يتضح من هذه الأمثلة أن الوحدات والمنظمات العسكرية التى كانت تقوم أصلا على أساس التكوين العنصرى لأفرادها ، فقط (٦٠) . ونتيجة لذلك يمكننا أن نقول انه كان للمقدونيين نفوذهم عندما كانوا يكونون عماد الجيش البطلمى فى القرن الثالث . ولكنهم بعد ذلك فى القرن الثانى فقدوا هذه الميزة ، وهو تحول لم يقتصر على المقدونيين بل كان مصير كل العناصر الأغريقية والأجنبية الأخرى فى مصر .

وننتقل الآن للحديث عن هذه العناصر الأغريقية التى كونت أكبر جالية أجنبية بالمدينة . بعض هؤلاء الأغريق كانوا قد استقروا فى مصر من قبل فى نوقراطيس أو فى منف ، ولكن العدد الأكبر منهم جاء فى أعقاب فتوح الاسكندر واستجابه لتشجيع البطالمة الأوائل . جاء هؤلاء المهاجرون إلى مصر سعياً وراء الثراء ، وكثير منهم جاء ليحصل على الثروة عن طريق الارتزاق بالجندية ، ولكن اعداداً كبيرة وجدت طريقها

---

(٥٨) أورد هذه الحالة وفسرها بالترقية M. Launey, op. cit., p. 326.

(٥٩) P. Tebt. 32; and 30, ee. 15 — 16

(٦٠) تستمر هذه الظاهرة حتى سقوط دولة البطالمة كما يتضح من
B.G.U. IV. nos. 1133 (16 — 14 B.C) and 1151, (13—12 B.C.)

إلى الارتزاق عن طريق القيام بشتى أنواع العمل والنشاط الأخرى في المدينة ، فهم رجال الحاشية الملكية والقصر والموظفون ورجال الفنون والآداب والعلم ، ورجال التجارة والصناعة وأصحاب السفن ، وكثير من هؤلاء أصبحوا تدريجياً أصحاب أرض منحها لهم الملك أو اشتروها بما اكتسبوا من مال .

ومن العسير علينا ان نحدد المدن اليونانية التي صدرت ابناءها إلى الاسكندرية ، فليس لدينا احصاءات كافية لذلك (٦١) ، ولكن يكفي أن نقول ان أكثر من أربعين مدينة يونانية كانت ممثلة في الاسكندرية ويأتي على رأسهم الاثينيون والأسبرطيون ، والأخيون والبيوتيون والبريتيون والقورينيون (إلى جانب المقدونيين الذين تحدثنا عنهم) . ورغم اشتراكهم جميعاً في الانتماء إلى العالم الهلليني ، فقد كانوا فيما بينهم يختلفون في اللهجة أو العادات أو الطباع . ويبدو انهم في بداية العصر البطلمي كانوا لايزالون يستطيعون أن يميزوا بعضهم من بعض حسب اختلاف لهجاتهم ، وربما حدثت بينهم مشاحنات ، وعصبيات ، كما يحدث أحياناً بين أبناء البيئات المختلفة .

ولقد سجل لنا الشاعر الاسكندرى القديم ثيوكريتوس صورة شاعرية لهذه الحساسية التي وجدت بين العناصر الأغريقية المختلفة في شوارع الاسكندرية ، وذلك في قصيدته المرحة المعروفة باسم «نساء من سيراكيوز» أو «نساء في عيد ادونيس» فهو يصور لنا إمرأتين من نساء الطبقة البورجوازية في المدينة ، هما «جورجوويراكسنوا» تخرجان مع الجماهير المزدحمة للاحتفال بعيد الإلة ادونيس الذى كان يقام في القصر الملكي . وينتهي بهما السير الشاق

---

(٦١) نجد في قوائم أسماء الأجانب بالاسكندرية أكثر من ٥٨ جنسية أجنبية ممثلة ، من بينها أكثر من أربعين جنسية تنتمي إلى مدن أغريقية ، راجع القوائم في أبحاث Heichelheim, Auswartige Bevölkerung im Ptolemaerreich, Klio, Beiheft, XVII (1925) 83 ff; Archiv Pap. 9 (1930) 47 ff.; and 12 (1937) 54 ff.

فى الزحام الشديد إلى القصر الملكى ، وتدخلان ابهاءه الفسيحة ، وإذا بهما تقفان فى دهشة واعجاب أمام لوحة من النسيج الدقيق تصور الطفل المقدس أدونيس وتعبران عن اعجابهما بهذا العمل الفنى الذى يكاد ينبض بالحياة ولكن المرأتين تفعلان ذلك فى ثرثرة ظاهرة يضيق بها من حولهما من المشاهدين فيصيح بهما أحدهم ساخراً بلهجتهما فى الكلام قائلا : «ياإلهى من أولئك النساء ، أرجوكما توقفا عن هذه الزقزقة المستمرة » . ثم يقول لمن حوله «ان زقزقتهما تكاد تهلكنى» . ولكن احدى المرأتين لا تسكت له ، وتنبرى قائلة : «ياللعجب ، ومن أين جاء لنا هذا الرجل . وما شأنك انت إذا كنا نتصايح أو نزقزق . اشتر عبيدك قبل أن تصدر أوامرك . وأعلم انك تخاطب امرأتين من سيراكيوز ، وإذا شئت ان تعرف أكثر من ذلك فنحن من أصل كورنثى مثل بلبروفون ذاته ، ونحن نتحدث اللهجة الكورنثية ، وأظن أنه يحق للدوريين أن يتحدثوا باللهجة الدورية ، أليس كذلك ؟ بحق الإلهة برسيفونى ، لا تجعل لنا سادة أخرين فوق ذلك الذى عندنا فى البيت ، وسوف أفعل ما أشاء ، ووفر عليك هذا العناء» (٦٢) .

ولكن هذا التباين بين اللهجات لم يستمر بين الأغريق فى الاسكندرية ، بل نشأ عن اختلاطهم وامتزاجهم بالزواج لهجة موحدة . وحدث بمرور الزمن أيضاً ان اتخذ كثيرون من غير الأغريق اسماء يونانية ، ولذلك أصبح الاسم اليونانى ابتداء من منتصف القرن الثانى ق . م . لا يعتبر دليلا كافياً على اثبات ان صاحبه منحدر من أصل أغريقى .

ولكن الأغريق الذين استقروا بالاسكندرية لم يكونوا جميعاً — كما ذكرنا من قبل — مواطنين اسكندريين . ومن العسير علينا أن نحدد النسبة العددية بين المواطنين وغير المواطنين . وإذا كان للمواطنين مواطنتهم ونظامهم ، فكيف كان الوضع بالنسبة للآخرين . فى الواقع ان الأغريق كانوا قد ألفوا فى بلادهم نظام المدينة اليونانية بحيث كان من العسير عليهم — حتى فى

(٦٢) ثيوكريتوس ، قصيدة ١٥ ، ص ٨٧ وما بعده .

المهجر — ان يعيشوا بغير نظام المدينة . وقد فعلوا ذلك فى المستعمرات التى أقاموها لأنفسهم فى جميع هجراتهم السابقة إلى شواطىء البحرين الأسود والأبيض . أما فى مصر فلم يشجع الملك البطلمى هذا الاتجاه ، لأن نظام المدينة وما يتبعه من الاستقلال الذاتى على الأقل كان يتعارض مع مبدأ الحكم المطلق الذى أقامه البطالمة فى مصر . ولكن ارضاء لشعور الأغريق القوى بالانتماء الاجتماعى ، سمح لهم الملك البطلمى بتكوين اتحادات أو منظمات تسمى Politeuma ، تضم كل واحدة منها ابناء الموطن الأغريقى الواحد . على نحو يشبه ما حدث بالنسبة للمقدونيين . فأصبح هناك مثلا بوليتيو للكريتيين وبوليتيوما للبيوتيين ، كما منح بعض العناصر من غير الأغريق مثل اليهود أو من كانوا قد تأغرقوا من سكان اسيا الصغرى حق تكوين بوليتيوما .

والبوليتيوما هيئة مستقلة ذات تنظيم خاص يغلب عليه الطابع العسكرى ولكن كان لها ايضاً أوجه نشاط أخرى اجتماعية ودينية . وما من شك أنها كانت خاضعة للملك مباشرة ، فمن المرجح أن السبب فى انشائها هو أن تضم كل بوليتيوما مجموعة الجنود المرتزقة الذين من موطن واحد أصلا ، بحيث يمكن تنظيمهم فى وقت السلم حين ينتشرون فى الريف ويستقرون فى مزارعهم ، ليسهل حصرهم واستدعاؤهم بسرعة عند الحاجة . وإذا كانت كل بوليتيوما فى أول الأمر قاصرة على ابناء موطن واحد ، فانها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن ، وكما حدث فى رابطة المقدونيين كذلك أصبحت بوليتيومات الأغريق منذ منتصف القرن الثانى ق . م . تضم أفراداً من مواطن مختلفة (٦٣) .

وأخيراً ننتقل إلى الحديث عن المصريين فى الاسكندرية البطلمية . وهم — كما سبق أن بينا — أقدم السكان فى ذلك الموقع ، وأصبحوا بعد تأسيس المدينة أكثر العناصر عدداً . ولكن الواضح منذ البداية أنهم كانوا

---

(٦٣) أنظر الكاتب : مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ص ١١١ — ١١٢ .

يمثلون الطبقة الأقل اجتماعياً ، أمام الأغريق الذين كان يمثلون الطبقة الأرقى.
وقد نظم المصريون فى الاسكندرية — كما حدث خارجها — حسب أعمالهم وحرفهم . ويظهر المصريون فى بعض مجالات العمل على نحو أوضح من أخرى . فمنهم الكهنة ، أما الأكثرية فكانت تمد المدينة بما تحتاج اليه من الأيدى العاملة . ففى مجال العبادة وخدمة المعابد نجد فى نقش من الاسكندرية ذكر أربعة من المصريين باعتبارهم اعضاء فى مجمع الكهنة الملكيين (Basilistai) الذين يشرفون على العبادة الملكية والآلهة الأخرى (٦٤) . ونظراً لأن أعمال التحنيط كانت من اختصاص الكهنة المصريين ، فقد إستمروا يمارسون هذه الأعمال فى الاسكندرية البطلمية (hoi ap' Alexandreias stolistai) » (٦٥) . أما فى مجال الحرف والصناعات فرغم ندرة معلوماتنا بشأن العاملين فيها فى العصر البطلمى ، فهناك دليل كاف للاشارة إلى أن المصريين كونوا الكثرة الغالبية من الأيدى العاملة فى المدينة ، خاصة وان الصناعة فى مصر تعتمد أساساً على العامل الحر وليس على العبيد كما كان الحال فى اليونان وروما (٦٦) . فى الواقع أن فرص العمل الكثيرة المتوفرة فى تلك المدينة المزدهرة أغرت كثيراً من المصريين أيضاً بترك الريف والانتقال اليها . وفى فترات المحن والأزمات فر الفلاحون من قراهم واختبأوا فى أحراش شمال الدلتا أو إلى المدن الكبرى المزدحمة وخاصة الاسكندرية . هذه الظاهرة تكرر حدوثها بشكل قوى فى العصر الرومانى ، ولكن يبدو أن لها جذوراً بطلمية أيضاً ، لأننا نجد الملك بطلميوس الثامن (يوارجيتس الثانى) يعلن فى سنة ١١٨ ق . م . عفواً شاملا عن أولئك الذين هربوا من قراهم لأى سبب كان ويدعوهم إلى العودة ثانية واستئناف أعمالهم السابقة (٦٧) .

---

(٦٤) O.G.I.S. 131, Alexandria (II B.C.)

(٦٥) SB 5216 (I.B.C.)

(٦٦) O.G.I.S. 729 = Breccia, Iscrizione, 23 (221 — 203B. C also cf. my article "Aspects of Working Conditions", in Archaeol & Hist. stud. (published by Arch. Soc. Alex. 1971) no. 4, pp. 81 ff.

(٦٧) P. Tebt. I. 5, ff, 6 — 9 (118 B.C.)

ولكن ثمة مجالا آخر عمل فيه المصريون أكثر أهمية بالنسبة لوضعهم الاجتماعى وأبعد أثراً فى مستقبل الدولة البطلمية كلها ، هو استخدامهم جنوداً فى الجيش . لقد ذكرنا من قبل ان البطالمة الأوائل تجنبوا تجنيد المصريين واعتمدوا على استقدام المقدونيين والأغريق لبناء جيشهم . واستمروا يفعلون ذلك لمدة قرن من الزمان ، طالما كان فى استطاعتهم استيراد الجنود المرتزقة من العالم اليونانى . ولكن بعد مائة سنة نضب معين اليونان ولم يعد البطالمة قادرين على استيراد اعداد كافية من هؤلاء الجنود . فاضطر بطلميوس الرابع ان يتجه إلى المصريين ، فجند منهم نحوا من عشرين ألف ، وذلك عندما هدد دولته الملك السليوقى الحاكم فى سوريا . وكانت المعركة الحاسمة عند مدينة رفح سنة ٨ — ٢١٧ ق . م وفى هذه المعركة حدث أمر أثار دهشة الجميع ، فرغم ان جناح الملك نفسه وقواته من الأغريق تصدع أمام هجمات العدو فى بداية المعركة ولاذت بالفرار ، وجدنا ان الجناح المصرى يثبت فى مكانه ويغير وجه المعركة من هزيمة محققة إلى انتصار باهر . كان لتجنيد المصريين وانتصارهم فى معركة رفح آثار وردود فعل بعيدة ، سياسياً واجتماعياً ومادياً . ولكن لعل آثارها الأدبية والمعنوية بالنسبة للمصريين كانت اخطرها جميعاً . وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ بوليبيوس ، باحساسه السياسى المرهف وذكائه اللماح فعبر عنها بهذه العبارة ، : «ارتفعت ثقة المصريين بأنفسهم لدرجة أنه حدثت ثورة بواسطة الأهالى من السكان ، استمرت بضع سنوات . وحين تم القضاء على الثورة نهائياً ، كان العنصر المصرى فى البلاد قد اثبت قوته ، ولم يعد من الممكن انكاره » (٦٨) . بعد ذلك وفعلا لم يكد الجنود المصريون المنتصرون يعودون مسلحين ، حتى اشتعلت نيران ثورة وطنية شملت مصر كلها : الاسكندرية والريف . ويبدو ان نجاح الثورة فى بعض مراحلها جعل زعماءها والموجهين لها يحلمون بأن تتمكن ثورتهم من الاطاحة بالحكم البطلمى برمته . وأخذوا يروجون لمثل هذه الغاية ، ويوزعون منشورات تدعو اليها . ويبدو أن الكهنة المصريين لعبوا دوراً رئيسياً فى قيادة هذه

---

(٦٨) بوليبيوس ٥، ٦٥ ، ٥ ، ١٠٧ ، ١٤ ، ١٢ .

الثورة وتوجيهها ، ومن ثم جاءت دعايتهم مصطبغة بالصبغة الدينية . وقد وصلتنا فعلا بعض من وثائق هذه الثورة تثبت هذه الظاهرة . ويمكننا أن نعتبرها من منشورات الثورة ، اتخذت مظهر النبوءات الدينية ، كتبت باللغة الشعبية (الديموطيقية) أصلا . فى واحدة منها يدعى كاتبها انها ترجع إلى عصر الملك تاخوس (٣٦٦ — ٣٦٠ ق . م) . من ملوك الأسرة الثلاثين ، أى قبل الفتح المقدونى . وتتحدث الوثيقة بأسلوب التنبوء عن تاريخ مصر منذ تاخوس، وماتعرضت لهمن غزو وحكم اجنبى على يد الفرس أولا والأغريق بعد ذلك . ثم تنتهى النبوءة ببشرى للمصريين بان يوم الخلاص قريب وانه سيظهر واحد من أبناء أهناسية المدينة ، سيحرر مصر ويطرد الأجانب والأيونيين أى الأغريق . وما من شك ان فكرة النبوءة وقدمها التاريخى تلفيق قام به الدعاة للثورة حتى يضفوا على دعواهم صفة العراقة والصدق الدينى ، وانما هى فى واقع الأمر حديثة التأليف من زمن الثورة نفسها (٦٩) .

ونجد الأسلوب ذاته فى وثيقة أخرى ، اشتهرت باسم «نبوءة صانع الفخار» . وتتضمن نبوءة أوحى بها إلى فخرانى ونطق بها أمام الملك أمينوفيس من ملوك الأسرة الثامنة عشرة . وما وصلنا من هذه النبوءة هى تراجم يونانية متأخرة ، ولكن أصولها الديموطيقية ترجع من غير شك إلى فترة الوثيقة السابقة . ورغم تهلهل هذه البرديات ، فقد أمكن تتبع معانى بعض فقراتها . فهناك تنبوء بأنه ستحل بمصر أيام عصيبة تقع فيها تحت حكم الأجانب ، ثم يظهر من بين المصريين من يخلص البلاد . ثم هناك اشارة طريفة تتحدث عن مدينة الاسكندرية على هذا النحو : «(وسوف تصبح المدينة التى بجوار البحر مكاناً — يجفف فيه الصيادون شباكهم ، لأن الآلهة سوف تغادرها إلى منف ، بحيث يقول عنها من يمر بها : كانت هذه المدينة الأم الرؤوم للعالم ، فكل شعوب الأرض وجدت لها مستقراً فيها(٧٠).

---

(٦٩) أنظر للكاتب «مصر من الاسكندر إلى الفتح العربى» ، ص ٧٥ — ٧٦ .
(٧٠) يوجد عرض لهذه البرديات فى
Bevan, Ptolemaic Egypt, pp. 240 f.

هذان النصان وأمثالهما يعبران أحسن تعبير عن الحالة النفسية للمصريين ومقدار ما شعروا به من كراهية تجاه الأسرة البطلمية . ويبدو ان كلا من الاسكندرية ومنف اتخذا فى العقلية المصرية معنيين رمزيين . فالاسكندرية المدينة التى بجوار البحر — كانت رمزاً لحكم الأسرة البطلمية الأجنبية ، وقلما أطلقوا عليها اسماً آخر غير اسمها المصرى القديم «رع كدت» (راقودة) فقد بقيت رمزاً للوطنية المصرية وأصبحوا يتطلعون إلى اليوم الذى تعود فيه الآلهة ، واقامة الملك إلى منف . ولعل هذا الشعور الذى لازمهم طيلة العصر اليونانى والرومانى يكمن أيضاً وراء قرار عمرو بن العاص بنقل العاصمة من الاسكندرية إلى موقع الفسطاط ، فهو فى منطقة مصرية صميمة . أمام منف على الضفة الغربية وإلى الجنوب مباشرة من أون أو عين شمس على الضفة الشرقية . ويؤيد صحة وجود مثل هذه الآمال والعواطف لدى المصريين فى ابان ثورتهم عقب انتصار رفح ما تضمنته أشهر وثيقة مصرية على الاطلاق المعروفة باسم حجر رشيد . وهو يتضمن قراراً صدر عن مجمع الكهنة المصريين سنة ١٩٦ ق . م . ، فى مرحلة من الثورة اعتقد المصريون ان الملك البطلمى قد استجاب لمطالبهم ، فجنحوا للسلم . ومن أهم ما يسجله الكهنة باعتزاز ان الملك قد اعفى الكهنة من التوجه إلى الاسكندرية مرة كل عام وان ينعقد اجتماعهم فى منف (٧١) . ولابد ان هذا الخبر وحده كان يعتبر انتصاراً للوطنية المصرية . على أى حال ان محاولة إنهاء الثورة صلحاً فشلت ، لأن الملك نكل بالذين اشتركوا فى الثورة ، مما جعل الثوار يعودون إلى التمرد والعصيان ، إلى أن امكن القضاء عليهم نهائياً فيما بين ١٨٥ — ١٨٣ ق . م .

أما بالنسبة للمصريين فى الاسكندرية ، فمنذ انتصار رفح أصبح هناك إلى جانب الكهنة والعمال والحرفيين وصغار الموظفين ، عدد لا يستهان به من الجنود المصريين (٧٢). ومنهم من الحق بالحرس الملكى وتولى مناصب

---

(٧١) راجع كتاب «مصر من الاسكندر» ص ٨١ — ٨٣ ، وتوجد ترجمة فى Bevan, op. cit., 262.

(٧٢) U.P.Z.I. 110 (164 B.C.).

قيادية (٧٣) . وبعبارة أخرى وجدنا زحفاً مصرياً ينمو فى الادارة البطلمية، وخاصة من بين العناصر المصرية فى المدينة، ممن اصطبغوا بالصبغة الأغريقية

ولعل ألمع شخصية فى هذه الطبقة المصرية المتأغرقة هو ديونيسيوس بيتوسرابيس الذى ظهر فى عالم السياسة فى الاسكندرية حوالى سنة ١٦٥ – ١٦٤ ق . م . ، أى فى الجيل التالى مباشرة بعد الثورة التى نشبت بعد رفح ويبدو من اسمه الثانى انه من أصل مصرى ، فى حين يدل اسمه الأول (ديونيسيوس) على انه تأغرق فاتخذ اسماً يونانياً . ويبدو انه قد تمكن من الوصول إلى مركز كبير فى القصر الملكى . وهذه هى أول مرة يحتل فيها مصرى مثل هذه المكانة فى الدولة البطلمية . ولكن مهارته الكبرى انه تمتع بشعبية كبيرة أيضاً بين المصريين ، وحاول ان يستغل انقساماً سياسياً بين الملك بطلميوس السادس وأخيه بأن يضرب احد الملكين بالآخر ثم يطيح بهما معاً . فأثار فى الاسكندرية ثورة ضد الأخ الأكبر مدعياً مناصرة الأخ الأصغر . ولكن انكشفت حيلته واتفق عليه الأخوان وتمكنا من القضاء على ثورته فى الاسكندرية .

ولشخصية بيتوسرابيس دلالة اجتماعية إلى جانب دلالته السياسية . فهو يمثل طبقة من المصريين فى الاسكندرية انخرطوا فى دوائر الاغريق ، واتخذوا الأسماء الأغريقية وتحدثوا اللغة اليونانية . وما من شك ان المصريين فى الاسكندرية كانوا أكثر تعرضاً للمؤثرات اليونانية من اخوانهم فى الريف الذين ظل أكثرهم محافظين على لغتهم وتقاليدهم المصرية الموروثة . ويجرنا ذلك إلى الحديث عن جوانب من الحياة الاجتماعية التى شاعت فى المدينة ومقدار تأثر أو تأثير احد الجانبين فى الآخر . ونبدأ بأهم جوانب الحياة الاجتماعية وهو الزواج . ومن المتوقع فى مجتمع يتكون من عناصر مختلفة ان تظهر مشكلة الزواج المختلط . من المعروف ان هذا النوع من الزواج وجد وسمح به قانوناً بين الأغريق والمصريين فى ريف مصر ، خارج

---

(٧٣) O.G.I.S .731, Alexandria (c. 200 B.C.).

الاسكندرية. اما فى الاسكندرية فان الأمر ازداد تعقيداً ، باعتبارها مدينة يونانية ، لها مواطنيها الخاصة وشخصيتها الذاتية . ويبدو ان ذلك زاد الحياة فى المدينة تعقيداً ، لأن السكان لم ينقسموا إلى مصريين وأغريق فحسب ، بل كذلك إلى مواطنين وغير مواطنين . وكان للمواطنين قوانين خاصة بهم يخضعون لها . ومن الثابت ان قانون مدينة الاسكندرية ، بينما سمح بالزواج بين المواطنين والأغريق من غير المواطنين ، فانه حرم الزواج المختلط بين المواطنين والمصريين . ولكن يبدو ان هذا القانون لم يطبق تطبيقاً دقيقاً ، ووجدت مخالفات جعلت المشرع فيما بعد يدخل عليه تعديلا يخفف من صرامته . فأصبح يعترف بمثل هذا النوع من الزواج إذا تم دون علم أحد الطرفين بالحالة المدنية الرسمية للطرف الآخر ،فى هذه الحالة منح الابناء من مثل هذا الزواج مواطنة الاسكندرية (٧٤) . أما الزواج بين المصريين والأغريق من غير المواطنين فلابد انه سمح به فى المدينة كما سمح به فى الريف. (٧٥)

نتيجة لذلك كله وجد فى الحياة الاجتماعية خليط غريب من التقاليد والنظم القانونية المصرية والأغريقية . وليس لدينا وثائق كافية من الاسكندرية توضح هذه الاختلافات ، ولكن قياساً على ما وجد فى الوثائق من الريف يبدو ان ابسط أنواع الزواج هو الزواج المصرى ، فقد كان يتم فى كثير من الحالات على الأقل بناء على اتفاق شفوى (agraphus) ، أى غير مكتوب ولامسجل ، وبعبارة أخرى كان يقوم على أساس العرض والقبول والاشهار والمعاشرة . ولكن لدينا عقوداً مصرية مكتوبة بشأن اعالة الزوج للزوجة . ولكن هذه العقود فى الواقع عبارة عن اتفاق بين رجل وامرأة متزوجين فعلا بشأن املاكهما والعلاقة المالية بينهما من أجل ضمان حقوق

---

(٧٤) أنظر للكاتب «صور من الحياه الاجتماعية فى الاسكندرية القديمة » فى دراسات أثرية وتاريخية العدد ١ (١٩٦٨) ص ٤٤ — ٤٥ (جمعية الآثار بالاسكندرية) .

(٧٥) Taubenschlag, Law in Greco-Roman Egypt, pp. 77 ff.

الزوجة . وبالتدريج شاع هذا النوع من الزواج المصرى بين الأغريق الذين أصبحوا يعقدون اتفاقاً خاصاً لتنظيم العلاقة المالية بين الزوج والزوجة.

ولكن المألوف بين الأغريق انهم استخدموا عند الزواج عقوداً مكتوبة ومسجلة . وكانت عقود الزواج التى شاعت بين الأغريق فى الاسكندرية تحدد مسئوليات كلا من الزوج والزوجة تجاه الآخر . ولدينا طاب بتسجيل عقد زواج فى الاسكندرية ، هذا نصه :

«إلى بروتارخوس من ثرميون بنت ايبون ، مع وكيلها أبوللونيس ابن خيرياس ، ومن أبوللونيوس بن بطلميوس . اتفق كل من ثرميون وأبوللونيوس بن بطلميوس على أن يجتمعا فى حياة مشتركة ، ويعترف أبوللونيوس بن بطلميوس بأنه قد تسلم من ثرميون عن طريق اليد من منزلها صداقاً يتكون من زوج اقراط من الذهب يزن ثلاثة قراريط ومبلغ ... دراخمة من الفضة . ومنذ الآن سيمد أبوللونيوس بن بطلميوس ثرميون باعتبارها زوجته الشرعية بكل ما يلزمها ، وملابس حسب ما تسمح به موارده المالية ، وانه سوف لا يسىء اليها ولا يطردها ولا يسبها ، ولا يجلب إلى البيت امرأة أخرى ، والا فقد حقه فى الصداق مزاداً مرة ونصف . ويمكن التنفيذ مباشرة على شخص أبوللونيوس بن بطلميوس وأملاكه ، كما لو كان بحكم قضائى . وكذلك سوف تفى ثرميون بواجباتها نحو زوجها وحياتهما المشتركة ، وسوف لا تتغيب من المنزل دون اذن من أبوللونيوس بن بطلميوس سواء بالليل أو بالنهار ، والا تأتى فعلا يشين أو يؤذى حياتهما المشتركة ، والا تعاشر رجلا آخر . وإذا تبين بعد المحاكمة انها ارتكبت واحداً من هذه الفعال ، سوف تفقد حقها فى الصداق . وبالاضافة إلى ما سبق فان الجانب المذنب تفرض عليه الغرامة المعينة فى العام السابع عشر من قيصر ، ٢٠ من شهر برموت» (٧٦) .

---

(٧٦) هذا النص يرجع إلى بداية العصر الرومانى وهو يوضح ماكان سائدا فى العصر البطلمى أيضاً من حيث تقاليد الزواج . إذ ليس لدينا عقد زواج بطلمى من الاسكندرية .
B.G.U. 0152 (13 B.C.)

هذه الوثيقة وأمثالها تكشف لنا عن جوانب كثيرة من نظام الزواج الذى ساد فى ذلك الوقت . فالمرأة اليونانية لا تتعاقد بشخصها مباشرة ، وانما معها دائماً وكيل ، عادة والدها أو أخوها . كما كانت المرأة هى التى تقدم «المهر» ، وفى حالة الطلاق ، إذا كان الزوج هو المذنب يفقد حقه فى المهر أو الصداق ، مضاعفاً أو مزاداً مرة ونصف ، ولكن إذا كانت الزوجة هى المذنبة فانها تفقد حقها فى الصداق فقط . وبالاضافة إلى ذلك فكان يفرض على الجانب المخطىء غرامة معينة . كما يلاحظ أيضاً انه قد نص فى هذه العقود على عدم السماح بتعدد الزوجات . وهذا يدفعنا إلى الافتراض بأن تعدد الزوجات كان معروفاً بين الأغريق ومن ثم لزم التنويه فى العقد على عدم السماح به بناء على رغبة الزوجة . أما بالنسبة للمصريين فمن العسير القطع بمدى انتشاره بينهم ، لأن هيرودوت الذى زار مصر فى القرن الخامس ق . م . قال ان نظام الزوجة الواحدة ساد فى مصر (٧٧) . فى حين أن ديودور الصقلى الذى كتب فى القرن الأول ق . م . ذكر ان الكهنة فقط هم الذين مارسوا نظام الزوجة الواحدة ، أما سائر الناس فكان فى استطاعتهم أن يتخذوا من الزوجات ما يشاءون (٧٨) . ولكن الدكتور مصطفى الأمير قد اثبت أخيراً أن هناك دليلا كافياً فى الوثائق الديموطيقية يؤكد وجود عادة تعدد الزوجات بين المصريين فى العصرين الفرعونى والبطلمى (٧٩) .

أما فى مجال الحياة الدينية فقد كان المصريون شديدى التمسك والاعتداد بدينهم وآلهتهم ، فحافظوا على تقاليدهم الدينية الموروثة . ومما ساعدهم على هذا الشعور بالتفوق ، أن الأغريق أنفسهم كانوا مهيأين له ، وكانوا يشعرون تجاه الآلهة المصرية بكثير من الخشوع والرهبة . نعرف ان هذا الموقف شاع بين الأغريق الذين حضروا إلى مصر قبل الاسكندر الأكبر

---

(٧٧) هيرودوت ٢ ، ٩٢ .

(٧٨) ديودور ١ ، ٨٠ .

(٧٩) Monogamy, Endogamy and Consanguinity in Ancient Egyptian Marriage, BIFAO (1964) p. 14.

حتى ان هيرودوت اعتقد أن بعض الآلهة الأغريقية فى منشأها كانت آلهة مصرية وهاجرت إلى اليونان (٨٠) . وقد ساعد مثل هذا التفكير على تشبيه الآلهة اليونانية بالآلهة المصرية ، فشبه زيوس مثلا بآتون ، وشبهت افروديتى بحتحور وديميتر بإزيس وديونيسوس باوزيريس وشبه هيفا يستوس ببتاح وأبوللو بحورس .. وهكذا (٨١) . وقد ساعدت هذه المطابقة على أن تغزو الآلهة المصرية قلوب الأغريق ، فوجدنا الأغريق على كل مستوياتهم الاجتماعية يتعبدون ويقدمون القرابين للآلهة المصرية والأغريقية معاً ، وبمرور الزمن تفوقت الآلهة المصرية (٨٢) ..

ومما يوضح هذا الاتجاه ما حاوله البطالمة عندما أرادوا أن يتخذوا الهاً جديداً لدولتهم الجديدة ، بحيث يكون لديه من الصفات ما يجعله مقبولا لدى المصريين والأغريق معاً . فوقع اختيارهم على اله مصرى محلى فى مدينة منف هو الاله أوزير ــ حابى أو أوزير أبيس . وهو يمثل العجل المقدس أبيس عند اتحاده فى العالم السفلى بالاله أوزيريس . وكان الاله المصرى يمثل ويعبد على هيئة العجل . ولكن خشى البطالمة ألا يتقبل الأغريق هذه الصورة الحيوانية للاله ، ولذلك قرروا عندما أقاموا له معبد السرابيوم بالأسكندرية ، ان يدخلوا على شخصيته تعديلين : الأول يمس اسمه فأصبح سرابيس ليسهل على الأغريق نطقه . والآخر هو تصويره فى صورة بشرية ، ومنحه هيئة تشبه زيوس نفسه (٨٣) . ورغم جهود البطالمة فى الترويج للاله سرابيس والانفاق على معابده ، فان المصريين لم يقبلوا على عبادته أولا ، واعتبروا ما حدث للاله هو نوع من المسخ لشخصيته . ولذلك سرابيس ظل نحو قرن ونصف من تاريخ الدولة البطلمية الها رسمياً بعيداً عن

---

(٨٠) هيرودوت ٢، ٤٢، ٢، ٥٩، ٢، ١٧١ .

(٨١) H.I. Bell, Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt, p.15.

(٨٢) E. Visser, Götte und Kulte, pp. 71. ff.

(٨٣) Bell, op.cit., pp. 19 ff.

قلوب المصريين ومشاعرهم الدينية . حتى إذا كان النصف الأخير من العصر البطلمى وجدنا هذا الاله يزداد شعبية تدريجياً ويصبح فى العصر الرومانى أهم الالهه المصرية جميعاً وأشهرها . ويبدو ان هذا التحول فى شعبية سرابيس لم يحدث الا بعد أن استعاد شخصيته المصرية فى معبد الاسكندرية واقيمت له فى المعبد تماثيل على هيئة العجل . وأكبر دليل على صحة هذا التفسير هو عثورنا على تمثال كامل جميل من الجرانيت الأسود لعجل ابيس فى موقع معبد السرابيوم بجوار عمود السوارى . وهذا التمثال موجود حالياً فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية (صالة ٦) (٨٤) . وهذا التمثال يعود إلى زمن الامبراطور هادريان فى العصر الرومانى ولكنه يوضح استرداد الاله لشخصيته المصرية .

---

(٨٤) Breccia, Alexandria ad Aegyptum, p. 115



مجتمع الاسكندرية فى العصر الرومانى

دكتور لطفى عبد الوهاب يحيى

فى عام ٣٠ ق . م تم الفتح الرومانى لمصر على يد اكتافيانوس (الذى سيعرف بعد ثلاث سنوات باسم أغسطس) وأصبحت مصر ولاية رومانية بعد ثلاث قرون كانت فيها دولة مستقلة تحت حكم البيت المالك البطلمى ، كما أصبحت الاسكندرية ، التى كانت عاصمة البطالمة ، مجرد المدينة الأولى فى الولاية الجديدة التى أعلن أغسطس أنه ضمها إلى سلطان الشعب الرومانى .

الاسكندرية والامبراطورية الرومانية :

ورغم أن مصر لم يكن لها ، من الناحية الرسمية ، أى وضع فريد يميزها على غيرها من الولايات الرومانية ، اللهم الا تصنيفها كولاية تابعة للامبراطور وليس لمجلس الشيوخ الرومانى ، وهو وضع اشتركت فيه مع عدد من الولايات الأخرى — الا أن مصر كانت ، من الناحية العملية ولاية لها وزن غير عادى فى سياسة أغسطس ، الذى أصبح أول امبراطور رومانى ، كما أصبح للاسكندرية بدورها وضع خاص بصفتها المدينة الأولى فى هذه الولاية والمنفذ الأساسى لها .

ذلك أن مصر بحدودها الطبيعية المنيعة كانت تشكل نقطة قوة بالنسبة لأى حاكم أو وال يطمح إلى الاستقلال بها عن السلطة الامبراطورية فى روما ، كما أنها كانت بالنسبة لروما صومعة غلال رئيسية تعتمد عليها الحكومة الرومانية فى تزويد روما بالغلال ، ومن ثم فان مصر تصبح فى يد من يستقل بها ورقة هامة يستطيع عن طريقها أن يتحكم إلى حد مؤثر فى الخبز اليومى لسكان العاصمة الامبراطورية .

أما الاسكندرية فالى جانب كونها المنفذ الأساسى لمصر بالنسبة

للرومان ، فان وضعها تتضح أهميته الفائقة بالنسبة لرومه إذا أدخلنا فى اعتبارنا أنها كانت مركزاً خطيراً للثورات على السلطة الحاكمة ، وقد خبر الرومان ذلك فى نصف القرن السابق للفتح الرومانى حين بدأوا يوجهون أنظارهم بشكل متزايد نحو مصر .

ونحن ندرك المغزى الخاص لمدينة الاسكندرية بالنسبة للرومان بأكثر من طريقة وفي أكثر من مناسبة . ففى فترة اتجاه النفوذ الرومانى إلى مصر قبل فتحها ، وما صحب هذا الاتجاه من مناورات بين الساسة الرومان فى داخل مجلس الشيوخ الرومانى وخارجه ، لم يكن هؤلاء الساسة ينظرون إلى الاسكندرية كمجرد عاصمة لمصر وانما نظروا اليها ككيان خاص إلى جانب مصر وهكذا أسموها «الأسكندرية الموجودة بجانب مصر» Alexandria ad Aegyptum — وهو اتجاه ظل سائداً حتى بعد الفتح الرومانى حيث نجد المشرف المالى الرومانى على مصر idiologos وكان يضم إلى جانب هذه الوظيفة صفة دينية أخرى — نجده يلقب بتسمية «الكاهن الأعلى للاسكندرية ومصر» (١) .

أما عن المناسبات العملية التى ظهر فيها هذا المغزى الخاص لمصر وللاسكندرية ، فعلل من أبرزهما مناسبتان كانت أولاهما فى بداية عهد الامبراطور كاليجولا Caligula (٣٧ — ٤١ م) حين أمر بترحيل الوالى الرومانى فلاكوس A.Avillius Fiaccus فى خريف ٣٨ م — وكان قد اتهم فى تحيز طائفى بين اليهود والاغريق فى المدينة ويبدو واضحاً من الاحتياطات التى اتخذت فى هذه المناسبة مدى التخوف الذى كانت تحسه الحكومة الامبراطورية فى رومه مما يمكن أن يقوم به من يشغل منصب الوالى فى مصر ، ومن ثم مدى الحذر من جانب أى عمل يقدم عليه فى الاسكندرية . فقد أرسلت الحكومة الرومانية قوة عسكرية خاصة من رومه وعندما قاربت مشارف الاسكندرية توقفت حتى حل الظلام قبل أن تدخل الميناء ، ثم أسرع القائد وقوته قبل أن تنتشر أنباء وصول السفينة التى تقلهم وفاجأ الوالى وأعتقله وأخذه إلى السفينة ليعود به إلى رومه دون ابطاء (٢)

والمناسبة الأخرى كانت عند توليه الامبراطور فسباسيانوس Vespasianus (٦٩ – ٧٩ م) . ففى ٦٩ م حين إختارت القوات الرومانية الموجودة فى جرمانيه فيتليوس Vitellius امبراطوراً ، وقام والى مصر آنذاك تيبريوس يوليوس الكسندر T. Julius Alexander بتلقين قسم الولاء لفسباسيانوس كامبراطور للفرقتين الرومانيتين الموجودتين فى مصر فى أول يوليه من ذلك العام ، اعتبر فسباسيانوس هذا الأمر حدثاً هاماً ، وجعل هذا التاريخ بداية رسمية لحكمه ، رغم أن سبع فرق فى سورية كانت قد أعلنته امبراطوراً قبل ذلك بعدة أيام . وفى غضون هذه الأحداث كان موكيانوس Mucianus ، أحد قواده ، قد اقترح [عليه أن يجيع رومه بأن يمنع عنها قمح مصر الذى يصل اليها من الاسكندرية ، بينما يتجه هو (أى موكيانوس)، تبعاً لأوامر فسباسيانوس ، إلى روه ويركز قواته . فعلا على أكويليه Aquileia وينتظر هناك نتائج سياسة التجويع المتفق عليها ، وقد إتجه فسباسيانوس من سورية إلى الاسكندرية واتخذ عدته لتجويع رومه ، ولكن مقتل فيتليوس والاعتراف بفسباسيانوس امبراطوراً فى رومه لم يترك هناك داعياً للذلك (٣) .

كان هذا هو الوضع العملى الذى كانت تحتله الاسكندرية ، بوصفها المدينة الأولى فى مصر ومقر الوالى الرومانى وحكومته والمنفذ الأساسى لرومه إلى مصر وقمح مصر . فاذا أضفنا إلى ذلك أن الاسكندرية كانت منذ عهد البطالمة مدينة متعددة الأجناس ، بما لكل جنس منها من أوضاع وتحديدات دستورية وحقوق وواجبات تختلف بالضرورة من طائفة لأخرى وقد ترضى الطائفة أو لا ترضيها ، وبخاصة إذا دخل فيها عنصر المقارنة كما كان لابد أن يحدث بحكم التجاور والاحتكاك – إذا أضفنا هذا الاعتبار استطعنا أن ندرك الأبعاد الحقيقية للوضع الذى كان عليه مجتمع الاسكندرية فى العصر الرومانى لقد كانت الاسكندرية حقيقة مدينة يمكن أن توصف من هذه الزاوية ، بأنها مدينة عالمية فقد كان فيها (حسب رواية ديون خروسستوم ، الذى زارها فى نهاية القرن الأول الميلادى) اغريق وايطاليون واثيوبيون وفرس وعرب . وبعض الهنود – هذا بطبيعة الحال إلى جانب

المصريين واليهود . ونحن إذا استثنينا الرومان الذين كانوا يشكلون فئة ممتازة على أساس أنهم كانوا يتبعون رومه أكثر مما يتبعون الاسكندرية ، وإذا استثنينا كذلك أبناء الاقليات الأخرى الذين كانوا يتعيشون من العمل فى الاسكندرية كأجانب ، فان الطوائف أو العناصر التى كان لها كيان اجتماعى (بصرف النظر عن الحقوق والتحديدات الدستورية) تصبح ثلاث طوائف هى : الاغريق واليهود والمصريون .

الاغريق :

وليكن حديثنا الآن عن أولى هذه الطوائف الثلاثة ، وهى طائفة الاغريق . لقد كان هؤلاء يشكلون عدداً كبيراً من سكان الاسكندرية فى عصر البطالمة الذين اعتمدوا عليهم فى شتى المرافق . كان من بينهم الجنود المرتزقة الذين شكلوا دعامة القوات المحاربة البطلمية ولم يتناقص عددهم كثيراً حتى بعد أن عمد البطالمة إلى الاعتماد على المصريين فى هذه القوات منذ معركة رفح ٢١٧ ق . م . ثم كانت هناك مجموعات تروح وتجىء فى تجارة أو زيارات أو مهام أخرى . وأخيراً كانت هناك دائرة غير قليلة من الاغريق المستقرين الذين كانوا يشكلون طائفة المواطنين السكندريين ومن بين هؤلاء كان أفراد حاشية القصر الملكى وموظفو الحكومة المركزية وأعضاء المكتبة ودار العلم mouseon وعدد من المشتغلين بالمهن الحرة وكان كل هؤلاء يعاملون فى عهد البطالمة معاملة خاصة فى كثير من الأمور وبخاصة فيما يتصل بالضرائب المتعلقة بالأراضى ، وعلى وجه أخص فى مسألة استصلاح الأراضى البور المحيطة بالاسكندرية أو البعيدة عنها فى بعض الأحيان .

وحين تم فتح الرومان لمصر ، أبقت حكومة الامبراطورية على هذه الامتيازات الاجتماعية والمالية ، فظلت مواطنه الاسكندرية قاصرة على هذه الطائفة دون غيرها وظلت الاعفاءات الضريبية سارية المفعول، كما لم يتعرض الرومان بشكل ظاهر أو حاسم لانتفاع هذه الطائفة بمسألة استصلاح

الأراضى التابعة لمدينة الاسكندرية . بل لقد زاد الرومان على ذلك امتيازين جديدين للسكندريين (ولنسمهم باسمهم الرسمى الذى كان يطلق عليهم) وكان أول هذين الامتيازين هو جعل مواطنة الاسكندرية شرطاً أساسياً للحصول على المواطنة الرومانية . ويبدو لنا ذلك واضحاً من حادثة مؤداها أن الكاتب الرومانى بلينيوس Plinius أصابه مرض عضال شفى منه على يد طبيب مصرى ، ورغبة فى اظهار امتنانه لهذا الطبيب ، كتب بلينيوس إلى الامبراطور الرومانى تراجانوس (٩٨ — ١١٧ م) يطلب اليه أن يمنح الطبيب المصرى المواطنة الرومانية فما كان من الامبراطور الا أن وعد بالكتابة إلى والى مصر ليمنحه المواطنة السكندرية أولا حتى يتمكن من الحصول على المواطنة الرومانية بعد ذلك .

والامتياز الثانى الذى تمتع به السكندريون فى العصر الرومانى هو اعفاؤهم من ضريبة الرأس التى فرضها الرومان بدرجات متفاوته على كل الطوائف سواء فى الاسكندرية أو فى بقية أرجاء مصر . وقد اعتز السكندريون بهذا الامتياز بشكل خاص كما يظهرلنا من حادثة وقعت لهم فيما يتعلق بهذا الأمر فى عهد الامبراطور فسباسيانوس . لقد أتى هذا الامبراطور إلى الاسكندرية فى ٦٩ م وأراد السكندريون أن يحصلوا منه على معاملة خاصة فى بعض المسائل ، ولكنهم لم يوفقوا فى ذلك فأطلقوا عليه لسانهم بنوع من الفكاهة الخشنة ، فما كان منه الا أن عاقبهم على ذلك بفرض ضريبة الرأس عليهم . ورغم أن الضريبة التى فرضها كانت طفيفة إلى حد كبير بالقياس إلى الفئات الأخرى من ضريبة الرأس التى كانت مفروضة على الطوائف الأخرى آنذاك ، الا أن مبدأ فرض هذه الضريبة عليهم فى حد ذاته عز عليهم إلى حد كبير ، وانتهى الأمر بتدخل تيتوس Titus ابن الامبراطور لدى والده ليعيد للسكندريين ما كانوا يتمتعون به من اعفاء من هذه الضريبة (٤) .

ومع ذلك فان الرومان لم تكن معاملتهم للسكندريين فى صف هؤلاء على طول الخط . فقد كان الرومان على دراية كافية بوضع السكندريين

قبل مجيئهم كأصحاب وضع متميز فى مصر ومدى اعتزازهم بذلك ، ومن ثم فقد حرص أغسطس منذ الفتح على ألا يكون الحكم الروماني مرهوناً برضى هذه الطائفة . وهكذا ففى الوقت الذى يمنح فيه أغسطس اليهود بعض الامتيازات الدستورية نجد أن مجلس الشورى — ويبدو أنه كان أهم المجالس التشريعية عند السكندريين لم يعد لهم فى الشطر الأول من العهد الرومانى حتى ٢٠٠ م . وسواء أكان هذا المجلس قد حل فى الشطر الأخير من عهد البطالمة كما هو مرجح ، أو ظل موجوداً حتى نهاية الحكم البطلمى ، وهو احتمال ضعيف ، فان السكندريين حين حاولوا أن يستعيدوه على عهد الامبراطور كلاوديوس Claudius (٤١ — ٥٤ م) لم ينجحوا فى ذلك(٥) وحين أعاده الامبراطور سفروس (١٩٣ — ٢١١ م) اليهم ، كان هذا المجلس قد فقد قيمته الحقيقية بالنسبة للسكندريين من ناحيتين : أولاهما أنه أعيد اليهم عندما منح الامبراطور هذا الحق لكل عواصم المقاطعات المصرية ، والثانية أن مجالس الشورى فى وضعها الجديد أصبحت فى الواقع وسيلة تعتمد عليها الادارة الرومانية فى فرض التزامات تتعلق بالخدمات العامة على عواصم المقاطعات بكل ما تستتبعه هذه الخدمات من تكاليف كان عبء توزيعها أو القيام بها ، إذا لم يمكن توزيعها ، يقع على عاتق أعضاء مجالس الشورى .

على أن حرمان السكندريين من مجلس الشورى لم يكن عاملا حاسماً فى تفتيت كيان هذه الطائفة من طوائف الاسكندرية ، فقد كانت للسكندريين نقاط تجمع أخرى يلتفون حولها ويمارسون نشاطهم الاجتماعى والسياسى عن طريقها . وأهم نقاط التجمع المذكورة كان دون شك الجمنازيون Gymnasion أو المنتدى الذى كانت له صفة رسمية ككان للتربية الرياضية والتثقيف الخاص بالمواطنين السكندريين وكان رئيسه يعتبر موظفاً رسمياً . ويبدو أن المنتدى لعب دوراً غير بسيط فى مجال التحركات السياسية للسكندريين فى العصر الرومانى ، إذ نسمع أن أحد الزعماء السكندريين وهو ايزيدوروس

Isidoros قد قام بمظاهرة لمنتدى ضد الوالى الرومانى فلاكوس فى ٣٨ م على عهد الامبراطور كاليجولا (٦) .

ولم يكن المنتدى هو نقطة التجمع الوحيدة بالنسبة للسكندريين فقد كانت هناك الروابط sunodai التى كانت شائعة قبل ذلك فى عهد البطالمة فى الاسكندرية وفى خارج الاسكندرية . ولكن دور هذه الروابط لم يكن ظاهراً أو واضحاً فى العصر الرومانى بمثل وضوح الدور الذى لعبه المنتدى السكندرى . ذلك أن الساسة الرومان نظروا فى شىء من الريبة إلى هذه الروابط التى كانت تجتمع — حسبما يقول فيلون Philon الفيلسوف اليهودى السكندرى — للتضحيات وتقديم القرابين فى الظاهر ولكن للشراب فى حقيقة الأمر . وقد حلت هذه الروابط رسمياً أثناء ولاية فلاكوس على أواخر عهد الامبراطور تيبريوس (٧) .

على أن حل هذه الروابط يبدو أنه لم ينفذ بشكل حاسم ، فقد كان هناك عدد منها لا يزال باقياً فى تاريخ لاحق لتاريخ حلها الرسمى فى أماكن أخرى من مصر . ففى القرن الثانى الميلادى يرد ذكر احدى هذه الروابط فى طيبة تحت اسم رابطة أمينوثيس ، كما يبدو أنها كانت تجتمع بشكل منتظم أو قريب من الانتظام إذا كان لنا أن نستنتج مثل هذا الاتجاه من قائمة لأوعية الخمور التى تبرع بها أعضاء هذه الرابطة ، فقد تم هذا التبرع فى عدة أيام بلغ عددها ثلاثة عشر يوماً فى خلال شهرين (٨) . كذلك نجد اشارات فى السجلات التابعة للمشرف على الشئون المالية تشير إلى أن غرامات كانت تحصل على أعضاء هذه الروابط ، وفى بعض الأحيان على رؤسائها فحسب (٩) ، وهذا يدل على أنها كانت مؤسسات غير قانونية ولكن الادارة الرومانية لجأت إلى عدم التشدد فى تنفيذ حلها ونظرت إلى الغرامات التى كانت تفرض على اجتماعاتها — التى تصبح فى ظل حلها اجتماعات غير مشروعة — كمورد من الموارد المالية للادارة الرومانية فى مصر .

وإذا كان من الخطأ أن نبالغ فى استنتاج شىء كثير عن الدور الذى

لعبته هذه الروابط فى حياة السكندريين من خلال الأدلة القليلة التى تحت أيدينا ، الا أنى أود أن أشير إلى أن الذى وصف اجتماعات هذه الروابط هو أحد اليهود السكندريين الذين كان لهم دور فى الصراع الطائفى الذى اشتهرت به الإسكندرية بين اليهود والاغريق (السكندريين) ، ومن هنا فان حديثه قد لا يخلو من شيء من محاولة التشويه لغرض اجتماع هذه الروابط بحيث تصبح اجتماعات شراب فحسب. هذا ومن جهة أخرى ، ففى ضوء الثورات العديدة التى كان الاغريق السكندريون طرفاً فيها فان أية اجتماعات حتى لو كانت اجتماعات من أجل الشراب لا يمكن أن نجردها من وصفها كنقط تجمع يتطرف فيها الحديث ، عند اللزوم ، إلى مجال السياسة وبخاصة فى أوقات التحرك السياسى الحاد من جانب السياسيين .

أما نقطة التجمع الأخيرة فى هذا المجال فهى حفلات العشاء التى كانت يقيمها السكندريون والتى يذكر فيلون ، ويظاهره أثينايوس ، أنها كانت تتقسم أحياناً بعدم النظام مما كان ينتهى فى بعض الأحوال بالتضارب الذى قد يصل إلى القتل (١٠) . ولا تبدو هذه الحفلات من خلال وصف فيلون وأثينايوس كما لو كانت نقطة التفاف جدية للسكندريين ، ولكن الجدية على المستوى الفردى أو الجماعى الضيق قد لا تكون شيئاً مستبعداً عنها .

اليهود :

والطائفة الهامة الثانية فى الإسكندرية فى العصر الرومانى كانت هى طائفة اليهود . وكان هؤلاء يشكلون جالية كبيرة بشكل ظاهر . وقد قدر المؤرخ اليهودى يوسفوس Josephus أن عددهم كان ١٢٠ ألفاً فى عهد بطلميوس الثانى وأن عدد من قتل منهم فى حوادث ٦٦ م كان خمسين ألفاً بينما بلغ عدد من قتل منهم فى حوادث ٧٠ م نحو ستين ألفاً (١١) . وإذا كانت أرقام من قتل من اليهود فى هاتين المناسبتين يبدو مبالغاً فيه بعض الشيء ، فان الأمر الذى لا شك فيه هو أنهم كانوا يشكلون مجموعة

كبيرة حقاً ودليل ذلك أنهم كانوا فى عهد المفكر اليهودى فيلون (قرب أواسط القرن الأول ق . م) يشغلون حيين من أحياء الاسكندرية بعد أن كان لهم حى واحد على عهد البطالمة .

وقد واكب هذا الحجم العددى وزن اجتماعى ميزهم إلى حد كبير على غيرهم من سكان المدينة فيما عدا الاغريق . فقد كان ليهود الاسكندرية جالية خاصة بهم معترف بها رسمياً politeuma على رأسها رئيس ملى ethnarches له اختصاصات قضائية وادارية ، كما كان لهم زعماء روحيون معترف بهم archisynagogoi ومحاكم قضائية خاصة بمعاملاتهم المدنية .

وقد زاد أغسطس على هذه الامتيازات امتيازاً آخر هو أنه منحهم مجلساً للشيوخ (١٢) gerousia فى الوقت الذى ترك فيه الاغريق السكندريين يمارسون حياتهم السياسية دون مجلس للشورى على نحو ما مر بنا . وربما كان هذا هو ما حدا بكل من المفكر اليهودى فيلون والمؤرخ اليهودى يوسفوس أن يذكر أن اليهود فى الاسكندرية كانوا يتمتعون بالمواطنة السكندرية عن طريق التقريب بين كلمة politeuma بمعنى الجالية المعترف بها رسمياً و politeia بمعنى التنظيم الذى يضم المواطنين أو عن طريق اللعب لعلى هاتين اللفظتين .

على أن هذا التصور ، سواء أكان متعمداً أو نتيجة لما حصل عليه اليهود من حقوق وامتيازات لم يحصل عليها غيرهم من سكان الاسكندرية (فيما عدا الاغريق كما مر بنا) ، تنفيه الشواهد التاريخية والوثائق الموجودة تحت أيدينا نفياً قاطعاً . فاليهود كانوا يدفعون ضريبة الرأس التى لا يعفى منها سوى المواطنين السكندريين ، فنحن نعرف أنه عندما زار جرمانيكوس Germanicus مصر فى ٢٠ م ، وكانت تمر آنذاك بمجاعة ، أمر أن تفتح أبواب صوامع القمح وأن يوزع منها على المواطنين — ولم يكن اليهود من بين من حصلوا على القمح فى هذه المناسبة . أما الوثيقة الصريحة فى هذا

الصدد فتجىء ضمن خطاب الامبراطور كلاوديوس إلى السكندريين فى ٤١ م، والذى يناشد فيه كلا من الاغريق واليهود على مراعاة حسن الجوار والمعاملة كما يليق بسكان مدينة واحدة. وفى هذا الخطاب يطلب إلى اليهود ألا يقحموا أنفسهم فى مباريات المنتدى (التى كانت خاصة بالمواطنين السكندريين) أو تدريبات الشباب (التى كانت تؤهل أبناء السكندريين للحصول على المواطنة السكندرية) بل عليهم أن ينتفعوا بما فى أيديهم من حقوق، وأن يتمتعوا فى مدينة ليست بمدينتهم بقدر وفير من كل الخيرات (١٣).

وقد كان هذا الوضع الذى اقترب فيه اليهود من الاغريق السكندريين، ولكن دون أن يتساووا معهم، والذى ظلت فيه ضريبة الرأس وطأة نفسية تذكرهم دائماً بأنهم مهما كانت الحقوق التى يحصلون عليها فهم ليسوا من مواطنيها — هذا الوضع كان دون شك من جانب اليهود، وراء الشقاق الدائم الذى كان يتفجر فى أغلب الأحوال صراعاً دموياً سافراً بينهم وبين الاغريق السكندريين على أن هذا إذا كان كافياً لتفسير موقف اليهود كطرف من أطراف هذا الشقاق المتكرر، فان المنافسة المالية والاقتصادية الخطيرة بينهم وبين الاغريق تفسر موقف الاغريق من اليهود على الجانب المقابل من جانبى الشقاق.

ويروى لنا الجغرافى والرحالة سترابون فى هذا المجال أن عدداً من الاغريق قد لجأوا إلى تضييق المساحات التى ينمو فيها بعض الأنواع الجيدة من نبات البردى حتى يحصلوا على أكثر الأثمان ارتفاعاً، وهنا يقارن سترابون ما فعله الاغريق بما كان يفعله اليهود فيما يخص البلسم والنخيل (١٤)

على أن المنافسة التجارية التى كانت تصل حدتها إلى درجة الاحتكار لم تكن هى كل ما أقدم عليه اليهود فى هذا المجال. فقد كانت فى يدهم المصارف التجارية ورءوس الأموال الهائلة التى كانوا يقرضونها بفوائد يبدو أنها كانت فادحة فى بعض الأحيان. وفى هذا المجال نجد الكسندر ليسيماخوس اليهودى يقرض الملك اجريبا Agrippa الأول،

ملك منطقة يهودية Judaea اليهودى – وهو وضع يدل على حجم رأس المال الذى مكن ليسياخوس من أن يقرض ملكاً . كذلك نجد فى ٤٠ م تاجراً اغريقياً يوجه تحذيراً إلى صديق له حتى لا يتعامل مع اليهود بل ان فيلون ذاته ، رغم كونه يهودياً ورغم دفاعه فى كثير من كتاباته عن اليهود ، الاأنه لايملك الاأن يبدى نفوره من جشع هؤلاء المرابين (١٥) .

ويبدو أن الناحية الإقتصادية عند اليهود كانت على قدر كبير من التنظيم فقد كانت لهم نقاباتهم الخاصة بالمهن التى يشتغلون بها ، بل أن هذا التنظيم كان مرتبطاً بمراسم دينهم ، إذ تذكر مراجع التلمود أنهم كانوا يجلسون فى البيعة الكبرى بالاسكندرية ،كل حسب المهنة التى ينتمى اليها (١٦) .

كذلك يبدو أن هذا التنظيم لم يقتصر على الناحية الاقتصادية وانما تعداه إلى الناحية العنصرية التى تظهر يهود الاسكندرية فى عدد من المناسبات وهم على اتصال باليهود الموجودين خارج مصر على مستوى قومى عنصرى ففى حوادث ٤١م . نجد أن الامبراطور كلاوديوس يوجه إلى اليهود تحذيراً فى خطابه السابق الذكر بالا يستقدموا إلى المدينة (الاسكندرية) يهودا من سورية أو مصر حتى لا يثيروا فى نفسه مزيدا من الريبة (١٧) كذلك حين وقعت حوادث ٦٦ م فى عهد الامبراطور نيرون Nero نجد ثورات يقوم بها اليهود فى برقه وفى يهودية Judaea كما تتكرر الظاهرة نفسها فى ١١٥م على عهد الامبراطور تراجانوس حيث تقوم ثورة يهودية كبيرة فى مصر وفى قورينائية فى الوقت نفسه (١٨) .

المصريون

وكان المصريون يشكلون الطائفة الثالثة فى الاسكندرية ، ويقيمون أساساً فى الحى الذى كانت تشغله قرية راقوده قبل تأسيس المدينة فى عهد الاسكندر . وكانوا ينهضون بالصناعات الأساسية فى المدينة ، وهى صناعات الزجاج والبردى ونسيج الكتان ، وهى الصناعات التى كانت تستوعب

كل الأيدى العاملة فى المدينة تقريباً ، كما كانت تشكل القسم الأساسى من صادرات مصر التجارية فى ذلك الوقت ، إذا استثنينا الغلال التى كانت تدخل فى باب الضرائب العينية التى تبعث بها مصر إلى روما وليس فى باب التجارة .

وقد كانت السلطات الرومانية حريصة من البداية على أن تكون الصفة الأساسية للمصريين فى الاسكندرية هى صفة «عمل» فى المقام الأول ، تنتفع منه المدينة بشكل مباشر . ومن هنا فقد كانت هذه السلطات حاسمة فى ألا ينضم إلى المصريين من أبناء الاسكندرية مصريون من الأقاليم ، إلا إذا كان ذلك يتعلق باقامة «عمل» عارضة وضرورية ، أو زيارة ترى هذه السلطات أن لها اعتبارات تبررها لسبب أو لآخر . وكان العامل الرئيسى الذى يكمن وراء هذا الاتجاه هو نظرة الرومان إلى مصر على أنها مورد أساسى للحبوب بالنسبة لعاصمة الامبراطورية ، ومن هنا كان الحرص على بقاء المصريين من أبناء الريف فى الأقاليم ليقوموا بدورهم الأساسى كأيد عاملة فى زراعة الأرض بصفة أساسية .

وقد ظهر هذا الاتجاه من جانب الرومان فى فترة مبكرة نسبيا من الحكم الرومانى لمصر ، كما يبدو من المرسوم الذى أعلنه جايوس فيبيوس ماكسيموس Gaius Vibius Maximus الذى كان واليا على مصر بين ١٠٣ و ١٠٧ م ، على عهد الامبراطور تراجانوس والذى يشير إلى ضرورة عودة المصريين الريفيين النازحين إلى الاسكندرية إلى الريف مرة أخرى ليمارسوا عملهم فى الأرض ، كما ينص على أن أولئك الذين تحتاج اليهم المدينة والذين يعتقدون أن لديهم سبباً مقنعاً للبقاء فيها يتحتم عليهم أن يحصلوا على ترخيص بالاقامة من السلطات المختصة بالاسكندرية (١٩) .

ونحن نرى هذا الاتجاه من جانب الرومان يزداد وضوحاً وتحديداً حين بدأ الوضع الاقتصادى فى الامبراطورية الرومانية فى الاضطراب والتدهور منذ أواخر القرن الثانى الميلادى ، ومن ثم أخذ حرص السلطات الرومانية يتجه

بشكل متزايد نحو التصاق الفلاح المصرى بالأرض وعدم فراره منها إلى المدينة ، بعد أن أصبح هذا الفرار وارداً فى وقت لم يعد فيه الانتاج الزراعى مجزياً للفلاح أمام الضرائب العينية المتزايدة من جهة واهمال الحكومة الرومانية لمشروعات التنمية الزراعية التى تنمى هذا الانتاج من جهة أخرى .

وفى هذا المجال نجد الامبراطور كاراكالا يوجه خطاباً إلى الوالى الرومانى فى مصر فى ٢١٥ م (٢٠) يذكر فيه أن المصريين من أهل الريف الذين فروا إلى الاسكندرية يجب أن يطردوا من الاسكندرية . وهو لا يستثنى من ذلك الا فئات معينة حددها فى وضوح تضم الذين يعملون فى المراكب النهرية (ويعنى بهم الذين كانوا ينقلون حاصلات الريف إلى الاسكندرية عن طريق ترعة شيديه التى كانت تربط الفرع الغربى لدلتا النيل بالمدينة) والذين يعملون فى تجارة الخنازير (وكان حضور هؤلاء لازماً لتموين المدينة بجانب من استهلاكها اليومى من اللحوم) والذين يحضرون الحطب اللازم للوقود فى حمامات المدينة . ويضم الامبراطور فى خطابه إلى هذه الاستثناءات الثلاث الضرورية لسير الحياة اليومية فى المدينة استثناءين آخرين يمثلهما الذين يحضرون إلى الاسكندرية التضحيات من الثيران وغيرها فى أعياد الاله سرابيس والأعياد الأخرى ، والذين يحضرون بغرض التعرف على عظمة المدينة والتمتع بحياة أكثر تحضراً (من حياة الريف) . وواضح أن فى حضور هاتين الفئتين إلى الاسكندرية نفع للمدينة وان كان بشكل جانبى ، فكلاهما يمثلان بالضرورة أشخاصاً قادرين من الواضح أنهم ليسوا من بين الأيدى العاملة فى الأرض ، كما أن اقامتهم بالمدينة ستكون بالضرورة اقامة عابرة .

ولكن رغم أن المصريين كانوا يشكلون اليد العاملة الرئيسية ، وبالتالى عنصراً أساسياً من عناصر الدعامة الاقتصادية للمدينة الأولى فى مصر ، وهو عنصر الطاقة ، كما كانوا ، بهذه الصفة ، يمثلون قيمة عددية كبيرة ان لم تكن القيمة العددية الأولى فى الاسكندرية ، الا أنهم كانوا رعايا مباشرين للحكومة المركزية ، بمعنى أنه لم يكن لهم كيان اعتبارى تتعامل

معهم السلطات الرومانية من خلاله بشكل جزئى أو كلى . فلم تكن تضمهم جالية politeuma مثل تلك التى كانت لليهود والتى كانت تعطيهم ، كما رأينا ، كياناً اجتماعياً خاصاً بهم يمارسون من خلاله الحقوق الخاصة بالأحوال الشخصية ، كما لم تكن لهم مؤسسة سياسية politeia ، مثل تلك التى كان يتمتع بها الاغريق والتى كانت تعطيهم حق المواطنة السكندرية بكل ما تشمله من ميزات . مهما كانت محدودة فيما يمكن أن نسميه بالحكم المحلى وبكل ما تعنيه من ميزات أدبية يكفى أن يكون من بينها اعفاؤهم (أى الاغريق) من ضريبة الرأس وأن تكون (أى هذه المواطنة السكندرية) هى الشرط الأساسى للحصول على المواطنة الرومانية .

وقد كان هذا الوضع الذى وجد فيه المصريون من أبناء الاسكندرية ، سبباً فى أن ينظر اليهم أفراد الطائفتين الأخريين فى المدينة ، وهما اليهود والأغريق ، نظرة فيها شىء من الاستعلاء الذى كان يصل إلى ما يقرب من التجاهل فى بعض الأحيان . ونحن نستطيع أن نستشف ذلك بشكل مباشر من قول فيلون ، الفيلسوف اليهودى السكندرى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، مشيراً إلى فلاكوس (الحاكم الرومانى لمصر فى ٣٨ م) أنه «يعرف أن فى الاسكندرية ومصر كلها طائفتين من السكان ، نحن (يعنى اليهود) وهؤلاء (يعنى الاغريق) (٢١)» متجاهلا بذلك وضع المصريين كطائفة لها كيانها . والأمر كان كذلك ، وربما بصورة أعنف ، فيما يخص نظرة الاغريق إلى المصريين . ونحن نستطيع أن نستنتج ذلك (وهنا أقيس على ما كان عليه الحال بالنسبة للمصريين خارج الاسكندرية) من خطاب كتبة مصرى متأغرق (أى مثقف بالثقافة الاغريقية) إلى بعض الاغريق فى القرن الثالث الميلادى حيث يقول «قد تنظرون إلى أيها الاخوة ، على أنى متبربر أو أنى مصرى لا انسانية له» (٢٢) .

أما فيما يتعلق بحصول المصريين على المواطنة الرومانية فى القرنين الأول والثانى الميلاديين (وهما القرنان الأولان من الحكم الرومانى فى مصر) فقد

كان أمراً يصطدم بعائق أساسى هو أن حصول المصرى على هذه المواطنة كان شرطه الأول هو أن يكون متمتعاً بالمواطنة السكندرية ، وهو حق قاصر على فئة الاغريق بالمدينة (اللهم الا إذا جاء كمنحة من الامبراطور ، الذى كان يعطى الشخص المواطنة السكندرية أولا ثم يمنحه بعد ذلك المواطنة الرومانية) . والاستثناء الوحيد لذلك فيما يبدو كان يتم فى حالة الخدمة العسكرية للمصريين (ربما المتأغرقين أساساً) فى الفرق الرومانية ، كما نستطيع أن نستنتج من مجموعة القواعد المالية لمراقب الحسابات الحكومية الاستثنائية gnomon idiologou (وهى مجموعة من القوانين واللوائح المالية المتعلقة بالوضع القانونى لمختلف عناصر السكان فى الاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى) . وحتى هذه كان يحدها عديد من الاعتبارات التى كانت تحد من تمتع المصرى بحق المواطنة الرومانية بالشكل الكامل أو بصورة تستمر بعد انقضاء فترة خدمته االعسكرية فى بعض الأحيان (٢٣) .

وقد حدث فى هذا المجال أن منح الامبراطور كاراكلا سكان الامبراطورية حق المواطنة الرومانية فى أوائل القرن الثالث الميلادى (٢١٢م) الأمر الذى ينبغى أن ينطبق على سكان الاسكندرية بما فيهم طائفة المصريين (٢٤) ولكن هناك اعتباران لابد أن يؤخذا فى الحساب فيما يخص هذه المنحة من جانب الامبراطور . وأول هذين الاعتبارين هو أن الهدف الأساسى من منحة المواطنة التى قدمها الامبراطور لم يكن فى حقيقة أمره الا تشريفاً شكلياً لا يعطى المزيد من الحقوق ، وتكليفاً فعلياً يلقى المزيد من الأعباء على عاتق هؤلاء المواطنين الرومان الجدد . والسبب فى ذلك يتعلق بما سبق أن أشرت اليه من الاضطراب والتدهور المالى والاقتصادى الذى تعرضت له الامبراطورية الرومانية ابتداء من أواخر القرن الثانى الميلادى سواء فى مركزها فى رومه أو فى ولاياتها ، ومن بينها مصر . لقد دفع ذلك الامبراطور الرومانى الذى سبق كاراكالا ، وهو سبتميوس سفيروس أن يمنح الاسكندرية وعواصم الأقاليم فى مصر مجالس للشورى عام ٢٠٠ م ، ولم يكن الهدف منها تدعيما للممارسة السياسية المحلية بقدر ما كان القاء على عاتق الاغريق

والمصريين المتأغرقين بمسئولية النهوض بأعباء الخدمات والالتزامات العامة بدلا من أن تتحملها الحكومة المركزية. وفى ظل هذا المفهوم ينبغى أن ننظر إلى الخطوة التى قام بها الامبراطور كاراكالا عام ٢١٢ م ، وهى منح المواطنة الرومانية لسكان الولايات ، على أنها توسيع للدائرة التى يمكن أن يختار منها أولئك الذين يقع على كاهلهم النهوض بهذه الخدمات والالتزامات (٢٥) . (الا ما الاعتبار الثانى الذى يتصل بهذه المنحة الامبراطورية فهو أنها لم تعم جميع المصريين ، وانما ظل عدد منهم ، وهم الفئة التى أطلقت عليها تسمية dediticii ، خارج اطار هذه المواطنة الرومانية «وهى موضوع هذه المنحة» ، وهو أمر يمكن فهمه ما دمنا قد عرفنا الهدف الحقيقى من منحة المواطنة الرومانية ، إذ أن الطبقة الدنيا من الشعب ، التى تنتمى اليها الفئة المذكورة (وهى طبقة ذات دخل محدود بالضرورة) لم يكن فى مقدورها أن تسهم فى القيام بأعباء الخدمات والالتزامات العامة ، ومن ثم فيصبح منحها حقوق المواطنة خطوة بلا مغزى . (٢٦)

نهاية التقسيم الاجتماعى العنصرى

على أن الوضع فى المجتمع السكندرى لم يستمر طوال العصر الرومانى على هذا النمط — فالتقسيم الطائفى العنصرى فى المدينة ، بكل ما ارتبط به من صراع بين الاغريق واليهود من جانب ، أو من عدم توازن فى الحقوق الاجتماعية والسياسية المحلية سواء بين كل من هاتين الطائفتين أو بينهما وبين المصريين — هذا التقسيم الطائفى العنصرى لم يلبث أن أخذ فى الانحسار أمام تصور طائفى من نوع آخر . هو الانقسام الدينى الذى بدأ فى الظهور بين أنصار العقائد الوثنية التى كانت سائدة ، وبين أنصار العقيدة المسيحية التى بدأت فى الانتشار بشكل مطرد ، بطيئاً فى أوائل القرن الثالث ثم محسوساً نحو أواسط القرن وعنيفاً فى الربع الأخير منه حتى أصبحت هذه العقيدة هى الدين الرسمى المعترف به فى الربع الأول من القرن التالى . ولم يلبث هذا الانقسام الطائفى أن تطور ، بدوره ، إلى انقسام طائفى دينى من نوع آخر فى الاسكندرية ، ذلك هو الانقسام المذهبى بين الذى ثار فى المدينة بين

اثنين من أقطاب العقيدة الجديدة ، هما أثناسيوس وأريوس ، حول نوع العلاقة بين الأب والابن داخل اطار الثالوث المقدس الذى يشكل الركن الميتافيزيقى فى المسيحية .

ولن أدخل هنا فى تفاصيل هذا الانقسام المذهبى ، أو فى تفاصيل الانقسام الطائفى الذى سبقه بين الوثنين والمسيحيين فى المجتمع السكندرى ، فوق أن أعيد ما سبق أن أشرت اليه ، وهو أن هذا التصور الطائفى الجديد قد طغى ، ثم غطى تماماً ، على التصور الطائفى العنصرى القديم الذى سبق التفصيل فيه ، وانه أصبح مجال نشاط فكرى خصب فى مدرسة الاسكندرية انتج فى مجال الدفاع عن الوثنية فلاسفة مثل حور أبوللون ، الذى كان يعمل أستاذاً بجامعة الاسكندرية ، كما أنتج فى مجال الدفاع عن المسيحية كليمنس وأوريجانوس وهما من أساطين الفكر الدينى المسيحى اللذين أسهما فى بلورة الأساس الفكرى للعقيدة الجديدة .

الحواشى :

(١) فى أثناء المناورات الدستورية التى دارت بين حزب الشعبيين وحزب المحافظين فى رومة حول ضم مصر او عدم ضمها إلى الامبراطورية الرومانية فى الفترة التى سبقت فتح مصر . يتحدث شيشرون عن مشروع،قدمه الشعبيون فيقول « إن حدود هذا المشروع تتسع فى الحقيقة لتشمل ممالك بأسرها مثل بيثينة الاسكندرية ومصر ». Cicero. Leg. Agr. . وبعد الفتح الرومانى كان الايديولوجى idiologos يشغل إلى جانب منصبه الأساسى كشرف على ايرادات الحكومة ، منصباً دينيا هو منصب « الكاهن الأعظم للاسكندرية وكل مصر P. Tebt., 302; B. G., 1200 . راجع كذلك :

A. Stein : Untersuchungen Zur Geschichte und Verwaltung Aegyptens, 83; J. G. Milne : A History of Egypt under Roman Rule, p. 11.

(٢) Philo : Adv. Flacc., 12 ff.; P. Ox., 1089

(٣) Tacitus: Hist, I, 79; III, 8; Suetonius :Vesp. 6; Dio Cass.:LXV, 9.

(٤) Dio Cass. : LXVI, 8

(٥) عن الآراء التى وردت فى هذا الموضوع ومناقشتها ونقدها راجع :

Lutfi Yehya : On the Question of the Alexandrian Senate, Bull. of the Fac. of Arts, Alex. Univ., 1958.

(٦) انظر المصادر الموجودة فى حاشية رقم (٢) .

(٧) **Philo.** : Adv. Flacc., I

(٨) **Ostr. Gr.**, 142

(٩) **Gnomon** : 108

(١٠) **Philo** : De Vita Contempl., 5; Athenaeus : x, 17

(١١) **Joseph.** : Ant., 12, 2, 1; B. J., 2 497; 7, 369

راجع تعليقا على هذه الأرقام فى : مصطفى كمال عبد العليم : اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، صفحات ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(١٢) **Joseph.** :Ant., XIV, 7,2; XIX, 5,2; Philo : Leg ad Gaium, 10.

راجع تعليقاً على هذا فى : Milne نفس المرجع السابق ٣ و ٤ .

(١٣) **P. Lond.**, 1912

(١٤) **Strabo** : XVII,

(١٥) **B.G.U.**, 1079; Philo : De Sp. Leg. II, 75.

(١٦) **Juster** : Les Juifs dans l'Empire Romaine, I, p. 468.

(١٧) **P. Lond.**,

(١٨) عن عرض سريع لهذا الارتباط راجع Milne . نفس المرجع السابق صفحات ٢٣ (فقرة ٢٨(و ٣٨ – ٣٩ (فقرة ١٧) ومصادر هذه الفقرات فى صفحات ٢٩٤ و ٢٩٥ على التوالى .

(١٩) P. Lond., 904, II, 18 — 38.

(٢٠) **P. Giess.**, 40, Col. 2, II, 16 — 29.

(٢١) **Philo** : Adv. Flacc., 76.

راجع كذلك تعليق Rostovt zeff : Soc. and Econ. Hist. of the Rom. Imp., II, p. 667, n. 39.

(٢٢) **P. Ox.** 1681, 4 ff.

(٢٣) **B.G.U.** vol. V, 53 — 6

(٢٤) **P. Giess.**, 40.

(٢٥) **Rostovtzeff** : Soc. and Econ. Hist. of the Rom. Emp., p. 419

(٢٦) صفة dediticii تعنى حرفياً «المستسلمين» أو «العبيد المحررين» ولكن الطبقة أو الفئات التى كانت تطلق عليها هذه التسمية من الناحية الرسمية ليست معروفة على وجه التحديد Rostovtzeff نفس المرجع السابق ص ٤١٨ .

مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى

(حوالى ٤٨ – ٦٤٢م)

للدكتور

جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

مقدمة :

ظهرت المسيحية فى أخريات التاريخ القديم ، وأخذ المبشرون ينشرون رسالتها فى أقطار الأرض المعروفة وقتذاك ، ومن بينها روما عاصمة الامبراطورية الرومانية ، ومصر إحدى ولايات تلك الامبراطورية . وقد بدأ التبشير بالديانة المسيحية كحركة سرية لا يمكن أن تكون علانية مع طبيعة النظام القائم وقتها . وكان على رأس المبشرين بها فى روما خلال القرن الأول للميلاد القديس بطرس أحد تلامذة المسيح ومعاونه الفيلسوف الرومانى القديس بولس ، بينما قام بالتبشير بها فى مصر القديس مرقس (١) .

ولقد وجدت المسيحية فى مصر حقلا خصيباً ترعرع فيه غرسها بسرعة كبيرة . ويرجع ذلك إلى أن التفكير الدينى المصرى القديم وصل فى تطوراته على مر العصور إلى كثير من النتائج التى اعتبرها المسيحيون

---

(١) Cf. Lesourd, P., Histoire de l'Eglise (Paris, 1939), 11 ff.; Moreau, E. de, Histoire de l'Eglise (Tournai—Paris, 1931), 4 ff.; Neill, S.,A History of Christian Missions (Aylesbury, 1966), 26 ff.

أساساً لديانتهم الجديدة ، حتى أنهم لم يجدوا فى الانتقال من الدين القديم إلى الدين الجديد صعوبة كبيرة على عقولهم وأفهامهم . ولتفسير هذه الحقيقة نستعرض بعض المبادىء العامة التى كانت تحمل وجه الشبه بين القديم والجديد فى الديانتين ، والتى مهدت الطريق لسرعة انتشار المسيحية فى مصر .

(أولا) يلاحظ أن فكرة الوحدانية التى هى أساس الديانة الجديدة لم تكن غريبة على قدماء المصريين فى أخريات عهدهم بالرغم من تعدد آلهتهم . ولا يفوتنا فى هذا الصدد ما كان من أمر ديانة اخناتون (١٣٨٣ — ١٣٦٥ ق . م) من الأسرة الثامنة عشرة ومحاولة تعميم وحدانية قرص الشمس . ولو أن هذه الثورة الدينية ترجع إلى عصر سحيق ، الا أنها تمثل مرحلة هامة فى تطور التفكير الدينى المصرى . ثم أن لاهوت المسيح وناسوته لهما شبيه فى شخص أوزيريس الذى كان إلهاً وإنساناً فى ذات الوقت . وفى الحقيقة كان كل الفراعنة أشخاصاً مؤلهين . وكل هذه الأفكار التى تشبع بها المصريون القدماء كانت تميل إلى الوحدانية فى العبادة ، وهذه الوحدانية هى أساس الديانة الجديدة .

(ثانياً) فكرة التثليث ، وهى إحدى مفاتيح العقيدة المسيحية ، كانت مع الفارق فى جوهرها بطبيعة الحال ، شائعة كل الشيوع بين قدماء المصريين ، حتى أصبح لكل مدينة هامة من مدن مصر القديمة ثالوثها الخاص بها . ولا شك أن أشهر هؤلاء ثالوث ايزيس وأوزيريس وحورس . ولذلك عندما نادت المسيحية بالتثليث لم يجد المصريون فيه شيئاً غريباً عليهم ، بل كان أمراً ألفوه وعرفوه من قبل .

(ثالثاً) أما الفكرة الثالثة فهى فكرة ولادة ابن الله من عذراء بكر بنفحه من روحه القدس . وتظهر هذه الفكرة أيضاً عند قدماء المصريين فى أمثلة وأشكال متعددة ، منها مولد حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ،حيث اعتبره الكهنة إبنا لآمون من عذراء بكر حتى يساعدوه على

تثبيت نفسه على العرش . ومن ذلك أيضاً أن الإله أبيس كان يتجسد من عجلة بكر بعد حلول روح الإله بتاح فيها .

(رابعاً) كان مبدأ البعث والخلود فى العالم الآخر، وكذلك مبدأ الثواب والعقاب اللذان بشرت بهما المسيحية ، من أقوى تعاليم الديانة المصرية القديمة ، واليهما يرجع التطور العظيم الذى حدث فى مدنيتهم . وما الأهرامات والمقابر والمعابد الجنائزية والتحنيط وصناعة التماثيل وغير ذلك من الأعمال الجبارة إلا بعض المظاهر التى حاول قدماء المصريين بواسطتها المحافظة على جثثهم حتى تعود اليها أرواحهم فى العالم السفلى ، أملا فى تخليد أنفسهم بعد الموت فى النعيم المقيم .

(خامساً) الصليب الذى أصبح فى شكله المعروف رمز الحياة الأبدية الروحية فى الديانة المسيحية ، قريب الشبه بعلامة الحياة «عنخ» التى كان آلهة قدماء المصريين يحملونها على الدوام ، وما هى الا صليب معقود الرأس (١) .

يتضح من كل ذلك أنه عندما بدأ القديس مرقس ، وكان يهودى الأصل من المقيمين فى ليبيا ثم إعتنق المسيحية ، رسالته بالتبشير بالدين الجديد فى مدينة الاسكندرية حوالى عام ٤٨ م ، لم يجد المصريون فى مبادئه أية غرابة على عقولهم . بل لعلهم وجدوا فيها سمواً على كثير من الأفكار التى ألفوها واعتادوا عليها منذ القدم . ومن الأدلة على انتشار هذه الديانة بسرعة فى مصر ما وجده بعض المنقبين فى صعيد مصر من برديات وفيرة تحتوى على ترجمة قبطية لكثير من أجزاء الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يرجع تاريخها على ما يظن إلى القرن الثانى الميلادى .

---

(١) Atiya, A.S., A History of Eastern Christianity (London, 1968), 20-21 & notes.

أنظر أيضاً عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس—مستخرج من رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ٦ ؛ منير شكرى : المسيحية وماتدين به للقبط– مقال فى رسالة مارمينا الخامسة (الاسكندرية١٩٥٤) ص ٦٠ – ٦١ ؛ زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ (القاهرة ١٩٦٢) ص ٣٥ – ٣٧ ؛ سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية (القاهرة ١٩٦٣) ص ٣٧ وما يليها .

هذا ، ومن المحقق أن كنيسة الاسكندرية التى بثت لها الدعوة فى الخفاء فى أول الأمر ، لم يمض عليها زمن طويل إلا وكان قد انتظم عقدها تحت زعامة بطريركها (١) ورؤساء أساقفتها وكهنتها بجميع طبقاتهم ومختلف طقوسهم . وبذلك تغلغلت الديانة الجديدة تغلغلا سريعاً فى جميع الأوساط المصرية فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية القديمة شبحاً يحتضر، بعد الأزمات العنيفة التى هزت كيانها وقوضت بنيانها من سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وثقافية وعسكرية وغيرها . وقد واجهت كنيسة الاسكندرية بعزيمة ثابتة اضطهاد الأباطرة الرومان لها الذين إعتبروا الدين الجديد بمثابة دولة داخل الدولة ومنافساً خطيراً لسلطانهم وتهديداً مباشراً لوحدة الامبراطورية التى يرمز لها بالسلم الرومانى (٢) .

وبسقوط الدولة الرومانية القديمة وبداية الامبراطورية الرومانية الشرقية تنتقل تبعية مصر من روما نهائياً إلى القسطنطينية ، تلك العاصمة الواقعة عند التقاء البسفور ببحر مرمرة . ولا يعنى هذا تغييراً كبيراً فى موقف الأباطرة الرومان من المسيحيين فى مصر أو فى غيرها من أركان دولتهم الواسعة : وانما جاء هذا التغيير مع بدايات القرن الرابع باعتلاء قسطنطين الكبير عرش الامبراطورية . ويعتبر حكمه من أهم الصفحات فى تاريخ مصر والدولة الرومانية ، لأنه كان أول الأباطرة الرومان الذين اعترفوا رسمياً بالديانة المسيحية ، فأصدر مرسومه المشهور باسم مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م الذى أجاز اعتناق هذه الديانة (٣) .

---

(١) أخذنا بتهجئة القلقشندى لهذا اللقب . فقد ورد فى صبح الأعشى (ج ٥ - القاهرة ١٩١٥ - ص ٤٧٢ و ج ٨ القاهرة ١٩١٥ - ص ٤٢) تحت اسم بطرك وبطريرك وجمعها بطاركة .

(٢) Cf. Runciman, S., Byzantine Civilisation (London, 1948), 14 — 20.

(٣) Stanley, A.P., Lectures on the History of the Eastern Church (London, 1924), 200 ff.; Moreau, 21, 38; Lesourd, 23; Runciman, 25 ff.; Baynes, N., The Byzantine Empire (London, 1939), 17.

راجع أيضاً ، سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ (القاهرة ١٩٥٨) ص ١٦ وما يليها .

وطوال العصر المسيحى فى مصر الذى بدأ خوالى منتصف القرن الأول واستمر حتى أواسط القرن السابع للميلاد ، كانت الاسكندرية — فى الحقيقة — هى مركز الاشعاع الذهنى والفكرى ومحط الأنظار ومعقد الآمال . وكان مجتمعها مليئاً بالصخب والضجيج نابضاً بالحركة والحياة . فقد أخرجت الكثير من القديسين من آباء الكنيسة الأول وعلى رأسهم القديس مرقس . وشاهدت أفظع أنواع الاضطهاد، وبخاصة أيام دقلديانوس. واشتهرت مدرستها اللاهوتية التى تجلت فيها بشكل واضح حيوية كنيسة الاسكندرية من الناحية الفكرية ، والتى تكون فيها للمرة الأولى أدب مسيحى وافر المحصول ، والتى قدمت للتراث البشرى طبقة من الفلاسفة اللاهوتيين الذين ملأوا العالم المعروف وقتذاك بعلومهم وأفكارهم وبجدلهم ونقاشهم فى المسائل الفلسفية واللاهوتية . كذلك واجهت المدينة أولى البدع التى نادى بها أحد كهنتها وهى البدعة الأريوسية ، وتصدى له راهب قديس قدر له أن يظل اسمه وسيرته وأعماله ومؤلفاته موضع دراسات حتى يومنا هذا ، وهو أثناسيوس الاسكندرى ، وذلك فى أول المجامع المسكونية التى عقدت لبحث مسألة الانشقاقات الدينية التى أخذت تتزايد مع الزمن لتؤثر على علاقات مصر بالدولة البيزنطية نفسها . كذلك شهدت ضواحى الاسكندرية الفترة المبكرة من ظهور الرهبنة فى مصر ، وكان ذلك على وجه الخصوص فى وادى النطرون وصحراء مريوط .

كل هذه وتلك صور ومشاهد لابد للباحث المدقق فى مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى (١) أن يتوقف أمامها . وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن

---

(١) تخصص فى الكتابة فى موضوع تاريخ كنيسة الاسكندرية القبطية الارثوذكسية العديد من الباحثين والمؤرخين المحدثين الذين يمكن تقسيمهم إلى ثلاث مدارس فكرية متباينة . الأولى هى المدرسة البروتستانتية ، ويبدو فى كتابات أعضائها الانعطاف الشديد مع الفهم المحدود، وعلى رأس هذه المدرسة ج.م. نيل J.M. Neale وأ.ل. بتشر E.L.Butcher؛ والثانية هى المدرسة الكاثوليكية ويبدو بصفة عامة الاتجاه غير المنصف فى كتابات أعضائها . فهم يكتبون عن تاريخ هذه الكنيسة من وجهة نظر كاثوليكية بحتة يبدو أثرها واضحاً عند تعرضهم لكثير من المشاكل والخلافات الدينية التى قامت فى العصور الوسطى بين مختلف =

القول ان مجتمع الاسكندرية إبان تلك الحقبة من الزمن شاهد عدة ظواهر هامة تعتبر من سماته ومميزاته العامة التى طبعته بطابعها وتركت أثرها الواضح عليه ، ومن أهمها أن لم تكن أهمها على الاطلاق الظواهر السبع التالية :

الظاهرة الأولى : مرقس الإنجيلى وقديسو الاسكندرية .

عرف مجتمع الاسكندرية عدداً غير قليل من الآباء القديسين الذين ذاع صيتهم فى الشرق والغرب على السواء . فنهم من برز فى مجال التبشير بالدين الجديد ، ومنهم من ارتبط اسمه بمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، ومنهم من عاصر عصر الشهداء واكتوى بنار الاضطهادات التى عانى منها أقباط مصر على أيدى الرومان ومن بعدهم البيزنطيين . ومنهم من انغمس فى المسائل اللاهوتية ومشاكل الانشقاقات الدينية ، ومنهم من اشتهر فى عالم الرهبنة .

ويأتى على رأس هؤلاء القديس مرقس الذى بشر بالمسيحية فى الاسكندرية (١) . وهو بالنسبة لأقباط مصر يعتبر مؤسس كنيستهم

=المذاهب المسيحية ، ومن بينهم ب . شينو P. Cheneau و ب . ليزورد P. Lesourd ؛ أما المدرسة الثالثة فهى المدرسة المصرية ، وتتميز باعتدالها فى تناولها للموضوع. ولكن يؤخذ على كتابات كثير من الكتاب القبط تغلب الناحية العاطفية عليها بشكل يبعد بها فى كثير من الأحيان عن الناحية العلمية الخالصة والمنهج العلمى السليم . وينتمى إلى هذه المدرسة كتاب مثل راغب عبد النور وزكى شنودة وصابر جبرة ومنير شكرى وايريس حبيب المصرى . وعلى هذا يجب تناول مثل هذه المؤلفات بشىء من التروى والحذر مع مقارنتها بغيرها من الأصول والمراجع بغية الوصول إلى أسلم النتائج وأصوبها . وما ذكرناه لا يمنع من القول بوجود عدد من الدارسين والمؤرخين الكاثوليك الغربيين والقبط المصريين ممن تناولوا الموضوع بحيدة وجدية وموضوعية من أمثال أ.ر. هاردى E.R. Hardy و و. ه . ورل W.H. Worrell من الغربيين ، وزاهر رياض وسليمان نسيم وعزيز سوريال عطية وكامل صالح نخلة ومراد كامل من القبط المصريين .

(١) حول سيرة القديس مرقس ، أنظر كامل صالح نخلة : تاريخ القديس مار مرقس البشير (القاهرة ١٩٥٢) ، بتشر (أ. ل.) : تاريخ الأمة القبطية – تعريب اسكندر تادرس – ج ١ (القاهرة ١٩٠٠) ص ٢٣ ومايليها . راجع أيضاً الكتب الاجنبية التالى بيانها =

الوطنية ، فضلا عن أنه أحد الإنجيليين الأربعة ، وواضع أقدم انجيل رجع اليه كل من القديسين متى ولوقا ، ويحتمل أن يكون قد استخدمه أيضاً القديس يوحنا . ثم أنه يعتبر أول بطاركة الاسكندرية فى سلسلة ممتدة لم تنقطع من الآباء البطاركة الذين جاءوا على الكرسى البطريركى فى الاسكندرية منذ وقته حتى يومنا هذا . وهو أيضاً أول قديسى الاسكندرية أنهمر بعده سيل من القديسين والقديسات ، ثم هو واحد من أبرز شهداء المسيحية فى فجر تاريخها (١) .

ولد مرقس من أبوين يهوديين كانا يقيمان فى مدينة القيروان بافريقية . وبعد أن تعرضا لهجوم قبائل البربر انتقلا إلى بيت المقدس ، وهناك يحتمل أن يكونا قد انجبا ابنهما مرقس ، وكان ذلك بعد ميلاد السيد المسيح بوقت قصير . وقد تلقى الابن تعليما حسناً ، وكان على معرفة طيبة باليونانية واللاتينية ، فضلا عن اللغة العبرانية . كان من أسرة شديدة التدين ، وقد تلقن مبادىء المسيحية على يد أحد أقربائه وهو القديس برنابا St. Barnabas. والمعروف أنه كان على صلة بكل من القديسين بطرس وبولس فى روما . وفوق هذا وذاك أصبح من تلامذة المسيح المقربين اليه . وقد زاره المسيح

Glanville, S.R.K. (ed.), The Legacy of Egypt (Oxford, = 1957), 310; Cheneau, P., Les Saints d'Egypte, I (Jérusalem, 1923), 494 — 509.

ويلاحظ أن بول شينو الأورليانى يتحدث عن سيرة القديس مرقس من وجهة نظر كاثوليكية بحتة . ونجد مثلا لذلك عندما وصف مرقس بأنه سكرتير القديس بطرس ومترجمه الخاص ، وذلك لأسباب غير خافية (أنظر جـ ١ ص ٤٩٧ من كتاب شينو) .

(١) Jouguet, P., "La Domination Romaine en Egypte aux deux premiers siècles après Jésus-Christ," Conférence donnée à la Société royale d'Archéologie d'Alexandrie, le 29 Avril 1946 (Alexandrie, 1947), 36; Atiya, 25.

أنظر أيضاً ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية — جـ ١ (القاهرة — بدون تاريخ) ص ١٩ ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ٢٣ .

فى منزله أكثر من مرة ، واختاره ليكون أحد السبعين تلميذاً . وكان اجتماع تلامذة المسيح بعد صعوده فى بيت مرقس فى أورشليم حيث حل عليهم الروح القدس . وأصبحت الغرفة التى تم فيها هذا الحدث أول كنيسة صغيرة فى التاريخ . ولهذا السبب اكتسب مرقس مكانة خاصة مميزة باعتباره واحداً من أقرب المقربين إلى المسيح . إذ عاصره ، وكان ملازماً له لا يكاد يفارقه ، كما كان شاهد عيان لأعماله وسيرته مما هيأ له فرصة كتابة انجيله الذى اعتبر أساس الأناجيل الأخرى .

هذا ، ويحتمل أن يكون القديس مرقس قد وضع انجيله باللاتينية أو اليونانية أو باللغتين معا . ويرى القديس يوحنا فم الذهب (حوالى ٣٤٧-٤٠٧م) أن مرقس وضع إنجيله أصلا فى مصر باللغة اليونانية . وثمة رواية تقول انه كتبه بعد استشهاد كل من بطرس وبولس . ولكن هذه الرواية لا تقف على أرض صلبة ، إذ من المعروف أن الانجيل ظهر بعد صلب المسيح باثنتى عشرة سنة ، أى سنة ٤٥ م ، بينما استشهد القديسان فى عهد نيرون (٥٤ — ٦٨ م) ، ويحتمل أن يكون ذلك فى سنة ٦٤ م . وكيفما كان الأمر ، فما لا شك فيه أن مرقس أحضر انجيله معه إلى الاسكندرية عندما قدم اليها . وعلى الرغم من أن النسخة اليونانية التى معه كانت تفى بحاجته فى تلك المدينة ، فثمة رأى يقول انه أعدت نسخة أخرى من الانجيل باللغة المصرية ليستفيد منها أهالى الاسكندرية الذين اعتنقوا المسيحية وكانوا يجهلون اللغة اليونانية (١) .

كان مرقس قديساً لا يعرف الكلل أو الملل طريقاً إلى نفسه أو قلبه . وكان كثير السفر والترحال ، لايكاد يستقر به المقام فى مكان حتى ينتقل إلى غيره واعظاً ومبشراً . ونعرف أنه ذهب مع بولس وبرنابا إلى أنطاكية ، ثم عاد إلى بيت المقدس ، وبعد ذلك صاحب برنابا إلى قبرص . وكان أثناء اقامته فى روما وايطاليا ملازماً لبطرس . ومع ذلك كان عمل مرقس الحقيقى فى افريقية . فعبر البحر المتوسط إلى القيروان التى كانت مستعمرة اغريقية وقتذاك . وبعد أن بذر فيها بذور الدين الجديد توجه إلى الاسكندرية

---

(١) Atiya, 25—26. أنظر أيضاً ، كامل صالح نخلة : تاريخ القديس مار مرقس ص ٨٦ ومايليها .

عن طريق الواحات وبابليون . وكانت الاسكندرية وقتذاك مركزاً مرموقاً للعلم والفلسفة والأدب والفن . كانت نسخة طبق الأصل من روما من حيث أهميتها ولكونها مثلها معقلا للوثنية . وكان يعلم تماماً أنه سوف يدخل فى صراع مرير مع الوثنية فى تلك المدينة مدركاً صعوبة مهمته وخطورتها .

وقد ثار الخلاف حول تاريخ دخول مرقس مدينة الاسكندرية . فمن قائل انه دخلها سنة ٤٨ م ، أى بعد صعود المسيح بخمس عشرة سنة . وهناك روايات أخرى حددت تاريخ دخوله المدينة فى سنوات ٥٥ و ٥٨ و ٦١ م (١) . وأيا كان التاريخ الحقيقى لظهور مرقس فى الاسكندرية ، فقد أجمعت الآراء أنه استشهد سنة ٦٨ م أيام اضطهادات نيرون . وفيما بين تاريخ دخوله المدينة وسنة استشهاده نجح فى مهمته التى تنحصر فى اجتذاب عدد كبير من الوثنيين إلى المسيحية . وعندما أحس بنذر العاصفة تقترب بعد أن وصلت أخباره إلى روما ، بادر بتعيين أسقف له يدعى حنانيا الإسكاف ، ورسم اثنى عشر قسيساً وسبعة شمامسة لرعاية الجمهور المسيحى إذا تعرض للخطر . وكانت هذه أول صورة للتنظيم الكهنوتى فى الاسكندرية .

ويبدو أن مرقس قام بعد ذلك برحلتين . إذ أبحر أولا إلى روما حيث التقى بكل من بطرس وبولس ، وترك العاصمة بعد استشهادهما سنة ٦٤ م ، ومكث بعض الوقت فى اكويليا بالقرب من البندقية قبل عودته إلى الاسكندرية . وبعد أن وجد رعيته ثابتين فى العقيدة قرر زيارة مدينة القيروان حيث أمضى عامين يقال انه كانت له فيهما الكثير من المعجزات . وبعد أن رسم للمدينة أساقفة وكهنة ، وبعد أن اجتذب الكثير من أهلها إلى الدين الجديد ، قفل عائداً إلى الاسكندرية حيث كانت فرحته بالغة عندما وجد أن رجاله قد تكاثروا إلى درجة سمحت لهم ببناء كنيسة كبيرة فى منطقة نائية عند مشارف

---

(١) أنظر عن ذلك كامل صالح نخلة : تاريخ القديس مار مرقس ص ٥٧ ومايليها ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ١٩ و ح ٢ .

البحر يقال لها بوكاليا . وانتشرت الشائعات وقتها أن المسيحين فى الاسكندرية أصبحوا يهدمون بتحطيم تماثيل الآلهة الوثنية ، الأمر الذى أدى إلى اشتعال النيران فى قلوب الوثنيين . وكانت النهاية تقترب بسرعة عندما وقع مرقس فى قبضة أعدائه فى يوم عيد القيامة من سنة ٦٨ م ، وهو يوافق نفس اليوم الذى يعيد فيه الوثنيون لإلههم سيرابيس . وتجمعت جموعهم الثائرة فى معبد سيرابيس وقد أثارهم الحكام ضد مرقس . وبعد الاحتفال بالعيد توجهوا مندفعين نحو المسيحيين الذين كانوا يحتفلون هم أيضاً بعيد القيامة فى كنيستهم فى بوكاليا . وألقوا القبض على مرقس ، وبعد أن ربطوا حبلا حول عنقه أخذوا يجرونه فى شوارع المدينة ، ثم ألقوا به فى السجن ليقضى فيه بقية الليل وهو بين الحياة والموت . وفى صباح اليوم التالى تكرر مشهد التعذيب إلى أن أسلم الروح . وقام المسيحيون بدفنه سراً فى قبر نحتوه من الصخر أسفل مذبح الكنيسة المقامة فى بوكاليا والتى سموها باسمه ، فعرفت باسم الكنيسة المرقسية نسبة اليه (١) .

هكذا كان مرقس هو أول قديسى الاسكندرية وأول شهدائها . وبعده لم يتوقف سيل الشهداء من القديسين والقديسات خلال القرون الثلاثة الأولى من المسيحية ، والذين بلغوا المئات والمئات ، وبخاصة أيام اضطهاد دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث (٢) . وليس من السهل حصر قديسى

(١) Atiya, 26 — 28. أنظر أيضاً ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص ١٩ — ٢٧ .

(٢) نجد حصراً لا بأس به لأولئك القديسين والقديسات فى الكتابين التاليين :
E.A.W. Budge (tr.), The Wit and Wisdom of the Christian Fathers of Egypt, Oxford, 1934 ; P. Cheneau, Les Saints d'Egypte, 2 vols., Jérusalem, 1923.
هذا ، وتتضمن مكتبة دير سيناء عشرات المخطوطات العربية القديمة التى تناولت سير الرسل والقديسين والآباء الأول فى المسيحية ، ومن بينهم قديسى الاسكندرية ، راجع فى ذلك مقالى « بستان الرهبان : عرض وتحليل للنسخة الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء » — مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية — المجلد ٢٣ (الاسكندرية ١٩٧١) ص ٥٩ — ٩٢ .

المدينة حصراً دقيقاً شاملا خلال القرون الأولى من المسيحية . ولكن لا شك أن عددهم كان كبيراً جداً . وان نظرة إلى مؤلف الكاتب الفرنسي بول شينو الأورلياني عن قديسي مصر ، تكفي لاعطائنا فكرة عن هذا العدد الهائل من قديسي الاسكندرية في العصر المسيحي ، وهم الذين أمكن التعرف عليهم وعلى أسمائهم وسيرهم والوقت الذي عاشوا فيه . لقد كان هذا العصر بالنسبة للاسكندرية ، في الواقع ، هو عصر القديسين والشهداء .

الظاهرة الثانية : الاضطهادات وعصر الشهداء .

لم يكن مصدر اضطهاد أباطرة الرومان للمسيحيين بمصر هو حرصهم على العبادات الوثنية التي كانت سائدة قبل المسيحية . وانما هم أوجسوا خيفة من طبيعة الدين الجديد الذي لا يرضى مع الله شريكاً حتى ولو كان الامبراطور . وكان القائمون على أمر الدولة الرومانية على استعداد للتساهل والتسامح في حرية العبادة من جميع نواحيها الا ناحية واحدة تمسكوا بها هي عبادة الامبراطور التي كانت نبراساً لوحدة الامبراطورية من جهة ولسيطرة الامبراطور المطلقة من جهة أخرى . وكانت المسيحية كما بلغ الأباطرة تدعو إلى وحدانية الله وإلى الاقلاع عن فكرة عبادة الامبراطور . وهذا في نظرهم خيانة عظمى يجب أن يعاقب عليها كل من يقول بها (١) .

هكذا كان لعبادة الامبراطور المكانة الأولى في سياسة الأباطرة الرومان ، كحلقة اتصال وتوحيد بين مختلف أجزاء الامبراطورية المتباعدة وكعنوان ولاء الشعوب المتباينة ، ومن بينها شعب مصر ، للجالس على العرش في روما عندما كانت روما هي عاصمة الدولة . ونشأ عن ذلك في الديار المصرية اصطدام عنيف بين التفكير المصري المسيحي الناشيء والتفكير الروماني السياسي العتيق ، بعد أن وجد الأباطرة في المسيحية خطراً يتهددهم ويهدد كيانهم . وكان اضطرابهم شديداً لشيوع تلك الديانة حتى

(١) Chadwick, H., The Early Church (London, 1969), 24 ff.; Lesourd, 16; Moreau, 14 f.

راجع أيضاً ، سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ٨٤ — ٨٥ .

أنهم عملوا جاهدين على طمس معالمها بكل الوسائل والسبل الممكنة ، وجدوا بهمة لاستئصال شأفتها والقضاء على اتباعها قبل أن تتأصل جذورها فى الأرض . وعلى ذلك تنشأ سلسلة الاضطهادات المعروفة التى أنزلها الأباطرة بأهالى الاسكندرية الذين اعتنقوا المسيحية ، وذلك خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد . وهذه الاضطهادات حسب تسلسلها الزمنى هى اضطهادات نيرون فى عامى ٦٤ و ٦٨ م ، وتراجان Trajan (٩٨–١١٧ م) عام ١٠٦ م ،وسبتميوس سفيروس Septimius Severus (١٩٣ – ٢١١ م) عام ٢٠٢ م ، وديسيوس Decius (٢٤٩ – ٢٥١ م) حوالى عام ٢٥٠ ، وفاليريان Valerian (٢٥٢ – ٢٦٠ م) عام ٢٥٧ م. وقد بلغت هذه الاضطهادات أشدها سنة ٣٠٣ م فى عهد الامبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ – ٣٠٥ م) (١) .

ولكن أهم هذه الاضطهادات بالنسبة لمصر بعامة والاسكندرية بصفة خاصة هى اضطهادات سفيروس وديسيوس وفاليريان ودقلديانوس . ولذلك تستحق وقفة قصيرة أمامها . فقد أصدر سفيروس عام ٢٠٢ م مرسوماً يحرم اعتناق المسيحية ، وأمر بتطبيقه بصرامة متناهية . وكان ذلك أيام بطريرك الاسكندرية ديمتريوس الأول (١٨٧ – ٢٣٠ م) ومعاصره أوريجين الاسكندرى ، واضطرت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية إلى إغلاق أبوابها فترة من الزمن . كذلك حرم المسيحيون من الامتياز الذى كان يهود المدينة يتمتعون به وقتها والخاص باعفائهم من احراق البخور أمام تمثال الامبراطور . وكان الأمر الامبراطورى صريحاً بتوقيع أقسى أنواع العقاب على الممتنعين الذين كانوا يجلبون من كل أنحاء البلاد إلى الاسكندرية حيث كان ينتظرهم مصير تعس . فالبعض فصلت رءوسهم عن أجسادهم ، بينما أرسل البعض إلى الأسود والحيوانات المفترسة ، وأحرق البعض الآخر

---

(١) : Chadwick, 117 f.; Moreau, 21; Jouguet, 37 f.
أنظر أيضاً ، مينا اسكندر : الشهيد المصرى مار مينا (الاسكندرية ١٩٦٣) ص ٥ ومايليها ، زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١٠١ ومايليها .

أحياء دون تفرقة فى السن أو الجنس . وفى هذه المذبحة فقد أوريجين أباه ليونيديس Leonides ، بينما نجا هو منها . ولكن جهود السلطة الامبراطورية فى القضاء على المسيحية ذهبت أدراج الرياح . ويكفى للدلالة على ذلك أنه كان يوجد بالاسكندرية ثلاثة أساقفة أثناء الاضطهاد ، ارتفع عددهم إلى عشرين عند نهاية حكم سفيروس .

ويمكن القول ان اضطهاد سفيروس كان أول اضطهاد رسمى تقوم به الدولة ضد المسيحيين فى مصر . أما الاضطهادات السابقة له فقد كانت ، فى الحقيقة ، اضطهادات شعبية قامت بها جماهير الشعب الوثنى واليهودى فى المدينة ضد المسيحيين ، وكانت الدولة وقتها مجرد أداة لتنفيذ الاضطهاد فحسب . وابتداء من عهد سفيروس أصبح اضطهاد المسيحيين هو السياسة الرسمية للأباطرة الرومان . وكان الاضطهاد الثانى الكبير ، الذى مس الاسكندرية بصفة خاصة ، فى عهد ديسيوس . فقد أزعج الامبر اطور الأخطار الكامنة وراء سرعة انتشار المسيحية . فأصدر عام ٢٥٠ م مرسوماً بالزام كل مواطن بالحصول على شهادة من الحاكم المحلى التابع له تفيد أنه قام بتقديم القرابين للآلهة الوثنية ، وأنه سكب الزيت على الأرض اكراماً لها . وقد تعرض الذين رفضوا الامتثال للمرسوم للعذاب بصورة وحشية . وذهب ضحية هذا الاضطهاد آلاف الشهداء فى الاسكندرية ، وفى المدن والقرى المجاورة لها . واستمر الاضطهاد فى عهد خلفه فالبريان . ومما يذكر أن بعض المسيحيين ارتدوا عن دينهم جهاراً حفاظاً على حياتهم . ولم ينعم المسيحيون بفترة من الهدوء النسبى الا فى عهد الامبراطور جالينوس Galienus (٢٥٣ — ٢٦٨ م) بسبب الأخطار الخارجية التى كانت تهدد الامبراطورية وقتها ، فضلا عن مشاكله الخاصة ، حتى أنه أصدر مرسوماً بالتسامح الدينى على الرغم من عدائه الشديد للمسيحية . ولكن سياسة الاضطهاد سرعان ما عادت فى شكل أشد من الأول وأنكى ، وكان ذلك

فى عهد الامبراطور دقلديانوس الذى يعتبر بالنسبة لأقباط مصر خاتمة الاضطهادات (١) .

لقد جعل هذا الامبراطور نفسه فى مرتبة أقرب إلى الآلهة منه إلى البشر ، وأحاط نفسه بهالة من العظمة ، وأصبح على أولئك الذين يريدون مقابلته أن يسجدوا له وأن يقوموا بعبادته . وزاد احتمالا إلى قدسيته ادعاؤه الانحدار من جوبيتر ملك الآلهة . وبناء على ذلك أصدر عام ٣٠٣ م طائفة من المراسيم تحتم على جميع رعاياه بما فيهم المسيحيين ضرورة تأدية فروض الديانة الوثنية فى المناسبات المقررة ، وتوقيع أشد العقوبات على كل مسيحى يمتنع عن ذلك . ولكن المسيحيين فى الاسكندرية لم يقبلوا فكرة عبادة كائن حى حتى ولو كان الامبراطور نفسه ، على أساس أن هذا يتنافى والتعاليم التى نادت بها تلك الديانة . واعتبر دقلديانوس ذلك اهانة له وخيانة عظمى. وبدأ فى ٢٣ فبراير من عام ٣٠٣ م العهد الذى أطلق عليه المسيحيون اسم «عهد الاضطهاد الأعظم» حيث لقوا شتى أنواع العذاب ، وهدمت كنائسهم وحرقت كتبهم المقدسة . ولكنه ووجه بمقاومة عنيفة من المسيحيين بعامة ومن مسيحى الاسكندرية بخاصة (٢) .

لقد كان وقع الاضطهاد شديداً على القبط لدرجة أنهم بدأوا يؤرخون سنيهم للشهداء من ذلك العصر ، مبتدئين بعام ٢٨٤ م وهو تاريخ تولية دقلديانوس الحكم ، بمعنى أنهم استعملوا تاريخ حكمه بداية لتاريخ السنين

---

(١) Atiya, 28 — 30; Cheneau, I, 76 ff., 255 ff.
أنظر أيضاً ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ٩٦ ومايليها و ١٢٣ و ما يليها .

(٢) Budge, E.A.W. (ed. & tr.), Coptic Martyrdoms in the Dialect of Upper Egypt (London, 1914), 253 ff.; Guettée, Histoire de l'Eglise, II (Paris & Bruxelles, 1886), 264—274; Chadwick, 121; Atiya, 30 — 31.
أنظر أيضاً، مراد كامل : من دقلديانوس إلى دخول العرب ، أنظر تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الثانى (القاهرة – بدون تاريخ) ص ١٩٨ ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ١٢٠ – ١٢٧ ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص١٦٩ ومايليها.

القبطية . فالسنة الأولى القبطية تبدأ من سنة ٢٨٤ م لهذا السبب (١) . ومع ذلك يقال ان هذا الامبراطور الذى أخذ مسيحيى الاسكندرية بمنتهى العنف والقسوة فى بداية الأمر ، أحسن اليهم فى النهاية ، حتى أنه بعد عودته إلى الاسكندرية وزع عليهم غلالا كثيرة بقصد ترضيتهم ، فأقاموا له عموداً تذكارياً يحمل تمثاله عرف باسم عمود دقلديانوس ، وهو العمود الذى سماه العرب فيما بعد باسم عمود السوارى ، ولا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم (٢) .

أخفق دقلديانوس فى القضاء على المسيحية فى مصر وأخفق فى العودة بالامبراطورية إلى الماضى الوثنى ، بينما استمر المسيحيون ومن بينهم مسيحيو الاسكندرية منشقين على عبادة الامبراطور على الرغم من الاضطهادات التى عانوا منها الأمرين . ولم يجد دقلديانوس بدأ من التنازل عن العرش عام ٣٠٥ م تاركاً لقسطنطين الكبير (٣٠٦ — ٣٣٧ م) مهمة ايجاد الحل المناسب الذى يربط الامبراطور بالاله المسيحى (٣) .

وكان قسطنطين حكيما ذكياً بعيد النظر ، وحتى يحافظ على وحدة العالم الزومانى وينقذ ما يمكن انقاذه من الكيان المتداعى للامبراطورية ، وادراكاً منه أن الوثنية تحارب فى معركة خاسرة أمام الديانة الجديدة التى تأصلت جذورها وازداد عدد اتباعها — أصدر فى عام ٣١٣ م ، وقبل أن يصبح الامبراطور الأوحد فى الدولة ، مرسوم ميلان الشهير الذى أجاز رسمياً اعتناق الدين المسيحى ، مبدياً قدراً كبيراً من التسامح الدينى حيال اتباع هذا الدين . وكان هذا انتصاراً كبيراً للمسيحية على الوثنية وعبادة الامبراطور ، بل كان دليلا على نهاية عصر بمثله ومفاهيمه وبداية عصر

---

(١) Atiya, 32. أنظر أيضاً مينا اسكندر : الشهيد المصرى مارمينا ص ١٧ ، مراد كامل : من دقلديانوس إلى دخول العرب ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) أنظر بتلر (الفرد أج) فتح العرب لمصر — عربه محمد فريد أبو حديد (القاهرة ١٩٣٣) ص ٣٣٠ و ٣٣٥ ومايليها .

(٣) Runciman, 23 — 24.

جديد بأوضاع جديدة مغايرة . وفى سنة ٣٢٣ م عندما أصبح قسطنطين الامبراطور الأوحد ، بعد أن تخلص من منافسيه فى الشرق والغرب ، ازداد ارتماؤه فى أحضان الاله المسيحى ، وأصبحت المسيحية هى ديانة الدولة وكنيستها هى كنيسة الدولة . ويبدو الأثر المسيحى واضحاً فى عملته وقوانينه التى اسنها لصالح المسيحية والمسيحين (١) . وكان هذا بداية مرحلة جديدة فى العلاقات بين المسيحين والوثنين ، وهى مرحلة اضطهاد الأكثرية المسيحية للأقلية الوثنية مع بدايات القرن الرابع الميلادى، وتتجلى هذه المرحلة بشكل واضح فى مدينة الاسكندرية .

ومما يدل على استقرار الديانة الجديدة وقتذاك ، والتطور الذى طرأ على العلاقات بين المسيحين والوثنين ، أنه عندما حاول جوليان المرتد (٣٦١ — ٣٦٣ م) Julian, the Apostate سنة٣٦١م القضاء على المسيحية والردة إلى الوثنية فشل فشلا ذريعاً فى تحقيق أمنيته(٢). وإذا كان لمحاولة جوليان أثر فى الاسكندرية ، فهو اشعال روح السخط والتذمر والثورة بين مسيحي المدينة ضد بقايا العناصر الوثنية وضد اليهود المتعاونين معها الحاقدين على اتباع الدين الجديد . وبلغت ثورتهم ذروتها عندما هاجموا معبد سيرابيس بالاسكندرية سنة ٣٩١ م — وكان ذلك فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الكبير — ودمروه وأحرقوا المعبود القديم . وكانت هذه ضربة قوية وجهت إلى الوثنية فى مدينة الاسكندرية (٣) .

---

(١) Atiya, 32. راجع أيضاً ، عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٩ وما يليها .

(٢) Chadwick, 154 — 155 & ff. أنظر أيضاً ، موس (هـ .) : ميلاد العصور الوسطى : ٣٩٥ — ٨١٤ ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٦٧) ص٣٣ .

(٣) Bury, J.B., History of the Later Roman Empire, I (New York, 1958), 368 — 369; Atiya, 32.

أنظر أيضاً ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية (القاهرة ١٩٦١) ص ٢٥٠ .

واستمرت ثورة المسيحيين ، فدمروا بعض أجزاء المكتبة الصغرى التى كانت كليوباتره قد أسستها بأروقة المعبد بعد أن فتكوا بالقائمين على حراسته . ولم يقف الثوار عند هذا الحد ، بل تعدوه إلى مهاجمة اليهود فخربوا معابدهم أيضاً ، وكان اليهود قد استغلوا اضطهاد جوليان فأثاروا الوثنيين ضد مسيحيى الاسكندرية . وكانت هناك جيوش من الرهبان المسيحيين المتزمتين تعسكر فى المدينة على استعداد للتصدى لبقايا الشعب الوثنى فيها . وحدث فى عام ٤١٥ م ، أيام الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الثانى ، أن اندفع مسيحيو الاسكندرية نحو دار الفنون بالمدينة حيث وضعوا يدهم على زعيمة الدراسات الفلسفية الوثنية بها وهى هيباشيا Hypatia بينما كانت عائدة إلى منزلها بعد محاضرة لها . وجروها إلى معبد القياصرة Templum Caesaris حيث رجموها حتى ماتت . والمعروف أن موتها قضى على آخر تلامذة المدرسة القديمة (١) .

ويكاد يكون من المتعذر حصر شهداء الاسكندرية فى عصور الاضطهاد التى مرت بها البلاد خلال القرون الثلاثة الأولى من المسيحية . ونجد فى «السنكسار» (٢) القبطى وفى كتب «سير القديسين» اسماء العديد من أولئك الشهداء . ومع ذلك فهم يمثلون نسبة ضئيلة من سلسلة الشهداء الذين أمكن التعرف عليهم . فما لا شك فيه أن عددهم الاجمالى كان كبيراً

---

(١) Chadwick, 171; Bury, I, 217 — 219; Atiya, 32.
أنظر أيضاً ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٥٨ و ٦٢ . هذا ، وسنتناول هذه الناحية بمزيد من التفصيل فى الظاهرة السابعة بآخر البحث .

(٢) السنكسار هو كتاب سير القديسين وأخبارهم ، ويشمل سيرة حياة القديس فى كل عيد من الأعياد الكنسية . وتتضمن المجموعة الخطية العربية المحفوظة بدير بسيناء عشرات المخطوطات التى اشتملت على «السنكسار» . أنظر ، عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية : فهارس كاملة مع دراسة تحليلية للمخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه بطورسينا — ترجمة جوزيف نسيم يوسف — ج ١ (الاسكندرية ١٩٧٠) ص ٥٦٢ .
أنظر أيضاً ، كامل صالح نخلة : كتاب السنكسار الجامع أخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين — جزءان (القاهرة ١٩٥١) .

جداً ، وبخاصة أولئك الذين راحوا ضحية اضطهاد دقلديانوس ، وكان على رأسهم مارمينا صاحب الدير المعروف باسمه فى صحراء مريوط ، وكذلك القديسة دميانة الابنة الوحيدة لمرقس حاكم شمال الدلتا التى كانت قد انسحبت إلى دير للراهبات مع أربعين من العذارى وقد ذبحهن دقلديانوس جميعاً . ولا يزال المكان الذى لجأن اليه مزاراً يحج اليه أقباط مصر حتى اليوم .

ومن ضحايا اضطهاد مكسيمينوس دايا (١)Maximinus Daia(٣٠٥ — ٣١٣ م) القديسة كاترينة السكندرية التى استشهدت وهى فى سن الثامنة عشرة من عمرها وكان ذلك عام ٣٠٧ م ، ولا يزال الدير المشهور فى سيناء يحمل اسمها إلى اليوم (٢) . وكان على رأس ضحايا اضطهاد مكسيمينوس أيضاً القديس بطرس بطريرك الاسكندرية (٣٠٠ — ٣١١ م) الذى يعتبر خاتم الشهداء (٣) . والخلاصة أنه لم يسلم أحد من هذه الاضطهادات ، سواء كان من الرجال أو النساء أو الشيوخ أو الأطفال ، وسواء كان من العامة أو الاشراف . وهكذا لم يكن الاستشهاد وقفاً على شخص دون

---

(١) كان هو وفاليريوس ليسينيوس Valerius Licinius بعد تنازل دقلديانوس يحكمان فى الشرق ، بينما كان قسطنطين وزميله ماكسنتيوس Maxentius يحكمان فى الغرب ، إلى أن قامت الحرب الأهلية بينهم التى انتهت بانفراد قسطنطين بالحكم سنة ٣٢٣ م. أنظر ، أومان (ش.) : الامبراطورية البيزنطية—تعريب الدكتور مصطفى طه بدر (القاهرة ١٩٥٣) ص ١٢ — ١٣ .

(٢) Atiya, 31 – 32; Cheneau, II, 513 – 514; Moreau, 18.

أنظر أيضاً ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ١٢٦ — ١٢٧ و١٣٠ و ١٣٧ و ١٣٩ و١٥١ ، زكى شنوده : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١١١ — ١١٧، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ١٨٤ ، جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه فى سيناء — مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية — العدد ٢٢ (الاسكندرية ١٩٦٩) ص ٩٥ و ح ١ .

(٣) جدير بالذكر أن الكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها بطرس الأول وكان السابع عشر فى عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحى ، وانما لأن قتله كان ختاما لحركة المذابح العامة التى استشهد فيها آلاف المسيحيين ، ولأنه أيضاً كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية ، وكان ذلك سنة ٣١١ م ، أنظر مراد كامل : من دقلديانوس إلى دخول العرب ص ٢١١ .

آخر أو فئة دون أخرى ، إنما شمل الجميع دون تفرقة أو تمييز للسن أو الجنس .

الظاهرة الثالثة : كنائس الاسكندرية وتنظيمها الكهنوتى .

كان للاضطهادات التى قاسى منها المسيحيون فى الاسكندرية عدة نتائج هامة ، أولاها تلك السلسلة الطويلة الممتدة من شهداء المدينة من الرجال والنساء الذين فضلوا الموت على الردة إلى الوثنية وتأدية فروض العبادة للامبراطور . أما النتيجة الثانية فهى أن الوثنية وعبادة الامبراطور كانتا تحاربان فى معركة خاسرة أمام الديانة الجديدة الزاحفة لظروف عديدة متشابكة تتعلق بالأوضاع التى ألمت بالامبراطورية الرومانية عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط .

وهكذا بالرغم من موجة الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون والتى بلغت ذروتها أيام دقلديانوس وردة جوليان ، فقد انتصرت المسيحية آخر الأمر فى فترة تغير وانتقال كان فيها جهاز العمل الرومانى فى الدين والفلسفة والفكر والسياسة والاقتصاد يلفظ آخر أنفاسه معلناً عن نهاية عصر وبداية عصر جديد بأوضاع جديدة مغايرة . وإذا كان لكل فعل رد فعل ، فقد كان لحركة الاضطهادات رد فعل يساويها . فكلما ازداد الاضطهاد ازداد اتباع المسيحية فى الاسكندرية تمسكاً بمبادئهم والعمل على تنظيم صفوفهم ولم شملهم . وكانت النتيجة أن تأسست كنيسة الاسكندرية التى كان لها أكبر الشأن فى تاريخ المدينة فى العصر المسيحى وفى سياستها وحضارتها ومجتمعها . ولقد امتد تأثيرها خارج نطاق الاسكندرية نفسها مما دعا أحد المؤرخين المحدثين وهو آرثر ستانلى (١) Arthur Stanley إلى القول بأن تاريخ هذه الكنيسة يلقى الضوء على تاريخ المسيحية ونشأتها فى الشرق .

(١) Stanley, 16.

وكانت أول كنيسة تشيد فى الاسكندرية هى تلك التى شيدها المسيحيون فى منطقة تعرف باسم «بوكاليا» أو «بوكاليس» بالقرب من البحر أيام القديس مرقس . وقد عرفت باسمه فأطلق عليها اسم «الكنيسة المرقسية» نسبة اليه (١) . ولم تكن هذه الكنيسة فى القرن السابع أكبر كنائس المدينة وأعظمها شأناً ، بل كانت هناك كنائس أخرى أعظم منها (٢) . ولما كان مؤسسها هو مرقس فقد اعتبر البطريرك الأول لها ، واعتبر البطاركة الذين تعاقبوا بعده خلفاؤه ، وكان حنانيا الاسكاف هو خليفته المباشر . أما هيئة رجال الدين فكانت تتألف من الأساقفة والقساوسة والشمامسة (٣) . وكانت مهمة هذه الهيئة بكامل أفرادها تأدية القداسات والطقوس الدينية فى أيام الآحاد والأعياد والمناسبات الدينية ، ورعاية أرواح اتباعها والسهر على راحتهم وتعليمهم والعمل على نشر الدين .

وإلى جانب الكنيسة المرقسية التى لا تزال إلى اليوم تحمل اسم مؤسسها ، كان هناك العديد من الكنائس التى أخذ عددها يزداد مع الزمن . فتأسست كنائس أخرى منها كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل ، وكنيسة بالقديس أثناسيوس ، وكنيسة ثيوناس ، وكنيسة القيصريون ، وكنيسة توما ، وكنيسة البشيرين أى الذين كتبوا البشائر الأربع ، وغيرها (٤) .

---

(١) كانت هذه الكنيسة وفقاً لما كتبه أحد بطاركة وشهداء القرن الرابع الميلادى وهو بطرس الأول تقع فى المنطقة القديمة المسماه بوكاليا بالقرب من الميناء الشرقى للمدينة . أنظر ، Pallia, J., "Alexandrie aux premiers siècles du Christianisme," Société Archéologique d'Alexandrie, Alexandrie, 1964, 19; Cheneau, I, 234, 263.

وتذكر الكاتبة بتشر أن بوكاليا تقع على شاطىء البحر . ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم ماذكره المؤرخ سترابو من أن البقعة المذكورة كانت قبلا مرعى للماشية ، ومن ذلك اشتق اسم المكان ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ١ ص٢٧ . أنظر ، أيضاً ماسبق ، ص٩ — ١٠ من هذا البحث .

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٢٢ .

(٣) بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ٢٩ .

(٤) أنظر ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ٢٩ — ٣١ .

وكانت كنيسة القديس ميخائيل التي تعرف أيضاً باسم كنيسة الاسكندر تقع على قمة ربوة صخرية بين معبد القياصرة والحي اليهودي في المدينة . وكانت في العصر الوثني معبداً للاله ساتورن (١) Saturn ؛ وقد تحول إلى كنيسة في العصر المسيحي أثناء بطريركية الاسكندر (٣١٣ — ٣٢٦) ، ولذلك نسبت اليه . كذلك تحول العيد الوثني للاله ساتورن إلى عيد مسيحي ، وهو يقع في الثامن من نوفمبر من كل عام ، وأصبح هذا العيد هو عيد القديس ميخائيل (٢) .

ويفسر أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو جورج جوردون كولتون G. G. Coulton ظاهرة تحويل المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس مسيحية ، وكذلك تحويل أعياد الآلهة الوثنية إلى أعياد مسيحية للقديسين . يقول ان المسيحية عند انتشارها اختلطت بمعادن وعناصر فكرية سابقة عنها وكانت تسير في اتجاهات متعارضة . من بين هذه العناصر دين الدولة ، والمقصود به عبادة الامبراطور التي تظاهر بها الرجل العادي في الامبراطورية الرومانية بوصفها أمراً روتينياً رتيباً ، وكانت دينا رسمياً للدولة فحسب لم يعمد قط إلى تدريس الأخلاق . كذلك اختلطت المسيحية بعبادات وثنية مختلفة ، وبخاصة تلك التي من أصل شرقي ، مثل عبادات سيبل وايزيس وسيرابيس وغيرها ، وقد اتصفت بقدر ضئيل من المعنويات ، كما اتصف عدد منها باباحية صريحة . واتحدت هذه العناصر بالمسيحية التي تأثرت بها . ويستطرد كولتون قائلا ان المسيحية وان كانت قد استوعبت أفضل ما فيها ، فقد أخذت عنها في نفس الوقت بعض نواحي ضعفها . وساعد على ذلك

---

(١) هو اله الزمان ويشتهر بقسوته الزائدة ، والمعروف أنه افترس أبناءه بمجرد مولدهم . عنه والمزيد من المعلومات ، أنظر ما يلي Hillgarth, J.N. (ed.), The Conversion of Western Europe : 350 — 750 (Englewood Cliffs, N.J., 1969), 57, 80; Rose, H.H., Ancient Greek Religion (Lonon, 1946), 125; idem, Ancient Roman Religion (London, 1948), 77 ff.

(٢) Cf. Pallia, 16; Cheneau, I, 237, 327.

أن المسيحية بما تمثله من مثل وقيم ، وما فيها من رموز وطقوس ، كانت فوق مستوى ادراك العامة وأفهامهم ، ولذلك اضطرت أن تنحدر من مستواها الرفيع وأن تتنازل عن عليائها لتنتصر . فحاولت التوفيق بينها وبين الأفكار الفجة السابقة . وكان أن سمحت بتدشين المعابد القديمة بما يتفق وطقوس الكنيسة الجديدة ، مع الابقاء على حفلات الوثنيين وأعياد آلهتهم كما هي على أن تحول إلى احتفالات وأعياد مسيحية ، وأن يوجه أتباعها فى نفس الوقت من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق . «وكان هذا التساهل بدون شك أمراً حكيما وضرورياً وقتذاك ، فضلا عن أنه آتى ثماره المحتومة . وهكذا نجد أنه باندماج المسيحية فى العبادات الوثنية توارث كثير من الأفكار القديمة تحت جناحى كنيسة العصور الوسطى. » (١) ولم تسلم كنيسة فى الشرق والغرب ، بما فى ذلك كنيسة الاسكندرية ، من هذا التطور الذى طرأ عليها فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ المسيحية .

وإذا كنا قد أشرنا إلى كنيستى كل من القديس مرقس والقديس ميخائيل ، فهناك كنائس أخرى عديدة يرجع تاريخها إلى العصر المسيحى . منها كنيسة القديس أثناسيوس التى ترجع إلى شهر أغسطس من سنة ٣٧٠م ، وقد شيدها أثناسيوس وقام بتدشينها بنفسه ، وأقام بها فى السنوات الأخيرة من حياته . وتأتى هذه الكنيسة من حيث الأهمية والفخامة بعد كنيسة ثيوناس Théonas . وكانت تحتوى على عدد كبير من الأعمدة الرخامية القديمة وقليل من الجرانيت الأحمر من أشكال وأحجام مختلفة تعلوها تيجان من الطراز البيزنطى (٢) .

---

(١) كولتون (ج .ج.) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة – ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف – ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٤ و ٤٩ وما يليها و ٦٧ وما يليها . أنظر أيضاً ، كتاب كرامب وجاكب. Crump, C.G. & Jacob, E.F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1951), 31.

(٢) Pallia, 17 — 18 ; Cheneau, II, 453.

ويقول المؤرخون ان الكنيسة التي تحمل اسم ثيوناس كانت من أشهر المباني المسيحية في الاسكندرية ، وهي تنسب إلى البطريرك الذي قام بتشييدها فيما بين عامي ٢٨٢ و ٣٠٠ م (١) . وكان المسيحيون قبل ذلك يعقدون اجتماعاتهم سراً ، ويقيمون شعائرهم في المغاور والكهوف وفي المقابر بعيداً عن أعين الحكام الرومان . ونهاهم عن ذلك حاكم مصر في عهد كل من الامبراطورين فاليريان وجالينوس . الا أنهم تمتعوا بعد ذلك بشيء من التسامح من قبل السلطات الرومانية . فقام البطريرك اسكندر (٣١٣ — ٣٢٦ م) باعادة تشييد الكنيسة ، وحولها إلى كنيسة كبرى دشنها باسم السيدة العذراء ، وجعل منها بطاركة الاسكندرية مقراً لهم لفترة تزيد عن قرن من الزمان (٢) .

وهناك أيضاً الكاتدرائية الكبرى المعروفة باسم كنيسة القيصريون التي أقيمت في نفس موقع معبد القياصرة . وقد بدىء في تشييد هذا المعبد خلال السنوات الأخيرة من حكم كليوباترة السابعة (٥٠ — ٣٠ ق . م) ، وتم بناؤه في عهد أوغسطس حيث خصص لعبادته ، ولذلك كان يحمل أيضاً اسم «معبد أوغسطس» (٣) . وبعد ان اعترف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية في القرن الرابع ، وحل السلام بين الدولة والكنيسة بعد صراع مرير دام قرابة ثلاثة قرون ، انتهى «معبد القياصرة» كمعبد وثني ، وتحول إلى كنيسة كاتدرائية أطلق عليها اسم «الكنيسة الكبرى» أو «كنيسة السيد».

---

(١) يقول جان جاك باليا ان كنيسة ثيوناس هي أول كنيسة تم تشييدها في الاسكندرية ، وأن مسيحيي الاسكندرية كانوا قبل ذلك يقيمون شعائرهم في المغاور والكهوف والمقابر . أنظر Pallia, 18. وهذا غير صحيح ، فالمعروف أن أول كنيسة شيدت في الاسكندرية هي كنيسة القديس مرقس في منطقة بوكاليا القديمة ، وكان ذلك في القرن الأول قبل استشهاد مرقس بسنوات قليلة . أنظر ما سبق ، ص ٩ — ١٠ و ٢٠ من هذا البحث

(٢) Pallia, 18 — 19.

(٣) للمزيد من المعلومات عن معبد أوغسطس ، أنظر رواية كل من الفيلسوف الاسكندري فيلون والكاتب اللاتيني بليني الأكبر الذي عاش في القرن الأول للميلاد ، وقد أوردهما باليا في بحثه Pallia, 16 — 17.

ولكنها مع ذلك احتفظت باسمها القديم فعرفت باسم «كنيسةالقيصريون» .
وكانت من الكنائس العظيمة فى الاسكندرية . وبلغ من عظم شأنها أنها
كادت تحل محل كنيسة مرقس ، وكانت تقع فى نفس الحى . وكان
بناؤها جليلا ، ولها مسلتان قديمتان فى فنائها . وقد دمرها الوثنيون بعد ذلك
فى سنة ٣٦٦ م وأشعلوا فيها النيران . ثم أعاد البطريرك الملكانى أثناسيوس
تشييدها سنة ٣٦٨ م ، أى قبل وفاته بخمس سنوات (ت ٣٧٣م). وظلت
الكاتدرائية منذ ذلك التاريخ فى حوزة بطاركة الملكانيين الاغريق حتى
دخول العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٢ م . وفى تلك السنة انتقلت
إلى حوزة أقباط مصر المونوفيزيين ، ثم أعيدت ثانية إلى الروم الملكانيين
سنة ٧٢٧ م ، واندثرت نهائياً سنة ٩١٢ م (١) .

وثمة كنيسة أخرى ترجع إلى هذا العصر المبكر لم يتسن معرفة موقعها ،
وكانت تعرف باسم كنيسة ديونيسيوس Dominicum Dionisii .
والمعروف ان القديس أثناسيوس أقام بها بعض الوقت (٢) . وهذا يدل
على أنها كانت موجودة فى القرن الرابع ، وربما تكون قد شيدت فى
نفس القرن .

تلك هى أهم كنائس الاسكندرية فى العصر المسيحى . ولا شك أنه بعد
اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، وبعد المراسيم التى أصدرها لصالح الدين
الجديد واتباعه ، ازداد عدد الكنائس فى المدينة لأداء شعائر العبادة فيها .
كذلك نشطت عملية نسخ الكتاب المقدس ليكون فى متناول المسيحيين
الذين كان عددهم فى ازدياد مستمر . وكان فشل جوليان المرتد فى القضاء
على المسيحية بمثابة آخر محاولة يائسة للعودة إلى الماضى الوثنى . وبعدها
نعمت مصر بعامة والاسكندرية بخاصة بفترة ممتدة من الهدوء والاستقرار
ساعدت على بناء المزيد من الكنائس فى طول البلاد وعرضها .

---

(١) Pallia, 16 — 17. أنظر أيضاً ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٢٣ وما يليها .
(٢) Pallia, 19.

وليس من السهل حصر جميع الكنائس التى شيدت فى ثغر الاسكندرية خلال العصر المسيحى (١) . كما أنه ليس من السهل معرفة تواريخ بناء جانب كبير منها على وجه اليقين ، أو تحديد مواقعها تحديداً دقيقاً قاطعاً ، أو التعرف على الزيادات التى أضيفت إلى بعضها ، خاصة وأن عدداً منها قد اندثر مع الزمن . فضلا عن أنه أقيمت كنائس جديدة اما على انقاض الكنائس القديمة المندثرة ، أو فى جهات ومناطق أخرى ، وفى أزمان مختلفة (٢) .

هذا ، وقد ارتكزت كنيسة الاسكندرية أساساً على قوانين المجامع المسكونية الثلاثة الأول ، بينما نبذت تعاليم المجمع الرابع المعروف باسم مجمع خلقيدونية . وعارضت البدع والهرطقات ليس فى الشرق فقط وانما فى الغرب الأوروبى أيضاً . وهى تعتبر من الآثار الباقية الخالدة للمسيحية فى فجر تاريخها ، وقد ارتبطت بالمدينة نفسها ارتباطاً وثيقاً . وعلى الرغم من أن مؤسس الاسكندرية هو الاسكندر المقدونى ، الا أن تلك الكنيسة طبعت المدينة بطابعها وصبغتها بصبغتها طيلة العصر المسيحى(٣). لقد كانت كنيسة الاسكندرية هى قلعة المسيحية العتيدة فى الشرق ، والمركز الوحيد الكبير للتعليم المسيحى . وكان كرسيها كرسياً رسوليا ، ذلك أن مؤسسه هو القديس مرقس أحد الإنجيليين الأربعة ، ولذا عرف باسم كرسى القديس مرقس ، كما غدا هذا الكرسى هو رأس العالم المسيحى وقتها (٤) .

---

(١) للمزيد من المعلومات عن هذه الكنائس ، أنظر : Cheneau, I, 99, 179, 240, 256, 327, II, 131, 236, 401, 421.

(٢) أشار المقريزى إلى بعض كنائس الاسكندرية الموجودة فى عصره (القرن الخامس عشر الميلادى) ، ومنها كنيسة بوجرج ، وكنيسة يوحنا المعمدان ، وكنيسة الرسل ، وكانت كلها لليعاقبة . أنظر ، المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ القاهرة (ط. بولاق ١٢٧٠) ص ٥١٨ .

(٣) Stanley, 61.

(٤) Stanley, 231.

الظاهرة الرابعة : مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وطبقة الفلاسفة اللاهوتيين بها :

ثمة رواية تقول ان القديس مرقس قبل استشهاده أسس مدرسة لاهوتية مسيحية فى الاسكندرية لنشر الثقافة المسيحية بين طلابها ، وحتى تكون نواة لمعهد يتخرج منه الرجال الأكفاء لادارة شئون الدين الجديد . وقد ثار كثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين حول صحة ارجاع هذه المدرسة إلى مرقس . ويرى فريق منهم أن هذه الرواية لا سند لها من الواقع التاريخى وانها تدخل فى نطاق الأساطير (١) . والواقع أن هذه المدرسة قامت على أنقاض دار الفنون القديمة فى الاسكندرية ، ثم انقلبت إلى مدرسة لاهوتية امتزجت فيها الفلسفة بأصول الدين . وكانت تشتغل فى أول الأمر بدرس وتدريس مبادىء المسيحية على طريقة السؤال والجواب . على أن نطاقها قد اتسع بعد ذلك ، فاشتغلت بالعلوم والآداب والخطابة والقانون والفلسفة واللاهوت . وأصبحت مدرسة لاهوتية كبرى ازدهرت جنباً إلى جنب مع المدرسة الوثنية الأولى فى المدينة التى ترجع نشأتها إلى الملك بطليموس الأول سنة ٣٢٣ ق . م . الا أن المدرسة الوثنية لم تكن مدرسة بالمعنى المعروف من هذه الكلمة ، بل كانت حلقات متسلسلة من العلماء المجتهدين الذين خدموا العلوم والآداب بما قاموا به من محادثات ومحاضرات وكتابة ونشر . وظلت الفلسفة ومذاهبها المختلفة أهم ما كانت تشتغل به المدرسة المسيحية أسوة بالمدارس اليونانية القائمة وقتذاك (٢) .

---

(١) مراد كامل : من دقلديانوس إلى دخول العرب ص ٢٣٨ ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ٣٥ ، زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١٢٠ ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٢٧٠ . ويرى كل هؤلاء أن مؤسس المدرسة هو القديس مرقس دون الاشارة إلى الأصول التى استمدوا منها مادتهم . أما الدكتور عزيز سوريال عطية فيذكر أن هذه الرواية تدخل فى نطاق الأساطير ، وأن أول اشارة عن تلك المدرسة كانت أيام رئيسها بنتاينوس Pantaenus أنظر .Atiya, 33

(٢) Hardy, E.R., Christian Egypt, Church and People(New York,1952),13;Baynes, N.H. & Moss, H. St. L.B. (eds.),=

واشتغلت تلك المدرسة أيضاً بالعلوم الأخرى كالطب والكيمياء والطبيعة والحساب والهندسة والفلك والجغرافية والموسيقى والتاريخ . والهدف من ذلك خدمة الدين الجديد وتحديد الأعياد وأيام القديسين ، ولو أن هذه المعارف والعلوم أسهمت بطريق غير مباشر فى نشر الثقافة فى المدينة والنهوض بالآداب والعلوم والفنون بها . ومن أشهر ما قامت به ترجمة التوراه من العبرية إلى اليونانية ، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية التى قام بها سبعون عالماً من علماء اليهود بالاسكندرية بأمر الملك بطليموس فيلادلفوس لصالح الجالية اليهودية المتأغرقة بالمدينة (١) .

وإذا أردنا التعرف على تاريخ المدرسة ونشاطها وتأثيرها فى مجتمع الاسكندرية ، يمكن التعرف عليه من سير وأعمال رؤسائها وطلبتها ومدرسيها. إذ ترتبط المدرسة فى هذا المجال بأسماء ثلاثة رجال يعتبرون من أشهر من تولوا ادارتها فى العصر المسيحى . وقد ازدهرت فى عهودهم وذاع صيتها خارج نطاق المدينة نفسها . لقد أبدى هؤلاء الثلاثة نشاطاً فائقاً فى ربط الدين بالفلسفة ، وفى اثارة زوبعة من الجدل والنقاش فى المسائل الدينية واللاهوتية . أولهم بنتاينوس Pantaenus الذى رأس المدرسة من سنة ١٨٠ م إلى حوالى سنة ١٩٠ م ، وثانيهم تلميذه كلمنت Clement

---

Byzantium: An Introduction to East Roman Civilization= (Oxford, 1953), 213; Atiya, 33 — 34.

أنظر أيضاً ، زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١١٨ . وحول المنافسة الحادة التى قامت بين المدرستين المسيحية والوثنية فى الاسكندرية ، والطلاب الذين وفدوا من الخارج لتلقى العلم فيهما ، أنظر Mostafa El Abbadi, "A Side — Light on the Social Life of Ancient Alexandria," Cahiers d'Alexandrie, Série II, Fasc. 3, Alexandrie, 1964, 48 - 49.

(١) جورجى صبحى : من تراث الكنيسة القبطية—مقال فى رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ١١ ، زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١١٩ . وحول تركز العلوم فى مدرسة الاسكندرية ، أنظر ، مراد كامل : القبط فى ركب الحضارة العالمية — مقال فى رسالة مار مينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٥٤) ص ٢٥ ومايليها .

الذى خلفه فى ادارة المدرسة ، ثم أوريجين Origen تلميذ كلمنت الذى تولى ادارتها بعده . وغنى عن القول انه أتى بعد هؤلاء عدد آخر ممن ذاع صيتهم من أمثال ديونيسيوس وديديموس الضرير (١) .

ويعتبر بنتاينوس (٢) هو الذى فكر فى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة المصرية . ولكنه رأى كل الخطوط المصرية من هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية صعبة الكتابة خاصة وأنها لم تكن معروفة الا لعدد قليل من الأمراء ، فاستعار الأحرف اليونانية وأضاف اليها السبعة الأحرف الآخرة من الديموطيقية وكون منها جميعاً الأبجدية القبطية . وبهذه الوسيلة تمكن من ترجمة الكتاب المقدس بمساعدة تلاميذه إلى اللغة القبطية التى تعتبر آخر صورة من صور اللغة المصرية القديمة (٣) . ويقول بيير جوجيه P. Jouguet ان مدرسة الاسكندرية تألقت فى عهد بنتاينوس الذى يعتبر أول أستاذ بارز يتولى ادارتها . ولسنا نعرف الكثير عن سيرته سوى ما جاء فى ثنايا كتاباته (٤). وكانت وفاته حوالى سنة ١٩٠ م فى عهد الامبراطور الرومانى كومودوس Commodus .

أما كلمنت الاسكندرى فهو من أبرز تلامذة بنتاينوس. ولد حوالى سنة ١٥٠ م من أبوين وثنيين . ولم يكن مولده فى الاسكندرية ، ولكنه قدم اليها بعد أسفار عديدة تلقى خلالها العلم على عدد من المعلمين المسيحيين .

---

(١) Lesourd, 19. راجع أيضاً سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٣ .

(٢) حول بنتاينوس وأعماله أنظر R.P. Reginald de Sà O.P., "L'Oeuvre de Pantene," Cahiers d'Alexandrie, Série IV, Fasc. 1, Alexandrie, 1966, 13—25 .

(٣) Worrell, W., A Short Account of the Copts (Michigan, 1945), 8; Sharpe, A., History of Egypt, 204; Atiya, 34. أنظر أيضاً ، سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٣ و ح ٣ ، مراد كامل : القبط فى ركب الحضارة العالمية ص ٢٨ .

(٤) Jouguet, 38. وجدير بالذكر أن معرفتنا بشخصية بنتاينوس جاءت ، فضلا عما ورد فى ثنايا مؤلفاته ، عن طريق كتابات الآخرين عنه . أنظر عن ذلك كتاب جلانفيل Glanville, 302 .

وقد تفوق فى الفلسفة اليونانية ، ثم اعتنق المسيحية بارشاد أستاذه ، واشتهر بتضلعه فى معرفة الكتب المقدسة وفى تأليف الكتب الدينية واللاهوتية التى لا يزال بعضها موجوداً حتى اليوم . وهو يعتبر المؤسس الحقيقى لعلم اللاهوت المسيحى . وقد وكل بادارة المدرسة اللاهوتية فى الفترة التى سافر فيها بنتاينوس على رأس بعثة تبشيرية إلى الهند . ثم أصبح مديراً لها بعد وفاة الأخير ، وظل مديرها حتى سنة ٢٠٢ م ، وتوفى حوالى سنة ٢١٥م (١) .

أما أوريجين (حوالى ١٨٥ — ٢٥٥ م) فهو ألمع تلامذة كلمنت ، ويعتبر من أبرز الشخصيات التى ظهرت فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وأحد عمالقة المفكرين المسيحيين الأول ، وبه اكتمل الفكر المسيحى القبطى فى القرن الثالث . كما تمثلت فى دراساته فلسفة مدرسة الاسكندرية أوضح تمثيل . ولد من أبوين مصريين مسيحيين حوالى سنة ١٨٥ م . وهو من الاسكندرية ، ونشأ وتربى فى بيئة مسيحية . وتلقى تعليمه الدينى على يد والده ، كما درس الفلسفة على يد أستاذه كلمنت . وهو وان كان لا يشير اليه فى كتاباته ، الا أنه لا شك قد قرأ له باهتمام بالغ ، وسار على خطاه فى كثير من الأمور . ومع أنه كان دون معلمه معرفة بالأدب الاغريقى الا أنه كان أعمق منه تفكيراً وأرسخ فهما لمختلف المذاهب الفلسفية . وقد اشتهر بذكائه الخارق ، فذاع صيته حتى قربه اليه ديمتريوس الأول بطريرك الاسكندرية وقتذاك . وفى اثناء اضطهادات سبتميوس سفيروس استشهد أبوه ليونيديس سنة ٢٠٢ م ، واضطرت مدرسة اللاهوت بالاسكندرية إلى التوقف عن عملها فترة من الزمن ، خاصة وان رئيسها كلمنت كان قد غادر البلاد ولم يحل محله أحد . وهكذا بدأ أوريجين فى التدريس بصفة غير رسمية بالمدرسة المذكورة ، ثم قام ديمتريوس بتثبيته

---

(١) Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, X, Le Caire, 1904, 1 — 3; Atiya, 34 — 35; Glanville, 302 — 303.

وللمزيد من المعلومات عن تعاليمه ومثله وأفكاره ، أنظر سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٣ — ١٢٥ ، وكذلك Chadwick, 94 — 100.

فى منصبه كرئيس لها خلفاً لأستاذه على الرغم من أنه كان لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان ذلك نحو سنة ٢٠٣ أو ٢٠٤ م .

وفترة ادارة أوريجين للمدرسة جديرة بالتسجيل ، إذ أدى نشاطه الفائق إلى ظهور نهضة كبيرة فيها . لقد عمل على ازدهارها حتى أقبل عليها ليس المسيحيون فقط بل الوثنيون أيضاً . ولكنه لم يبال بهم ، بل أخذ فى التعليم داخل المدرسة وخارجها . وهو ، فضلا عن ذلك ، يعتبر بحق أول أستاذ للنقد العلمى للتعاليم الدينية . ويبدو أنه اهتم فى الفترة الأولى من حياته العملية بدراسة النصوص الدينية وكتب عليها كثيراً من التعليقات . كما حذا حذو أستاذه فى استخدام الفلسفة اليونانية لخدمة المسيحية .

واشتهر أوريجين بالسيرة الصالحة والزهد الشديد . ولشدة خوفه على عفته من الفساد فقد خصى نفسه . وفى سنة ٢١٢ م زار مدينة روما حيث قوبل بحفاوة لسمو منزلته العلمية . وما كاد يعود إلى الاسكندرية حتى كان أعداؤه قد كثر عددهم ، فأثاروا ضده القيصر كاراكالا Caracalla سنة ٢١٥ م . فغادر مصر إلى فلسطين وكانت شهرته قد سبقته اليها ، فاستقبله أساقفتها بالترحيب ودعوه للوعظ وأطلقوا عليه لقب «أمير شراح الكتاب» ، لغزارة معلوماته الدينية ودقة تفسيره للكتاب المقدس . وفى سنة ٢٢٦ م استدعته ماميا Mamaea والدة القيصر اسكندر سفيروس Alexander Severus (٢٢٢ — ٢٣٥ م) إلى أنطاكية لتستمع إلى وعظه وحديثه .

وفى سنة ٢٢٨ م رسمه أسقف مدينة قيسارية كاهناً . فلما علم ديمتريوس بطريرك الاسكندرية بذلك عقد مجمعا فى المدينه تقرر فيه قطع أوريجين من وظيفته الكهنوتية . وبنى قراره على أمرين : أولها أن أوريجين خصى نفسه ، وثانيهما أنه قبل الرسامة فى اقليم خلاف الاقليم التابع له ، وأقام ديمتريوس مكانه فى رئاسة المدرسة أحد تلامذته وهو هيراكلاس Heraclas الذى كان اوريجين نفسه قد جعله وكيلا

للمدرسة . وكان هذا الحكم سببا فى أن أوريجين هجر وطنه سنه ٢٣١م إلى قيسارية فى فلسطين حيث أمضى البقية الباقية من حياته . وهناك قامت حوله مدرسة كاملة من طلابه ومريديه ، وهناك أيضاً استأنف كتابة الرسائل وتصنيف المؤلفات التى كان قد بدأها أثناء وجوده فى الاسكندرية ، وكان صديق له من أغنيائها يمده بالمال اللازم تمكيناً له من التفرغ للكتابة والتأليف ، كما خصص له عدداً من الكتبة يملى عليهم ما تجود به قريحته.

وفى سنة ٢٥٥ م توفى أوريجين فى مدينة صور أثناء اضطهادات الامبراطور ديسيوس عن ٦٩ سنة . ومما يذكر عنه أنه استخدم التعليم الدينى فى خدمة العقيدة الجديدة . وعمل على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة . كما قام بتفسير العهد القديم ، وبخاصة سفر التكوين ، على أساس فلسفة أفلاطون القائمة على ثنائية العقل والمادة . وكان أوريجين متطرفاً فى آرائه أثناء حياته . وبعد وفاته اشتد الجدل والنقاش حول أفكاره خلال القرنين الخامس والسادس ، ورفضت المجامع الدينية قبول الكثير منها . (١)

وبعد أوريجين تولى رئاسة المدرسة أحد تلامذته وهو ديونيسيوس الاسكندرى Dionysius الذى لقب فيما بعد عندما أصبح بطريركا باسم ديونيسيوس الكبير . وقد شغل هذا المنصب العلمى إلى أن أصبح بطريركا (٢٤٦ — ٢٦٤ م) . وكان عهدة مليئا بالاضطرابات ، واضطر

---

(١) Tollington, R.B., Clement of Alexandria, I (London, 1914), 48; French, R.M., The Eastern Orthodox Church (London, 1951), 29 ff.; Burgh, W.G. de, The Legacy of the Ancient World, II (London, 1955), 362 — 366; Glanville, 303 — 309; Chadwick, 100 ff.; Atiya, 35 — 38.

أنظر أيضاً ، راغب عبد النور : أوريجانوس (١٨٥ — ٢٥٥م) — مقال فى رسالة مارمينا الرابعة (الاسكندرية ١٩٥٠) ص ٥ — ٣٦ ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ٦٢ — ٩٦ ، سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٥ — ١٢٨ . وعن الجدل والنقاش الذى ثار حول آراء وأفكار أوريجين ، أنظر Glanville, 300 — 301.

إلى الاختفاء، أثناء اضطهاد ديسيوس سنة ٢٥٠ م . وقد ألقى القبض عليه ذات مرة ولكنه تمكن من الهرب . ووقع اضطهاد آخر سنة ٢٥٧ م فى عهد الامبراطور فاليريان ، وغدت الاسكندرية مسرحاً للقلاقل ، إذ تحرشت القبائل المتبربرة بالبلاد من ناحية الجنوب ، بينما أعلن والى مصر من قبل روما والمسمى اميليانوس Amilianus نفسه امبراطوراً . واشتعلت نيران حرب أهلية فى البلاد انتهت بأن ألقى القائد الامبراطورى المسمى ثيودوتس Theodotus القبض على الثائر . وأدت الحرب إلى دمار المدينة وفرار الأهالى منها ، بينما هددتها الأوبئة والمجاعات . وكان ديونيسيوس عقب كل اضطهاد يواجه مشكلة المرتدين عن المسيحية . ولكنه كان بعيد النظر راجح العقل ، إذ سمح للمرتدين بالعودة إلى حظيرة الدين ، كما تجاوز عن اعادة تعميد العائدين منهم إلى العقيدة .

ومن يجب الاشارة اليهم عند التعرض لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ديديموس الضرير Didymus الذى وكل اليه البطريرك أثناسيوس رئاسة المدرسة فى الفترة الممتدة من حوالى سنة ٣١٥ م حتى سنة ٣٩٨ م . وقد عاصر ديديموس ظهور الأريوسية والمجمع المسكونى الأول فى نيقية . وله العديد من المؤلفات ، ولكنها فقدت كلها . ومن تلامذته القديس جيروم St. Jerome والمؤرخ روفينوس Rufinus وهما من زوار أديرة مصر ورهبانها فى القرن الرابع . وبعد ديديموس تدخل مدرسة الاسكندرية التى أخرجت ألمع الفلاسفة اللاهوتيين فى فجر المسيحية والتى كان كثير من البطاركة من بين تلامذتها ومديريها ، تدخل فى مرحلة مظلمة قاتمة ينطفىء فيها نورها ، ولا نكاد نسمع عنها بعد ذلك شيئاً .

لقد أدت تلك المدرسة دورها وقتذاك فى تشكيل العقيدة المسيحية، وأدلت بدلوها فى المسائل اللاهوتية التى شغلت الأذهان ردحاً طويلا من الزمن . ولكن بعد ذلك بدأت الحماسة تخبو وأخذت المعرفة فى التقلص ، وبخبو الحماسة وتقلص المعرفة اندثر معهد عظيم (١) .

---

(١) Atiya, 38 — 39. أنظر أيضاً ، مراد كامل : القبط فى ركب الحضارة العالمية ص ٢٩ ؛ زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

هؤلاء هم أبرز العلماء والمتعلمين الذين ارتبطت أسماؤهم بمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وارتبطوا هم أيضاً بها خلال القرون الثانى والثالث والرابع الميلادية . وإذا أردنا تقييم دور هذه المدرسة التى قامت على أنقاض المدرسة الوثنية القديمة ، فلابد من الاشارة إلى العصر الذى ظهرت فيه المسيحية وعناصر الفكر السابقة لها ، والتأثير المتبادل بين المسيحية وبين تلك العناصر .

كان ظهور المسيحية فى أواخر التاريخ القديم ،فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية بمثلها وأفكارها شبحاً يحتضر . وكانت عناصر الفكر الرئيسية السابقة لها أربعة هى : دين الدولة والمقصود به عبادة الامبراطور ، والعبادات الوثنية المختلفة ، وقد سبق الاشارة اليهما . أما العنصر الثالث فهو الفلسفة اليونانية التى كانت تحتوى على قدر عظيم من دروس الأخلاق ، ولكنها فى جوهرها دروس أكاديمية تقصر عن الوصول إلى مستوى ادراك الرجل العادى . والعنصر الأخير هو اليهودية ، وهى قوية فى ايمانها بالوحدانية وفى نفورها من عبادة الأصنام ، وان كانت تتميز بالتعصب وضيق الأفق .

تلك هى الخيوط الأربعة التى كانت موجودة قبل المسيحية ، وكانت تسير وقتها فى اتجاهات متنافرة مما أدى إلى بلبلة الفكر واضطرابه فى وقت كان فيه العالم الرومانى يلفظ آخر أنفاسه . وكانت النتيجة أن انعدمت الاصالة فى الآداب والعلوم والفنون وفى الفكر والثقافة بسبب الضعف الذى انتاب الدولة من ناحية وبعثرة الفكر وتشتته من ناحية أخرى . ولكن بعد ظهور المسيحية وانتشارها اتحدت هذه العناصر الأربعة فى الدين الجديد ، وترتب على ذلك مع تقدم الزمن انصهارها فى المسيحية التى استوعبت أفضل ما فيها وان كانت قد أخذت عنها بعض هناتها . والحصيلة أن هذه الأسلاك الأربعة انصهرت لتصبح سلكاً واحداً ، وأصبح الفكر يسير فى اتجاه واحد بعد أن كان مبعثراً متنافراً متصارعاً . وقد أدى ذلك إلى بعث الحياة من جديد فى شتى نواحى الحضارة (١) .

---

(١) أنظر ، كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ص ٤٩ — ٥٠ .

وتمثل هذا خير تمثيل فى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وفيمن تتلمذوا فيها ومن تولوا ادارتها من الفلاسفة اللاهوتيين ، وكثير منهم كانوا من الوثنيين الذين دخلوا فى الدين الجديد من أمثال بنتاينوس وتلميذه كلمنت . كما يبدو هذا فى محاولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية والمسيحية باستخدام الفلسفة لخدمة الدين الجديد . (١) كل هذا خلق تناسقاً فى الفكر وأوجد نهضة فلسفية لاهوتية شهدتها المدرسة على يد من تولوا رئاستها ومن تلقوا العلم بين جدرانها . ويكفى أنها هى التى أخرجت تلك الطبقة من الفلاسفة اللاهوتيين المشهورين فى تاريخ آباء الديانة المسيحية من أمثال كلمنت وأوريجين واثناسيوس الكبير وكيرلس الكبير وغيرهم ممن وقفوا فى وجه الأباطرة الرومان المضطهدين للمسيحية فى قرونها الأولى ، وممن شهدوا المجامع المسكونية الكبرى وكان لمنطقهم وسعة علمهم أكبر الأثر فى توجيه الفكر فى ذلك العصر ولقرون طويلة تالية . (٢)

الظاهرة الخامسة : الانشقاقات المذهبية ، والمجامع المسكونية ، ودور الاسكندرية فيها (٣) .

من العرض السابق يتضح أن العلاقات بين الوثنيين والمسيحيين فى

---

(١) Neill, 36.

(٢) Cf. Stanley, 230; Neill, 47.

(٣) تتضمن المجموعة الخطية العربية المحفوظة بمكتبة دير القديسة كاترينة فى سيناء عدداً من المخطوطات القيمة التى يرجع تاريخها إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، والتى تناولت بالتفصيل موضوع الانشقاقات المذهبية ودوافعها وأسبابها والمجامع المسكونية التى عقدت من أجلها والقرارات التى توصلت اليها . ومن بينها المخطوطات التى تحمل أرقام مكتبة الدير ٣٩٠ و٣٩١ و٣٩٢ و ٣٩٣ ، و٥٢٦ و٥٩٠ و ٦٠٠ سيناء – عربى. والمخطوطات الأربع الأولى قامت بعثة جامعة الاسكندرية ومكتبة الكونجرس سنة ١٩٥٠ بتصويرها بالميكروفيلم . وتحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بنسخ منها . أنظر مقالى «دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة فى سيناء» ص ١٠٢ وح ١. وهناك مخطوطات أخرى عديدة تحتفظ بها مكتبة الدير تضمنت فيما تضمنته من موضوعات أخبارا عن المجامع وتعاليمها والقرارات التى اتخذت فيها . أنظر ، عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سينا العربية ج ١ ص ٤١ (مخطوط رقم ١١ ورقة ١٣٩ ب وما يليها) ، وص ٤٤٧ (مخطوط رقم ٢٣٧ ورقة ١١ آ وما يليها) ، وص ٤٦١ (مخطوط رقم ٢٤٢ ورقة ٢٠٨ ب) .

الاسكندرية مرت بمرحلتين رئيسيتين : الأولى مرحلة اضطهاد الأغلبية الوثنية للأقلية المسيحية وقد شغلت القرون الثلاثة الأولى من المسيحية حتى دقلديانوس . وبعد اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية تغيرت الأوضاع بعد أن أصبحت المسيحية هى ديانة الدولة ، وجاء دور الأغلبية المسيحية لتضطهد الأقلية الوثنية فى المدينة . وقد اختتم بمقتل هيباشيا فصل فى قصة الاضطهاد ، ولم يعد هناك وثنيون لاضطهادهم . وبعد ذلك حل نوع جديد من الاضطهاد هو اضطهاد مسيحى مذهبى لأسباب سياسية. إذ أخذ المسيحيون يضطهدون بعضهم بعضاً عندما بدأت الخلافات المذهبية تظهر بشكل واضح بينهم ، والتى من أجلها عقدت المجامع المسكونية الكبرى التى أدلى فيها رجالات كنيسة الاسكندرية بدلوهم ، وأحرزوا الانتصار تلو الآخر على الكراسى المسيحية الأخرى فى الشرق والغرب على السواء .

ولتفصيل ذلك نقول انه بعد هزيمة الوثنية وتأصل جذور المسيحية ، وبعد تأسيس كنيسة الاسكندرية بكامل هيئتها ابتداء من البطريرك حتى أصغر قس ، قضى العالم المسيحى فى الشرق والغرب فترة من الزمان متحداً متماسكاً (١) . ولكن مشاكل المسيحية لم تنته تماماً بزوال الوثنية ونهاية عصر الاضطهادات ، إذ سرعان ما ابتدأ الانقسام الدينى بين المسيحيين أنفسهم ، وبدأت أعراض الانفصام تظهر بينهم ، وغرست بذور المذاهب المتعددة فى العالم المسيحى على أثر ذلك . وقد جاهد الأباطرة الرومان فى سبيل القضاء على ذلك الانقسام ، وتوحيد الصفوف من جديد عن طريق عقد المجامع المسكونية الكبرى التى كانت تضم كل أساقفة العالم المسيحى وكبار رجال الدين فيه ، بقصد التشاور والنقاش فى المسائل المذهبية والخلافات الدينية ، أو لاعلان رأيهم وقرارهم فى هرطقة أو بدعة ما ، مع العمل على حل النزاعات القائمة بالتفاهم . ومما يذكر هنا أنه لخطأ كبير تعريف المهرطق بأنه شخص مارق عديم التقوى خارج عن المبادىء الدينية. بل نجد، على العكس من ذلك ، أن بعض الهراطقة الأول كانوا مرتبطين

---

(١) Lesourd, 21.

بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً ، كما كانوا يتصفون بالتقوى والورع الزائدين . لقد كان هذا العصر — بحق — هو عصر القديسين والمراطقة . وكانوا كلهم مسيحيين بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح ، كل حسب عقيدته أو مذهبه . وعلى أية حال ، فقد كان لقرارات المجامع التى عقدت للنظر فى هذه الهرطقات أهمية كبرى ونتائج بالغة الأثر . إذ اعتبرت الأساس الذى بنيت عليه الديانة المسيحية ، وكان لكرسى الاسكندرية فيها دور بارز (١) .

وقد تكرر اجتماع هذه المجامع خلال القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس بهدف وضع القوانين الأصلية للديانة المسيحيةعلى أساس الكتب المقدسة وتعاليم القديسين . وإذا كانت هذه الطريقة قد نجحت فى بدايتها ، الا أن اتساع شقة الخلاف بين مختلف الأمم المسيحية ليس فقط من ناحية العقيدة وانما أيضاً لظهور عوامل التفرقة السياسية ، أدت إلى اخفاقها فى النهاية فى مهمتها . وكانت النتيجة أن استقلت الكنائس المختلفة فى الاسكندرية وانطاكية والقسطنطينية وروما وغيرها ، وما ترتب على ذلك من آثار فى الأحقاب التالية .

وربما كانت أهم المجامع المسكونية هى المجامع الأربعة الأول التى انعقدت فيما بين عامى ٣٢٥ و ٤٥١ م . وقد عقد أولها وهو مجمع نيقية ، فى صيف عام ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين الكبير ، وحضره ٣١٨ أسقفاً من مختلف أقطار المسكونة للنقاش فى أمر بدعة نادى بها أحد كهنة الاسكندرية ويدعى أريوس Arius (حوالى ٢٥٠ — ٣٣٦ م) حول الوهية المسيح . وقد التف حوله جمع غفير من سكان المدينة ، وانتشرت بدعته إلى ما وراء الحدود المصرية داخل الامبراطورية الرومانية الشرقية

(١) Atiya, 39 — 40; Cf. Daoud Abdo Daoud, "Alexandria and the Early Church Councils," Cahiers d'Alexandrie, Série II, Fasc. 3, Alexandrie, 1964, 51.

وخارجها بين الأمم الجرمانية بصفة خاصة . وتتلخص بدعة أريوس فى أن المسيح مخلوق بشر وهو يشبه الله الآب ، ولكن طبيعته تختلف عن طبيعة الآب الذى كان موجوداً قبله . غير أن عمل الآب انتهى بخلق الابن بنفحة من روحه القدس فى العذراء مريم ، وهذا الابن خلق العالم . وبعبارة مبسطة تتلخص بدعة أريوس فى أن المسيح مخلوق بشر منكراً لاهوته . وقد تصدى له فى المجمع أثناسيوس (١) الشهير (حوالى ٢٩٦ — ٣٧٣ م) ، وكان إذ ذاك أسقفاً فى مقتبل العمر لم يصل إلى كرسى البطريركية بعد . فدحض حجج أريوس بقوة حتى قرر المجمع خطأ النظرية الأريوسية وحرمان أريوس من الكنيسة واعتبار حركته بدعة وهرطقة (٢). وكان هذا نصرا للاسكندرية

---

(١) حول أثناسيوس وسيرته والمناصب الدينية التى تقلدها ونشاطه الدينى ، وعلاقاته بمعاصريه مثل الامبراطور قسطنطين الكبير والقديس بازيل وغيرهما . أنظر ،
Neale, J. M., A History of the Holy Eastern Church (London, 1873), 138 f.; Stanley, 227 ff.; Chadwick, 139 ff.; Cheneau, I, 533 ff.

وكذلك ، منير شكرى : أثناسيوس الرسولى — مقال فى رسالةمار مينا الرابعة (الاسكندرية ١٩٥٠) ص ٤٩ وما يليها . وللمزيد من المعلومات أنظر ، المراجع التالية :
Moehler, G.A., Athanase le Grand et l'Eglise de son temps, traduit par J. Cohen, Paris, 1840; Fialon, E.,Saint Athanase, Paris, 1877; Barbier, Saint Athanase, Paris, 1880; Cavallera, F.,Saint Athanase, Paris, 1908; Bardy, G., Saint Athanase, Paris, 1920.

(٢) Atiya, 43—44; Neale, 85; Stanley, 97—196; Lesourd, 24 — 25; Moreau, 48 — 50.
هذا ، ويلاحظ أن الأريوسية لم يقض عليها نهائياً عقب مجمع نيقية ، بدليل ما كانت تلاقيه من تأييد الشعب ومن تعضيد الأباطرة الرومان ، وأن القضاء عليها بصفة قاطعة لارد لها لم يحدث إلا متأخراً . وللمزيد من المعلومات ، أنظر سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٥ ومايليها . راجع أيضا ،
Hillgarth, 2f., 44; Chadwick, 129 ff., 133 ff.; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin (Paris, 1920), 9 f.

ووجهة نظرها (١) . وهكذا أصبح بطريرك الاسكندرية بعد مجمع نيقية هو الحكم والفيصل في العالم المسيحى فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأمور الدنيوية على السواء ، وأصبح لكرسى الاسكندرية المكانة الأولى بين مختلف الكراسى فى العالم المسيحى (٢) .

وفى المجمع الثانى المعروف بمجمع القسطنطينية الذى عقد عام ٣٨١ م ، ظهر التنافس واضحاً بين كراسى الاسكندرية وروما والقسطنطينية التى هى « روماالجديدة» أو «روماالثانية» ،خاصة وأن كلا من روما والقسطنطينية أخذت تتوجس خيفة من نفوذ الاسكندرية المتزايد . وعقد هذا المجمع فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ — ٣٩٥ م) . وفيه جعل لبطريرك مدينة القسطنطينية المقام الثانى بين البطاركة باعتبار أن القسطنطينية هى «روما الجديدة»،وكان لأسقف روما القديمة الأسبقية والمكان الأول (٣). كذلك منحت بطريركية القسطنطينية فى هذا المجمع الأسبقية على الاسكندرية. والواقع أن روما لم تعترف مطلقاً بادعاء القسطنطينية بأن لها المقام الثانى بعدها لخوفها من ازدياد نفوذها عليها . أما الاسكندرية فقد قبلت هذا الادعاء على مضض . وكانت تتحين الفرص لتؤكد استقلالها التام ومذهبها الدينى الأكثر أرثوذكسية من وجهة نظرها . وهكذا كان من نتيجة منح بطريركية القسطنطينية الأسبقية على الاسكندرية أن حقدت الأخيرة على الأولى ، حتى أنه فى بداية القرن الخامس قام نزاع بين ثيوفيلس Theophilus (٣٨٥ — ٤١٢ م) وبين يوحنا فم الذهب John Chry-sostom (حوالى ٣٤٧ — ٤٠٧ م) القسطنطينى ، ذلك النزاع الذى كاد أن يؤدى إلى حركة انفصالية خطيرة فى المذهب . (٤) وصفوة القول انه

---

(١) Cf. Bell, H.I., Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest (Oxford, 1948), 107 f.

(٢) Stanley, 231.

(٣) Baldwin, M.W., The Mediaeval Church (Ithaca, New York, 1953), 94; Baynes, 77.
راجع أيضا ، إيريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ١٤٤ .

(٤) Chadwick, 185 — 191; Baynes, 79.

نتيجة لهذا المجمع الثانى بذرت بذور العداء والبغضاء بين كراسى روما والقسطنطينية والاسكندرية ، ونشأ بينها عامل الغيرة الذى تفاقم مع الزمن ، وكان سبباً من أسباب ظهور البدع الدينية فى القرون التالية من ناحية ، وفى ازدياد حدة الصراع بين الاسكندرية والقسطنطينية من ناحية أخرى ، وهو الصراع الذى كانت أسبابه سياسية فى المرتبة الأولى وان اتخذ من الخلافات المذهبية ستاراً له .

كذلك كان للاسكندرية دور كبير فى المجمع المسكونى الثالث المعروف باسم مجمع أفسس الذى عقد عام ٤٣١ م بدعوة من الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) وحضره مائتى أسقف برئاسة بطريرك الاسكندرية كيرلس الأول (٤٣٠ — ٤٦٣ م) ، وذلك للنظر فى بدعة أخرى مصدرها القسطنطينية هذه المرة . وقد خرج بها شخص يدعى نسطور الذى كان أسقفاً للقسطنطينية ، إذ قال بأن الجزء الإلهى من المسيح لم يولد من مريم العذراء ؛ وبذا تصبح العذراء أما للمسيح الانسان فحسب . ولم تلق هذه الحركة تأييداً واستحساناً لأنها أدت إلى مهاجمة مريم العذراء ، كما أنها كانت تهدد بفقدان لقبها وهو أم الإله . وفى هذا المجمع اتحد ضد نسطور بطريرك الاسكندرية وأسقف روما ورجال الدين فى القسطنطينية لأنهم رأوا أن فى هذا القول مخالفة صريحة لأصول الدين المسيحى . وبذلك اعتبرت هذه الحركة هرطقة والحاداً ، وأصبح كل من يجاهر بمبادىء المذهب النسطورى معرضاً للاضطهاد والتعذيب (١) . وقد حقق كيرلس بطريرك الاسكندرية فى هذا المجمع نصراً حاسماً كلاهوتى وكواحد من كبار رجالات الكنيسة السياسيين . لقد انتصر على بطريرك عاصمة الدولة البيزنطية نفسها وعلى الحكومة الامبراطورية هى الأخرى . ورفع هذا من قدره ومكانته ، وانتعشت بطريركية الاسكندرية التى بلغت ذروة قوتها ونفوذها فى عهد كيرلس الذى آلت اليه زعامة الكنائس المسيحية

---

(١) Moreau, 50 — 51; Chadwick, 194 — 200; Atiya, 46 — 48; Diehl, 10 — 11.

فى الشرق . وبلغ الأمر أنه أصبح يتدخل فى المسائل الدنيوية ويفرض نفوذه على الموظفين الامبراطوريين المحليين المعينين من قبل بيزنطة فى مصر (١) .

ان الفاحص المدقق فى الملامح الرئيسية للمجامع الثلاثة سالفة الذكر ، يدرك حقيقة واضحة هى أن الاسكندرية كانت تسيطر عليها من الناحيتين الروحية والعقلية على الرغم من قرارات المجمع الثانى . ونظراً لأنها كانت مقراً للمدرسة اللاهوتية ، فضلا عن كونها المركز الرئيسى للمجادلات اللاهوتية ، فقد أكدت المدينة لفترة طويلة أنها منبع المعرفة المسيحية والتضلع فى العلوم اللاهوتية ، وبالتالى جدارة زعامتها للعالم المسيحى : وقد أكسب هذا الوضع بطاركة الاسكندرية سلطة ونفوذاً كبيرين داخل مصر بخاصة وخارجها فى العالم المسيحى المعروف وقتذاك بصفة عامة . وغدا بطاركة الاسكندرية هم «فراعنة الكنيسة» ، الأمر الذى خشى منه كل من أسقف روما وبطريرك القسطنطينية ، مما ترك بصماته على قرارات المجمع المسكونى الرابع (٢) .

وقد تبدو مثل هذه المجادلات والمناقشات التى عقدت من أجلها المجامع المسكونية ، والتى أدلت فيها الاسكندرية بدلوها ، فى وقتنا هذا نوعاً من الترهات التى لا تشفى من غل وأن البحث فيها وقت مضيع . إلا أنها فى الواقع كانت فى عهدها من المسائل الخطيرة التى شغلت عقل الانسان ومست مشاعره واحاسيسه مساً عميقاً مباشراً . ومن أمثال المعضلات التى لم تحل ولم يتفق عليها الرأى العام فى منتصف القرن الخامس ، والتى كان للاسكندرية أيضاً دور رئيسى فيها ، مسألة الطبيعتين والمشيئتين والطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح . وهى مسألة من أخطر المسائل التاريخية التى عرضت على بساط البحث فى المجمع المسكونى الرابع المعروف باسم

---

(١) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey (Oxford, 1956), 54.

(٢) Atiya, 56.

مجمع خلقيدونية . ولقد انعقد هذا المجمع بدعوة من الامبراطور مارشيان Marcian (٤٥٠ – ٤٥٧ م) عام ٤٥١ م للبحث فى هذه المسألة . وأخذ الحزب الأوروبى فيها بالقول الأول على أساس أن للمسيح طبيعة ومشيئة إلهية لأنه استمد ذلك من روح الله الذى نفحه فى العذراء ، وان له إلى جانب ذلك طبيعة ومشيئة أخرى كاحدى لزومياته البشرية باعتباره انساناً . ولكن حزب الاسكندرية رفض هذا الزعم رفضاً باتاً ، وبقى محافظاً على مبدأ الطبيعة والمشيئة الواحدة بالرغم من انحياز أغلبية المجمع للرأى الآخر (١) . وهكذا اتحدت كل من روما والقسطنطينية فى المجمع المذكور للقضاء على ادعاءات الاسكندرية . وقد أنهى هذا التضامن خطر سيادة الاسكندرية فى المسائل الكنسية ، ولكنه خلف وراءه سلسلة لا تنتهى من المتاعب والمشاكل (٢).

ولأول مرة فى تاريخ هذه المجامع تتخذ النزاعات السياسية مكاناً واضحاً لها وراء الجدل الدينى . فالاغريق أرادوا بتحكمهم فى تلك القضية إعلاء شأن القسطنطينية على الاسكندرية فى الدين لضمان سلطانهم السياسى أيضاً على بقية الكراسى البطريركية ومختلف الشعوب (٣) . وازاء هذا الموقف اشتد عناد الاسكندريين ، فقرر المجمع عزل بطريرك الاسكندرية ديسقورس Dioscorus (٤٦٣ – ٤٧٩ م) مع نفيه من مصر والكنيسة

---

(١) Cf. Moreau, 51—52; Chadwick, 200—205; Bury, I, 356 — 358; Atiya, 57.

أنظر أيضاً ، سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٦ ، سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١١١ ، موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٧٢ .

(٢) Baynes & Moss, 5.

(٣) ويزيد بيورى الأمر وضوحاً فيقول إن مجمع خلقيدونية من الناحية السياسية يعتبر نصراً حاسماً للقسطنطينية وضربة نهائية لادعاءات كرسى الاسكندرية . أنظر ، Bury, I, 358. أما وليم ورل فيقول أن الاسكندرية التى ظلت متسيدة طوال المجامع الثلاثة السابقة ، فقدت اعتباراً من مجمع خلقيدونية زعامتها ومركزها القيادى اللذين كانت تتمتع بهما من قبل. أنظر ، Worrell, 18. راجع أيضاً ، Ostrogorsky, 55. هذا ، ولكتاب ورل ترجمة عربية تحت اسم ورل (و) : موجز تاريخ القبط ، قام بمراجعة الترجمة من الانجليزية الدكتور مراد كامل ، والترجمة منشورة فى رسالة مار مينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٥٤) ص ١١٧ – ١٩٢ ، أنظر ص ١٤٧ من الترجمة العربية .

وتعيين اغريقى أو ملكانى يدعى بروتريوس Proterius . وكانت المدينة تغلى غلياناً لهذه التطورات حتى لقد استلزم الأمر تدخل الجيش للقضاء على الاضطرابات والعمل على توطيد أقدام البطريرك الجديد الذى لم يعترف به أقباط مصر الوطنيون . ومن هنا نشأ النزاع العنيف فى مصر بين الملكانيين الاغريق والمصريين المونوفيزيين . وأصبح المونوفيزيون أصحاب الطبيعة الواحدة محلا للتعذيب والاضطهاد الدينى . وزادهم هذا الاضطهاد عناداً وتمسكاً بمبادئهم الدينية وأهداب استقلالهم ووطنيتهم . وكانت تساند البطريرك الملكانى فى الاسكندرية قوات امبراطورية ، بينما تقف وراء البطريرك القبطى أفراد الشعب وأعداد غفيرة من الرهبان .

هكذا لم يرضخ المصريون لتعاليم خلقيدونية ، وظلت القسطنطينية متمسكة بحقها الأعلى على كنيسة الاسكندرية . ورفض الاغريق التسامح فى نزعة الاستقلال المصرية ، بينما استقتل قبط مصر فى الدفاع عن كنيستهم الوطنية التى أصبح استقلالها مسألة حيوية بالنسبة اليهم . ومنذ ذلك الحين انشطرت وحدة الكرسى الاسكندرى شطرين ، الوطنيون ولهم بطريرك يعضدونه ضد سلطان والى الاسكندرية وبطريركها الملكانى . وكان الوطنيون هم الأقباط المونوفيزيون الذين يمثلون الأغلبية ، بينما كانت الأقلية من الاغريق الملكانيين . وقد ظل الأقباط يناضلون فى سبيل هذا النوع من الاستقلال طوال الحكم البيزنطى . وغدت الاسكندرية مسرحاً للفوضى والاضطرابات خلال السنوات التى أعقبت مجمع خلقيدونية بسبب الصراع بين البطريركين المتنافسين (١) . واستمر الحال على هذا المنوال من

---

(١) Lane-Poole, St., A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1936), 2 ; Bury I, 358, 402; Worrell, 18; Atiya, 69 — 70. أنظر أيضاً . بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ٣ (القاهرة ١٩٠١) ص ٥٧ ومايليها. هذا ، وكلمة الملكانيين مشتقة من لفظة 'Malko' ومعناها «ملك» ، والمقصود رجال الملك الذين يؤمنون بمذهب الطبيعتين والمشيئتين للمسيح الذى أخذ به مجمع خلقيدونية . أنظر ، Baldwin, 94. - وفيما يتعلق بعقائد الملكانيين واليعاقبة ، أنظر مخطوط رقم ١١ سيناء — عربى ، وعنوانه «النبوات» ورقة ١٩٠ أ ومايليها ، وتوجد له نسخة بالميكروفيلم بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية . والمزيد من البيانات عنه ، أنظر ، عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية جـ ١ ص ٤٠ .

سنة ٤٥١م إلى سنة ٦٤٢ م حيث مارست السلطات البيزنطية الضغط على أقباط مصر بشتى السبل والوسائل (١) : وكانت محاولات بيزنطة المتكررة رأب الصدع بين كنيستي الاسكندرية والقسطنطينية ، وبخاصة في عهد كل من جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م)وهرقل (٦١٠ — ٦٤١م) ، مقضياً عليها بالفشل . وازدادت مع الزمن حدة الخلاف والبغضاء بينهما . ويكفى أنه عندما قام أباطرة بيت هرقل بمحاولاتهم التوفيقية كان قد فات الوقت وأفلت الزمام ، فانفصلت الكنائس المونوفيزية ، ومن بينها كنيسة الاسكندرية عن بيزنطة تماماً ودخل غالبية اتباعها فى دولة الاسلام (٢) .

الظاهرة السادسة : الاسكندرية وعالما التبشير والرهبنة .

يلاحظ أنه كلما اشتد الضغط على المصريين من قبل السلطات البيزنطية وولاتها على مصر من الناحيتين الدينية والسياسية ، كلما اشتد عنادهم

(١) Cf. Glanville, 327 — 328.

(٢) حول العداء بين الاسكندرية والقسطنطينية ، أنظر موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٧٠ ومايليها . والمعروف أن السياسة العامة للاباطرة البيزنطيين كانت ضد المونوفيزية مع التشبث بتعاليم خلقيدونية ، وأن وجد بعض التساهل فى عهود عدد من الأباطرة الذين حاولوا التوفيق بين المذاهب المسيحية والقضاء على النزعة الانفصالية . من ذلك أن المونوفيزيين فى مصر لاقوا تأييداً وتشجيعاً فى عهد الامبراطورة تيودورا زوجة جستنيان لأنها كانت مونوفيزية الرأى . كما أصدر جستنيان تحت ضغط زوجته تشريعاً أرضى به المونوفيزيين دون مخالفة تعاليم خلقيدونية . ولكن بعد موت زوجته سرعان ما عاد إلى سياسة اسلافه فى اضطهاد المونوفيزيين . وعندما تولى هرقل عرش الامبراطورية حاول كسب صداقة المونوفيزيين بتوفيق لاهوتى فى المبادىء الدينية عرف باسم المونوثليتية ، وتبنى الفكرة القائلة بأن للمسيح نشاط واحد فقط ، وعرف مذهبه باسم مذهب التوفيق ، ولم يوافق عليه المونوفيزيون ولم يعترفوا به مما أدى إلى ازدياد هوة الخلاف بين مصر وبيزنطة . أنظر ، Atiya, 71 – 78; Runciman, 40 ; Chadwick, 205 – 211.

هذا ، والمزيد من المعلومات عن محاولات التوفيق ، أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٨ وما يليها و ص١٨٢ . ويقول هنرى شادويك (نفس المرجع ص ٢١١) أن المسيحيين فى مصر والشام رحبوا بالعرب ونظروا اليهم كمخلصين لهم من تعاليم خلقيدونية .
التوفيق ، أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٨ ومايليها و ص ١٧٢ . ويقول هنرى شادويك (نفس المرجع ص ٢١١) إن المسيحيين فى مصر والشام رحبوا بالعرب ونظروا اليهم كمخلصين لهم من تعاليم خلقيدونية .

وتمسكهم بأهداب مبادئهم . ولكن ذلك الضغط الذى مارسته بيزنطة ضد أقباط مصر لم يصرفهم عن نشاطهم الدينى الذى ظهر واضحاً فى اتجاهين : الأول فى عالم التبشير بالديانة الجديدة خارج الاسكندرية وخارج الحدود المصرية ، والثانى هو عالم الرهبنة فى ضواحى الثغر الاسكندرى .

وفيما يتعلق بالمجال الأول ، فقد كان للاسكندرية دور بارز فى ميدان التبشير . وقد ساعدت على ذلك عدة ظروف ، منها أن الاسكندرية كانت منذ عصر البطالسة مفرق الطرق إلى العالم القديم . وكمركز تجارى كان يفد اليها التجار من كل مكان ، كما التحق بمدرستها اللاهوتية الطلاب الذين كانوا ينتمون إلى مختلف المجتمعات المسيحية . وهكذا كان أهلها على معرفة بأناس من كل الأجناس ، ووجد أبناؤها الأبواب مفتوحة أمامهم ، فسهل هذا مهمتهم إلى حد بعيد (١) . هكذا ساعدت الظروف كنيسة الاسكندرية على نشر المسيحية على مذهبها المونوفيزى فى النوبة (٢) وفى اثيوبيا (٣) على يد قس قبطى من الاسكندرية اسمه فرومنتيوس Frumentius ،

---

(١) Atiya, 49.

(٢) للمزيد من المعلومات عن التبشير بالمسيحية فى النوبة فى فجر المسيحية ، أنظر زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا (القاهرة ١٩٦٢) ص ١٦٠ وما يليها . راجع أيضاً كتاب ، Atiya, 50.

(٣) زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا ص ٧٩ وما يليها ، راجع أيضاً ، Atiya, 51—52; Stanley, 62, 231—232; Neill, 52 — 53.

وجدير بالذكر أنه بعد أن بشر فرومنتيوس بالمسيحية فى أثيوبيا عاد إلى الاسكندرية أيام بطريركية أثناسيوس طالباً المزيد من العون لتدعيم الدين الجديد هناك . ويحتمل أن المقابلة بينه وبين البطريرك تمت فى وقت ما فيما بين عامى ٣٤١ و ٣٤٦ م . وكان رد أثناسيوس عليه أنه ليس هناك من هو أفضل منه للقيام بهذه المهمة ، ورسمه أسقفا على أثيوبيا . وعاد فرومنتيوس إلى أثيوبيا حيث خدم فيها حتى وفاته باعتباره رئيس الكنيسة الأثيوبية كفرع من الكنيسة الأم فى الاسكندرية . أنظر ، مراد كامل : القبط فى موكب الحضارة العالمية ص ١٥ ؛ مراد كامل : الرهبنة فى الحبشة — مقال فى رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ٣٩ وما يليها . أنظر أيضاً ، Neill, 53.

وكان ذلك حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى أيام البطريرك أثناسيوس الذى أسلفنا الاشارة اليه والدور الذى قام به فى شبابه فى مجمع نيقية المسكونى. وفى القرن السادس بتشجيع من تيودورا زوجة الامبراطور جستنيان أرسلت كنيسة الأسكندرية بعثة تبشيرية أخرى إلى اثيوبيا . وتأسست الكنيسة الاثيوبية كفرع من كنيسة الاسكندرية الأم (١) .

كذلك امتد نشاط كنيسة الاسكندرية إلى الهند . فمبكراً فى القرن الثانى اختار البطريرك ديمتريوس الأول بنتاينوس الشهير (حوالى ١٩٠ م) الذى كان رئيساً لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، للتبشير بالدين الجديد هناك . وفى القرن السادس قام شخص من الاسكندرية يدعى كوزماس انديكوبلويزتس Cosmas Indicopleustes الذى أصبح راهباً فيما بعد، بمغامرة أخرى إلى بلاد الهند ، وقد ترك بياناً برحلاته وأسفاره (٢) .

هذا عن الاتجاه الأول ، أما الاتجاه الثانى فقد جاء فى عالم الرهبنة ، والمعروف أن الرهبنة بأشكالها المتعددة لعبت دوراً قيادياً فى تاريخ الكنيسة المسيحية اعتباراً من القرن الثالث فصاعداً . وكانت الصوامع والقلالى هى مراكز الثقافة فى العصور المظلمة . فمنها خرجت بعثات التبشير بالمسيحية ، وعلى يد نزلائها تطورت الحياة الروحية التصوفية التى تركت أعمق الأثر على العقيدة . ومنبع هذه الحركة مكان واحد هو مصر (٣) .

---

(١) Glanville, 328. وحول الأسباب التى دفعت تيودورا إلى التعاطف مع المونوفيزيين فى مصر ، أنظر ، ديل (شارل) : تيودورا الممثلة المتوجة – ترجمة حبيب جاماتى (القاهرة – بدون تاريخ) ص ٣٣ – ٣٤ .

(٢) Atiya, 52—53; Neale, 40. أنظر أيضاً ، مراد كامل : القبط فى ركب الحضارة العالمية ص١٦ ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية ج١ ص٥٧ – ٥٨ . ويعرف كوزماس بالبحار الهندى ، وقد قام برحلته الهامة عن طريق البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ماراً بأثيوبيا وافريقية الشرقية وزنجبار حتى وصل إلى الهند وجزيرة سيلان. ولكن بعد هذه الرحلة أنزوى عن العالم واعتنق الرهبنة فى دير سيناء حيث كرس وقته لتسجيل ملاحظاته الطبوغرافية عن العالم المسيحى . أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ٩١ وح ٣ .

(٣) Glanville, 317.

وقد نشأ فى الاسكندرية نظام للرهبنة كان مأخوذاً من نظام انطونيوس(١) (حوالى ٢٥١ — ٣٥٦ م) القائم على الحياة التوحدية للرهبان ، ونظام باخوميوس (حوالى ٢٩٠ — ٣٤٦ م) القائم على الحياة الاجتماعية للرهبان داخل حيطان دير واحد يخضع فيه الرهبان إلى قوانين معينة بعد أن يتركوا الحياة الدنيا وبعد أن يتخلصوا من مالهم وثرائهم ليعيشوا جماعات شعارها التبتل والطهارة والطاعة مع التضحية ونكران الذات زيادة فى التقرب إلى الله (٢) . وقد تعددت مؤسسات هذا النظام فى ضواحى الاسكندرية وبخاصة فى جبل نتريا Nitria والقلالى Cellia وبرية شيهات Shiet بوادى النطرون ، وفى صحراء مريوط Mareotis أيضاً (٣) .

وتعتبر منطقة وادى النطرون — فى الحقيقة — من أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات الرهبان السكندريين فى الصحراء الغربية (٤) . إذ هب اليها المتوحدون مبكراً منذ القرنين الثانى والثالث . وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى المراكز الرهبانية الثلاثة التى أسلفنا اليها : أولها جبل نتريا وثانيها مستعمرة القلالى وثالثها برية شيهات على التوالى من الشمال إلى الجنوب منحرفة صوب الشرق قليلا . ويرجع تأسيس المركز الأول إلى آمون (حوالى ٢٧٥ — ٣٣٧ م) الذى نزح إلى تلك المنطقة حوالى عام ٣٢٥ م ، أى فى نفس الوقت الذى ظهر فيه نظام انطونيوس تقريباً ، وذلك بعد أن

---

(١) حول تأثير القديس انطونيوس على الرهبنة فى الاسكندرية أيام البطريرك أثناسيوس أنظر ، Moreau, 60; Stanley, 232 — 233.

(٢) Atiya, 59 ff., 62 ff.

(٣) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٧٣ ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٢٥٠ ، صابر جبره : نصيب القبط فى تقدم العلوم — مقالة فى رسالة مار مينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٤٥) ص ٩٩ .

(٤) يعتبر كتاب ايفلين هوايت عن أديرة وادى النطرون من أفضل ما كتب فى هذا الموضوع. أنظر ، H. C. Evelyn — White, The Monasteries of Wadi'n Natrūn, 2 vols., New York, 1926 — 33.
راجع أيضاً ، عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة — الاسكندرية ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

عاش ١٨ سنة فى منزل الزوجية بالاسكندرية . وقصة زواجه قسراً واقناعه زوجه أن تحيا معه حياة التبتل والعبادة سراً طوال هذه الفترة مشهورة . وكان آمون هذا شديد التدين والتقوى . ويقال ان زوجته هى التى حثته على الانضمام إلى جماعات النساك المقيمين هناك ، مما يدل على أنه كان يوجد فى هذه المنطقة بالفعل رهبان قبل ذلك التاريخ .

هذا عن المركز الأول ، أما المركز الثانى فقد نشأ حول أبى مقار الكبير الذى ولد بالاسكندرية فى فجر القرن الرابع . ثم مال إلى النساك ، فأخذ يتوغل فى صحراء مريوط إلى أن استقر فى جهة القلالى . وعرفت بهذا الاسم لأن اتباعه تكاثروا حواليه ، وبنى كل منهم لنفسه قلايته فى جواره ليتتلمذوا عليه. ولما اكتظت القلالى بالرهبان من حواليه ، هجرها إلى المركز الثالث وهو شيهات أو الاسقيط ، وتبعه إلى هناك عدد محدود من تلاميذه ومريديه . وكانت الحياة فى تلك المنطقة كما يصفها الرحالة والحجاج اجتماعية استقلالية تذكرنا بالمؤسسات الباخومية (١) .

وتعتبر مجموعة أديرة أنبابيشوى التى ترجع إلى القرن الرابع من أهم أديرة وادى النطرون ، ومن بينها دير أنبا مقار ودير السريان ودير براموس ودير أنبا بيشوى (٢) . ومما يذكر أن هذه المجموعة قامت نتيجة للبدع التى تناولت لقب مريم العذراء بعد النسطورية كشاهد لتمسك رهبانها

---

(١) عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس — مستخرج من رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ١٣ — ١٤ ، موريس مكرم : الاديرة البيزنية — مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ٥٥ وما يليها ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ١٥١ ومايليهاوص ٢٨٣ ، عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ص ٢٣ ومايليها . راجع أيضاً
Atiya, 61;Glanville, 322; Cheneau, I, 117, II, 381.
هذا ، ويعرف دير أبومقار أيضاً باسم دير الأنبا مكاريوس ،وهو يقع إلى الجنوب الشرق من ديرى السريان وأنبا بيشوى على مقربة من دير براموس . أنظر ،زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٢) حول تاريخ هذه الاديرة فى العصر المسيحى ، أنظر عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ص ٥٠ ومايليها .

بالايمان الارثوذكسى ، حتى أنه شيدت كنيسة ألحقت بكل دير من هذه الأديرة عرفت باسم كنيسة العذراء (١) . وكان هناك عشرات الأديرة والقلايات المتناثرة فى الوادى التى يرجع انشاؤها إلى العصر المسيحى . وقد اندثر كثير منها ، ولا يزال بعضها ماثلا إلى اليوم (٢). وتحتاج هذه المنطقة إلى تنقيب وحفريات أثرية واسعة فى بقايا هذه الأديرة والقلايات وما حوالبها الأمر الذى قد يلقى المزيد من الضوء على تاريخ الرهبنة فى الاسكندرية فى العصر المسيحى (٣) .

لقد امتدت شهرة الرهبنة المصرية بصفة عامة ورهبنة الاسكندرية بصفة خاصة خارج الحدود المصرية لتصل إلى مختلف أنحاء العالم المسيحى فى الشرق والغرب . وكانت مصر لفترة طويلة تعتبر بمثابة « الأرض المقدسة » حيث كان الزوار والحجاج يفدون اليها لمشاهدة تلك الجموع الغفيرة من النساك الذين تركوا وراءهم كل متاع الدنيا رغبة فى التقرب إلى الله والتأمل فى ذاته العلية . لقد كان المسيحيون من كل مكان يحجون اليهم لرؤيتهم والعيش بينهم والاستماع اليهم . ومن بين هؤلاء الكثير من آباء الكنيسة ومن الشخصيات البارزة فى عصرها . ومنهم القديس بازيل الكبير St. Basil (حوالى ٣٣٠ – ٣٧٩ م) مؤسس الرهبنة الاغريقية . وكذلك هيلاريون Hilarion الذى أدخل الرهبنة إلى فلسطين ، والمؤرخ الكنسى روفينوس الأكويلى Rufinus of Aquileia (حوالى ٣٤٥ – ٤١٠ م) ومعه أرملة رومانية ثرية تدعى ميلانيا Melania ، وقد أمضيا ستة

---

(١) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ، فى رسالة مارمينا السادسة (الاسكندرية ١٩٦٢) ص ١٠ وما يليها ؛ زكى شنودة : تاريخ الأقباط ج ١ ص ٢٠٧ و ٢٢٤ ومايليها ، مرريس مكرم : الأديرة الغربية ص ٥٧ ومايليها . أنظر أيضاً كتاب شادويك : Chadwick, 184 — 185.

(٢) لا يزال كثير من هذه الأديرة باقيا إلى اليوم يحمل نفس الأسماء القديمة . وقد أشار المؤرخ تقى الدين المقريزى فى القرن الخامس عشر إلى بعضها ، ومن بينها دير أبى مقار ودير براموس ودير أنبا بيشوى . وأوضح المقريزى أن وادى النطرون كان يعرف أيضاً باسم وادى هبيب . أنظر ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٥٠٧ – ٥٠٨ .

(٣) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ص ١٣ – ١٤ .

أشهر فى مصر من عام ٣٧٣ م . والمعروف أن روفينوس زار جبل نتريا الذى كان يعرف فى العصر المسيحى باسم جبل البرنوج Mount Pernuj، وقد ترك وصفاً ممتعاً لما لقيه من نساك الجبل من مظاهر الحفاوة والتكريم (١).

وفى سنة ٣٨٦ م زار القديس جيروم (٢) St. Jerome (حوالى ٣٤٧ — ٤١٩ م) وأرملة ثرية تدعى باولا Paula أديرة مصر ، وترك لنا جيروم وصفاً لهذه الزيارة . أما بلاديوس Palladius أسقف هلينوبوليس ، فقد أمضى الفترة من ٣٨٨ إلى ٣٩٩ م ومن ٤٠٦ إلى ٤١٢ م بين رهبان مصر . وكانت الفترة الأولى بين رهبان طيبة ، أما الثانية فكانت فى جبل نتريا بوادى النطرون . وقد ذكر أنه كان بوده الانضمام إلى رهبان نتريا لولا أنه وجد أن نظامهم أقسى من أن تحتمله صحته الضعيفة وسنه المتقدمة . وقد ترك وصفاً لزياراته والنساك الذين التقى بهم فى كتابه المسمى «التاريخ اللوزياكى» Historia Lausiaca أو «بستان الآباء» (٣) . ومن كتاباته نعرف أن المؤسس الحقيقى للرهبنة فى منطقة جبل نتريا هو آمون الذى أسلفنا الاشارة اليه . كما أوضح أنه وجد هناك خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم فى جماعات صغيرة ، غير ستمائة ناسك كانوا يعيشون فرادى فى جوف الصحراء . ويبدو أن بلاديوس توجه إلى الأديرة التى كان يوجد بها رهبان يتكلمون اليونانية لعدم معرفته اللغة القبطية .

وأما جون كاسيان الفرنسى John Cassian (حوالى ٣٦٠—٤٣٥م)، وهو من مواطنى جنوب غالة ، فقد زار مصر فيما بين عامى ٣٩٠ و ٤٠٠م،

---

(١) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ص ٢١ — ٢٢ . وموقع جبل البرنوج هو نفس المكان المسمى الآن البرنوجى ، وهى قرية بقرب حوش عيسى .

(٢) حول القديس جيروم ، أنظر المرجع الأجنبية التالى بيانها :
Coulton, G.G., Medieval Panorama (New York, 1955), 9, 11; Burgh, I, 310 -311; Hillgarth, 64.

(٣) وحول «بستان الآباء» ، أنظر مقالى «بستان الرهبان : عرض وتحليل للنسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء» ص ٨١ وما يليها .

ولكنه لم يذهب إلى أبعد من طيبة . والمعروف أنه التقى برهبان وادى النطرون فى أواخر القرن الرابع ، وأقام بينهم واستمع اليهم . وقد ألف كتابين ضمنهما مشاهداته . وصدر الكتابان فى أوائل القرن الخامس ، وبالتحديد فيما بين عامى ٤٢٠ و ٤٣٠ م ، وتناول فيهما حياة وعادات رهبان مصر وقوانينهم ونظمهم ، وكان لكتاباته أثرها فى انتقال الرهبنة إلى الغرب (١) .

هكذا اجتذبت الرهبنة المصرية بوجه عام ورهبنة الاسكندرية بخاصة ، الكتاب والمفكرين والآباء والقديسين من الغرب ومن كل مكان ليشاهدوا عن قرب أولئك النساك الذين تركوا العالم ليعتزلوا فوق قمم الجبال وفى جوف الصحارى . وكان لتآليفهم أكبر الأثر فى انتشار الرهبنة فى الأراضى المقدسة والدولة البيزنطية والغرب الأوروبى (٢) . وان دل هذا على شيء فانما يدل على ازدهار الحركة الرهبانية فى الاسكندرية ، حتى أن سمعتها امتدت خارج المدينة بل خارج مصر كلها لتصل إلى شتى بقاع العالم المسيحى المعروف وقتذاك (٣) .

وجدير بالذكر أن رهبنة وادى النطرون (٤) لم تكن بمعزل عن الأحداث

---

(١) Glanville, 323 — 324 ; Atiya, 53, 65 — 66.

وللمزيد من المعلومات عن هؤلاء الزوار الاجانب ، أنظر ، منير شكرى : آباء البرية — ماكتب عنهم وما لهم من أثر عالمى — مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية (الإسكندرية ١٩٤٨) ص ١٤ ومايليها ، منير شكرى : أديرة وادى النطرون ص ١٧ و ٢١ وما يليها ، عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ص ١٣ .

(٢) Atiya, 65.

(٣) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ص ٤١ .

(٤) للمزيد من المعلومات عن أديرة وادى النطرون فى العصر المسيحى ، وأهم المناطق التى أقيمت فيها ، ونظام الحياة فيها ، وأشهر الآباء الذين وردت الاشارة اليهم فى مؤلفات العصر وسيرهم وأعمالهم ، وموقف رهبانها من مختلف البدع والهرطقات التى ظهرت فى القرون المبكرة من المسيحية ، وما إلى ذلك من المعلومات المتعلقة بالرهبنة والديرية وأنظمتها وقوانينها فى هذه المنطقة ، والاضطهادات التى لحقت برهبانها على أيدى الأباطرة البيزنطيين وولاتهم فى مصر ، أنظر ، منير شكرى : أديرة وادى النطرون ، ص ٢٣ — ١٧٨ . ولكن يؤخذ على =

التى مرت بها البلاد ، كما تسبب رهبانها فى وقوع كثير من المشاكل . ففى أيام القديس أثناسيوس كان رهبان الوادى هم الموالين له ضد اريوس وبدعته . وكان رهبان جبل نتريا فى هذا الصراع وما تلاه من منازعات يميلون إلى استخدام العنف واثارة الشغب . ولا شك ان السلطات المدنية ممثلة فى ولاة بيزنطة وجدتهم فى بعض الأحيان مصدراً للقلاقل والاضطرابات التى عانت منها البلاد . من قبيل ذلك أن الامبراطور ثيودوسيوس الكبير كان قد أصدر أمراً بالاكتفاء باغلاق المعابد الوثنية فى المدينة دون تدميرها . ولكن مجموعات من رهبان هذا الوادى قادت الغوغاء لهدم تلك المعابد وتحطيم التماثيل بداخلها . وبعد ذلك وقع الانقسام الكبير فى الكنيسة المسيحية نتيجة لتعاليم مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م . وقد وافقت الكنيسة البيزنطية على قرارات هذا المجمع ، بينما وقفت منها كنيسة الاسكندرية موقف المعارضة الصريحة . وهكذا بدأ صراع مرير بين الكنيسة البيزنطية مزودة بكل أسلحة البطش والارهاب وبين كنيسة الاسكندرية . وأبعد بطاركة الاسكندرية من مناصبهم وحل محلهم بطاركة اغريق أو ملكانيين يدينون بالطاعة لبيزنطة . ولكن أقباط مصر لم يعترفوا بهؤلاء واعتقلوا بعضهم . واستمرت حالة الفوضى هذه من سنة ٤٥١ حتى سنة ٦٤٢ م حيث رحب المصريون بالعرب المسلمين وفتحوا لهم أبوابهم كمخلصين لهم من الاضطهاد الاغريقى (١) . وحدث أيضاً فى سنة ٥٥١ م ان اشتد الضغط البيزنطى

= الدكتور منير شكرى ، على الرغم مما تضمنه كتابه من معلومات قيمة ، عدم اتباعه المنهج التاريخى السليم بالنسبة لسرد الوقائع والأحداث وتسلسلها وترابطها ربطاً سليماً محكماً يجعل القارىء لايشعر بوجود أى ثغرات أو فجوات فى الكتاب . وهذا أيضاً مايمكن أن يقال عن كتاب «قصة الكنيسة القبطية» لمؤلفته ايريس حبيب المصرى .

(١) جاء فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ٥٠٧) أنه بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية خرج اليه من أديرة وادى النطرون سبعون ألف راهب بيد كل واحد منهم عكاز وسلموا عليه ، وكتب لهم كتاباً بقى عندهم يؤمنهم فيه على أنفسهم وحياتهم وأديرتهم . وقد يكون فى العدد الذى ذكره المقريزى بعض المبالغة ، إلا أنه يدل على كثرة عدد الرهبان الذين كانوا يقيمون فى الوادى . فضلا عن أن النص المذكور يلقى الضوء على سياسة التسامح الدينى التى تمتع بها رهبان الدير فى ظل الاسلام . أنظر ، عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ص ٤٠ .

على أقباط مصر حتى أن بطريرك الاسكندرية وقتها ترك المدينة وأقام بين رهبان وادى النطرون . وسرعان ما أصبح الوادى مركزاً لكنيسة الاسكندرية الوطنية تدير منه شئون الكنيسة القبطية فى فترات الاضطهاد البيزنطى التى مرت بها . وهناك أيضاً كان يتم تدشين الاساقفة والمسح بالزيت المقدس المعروف بالميرون . فضلا عن أنه فى هذه المنطقة تبلورت طقوس الكنيسة القبطية وأخذت شكلها النهائى (١) .

وإذا تركنا وادى النطرون بأديرته وانتقلنا إلى صحراء مريوط ، نجد أنها فى العصر المسيحى قد اكتظت هى الأخرى بالعديد من الأديرة الواسعة وعلى رأسها دير مارمينا حيث كانت تقوم مدينة كاملة حول مقبرته وديره وكنيسته التى بناها الامبراطور اركاديوس Arcadius (٣٩٥ — ٤٠٨ م) فى أواخر القرن الرابع ، وذلك بمناسبة شفاء ابنته عند زيارتها لمكان وجود جسد هذا القديس . ويقال ان كنيسة مار مينا كانت من أكبر الكنائس اتساعاً فى عصرها ، كما أنها فاقتها فى الأبهة وروعة الفن والبناء ، وقد درست معالمها (٢) .

لقد كان سكان الاسكندرية يمجدون ذكرى الابرار الذين أنشأوا

---

(١) Glanville, 327. وقد ساعد على ذلك سهولة الاتصال بين أديرة وادى النطرون وبخاصة منطقة جبل نتريا ، ومدينة الاسكندرية . فقد كان هناك طريق يربطها بالاسكندرية . وكان رهبان نتريا على اتصال مستمر بالمدينة التى كانوا يذهبون اليها بين وقت وآخر لبيع السلال التى كانوا يصنعونها بأيديهم . والمعروف أيضاً أنه أثناء المتاعب التى واجهها القديس أثناسيوس هرب ليعيش بين هؤلاء الرهبان ، وكان يدير شئون كنيسة الاسكندرية من هناك . وكان يعيش فى نتريا بعض الاغريق من مواطنى الاسكندرية الذين اختاروا حياة الرهبنة ، ويبدو أنهم كانوا بمعزل عن اخوانهم الرهبان القبط . أنظر ، Glanville, 323. ويحتمل أن يكون ذلك بسبب اختلاف المذهب ، فضلا عن جهلهم باللغة القبطية .

(٢) وللمزيد من التفاصيل عن سيرة مارمينا وديره وكنيسته بمريوط ، أنظر ، مينا اسكندر : الشهيد المصرى مارمينا العجايبى ص ٢١ وما يليها و ٢٠٩ وما يليهاو ٢٥٢ وما يليها ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص١٣٨ ومايليها ، باهور لبيب : الآثار القبطية — مقال فى رسالة مار مينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٥٤) ص ١٠٧ ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٣٠٨ وما يليها .

الأديرة فى صحارى مصر وأشاعوا فيها حياة الرهبنة . فقد أحاطت الأديرة وأماكن العبادة بالمدينة وملأت ضواحيها . وكان عدد الرهبان والمتعبدين والزهاد الذين هجروا العالم ليعيشوا فى الصحراء الغربية حيث الأديرة وصوامع العبادة التى لا عدد لها ، كبيراً إلى حد جعل العالم المسيحى يطلق على تلك الصحراء اسم «صحراء القديسين» (١) .

الظاهرة السابعة : نظرة عامة إلى مدنية الاسكندرية فى العصر المسيحى فى ضوء الظواهر السابقة .

كانت الاسكندرية فى العصر المسيحى هى عاصمة مصر ، ومن أكبر مدن العالم ، ومن أهم مراكز التجارة الدولية وقتذاك . كانت ذات تجارة واسعة رائجة هيأها لها موقعها الممتاز ، يرحل تجارها إلى الصين والهند وسيلان لجلب الحرير والتوابل والأحجار الكريمة . كما كانت مستودعاً تصدر منه إلى موانى البحر المتوسط حنطة وادى النيل ومنتجات الشرق الأدنى . وفضلا عن ذلك ، فقد كانت مدينة اللهو والبذخ والترف بفضل ما فيها من الثروات الضخمة والغانيات الجميلات (٢) .

واشتهرت المدينة أيضاً بأنها احدى عواصم المسيحية ومعاقلها الكبرى التى تلتقى عندها الطرق الآتية من آسيا وافريقية ومن الشرق والغرب ، فحوت أناساً من أمم مختلفة وأجناس متعددة نتج من احتكاك أفكارهم وأخلاقهم ودياناتهم وغليانها إثراء فكرى كبير . فكانت بذلك المخ المفكر للعالم المسيحى وقتها . وكان فيها مدارس فلسفية وثنية ويهودية . كما انتجت فيها تعاليم القديس مرقس مدرسة أخرى أخذت تكبر وتنمو بمرور الزمن بمؤازرة بطاركة الاسكندرية حتى أصبحت مدرسة لاهوتية كبرى تعاقب على رئاستها فى القرون الأولى للمسيحية عدد من العلماء المبرزين الذين سجل التاريخ أسماءهم ، حتى بدت الاسكندرية فى القرن الثالث العاصمة الفكرية ليس للعالم المسيحى فقط بل وللعالم الرومانى أيضاً (٣) .

---

(١) أنظر ، ديل : تيودورا الممثلة المتوجة ص ٣٣ .
(٢) ديل : تيودورا الممثلة المتوجة ص ٣٢ — ٣٣ .
(٣) منير شكرى : المسيحية وما تدين به للقبط ص ٦٢ .

وكان مجتمع المدينة بعد انتشار المسيحية فيها مجتمعاً مسيحياً كما رأينا . كان مجتمع القديسين والشهداء والمراطقة والمفكرين والفلاسفة اللاهوتيين ، كما كان مجتمع الزهاد والنساك والمتعبدين من معتنقى الدين الجديد . الا أنه أثناء ردة جوليان نشط اليهود وبقايا الوثنيين فى الاسكندرية بعض الوقت ، وبعد فشل محاولته انتهى عصر الاضطهادات وقل نشاط الوثنيين واليهود قلة محسوسة (١) . وليست هناك بيانات احصائية دقيقة عن تعداد المدينة فى العصر المسيحى ، الا أنه لم يكن يقل عن ٦٠٠,٠٠٠ نسمة (٢) . والمعروف أن سكانها كانوا مصدراً للقلاقل ، كما سببوا لبيزنطة الكثير من المتاعب والمضايقات ، خاصة بعد مجمع خلقيدونية اعتباراً من أواسط القرن الخامس . وعلى الرغم من عظمة القسطنطينية وثرائها وبهائها ، فقد ألقت الاسكندرية عليها بظلها ، ولم يقلل رفضها لتعاليم خلقيدونية من أهميتها السابقة التى احتفظت بها مثلما احتفظت بالكثير من خصائصها وسماتها القديمة . فقد كانت الاسكندرية فى القرن الخامس بسكانها الذى كان عددهم يزيد عن النصف مليون ، مدينة محببة إلى النفس زاخرة بالحركة نابضة بالحياة مليئة بالعمل والنشاط. ولم يجد البيزنطيون مدينة فى امبراطوريتهم الواسعة كان من الصعب حكمها والسيطرة عليها مثل تلك المدينة التى تميز سكانها بسرعة الخاطر وسرعة الاندفاع فى نفس الوقت ، كما اشتهروا بحدة الطبع والمزاج حتى أنهم كانوا يثورون لأقل الأسباب . وكانت شوارع المدينة مسرحاً للقلاقل التى كثيراً ما قامت بين الأهالى والجند البيزنطيين ، كما كانت مسرحاً لثورات الأهالى ضد ولاة بيزنطة .

وزودت المسيحية أهالى الاسكندرية بمسائل حيوية ترضى مزاجهم الحاد ، الأمر الذى جعل المدينة تغلى غلياناً . لقد أمدتهم بجمل واصطلاحات وعبارات اتخذوا منها ذريعة للثورة والالتجاء إلى العنف . ولا شك أن طموح

---

(١) Stanley, 323. وحول تقلص نفوذ الجالية اليهودية فى الاسكندرية فى العصر المسيحى المبكر ، أنظر ، Glanville, 316.

(٢) Cf. Bury, I, 8 n. 3.

بطاركة الاسكندرية ومحاولاتهم المستمرة السمو بكرسيهم على بقية الكراسى المسيحية الأخرى فى الشرق والغرب ، كانا من بين العوامل التى أدت إلى وقوع كثير من الاضطرابات . لقد كان هدف بطاركة المدينة فى القرن الخامس بالذات ، وبخاصة أيام ثيوفيلس وكيرلس الكبير ، هو العمل على أن يعلو نفوذهم على نفوذ الوالى المدنى المعين من قبل بيزنطة فى مصر ، وأن يجعلوا من الاسكندرية مدينة مسيحية الصبغة والطابع بالقضاء بصفة نهائية وقاطعة على كل أثر للوثنية التى كانت لا تزال نشطة فى بعض مدارسها ، مع عدم التساهل أو التسامح حيال الجالية اليهودية التى ظلت لقرون طويلة تمثل أقلية لها وزنها فى المدينة (١) . وكانت هيباشيا التعسة الحظ أشهر ضحايا هذا الاتجاه عندما لقيت مصرعها فى مارس من سنة ٤١٥ م . ويرجع سبب ما أحاق بها أنها كانت صديقة حميمة للوالى البيزنطى فى مصر وهو أورستيس Orestes الوثنى ، فضلا عن كراهية كيرلس الكبير بطريرك الاسكندرية لها بسبب تحمسها فى التبشير بالوثنية من ناحية وصداقتها لغدوه اللدود الوالى البيزنطى من ناحية أخرى .

واستغل يهود الاسكندرية الحاقدين على بطريرك الأقباط الفرصة ، وعملوا على توسيع شقة العداء والبغضاء بين كيرلس وأورستيس ، ولم يجدوا وسيلة الا واصطنعوها لتحقيق هدفهم . وتصاعدت حدة الأزمة بين الرجلين نتيجة فتنة افتعلها اليهود . وانتهى الأمر بمذبحة دموية كان مسيحيو المدينة هم ضحاياها ، وذلك عندما شاع خبر خلاصته أن النار قد اشتعلت فى الكنيسة الكبرى بالمدينة . وعندما هرول المسيحيون إلى الموقع لاستجلاء الخبر ، حاصرهم اليهود وأعملوا فيهم الذبح والتقتيل .. وكان رد كيرلس هو طرد كل اليهود من المدينة والسماح للمسيحيين بنهب ثرواتهم وممتلكاتهم ، متخطياً بذلك سلطات الوالى البيزنطى الذى اعتبر الاجراء المذكور اهانة

---

(١) يرجع العداء بين أهل الاسكندرية والجالية اليهودية المتأغرقة المقيمة بالمدينة إلى ما قبل المسيحية بكثير . عن ذلك أنظر ، Bell, H.I. (ed.), Jews and Christians in Egypt (Oxford, 1924), 19 ff.

موجهة اليه بصفتيه الشخصية والرسمية . ولذلك بادر بتقديم شكوى إلى القسطنطينية . وعند هذا الموقف المتأزم أسرع خمسمائة من رهبان جبل نتريا بوادى النطرون كانوا قد علموا بما وقع للمسيحيين فى المدينة ، ليكونوا على مقربة من مسرح الأحداث . وقاموا بسب الوالى أورستيس جهاراً، ثم رماه أحدهم بحجر وأصبحت حياته معرضة للخطر .

وقد أصيب الرأى العام بصدمة عنيفة ليس فى الاسكندرية فقط وانما فى القسطنطينية أيضاً بسبب تلك الأحداث الملتهبة المتلاحقة . وكانت تجلس على العرش البيزنطى وقتذاك بولكريا Pulcheria باعتبارها وصية على أخيها الامبراطور القاصر ثيودوسيوس الثانى . وأخذت الشكاوى والاتهامات تترى على العاصمة البيزنطية من كل من الوالى والبطريرك، وكل منهما ينفى التهمة عن نفسه ملقياً اياها على الآخر ، وأرسلت بيزنطة موظفاً من قبلها إلى الاسكندرية لمعرفة الحقيقة والقبض على الجناة الذين تسببوا فى اشعال نار الفتنة . وليست لدينا معلومات عن نتائج تحريات المندوب البيزنطى وما وصلت اليه أو أسفرت عنه ، ولا نعرف أيضاً ان كانت هناك عقوبة قد وقعت على الجناة أم لا (١) . ويبدو أن قبط مصر قد نعموا بعد ذلك بفترة من الهدوء اثناء سنى حكم الفرس للبلاد . إذ سمح الفرس بعد غزو مصر لبطريرك الأقباط أن يبقى فى الاسكندرية وأن لا ينازعه منازع فى رئاسة الدين ، وظل هكذا حتى موته . كذلك تم انتخاب خليفته بنيامين فى سلام واطمئنان . وقد قضى أولى سنى ولايته مستظلا بحكم الفرس، بينما كانت بقية ولايته بعد استرداد بيزنطة لمصر مشحونة بالعواصف التى لم يضع حد لها سوى فتح العرب لمصر فى أواسط القرن السابع للميلاد (٢) .

لعله يتضح مما سبق ان البناء الاجتماعى فى الاسكندرية فى العصر المسيحى كان مغايراً لما كان سائداً فى المدينة فى العصور السابقة له . كما يتضح حدوث

---

(١) Cf. Bury, I, 215 — 220.

(٢) أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ٨٢ .

تغييرات جذرية فى هذا البناء خلال العصر المسيحى نفسه الذى شغل أكثر من ستمائة عام انتهت بالفتح العربى لمصر . فقد كان هذا المجتمع فى القرون الثلاثة الأولى من المسيحية يتألف من أغلبية وثنية متسيدة وهى من أهالى البلاد الاسكندريين ، وأقلية يهودية متأغرقة مثيرة للقلق ولها تأثيرها فى اقتصاديات البلاد ، وكذلك أقلية ضئيلة من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية سراً وكانوا محلا لاضطهاد الاباطرة الرومان من ناحية وأهالى المدينة الوثنيين واليهود من ناحية أخرى . واعتباراً من بدايات القرن الرابع حدث تخلخل فى التركيب الاجتماعى للمدينة التى أصبحت تتكون من أغلبية مسيحية من الاسكندريين الذين كانوا أصلا يدينون بالوثنية ، وأقلية محدودة من اليهود المتأغرقين الذين كانوا مصدراً للشغب والمتاعب والمضايقات بحكم كرههم للمسيحية والمسيحيين ، وكذلك شراذم مبعثرة لا اعتبار لها من الوثنيين الذين انتهى أمرهم تقريباً بمقتل الفيلسوفة الوثنية هيباشيا فى بدايات القرن الخامس . ولكن منذ أواسط القرن الخامس تنشطر الأغلبية المسيحية بالمدينة شطرين متصارعين : أكثرية وطنية هى التى تمثل أقباط مصر المونوفيزيين وأقلية ملكانية من الاغريق أو الاسكندريين المتأغرقين وهى التى تتبع تعاليم مجمع خلقيدونية المسكونى . وكان هذا بداية صراع مرير بين الفريقين من جهة وبين أقباط الاسكندرية وبيزنطة وولاتها على مصر من جهة أخرى . وباستيلاء عمرو بن العاص على الاسكندرية سنة ٦٤٢ م يسدل الستار على هذا الصراع المذهبى فى مظهره السياسى فى حقيقته وجوهره ، والذى شهدته البلاد فى القرون الأخيرة من الحكم البيزنطى .

هكذا كانت القرون الأخيرة من العصر المسيحى فى الاسكندرية ، وعلى وجه التحديد الفترة الممتدة من سنة ٤٥١ م حتى سنة ٦٤٢ م ، مملوءة بالصخب وروح الثورة والتذمر بين المصريين بعامة وأهالى الاسكندرية على وجه الخصوص . وليس لنا — بطبيعة الحال — أن ننتظر أو نتوقع أى تقدم حضارى بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح فى جو مضطرب

كهذا . فالنظام الحكومى ظل فى روحه واتجاهاته قائماً على نفس الأسس التى أخذ بها الرومان عن البطالسة مع ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليها . وربما كان أهم تعديل هو ما أحدثه الامبراطور جستنيان من تركيز السلطتين الادارية والدينية العليا فى يد شخص واحد كما كان حاصلاً فى ولاية أبوليناريوس Apollinarius سنة ٥٤١ م، وكذلك فى ولاية المقوقس Cyrus أيام هرقل (١) .

لقد قاست الاسكندرية كثيراً على أيدى ولاة بيزنطة ، وجعلت الاضطهادات المذهبية ساكن المدينة يتولاه اليأس والقنوط ويفكر فى العزلة عن العالم والتنسك فى مغاور الصحراء وقمم الجبال . وساعد ذلك على انتشار الرهبنة وازدهارها فى ضواحى المدينة وبخاصة فى وادى النطرون وصحراء مريوط . واضطربت نتيجة لذلك الأحوال الاقتصادية ، وتعثرت حركة التجارة الداخلية والخارجية . ولكن هذا لا يعنى عفاء الآداب والعلوم والفنون تماماً . حقيقة أنها تأثرت بنفس العوامل والمؤثرات التى جرت البلاد نحو الهاوية الاقتصادية ، ولكن ليس إلى الحد الذى يقضى عليها . فقد كان فى الاسكندرية خلال القرنين السادس والسابع أطباء معروفين مشهود لهم ، وكانت مدرسة الطب فى المدينة كعبة الطلاب يقصدونها من كل أنحاء الدولة .

كذلك كانت الاسكندرية فى أخريات العصر المسيحى لا تزال جديرة بأن تكون مقر الآداب ليس فى مصر فقط ولكن فى العالم كله . وكان يقصدها طلاب العلم من كل مكان . وكانت لا تزال تحتفظ ببقايا من العلم القديم وان كان معظمه خاصاً بالدين . إذ اقتصر النشاط الذهنى على مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وعلى الأديرة التى كانت تحمل مشاعل العلم . وترتب على ذلك أن اصطبغ أدب العصر بالصبغة الدينية اللاهوتية . وكانت المدينة أيضاً سوقاً رائجة لتجارة بيع الكتب وتصديرها إلى الخارج . وإلى جانب ذلك

---

(١) Cf. Bury, I, 213, II, 342 f.

اشتهرت المدينة بتضلعها فى علوم الفلك والرياضة والتنجيم ، فضلا عن علم تقويم البلدان . كذلك انتعشت الفنون فى المدينة التى كانت بأسوارها وحصونها وقصورها وكنائسها وأديرتها وطرقها آية فى الروعة والفخامة. وقد تأثرت تلك الفنون بدخول المسيحية إلى الاسكندرية ، الا أنه كان للأساليب البزنطية أيضاً أثر واضح فى هذا الشأن . وإلى جانب ما تقدم ازدهر فن النحت والتصوير وفن تفسير الكتب وايضاحها بالرسوم : فضلا عن العديد من الصناعات مثل صناعة الورق وعمل الزجاج وغزل المنسوجات وبناء السفن . لقد كانت عاصمة مصر من أبهى المدن وأفخمها ، ومن أكبر أسواق العالم خلال تلك الحقبة من الزمن (١) .

خاتمة :

كانت الأعوام الأخيرة من الحكم البزنطى فى مصر سقيمة مليئة بالفوضى والاضطرابات فى المسائل السياسية والدينية والمذهبية . فالقسطنطينية ظلت متمسكة بحقها الأعلى على كنيسة الاسكندرية منذ مجمع القسطنطينية المسكونى الذى عقد عام ٣٨١ م أيام الامبراطور ثيودوسيوس الكبير ، والذى نص فى قانونه الثالث على تقدم كرسى القسطنطينية على جميع الكراسى الأخرى بعد روما باعتبار أن القسطنطينية هى «روما الجديدة» . وقد دخلت

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٨٤ و ٨٦ و ٩٠ و ٩٢ وما يليها و ٢٥٤ و ٣١٩ وما يليها . وللمزيد من المعلومات عن الحياة فى الاسكندرية فى العصر المسيحى ، أنظر :
Irmscher, J., "Alexandria, die christusliebende Stadt," Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, t. XIX (1967 — 1968), Le Caire, 1970, 115 - 121; Mostafa El Abbadi, "Aspects of Everyday Life in Ancient Alexandria," Cahiers d'Alexandrie, Série IV, Fasc. 3, Alexandrie, 1966, 38—46.
وللمزيد من المعلومات عن مدرسة الطب فى المدينة ، أنظر .
Parthéniades, G.E. "L'Ecole de Medecine d'Alexandrie," Cahiers d'Alexandrie, Série IV, Fasc. 1, Alexandrie, 1966, 2 — 12.

فى ذلك اعتبارات سياسية تتلخص فى أن القسطنطينية كانت تنظر إلى نفسها كراعية للكنائس المسيحية الأخرى بحكم وجود الامبراطور فيها . وتضاف إلى ذلك عوامل الحقد والغيرة بعد أن طغت الاسكندرية بشهرتها وعراقتها ومدرستها اللاهوتية وعلمائها ومفكريها على «روما الجديدة» (١) . وزاد الطين بلة مجمع خلقيدونية بتعاليمه التى أصبح بعدها مسيحيو الاسكندرية مجرد هراطقة فى نظر بيزنطة .

على أى حال ، رفض الاغريق التسامح فى نزعة الاستقلال المصرية ، بينما استقتل قبط مصر فى الدفاع عن كنيستهم التى أصبح استقلالها أمراً حيوياً بالنسبة لهم . واتسعت شقة الخلاف بين الطرفين ، وازدادت مع الوقت عمقا ، كما ازدادت الكراهية بينهما حدة وشدة . وفشل الامبراطور جستنيان فى كبح جماحهم بتعيين الحاكم أبوليناريوس الذى جمع فى قبضته السلطتين الزمنية والدينية حتى يتمكن من اخضاع المنشقين على كنيسة الملكانيين من بنى مصر . كذلك أخفق خلفاؤه فى هذا الصدد . وظل البيزنطيون يتعسفون فى معاملة الأهلين ، وحكموا البلاد على غير رضاها بحاميات عسكرية بحتة . غير أن هذه السياسة لم يكن يتوقع لها أن تدوم ، بل كان مصيرها هو الاخفاق .

وبدأت الظروف فى بيزنطة نفسها تمهد لهذه النتيجة عندما أبحر هرقل الصغير ابن حاكم ولاية افريقية إلى القسطنطينية كمنقذ للبلاد من الكوارث التى نزلت بها أيام آخر أباطرة أسرة جستنيان وهو فوكاس (٦٠٢ — ٦١٠ م) ، وأسس أسرة نسبت إليه وكان هو أول أباطرتها ، وقد حكم من سنة ٦١٠ م إلى سنة ٦٤١ م . وقد رأت مصر أن تنحاز إلى جانب الامبراطور الجديد أملا فى التخلص من النظام القائم الذى عانت منه أيام اسلافه . ولكن هرقل الذى كافأ المصريين على ولائهم بعد نجاحه

---

(١) Runciman, 109 — 110.

بمنحهم بعض الحرية ، ما لبث أن عاد إلى سياسة أسلافه فى وقت كانت الامبراطورية فيه تعانى من الضعف والانحلال فى الداخل والخارج حتى رجحت كفة الفرس عليها فى بعض المناطق ، ومن بينها مصر التى استولوا عليها فيما بين سنتى ٦١٩ م و ٦٢٩ م . فلما استردها البيزنطيون منهم ، كشف هرقل النقاب عن نياته الحقيقية بالعودة إلى سياسة أسلافه فى أخذ المصريين بالشدة والاعتداء على حرياتهم وطمس معالم كنيستهم . وأقام عليهم حاكماً مدنياً وبطريركاً دينياً ليصب عليهم نقمة الاستعباد فى كل نواحى حياتهم الخاصة والعامة ، وبشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد حتى باتوا يتحينون الفرصة المواتية للخلاص منه ، بل وللخلاص من كابوس الحكم البيزنطى (١) .

وفى غمرة هذه الأحداث ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية يدعو الناس بصفة عامة إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام والعرب بخاصة إلى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف . ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ودانت لها كافة القبائل العربية التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هذا الأساس قامت الدولة العربية الفتية وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح دفاعاً عن كيانها ونشراً لدعوتها وتأميناً لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . .وانطلقت وراء حدودها لتصطدم بالدول المتاخمة لها . وكان من الطبيعى أن يبدأ الصدام بينها وبين بيزنطة الذى انتهى فى سنوات قلائل باستيلاء العرب على بلاد الشام . وتلا ذلك فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سنه ٦٤٠م . ولم يتحرك أقباط مصر لمساعدة البيزنطيين المعتدين على حرياتهم ، لا سيما وأن الدين الجديد كان أساسه التسامح مع أهل الذمة وترك أمور عقيدتهم لهم يديرونها كيفما شاءوا . ولقد رأى أقباط مصر أنهم تحت حكم

(١) Atiya, 75 — 78 Ostrogorsky,83,86, 97 f.
راجع أيضا ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٨ ومايليها و ١٦٣ وما يليها .

بيزنطة خاسرون سياسيا ودينيا، وأنهم تحت حكم العرب كاسبون عدم التعرض لهم ولكنيستهم، فرحبوا بالفاتحين الجدد ولم يقوموا بأية محاولة لمساندة بيزنطة فى الصراع الذى نشب بين المقوقس وعمرو بن العاص. وهكذا بعد الاستيلاء على الفرما وبلبيس وحصن بابليون، حاصر العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤١م. وفى نفس السنةمات الامبراطور هرقل. وكانت الاسكندرية لاتزال هى المكان الوحيد المتبقى من ممتلكات بيزنطة فى مصر، وقد تم الاستيلاء عليها فى السنة التالية (٦٤٢ م) (١).

وكل ما يهمنا أن المصريين الذين كانوا هراطقة مضطهدين فى نظر الكنيسة البيزنطية، والذين أثقلت كواهلهم الضرائب الباهظة تحت نير الحكم البيزنطى، لم يبدوا أية محاولة لحفظ هذه المستعمرة الامبراطورية. بل على العكس، رحب أهل البلاد بالعرب وفتحوا لهم قلوبهم قبل أبوابهم (٢). ويقول المؤرخ ستيفن رانسيمان(٣) إنهم اعتبروا الاسلام أقرب إلى مبادئهم ومعتقداتهم من تعاليم مجمع خلقيدونية المسكونى. وبانتصار العرب وتأسيس دولتهم الواسعة يبدأ دور جديد فى تاريخ مصر نعم فيه الأقباط بالحرية فى أداء شعائرهم وطقوسهم فى ظل التسامح الاسلامى (٤).

---

(١) Atiya, 79 — 81; Neill, 64; Glanville, 327, 328; Lane-Poole, 2, 4 ff.; Diehl, 52; Ostrogorsky, 98 ff.
هذا، ويعتبر الفريد بتلر حجة فى دراسة هذه الفترة الغامضة من تاريخ مصر، وبخاصة حصار عمرو بن العاص لمدينة الاسكندرية واستيلاؤه عليها. أنظر، بتلر: فتح العرب لمصر ص ٢٥٤ ومايليها و ٢٧٠ وما يليها و ٢٨٤ وما يليها.

(٢) Lane-Poole, 15, Ostrogorsky, 103. أنظر أيضا، المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ١ ص ١٦٣، بتلر: فتح العرب لمصر ص ١٧٠.

(٣) Runciman, 41.

(٤) أنظر، سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعى: مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى (القاهرة ١٩٧٠) ص ٣١، جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية — المجلد الأول — ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٥) ص ١١ومايليها، بتلر: فتح العرب لمصرص ٣٨٢ ومايليها و ٣٨٦ وما يليها و ٣٨٨ وما يليها.

مراجع البحث

أولا – مراجع وبحوث عربية

إيريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية – جـ ١ – القاهرة (بدون تاريخ) .

باهور لبيب (دكتور) : « الآثار القبطية » – مقال فى رسالة مارمينا الخامسة « صفحة من تاريخ القبط » – الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ١٠٣ – ١١٥ .

جمال الدين الشيال (دكتور) : مجموعة الوثائق الفاطمية – المجلد الأول – ط . ثانية – الاسكندرية ١٩٦٥ .

جورجى صبحى (دكتور) : « من تراث الكنيسة القبطية » – مقال فى رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية – الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص ١٠ – ١٣ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ – « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه فى سيناء » – مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية – العدد ٢٢ – الاسكندرية ١٩٦٩ ، ص ٩٥ – ١٣٩ .

٢ – « بستان الرهبان : عرض وتحليل لنسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء » – مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية – العدد ٢٣ – الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ٥٩ – ٩٢ .

راغب عبد النور (دكتور) : « أوريجانوس (١٨٥ – ٢٥٥ م) » – مقال فى رسالة مار مينا الرابعة « صور من تاريخ القبط » – الاسكندرية ١٩٥٠ ، ص ٥ – ٣٦ .

زاهر رياض (دكتور) : كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا – القاهرة ١٩٦٢ .

زكى شنوده : تاريخ الأقباط – جـ ١ – القاهرة ١٩٦٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : أوربا العصور الوسطى – جزءان – القاهرة ١٩٥٨ – ١٩٥٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) وعبد الرحمن الرافعى : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى – القاهرة ١٩٧٠ .

سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية – القاهرة ١٩٦٣ .

السيد الباز العرينى (دكتور) : مصر البيزنطية — القاهرة ١٩٦١ .

صابر جبره (دكتور) : « نصيب القبط فى تقدم العلوم » — مقال فى رسالة مار مينا الخامسة — الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ٩٣ — — ١٠٢ .

عزيز سوريال عطية (دكتور) : « نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس » — مستخرج من رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية — الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص ١ — ٣٧ .

عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة ، مذيل بكتاب تاريخ الأديرة البحرية — الاسكندرية ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

عمر كمال توفيق (دكتور) : تاريخ الامبراطورية البيزنطية — الاسكندرية ١٩٦٧ .

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا — ١٤ جـ — القاهرة ١٩١٣ — ١٩٢٠ .

كامل صالح نخلة :

١ — كتاب السنكسار القبطى الجامع أخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين — جزءان — القاهرة ١٩٥١ .

٢ — تاريخ القديس مار مرقس البشير — القاهرة ١٩٥٢ .

مراد كامل (دكتور) :

١ — « الرهبنة فى الحبشة » — مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية — الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص ٢٩ — ٤٥ .

٢ — « القبط فى ركب الحضارة العالمية » — مقال فى رسالة مار مينا الخامسة — الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ٧ — ٣٢ .

٣ — « من دقلديانوس إلى دخول العرب » — أنظر تاريخ الحضارة المصرية — المجلد الثانى — القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ١٩٧ — ٣٢٠ .

المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — ٢ جـ — القاهرة (ط . بولاق) ١٢٧٠ هـ .

منير شكرى (دكتور) :

١ — « آباء البرية : ما كتب عنهم وما لهم من أثر عالمى » — مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية — الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص ١٤ — ٢٨ .

٢ – « أثناسيوس الرسولى (٣٢٦ – ٣٧٣ م) » – مقال فى رسالة مار مينا الرابعة « صور من تاريخ القبط » – الاسكندرية ١٩٥٠ ، ص ٤٩ – ٨٩ .

٣ – « المسيحية وما تدين به للقبط » – مقال فى رسالة مار مينا الخامسة – الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ٥٥ – ٩٢ .

٤ – أديرة وادى النطرون – أنظر رسالة مار مينا السادسة – الاسكندرية ١٩٦٢ .

مينا اسكندر : الشهيد المصرى مار مينا العجايبى – الاسكندرية ١٩٦٣ .

موريس مكرم : « الأديرة الغربية » – مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية – الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص : ٥ – ٦٤ .

ثانيا – مراجع معربة

اومان (ش.) : الامبراطورية البيزنطية – تعريب الدكتور مصطفى طه بدر – القاهرة ١٩٥٣ .

بتشر (ا. ل.) : تاريخ الأمة القبطية – ٤ جـ – تعريب أسكندر تادرس – القاهرة ١٩٠٠ – ١٩٠٧ .

بتلر (الفرد ج.) : فتح العرب لمصر – عربه محمد فريد أبو حديد – القاهرة ١٩٣٣ .

ديل (ش.) : تيودورا الممثلة المتوجة – ترجمة حبيب جاماتى – القاهرة (بدون تاريخ) .

عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية – فهارس كاملة مع دراسة تحليلية للمخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه بطورسينا – ترجمة جوزيف نسيم يوسف – جـ ١ – الاسكندرية ١٩٧٠ .

كولتون (ج. ج.) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة – ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف – ط. ثانية – الاسكندرية ١٩٦٧ .

موس (ه.) : ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥ – ٨١٤) – ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد – مراجعة السيد الباز العرينى – القاهرة ١٩٦٧ .

ورل (وليم) : موجز تاريخ القبط – راجع الترجمة من الانجليزية مراد كامل – أنظر رسالة مار مينا الخامسة – الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ١١٧ – ١٩٢ .

ثالثا ـ مراجع وبحوث أجنبية

ATIYA, A.S., A History of Eastern Christianity. London, 1968.

BALDWIN, M.W., The Mediaeval Church. Ithaca, New York, 1953.

BAYNES, N., The Byzantine Empire. London, 1939.

BAYNES, N.H. & MOSS, H. St. L. B., Bayzantium : An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1953.

BELL, H.I. (ed.), Jews and Christians in Egypt. Oxford, 1924.

BELL, H.I., Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. Oxford, 1948.

BUDGE, E.A.W. (ed. & tr.), Coptic Martyrdoms in the Dialect of Upper Egypt. London, 1914.

BUDGE, E.A.W. (tr.), The Wit and Wisdom of the Christian Fathers of Egypt. Oxford, 1934.

BURGH, W.G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London, 1955.

BURY, J.B., History of the Later Roman Empire from the death of Theodosius I to the death of Justinian, 2 vols. New York, 1958.

CHADWICK, H., The Early Church. London, 1969.

CHENEAU, P., Les Saints d'Egypte, 2 vols. Jérusalem, 1923.

COULTON, G.G., Medieval Panorama. New York, 1955.

CRUMP, C.G. & JACOB, E.F. (eds.), The legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951.

DAOUD ABDO DAOUD, "Alexandria and the Early Church Councils," Cahiers d'Alexandrie, Série II, Fasc. 3, Alexandrie, 1964, pp. 51—65.

DIEHL, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin. Paris, 1920.

FRENCH, R.M., The Eastern Orthodox Church. London, 1951.

GLANVILLE, S.R.K. (ed.), the Legacy of Egypt. Oxford, 1957.

GUETTEE, Histoire de l'Eglise, 2 vols. Paris & Bruxelles, 1886.

HARDY, E.R., Christian Egypt, Church and People. New York, 1952.

HILLGARTH, J.N. (ed.), The Conversion of Western Europe : 350—750. Englewood Cliffs, N.J., 1969.

IRMSCHER, J., "Alexandria, die christusliebende Stadt, " Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, t. XIX (1967—1968), Le Caire, 1970, pp. 115—121.

JOUGUET, P., "La Domination Romaine en Egypte aux deux premiers siècles après Jésus-Christ," Conférence donnée à la Société royale d'Archéologie d'Alexandrie, le 29 avril 1946, Alexandrie, 1947, pp. 1—63.

LANE-POOLE, St., A Histrory of Egypt in the Middle Ages. London, 1936.

LESOURD, P., Histoire de l'Eglise. Paris, 1939.

MEMOIRES de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. X, Le Caire, 1904.

MOREAU, E. de, Histoire de l'Eglise. Tournai-Paris, 1931.

MOSTAFA EL-ABBADI, "A Side-Light on the Social Life of Ancient Alexandria," Cahiers d'Alexandrie, Série II, Fasc. 3, Alexandrie, 1964, pp. 40—50.

MOSTAFA EL-ABBADI, "Aspects of Everyday Life in Ancient Alexandria," Cahiers d'Alexandrie, Série IV, Fasc. 3, Alexandrie, 1966, pp. 38—46.

NEALE, J.M., A History of the Holy Eastern Church . London, 1873.

NEILL, S., A History of Christian Missions. Aylesbury, 1966.

OSTROGORSKY, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey. Oxford, 1956.

PALLIA, JEAN-JACQUES, "Alexandrie aux premiers siècles du Christianisme," Conférence donnée à la Société d'Archéologie d'Alexandrie, le 29 janvier 1964, Alexandrie, 1964, pp. 3—19.

PARTHENIADES, G.E., "L'Ecole de Medecine d'Alexandrie," Cahieres d'Alexandrie, Série IV, Fasc. 1, Alexandrie, 1966, pp. 2—12.

REGINALD, R.P. de Sà O.P., "L'Oeuvre de Pantène, " Cahiers d'Alexandrie, Série IV, Fasc. 1, Alexandrie, 1966, pp. 13—25.

ROSE, H.J., Ancient Greek Religion. London, 1946.

ROSE, H.J., Ancient Roman Religion. London, 1948.

RUNCIMAN, S., Byzantine Civilisation. London, 1948.

STANLEY, A.P., Lectures on the History of the Eastern Chrurch. London, 1924.

TOLLINGTON, R.B., Clement of Alexandria, vol. I. London, 1914.

WORRELL, W., A Short Account of the Copts. Michiagn, 1945.

يهود الاسكندرية في عصرى البطالمة والرومان

للدكتور مصطفى كمال عبد العليم

كلية الآداب – جامعة عين شمس

لم يكن العصر البطلمى (٣٢٢ – ٣٠ ق . م) هو أول عهد مصر باليهود فقد ألف اليهود القدوم اليها فى العصر الفرعونى وقامت لهم فيها جاليات ، كان من أهمها جالية منف وطيبة والفنتين .

ومع مجىء الاسكندر إلى مصر فى عام ٣٣٢ ق . م . بدأ توافد اليهود من جديد . وكانت مصر من بين الدول الهلينستية التى استوعبت عدداً كبيراً من يهود الشتات Diaspora (١) الذين جاءوا من يهوذا من فلسطين وانتشر اليهود فى مصر على نطاق واسع وقامت لهم بها جاليات حسنة التنظيم كان من أبرزها جالية الاسكندرية دون شك . وقد نقل اليهود إلى الاسكندرية نشاطهم الفكرى والاقتصادى مما جعل منها مركزاً من أهم مراكز اليهودية فى العالم القديم (٢) .

ومن الصعب أن نصدق ما زعمه المؤرخ اليهودى يوسف من أن الاسكندر عند تخطيطه الاسكندرية لدى انشائها اهتم بأن يخص اليهود بالحى الرابع من أحياء المدينة . (٣) وذلك أن عددهم ، مهما بالغ مؤرخو اليهود لم يكن كبيراً حتى يستقلوا بحى من أحياء المدينة . والذى يمكن تصوره هو أن نفراً محدوداً من اليهود هم الذين صحبوا الاسكندر إلى مصر بعد استيلائه على فلسطين . وإذا كان عددهم قد تزايد فان ذلك لابد وأن يكون قد حدث على عهد بطلميوس الأول وخلفائه . ولعل بطلميوس الأول هو الذى رتب اقامتهم فى الحى الرابع ولم يغلقه عليهم ليصير «جيتو» ولم يحرم

على غير اليهود الاقامة فيه (٤) سيما وأن يوسف يعود فينسب هذا العمل لهذا الملك (٥) . وهذا أمر طبيعي ذلك أنه جلب إلى مصر عدداً من أسرى اليهود نتيجة لحملاته فى فلسطين (٦) .

أما فيما يتعلق بما نسبه يوسف إلى الامبراطور كلوديوس من أنه قال ان اليهود قد استقروا فى الإسكندرية منذ البداية ، فان بعض المؤرخين يرى أن يوسف لم يكن أميناً فى نقل هذا الخطاب ، بل انه زيف العبارة التى أشرنا اليها وذلك فى ضوء دراسة خطاب صدر عن هذا الامبراطور نفسه وحفظته لنا احدى البرديات (٧) ويعتبر هذا الخطاب الأصل الذى زيفه يوسف. وقد جاء فى الخطاب الأصلى أن اليهود كانوا فى الاسكندرية «منذ زمن طويل» . ولا يمكن أن يكون المقصود بذلك أنهم كانوا يقيمون فى الاسكندرية منذ نشأتها .

ويقدر بعض المؤرخين عدد اليهود فى الاسكندرية على عهد الملك بطلميوس الثانى فيلادلفوس بمائة وعشرين ألفاً وذلك استناداً إلى يوسف (٨) ولكن هل يمكن التسليم بهذا التقدير ؟ جاء فى أحد المصادر أن عددا لأسرى الذين حررهم بطلميوس الثانى كان يزيد على ١٠٠٠٠٠ أسير ، وهذا عدد مبالغ فيه إذا قورن بعدد اليهود اللذين كانوا فى أسر بابل فى عام ٥٨٦ ق .م. يتراوح بين ٣٠٠٠٠ ، ٤٠٠٠٠ واعتبر اليهود ان اجلاء هذا العدد الضخم كان كارثة بالنسبة لليهود كان من الجائز أن تنتهى باقفارها منهم (٩) .

وقد ظلت فلسطين تحت حكم البطالمة مدة طويلة امتدت من عام ٣٠١ الى عام ١٩٨ ق . م. عندما أطاح انطيوخوس الثالث الملك السلوقى بالحكم البطلمى فى جنوب سوريا بعد أن أوقع الهزيمة الساحقة بجيش بطلميوس الخامس عام ١٩٩ ق . م . وتعطينا برديات زينون صورة حية عن التبادل التجارى بين مصر وفلسطين مما استتبع توافد الكثيرين من اليهود الاحرار ليفيدوا من فرص الثراء التى أتاحتها الاسكندرية التى احتلت المكانة الأولى فى تجارة البحر المتوسط . هذا إلى جانب ان البطالمة فتحوا أبواب مصر

على مصراعيها أمام رأس المال الأجنبي وأمام الخبرة الأجنبية . إلى جانب ذلك شجع البطالمة استخدام اليهود جنداً مرتزقة في جيشهم ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من جموع الأجانب الذين جندهم البطالمة في جيشهم .

واستطاع اليهود أن يكتسبوا ثقة ملوك البطالمة واحتل بعضهم مكانة بارزة في البلاط الملكي في العاصمة . وقد استطاع يهودي يدعى دوسيثيوس بن دريمولوس أن يشغل في عهد الملك بطلميوس الثالث في عام ٢٤٠ ق.م. وظيفة سكرتير الملك hypomnematogràphos (١٠) وفي عام ٢٢٥/٢٢٤ ق . م . كان في معية الملك وهو يقوم بجولة في بعض أنحاء مصر (١١) . وفي عام ٢٢٢ ق . م . كان كاهناً للاسكندر والآلهين يوارجيتيس (بطلميوس الثالث وزوجته برينيكي) (١٢) . وكونه كاهناً للملوك المؤلهين يعني أنه ارتد عن دينه (١٣) .

وكان يقود جيش الملكة كليوباترة الثالثة اثنان من اليهود هما خلكياس وأخوه أنانياس وهما ولدا أونياس الرابع الحبر الأعظم الذي فر من وجه السلوقيين إلى مصر حيث أكرم وفادته الملك بطلميوس السادس وسمح له ولاتباعه الاقامة في اقليم هليوبوليس وباقامة معبد على نسق هيكل اورشليم في مدينة ليونتوبوليس (تل اليهودية) بالقرب من شبين القناطر (١٤) .

وإذا كنا نملك من الشواهد ما يدل على تقلد بعض اليهود لوظائف مالية هامة مثل وظيفة مدير بنك في بعض مديريات مصر ، وأن نفراً منهم عمل في جباية الضرائب فاننا لا نشك ، بالرغم من افتقارنا إلى أدلة كافية ، ان نفراً منهم كان يعمل ولابد في الادارات المالية التي كان يرأسها في الاسكندرية وزير المالية (١٥) . ولابد وأنهم ، في مجال العمل في التجارة البحرية ، قد حققوا ارباحاً طائلة . ويؤكد ذلك مصادر العصر الروماني التي تؤكد أيضاً اشتغالهم باقراض الأموال (١٦) .

والصورة العامة التي نخرج بها من دراسة نشاط اليهود الاقتصادي

هى أنهم أحرزوا ولا شك نجاحاً واضحاً ، وان كان ذلك لا ينفى وجود يهود عملوا فى وظائف متواضعة .

وإذا كان اليهود قد حققوا لانفسهم نجاحاً ملحوظاً فى مجال العمل الحكومى والنشاط الاقتصادى فماذا كان وضعهم القانونى فى الاسكندرية ؟

كان فى الاسكندرية ثلاث مجموعات من السكان وهم :

١ — الاغريق مواطنو المدينة .

٢ — الاغريق من غير المواطنين .

٣ — الاجانب .

وقد منح البطالمة الاغريق من غير المواطنين الحق فى تشكيل جاليات Politumata وكذلك فعلوا بالنسبة لبعض جماعات الأجانب . وكان من بين هؤلاء الأجانب اليهود . والجالية تتكون من عناصر جنسية واحدة وتعترف لها الدولة بشخصية معنوية واضحة من حيث استطاعتها تصريف شئونها وحقها تشكيل مجالس خاصة بها ، فضلا عن جانب لا بأس به من الاستقلال فى تطبيق قوانينها القومية .

من الرسالة المنسوبة إلى أرستياس ، وهو داعية يهودى ، انه كان على رأس الجالية اليهودية طائفة من المسنين أو الشيوخ Presbyteroi tonapo tou politeumatos وطائفةأخرىمنزعماءالشعب hegoumenoi tou plethous

وذكر استرابون الذى زار مصر مع الفتح الرومانى لها ، انه كان على على رأس جالية يهود الاسكندرية رئيس أو زعيم يحمل لقب اثنارخيس ethnarchês وأنه كان يباشر سلطات ادارية وقضائية واسعة كما لو كان أرخونا فى مدينة حرة (١٨) . وواضح أن استرابون كان يصف أوضاعاً كانت سائدة فى العصر البطلمى وهذا يعنى أن الرسالة المنسوبة إلى أرستيأس قد أغفلت الاشارة إلى هذا الرئيس الذى كان يشغل منصباً

خطيراً دون شك . ويفترض البعض ان الاشارة إلى هذا الرئيس قد سقطت عند نسخ المخطوطة الأصلية للرسالة . ويفترض بعض المؤرخين أن الجالية كانت تضم مجلساً يحمل اسم مجلس الشورى boule أو مجلس شيوخ gerousia أو سنهدريون Synderion وذلك على غرار ما عرفته تنظيمات اليهود فى أورشليم . (١٩) .

ولا شك فى أن أهم ما حصل عليه من امتيازات فى اطار الجالية حقهم فى التمتع بقدر كبير من الاستقلال القضائى طبقاً لشرائعهم وقوانين آبائهم toi patriois nomois chersthai (٢٠) وفى بردية من قرية ما جدولا بالفيوم تضمنت شكوى تقدمت بها إلى الملك سيدة يهودية ضد زوجها ذكرت فيها أنها تزوجت طبقاً لقانون مواطنى الجالية اليهود Kata ton nomon politikon ton Ioudaion وان كان البعض يفضل أن تكون العبارة أن الزواج تم أمام دار السجلات الخاصة باليهود Pros ton archeion politikon ton Ioudaion (٢١) . لو أخذنا بالقراءة الأولى فان ذلك يعنى تمتع اليهود بتطبيق أحكام شريعتهم . والقراءة الثانية تعنى أن الزواج سجل أمام مكتب تسجيل يهودى فحسب . دون أن تتبين ان كان عقد الزواج قد تم طبقاً لأحكام الشريعة اليهودية . ولكن مع التسليم بوجهة النظر تلك ، إلا أنه من الصعب القول بأن الزوج بين زوجين يهوديين تم طبقاً للقوانين الأغريقية والا انتفت الحكمة من تسجيل العقد أمام دار السجلات اليهودى (٢٢) . على أى حال لنا أن نفترض أن الجالية اليهودية بالاسكندرية كانت تباشر تطبيق شريعتها وخاصة فى المسائل المتصلة بالأحوال الشخصية . وإستناداً إلى مصادر التلمود ومصادرالعصر الرومانى كان لليهود محكمة بالاسكندرية (٢٣) . وواضح من استرابون أن الاثنارخيس كان يشرف على ادارة شئون الجالية ويفصل فى المنازعات والقضايا التى يكون اليهود طرفاً فيها . بل ان البعض يذهب إلى القول بأن هذا الرئيس كان يرأس المحاكم اليهودية والمجالس القضائية فى جالياتهم المنتشرة فى أنحاء كثيرة من مصر (٢٤) . ونضيف إلى ما تقدم ان القائمين على شئون الجالية

كانوا يتولون جباية الأموال التى يهبها اليهود لصالح هيكل أورشليم إلى جانب الضرائب التى فرضتها التوراة على اليهود وهى ضريبة نصف الشاقل didrachmon (٢٥) وضريبة ابكار الأرض aparché (٢٦) . ولعل هذا الالتزام المالى كان الرابطة التى تربط بين يهود الشتات وبين مركزهم الدينى فى أورشليم . وكان تحصيل هذه الضرائب وارسالها إلى أورشليم بمعرفة الجاليات اليهودية يتم بموافقة الحكومة البطلمية دون شك (٢٧) ونرجح ان هذه الأموال كانت تتجمع فى خزانة خاصة إلى حين ارسالها إلى أورشليم . ونفترض أيضاً وجود جهاز يختص بادارة ممتلكات الجالية . ومن المهم ملاحظة تجمع يهود الاسكندرية حول بيعتهم الكبرى . وكل ذلك يعطى الانطباع الكافى بأن الجالية اليهودية فى الاسكندرية كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية والاستقلال الذاتى (٢٨) .

هل بعد ذلك كان اليهود فى الاسكندرية يطمحون إلى أن تكون لهم حقوق المواطنة فى المدينة ؟ (٢٩) والواقع ان هذه المسألة اثيرت فى العصر الرومانى لاسباب سنعرض لها فيما بعد . وكان من الطبيعى أن يحاول المؤرخ اليهودى يوسف أن يثبت أن يهود الاسكندرية تمتعوا بهذه الحقوق فى العصر البطلمى بل انه حاول ان ينسب إلى الاسكندرية نفسه منحهم هذه الحقوق وقال ان الاسكندر سمح لليهود بالاقامة فى الاسكندرية على قدم المساواة التامة مع الأغريق ex isomoris pros tous hellenes وأن خلفاءه اعترفوا بدورهم بوضعهم على هذا النحو (٣٠) .

ونسب يوسف إلى الامبراطور كلوديوس قوله ان الملوك البطالمة الأوائل منحوا اليهود الحقوق السياسية isopeliteia على قدم المساواة مع الاسكندريين (٣١) .

وذكر يوسف ان الاسكندر منح نفس الامتيازات المقررة للمقدونيين ليهود الاسكندرية وعلى قدم المساواة مع المقدونيين (٣٢) . وأن البطالمة سمحوا لهم باتخاذ لقب « المقدونيين» وأن قبيلة Phyle اليهود فى الاسكندرية

كانت لا تزال فى أيامه ، أى على عهد الامبراطور فسباسيان ، تحمل اسم المقدونيين (٣٣) .

إذا كان يوسف قد نسب إلى الاسكندر أنه قد سمح لليهود بالاقامة فى الاسكندرية على قدم المساواة مع الاغريق ، فليس من الصعب القول أن يوسف يتعمد المبالغة ذلك ان الاسكندر لم يتسع وقته ليضع تفاصيل البناء السياسى للمدينة . وحتى إذا كان قد فعل فقصارى مانفهمه انه منح اليهود حق تشكيل جالية . وسنرى أن يوسف زيف أقوال الامبراطور كلوديوس ومع ذلك فانه يمكن تفسير كلمة isopoleteia على أنها تعنى أيضاً الحق فى تشكيل جالية politeuma لأن كلمة politeia تعنى إلى جانب عضوية المدينة أو مواطنتها عضوية الجالية (٣٤) .

أما وصف اليهود بأنهم مقدونيون فان ذلك لا يلزم بالضرورة الربط بينه وبين وصف المواطنة لأن طبقة المقدونيين كانت بدورها تشكل جالية ولم تكن ازاء امتيازاتها الضخمة لتطالب بمواطنة الاسكندرية لتأكيد تلك الامتيازات (٣٥) .

أما وصفهم بأنهم مقدونيون أو القول بأن لهم قبيلة مقدونية فان ذلك راجع إلى خدمة بعض اليهود فى الفرق المقدونية . ولانستبعد ان يكون اليهود قد اختيروا للعمل فى الحرس الملكى فى العاصمة على عهد الملك بطلميوس السادس (٣٦) .

وازاء كل ما تقدم نستطيع القول بأن اليهود لم يكونوا مواطنين فى الاسكندرية وأن حسبهم الامتيازات التى تمتعوا بها فى اطار جالياتهم . ومن ناحية أخرى ما نحسب أن اليهود ، فى سبيل الظفر بمواطنة الاسكندرية كانوا على استعداد للارتداد عن دينهم ومما يؤكد هذه الحقيقة أن كاتب السفر الثالث من كتب المكابيين ذكر أن بطلميوس الرابع عرض عليهم مواطنة الاسكندرية بشرط قيامهم بعبادة الإله ديونوسوس ولكنهم رفضوا (٣٧) .

وإذا كان اليهود قد استبعدوا من مواطنة الاسكندرية من الناحية القانونية فان ذلك لا يعنى ان بعضهم مثل دوسيثيوس بن دريمولوس كان فى استطاعته الحصول عليها ولكن بعد أن ارتد عن دينه لانه كما أسلفنا شغل منصب كاهن الاسكندر .

ان مجتمع اليهود فى الاسكندرية باوضاعه تلك التى أوضحناها عاش فى المدينة وهو يباشر حياته الخاصة حسبما تقضى شريعته غير متطلع لحقوق المواطنة السكندرية . وكان حريصاً على الاقتراب من المجتمع الأغريقى السكندرى ليفيد من كل فرص النجاح التى تهيؤها الحياة فى الاسكندرية فاصطنع اللغة الأغريقية ونقل اليها التوراة أو على الأقل الأسفار الخمسة الأولى منها فى عهد الملك بطلميوس الثانى . واسهم بعض أفراده فى الأدب الاسكندرى وان كانوا قد عالجوا موضوعات يهودية وانما التزموا النموذج الأدبى الأغريقى . وكذلك كان لهم فلاسفتهم مثل ارسطوبولوس الفيلسوف المشاء الذى تمتع بمكانة طيبة فى بلاط الملك بطلميوس السادس ولا نستبعد أن يكون بعض اليهود قد ترددوا على دار العلم والحقوا ابناءهم بطريقة أو بأخرى بمنظمات الفتوة أو الجمنازيوم . وهناك من الشواهد ما يدل على أنهم أطلقوا على ابنائهم الأسماء الأغريقية أوانهم ترجموا اسمائهم إلى اللغة الأغريقية حتى تبدو اغريقية غير شاذة . وفى الواقع ان الجيل اليهودى الذى نشأ فى الاسكندرية كان فى حاجة إلى اتخاذ الطابع الأغريقى كما كان فى حاجة إلى نقل التوراة إلى اللغة الأغريقية لتتسنى له قراءتها لجهلهم باللغة العبرية فهذه بقيت لغة احبارهم (٣٨) .

وهكذا نرى أن اليهود فى الاسكندرية عاشوا جنباً إلى جنب مع المجتمع الاغريقى دون أن يحدث صدام بينهما وإذا كان اليهود قد حرصوا على ترديد القصص عن اضطهاد لحق بهم مرتين ، مرة على عهد بطلميوس الرابع والمرة الثانية على عهد بطلميوس يوارجيتيس الثانى فان ذلك لم يكن اضطهاداً بالمعنى المفهوم وانما كان لأسباب أخرى ليس من بينها الدين .

ذكر كاتب السفر الثالث من كتاب المكابيين أن الملك بطلميوس الرابع بعد انتصاره فى موقعة رفح زغب فى زيارة قدس الأقداس فى هيكل أورشليم . ولم يعبأ الملك باعتراض الأحبار فما أن أقدم على دخول الهيكل حتى خر مريضاً لدى الباب . وبعد عودته أقسم على شن حملة اضطهاد واسعة النطاق على يهود مصر وأراد أن يفرض عليهم عبادة ديونوسوس اله الخامى . وقضى على من رفض منهم تقديم القرابين لهذا الاله بأن يدفع ضريبة الرأس laographia مثل المصريين ، وأن يوشم بورق اللبلاب رمز الاله ، وأن من يقبل منهم فانهم يمنحون حقوقاً مساوية لحقوق مواطنى الاسكندرية . وعندما رفض أكثر اليهود عرض الملك أمراً باعتقالهم رجالا ونساء وأطفالا وأن يساقوا إلى حلبة السباق لتطأهم الفيلة الثملة بأقدامها . ولكن الفيلة تحولت لتهاجم الملك وجنوده . وبهرت المعجزة الملك واعترف بأن رب اليهود قادر على حماية أتباعه . وأمر باطلاق سراحهم وسمح لهم بالعودة إلى المواطن التى جاءوا منها .

وتاريخ السفر الثالث من كتاب المكابين موضع خلاف بين الدارسين والأرجح أنه كتب فى صدر العصر الرومانى لأن العصر البطلمى لم يعرف ضريبة باسم ضريبة الرأس laographia فهذه فرضها أغسطس على اليهود وعجز هؤلاء عن مواجهة أغسطس فعمدوا إلى هذا الكتاب ليرفعوا معنويات بنى جلدتهم وواضح أنهم هاجموا أغسطس فى شخص بطلميوس الرابع ، واستغل الكاتب خلافاً لابد وأن يكون قد نشب بين الملك وبين اليهود عندما أراد سوسيبيوس احصاء أثريائهم فى الاسكندرية وغيرها تمهيداً لفرض ضرائب اضافية لمواجهة خطر السلوقيين قبل رفح ، سيما وأن كلمة loagraphia تعنى الاحصاء (٣٩) .

أما قصة الاضطهاد الثانية فقد نسبها المؤرخ اليهودى يوسف إلى بطلميوس يوارجيتيس الثانى . وأورد يوسف قصة الفيلة بنفس التفاصيل تقريباً التى وردت فى كتاب المكابين مما يقطع بزيفها . وواقع الأمر أن اليهود ظاهروا الملكة كليوباترة الثانية فى صراعها مع هذا الملك فى عام ١٤٥ ق . م .

وما أن انتصر عليها وتمكن من دخول الاسكندرية حتى دبر أمر الانتقام من اعدائه من يهود ومن غير اليهود ولقى اغريق الاسكندرية الأمرين على يديه . ولكنه ما أن تصالح مع الملكة حتى عفا عن اليهود .

ولكن الذى ينبغى أن يقال هو أن اليهود أساءوا إلى الاسكندريين عندما ساعدوا فى عام ٥٥ ق . م جابينيوس حاكم سوريا الرومانى ومكنوه حدود مصر الشرقية ليعيد بطلميوس أوليتس إلى عرشه الذى أبعده عنه الاسكندريون .

وتكرر تدخل اليهود فى عام ٤٧ ق . م عندما كان يوليوس قيصر محاصراً فى الاسكندرية فمكن اليهود القوات الرومانية القادمة من سوريا على الوصول إلى الاسكندرية وأنقذت قيصر وهذا ما لم يغفره الاسكندريون لليهود .

ومرة ثالثة وقف اليهود موقفاً سلبياً من كليوباترة فى صراعها مع أوكتافيانوس وانضموا إلى جانب الرومان . وبسقوط حكم البطالمة فقدت الاسكندرية مكانتها الأولى كعاصمة لمملكة مستقلة .

وهذا يعنى أن اليهود عندما أحسوا بأفول نجم البطالمة تحولوا بولائهم إلى الرومان وقد دفعوا ثمن ذلك غالياً فى العصر الرومانى كما سنرى (٤٠)

يهود الاسكندرية فى العصر الرومانى :

عند فتح الرومان لمصر فى أغسطس من عام ٣٠ ق . م . كان اليهود يشكلون عنصراً هاماً من عناصر سكانها بعد أن تزايد عددهم بفضل ما نعموا به من أمن وطمأنينة ابان العصر البطلمى . وتبعاً لذلك ازدهرت جالياتهم وبصفة خاصة جالية الاسكندرية . وأصبح اليهود عنصراً له خطره فى حياة البلاد الاقتصادية والسياسية .

وقد قال فيلون ، الفيلسوف الاسكندرى اليهودى ، ان فلاكوس حاكم مصر الرومانى (٣٢ — ٣٨ م) كان يعرف أنه كان فى مصر كلها

طبقتان من السكان ، نحن (اليهود) وهؤلاء (الاغريق) ؛ وأن عدد اليهود في الاسكندرية ومصر من منحدرات ليبيا حتى حدود النوبة ، وكان لا يقل عن مليون نسمة (٤١) ولما كان المؤرخ اليهودي يوسف قدر عدد سكان مصر بسبعة ملايين ونصف نسمة (٤٢) . فان ذلك يعني ان يهود مصر بلغوا ثمن عدد سكانها تقريباً وهذه نسبة ضخمة دون شك (٤٣) .

وبالنسبة لعدد سكان يهود الاسكندرية فقط فاننا نعرف من يوسف أن عددهم ، على عهد الملك بطلميوس الثاني ، كان مائة وعشرون ألفاً (٤٤) كما أسلفنا ، ونعرف منه أيضاً أن خمسين ألف يهودي لقوا مصرعهم في فتنة حدثت في الاسكندرية في عام ٦٦ م (٤٥) ، وان أكثر من ستين ألفاً (٤٦) من اليهود قتلوا في فتنة أخرى وقعت في عام ٧٠ م . وهذه مبالغة واضحة إذ أراد يوسف أن يضخم من عدد ضحايا الفتنتين . ونحن نفضل الأخذ بتقدير مودونا ، وهو ان عددهم بلغ في عهد فيلون مائتي ألف نسمة (٤٧) .

وقد أقر أغسطس الامتيازات التي اكتسبتها جالية اليهود في الاسكندرية منذ عصر البطالمة (٤٨) . وسمح لهذه الجالية بتشكيل مجلس شيوخ وأن يكون ليهود المدينة رئيس (ethnarchês) كان يحكم الشعب (ethnos) اليهودي ويباشر اختصاصات قضائية وادارية واسعة كما لو كان — على حد قول استرابون — أرخونا في مدينة حرة (٤٩) . ويذكر المؤرخ اليهودي يوسف ان مجلس الشيوخ اليهودي ظل قائماً حتى عصره (أي في عصر الامبراطور فسباسيان (٦٩ — ٧٩ م) . وانه كان على رأسها جماعة من الرؤساء عرفوا باسم رؤساء الشيوخ (Hoi proteuntes tes gerousias) (٥٠) ، وانه كان يوجد ، إلى جانبهم عدد من الاراخنة أو الحكام (٥١) وكانت توجد أيضاً طائفة من الرؤساء كانوا يعرفون باسم اراخنة السيناجوج (Archisynagogoi) (٥٢) .

وقد كشفت احدى الوثائق البردية عن وجود دار لحفظ السجلات والوثائق الخاصة باليهود كانت تعرف باسم دار سجلات اليهود (Archeion ton

(Ioudaion) (٥٣) وكانت جالية اليهود ، عموماً ، تتمتع بكثير من مظاهر الحكم الذاتى خاصة وانها كانت أعلى قدر كبير من التنظيم وافادت بشكل واضح من الامتيازات التى منحت لها فى العصر البطلمى ، وازدادت فى صدر العصر الرومانى تماسكاً وتنظيما وافادت من اعتراف الشكاوى إلى الامبراطور .

وفضلا عن ذلك اعترفت الامبراطورية الرومانية لليهود ، وفقاً لسياستها الدينية التى تتسم بالتسامح ، بحرية ممارسة شعائر دينهم وتطبيق أحكام شريعتهم ، وان يكون لجاليتهم بالاسكندرية خزانة لجمع الأموال والتبرعات التى كان يقدمها ابناؤها لارسال نصيب منها إلى هيكل أورشليم (٥٤) .

وكانت بيعتهم الكبرى فى الاسكندرية لا تزال قائمة . وقد ظفرنا من التلمود بوصف لها يفهم منه انها بلغت من الاتساع حداً كان لابد معه من استخدام نظام الاشارات حتى يتسنى للمصلين لمتابعةشعائر الصلاة (٥٥) وكانت هذه البيعة الكبيرة المركز الذى يتجمع حوله يهود المدينة ، إذ تتيح لهم حياة دينية تمكنهم من تدارس التوراة . وقد دأب يهود الاسكندرية على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم واحترام يوم السبت . وقد أورد فيلون نص خطبة ألقاها الحاكم الرومانى ، ولعله كان فلاكوس الذى سلفت الاشارة اليه ، وجاء فى الخطبة «إذا ما حدث هجوم فجائى على مصر أو فاض النيل أو شب حريق ، أو هبت عاصفة ، أو حاق بالبلاد مجاعة أو طاعون أو إذا زلزلت الأرض زلزالها ، أو حدث أى شيء من هذا القبيل فى يوم سبت هل تلتزمون مساكنكم هادئين لاتحركون ساكناً ؟ أم تتجولون طبقاً لعاداتكم ، وقد خبأتم أيديكم فى ملابسكم حتى لا تضطروا إلى مد يد العون لاولئك الذين يقومون بعملية الانقاذ ، أو تظلون فى بيعكم ، تقرأون كتبكم المقدسة ، أم هل تسارعون إلى انقاذ آبائكم وأبنائكم وأموالكم وكل ما هو عزيز عليكم» (٥٦) .

ولما كان الدين عنصراً أساسياً فى تشكيل نقابات العمال ، لم يكن فى استطاعة اليهود العاملين فى المهن والصناعة والانضمام اليها وقد سمح لهم بتكوين نقابات خاصة بهم مثل نقابة العاملين فى نقل القمح إلى روما ، وكانت نقابة منفصلة تماماً عن النقابات العامة للاسكندرية . ويؤخذ من مصادر التلمود ان الصناع كانوا يجلسون فى البيعة الكبرى فى الاسكندرية حسب مهنهم . ولذلك يرجح ان هؤلاء الصناع كانوا يشكلون منظمات مهنية داخل نطاق الجالية (٥٧) .

وقد كفلت كل هذه الامتيازات التى منحت لجالية يهود الاسكندرية كل فرص النجاح وولدت فيهم الاحساس بأنهم ينتمون إلى جماعة متميزة ولذلك لم يتوقف نشاطهم الذى كان لهم فى العصر البطلمى فى خدمة الحكومة أو فى العمل فى المهن الحرة .

يتحدث يوسف ، المؤرخ اليهودى ، عن أحد أثرياء يهود الاسكندرية يدعى ديمتريوس (٥٨) صهر الملك اجزيبا الأول الملك اليهودى ، وانه كان يشغل منصب مدير الضرائب الجمركية Arabarchês أو Alabarchês كما يكتبها هذا المؤرخ (٥٩) ، وعن ثرى يهودى اسكندرى آخر يدعى اسكندر (٦٠) شقيق فيلون ، الفيلسوف اليهودى الاسكندرى وانه كان يشغل هذا المنصب نفسه . وكان مدير الضرائب الجمركية يقوم بتحصيل الرسوم الجمركية على التجارة الشرقية القادمة إلى ساحل البحر الأحمر لتنقل عبر الطرق الصحراوية إلى وادى النيل . ومن الواضح ان الادارة الحكومية كانت تعهد به إلى أثرياء يهود الاسكندرية (٦١) . وكان اسكندر والد لتيبريوس يوليوس اسكندر اليهودى الصابىء الذى عينه الامبراطور نيرون فى مايو عام ٦٦ م . حاكماً على الاسكندرية ومصر (٦٢) ؛ وماركوس احد كبار رجال الأعمال اليهود فى الاسكندرية .

وكان اسكندر مدير الضرائب الجمركية صاحب ثراء عريض ، روى عنه يوسف الشىء الكثير فهو الذى انقذ من الافلاس اجريبا بن

ارسطوبولوس بن هيرود الأكبر ، والذى سيعينه فيما بعد الامبراطور جايوس (٣٧ — ٤١م) ملكاً على مملكة صغيرة على حدود يهوذا فى فلسطين وذلك بأن أقرضه مبلغ مائتى ألف دراخمة وزوده بخطاب ضمان مكنه من العودة إلى ايطاليا ومواجهة دائنيه . وفضلا عن ذلك اهدى هيكل أورشليم صفائح من ذهب لتوضع على أبوابه التسعة ، وكان على علاقة طيبة بأسرة الامبراطور تيبريوس (١٤ — ٣٧ م) حتى ان والدة الامبراطور كلوديوس (٤١ — ٥٤ م) عهدت اليه بادارة أملاكها فى مصر ، ولا يستبعد أن يكون قد منح الجنسية الرومانية إذ يلاحظ أن ابناءه حملوا اسم عشيرة الامبراطور (٦٣) .

أما ابنه ماركوس فقد كان يدير شركة اختصت بتصدير السلع إلى الشرق فى الوقت الذى كان فيه شقيقه تيبريوس يتولى منصب الحاكم العام (Epistrategoe) فى منطقة طيبة عام ٤٢ م . مما يجعلنا نرجح أن ماركوس قد أفاد من خبرة أبيه ومن نفوذ شقيقه بل ربما كان الشقيقان شريكين فى الشركة المذكورة (٦٣) . خاصة واننا نعرف أن حاكم طيبة كان يشغل فى نفس الوقت وظيفة مدير الضرائب الجمركية (٦٤) .

وخارج مجال عمل اليهود فى خدمة الحكومة كان ليهود الاسكندر نشاط اقتصادى واضح . ونستمد أكثر معلوماتنا عن هذا النشاط مما كتبه فيلون (٦٥) عن حياة اليهود الاقتصادية فى صدر العصر الرومانى ويمكننا أن نتبين خمس طبقات أو طوائف تتفاوت فيما بينها حسب نشاطها الاقتصادى

(أولا) أصحاب رؤوس الأموال Hoi poristai وهؤلاء كانوا يستثمرون أموالهم فى التجارة وفى اقراض التجار ورجال الأعمال ولدينا بردية هامة عن المرابين اليهود فى الاسكندرية وذلك استناداً إلى التحذير الذى وجهه تاجر اغريقى إلى صديق له مقيم فى الاسكندرية فى عام ٤٠ م من التعامل مع اليهود . ولعل المقصود بهذه العبارة التعامل مع المرابين اليهود وان كان بعض المؤرخين يرى ان هذه البردية كتبت فى فترة كانت تغلى

بالحقد بين أغريق الاسكندرية ويهودها بعد حوادث عام ٣٨ م . الدامية كما سيلي . ووجود المرابين اليهود فى الاسكندرية أمر لا شك فيه (٦٦) بل ان فيلون لم يخف نفوره من المرابين وازدرائه لهم لأنهم كانوا لا يتورعون عن تقاضى ارباح فاحشة دون وجه حق باقراضهم المال بل والطعام أيضاً للفقراء (٦٧) . ونضرب مثلا لهذه الطائفة برجال مثل اسكندر الا رابرخيس وابنه ماركوس وبديمتريوس صهر الملك اجريبا الذى سالفت الاشارة اليه .

(ثانياً) طائفة أصحاب السفن Hoi Nau Kleroi

لعبت هذه الطائفة دوراً هاماً فى النشاط الاقتصادى وخاصة فى التجارة البحرية ونقل القمح إلى ايطاليا . ونلحق بهذه الطائفة نفراً من اليهود كانوا يعملون فى نقل القمح من داخلية البلاد إلى الاسكندرية (٦٨) .

(ثالثاً) طائفة التجار Hoi omporoi وكانت تضم التجار العاديين الذين كانوا يعملون فى تجارة التجزئة .

(رابعاً) الصناع Hoi Technitai وهؤلاء كما سبق القول كانوا يكونون نقابات منفصلة عن بقية نقابات الصناع بالاسكندرية لأن هذه النقابات الأخيرة كانت تقوم على أساس دينى ومن المرجح أن طائفة الصناع كانت تجمع بين العمل فى حرفه معينه وبين التجارة فى السلع التى كانوا يصنعونها فى حوانيتهم (٦٩) .

(خامساً) المزارعون (Hoi Georgoi) وأغلب الظن انهم كانوا المشتغلين بالزراعة من يهود الاسكندرية فى الريف المجاور للمدينة وكانوا ينقلون منتجاتهم الريفية فى سفنهم إلى العاصمة (٧٠) .

ونعرف من احدى البرديات ان بعض أثرياء اليهود كانوا يمتلكون مساحات من الأرض فى المناطق المجاورة للاسكندرية (٧١) .

وإلى جانب هذه الطوائف التى ذكرها فيلون كان عدد من اليهود يعملون فى مهن متواضعة ونقرأ فى احدى البرديات عن امرأة يهودية

كانت تعمل مرضعا لدى أسرة رومانية فى الاسكندرية (٧٢) . ولابد وأن وأن كثيرات غيرها كن يعملن فى مثل مهنتها . ولابد أيضاً وان يهوداً كثيرين كانوا يعملون فى مهن أكثر تواضعاً من تلك التى ترتبط با لحياة النشطة فى ميناء مثل ميناء الإسكندرية .

كل الشواهد تشير إذن إلى ازدهار أوضاع اليهود فى الاسكندرية وانهم أصابوا نجاحاً اقتصادياً لا شك فيه ، وانه لابد وان يكون عددهم قد تضخم وانه كان لا يقل عن مائتى ألف نسمة ، كما أسلفنا ، سيما واننا نعرف من فليون ان اليهود كانوا يشكلون أغلبية السكان فى حيين من احياء المدينة (٧٣) . احد الحيين هو الحى الرابع (حى الدلتا) أما الحى الآخر يكون الحى الثانى من أحياء المدينة (حى البيتا) ونعرف من فيلون أيضاً أن بيع اليهود تعددت وانتشرت فى أكثر من حى من أحياء المدينة (٧٤) .

وكانت ظواهر الأمور كلها تشير أيضاً إلى اطمئنان اليهود فى صدر العصر الرومانى إلى امكان استمرار حياتهم التى الفوها فى العصر البطلمى وخاصة بعد أن تزايدت أهمية الاسكندرية وزاد حجم نشاطها الاقتصادى بعد انفتاح الطريق إلى الشرق ولعل يهود الاسكندرية كانوا مطمئنين إلى مؤازرة الحكم الرومانى لهم ذلك انهم كما أسلفنا ساعدوا الرومان أكثر من مرة على دخول مصر ومكنوهم من دخول الاسكندرية ، مرة فى عام ٥٥ ق . م . عندما ساعدوا جابينيوس ، ومرة أخرى فى عام ٤٧ ق . م . عندما ساعدوا يوليوس قيصر على فك الحصار الذى ضربه من حوله الاسكندريون ومرة ثالثة عندما وقفوا من كليوباترة السابقة آخر ملوك البيت البطلمى فى صراعها اليائس مع أوكتافيانوس موقفاً سلبياً .

ولكن فجأة فى عام ٣٨ م وفى عهد الامبراطور جايوس (٣٧ — ٤١م) حدث صدام دموى عنيف بين اغريق الاسكندرية ويهودها ، كان موضوع عدد من الكتب وضعها فيلون بقى منها كتابان الأول «ضد فلاكوس» eis Flakkon حاكم مصر ، والثانى سفارة إلى جايوس « Presbeia Pros Gaion» وقد أوردفى الكتاب الأول تفصيلا دقيقاً للفتنة واحداثها بينما

خصص الكتاب الثاني للحديث عن سفارة يهود الاسكندرية إلى الامبراطور جايوس فى روما وكان هو نفسه على رأس هذه السفارة . وهذا يعنى أن ثمانية وستين عاماً مرت على الفتح الرومانى لمصر ولم يحدث خلالها أى صدام أى طوال عصرى الامبراطور أغسطس وخلفه الامبراطور تيبريوس ولكن ذلك لا يمنع من وجود عوامل الكراهية التى كانت تختمر فى صدور الطائفتين ولم تسمح لها هيبة هذين الامبراطورين بالتفجر على هذا النحو الرهيب وذلك عندما تولى عرش الامبراطورية ، الامبراطور جايوس الذى اجمعت مصادر رومانية كثيرة على اهتزاز شخصيته .

ونوجز اخبار الفتنة لنتبين حقيقتها وبواعثها وما اسفرت عنه من نتائج .

كان حاكم مصر وقت حدوث الفتنة هو أولوس افيليوس فلاكوس ولم يكن حديث عهد بمنصبه وانما كان قائماً عليه منذ أيام تيبريوس وقد تصدى هذا الحاكم للاغريق عندما ارادوا اثارة بعض الشغب فى المدينة والتى عليه فيلون من أجل موقفه الحازم من الاغريق ، ولكنه ما لبث أن حمل عليه واتهمه بأنه باع نفسه لهم بثمن بخس عندما تولى الحكم جايوس ذلك انه كان بينهما خلاف سابق ورأى انه فى استطاعة اغريق الاسكندرية التوسط لدى الامبراطور المتعلق بمدينتهم حتى لا يبطش به . واتهم فيلون هذا الحاكم بانه تحامل على اليهود ولم يسمح لجاليتهم بارسال وفد إلى روما لتبليغ الامبراطور بالقرار الذى اتخذته الجالية بتمجيده بمناسبة توليه العرش . وغضب اغريق الاسكندرية عندما وصل المدينة فى احدى ليالى صيف عام ٣٨ م اجريبا حفيد هيرود الأكبر وصديق الامبراطور الذى نصبه حاكماً على مملكة صغيرة على حدود يهوذا باسم الملك اجريبا وخاصة بعد أن نظم يهود الاسكندرية موكباً طاف المدينة وعلى رأسه اجريبا وكان هدف اليهود اشعار الاغريق والحاكم بما لاجريبا عند الامبراطور من نفوذ وسلطان . ونظم الاغريق موكباً مضاداً سخروا فيه من اجريبا . وزادوا على ذلك بان ارادوا حمل اليهود على قبول ايقونات الامبراطور فى بيعهم . وتلت ذلك أعمال العنف حرقت اثناءها بعض دور

العبادة اليهودية . ويتهم فيلون فلاكوس بأنه لم يفعل شيئاً لايقاف الأغريق عند حدهم وانه لم يحاول منعهم من الاعتداء على بيعهم ومن وضع ايقونات الامبراطور وهو يعلم ان الامبراطورية تكفل لهم حرية العبادة بل واستجاب فلاكوس لطلب الاغريق بتحديد الوضع القانونى لليهود فأصدر قراره باعتبارهم اجانب وغرباء عن المدينة وان يعاقبوا بالجلد ، وليس بالعصا ، مثل المصريين . وفسر اغريق المدينة أن قرار فلاكوس يعنى حرمانهم من حق الانتشار خارج الحى الرابع الذى خصص أصلا لاقامتهم فطاردوهم إلى ذلك الحى الذى لم يكن ليتسع لهم حتى التمسوا المأوى فى أكوام القمامة خارج المدينة أو على الساحل . وخسر اليهود محالهم التجارية ergateria وخسر أصحاب رؤوس الأموال مستودعاتهم enthékas وحرم كل شخص سواء أكان مزارعاً Georgos أو من أصحاب السفن Nauklêros أو تاجراً emporos أو صانعاً technitos من مباشرة عمله . وهذا فى رأي فيلون كان أفدح من الخسائر التى لحقتهم نتيجة لأعمال النهب التى قام بها اغريق الاسكندرية . وعاقب فلاكوس بعض اعضاء مجلس الشيوخ اليهودى بالجلد علناً فى مسرح المدينة وبلغت الفتنة ذروتها يوم عيد ميلاد الامبراطور فى ٣١ اغسطس ٣٨ م وتبع ذلك خلع فلاكوس من منصبه وخصص فيلون حوالى خمس كتابه eis Flakkon للحديث عن النهاية السيئة التى انتهى اليها فلاكوس وان ذلك كان لتدخل الرب لحماية شعبه وليس للخلاف القديم الذى كان بين الحاكم والامبراطور . وأبرز فيلون ان اليهود لم يشهروا أى سلاح فى وجه الاسكندريين حتى اثناء مقاومتهم وضع الايقونات فى بيعهم .

وتلى ذلك ان كلا من يهود الاسكندرية ، واغريقها أرسلوا وفدا يمثلهم بموافقة الحاكم الجديد . وقد استقبل الامبراطور هاتين السفارتين فى صيف عام ٤٠ م . ولم يتجاوز الأمر تبادل التحية . ثم غادر الامبراطور روما إلى كمبانيا . وفى انتظار المقابلة الثانية كانت الأمور قد تطورت تطوراً خطيراً بالنسبة لليهود إذ أصر الامبراطور على وضع تماثيله فى هيكل

أورشليم وفى بيع بعض مدن يهوذا ولكنه عدل استجابة ارجاء اجريبا الذى وفق أيضاً إلى اقناع الامبراطور بأن يحسن استقبال الوفد اليهودى فى المرة الثانية . وكانت مطالب اليهود تتلخص فى حقهم فى ممارسة طقوس دينهم بحرية تامة ، وتحديد وضع جاليتهم فى الاسكندرية باعتبار أن لهم الحق فى الحصول على المواطنة الكاملة فى تلك المدينة .

ولم يخبرنا فيلون بما أسفرت عنه سفارته إلى الامبراطور جايوس ولعله انهى رسالته التى لم تصلنا خاتمتها بالحديث عن النهاية الموسفة التى انتهت بها حياة جايوس ولعله أيضاً انتهز الفرصة ليدلل من جديد على أن رب اليهود لن يتخلى عنهم ابداً .

ومن الطبيعى أن نتساءل عن الجانب الذى يجب أن يتحمل تبعة الاحداث التى وقعت فى الاسكندرية عام ٣٨ م ؟ هل المسئول عن تلك الأحداث اليهود أم الاسكندريون أم فلاكوس الحاكم الرومانى أم الامبراطور جايوس ؟

إذا سايرنا فيلون نجده يلقى التبعة على فلاكوس لأن غوغاء الاسكندرية وليس خاصتهم وجدوا فيه صيداً سهلا يستطيعون عن طريقه تحقيق أغراضهم وعلى الامبراطور ، لأنه باصراره على تأليه نفسه وتجاهل حقوق اليهود المكتسبة اتاح لغوغاء الاسكندرية الفرصة للتنكيل بهم ومحاولة ارغامهم على وضع تماثيله فى معابدهم وعلى غوغاء الاسكندرية وذلك لأنه حريص على أن يظل الباب مفتوحاً للتفاهم مع الاسكندريين لأن ذلك من مصلحة اليهود . وطبيعى أن يجنب اليهود أى مسئولية (٧٥) .

والواقع ان أسباب الصدام بين مجتمعى يهود الاسكندرية واغريقها إلى أسباب أعمق كان فيلون مدركاً لها وان كاد أن يخفيها لأسباب سنعرض لها

والأمر يتعلق بحقيقة العلاقة بين مجتمع اليهود ومجتمع الاغريق وموقف السلطة الرومانية الحاكمة .

أسلفنا ان يهود الاسكندرية فى صدر العصر الرومانى استقلوا فى داخل جاليتهم عن مجتمع الاسكندرية الاغريقى بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم وقد كفلت لهم حكومة مصر الرومانية ما كان لهم من امتيازات اكتسبوها فى العصر البطلمى . وقد سبق أن قلنا ان الترجمة السبعينية للتوراة كان لتمكين الأجيال التى نشأت فى أرض الشتات diaspora بعيداً عن أرض يهوذا وعن اللغة العبرية أو اللغة الآرامية . وهذا فى حد ذاته دليل على تمسكهم بدينهم . ولم تحل السلطات الرومانية دون اليهود والاحتفال بأعيادهم مثل ذلك الاحتفال الذى اعتادوا اقامته كل عام بمناسبة اتمام الترجمة السبعينية للتوراة فى جزيرة فاروس (٧٦) . ولم تعترض تلك السلطات على حجهم إلى أورشليم ولا ارسال الهبات والأموال إلى هيكلها (٧٧) ولم يكن فى استطاعة اليهود مراعاة لتقاليدهم ان يطعموا على موائد الوثنيين إذ حرموا على أنفسهم أنواعاً معينة من الأطعمة مما أثار فى نفوس الاغريق نوعاً من الدهشة مصحوباً بالسخرية حتى أنهم ساقوا نساء اليهود إلى المسرح اثناء فتنة عام ٣٨ م وحملوهن على أكل لحم الخنزير باعتبار أن ذلك غاية ما يمكن أن يوقعوه باليهود من ارهاق وتعذيب (٧٩) . ومن باب الفضول سأل كاليجولا وفد يهود الاسكندرية عن سبب عدم أكلهم لحم الخنزير (٧٩) وكان فيلون منصفاً عندما ذكر ان فلاكوس عمل على توفير الطعام المناسب لليهود بعد عزلهم فى الحى الرابع فى حوادث عام ٣٨ م . وكان فى استطاعة اليهود أن يجدوا طلبتهم فى أسواق خاصة بهم (٨٠) بل ان فيلون يحدثنا عن جماعة من نساك يهود الاسكندرية انتحوا من قومهم مكاناً قصياً حول بحيرة مريوط وانقطعوا للتعبد والرهبنة وعرفوا باسم المستنطسين Therapeutai

وبالرغم من تشبث يهود الاسكندرية بدينهم الا أننا نستطيع أن نتلمس (٨١) فى ضوء مصادرنا محاولة من جانب طائفة اثرياء اليهود الاقتراب من المجتمع الاغريقى فى المدينة . فان نجاح تلك الطائفة فى أن تحقق لنفسها نجاحاً ملحوظاً فى مجال النشاط الاقتصادى جعلها تحرص على أن تحقق لنفسها وجوداً حضارياً واجتماعياً فى المدينة . ولابد وانها كانت تحاول أن توفق بين مطالب

حياتها الخاصة كما رسمتها الشريعة اليهودية وبين مقتضيات الحياة النابضة من حولهم . ولعل شعور هذه الطائفة بعدم انتمائها للكيان السياسى للمدينة كما سنرى هو الذى دفع بها إلى تحقيق هذا النجاح الاقتصادى بما يعوضهم عما افتقدوها من الناحية السياسية . ومن هنا كان اصطناع يهود هذه الطائفة لبعض أساليب الحياة الاغريقية حتى تستطيع الاقتراب من المجتمع الاغريقى من ذلك استمرار استعمال الاسماء الاغريقية . وهذا واضح فى اسماء أعضاء مجلس الشيوخ اليهودى اثناء فتنة عام ٣٨ م . ولا يزال هناك اصرار على اصطناع اللغة الاغريقية حتى أن فيلون يقول «ان اللغة الاغريقية هى لغتنا» (٨٢) بل نعرف ان هذا الفيلسوف اليهودى كان يجهل اللغة العبرية (٨٣) ولعل اليهود باصطناعهم اللغة الاغريقية وبالحرص على التزود بالثقافة الاغريقية ارادوا أن يثبتوا للحكام الرومان انهم لا يقلون فى المظهر ولا فى الجوهر عن الاغريق الذين كانوا يسمون عليهم فى المكانة السياسية .

ولنا أن نعتبر فيلون واحداً من هذه الطائفة الاغريقية التى ارادت الاقتراب من المجتمع الاغريقى (٨٤) . إذ أنه ينتمى إلى أسرة عرفت بارستقراطيتها بين الأسر اليهودية فى المدينة ولم يكن يجد حرجاً فى التردد على الجومنازيوم ومشاهدة مبارياته ولا فى شهود المسرحيات الاغريقية التى كانت تمثل على مسرح المدينة وكثيراً ما ابدى اعجابه بها . (٨٥) . كما وانه لم يجد حرجاً فى الاعتراف بتفوق الثقافة الاغريقية مستدلا على ذلك بأن «موسى تلقى العلم على يد معلمين من الاغريق» (٨٦) . ويعد فيلون فى رأى الذين توفروا على دراسة أكبر ممثل للمفكرين اليهود الذين افادوا من الاتصال والتفاعل الذى حدث بين اليهودية والوثنية . ولاجدال فى أن فيلون هام حباً بالفلسفة الاغريقية واستعار منها أفكاره ومناهجه وعندما تصدى فيلون لشرح التوراة والتعليق عليها ، شرحها بالطريقة الرمزية على غرار شروح الفيثاغوريين والافلاطونيين والرواقيين لقصص الميثولوجيا وتحولت الشخصيات الدينية فى التوراة إلى مجرد رموز لأفكار اغريقية أصيلة . وبذلك يمكن القول ان هدف فيلون كان الخروج بالفلسفة اليهودية

من افقها الضيق إلى مجال ارحب بعد تجريدها من كل مظاهر القومية لتصبح عالمية يتقبلها الاغريق واليهود على السواء (٨٧) . وإذا كان كاتب الرسالة المنسوبة إلى ارستياس قد استهدف وجوب جعل التوراة فى صورتها الاغريقية أداة للتفاهم بين الاغريق واليهود ، فانه من الواضح أن عمل فيلون كان يسعى لتحقيق الهدف نفسه وهو ايجاد صلة فكرية بين المجتمع الاغريقى والمجتمع اليهودى ، وبذلك يستطيع أى يهودى الاتصال بالمجتمع الاغريقى دون الاضطرار إلى نبذ دينه كما فعل ابن أخيه تيبريوس يوليوس اسكندر . وكان فيلون يرى انه لو اتبع اليهود ما أشار به من نقل تراثهم إلى اللغة الاغريقية لربما استطاعوا العيش فى سلام مع جيرانهم الاغريق ، وأمكن تجنب وقوع تلك الحوادث المؤسفة التى شهدها عن كتب عام ٣٨ م . لاعتقاده ان ذلك كان كفيلا بجعل الاغريق يقفون على مدى حضارتهم وقيمة تراثهم الفكرى فيزول ما استقر فى اذهانهم من أن اليهود عنصر لا يستطيع خلق فلسفة أو ثقافة مثل فلسفتهم وثقافتهم (٨٨) .

وتحقيقاً لهذه الفكرة تولى دراسة الوصايا العشر فى رسائله (De specialibus Legibus) وقدمها بطريقة يرضى عنها الاغريق والرومان ومن أجل ذلك لم يتورع عن تغيير النصوص وادخال بعض التعديلات التى كان يراها كفيلة بجعل التشريعات اليهودية تتفق مع مثيلاتها عند الاغريق والرومان (٨٩) .

وإذا كان فيلون يمثل فكرة محاولة التقرب إلى المجتمع الاغريقى مع المحافظة على مقومات المجتمع اليهودى ، إلا أن طائفة أخرى من اليهود ذهبت فى اصطناع الحضارة الاغريقية إلى الحد الذى أصبحوا معه لا يحفلون بدينهم ونضرب لذلك مثلا على ذلك أسرة الاثنارخيس اليهودى اسكندر الذى شغل وظيفة مدير الضرائب الجمركية وتربع على عرش المال فى الاسكندرية وقد نال هو وابناؤه حقوق المواطنة السكندرية وذلك بعد أن تخلوا عن دينهم دون شك . ولم يتورع ابنه تيبريوس عن أن يعمل فى خدمة روما ويكون سيفاً مصلتاً على بنى جلدته فهو لم يتردد فى اطلاق

جيوش الامبراطورية على يهود الاسكندرية عام ٦٦ م عندما كان حاكماً رومانياً عاماً على مصر ، ولا يتحرج من أن يكون على رأس اركان حرب تيتوس عندما ضرب حول أورشليم الذى انتهى بسقوطها وتدمير هيكلها . ولكن اليهود الصابئين لم يمثلوا الاالقلة القليلةمن يهودالاسكندرية .

ثم يجب أن نذكر انه كان هناك عدد كبير من اليهود من الطبقات الدنيا غالباً ، والتي تمسكت بحرفية الشريعة . وقد تعمد فيلون عدم الاشارة اليها لأنه كان يهتم فى المقام الأول ، اظهارالطبقة الارستقراطيةمن يهود المدينة بمظهر ينم عن رغبتها فى التفاهم مع الاغريق ومع السلطات الرومانية سواء بسواء .. ولم يشأ ، كما أسلفنا ، ان يلقى تبعة أحداث الفتنة على اغريق الاسكندرية جميعاً بل اراد أن يحملها لطائفة غير مسئولة من الدهماء اندفعت إلى ايقاع الاذى باليهود ووصم كلا من ايسيدوروس ولامبون وكلاهما شغل منصب الجمنازيارخوس بالغوغائية والقدرة على اثارة الشغب . ومهما قيل عن منصب الجنمنازيارخوس فى العصر الرومانى وانه لم يعد المنصب الأول فى الاسكندرية التى كان بها معهد ان على الأقل (٩٠) ، الا أن ذلك لا ينفى ان الطبقة الاغريقية المثقفة تحركت جنباً إلى جنب مع بقية اغريق المدينة ضد اليهود والا لما جاء فى احدى البرديات وان كانت تنتمى إلى مجموعة اعمال شهداء الاسكندرية Acta Alexanrdrinorum ، ان ايسيدوروس يتحدى الامبراطور كلوديوس عندما اثاره بقوله «أصحيح ياايسيدوروس انك ابن راقصة ، بان رد عليه بأنه ليس عبداً وليس ابن راقصة وانما هو «مدير معهد التربية (جمنازيادخوس) بمدينة الاسكندرية المشهورة » وان الامبراطور ابن غير شرعى لسالومى (الراقصة) اليهودية (٩١) وهدف فيلون هو انه لا يزال يأمل فى إمكان التغلب على النتائج التى قد تترتب على احداث عام ٣٨ م . بأن يبعد الطائفة الممتازة من اغريق الاسكندرية عن مسئولية تلك الأحداث ولا نشك فى أن فيلون كان يخفى حقده على الامبراطور جايوس الذى فتن بتأليه نفسه فتسبب ، لو بطريق غير مباشر ، فى تفجير الموقف بين اليهود والاغريق فى الاسكندرية وعرض كل المحاولات التى بذلها يهود المدينة للتقرب إلى مجتمعها الاغريقى .

هذا هو الانطباع الذى نخرج به من دراستنا الفتنة عام ٣٨ م . ولكن علينا أن نتلمس الأسباب الحقيقية التى أدت إلى الصدام بين مجتمع اليهود ومجتمع الاغريق فى المدينة .

تردد عند كثير من المؤرخين ان الرومان تعمدوا ايقاع الفرقة بين المجتمعين ليسهل لحكومة مصر الرومانية التحكم فى الاسكندرية على أساس ان الامبراطور أغسطس فى الوقت الذى رفض فيه السماح للاسكندريين بتشكيل مجلس الشورى Boule سمح لليهود بتشكيل مجلس شيوخ واعتبر هؤلاء المؤرخون ان الامبراطور قد تسبب فى ايقاع الفتنة بين الطائفتين ولكننا نستطيع أن نلمس جوانب أخرى لسياسة أغسطس نحو الاسكندريين تتلخص فيما يلى :

(أولا) أقر الامبراطور كافة الامتيازات التى كانت للمواطنين من قبل .

(ثانياً) اعترف بمكانة الاسكندرية الممتازة وذلك جرياً على السياسة الرومانية التقليدية التى تجعل للمدن الاغريقية فى الشرق وضعاً خاصاً يميزها عن سائر المدن الأخرى .

وقد تمثل هذا الاتجاه بوضوح فى اعفائه هيئة مواطنى المدينة من ضريبة الرأس .

وهذا الاعفاء امتياز هام لأنه يرفع من مكانة المواطنين السكندريين من الناحيتين القانونية والسياسية ويقترب بهم من طبقة الرومان .

(ثالثاً) سمح لاغريق الاسكندرية بأن يكون لهم مجلس شيوخ Gerou(sia) ولكنه لم يكن مجلساً تشريعياً بالمعنى المفهوم بل كان مجلساً ذا طابع اجتماعى يرتبط بالجمنازيوم ويقوم بدور الوسيط بين الادارة الرومانية وهيئة مواطنى المدينة .

(ربعاً) جرمهم من مجلس البولى االذى لم يكن قائماً عند فتحه لمصر و كان احد بطالمة الأواخر قد أقدم على الغائه . وقد قال ديو كلسيوس ان الامبراطور أمر الاسكندريين بمزاولة حياتهم دون أن يكونوا اعضاء فى مجلس (٩٢) .

أما بالنسبة لليهود فقد جرت سياسة أغسطس قبلهم على النحو التالى :

(أولا) أقر الامتيازات التى اكتسبتها جالية اليهود فى الاسكندرية منذ عصر البطالمة .

(ثانياً) أقر حق اليهود فى تطبيق قوانيهم داخل جالياتهم .

(ثالثاً) سمح لهم بتشكيل مجلس شيوخ Gerousia

(رابعاً) اخضع يهود الاسكندرية ويهود مصر جميعاً لضريبة الرأس يؤدونها كاملة غير منقوصة وبذلك أدخلهم فى عداد المصريين(Aigyptioi من الناحية القانونية .

وهذا يعنى ان الامبراطور وهو يرتب الأوضاع القانونية فى مصر اعترف بالأوضاع التى كانت قائمة فى أواخر عصر البطالمة فاعترف للطائفتين بالحقوق المكتسبة فى ذلك فى العصر ثم اتخذ من الاجراءات ما يتمشى مع النتيجة المنطقية به لوضع كل منهما وما يكفل دعم السيادة الرومانية . فاعترف بالوضع الممتاز لمواطنى الاسكندرية الاغريق فاعفاهم من ضريبة الرأس ، ولكن بسبب ما اتصفوا به من الميل إلى الشغب ابى عليهم الحق فى تشكيل مجلس الشورى ولكنه ترك لهم الحق فى أن يكون لهم مجلس شيوخ وان كان مجلس مجرد آمن السلطات التشريعية . وفى الوقت نفسه اعترف بجالية اليهود وسمح لهم بتشكيل مجلس شيوخ ليباشر تنظيم شئونهم وأحوالهم الشخصية ولما كان اليهود لا يتمتعون بحقوق المواطنة فقد فرض عليهم ضريبة الرأس .

وقد مر بنا ان اليهود ايقنوا بأفول نجم البطالمة انحازوا بكل ثقلهم للرومان وبالغت الرواية اليهودية فى اظهار عطف يوليوس قيصر واغسطس على اليهود الا أنها صمتت صمتاً عجيباً ازاء فرض ضريبة الرأس عليهم حتى انه ليبدو ان المصادر الأدبية كانت تتعمد اخفاء هذه الحقيقة . غير أن اليهود لجأوا إلى تخصيص كتاب من تلك الكتب المعروفة باسم كتب الابوكريفا للجملة على أغسطس ، وهو السفر الثالث من كتاب المكابيين وكانت كتب الابوكريفا تقرأ سراً فى بيعهم وتهدف إلى رفع معنوياتهم وقد سبق أن اشرنا إلى هذا الكتاب اثناء حديثنا عن اليهود فى العصر البطلمى وقد سجل اليهود سخطهم على أغسطس لفرض ضريبة الرأس عليهم غير أنهم نسبوها إلى الملك بطلميوس الرابع وهاجموا أغسطس الذى لا يجرأون على على التصريح باسمه ، فى شخص هذا الملك . وكانوا يجدون متنفساً لغيظهم عند قراءة هذا الكتاب فى بيعهم . وهكذا بينما كان اليهود يلعنون الرومان وامبراطورهم فى السر كانوا يسبحون بحمدهم فى العلن . وقد أسلفنا ان اليهود وكانوا لا يكترثون بشعور جيرانهم بقدر ما يحرصون على ارضاء السلطة الحاكمة (٩٣) .

ولذلك فان اليهود ، رغبة منهم فى أن يظفروا بالاعفاء من ضريبة الرأس وضعوا نصب أعينهم الحصول على مواطنة الاسكندرية . وإذا كان فى العصر البطلمى لم يثيروا مسألة أحقيتهم لها اكتفاء بالامتيازات التى تتيحها لهم جالياتهم ، الا أنهم فى العصر الرومانى اجهدوا أنفسهم فى اثبات انهم كانوا مواطنين فى الاسكندرية منذ أول انشائها . والواقع ان مواطنة الاسكندرية أصبحت مطلباً عزيزاً فهى إلى جانب اعفاء صاحبها من ضريبة الرأس كانت خطوة لابد منها للحصول على مواطنة روما .

وقد سبق لنا أن فندنا مزاعم يوسف ، المؤرخ اليهودى ، بأن اليهود كانوا مواطنين للاسكندرية منذ أيام الاسكندر ، وان البطالمة الأوائل قد اكدوا حقهم فى الحصول عليها .

وإذا كان يوسف قد ذكر أن الامبراطور كلوديوس فى خطاب أرسله إلى حاكم مصر بخصوص يهود الأسكندرية وصف اليهود بأنهم اسكندريونAlexandreis(٩٤) فانه يحاول بذلك اثبات انهم مواطنين . ولكن لما كانت كلمة الاسكندرية تطلق فى القرن الأول الميلادى على المقيمين فى الإسكندرية سواء اكانوا مواطنين أم غير مواطنين ، فان المواطنين قد حرصوا على أن يقرنوا باسمائهم دائماً اسم القبيلة التى كانوا ينتمون اليها واسم الحى الذى كانوا مسجلين فيه . بينما اعتاد غير المواطنين المقيمون فى المدينة اضافة عبارة hoi ex Alexandreias أو hoi Apo إلى اسمائهم وكانوا فى نظر القانون الرومانى مجرد رعايا أجانب (Peregrini dediticii) (٩٥) ونسب يوسف إلى الامبراطور قوله ان يهود الإسكندرية حصلوا من البطالمة على نفس حقوق المواطنة (ises politeias) مثل الاسكندريين . ولكن كلمة Potioia تعنى أيضاً عضوية الجالية Politeuma (٩٦) .

ويؤكد هذه الحقيقة احدى البرديات التى سجلت التماساً تقدم به يهودى فى عام ٥/٤ ق . م . ذكر انه ابن مواطن اسكندرى Alexandreos وانه حصل على قدر من الثقافة الاغريقية وانه أيضاً مواطن اسكندرى ، ولكنه أو كاتب الالتماس أجرى قلمه على هذه الكلمة واثبت فوقها عبارة « يهودى من الاسكندرية » . (Ioudaion ton Alexanere (ias ويبدو أن ذلك كان منطقياً لأن صاحب الالتماس قد كرر استخدام كلمة ضريبة الرأس Iaographia ثلاث مرات على الأقل فى ستة أسطر وذكر انه بلغ سن الحادية والستين فانه يفهم من ذلك انه يطلب الاعفاء من دفع ضريبة الرأس لبلوغه سن الاعفاء .

وواضح ان هناك فارقاً كبيراً بين عبارة مواطن اسكندرى وبين عبارة يهودى من الاسكندرية وانه بالرغم من أن صاحب الالتماس قد تلقى تربية أغريقية الا أن ذلك لم يعفه من دفع ضريبة الرأس.

وفى فتنة عام ٣٨ م لم يتردد فلاكوس فى تحديد الوضع القانونى ليهود الاسكندرية بأنهم أجانب وغرباء (٩٧) . وإذا كان فيلون قد ذكر ان فلاكوس بقضائه على « جاليتينا Politeia » قد زادهم رهقاً . فان كلمة Politeia لا تعنى مواطنة الاسكندرية فحسب وانما تعنى أيضاً كما أسلفنا عضوية الجالية Politeuma وبالمعنى الأخير استعملها فيلون (٩٨) فهو بذلك مثل يوسف يختار عن عمد الكلمة التى تعنى المواطنة وعضوية الجالية .

وهكذا يتبين لنا من المصادر السابقة على فتنة عام ٣٨ م . ان اليهود كانوا يلحون فى اثبات حقهم فى الحصول على مواطنة الاسكندرية ولم يكن الاسكندريون ، وهم شديدو الغيرة على مواطنة المدينة ، أن يتركوا اليهود يزيفون الحقائق أمام الاباطرة لذلك فاننا نجد أنفسنا أمام برديتين ، وهما البردية المعروفة باسم بردية مجلس الشورى (٩٩) .

والأخرى بردية من أوكسيريتحوس (البهنسا)(١٠٠) . ونرجح ان تاريخ البرديتين يعود إلى أواخر عصر الامبراطور أغسطس (١٠١) . وانى اميل إلى استبعاد بردية مجلس الشورى من مجموعة اعمال شهداء الاسكندرية لتكتسب الصفة التاريخية السليمة . ومن الأفضل كذلك عدم اعتبار بردية أوكسيرينخوس هى الأخرى واحدة من أعمال شهداء الاسكندرية (١٠٢) وتتحدث كل من البرديتين عن لقاء تم مع الامبراطور أغسطس ثابت من البردية الثانية انه تم فى روما ولعل اللقاء الذى سجلته البردية اولى تم هولأ الآخر فى روما .

فى البردية الأولى يناشد المتحدث باسم مواطنى الاسكندرية الامبراطور أن يسمح لهم بتشكيل مجلس الشورى ولاغراء الامبراطور بالموافقة قال المتحدث أن هذا المجلس يستطيع أن يضمن « عدم انخفاض الدخل بمنع الذين يتعين ادراجهم فى سجل الخاضعين لضريبة الرأس من ادراج أسمائهم فى القائمة الرسمية بجانب الشبان epheboi ويستطيع أن يحول دون قوم يفتقرون إلى التربية والتعلم ان يلوثوا جالية المواطنين الاسكندريين » والواضح ان المقصود بهذه الاشارة هم اليهود الذين إذا نجحوا فى ادراج اسمائهم فى سجل

الشبان ، باعتبار ان هذه هى خطوة أساسية للحصول على مواطنة الاسكندرية فانهم من ناحية أخرى يستطيعون الالتحاق بالجومنازيوم . ومن هنا كان التسلل إلى منظمات الاسكندرية طريقاً سهلا للتحلل من دفع ضريبة الرأس أو جانب منها على الأقل .

أما بردية أوكسيرنيخوس فانها تتضمن التماساً من اغريق الاسكندرية بأن «يمنحهم الامبراطور ما منحه لغيرهم» أى ان يمنح الامبراطور لاغريق الاسكندرية مجلساً كالمجلس الذى سمح به لليهود .

ولما كان تاريخ البرديتين كما قدمنا ، سابقاً على أحداث عام ٣٨ م ، فان ذلك يكشف عن موقف مواطنى الاسكندرية من محاولات اليهود الحصول على مواطنة مدينتهم وأوضح المواطنون السكندريون للامبراطور فى بردية مجلس الشورى أن اليهود لا يستطيعون الحصول على مواطنة المدينة لأنهم يدفعون ضريبة الرأس ولأنهم يفتقرون إلى الثقافة الاغريقية وليس فى هذا القول تعريض باليهود والا لاعتبرنا ما أقدم عليه لامبراطور نفسه من اخضاع يهود الاسكندرية — ومصر لضريبة الرأس مثل المصريين سواء بسواء تعريضاً صريحاً بهم . وكأنهم ازادوا فى البردية الثانية أن يطلبوا إلى الامبراطور أن يكون لهم مجلس مثل مجلس اليهود وهم المتميزون عليهم اعفائهم من ضريبة الرأس .

وفى ضوء ما سبق نستطيع ان نتصور الموقف قبل عام ٣٨ م . على النحو التالى :

لم يغفر الاسكندريون لليهود خيانتهم للبطالمة ومساعدتهم للرومان على دخول مدينتهم التى اضحت بين يوم وليلة مجرد مدينة ترزح تحت الاحتلال الرومانى ، وكانوا يرون اليهود لا يدخرون وسعاً فى اظهار الولاء لاوكتافيانوس دون أن تقيم وزناً لمشاعرهم ومع تقدم الزمن بالحكم الرومانى زاد حقد الاسكندريين على اليهود ازاء الامتيازات التى ظفروا بها من

الامبراطور وحقد اليهود على الاسكندريين تمتعهم بحقوق المواطنة . وحقدوا على الامبراطور الذى حدد وضعهم القانونى كمصريين تفرض ضريبة الرأس عليهم واعربوا عن هذا الحقد فى السفر الثالث من كتاب المكابيين وما احسب الا أن فيلون نفسه كان يعرب عن حقده على الامبراطور جايوس وعلى حاكم مصر الرومانى فى رسائله التى كتبها عن أحداث عام ٣٨ وأسباب الحقد كامنة فى حقوق المواطنة السكندرية التى يطالب بها اليهود ويرفض الاغريق التسليم لهم بها تؤيدهم السلطة الرومانية الحاكمة .

بعد أحداث عام ٣٨ لم يخلد اليهود إلى السكينة . وما لبثوا أن شرعوا أسلحتهم فى وجه الاغريق (١٠٣) . ونعرف انهم فى عام ٣٨ لم يكونوا مسلحين أو هكذا قال لنا فيلون واستقدموا يهوداً من داخلية مصر ومن سوريا وأصدر الامبراطور كلاوديوس أوامره إلى حاكم مصر يقمع الفتنة بكل حزم (١٠٥) . ومما يدل على عنف الصدام بين اليهود والاغريق ان الامبراطور عبر عنها بكلمة حرب (Polemos) (١٠٦) . وتدل مهاجمة اليهود لاغريق الاسكندرية على هذا النحو ان اليهود لم ينتظروا النتائج التى تسفر عنها مقابلة وفدهم لجايوس قبل أن يلقى مصرعه فى منتصف فبراير عام ٤١ م .

وما أن هدأت الأحوال حتى بادر كل من الاغريق واليهود إلى ارسال وفد عنهم إلى روما وكان الهدف الظاهر للبعثين تهنئة الامبراطور بتوليه عرش الامبراطورية . ومحاولة التخلص من تبعة مسئولية الحوادث التى جرت مؤخراً فى الاسكندرية .

وأهم ما يتصل بتلك الأحداث الرسالة (١٠٧) التى بعث بها الامبراطور كلوديوس إلى مدينة الاسكندرية نستطيع أن نتلمس فيها نفس الأسباب التى فجرت ازمة عام ٣٨ م . وأقصد بها مطالبة اليهود بحقوق المواطنة السكندرية وتلخص رد الامبراطور ، بعد أن ناشد الاسكندريين أن يبدوا روح التسامح لليهود الذين يعيشون فى الاسكندرية منذ زمن طويل ،

يمارسوا عاداتهم التى كان يمارسونها أيام أغسطس ، فى انه يأمر اليهود وصراحة بالا يضيعوا جهدهم فى السعى وراء (حقوق) لم يحصلوا عليها من قبل ، والا يرسلوا بعد اليوم سفارتين كأنهم يعيشون فى مدينتين والا يقحموا أنفسهم فى مباريات الجمنازيوم أو منظمات الشباب (ephebeia) بل ان ينتفعوا بما فى حوزتهم ويتمتعوا فى مدينة ليست مدينتهم بوفرة من الخيرات الجمة .

ونص الرسالة فى غير حاجة إلى تعليق ذلك ان الامبراطور رفض بكل صراحة اجابة اليهود إلى طلبهم ان تكون لهم حقوق المواطنة فى الاسكندرية وفى هذا يلتقى مع فلاكوس الذى وصف اليهود بانهم أجانب وغرباء .

وأما إلى اشارته إلى ارسال اليهود لسفارتين فاما أن يكون المقصود بهما سفارة تمثل اليهود المتزمتين وسفارة تمثل اليهود المتحررين واما أن تكون احدى السفارتين كانت تلك التى جاءت إلى روما للمثول فى حضرة جايوس والسفارة الأخرى تمثل اليهود الذى اشعلوا فتنة عام ٤١ م واثاروا سخط الحاكم الرومانى (١٠٨) .

وبالنسبة للاغريق فان الامبراطور أكد حقوق المواطنة السكندرية لكل من كان له حق الانضمام إلى منظمات الشباب (ephebeia) . وأقر لمواطنى المدينة كافة الامتيازات المترتبة على تمتعهم بحقوق المواطنة والتى كان أغسطس نفسه قد أقرها . غير انه تخلص بلباقة من اجابة المواطنين إلى طلبهم الخاص باعادة انشاء مجلس الشورى وقال انه سيحيل الموضوع إلى الحاكم الرومانى فى الاسكندرية ليتولى دراسته ولتعين ان كان من مصلحة الحكم الرومانى أن يكون للمدينة مثل هذا المجلس (١٠٩) . وهذا يعنى ان كلوديوس كان يسير على نفس النهج الذى استنه أغسطس .

ولابد وأن يكون الاغريق قد طربوا لخطاب الامبراطور إذ نجدهم فى بردية من مجموعة بردى أعمال شهداء الاسكندرية يقولون الاسكندريين ان طباع اليهود ليست كطباع الاسكندريين وتتفق معيشتهم وحالة المصريين

ويقولون «أو ليسو الخاضعين لضريبة الرأس» (١٠١) ومعنى ذلك أن الاسكندريين لا يريدون بين صفوفهم قوماً غرباء عنهم .

وتجددت الاضطرابات في عصر الامبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) ذلك أنه حدثت في أورشليم في عام ٦٦ صدام بين الطبقات العليا لليهود التي تتفق مصالحها مع مصالح روما والطبقات الدنيا من يهود يهوذا وما لبث الأمر أن تطور إلى التمرد على روما نفسها وظهور الحركات الارهابية (١١١) وحشدت الامبراطورية قواتها في الشرق وسحبت من مصر بعض الفرق الرومانية . ومن ثم اشتعل الموقف في الاسكندرية بين اليهود والاغريق ولعل ذلك كان انعكاساً لما حدث في يهوذا ويفهم من يوسف ان اليهود كانوا هم البادئين بالعدوان بتجسسهم على اجتماع عقده اغريق الاسكندرية في ملعبها وحاول تيبريوس يوليوس اسكندر حاكم مصر اليهودي الصابيء أن يقنع اليهود بعدم تنفيذ تهديدهم بحرق الاغريق المجتمعين في الملعب . ولما لم يستجيبوا له سلط عليهم الجنود الرومان وأباح لهم نهب متاجرهم وقد أورد يوسف وصفاً مؤثراً لما حدث في الحي الرابع حيث سالت الدماء أنهاراً وقتل من اليهود خمسون ألفاً (١١٢) ويلاحظ ان الطبقات الدنيا من يهود الاسكندرية هي التي كانت وقوداً لهذه الثورة في حين ان الطبقات الممتازة منهم تجنبت هذا المصير باعلان ولائها للحكومة (١١٣) .

وإذا كانت فتنة اليهود قد أخمدت في الاسكندرية الا أن حصار القوات الرومانية بقيادة القائدين فسباسيانوس وابنه تيتوس لاورشليم كان مستمراً . ووصلت الانباء بانتحار الامبراطور نيرون في يونيو ٦٨ . وتبع ذلك صراع على عرش الامبراطورية وفاز به فسباسيانوس الذي ترك لابنه مهمة الاستيلاء على أورشليم وضم تيتوس إلى أركان حربه تبريوس يوليوس اسكندر . وفي أغسطس عام ٧٠ سقطت أورشليم ودمر هيكلها تماما . والأهم من ذلك فرض الامبراطور فسباسيانوس على يهود الامبراطورية جميعاً ان يؤدوا ضريبة خاصة للاله جوبيتر كابيتولينوس Juppiter Capitolinus في روما ، عرفت باسم ضريبة اليهود أو ضريبة الدينارين Denarii duo Judaeorum وخصصت لها خزانة في روما عرفت باسم Fiscus Judaicus أما في مصر فقد عرفت بعدة أسماء من بينها Loudaikon Telesma, Times denarion duo loudaion, didrachmon

وكانت هذه الضريبة أصلا هي ضريبة نصف الشاقل التي فرضتها التوراة على كل شاب من اليهود يبلغ من العمر عشرين عاماً إلى الهيكل ومن مصادرنا فى مصر نعرف انها فرضت على كل يهودي ذكراً وأنثى يزيد عمره على ثلاث سنوات وكان على كل رب أسرة يهودى أن يقوم بدفع الضريبة عن نفسه وآل بيته وعبيده . ويرجح ان سن الاعفاء من دفعها كان سن الثانية والستين ولذلك كان اليهود يخضعون للاحصاء مرتين فى حياتهم المرة الأولى فى طفولتهم للتأكد من بلوغهم سن الثالثة ليبدأوا عندها دفع الضريبة والمرة الثانية فى شيخوختهم للتأكد من أنهم قد بلغوا سن الاعفاء (١١٤) وهكذا اشعرت روما اليهود بذلتهم وحرمت أورشليم مكانتها الدينية السامية الأولى بين يهود الامبراطورية ، وان كان فسباسيان لم يمس حياتهم الدينية التى سارت سيرتها الأولى من حيث توفير الحرية لهم وهى تلك الحرية التى كانت جزءاً من السياسة التقليدية التى درجت عليها روما تجاه اليهود .

وانما المهم هو أن اليهود بعد فشل ثورتهم فى أورشليم دخلوا مرحلة جديدة فى صراعهم مع العالم الوثنى وهى مواجهة روما نفسها .

وقد حدث ان هرب إلى مصر عقب سقوط أورشليم طائفة ارهابية من غلاة اليهود الذين أطلق عليهم يوسف اسم Sikarioi جاءوا يحرضون يهودها على الثورة ضد روما واتخذوا شعاراً لهم « لا سيد الا الرب » وانقسم اليهود فى الاسكندرية إلى فريقين كان احدهما يرى الاسلامة ليهود الاسكندرية ويهود مصر الا فى ربط حياتهم بحياة اخوانهم فى أورشليم . ولعل هذا الفريق وجد فى قدوم طائفة الغلاة فرصته فى تحدى السلطة الرومانية . أما الفريق الآخر ، وهوالذى يتألف من الطبقات الممتازة يرى أنه يجب أن يكيفوا مصالحهم مع مصالح الإغريق فى المدينة وأن لاشأن لهم بما يجرى فى فلسطين . ولذلك تعقبت الغلاة وسلمتهم الى السلطات الحاكمة ليثبتوا ولاءهم على هذا النحو لتلك السلطات . وبأمر من الامبراطور أغلق هيكل ليونتوبوليس لمقاومة أى اتجاه ثورى ليهود مصر (١١٥) .

وعلى أى حال فان يهود الاسكندرية شعروا بأن الأمل فى امكان استمرار التعايش السلمى مع اغريقها يزداد ضعفاً ، وخاصة بعدما لقوه على ايدى

السلطات الرومانية فى عهد نيرون . ولذلك مالوا إلى العزلة والتقارب فيما بينهم وفضلوا الاقامة فى الحى الرابع ولكن دون أن يحولوه إلى جيتو .

وعادت الفتنة تطل برأسها من جديد . وعرف من احدى برديات أعمال شهداء الأسكندرية ان وفداً اسكندريا ووفداً يهودياً وصلا إلى روما ومثلا فى حضرة الامبراطور تراجان فى عام ١١٣ م . وتحدثنا البردية بأن الوفد الاغريقى كان يحمل معه تمثالا نصفياً للاله سيرابيس ، ولعل الوفد اليهودى كان يحمل التوراة موضوعة فى تابوت العهد جريا على عادتهم وحملت البردية على الامبراطورة افلوطينا على الامبراطور لتحيزها لليهود ويستوقف اهتمامنا قول هرما يسكوس الخطيب الاسكندرى للامبراطور ان ما يزعجنا هو امتلاء قاعتكم لمسك باليهود الملحدين .

وتروى البردية انه ما أن نطق هرمايسكوس بهذه الكلمات حتى تصبب تمثال سيرابيس عرقاً وعقدت الدهشة لسان الامبراطور وساد الهرج فى انحاء روما وتعالى صياح الرومان وفروا إلى أعالى التلال . وليس أبلغ من هذا دلالة على ما تتصف به هذه الوثائق من الدعاية الاغريقية التى تفقدها كثيراً من قيمتها التاريخية الا من حيث انها تصور مشاعر الاغريق وما تفيض به من السخط على الرومان واتهامهم بالتحيز لليهود . والمهم ان نلاحظ انه لابد وأن تكون قد وقعت اضطرابات فى المدينة وحاول الاغريق التنصل من تبعتها بكل وسيلة ممكنة .

وما لبث حقد اليهود على الرومان والاغريق فى أكثر من مكان أن تفجر عنيفاً مدمراً عندما شبت نار الثورة اليهودية أول الأمر فى برقة ثم امتدت إلى قبرص ، وامتدت أيضاً إلى مصر فى عام ١١٥ فى الوقت الذى كان فيه تراجان مشغولا بحملة فى الشرق (١١٦) .

واختار يهود برقة زعيما لهم فى شخص لوقا وخلعوا عليه لقب ملك . وتجمع الروايات على وحشية اليهود فى مهاجمتهم للاغريق فى كل من برقة ونقرأ ديو كاسيوس وصفاً مؤثراً للتمثيل البشع الذى أحدثه اليهود بضحاياهم من الاغريق والرومان ، فيروى انهم كانوا يلطخون انفسهم بدمائهم ويأكلون لحومهم ويقدر ديو كاسيوس عدد الاغريق الذين لقوا حتفهم

فى برقة بحوالى ٢٢٠,٠٠٠ فضلا عن قيام اليهود بتدمير المعابد الاغريقية وتخريب الطرق والمبانى العامة حتى تحولت برقة إلى صحراء يخيم عليها الخراب الشامل . وفى قبرص لقى ٢٤٠,٠٠٠ من الاغريق مصرعهم وخربت عاصمتها سلاميس وصدر قرار يحرم على اليهود أن تطأ أقدامهم أرضها (١١٧) .

أما بالنسبة لأحداث الثورة فى الاسكندرية . فهناك اشارات إلى حدوث صدام بين الاغريق واليهود فى اكتوبر ١١٥ م والى حدوث بعض الحرق العمد ومحاولة الاغريق الفاشلة التنصل من تبعة تلك الأحداث واعتبارهم مسئولين مع عبيدهم عن الأعمال العدوانية ضد اليهود حتى ان الحاكم الرومانى حذرهم من مغبة التمادى فى خرق القانون (١١٨) .

وقد اندلعت الثورة أيضاً فى ريف مصر حيث انقض اليهود على الاغريق ولجأ الكثيرون من هؤلاء إلى الاسكندرية ليحتموا فيها من هجمات اليهود . وفى الاسكندرية دارت معارك عنيفة مع الجالية اليهودية . وتتحدث مصادر التلمود عن تدمير بيعة اليهود الكبرى فى المدينة (١١٩) . ويحدثنا ابيان عن الدمار الذى لحق بمعبد نميسيس ربة الانتقام عند الأغريق (١٢٠) . ويرجح أن يكون تدمير معبد السيرابيوم قد حدث ابان تلك الفتنة (١٢١) .

وفى اثناء ذلك زحف ثوار برقة بزعامة ملكهم لوقا فى شتاء عام ١١٦م وعلى مصر بعد أن اكتسحوا فى طريقهم القوات الرومانية ولكنهم عجزوا عن دخول الاسكندرية فانتشروا فى داخلية البلاد تاركين جالية يهود الاسكندرية تلقى أشد الولايات على أيدى الاغريق (١٢٢) .

وقد بذلت الحكومة الرومانية كل ما فى استطاعتها لتوقف أعمال العنف التى ارتكبها اليهود فى ريف مصر . ولم يتم لتلك السلطات التحكم فى الموقف الا بعد وصول الفرق الرومان فى منف فى أوائل يوليو ١١٦ . واستمر العمل فى اخماد الثورة حتى عام ١١٧ (١٢٣) .

وفى الاسكندرية وبعد اخماد الثورة وقعت بعد الاحداث التى تحدثنا عنها بعض برديات أعمال شهداء الاسكندرية (١٢٤) كان أبرزها السخرية من ملك اليهود فى عرض هزلى جرى فى شوارع المدينة ، واهتمام الحاكم الرومانى عندما اعاد تخطيط المدينة بمواجهة مشكلة اسكان اليهود . ويرجح البعض ان يكون قد خصص لهم منطقة جديدة بجوار الاسكندرية فى حين يرى البعض ان الحاكم الرومانى وزعهم بين أحياء الاسكندرية حتى لا يفكروا فى مفاجئة الاغريق المدينة بهجوم جديد (١٢٥) . وسواء أكانت اقامة اليهود فى المدينة أو فى خارجها فانه ما كان ينبغى للاغريق أن يخشوا شيئاً . فقد تحطمت قوة اليهود وقلمت اظافرهم وفقدوا بيعهم وجردت جاليتهم من أهم امتيازاتها . ولا أدل على هوان اليهود وضعف شأنهم من أن القواعد المالية لمراقب الحسابات الحكومية (Gnomon idios logos) وهى مجموعة هامة من القوانين واللوائح المتعلقة بالوضع القانونى لمختلف عناصر السكان فى الاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى تجاهلت اليهود تجاهلا تماماً ولم تذكر أى شىء بشأنهم . كما لو كان لم يعد لهم وجود فى الاسكندرية (١٢٦) .

وعلى أى حال فان الامبراطور هادريان لم يتخلص من ثورات اليهود وفتنهم الا فى عام ١٣٢ عندما قامت فى يهوذا ثورة عاتية تزعمها مخلص آخر هو بسيمون بار (ابن) كوخفا امركوزيفا . وعهد الامبراطور إلى اخمادها وتم له ذلك فى عام ١٣٥ م بأن تشيد مستعمرة رومانية محل أورشليم تحمل اسم Colcnia Aelia Capitolina (١٢٧) .

ماذا كان السبب الحقيقى لتلك الثورة الجامحة التى قام بها اليهود فى عصر تراجان واجتاحت برقة وقبرص ومصر ؟ يجيب البعض على هذا التساؤل بأن اليهود كانت تتملكهم فكرة الخلاص ولم يتخلوا عن فكرة ظهور واحد منهم يحكم العالم أجمع . ومن المحتمل أن سيمون (شمعون) بن جيورا . أصغر زعماء ثورة ٦٦ — ٧٠ م ، كان يلبس ملابس الملوك وهو يستسلم للرومان . ولابد وأن لوقا ملك يهود برقة كان زعيما من هذا النوع فقد كان يعتبر نفسه منقذ بنى جلدته من حكم الرومان وكان يعمد إلى اثارة الحماس

فى الدينى نفوس اتباعه ولذلك كان تدمير المعابد جزءاً من حركته .
وقد اعمت فكرة الخلاص اليهود عن تقدير الموقف حق قدره وعن أنهم يحاربون قوى تفوقهم فى كل شىء فسيطر على عقولهم شىء واحد وهو أنهم جند الرب الذى سيقودهم إلى النصر ويعيدهم إلى هيكل أورشليم فاندفعوا مسلوبى الارادة إلى قبرص وإلى مصر يقتلون ويدمرون ويبطشون بالاغريق والرومان وأهل قبرص وأهل مصر لا يفرقون بين جنس وجنس ولعلهم بتدميرهم معابد الوثنيين كانوا ينتقمون لما لحق بهيكلهم من دمار على أيدى الرومان . ولذلك وصفهم الاغريق بالكفر والالحاد (١٢٨) .

ولعل اندفاع يهود الاسكندرية ومصر إلى تأييد ثورة لوقا والاسهام فى أعمال التخريب فى الاسكندرية وريف مصر قد قضى على كل فرص امكان استمرار التعايش مع الاغريق . وهكذا كان على اليهود الذين بقوا على قيد الحياة بعد تلك الأحداث الدامية ان يعيشوا فى جو مشبع بالكراهية والحقد والشغب . على انه لا يجوز الافتراض ان المجتمع اليهودى فى فى الاسكندرية قد تلاشى تماماً بعد عام ١١٧ ، وغاية ما فى الأمر انه كان بحاجة إلى فترة يسترد فيها أنفاسه ويستعيد بناء كيانه بعد أن رفضه المجتمع اليونانى والرومانى . وليس من المستغرب أن يكون المجتمع اليهودى الجديد طابع مخالف تماماً للطابع الذى الفناه فى العصرين البطلمى والرومانى . فأفراده يقبلون على استعمال اللغة العبرية . هل تيسر ذلك بنبذ اليهود للحضارة الهيلنستية وكفرهم بها بعدما لقوه على أيدى الاغريق والرومان ؟ أم هل تفسر هذه الظاهرة بأن اليهود ، وقد وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام القوة المسيحية الفتية النشطة أرادوا أن يعودوا إلى حياتهم التقليدية ، وأن يبعثوا مقوماتها حتى يصمدوا فى وجه المسيحية ذلك العدو الجديد الذى لم يعترف بهم وناصبهم العداء منذ أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية .

على كل حال لم نعد نسمع عن اليهود كعنصر يتسبب وجوده فى اثارة الفتن والقلاقل الا فى عام ٤٢٥ حين قام كيرلس أسقف الاسكندرية

على رأس جماعة من المسيحيين باحتلال جميع بيع اليهود وطردهم من الاسكندرية (١٢٩) .

وقد اعتاد المؤرخون استعمال كلمة العداء للسامية Antisemitsmus عند الحديث عن تلك الكراهية الدفينة التي كان شعوب العالم القديم يكنونها لليهود وخاصة في العصر الهيلينستي والعصر الروماني . وهي كلمة حديثة تستمد أصولها من مبادىء التفرقة العنصرية بين الأجناس في العصور الحديثة وقد اعتادت الشعوب الأوروبية ان تنظر إلى اليهود باعتبارهم من الجنس السامي الذي يختلف كل الاختلاف عن العناصر الآرية أو الهندو أوروبية التي أرست قواعد الحضارة والمدنية في العالم القديم وتوارثها اسلافهم الأوربيون ، ولذلك يعتبر اليهود عنصراً دخيلا على هذه الحضارة وليس لهم أن يجنوا ثمارها . ولم ينشأ هذا الشعور بالعداء نحو اليهود . عن خلاف في الدين أو العقيدة بقدر ما نشأ عن صفات معينة اتسموا بها ومن بينها صفات الجشع والحرص على المال والتعصب والشعوبية وعزوفهم عن الاندماج الكامل في المجتمعات التي يقيمون بين ظهرانيها ما جعلهم موضع شك واتهام بعدم الولاء نحو الوطن الذي يظلهم ويؤويهم لأن الولاء لجنسهم مقدم عندهم على كل شيء وهم بذلك قوم ذوو طبيعة انفصالية وقومية منعزلة عن القوميات الأخرى . هل كان كل ذلك السبب الشعور بالعداء لليهود — ولا أقول للسامية — في مصر في الفترات التي تحدثنا عنها ؟

الواضح ان المجتمع الاغريقي في الاسكندرية لمس في اليهود بعض الذي اشرنا اليه فقد خانوا الاغريق حينما تحولوا بولائهم للرومان . وقد كشفت برديات أعمال شهداء الاسكندرية ، مهما قيل عن اصالتها التاريخية ، عن مظاهر عداء هذا المجتمع لليهود حتى انها لتوصف بالأدب المناهض لليهودية ويستوقف النظر حرص البرديات على اتهام الأباطرة بممالئة اليهود وان كان بعض المؤرخين يرى أن الحركة المناهضة لليهود كانت في الواقع موجهة ضد روما وان الاغريق اتخذوا من اليهود ستاراً يخفون وراءه حقدهم الدفين للرومان . ثم ان هذه البرديات تصف اليهود بأنهم قوم ملحدون غلاظ

يفتقرون إلى التربية والتعليم يمارسون اقراض الأموال بالربا الفاحش ويجب اقصاؤهم عن مجتمع الاسكندرية الذى لم يرحب بمطالبتهم بأن يتساووا مع أفراده فى التمتع بحقوق المواطنة السكنية .

وهكذا نرى تشابهاً بين العوامل التى أدت إلى معاداة اليهود فى العصرين الهلنستى والرومانى وتلك التى أدت إلى مناصبتهم العداء فى العصور الحديثة . ولذلك لعلنا لا نسرف فى الرأى إذا اعتبرنا ان مسئولية النكبات التى حلت باليهود انما تقع عليهم بسبب سلوكهم وصفاتهم التى تأصلت فيهم ولازمتهم طول عصور التاريخ (١٣٠) .

الحواشى

(١) يطلق على اليهود الذين كانوا يقيمون خارج يهوذا فى العصر الهلينستى اسم يهود الشتات (diaspora) أنظر .

G. Ricciotti, The History of Israel, vol. II. Milwauke, 1955, p. 169.

وكان تشتتهم وانتشارهم على نطاق واسع فى الدول الهلينستية ظاهرة هامة تميزت بها حياتهم فى ذلك العصر .

(٢) G. Ricciotti, op. cit., p. 170.

(٣) Jos. C. Apion, II. 35.

(٤) CP Jud. II, p. 1 No. 1, p. 2 No. 2.

(٥) Jos. BJ. 11, 467 cf. Ps. Aristeas. 13.

(٦) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ج ١ ص ٨٥ ومايليها ، محمد عواد حسين ، «الحرب السورية السادسة » حوليات كلية الآداب – جامعة ابراهيم باشا الكبير . (عين شمس) المجلد الأول ١٩٥١ ص ٧١ – ص ١٢٥ .

(٧) P. Lond. 191 .

(٨) Jos. Ant. 12, 2.1 cf. CIJ. II p. 351.

(٩) CP Jud. I p. 4 No. 10.

(١٠) A. Fuks. "Dositheos Son of Drimyles" JJP. VII-VIII, 1957, p. 205 ff., P. Mich. Zen. 55. II, 23. 24.

(١١) A. Fuks, op. cit p. 303.

(١٢) CP Jud, 1, 127 C.

(١٣) لعل دوسيثيوس هذا كان هو دو سيثيوس الذى أنقذ بطلميوس الرابع من الموت المحقق قبل موقعه رفح عام ٢١٧ ق.م. على نحو ماروى مؤلف السفر الثالث من كتاب المكابيين. ولكن بعد أن نشرت البرديات التى ورد فيها أسم . وأنه عمل بالذات فى بلاط بطلميوس الرابع تأكد أنه شخصية تاريخية .

111 Macc. 1.3

مصطفى كمال عبد العليم ، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٥٨ .

(١٤) نفسه ص ٥٩ .

(١٥) عن نشاط اليهود فى خدمة الادارة المالية خارج الاسكندرية ، المرجع السابق ص ٦ ومايليها .

(١٦) المرجع السابق ص ٦٣ .

(١٧) Ps. Aristeas 310.

(١٨) Strabo ap. Jos. Ant. XIV, 117.

(١٩) مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ٨٠ .

(٢٠) Josephas (in L.C.L.) Vol. VII, p. 751 cf. Jos. Ant. XIV, 195, 199., CP Jud. I. P. 7.

(٢١) P.Ent. 23 — CP Jud. I, 128 (118 B.C.)

(٢٢) مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ٩٩ ومايليها .

(٢٣) ثابت من مصادر التلمود أنه كان ليهود الاسكندرية محكمة خاصة بهم وراجع أيضاً بخصوص محكمة اليهود فى العصر الرومانى CP. Jud. Ip. 32.

(٢٤) J. Juster. Les Juifs dans l'Empire Romaine, Paris, 1914, Vol. II, p. 111, No. 1.

(٢٥) سفر نحميا أصحاب ١٠ ، آيات ٣٣ — ٣٤ ، اصحاب ٣٠ آيات ١.١ — ١.٦ .

(٢٦) سفر الخروج أصحاح ٢٣ آية ١٩ .

(٢٧) J. Just er, I. op. cit. p. 378.

(٢٨) idem, p, 718.

(٢٩) الحاشية السابقة .

(٣٠) Jos. Ant. XIX, 281.

(٣١) Jos. C.Ap. ii, 34 f.

(٣٢) Jos. B.J. ii, 487 — 8.

(٣٣) Jos. CAP. iii, 35. Ant. XII. 8

(٣٤) راجع مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ٨٦ ومايليها .

(٣٥) u. Wilcken, Grundz. 63, W. Schubart, *Arch.* Pag V, p. III ff.

(٣٦) تؤكد بعض البرديات ما ذكره يوسف بأن بعض اليهود وصفوا بأنهم مقدونيون راجع BGU. 1132, 1151.

(٣٧) مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ٨٣ ومايليها .

(٣٨) نفسه ص ١١٣ ومايليها .

(٣٩) نفسه ص ٣٩ ومايليها .

(٤٠) نفسه ص ٤٦ ومايليها .

(٤١) Philo, In Flacc. 43.

(٤٢) Jos. B. J. 2. 385.

(٤٣) مصطفى كمال عبد العليم ، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٨٢ .

(٤٤) Jos. Ant. 12—2—1.

(٤٥) Jos. B. J. 2, 497.

(٤٦) Jos. B.J. 7. 369.

(٤٧) A.N. Modona, "La vie Publica e Privata degli Eberi in Egitto nell'eta ellenistica e romano" *Aegypus*, 1921, No 3—4 pp. 253 — 275.

(٤٨) Jos. Ant. XIV, 187 — 9.

يلاحظ أن المورخ اليهودى يوسف نسب القرار الذى أكد لليهود هذه الحقوق ليوليوس قيصر ، الذى لم يكن له الحق فى اتخاذ اجراء كهذا أثناء اقامته بالاسكندرية ، والصحيح أن القرار يجب أن ينسب إلى أغطسس راجع :

A. Segré „The status of the Jews in Pholemaic and Roman Egypt". *Jew. Soc. St.* 6 (1944) p. 388, No. 43.

(٤٩) Strabo ap. Jos. Art. XIV. 117.

(٥٠) Jos. Bel. Jud. VII VII 412.

فى رأى الأستاذ جيوجية أن هيئة زعماء الشعب التى أشار اليها ارستياس على عهد البطالمة تحت اسم Hegomenoi tou plethous كانت لاتزال قائمة فى أوائل العصر الرومانى جنباً إلى جنب مع الأثنار خيس الذى جردها من نفوذها بحيث حجب أسمها . ولكن تلك الهيئة استطاعت أن تستعيد نفوذها وأن تختار من بين أعضائها نفراً كانوا أعضاء فى مجلس الشيوخ الذى أذن الامبراطور أغسطس بتشكيله .

P. Jouguet, La Vie Municipale dans L'gypte Romaine Paris, 1914, pp. 38, 187.

(٥١) Jos. B.J. VII, 10. 1.

(٥١) Arranitakis, Quelques Inscriptions Grecques Inedits, *Bul. Inst. Eg.* 4eme Seris N 4, 1903. P. 42, S. De Ricci, "Balletin epigrapique de L'Egypte Romaine", *Arch. F. Pap.* II p. 430 N. 5.

(٥٢) RGU. 1151, IV — CP Jud. II. 143.

(٥٤) مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ٢٣٦ .

(٥٥) عن وصف البيعة راجع ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج٢ ص٢٦٦ . وقد أورد تشيريكوفر مراجع التلمود التى تحدثت عن بيعة الاسكندرية .

CP. Jud. I. P. 50 No. 9 cf. E. Beven, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, Lond 1914, P. 113 F.

(٥٦) Philo, De Sommis, 123.

مصطفى عبد العليم . المرجع السابق ص ٨٥ ، ٢٨٦ حاشية ١٢ .

(٥٧) المرجع السابق ص ٢٠٩ ، ص ٢٨٧ حاشية ٢٠ .

(٥٨) Jos. Ant. 20, 147.

(٥٩) بخصوص المناقشة حول صحة لقب مدير الضرائب الجمركية راجع :

OGIS. 570 N.3.

C P Jud. I.P. 49, N. 4, No 658.

F. Mary Smallwood, Philonis Alexandrini, Legatio ad Gaium, Leiden, 1961, p. 4 N. 4.

ومصطفى كمال عبد العليم المرجع السابق ص ٢٠٣ حاشية ٢٩ .

(٦٠) فى رأى البعض أنه من الخطأ اضافة اسم لوسيماخوس إلى اسم اسكندرية ، راجع

F. Mary Smallwood, op. cit. p. 4. N. 4.

(٦١) C P Jud, I, P. 49. N. 4.

(٦٢) عن اسكندرية ، حاشية ١٩ أعلاه .

E. G. Turner, "Tibenius Iulius Alexander" JRS, 44, 1954, pp. 57—67, p. 45.

(٦٣) أنظر الحاشية السابقة وعن ماركوس راجع .

CP. Jud. II. N. 419, 419 a — e,

وعن تيبريوس والمناصب التى شغلها بوصفه مواطنا وفارسا رومانيا :

CP Jud; II 418, a — f.

ومصطفى كمال عبد العليم — المرجع السابق ، ص ٢٠٣ ومايليها و ٢٠٧ ومايليها .

(٦٤) OGIS, 685, E.G. Turner, op. cit., p. 59.

ويتساءل الأستاذ تيرنر أن كان تيريوس يتقاضى من شقيقه الرسوم المستحقة أم أنه كان شريكاً له ؟

(٦٥) Philo, In Flacc; 56.

(٦٦) يوافق ناشرى البردى اليهودى على أن بردية BGU 1079. والتى نشراها تحت رقم ١٥٢ تشير بوضوح إلى وجود المرابين اليهود فى الاسكندرية وإلى أن الأغريق كانو يقترضون منهم .

أنظر مصطفى كمال عبد العليم المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٦٧) Philo; De. Sp. Leg. II; 75.

(٦٨) مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٦٩) المرجع نفسه ص ٢٠٩ .

(٧٠) Philo, Leg. 129.

(٧١) BGU. 1132 — CP Jud; II N. 142.

(٧٢) BGU; 1106 — CP Jud. II N. 146.

(٧٣) Philo, la Flacc; 55.

(٧٤) Idem, Leg; 132 cf. CP. Jud; II, PP. 1 FF; Notes.

(٧٥) عن فتنة عام ٣٨ م. راجع مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ١٤٧ — ص ١٥٧ وعبد اللطيف أحمد على ، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٨٥ ص ١٠١ .

(٧٦) Philo, Vita Mos. 2. 41/ .

(٧٧) Idem, In Flacc, 96.

(٧٨) الحاشية السابقة .

(٧٩) Philo, Legatio, 45.

(٨٠) J. Juster, Les Juifs dans l'Empire Romaine, Paris, 1914, II pp.361 No. 4, 467.

(٨١) Philo, De Vita Contemplativa

(٨٢) he hemetera dialetos, ap; H.Y. Youtie; Sambathis, *Harvard Th. Review* 37, 1944, P : 212.

(٨٣) C P. Jud. I, P : 75.

(٨٤) الحاشية السابقة .

(٨٥) E.G. Turner, op. cit. P. 55.

(٨٦) Philo, Vita Mos. 1. 21.

(٨٧) CP Jud. I, P. 77.

(٨٨) Philo, Vita Mos. 2. 44 cf E.R. Goodenough, An Introdction to Philo Judaicus ,New Haven, 1938. CP Jud. I P. 32.

(٨٩) E.R. Goodenough, The Jurisprudence of the Jewish Courts in Egypt, New Haven, 1929.

ومصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ٢٧ وما يليها ،

(٩٠) راجع المناقشة التي أدارها لنا شرأ البردى اليهودى

CP Jud II P. 69 FF.

(٩١) W. Chr. 14 = P. ActaIv Recension A, Coliii = CP Jud II 156 d

(٩٢) مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ١٤١ ومايليها ، ص ٢٣٠ ومايليها

(٩٣) Jos. Ant. XIX, 282.

(٩٤) R. Taubenschlag, The law of Graeco — Roman Egypt in the Light of the Papyri, 332 B.C. - 640 A.D. 2nd. ed. Warsawa 1955 P .584.

(٩٥) أنظر حاشية ٥٣

(٩٦) Philo, In Flacc. 41 x enous kai epeludas idem, 53.

(٩٧) idem, 53.

(٩٨) راجع ترجمة الوثيقة عند عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ٨٤ هامش

PSI, II 60

(٩٩) P. Oxy. 2435.

(١٠٠) مصطفى كمال عبد العليم« برديه أوكسير ينخوس رقم ٢٤٣٥ ولقاء بين الامبراطور أغسطس والاسكندريين وترحيب الاسكندرية بمقدم جرمانيكوس« حوليات الجمعية التاريخية المجلد ٢٠ ، ١٩٧٣ ص ٨ ومايليها .

(١٠١) المرجع السابق ص ٩ ومايليها .

(١٠٢) Jos. Art — XIX, 278.

(١٠٣) P. Lond. 1912, I. 96.

(١٠٤) Riciotti, History of Israel, Vol II, P : 379.

(١٠٥) P. Lond 1912, IV, 73 — 74.

(١٠٦) الحاشية السابقة – راجع ترجمة عبداللطيف أحمد على المرجع السابق ص١٠٧ ومايليها

(١٠٧) مصطفى كمال عبد العليم ، اليهود فى مصر ص ١٦٣ .

(١٠٨) للربط بين هذا الجزء من رسالة كلوديوس وبين بردية مجلس الشورى راجع مصطفى كمال عبد العليم « بردية أوكسيرينخوس رقم ٢٤٣٥ .... ص. ١١ .

(١٠٩) راجع عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ص ١٢٨ .

(١١٠) C.A.H. X, PP. 650, 662, 850 — 854.

(١١١) Jos. B J. ii, 489 ff.

(١١٢) CP Jud. I.P. 79. ff.

(١١٣) مصطفى عبد العليم ، اليهود فى مصر ص ١٧٠ ، ٢١٦ ومايليها .

(١١٤) نفسه ص ١٧١ ومايليها .

(١١٥) نفسه ص ١٧٧ .

(١١٦) Dio Cassiusi 68, 32. راجع مصطفى كمال عبد العليم . دراسات فى تاريخ ليبيا القديم بنغازى ١٩٦٦ ص ١٧١ – ٢٠١٧ .

(١١٧) مصفى كمال عبد العليم ، اليهود فى مصر ص ١٨٧ وحاشية ١١٧ .

(١١٨) توفر فوكس على دراسة أحداث الثورة اليهودية فى الاسكندرية ومصر .
A. Fuks "The Jewish Revolt in Egypt (A.D. 115 — 117) in the Light of the Papyri, Aegyptus 1953.
ثم عاد إلى دراستها مع تشيريكوفر فى مجموعة البردى اليهودى
راجع مصطفى كمال عبد العليم المرجع السابق ، ص ١٨٧ ومايليها وعبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ١٩٠ ومايليها .

(١١٩) A. Fuks op. Cit; P. 149 No. 2

(١٢٠) Appian Bel Civ. 2. 90.

(١٢١) CP Jud I, P. 88.

(١٢٢) A. Fuks op. cit. P. 138.

(١٢٣) عن تفاصيل الثورة فى داخل مصر راجع حاشية ٧٥ .

(١٢٤) Acta Pauli et Antonini, P. Acta ICX.

مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ص ١٩١ وما يليها .

(١٢٥) نفسه ص ١٩٤ .

(١٢٦) نفسه .

H.I. Bell, Juden und Griechen in Romisschen Alexandreia Leipzing 1927 p. 45 Dio Cassius Ilixix, 12-14.

(١٢٧) CP Jud I p. 90 ff.

(١٢٨) J. S. Milne, A History of Egypt under the Roman Rule, Lond. 1924 P. 89

(١٢٩) J.S. Milne A, History of Egypt under the Roman Rule Lond. 1924, p. 89.

(١٣٠) H.I Bell, The Acts of Alexandria, JJ P IV, 1950 P. 2 ff.

Jeursh Encyclopedia art. Antisemitismns, U. Wilken, Antrisemitismus pp. 78ff 825

تعريب مجتمع الاسكندرية

الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

كان العرب يفدون إلى مصر منذ أقدم العصور للتجارة وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى إن المؤرخ والجغرافى اليونانى سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥ بعد الميلاد قال عن مدينة قفط Koptos فى الصعيد انها مدينة نصف عربية. ووفد على مصر للتجارة —زمن الجاهلية— عدد من الشخصيات العربية التى اشتهرت فى الاسلام نذكر منهم عثمان ابن عفان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة .

وتذكر المصادر التاريخية ان عمرو بن العاص — بطل فتح مصر — زار الاسكندرية فى الجاهلية وأعجب بعظمة المدينة وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير . وتسترسل القصة التاريخية فتقول انه وافق دخول عمرو الاسكندرية عيداً عظيماً يجتمع فيه الملوك والعظماء ويترامون بكرة من الذهب يتلقونها بأكمامهم ، وكانوا يعتقدون أنه إذا استقرت الكرة فى كم أحد لم يمت حتى يملك مصر . وتذكر القصة أنه حين جلس عمرو فى ذلك المجلس رمى رجل منهم بالكرة فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فعجب القوم وقالوا ان الكرة لم تكذبهم الا هذه المرة وقالوا : «أترى هذا الاعرابى يملكنا هذا ما لا يكون أبداً» (١) .

وحين أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) كان العرب يدركون تماماً أهمية الاسكندرية

---

(١) أنظر (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٠ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٤ م) .

بالنسبة للفتح . فقد كانت الاسكندرية عاصمة القطر المصرى ومقر الحاكم البيزنطى ، وهى مدينة عظيمة تحميها الحصون المنيعة والغياض والبحيرات وترعة الاسكندرية ، فضلا عن موقعها على البحر الأبيض المتوسط الذى يسهل لها الاتصال بحراً بدولة الروم ، أو الدولة البيزنطية الحاكمة . وحين تحدد مصير مصر كلها ، وأهل مصر ، بمقتضى معاهدة بابليون الأولى سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) لم يكن مصير الاسكندرية قد تحدد بعد ، ولم تدخل الاسكندرية ضمن المعاهدة التى عقدت بين عمرو بن العاص قائد فتح مصر وبين المقوقس حاكم مصر والتى أجازها الخليفة عمر بن الخطاب والتى استنكرها هرقل امبراطور الروم . و ستجاب الروم لامبراطورهم واستعدوا استعداداً عظيما للمعركة الفاصلة بينهم وبين العرب فى الاسكندرية واستعد هرقل لمباشرة الحرب بنفسه ولكن وفاته فى فبراير ٦٤١ م (٢٠ هـ) حالت دون ذلك .

وتجمعت حاميات الروم فى الاسكندرية لمحاربة العرب ، وسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها وأخذ فى هدم المقاومات التى صادفها فى طريقه حتى وصل إلى الاسكندرية . وبرغم استبسال العرب وقوتهم المعنوية ، وروح التضحية والجهاد التى كانت تسيطر عليهم فى هذا الدور من تاريخهم الا أن فتح الاسكندرية كان من الصعوبة بمكان ، إذ كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى اليهم عن هذا الطريق . وعلى قدر استبسال العرب كانت مقاومة البيزنطيين عنيدة وأرسل الخليفة عمر ابن الخطاب يستفسر مستبطئاً الفتح .

وفى وسط هذه الحرب الضروس انبثق رأى من العاصمة البيزنطية ومن الاسكندرية يطالب بانهاء الحرب مع العرب حتى يتفرغ الروم لمشاكلهم الداخلية التى جدت عقب وفاة هرقل . فذهب المقوقس لمقابلة عمرو بن العاص – الذى كان فى بابليون آنذاك – يطلب عقد الصلح . واستجاب العرب وعقدت معاهدة ثانية فى بابليون سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) اصطلحنا على تسميتها معاهدة بابليون الثانية تمييزاً لها عن معاهدة بابليون الأولى ،

أو معاهدة الاسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها . ونصت هذه المعاهدة على عقد هدنة بين الروم والعرب مدتها أحد عشر شهراً تنتهي فى أول شهر بابه (يوافق هذا التاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م وأواخر سنة ٢١ هـ) يكف فى اثنائها الروم والعرب عن القتال ، كما يتم خلالها جلاء حامية الروم عن الاسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط فى هذه المعاهدة الا يعود جيش رومى ثانية إلى الاسكندرية . كذلك كان من شروط هذه المعاهدة الا يستولى العرب على كنائس المسيحيين فى الاسكندرية وألا يتدخلوا فى أمورهم وان يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية وألا يتدخلوا فى أمورهم ولكى يضمن العرب تنفيذ شروط المعاهدة نصت على أن يحتفظ العرب بمائة وخمسين من الجند وخمسين من غير الجند رهائن .

وبعد سقوط الاسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجياً إلى سائر الأقاليم فى مصر وأصبح العرب يسيطرون على وادى النيل كله واتجهوا إلى تأمين حدود مصر الغربية والجنوبية .

لكن يبدو أن معاهدة الاسكندرية كانت حلا موقتاً لجأ اليه الروم ريثما تتم مشاكل العرش البيزنطى ، إذ نقض الروم معاهدة الاسكندرية وأرسل امبراطورهم قنسطانز الثانى — حفيد هرقل — أسطولا كبيراً إلى الاسكندرية هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاماً وذلك فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) . وتم استيلاء الجيش البيزنطى على الاسكندرية وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد الوجه البحرى . وتحرج مركز العرب فى مصر ، وكان واليها حينذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، من قبل الخليفة عثمان بن عفان . وقد بعث أهل مصر إلى عثمان يسألونه أن يرسل عمراً لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم . وجاء عمرو بن العاص ، وتم اجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى عمرو بن العاص فى هذه المرة

على الاسكندرية عنوة وقتل قائد جيش الروم . (١)

وقيل إن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية أول مرة ورأى بيوتها وبناءها ، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب عمر إلى عمرو : انى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط . أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر بعد فتح العرب لها إلى خوف الخليفة عمر بن الخطاب من ركوب البحر . ووقف الخليفة نفس هذا الموقف مع سعد بن أبى وقاص ، حين نزل فى العراق بمدائن كسرى فتحول سعد من المدائن إلى الكوفة (٢) .

والحق أن خوف الخليفة الثانى – عمر بن الخطاب – من البحر وارتياده أو الحرب فيه ، هذا الخوف الذى يظهر من خلال نصوص كثيرة ومواقف معينة ، لا يعنى أن الاسكندرية تستطيع أن تكون قاعدة مناسبة للعرب فى مصر كما كانت فى العصر البيزنطى . فقبل مجىء العرب إلى مصر كانت الاسكندرية بحكم موقعها هى والدولة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط ، تتصل بالدولة الحاكمة بحراً . وكانت الاسكندرية حين فتح العرب مصر مدينة بيزنطية ، أى رومية أو يونانية ، فكان معظم سكانها من الروم وكان يسيطر على مجتمعها العادات والتقاليد والثقافة اليونانية .

---

(١) أنظر (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٧٥ – ١٧٨ (طبعة تورى – نيوها فن ١٩٢٢) ، والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢١ (ليدن ١٨٦٦ م) ، اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ١٨٩ (ليدن ١٨٨٣ م) ، والكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ١١ (بيروت ١٩٠٨ م) . وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج. ٣ ص ٦٢ (ليدن ١٨٦٦–١٨٧٤) ، والمقريزى الخطط ج ١ ص ١٦٧ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ، وأبو المحاسن : ج ١ ص ٦٦ (طبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٢٩ م) .

(٢) أنظر (ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٩١ . (طبعة تورى) ، وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧ (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

وهذا يفسر لنا اعجاب العرب بمدينة الاسكندرية ثم رفضهم اتخاذها عاصمة لهم فى مصر . وسرعان ما اختط العرب الفسطاط التى تتوسط الوجهين البحرى والقبلى والتى يذكر المقريزى أن موضعها كان فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذى يقع فى شرق مصر والذى لم يكن فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع (١) . واختطت القبائل العربية الخطط فى الفسطاط فكانت كل خطة تسكنها قبيلة ، كذلك نزلت قبيلة همدان موضع الجيزة واختطوا فى الجيزة خططاً عرفت بهم مثل خطط الفسطاط (٢) .

ويذكر المؤرخون أن قوماً من العرب نزلوا فى الاسكندرية عقب الفتح على أن الاسكندرية لم يكن فيها خطط وانما كانت «أخائذ» ، أى من أخذ منزلا نزل فيه ، ويقال ان الزبير بن العوام اختط بالاسكندرية (٣) . أى أن العرب الذين استقروا فى مصر بعد الفتح العربى ومعظمهم من عرب الجنوب أو اليمنية كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الاسكندرية . وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب ، ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين الاسلامى أو اللغة العربية .

وكان العرب أقلية ضئيلة فى مصر فى ذلك العهد ويمكننا أن نقدر الجيش العربى الذى استقر فى مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفاً من الرجال . وحسب تقدير المؤرخ ابن عبد الحكم كان هناك أكثر من ستة مليون رجل

---

(١) المقريزى الخطط ج ١ ص ٨٢٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٢٨ — ١٢٩ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٦ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ص ٥٨ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٠ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٨ .

فى مصر ممن تجب عليهم الجزية ، (١) باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال كذلك نلاحظ أن الفسطاط كانت مدينة عربية اسلامية وسط المحيط المصرى القبطى ، أما الاسكندرية فكانت مأهولة بسكانها من الروم واليهود والأقباط ويقدر مونيه Munier عدد سكان الاسكندرية فى العهد البيزنطى بنحو ٣٠٠,٠٠٠ . (٢) أما ابن عبد الحكم فيعطينا احصاء لمن خرج من الاسكندرية من الروم وعدد من بقى من أهل الاسكندرية ممن تجب عليهم الجزية فقال : «وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن ، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفاً مع ماقدروا عليه من المال والمتاع والأهل وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج فأحصى يومئذ ست مائة الف سوى النساء والصبيان» (٣) .

والمعروف ان اتخاذ العرب للفسطاط عاصمة لهم بعد الفتح ، أثر — إلى حد ما — على مركز الاسكندرية العاصمة السابقة وخاصة بعد أن فتح العرب الاسكندرية وهدموا جزءاً من سورها وأجلوا قسما كبيراً من سكانها من الروم . ولكن الاسكندرية سرعان ما أخذت تسترد ما كان لها من ازدهار ونشاط ، وبدأت دور صناعة السفن تستعيد نشاطها وتساهم فى صناعة السفن منذ خلافة عثمان بن عفان وولاية عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، كذلك استأنفت مصانع النسج نشاطها كما عاد للاسكندرية نشاطها التجارى القديم بين الشرق والغرب .

أما ساويرس بن المقفع أسقف مدينة الاشمونين ومؤرخ كتاب سير الآباء البطاركة ، فانه يعنى بالتأريخ للاسكندرية عناية خاصة ، وليس هذا بمستغرب فالاسكندرية كانت مقراً لبطركية الأقباط الارثوذكس

---

(١) ابن الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٦٠ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) .

(٢) Munier (Henri) : L'Egypte Byzantine p. 84 (Précis de L'Histoire d'Egypte t. II (Le Caire 1932)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٧٤ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) .

ولذا نرى ساويرس يسميها فى معظم الأحيان المدينة العظمى، ويذكر ساويرس أن الاسكندرية كانت تعرف أيضاً باسم مدينة قيسرون ويقول أيضاً انها تسمى باللغة العبرانية مدينة آمون (١) .

والحق أنه كما كانت الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها ، فقد كانت الاسكندرية عاصمة مصر الثانية وميناءها الهام ومقر البطركية .

ويبدو أنه منذ الفتح العربى اهتم عمرو بن العاص بانشاء مسجد فيها كما انشأ مسجداً فى الفسطاط عاصمة البلاد ، إذ يشير ابن عبد الحكم إلى «مسجد عمرو بن العاص الكبير (٢)» كذلك يقول ابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ٨٧٠ — ٨٧١م) ان فى الاسكندرية مساجد خمسة مقدسة منها فى القيسارية التى تباع فيها الموازين ، ومسجد النجاة ، ومسجد عمرو بن العاص» (٣) .

وظلت مدينة الاسكندرية تحتفظ بمكانتها الخاصة التى كانت لها منذ عصر البطالمة فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى عصر الاخشيديين فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، إذ كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر حتى فى القضاء ، كما كانت تعتبر قسما مستقلا بجبايته . ويؤكد ساويرس بن المقفع فى مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر بأن الاسكندرية ظلت حتى القرن الرابع الهجرى تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر وبهذه المناسبة عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى ، يذكر ساويرس أن هذا الأمر كان بخلاف ما جرت العادة فانه لم يكن بين والى الاسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطابا بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان

---

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ١٠٥—١٠٦ (Patrologia Orientalis) الجزء الأول باريس ١٩٠٧ م .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٣٦ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦ .

واحد (١) . كذلك اهتم العرب بعد فتح مصر اهتماماً كبيراً بأمر حامية مصر وحظيت الاسكندرية باهتمام كبير . ونعلم أن حامية الاسكندرية أو رباطها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان كانت اثنى عشر ألفاً من الجند العرب ، ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى والى مصر حينذاك — عتبة بن أبى سفيان (٤٣ — ٤٤ ﻫ) — يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم . (٢) ونستطيع أن ندرك زيادة الجند العرب فى مصر وفى الاسكندرية بالذات إذا تذكرنا أن الجيش كله الذى قدم إلى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاماً كان يتراوح بين ١٢ ألفاً و ١٥ ألفاً من الجند .

وبالرغم من الطابع شبه المستقل الذى كانت تتمتع به الاسكندرية حتى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، وبالرغم من أن الاسكندرية كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر حتى فى القضاء ، لكن يبدو لنا من واقع دراستنا التاريخية أن تعريب مجتمع الاسكندرية سار فى نفس الخط الذى سار فيه تعريب مصر كلها . إذ أخذت مصر بعد الفتح العربى لها تفتح عينيها على العروبة والاسلام وأخذت تندمج فى مجموعة الشعوب العربية ، بل أن مصر أصبحت بعد ذلك قاعدة لانتشار الثقافة العربية الاسلامية فى شمال افريقية ومن بعدها فى الأندلس ، وكانت الاسكندرية هى الباب الرئيسى لعبور تلك الثقافة إلى غرب العالم الاسلامى ، أو لعبور ثقافة الاندلس وشمال افريقية إلى مصر وشرقى العالم الاسلامى .

والحق أنه بعد أن ساد العرب البلاد المختلفة حربياً وسياسياً لم يكن من المعقول أن يظل العرب فى واد وأهل البلاد المفتوحة فى واد آخر . ولم يكن من الطبيعى أن تظل لغة العرب وثقافتهم أجنبية غريبة على أهل البلاد المفتوحة ، وان تكون لغة أهل البلاد المفتوحة غريبة على العرب . وفى مصر

---

(١) ساويرس : سير الآباء البطاركة . المجلد الثانى ج . ١ ص ٥٩ (نشر الجمعية القبطية بالقاهرة) .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٦ .

ظهرت المشكلة واضحة حين أراد أميرها عبد العزيز بن مروان (٦٥ – ٦٨٤ – ٧٠٥ م) أن يعرف حقيقة العلاقات التى كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة وذلك على أثر كتاب البطرك إلى ملكى الحبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم الذى كان بينهما . (١) ويذكر ساويرس بن المقفع أن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان كان يلى كثيراً من أمور مصر فى ولاية أبيه وانه كان يصحب شماساً اسمه بنيامين ، كثيراً ما كان يطلعه على أسرار النصارى حتى انه ترجم له الأنجيل باللغة العربية وعدة كتب دينية أخرى وذلك ليعرف المسلمون إذا كان فى هذه الكتب ما يمس الدين الاسلامى بسوء (٢) .

ونحن نعتقد أن الترجمة من القبطية إلى العربية لم يكن هدفها فحسب معرفة ما يمس الدين الأسلامى بسوء على حسب رأى ساويرس ، وانما كانت تهدف إلى التعرف على ثقافة المصريين وحضارتهم وطرق تفكيرهم. وفعلا بدأت فى خلافة عبد الملك بن مروان – أخ أمين مصر – حركة «التنظيم والتعديل» على حد تعبير المؤرخين العرب. فعمد عبد الملك إلى صبغ الدولة بصبغة عربية ، وإلى الاعتماد على الموظفين من العرب أو الذين يتقنون العربية من أهل البلاد المفتوحة . وهكذا بدأ الخليفة عبد الملك تعريب لغة الادارة والحسابات كما أمر قبل ذلك فى سنة ٦٧ هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التى كان يتداولها الناس حتى ذلك الحين جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية . وكانت عملية التعريب عملية طويلة بدأها عبد الملك فى أخريات حياته منذ سنة ٨١ هـ وكان الحجاج بن يوسف الثقفى صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى العراق وما يتبعها شرقاً . أما فى مصر فقد بدأ عبد العزيز بن مروان حركة التعريب بترجمة الانجيل ، وبعض الكتب ، والمكاتبات بين البطرك وبين ملكى الحبشة

---

(١) ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ٢٤ – ٢٥ (Patrologia orientalis) الجزء الخامس – باريس ١٩١٠ م .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠ – ٥١ .

والنوبة . ويحتمل أن يكون التفكير فى جعل اللغة العربية لغة الدواوين فى مصر يرجع إلى ولاية عبد العزيز بن مروان ، لكن تعريب الدواوين فى مصر لم يبدأ الا بعد وفاة عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ابن مروان ، فبدأ فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ — ٧٠٦م) فى خلافة الوليد بن عبد الملك وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر . ومع أن تعريب الدواوين بدأ فى مصر فى سنة ٨٧هـ الا أن الوثائق البردية تدل على أن الحكومة ظلت مدة طويلة تستخدم العربية واليونانية ، على حين كانت السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيراً باللغة القبطية . ونجد وثائق ذات لغتين عربية ويونانية إلى القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى بل أنه وجد «ايصال» بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية .

وكان لتعريب الدواوين بعض الأثر فى تعريب مصر والاسكندرية ، إذ أصبح للدولة العربية إلى جانب السيادة السياسية والحربية ، السيادة اللغوية فانتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الادارة ولغة الثقافة والفكر ، ولغة التخاطب ، فضلا عن أنها لغة السياسة والدين .

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى إلى اختلاطهم بالأقباط اختلاطاً كبيراً ومن ثم إلى انتشار اللغة العربية فى مصر وإلى تعريب البلاد . فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى ، واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصرى ، فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يذهب للريف الا قليلا فلم تنتشر اللغة اليونانية الا فى بيئات خاصة وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم جزر يونانية فى وسط المحيط المصرى الواسع . وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون . ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر

كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه .
والحق أن العرب امتازوا على غيرهم ممن فتحوا مصر فى مختلف العصور بأنهم اندمجوا فى الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجاً قوياً . وكان لهذا الاختلاط أكبر الأثر فى تغلب الثقافة العربية الاسلامية فى وادى النيل وفى تعريب مصر والاسكندرية . وشجع الخلفاء بعد الفتح وفود القبائل إلى مصر فكان أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى فجر الاسلام يصحبون معهم جيوشاً عربية حتى نهاية العهد الأموى ، أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالخراسانيين والأتراك فى العصر العباسى . فكانت القبائل العربية تفد باستمرار إلى مصر اما مع الولاة ، أو يبعث بهم الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد . ولذا نرى أن عدد الجند فى مصر أيام معاوية بن أبى سفيان بلغ أربعين الفاً . وكانت الأغلبية فى مصر من عرب اليمنية أو عرب الجنوب ، وكانت قيس أو عرب الشمال عامة أقلية بمصر . وحين ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر فى سنة ٦٥هـ/٦٨٤م قال عبد العزيز : ياأمير المؤمنين : كيف المقام ببلدليس به أحد من بنى أبى .

وفى خلافة هشام بن عبد الله حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية فى مصر ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر وفد على الخليفة فى سنة ١٠٩ هـ /٧٢٧ م وسأله أن ينقل إلى مصر بيوتاً من قيس أو عرب الشمال وكانوا أقلية بها فأذن له الخليفة بذلك.وحين توفى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م كان ببلبيس ألف وخمسمائةأهل بيت من قيس (٢) .

ونلاحظ أن الخلافة فى عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ — ١٢٥ هـ تخلت عن السياسة التى اتبعتها منذ الفتح العربى وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة . وساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالمصريين وكان لهذا الاختلاط أثره

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٦ — ٧٧.

أيضاً في انتشار الاسلام بمصر نتيجة للزواج أوللموالاة بينهم وبين المصريين. أما المقصود باختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الولاء أو الموالاة فهو اختلاطهم عن طريق الجوار والمصاهرة والعتق .

وأخذت القبائل العربية تفد إلى مصر وتستقر فى القرى وتصاهر أهل البلاد . وزاد نشاط القبائل العربية فى كل أرجاء القطر المصرى . فمن منازعات قبلية بين القيسية واليمنية ، أى بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، ومن منازعات بين العرب والمصريين ، فضلا عن أن العرب كثيراً ماكانوا يشتركون فى المشاكل التى قامت حول الخلافة . كذلك لما أصبح للعرب فى مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها منذ أواخر العصر الأموى، وجب عليهم دفع الخراج ، وقامت ثوراتهم من أجل الخراج فى العصر العباسى ، وتعددت تلك الثورات . وكان آخر ثورات العرب بمصر من أجل الخراج تلك التى قامت فى سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م والتى اشترك فيها العرب مع الأقباط والتى انتهت بقدوم الخليفة العباسى المأمون إلى مصر لاخضاعها فى أوائل سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م بعد أن أقام بمصر نحو تسعة وأربعين يوماً (١) .

أما منطقة الاسكندرية فقد حفلت أيضاً بكثير من حركات القبائل العربية فى فجر الاسلام والعروبة فى مصر . فحين اضطربت أمور الخلافة العباسية أثناء النزاع بين الخليفة الأمين العباسى وأخيه المأمون ظهر أثر ذلك النزاع فى مصر وأدرك المعاصرون من المصريين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة . فيذكر ساويرس(٢) نقلا عن الوثائق والحوليات أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور فى بغداد وقام الخارجون بجباية الضرائب لأنفسهم . ومن بين هؤلاء الخارجين عبد العزيز الجروى

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٢ ؛ المقريزى : الخطط ج . ١ ص ٨١ ، أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٦ .

(٢) سير الآباء البطاركة ص ٤٢٨ .

الجزء العاشر — باريس ١٩١٥ م . (Patrologia orientalis)

الذى استولى على شرقى الدلتا من شطنوف إلى الفرما ، والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى من مصر إلى أسوان أما غربى الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأعمالها ومريوط والبحيرة جميعها فقد ملكها قبيلتا لخم وجذام وهما من العرب اليمنية أو عرب الجنوب .

كذلك نسمع عن ثورة بنى مدلج فى الاسكندرية ضد والى الخليفة العباسى المأمون سنة ١٩٨ هـ (١) . وبنومدلج هم بطن من كنانة من عرب الشمال .

وقد تم اندماج العرب بالمصريين منذ خلافة المعتصم بالله العباسى فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى . إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان ولياً للعهد تنطوى على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو الفرس ، فلما بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م أرسل إلى والى مصر كيدر نصر ابن عبد الله يأمره باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع اعطياتهم فتم ذلك (٢) .

ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين المصريين بدليل أن قرار المعتصم بصرف العرب عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل يذكر (١) .

ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، ففى معظم شواهد القبور التى كشفت فى مقابر أسوان والفسطاط نجد أن اسم المتوفى يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم البلد أو الوطن الذى ينتسب اليه المتوفى فيكتب مثلاً فلان المصرى أو الكوفى أو الاسوانى أو الأدفوى الخ .. (٣) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٣ .
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٣ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٦٤ .
(٣) أنظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٤ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

وهذا يدل على أنه فى القرن الثالث الهجرى أصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن أهل البلاد . ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يحسد عليه العرب من نسل الفاتحين والقبائل العربية الوافدة إلى مصر . فبعدما فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة العربية الاسلامية ، اضطروا إلى الانتشار فى الريف وسائر قرى ومدن مصر ، واختلطوا بالمصريين وتزوجوا من بناتهم ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها . وكان هذا الاختلاط مما قوى عروبة مصر فتعرب المصريون وتمصر العرب ، وأصبحت العربية لغة الادارة ولغة الثقافة والعلم والأدب والفن ، ولغة التخاطب والكلام . وفى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى نرى البطرك الملكانى فى مصر سعيد بن بطريق (توفى ٣٢٨ هـ/٩٤٠م) يكتب كتابه فى التاريخ باللغة العربية ويعنونه باسم «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» . كذلك نرى ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين — فى صعيد مصر — يؤرخ لبطاركة الكنيسة المصرية باللغة العربية فى أواخر القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى . وجمع ساويرس معظم معلوماته وأخباره التى أوردها فى كتابه «سير الآباء البطاركة» أو «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية» من الأديرة المختلفة ومما وجده فى أيدى النصارى ومما عرفه هو من اللغة من شاهدهم من الآباء البطاركة . ويتضح لنا مما كتبه ساويرس أن سير العربية كانت هى السائدة فى ديار مصر فى عصره ، وأن غالبية المصريين أصبحوا يجهلون اللغة القبطية التى كانت اللغة القومية للمصريين حين فتح العرب أرض مصر ، وكذلك اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالمة والتى كتب بها الانجيل الشهيد مارى مرقس الانجيلى الحوارى أول بطرك للاسكندرية . ويذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة فى ترجمة الوثائق القبطية واليونانية إلى العربية وأنه استعان ببعض المسيحيين ممن كان لهم دراية باللسان القبطى أو اليونانى .

ولا ريب فى أن تعريب مصر كلها شمالا وجنوباً خلال ثلاثة قرون ظاهرة تستحق امعان النظر ، ولا شك فى أنها ميزة للعرب على غيرهم

من الشعوب التى توالت على مصر والتى لم تستطع تغيير اللسان المصرى . وقد نقول إن الذين اعتنقوا الدين الاسلامى تعلموا اللغة العربية لغة القرآن ، وقد نذكر ان المصريين اضطروا إلى تعلم اللغة العربية لأنها أصبحت اللغة الرسمية للدواوين منذ سنة ٨٧ هـ / ٧٠٥ م ، وقد نقول ان اتصال العرب فى الفسطاط والجيزة والاسكندرية بالأهلين ، واتصال كبار الموظفين العرب وأعوانهم فى الريف بأهله كان له أثر فى التعريب . لكن أهم عوامل تعريب مصر والاسكندرية — فى رأينا — كان نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى إلى اختلاطهم بالمصريين اختلاطاً كبيراً ومن ثم إلى انتشار اللغة العربية فى مصر وإلى تعريب البلاد .

ولم يقف الأمر عند انتشار الدين الاسلامى والتعريب بل اننا نجد مصر فى زمن مبكر أى فى عصر الولاة — الذى يمتد من فتح العرب لمصر إلى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨م — تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ أواخر القرن الثانى الهجرى . وأنجبت مصر منذ أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى رجال أدب ودين ومؤرخين أنتجوا بالعربية كما لو كانوا أبناءها . وكان علماء مصر أساتذة لعلماء افريقية والأندلس بوجه خاص . وأصبحت مصر مركزاً علمياً هاماً منذ أواخر عصر الولاة وأقبل المصريون على دراسة علوم الفقه وعلوم اللغة بوجه خاص ، ومع أن جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط كان قلب هذه الحركة النابضة الا أن الاسكندرية شاركت أيضاً مشاركة واضحة فى العلوم الإسلامية وعلوم العربية . فكانت الاسكندرية منذ القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى مركزاً ثقافياً عربياً مشعاً ، وكانت ملتقى للفقهاء المالكية المصريين الذين نشروا مذهب مالك فى مصر . ويذكر المقريزى (١) ان أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ .

ابن يزيد بن يحيي مولى جمح وكان فقيهاً روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن ابن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر . ولم يكن مذهب أبي حنيفة رحمه الله يعرف بمصر» .

واشتهر من فقهاء المالكية فى الاسكندرية أيضاً ، طليب بن كامل اللخمى ، الذى كان من كبار أصحاب مالك ، عاش بالاسكندرية وروى عنه ابن القاسم وابن وهب ، وتفقه عنه ابن القاسم قبل رحلته إلى مالك ، ومات طليب فى حياة مالك بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ (١) . ومن فقهاء المالكية فى الاسكندرية سعيد بن عبد الله بن أسعد المعافري المصرى ، كان من كبار أصحاب مالك ، تفقه بابن وهب وابن القاسم وتوفى بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ (٢) .

كذلك عاشت أسرة المؤرخ المصرى أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم فى الاسكندرية قبل أن يستقر المقام بها فى مدينة الفسطاط عاصمة مصر . فقد سكن عبد الحكم الاسكندرية وفيها — فى سنة ١٥٤ هـ — ولد لعبد الحكم ابنه عبد الله والد ابن عبد الحكم المؤرخ وكان عبد الحكم — جد المؤرخ — معاصراً للامام مالك . وتفقه عبد الحكم على مذهب الامام مالك فى الاسكندرية وتوفى بالاسكندرية سنة ١٧١ هـ واشتهر بأنه «والد بنى عبد الحكم من فقهاء مصر» .

ولم يكن تفوق مجتمع الاسكندرية العلمى قاصراً على الفقه وعلوم العربية والاسلام ، وانما كانت الاسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز فى الشرق للثقافة اليونانية الرومانية . ولم يقض الفتح العربى على الحياة العلمية فى الاسكندرية ولا سيما فى العلوم العقلية . ويذكر ابن النديم (٣)

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٩٠ .
(٣) الفهرست : ص ٢٤٢ (طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م) .

ان خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم الكيمياء أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم المام بالعربية ، وطلب منهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية إلى العربية ، فكان هذا أول نقل إلى العربية فى الاسلام .

ونلاحظ هنا المام علماء الاسكندرية فى زمن مبكر من القرن الأول الهجرى بالعربية وقدرتهم على الترجمة من اليونانيةوالقبطيةإلى اللغة العربية .

وذكر ابن أبى أصيبعة أنه كان فى الاسكندرية زمن الفتح طبيب اسمه ابن أبجر وكان يدرس بها ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أميراً وبعد أن صار خليفة . كذلك أرسل الخليفة العباسى هرون الرشيد فى طلب بليطيان أحد علماء الاسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له (١) .

وذكر القفطى أن حنين بن اسحق ، طبيب بغداد الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، احتذى حذو الاسكندريين فى التأليف (٢) .

هذه هى دراسة موجزة تبين لنا كيف انتقل مجتمع الاسكندرية من مجتمع يونانى مصرى إلى مجتمع اسلامى عربى وكيف ازدهر هذا المجتمع العربى بعد الفتح العربى فى أقل من قرنين من الزمان .

وإذا كان تعريب مجتمع الاسكندريةقد سار فى نفس الطريق الذى سار فيه تعريب مصر فلا يفوتنا ان نذكر ان مصر العربيةالاسلامية أصبحت مركزاً للخلافة الفاطمية التى نافست خلافة العباسيين حوالى قرنين من الزمان ٣٦٢ — ٥٦٧ هـ / ٩٧٢ م ١١٧١م ثم أصبحت مصر مركزاً للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدى المغول فى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م

(١) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) القفطى : إخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٧١ — ١٧٢ .

وانتقالها إلى مصر فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ ه/ ١٢٦٢ م تلك الخلافة التى ظلت قائمة بها إلى الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ ه / ١٥١٧م. وحسبنا دليلا على علو مركز مصر العربية فى العالم الاسلامى العربى منذ العصور الوسطى ان نذكر قول ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى «ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم الاسلامى وينبوع العلم والصنائع»(١) .

(١) ابن خلدون : المقدمة (فصل فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم) ص ٤٨١ (القاهرة ١٢٤٨ هـ- ١٩٣٠م) .

الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري

في العصور الإسلامية الوسطى

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

تمهيد : ما بين الماضي والحاضر :

كان من الطبيعي أن يكون من بين موضوعات ندوة تاريخ المجتمع الاسكندري موضوع الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في عصوره الإسلامية الوسيطة . فالاسكندرية بموقعها الجغرافي على ساحل البحر المتوسط ، غير بعيد من مصب النيل في فرعه الغربي (فرع رشيد) أشبه بحلقة الوصل بين شمال الدلتا وبين صحراوات المغرب الشمالية وأقاليمه الساحلية العامرة حيث يمر بها الطريق التاريخي الممتد عبر شمال القارة الافريقية من برزخ السويس شرقاً حتى منخفض تازا (قرب فاس) في أقصى المغرب . وهي بفضل موقعها البحري توجه أنظارها نحو أوروبا شمالا وسواحل المتوسط الشرقية في بلاد الشام وسواحله الغربية في أسبانيا (أو بلاد الأندلس) — على عكس القاهرة التي توجه أنظارها نحو المشرق والبلاد العربية الاسلامية الآسيوية .

وإذا كان اتجاه الاسكندرية نحو أوروبا — بسبب كونها أهم موانى مصر — واضحاً منذ انتعاشها في العصر الحديث وحتى أيامنا هذه ، فإن وجهتها في العصور الاسلامية الوسيطة نحو السواحل العربية في الشام وفي المغرب والأندلس كانت أوثق بسبب كونها ثغراً أو جبهة قتال ساحلية يمكن أن يطرقها العدو البحري في أي وقت ، وخصوصاً في القرون الإسلامية الأولى حيث تراوحت العلاقات مع بيزنطة ما بين الحرب في أكثر الأحيان والسلم في أقل الأحيان . وعندما أخذت كفة العلاقات السلمية

ترجح على أيام الفاطميين أتت الحروب الصليبية لتثير الاضطراب فى شرق البحر المتوسط فى الوقت الذى أخذت فيه أوروبا تضغط على العرب وتخرجهم من مواقعهم فى البحر، مثلما حدث فى صقلية ، كما زادت فى اضطرام حرب الاسترداد أو «الركونكستا» فى الأندلس . وحتى أنه عندما توثقت العلاقات السلمية والمبادلات التجارية مع الجمهوريات الإيطالية والمدن الفرنسية وغيرها — بعد نهاية الحروب الصليبية — كانت الأعمال العدائية من جانب القوى البحرية القريبة من مصر تأتى لتنكأ الجروح الملتئمة وتثير روح العداء وعدم الثقة .

كل هذا جعل اتجاه الاسكندرية الطبيعى يتحدد بصفة خاصة مع السواحل العربية فى شرق المتوسط ومع السواحل المغربية والأندلسية فى غربه بصفة أخص . ولقد زاد فى توثيق صلة الاسكندرية بالمغرب والأندلس أن الطريق البرى عبر الأقاليم الساحلية فى المغرب أو عبر واحات الصحراء كان هو الطريق العادى والأكثر استعمالا ، سواء فى أيام الحرب والسلم أو فى أوقات الصحو واضطراب الجو — وهى العوامل التى كثيرا ما أثرت على الطريق البحرى .

وهكذا تظهر الإسكندرية عند الكتاب العرب وكأنها الخط الفاصل بين مصر وصحراوات المغرب الشمالية أو كأنها همزة الوصل بينهما ، فمنها كانت تقلع المراكب نحو الغرب لتواجه أهوال البحر ، كما كانت تخرج القوافل لتواجه معاناة بحار الرمال . أما الوصول إلى مرساها قرب المنار أو إلى مشارفها عبر القفار فكان يعنى العودة إلى بر الأمان . وهذا الأمر — فى حد ذاته — كان كافياً ، إلى جانب عوامل أخرى كتلك التى ذكرناها من اشتداد الحرب فى الأندلس أو اضطراب الأحوال فى المغرب أو ما يذكر من رخاء مصر ووجود تشابه بينها وبين الأندلس أو الأقاليم الخصبة فى المغرب ، فى أن يستقر كثير من المغاربة والأندلسيين فى الإسكندرية واتخاذها وطنا ثانيا .

ودون عناء البحث فى بطون كتب التاريخ تكفى الاشارة إلى أعلام مشايخ الاسكندرية من الأندلسيين مثل سيدى الطرطوشي وسيدى الشاطبي وسيدى جابر وسيدى المرسى أبى العباس أو سيدى القبارى المغربى الأصل لتأكيد العلاقة «الخاصة» بين الاسكندرية وبين المغرب والأندلس فى العصور الاسلامية الوسيطة ، وذلك ابتداء من القرن الخامس الهجرى /١١ م على وجه الخصوص .

وإلى جانب ذلك مازال فى الاسكندرية عدد من الشواهد التى تدل على الأثر المغربى والأندلسى فى مجتمع المدينة . من ذلك استخدام نون الجمع بالنسبة للمفرد المتكلم فى لهجة الاسكندرانيين مثل : «نأكل ونشرب ونلعب ونروح» بدلا من : «آكل وأشرب وألعب وأروح» ، فهذا أثر مغربى من غير شك . ولا أريد أن أدلل عليه بما وقع لى شخصياً عندما كنت أزور مدينة فاس فى رحلة علمية فى ربيع سنة ١٩٥١ م ، وسألت بعض عابرى السبيل من الفاسيين ، قائلا له : «أريد أزور جامع القرويين؟» فانتقد الرجل البسيط (وكان سقاء يحمل قربته الفارغة على كتفه) طريقة حديثى ، وقال لى : «قل : نريد نزور جامع القرويين» . وعجبت للغريب الذى يطلب منى أن أتحدث بلهجة أهل بلدى ، وكأنه يعرفنى . أما عن «سوق المغاربة» — أشهر أسواق الاسكندرية إلى عهد قريب — فكان قائماً بقلب المدينة ، لم يضحى به إلا فى سبيل انشاء الطريق الجديد الموصل إلى الميناء الغربى من «المنشية» والذى عرف مؤخراً باسم «سوق سوريا» فى طرفه الأخير ، إثر العلاقات «الخاصة» التى قامت مع سوريا عقب الوحدة (١٩٥٨ — ١٩٦١) والتى أدت إلى ازدهار تلك السوق . هذا ولو أن الأثر الشامى فى الاسكندرية قديم قدم العلاقات الوثيقة بين مصر والشام ، و«سوق الشوام» فى المدينة شاهد على ذلك . أما الآن فيطلق على منطقة «سوق المغاربة اسم «سوق ليبيا» إثر زيادة توثيق العلاقات بين البلدين فى سبيل تحقيق «الوحدة الاندماجية» .

وفى سوق المغاربة وبالقرب منه كانت تعرض أنواع الثياب والفرش

المغربية من : البرانس والملاحف والأخفاف الفاسية الطراز والبسط الصوفية بأنواعها إلى جانب أنواع الطعام المعروفة فى المغرب والتى يستخدم فى صنعها العجين على وجه الخصوص . وأشهر هذه المأكولات بطبيعة الحال كان «الكوسكوس» الذى دخل من السودان إلى بلاد المغرب اعتباراً من القرن الخامس عشر ، إلى جانب «المحمصة» التى تصنع فى شكل حبات كروية صغيرة أقل حجما من حبات الحمص ، أو « الشعيرية » التى تصنع فى شكل حبات خيطية فى حجم حبات الشعير . وكان المتخصصون فى بيع كل ذلك رجالا ونساء من المغاربة ، كما كنا نسميهم . والمغرب فى عرفنا كان مما يلى أرض الاسكندرية غرباً . أما الذين كانوا «يفتحون الكتاب» منهم ويتنبأون بالمستقبل ويعرفون مخابىء الكنوز فكانت لهم فى قلوب أهل المدينة هيبة ورهبة.

وإذا صحت نظرية قياس الماضى بالحاضر — وهو أمر مقرر فى المنهج التاريخى ، كما يسجله ابن خلدون بحق فى مقدمته فى علم التاريخ (١) ، فالمفروض أن مثل هذه الآثار المغربية الأندلسية كانت موجودة فى الاسكندرية فى العصور الاسلامية الوسيطة حينما كانت المدينة تعج بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس ، النازلين فى المدينة أو الوافدين فى طريقهم إلى الحج أو التجارة أو طلب العلم ، وهم يرتدون زيهم الخاص بهم من البرانس المخططة أو البيضاء ، ذات غطاء الرأس المدبب أو بغيره . وهذا الأمر هو الذى لفت أنظار تيمور لنك إلى ابن خلدون عندما لقيه وسط جماعة العلماء من المصريين والشاميين فى دمشق (٢) .

---

(١) أنظر المقدمة ، فصل (فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، ط التجارية) ، ص٢٨.

(٢) أنظر المقرى ، نفح الطيب ، ط التجارية ١٩٤٩ ، ج ٣ ، ص ٧٦ :

« فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون : قدمونى للكلام تنجوا إنشاء الله فقدموه وعليه زى المغاربة ، فلما رآه تيمورلنك ، قال : ما أنت من هذه البلاد ؟

وعن تمسك ابن خلدون بزيه رغم ولايته القضاء فى مصر أنظر السخاوى ، الضوء اللامع ، ترجمة رقم ٣٨٧ ، ج ٤ ، ص ١٤٦ :

« ومع ذلك لم يغير زيه المغربى ولم يلبس بزى قضاة هذه البلاد ......». وأنظر ص ١٤٨ (عن تمسك ابن خلدون بزى بلاده ، رواية عن ابن حجر) .

وهنا أسارع فأرجو ألا يفهم من هذه الاشارات البسيطة أننى سأحاول فى محاضرتى بيان ألوان من مثل هذه الآثار الملموسة التى تركها أهل المغرب والأندلس فى الاسكندرية أو التى أثروا بها فى الحياة اليومية لأهل الاسكندرية إذ الحقيقة إن المصادر وما بقى لنا من التراث المادى من تلك العصور لا يسمح بذلك . حقيقة إننا نشاهد الآن الأثر الأندلسى فى زخرفة بعض مساجد مشايخ الاسكندرية — التى أعيد بناؤها مؤخراً — أو فى بعض مفردات عمارتها ، كما هو الحال فى مسجد أبى العباس المرسى أو جامع سيدى جابر أو سيدى بشر ، ولكن هذا لا يعنى أن تلك المساجد أعيد بناؤها على ما كانت عليه قديماً . فالأمر لا يتعلق هنا إلا بالرغبة فى إحياء التراث الأندلسى البديع فى الزخرفة والعمارة — تراث مشايخ الاسكندرية هؤلاء . ولقد حدث ذلك دون التقيد بالطراز الأندلسى الصميم ، والمثل لذلك جامع سيدى المرسى أبى العباس — أعظم مساجد الاسكندرية الآن — فرغم أن البناء يتدثر بكسوة بديعة أندلسية التفاصيل فإن خطة البناء نفسه ذات الشكل المثمن يظهر فيها أثر أشهر مبانى بلاد الشام ، وهو مسجد قبة الصخرة المثمن فى القدس . فكأن الإسكندرية جمعت فى أهم مساجدها الحاضرة وأشهرها تقاليد ساحل بحرها فى أقصى طرفيه : الشام شرقاً والأندلس غرباً .

وإذا كان المعروف أن التقاليد الشامية ممثلة فى أساليب الحكم والادارة أو فى مذاهب أهل الشام ، كانت قد انتقلت إلى الأندلس إبان حكم الأمويين فأغلب الظن أنها مرت إلى هناك — بعد الفسطاط — عبر الاسكندرية التى كانت وقتئذ قاعدة لتجمع الجيوش السائرة نحو المغرب . والغرض من هذه الإشارة هو الاسراع بتقرير أن التأثير والتأثر كان متبادلا بين الإسكندرية وبين بلاد المغرب والأندلس . أما عن كيفية مسار تيار هذا التأثير من الشرق إلى الغرب أو العكس فانه كان يخضع لكثير من العوامل المعروفة فى تاريخ الحضارات ، منها ما يتعلق بدرجة التحضر أو مستوى الرقى : والمعروف أن الأرقى هو الذى يؤثر فى الأدنى ، ومنها

ما يتعلق بالظروف السياسية : والمعروف فى هذا المجال أن المغلوب كلف بتقليد الغالب — وهو ما ينص عليه ابن خلدون(١) .

وبشكل عام يمكن تحديد مسار هذا التيار فى ثلاث مراحل ، المرحلة الوسطى منها تتمثل فى قيام الدولة الفاطمية الذى يعتبر بمثابة أزمة ألمت بعلاقات المشرق بالمغرب (٢) . فالمعروف أن تيار التأثير فىالفترة الأولى التى تمتد لثلاثة قرون كان يسير من المشرق ـ حيث العواصم الحضارية الأولى والسياسية فى الحجاز والشام والعراق ، ومنها الفسطاط والاسكندرية فى مصر — إلى المغرب والأندلس . والفترة الثانية تمتد من قيام الفاطميين فى المغرب إلى نهايتهم فى مصر ، وفيها كانت عواصم المغرب والأندلس قد اشتدت سواعدها حضارياً وسياسياً فى القيروان وقرطبة واشبيليةوفاس فكان من الطبيعى أن يكون مسار التيار الحضارى متوازياً مع مساق التيار السياسى الفاطمى من المغرب إلى المشرق فى أول هذه الفترة ، قبل أن يصبح التأثير متبادلا مع التأثر. أما المرحلة الثالثة التى واكبت اشتداد «حرب الاسترداد» فى الأندلس فإنها تمثل تياراً حضارياً أندلسياً حمله المهاجرون الأندلسيون الذين اضطروا إلى الجلاء عن ديارهم أمام عنف الهجوم الأسبانى ، وغمروا به سواحل المغرب وبعض دواخله من مراكش إلى تونس ، ووصلوا به إلى مصر وشواطىء الاسكندرية — ثغر مصر أو جبهتها البحرية فى مواجهة العدو البحرى — التى كان لها النصيب الأكبر منه . فمنذ ذلك الوقت بدأ استقرار مشاهير مشايخ الاسكندرية ومعظمهم من الأندلسيين ، ممن بدأنا بالإشارة إليهم .

المصادر :

أما عن المصادر التى يمكن الرجوع إليها لدراسة الموضوع فمما يؤسف له أنه لم يصل إلينا مؤلف فى تاريخ الإسكندرية من بين الكتب التى وصلتنا

---

(١) المقدمة ، ط التجارية ، الفصل ٢٣ ، ص١٤٧ .

(٢) أنظر جورج مارسيه ، بلاد المغرب (البربر) الاسلامية والمشرق فى العصور الوسطى (بالفرنسية) ، ط ١٩٤٦ ، ١٣٢ وما بعدها .

أسماؤها ، مثل : «كتاب تاريخ اسكندرية» لأبى المظفر منصور الاسكندرى المتوفى سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤ م (١) ، أوتلك التى ألفت فى فضائل الاسكندرية مثل كتاب ابن دقماق المسمى «الدرر المضية فى فضل مصر والاسكندرية» (٢) والدرة المضية فى تاريخ الاسكندرية لأبى الحسن حازم القرطاجنى (٣) ، و« كتاب فضائل الاسكندرية» لأبى الفضائل التروجى السكندرى (٤) . وذلك باستثناء «فضائل الاسكندرية» لأبى على الحسن الصباغ — والسيوطى — التى وصلتنا قطعة منها (٥).

وبناء على ذلك لابد من الرجوع إلى كتب التاريخ العام بأنواعها المختلفة وكذلك الكتب التاريخية التى تعالج موضوعات الحضارة الاسلامية ، من : علوم وفنون وحرف مختلفة . ومن كل من هذين النوعين تنفرد الكتب المتعلقة بكل من مصر والمغرب والأندلس بأهمية خاصة . والكتب المتقدمة منها تحتوى على بعض النتف المفيدة للموضوع ، أما كتب المتأخرين فانها أكثر معاونة للباحث من حيث الترتيب والمنهج إذ أن المؤلف عادة ما يختم الأحداث السياسية التى وقعت فى كل سنة من السنين أو فى نهاية حكم كل أمير بالاشارة إلى وفيات العلماء والفقهاء والشعراء والمتصوفة وغيرهم من أهل العلم . وهذا ما يظهر بوضوح فى حوليات المصريين ، مثل : المقريزى وابن تغرى بردى والسيوطى .

وكتب التراجم العامة لها أهميتها بالنسبة للموضوع ، مثل : كتاب ابن خلكان الذى يعتبر النموذج لهذا النوع من الأدب التاريخى الذى سار على منواله المتأخرون ، فنهم من حاول إكماله عن طريق سد فجواته ، كما فعل

---

(١) أنظر السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص١٦٣ – ١٦٤ ، عباس بن ابراهيم ، الاعلام .. ، ج ١ ، ص١٢٦ ، جمال الدين الشيال ، الاسكندرية (فى الأطلس التاريخى) ، ص ٢٠٦ .

(٢) عباس بن ابراهيم ، الاعلام ... ، ج١ ص ١٢٦ .

(٣) نفس المرجع ، ج١ ص١٣٦ .

(٤) السخاوى ، الاعلان بالتوبيخ ، ص ٦١٥ (فى علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال) والتروجى هو خلف بن على بن محمد المغربى الأصل التروجى المولد السكندرى الشافعى (٧٦٠ — ٨٤٤هـ/ ١٣٥٩ – ١٤٤٠م) ومن تآليفه : « المرتب فى الحديث » و « الرد على الجهمية » إلى جانب « فضائل إسكندرية » (أنظر السخاوى ، الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ترجمة رقم ٧١٥ ج ٣ ص ١٨٤) ، وأنظر فيما بعد ص ٦٠ .

(٥) أنظر ابن الصباغ ، الجزء من فضائل الاسكندرية ، مخطوط الظاهرية المصور بمكتبة كلية الآداب رقم ٧٧٨م فى ١٣ ورقة ، الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، ط. دار المعارف ١٩٦٧ ، (المقدمة ص ح) .

إلى وقت تصنيف الكتاب ، كما فعل ابن حجر فى «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » أو مثلما فعل السخاوى ، فى «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع» .

أما كتب التراجم الخاصة التى تتناول رجال العلم فهى كتب الطبقات وأقدمها طبقات ابن سعد الكبرى ، ومن أشهرها كتاب ابن الأثير المعروف بأسد الغابة فى معرفة الصحابة ثم تأتى كتب طبقات علماء المذاهب المختلفة من المالكية والشافعية والصوفية وغيرهم ، إلى جانب طبقات الأدباء مثل كتاب ياقوت أو طبقات الأطباء مثل كتاب ابن أبى أصيبعة .

وعن كتب تراجم العلماء من رجال العلوم الدينية والعقلية وغيرهم فأقدمها وأهمها كتاب الفهرست لابن النديم الذى ألف فى أواخر القرن الرابع الهجرى/ ١٠ م ، والذى يؤرخ للعلوم والفنون العربية إلى أيامه ويسجل ما كانت تحتويه المكتبات العربية من المؤلفات فى ذلك الوقت . فهو يترجم لعلماء الدين واللغة وأئمة المذاهب وأعلام الفلاسفة والمتصوفة والشعراء والفنانين . وللاسكندرية فى هذا الكتاب أهمية خاصة من حيث أثر علومها القديمة على العلوم المستحدثة فى الاسلام ، من : منطق وفلسفة وفلك وطب وهندسة وغيرها . ومن أشهر الكتب المتأخرة التى سارت على منوال الفهرست فى التعريف بمحتويات المكتبة العربية : «كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم» لأحمد بن مصطفى المشهور بطاش كبرى زادة ، و «كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون» لمصطفى بن عبد الله المعروف بحاجى خليفة . وعلى منوال هذه الكتب وبفضلها أخرج المستشرق الألمانى بروكلمان كتابه المعروف فى تاريخ الأدب العربى .

ولقد اعتنى المغاربة والأندلسيون بكتب التراجم وخاصة سير العلماء وظهرت عندهم أنواع ، منها : «الفهرسة» و «البرنامج» التى عنى فيها العلماء بتسجيل تراجم شيوخهم الذين أخذوا عنهم العلم والإجازات العلمية . ومن أشهر كتب الأندلسيين التى سارت فى سلسلة يكمل بعضها بعضاً

والتي عرف بعضها باسم المكتبة الأندلسية : «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي ، و «كتاب الصلة» لابن بشكوال ، و «كتاب صلة الصلة» لابن الأبار ، و «كتاب الذيل والتكملة لكتاب صلة الصلة» لابن عبد الملك المراكشي ، وكتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المراكشي .

ومن الكتب الخاصة بتراجم العلماء من أهل افريقية (البلاد التونسية) التي يكمل بعضها بعضاً : «كتاب طبقات علماء افريقية لأبي العرب» و« كتاب رياض النفوس » للمالكي ، و«كتاب معالم الايمان » ، للدباغ وهو الذي أكمله ابن ناجي فنسب إليه . وهذه الكتب تمدنا بمعلومات جيدة عن الحياة العلمية في عواصم المغرب وعلاقتها بالحركة العلمية في عواصم المشرق ، وخاصة عندما تعالج الأحداث العلمية المعاصرة لها .

وفيما يتعلق بالاسكندرية فمن أهم كتب التراجم الخاصة بالقرنين السادس والسابع الهجريين ١٢/ — ١٣م كتاب «معجم السفر» لشيخها الكبير السلفي .

أما أهم كتب المحدثين من المغاربة فهو كتاب عباس بن ابراهيم ، قاضي مدينة مراكش الحمراء حتى الخمسينيات قبيل استقلال المغرب عن فرنسا وهو كتاب «الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» وذلك بسبب ما يحويه من المعلومات المستقاه من المصادر الأصيلة وخاصة من المخطوطات التي لم ينشر بعضها حتى اليوم .

ومجموعة كتب الجغرافية والرحلات المغربية لها أهميتها بالنسبة للعلاقات بين الاسكندرية والمغرب والأندلس وكذلك بالنسبة لأحوال الاسكندرية نفسها . فرغم أن بعضها ينقل عن البعض أو يتأثر بطريقته في الكتابة من حيث الأسلوب والموضوع إلا أنها تتصف على وجه العموم — وخاصة الرحلات بأنها من مصادر الدرجة الأولى ، بصفتها وليدة التجربة والمعايشة ورؤية شهود العيان . ومن هذا الوجه تتميز كتب الرحلات عن كتب الجغرافية بأن معلوماتها أكثر حيوية لعدم اعتمادها على النقل . فالزائر الغريب يلاحظ

أشياء قد لا تثير — بحكم العادة — اهتمام المواطن العادى ، كما أنه يهتم بتسجيل ما يقع فى نفسه من مشاعر وأحاسيس .

ولقد كان هدف أصحاب هذه الرحلات فى أول الأمر القيام بفريضة الحج ، ولما كان ذلك من الأغراض الدينية كان من الطبيعى أن يهتموا —أثناء الرحلة — بطلب العلم والتفقة فى الدين . ومع مرور الوقت انتهى الأمر بأن أصبح مؤلفو كتب الرحلات طلاب علم أكثر منهم رواد آفاق . فاغتنت كتب الرحلات بالمادة العلمية — إلى جانب وصف البلاد والشعوب وبحوث النشاط العلمى والثقافى فى البلدان الواقعة على طريق الحج بل والبعيدة عن هذا الطريق ، حتى أصبح كتاب الرحلة أقرب إلى كتب تراجم العلماء منه إلى كتب الأسفار . وكانت تراجم علماء الاسكندرية — من أهل البلد ومن المشرق والمغرب — وأخبارهم لها مركز الصدارة فى كتب الرحلة المغربية ، وهى التى تعنينا .

ومن أقدم وأشهر الرحالة المغاربة ابن جبير الأندلسى الذى حج على أيام صلاح الدين (عن طريق البحر) لأول مرة ثم اتبع ذلك بحجتين ، وزار مصر والاسكندرية ، وأقام بالاسكندرية بعض الوقت ووصفها وصفاً يدل على دقة الملاحظة ، وأخذ على السكندريين بعض المآخذ . وفى آخر مرة مات ابن جبير بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، ودفن بها . وبعد ابن جبير يأتى العبدرى (رحلته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) ، وابن رشيد السبتى (محمد بن عمر ٦٧٥هـ / ١٢٥٩ م — ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) الذى رحل إلى المشرق سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤ م وسمى رحلته « ملء العيبة فى ما جمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة» (١) ، وابن بطوطة (بدء الرحلة إلى المشرق فى ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م والعودة فى سنة ٧٥٠هـ

(١) أنظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ترجمة رقم ٣٠٨ ، ج٤ ، ص١١١ — ١١٣ ، وقارن عباس بن ابراهيم ، الاعلام ، ج٣ ص ٢٥٠ وما بعدها .

١٣٤٩ م) ثم البلوى (رحلته فى سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م) . ومن أواخر مشاهير رحالة المغرب العياشى السجلماسى الذى حج منذ حوالى ثلاثة قرون وزار الاسكندرية وسجل مشاهداته فيها على أواخر أيام العثمانيين ، عندما أخلدت المدينة الذائعة الصيت فى الاضمحلال إلى أن أصبحت بعد قليل أشبه بقرية — مما أذهل نابليون سنة ١٧٩٨ . ولا شك أن ما صوره علماء الحملة الفرنسية — فى وصفهم لمصر — من مشاهد الاسكندرية بالحفر (جرافور) وما كتبوه عنها مفيد لأى دراسة عن الاسكندرية فى العصور الاسلامية .

ومع يقظتنا الحديثة ومع الاهتمام بعمران الاسكندرية بدأ الاهتمام بتسجيل تاريخ المدينة وتدوين مآثرها ، وكان على مبارك رائد المحدثين فى الكتابة عن الاسكندرية إذ خصص لها الجزء السابع من خططه . ولقد كتب البعض فى تاريخها ودرس البعض آثارها ، وكان من الطبيعى أن تقوم جامعة الاسكندرية بدورها فى هذا المجال . فلقد قام عدد من أساتذتنا بكلية الآداب بدراسة جوانب من تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، نذكر منهم من اهتموا بالعصور الإسلامية مثل الأستاذ « كومب » والأساتذة عزيز سوريال عطية ومحمد عبد الهادى شعيرة وجمال الدين الشيال الذين ساهموا بأبحاثهم التى نشرتها غرفة تجارة الاسكندرية سنة ١٩٤٩ . ولقد استعانت محافظة الاسكندرية منذ سنوات قليلة بعدد من أساتذة كلية الآداب لكتابة تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور الذى نشر فى سنة ١٩٦٣ .

وأجد لزاماً على أن أسجل مجهودات المرحوم الدكتور الشيال الذى اهتم بدراسة تاريخ الاسكندرية فبدأ بنشر كتاب صغير الحجم كبير الفائدة فى تاريخ الاسكندرية سنة ١٩٤٩ ثم أعاد نشره مزوداً بمعلومات أوفر سنة ١٩٦٧ ، كما كتب كتاباً فى بعض أعلام الاسكندرية نشر سنة ١٩٦٥ وكان فى عزم الدكتور الشيال أن ينشر كتاب الاعلام للنويرى الاسكندرى الذى يعالج غزوة القبارصة للاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م — وهو الذى كان الأستاذ «كومب» قد اهتم بدراسته — فبدأ بتصوير مخطوطة دار الكتب المصرية ومخطوطة الهند .

ولقد استفاد الزميل الدكتور السيد عبد العزيز سالم من مخطوطة النويرى التى صورتها كلية الآداب فى اخراج كتابه عن تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى فى طبعته الثانية سنة ١٩٦٩ . هذا ، ولقد بدأ أستاذنا الدكتور عزيز سوريال عطية فى اخراج كتاب الاعلام للنويرى السكندرى من نسخة الهند الكاملة إلى جانب نسختى برلين والقاهرة فى عدد من الأجزاء وخرج بعضها فعلا إلى النور (طبعة حيدر آباد الدكن : الأجزاء من ١ إلى ٤ فيما بين سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٧٠) .

وآخر ما قامت به جامعة الاسكندرية فى الكشف عن جوانب جديدة من تاريخ الاسكندرية وحضارتها هو كتاب تاريخ البحرية المصرية الذى ألفه عدد من أساتذة كلية الآداب مع بعض أساتذة كلية العلوم ومشاركة من القوات البحرية المصرية ، والذى سيتم نشره هذا العام — باذن الله .

الخطوط العريضة للموضوع :

بعد هذا التعريف السريع بأهم المصادر اللازمة لدراسة تاريخ الاسكندرية فى العصور الاسلامية بشكل عام ، ودراسة موضوعنا الخاص بالمؤثرات المغربية والاندلسية فى مجتمع الاسكندرية بصفة خاصة ، نعود إلى ما كنا أشرنا إليه ابتداء من أن تيار التأثير المغربى وعكسه يمكن أن يسير تبعاً للظروف السياسية والحضارية التى عرفتها دولة العرب فى العصر الوسيط فى حوض البحر المتوسط فى مراحل ثلاثة : الأولى وتمتد لثلاثة قرون تقريباً فى عصر قوة الخلافة ، والثانية تكاد تقرب من ثلاثة قرون تمثل العصر الفاطمى فى المغرب وفى مصر والشام ، والثالثة تمتد أيضاً إلى حوالى ثلاثة قرون تعادل دولة المماليك فى مصر والخلافة المهاجرة فى القاهرة .

هذا ، وليس من التعسف وضع موضوعنا المحدود فى هذا الاطار الفضفاض من التاريخ العام إذ الحقيقة إن تاريخ الاسكندرية ليس إلا جزءا من تاريخ مصر ، ومصر بفضل موقعها المتوسط بين المغرب الافريقى

والأندلسي وبين المشرق العربي الآسيوي – كانت تتأثر بصدى الأحداث في كل من جناحي العالم العربي الاسلامي . وكان تأثر الاسكندرية – كما قلنا ابتداء – بأحداث المغرب والأندلس أوضح ، على عكس الفسطاط والقطائع والقاهرة التي كان تأثرها بأحوال المشرق أرجح .

المرحلة الأولى : الاسكندرية ما بين الثغر والمركز العلمي :

وإذا كانت الفسطاط قد ظهرت بعد الفتح بقليل بمظهر العاصمة السياسية والدينية لمصر ، وبدأت تنافس المراكز العلمية التي نشأت في الحجاز والعراق والشام بفضل من دخلها من الصحابة والتابعين وبفضل من نشأ على أيديهم من أبنائها ، فإن الاسكندرية ظلت تشتهر – بفضل موقعها الجغرافي – بأنها ثغر مصر أو جبهتها الساحلية في مواجهة العدو البحري . وهذا ما يفسر كيف أن حامية الاسكندرية أو رابطتها كانت تعادل ، بعد الفتح ، ربع القوات العربية الموجودة في كل البلاد ، وكيف أنها زادت على أيام معاوية إلى حوالى ثلاثين ألف رجل (١) .

ولا يعني هذا أن الاسكندرية بصفتها أرض جهاد وموطن رباط كانت بمعزل عن الحركات العلمية أو السياسية التي عرفتها المنطقة ، فلقد دخلها عند الفتح عدد من الصحابة ، من أشهرهم : عمرو بن العاص والزبير ابن العوام وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت (٢) . ولا شك أن هؤلاء وغيرهم كانت لهم جهودهم في رواية أحاديث الرسول وسننه مما سيكون موضع عناية علماء الحديث الذين سيتجولون في البلدان جرياً وراء رواة الأحاديث من الصحابة والتابعين ، والذين سيدونون تاريخ فتوح الأمصار ليس من أجل دراسة التاريخ نفسه بل من أجل توثيق الأحاديث . وهذا يعني

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ط. ليدن ، ص١٩٢.

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ط. ليدن ، ص١٣٠.
وعن غيرهم ممن دخل الاسكندرية انظر كتاب السيوطي : « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » في حسن المحاضرة (ص ٧٧ وما بعدها) .

أنهم كتبوا التاريخ ليكون عوناً لهم على تحقيق علم الحديث بناء على منهج الجرح والتعديل ، وذلك ما يتضح فى كتاب ابن عبد الحكم المصرى فى فتوح مصر والمغرب والأندلس الذى جعل القسم التاريخى الأول من كتابه وكأنه مقدمة للقسم الثانى الخاص بالأحاديث المروية عن الصحابة المصريين أو الذين دخلوا مصر (١) .

المذهب المالكى فى الاسكندرية ودور المغاربة والأندلسيين :

وهكذا فإنه إذا كان دور الفسطاط واضحاً كمركز علمى بفضل علاقاتها بمدينة الرسول من حيث أخذت علم الحديث الذى ارتفع شأنه بفضل الامام مالك بن أنس (توفى ١٧٩هـ /٧٩٥م) ثم بفضل أعلام الأئمة المصريين فى الحديث ، مثل : ابن لهيعة وعبد الله بن وهب والليث ابن سعد (٢) وتلاميذهم حتى قصدها أعلام المحدثين من المشارقة من أصحاب الصحاح ليدرسوا علمهم ويأخذوا العلم أيضاً عن أهل مصر ، مثل : ابن ماجه القزوينى وأبى داود السجستانى وأبو حاتم الحنظلى الرازى (٣) وغيرهم فطبيعة الحال تقضى أن يكون للاسكندرية دورها فى هذا المجال . فأستاذ أستاذ الليث بن سعد هو التابع ربيعة بن سيف الاسكندرانى الذى توفى فى حدود سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م ، ومن التابعين السكندريين زاهر بن معبد ابن عبد الله التيمى الذى توفى بالاسكندرية سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م ، ومنهم سعيدبن يزيد الحميرى القتبانى الاسكندرانى (توفى سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م) .. الخ (٢) .

ومنذ القرن الثانى الهجرى / ٨ م كان المذهب المالكى الذى انتشر فى مصر قد مد جذوره فى أرض الاسكندرية بفضل أصحاب

---

(١) أنظر قسم الأحاديث من الكتاب من ص٢٤٨ إلى ص ٣١٩ .

(٢) عن هؤلاء أنظر مقدمة تورى لابن عبد الحكم (بالانجليزية) ص٦ .

(٣) أنظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٣ ص ٧٠ (محمد بن يزيد بن ماجه – توفى ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) ، ص٧٣ (أبوداود سليمان بن الأشعث السجستانى – توفى ٢٧٥هـ/٨٨٨م) ، ص٧٧ (الحافظ أبوحاتم الرازى الحنظلى – توفى سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م) .

(٤) أنظر حسن المحاضرة للسيوطى ، ص١١٨ ، ص١٢١ ، على التوالى .

مالك وتلاميذه الذين أقاموا فى الاسكندرية ونشروا مذهبه . ومن هؤلاء عبد الرحيم بن خالد الجمحى ، وطليب بن كامل اللخمى الأندلسى الأصل الذى روى عنه عدد من فقهاء مصر والذى أقام بالثغر ومات فيه سنة ١٧٣هـ ٧٨٩ م (١) . وسعيد بن عبد الله المعافرى المصرى الذى كان من كبار أصحاب مالك والذى مات بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م أيضاً (٢) . ولهذا يمكن القول إن الاسكندرية كونت فى ذلك الوقت المبكر لما يمكن أن يسمى بمدرسة فقه مالكية ، وأنها شاركت فى نشر المذهب فى مصر وفى بلاد المغرب والأندلس .

فالمهم فى هذا المجال هو أن أهل المغرب والأندلس لم يهتموا إلا بدراسة المذهب المالكى الذى انتشر فى بلادهم وصار المذهب الرسمى لهم دون غيره من المذاهب . وإذا جاز تفسير ذلك سياسياً بسبب موقف المعارضة الذى وقفه الامام مالك بن أنس من العباسيين فى أول أمرهم، عندما أيد مطالب العلويين فى الخلافة مما جعل أمراء الأندلس الأمويين (أعداء العباسيين) يحرضون طلبة العلم عندهم على الذهاب إلى المدينة للأخذ عن مالك ، فالمعروف أن طلبة العلم من أهل المغرب والأندلس كانوا يأخذون المذهب المالكى عن أعلامه من أهل مصر العلماء . هكذا أخذ فقيه افريقية البهلول بن راشد (توفى سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م) وفقيها الأندلس عيسى بن دينار (توفى سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ويحيى بن يحيى الليثى (توفى سنة ٣ — ٢٣٤هـ/ ٧—٨٤٨م) عن مشاهير المالكية وغيرهم من المحدثين فى مصر — وهم فى طريقهم إلى الحجاز(٣). ومما لا ريب فيه أنه كان لهؤلاء دورهم أيضاً فى العمل على

---

(١) حسن المحاضرة ، ص١٣٣ .

(٢) حسن المحاضرة ، ص٢٠٥ .

(٣) عن البهلول بن راشد أنظر أبوالعرب ط. تونس ١٩٦٨ ، الترجمة رقم٩ ، ص١٢٦.

— وعن عيسى بن دينار بن واقد الغافقى الطليطلى أصلا القرطبى إقامة الذى عرف بفقيه الأندلس أنظر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، ج١ ص٢٧١ ترجمه رقم ٩٧٣.

— وعن يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس المصمودى الذى عرف بعاقل الأندلس . أنظر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، ج ٢ ترجمة رقم ١٥٥٤ . وأنظر دوزى تاريخ المسلمين فى اسبانيا (بالفرنسية) ، طبعة بروفنسال ، ج٢ ص٢٨٧ والهامش .

نشر المذهب المالكى فى مصر ، بخاصة وهم فى رحلة العودة إلى بلادهم بعد أخذهم من الامام مالك نفسه فى المدينة . بل ان بعضهم استقر بمصر ودفن بها ، مثل : عبد الله بن فروخ (توفى سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢م) المدفون بالمقطم . والذى لقى مالكاً وكان يكاتبه (١) ، وكذلك الحال بالنسبة ليحيي بن سلام (توفى بمصر سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥م) الذى أدرك مالكاً وسمع منه (٢) ومن المصريين الذين رحلوا إلى الأندلس العالم المحدث معاوية بن صالح (توفى سنة ١٥٨هـ/٧٧٥ م) الذى صار قاضياً للأندلس (٣).

ولما كانت الاسكندرية أول محطة فى مصر تستقبل طلاب العلم من المغاربة والأندلسيين الذاهبين إلى الحجاز ، كما كانت آخر محطة يغادرونها فى طريق العودة بعد تحصيلهم فى المدينة أو الفسطاط ، فما لاريب فيه أنهم كانوا يتأثرون بعلماء الاسكندرية ويؤثرون فيهم بما حملوه من العلم ، وهذا ما سيظهر بوضوح فيما بعد .

الاسكندرية ومذاهب الخوارج فى المغرب :

وإذا كان مذهب مالك قد انتشر فى المغرب والأندلس أيام العباسيين على زعم أنه مذهب معارضة — كما سبقت الاشارة — فمن المعروف أن مذهب المعارضة الصريح الذى انتشر فى المغرب قبل ذلك على أيام الأمويين هو مذهب الخوارج . ومع أنه ليس من المعروف على وجه الدقة كيفية دخول المذهب الخارجى من البصرة فى العراق إلى المغرب (٤) ، حيث بلغ

---

(١) أنظر طبقات علماء افريقية لأبى العرب ، ترجمة رقم ٤ ص١٠٧ — ١١١ .

(٢) نفس المصدر، ترجمة رقم ٥ ص١١١ — ١١٤ .

(٣) معاوية بن صالح بن عثمان بن سعيد الحضرمى الحمصى الأصل (توفى ١٥٨هـ/٧٧٤م) قدم مصر وخرج إلى الأندلس حيث ولاه عبد الرحمن الداخل قضاء الجماعة بالأندلس . أنظر ابن الفرضى ، تاريخ قضاة الأندلس (المكتبة الأندلسية) مدريد ١٨٩٠ ، الترجمة رقم ١٤٤٣ ، ج ٢ ص١٥. والظاهر أن ابن تغرى بردى ، أخطأ فى قراءة المائة فجعلها مائتين ولهذا وضعه فى وفيات سنة ٢٥٨هـ/٨٧٠م (أنظر النجوم ، ج٣ ص ٢٩ — ٣٠) .

(٤) أنظر كتابنا فى تاريخ المغرب العربى ، ص٢٥٣ .

عنفوانه فى اقليم طنجة والريف مع مطلع القرن الثانى الهجرى ، فالظاهر أن نواة هذه الحركة الخارجية المغربية بدأت فى الاسكندرية فى أواخر القرن الأول الهجرى . هذا ما يمكن أن يستشف من النصوص التى تشير إلى أنه عندما ذهب قرة بن شريك والى مصر إلى الاسكندرية سنة ٩١هـ/ ٧١٠ م) كانت الاسكندرية ملجأ للخوارج (الشراة) الذين دبروا مؤامرة للفتك بالوالى . فقد اجتمع من الخوارج حوالى مائة رجل فى الميدان المقابل لمنارة الاسكندرية حيث اختاروا أحدهم للرئاسة ، هو المهاجر بن أبى المثنى التجيبى وبايعوه . ولكن قرّة عرف أخبار الجماعة عن طريق رجل من عيونه يعرف بأبى سليمان ، وبذلك تهيأ له مفاجأة المتآمرين والقبض عليهم ، وحبسهم فى أصل المنارة فى الحجرات التى كانت تتخللها ، قبل أن يأمر باعدامهم (١) . ويمكن أن يفهم من النصوص أن الحركة الخارجية فى الاسكندرية كانت تلقى العطف من أهل المدينة بل من أهل مصر إذ أن الجاسوس أبا سليمان أصبح رمزاً للغدر والوشاية . وفى ذلك يقال إن يزيد ابن أبى حبيب الإخبارى المعروف كان إذا أراد الخوض فى حديث فيه تقية من السلطان تلفت ، وقال : «احذروا أبا سليمان» ، ثم أنه عمم آخر الأمر فكان يقول . « الناس كلهم أبو سليمان » (٢) .

ولما كان المذهب الخارجى قد بدأ يتسرب إلى المغرب قبيل هذا الوقت فلا بأس من أن يكون للاسكندرية دورها كملجأ للخوارج الفارين من بطش الخلافة فى المشرق ، وأنها كانت محطة على طريق دخولهم إلى المغرب ، كما كان لها دورها الهام فى قمع حركاتهم بعد أن أضرموا نيران الثورة فى طول البلاد وعرضها على أواخر أيام الأمويين ثم على أيام العباسيين وكان دور الاسكندرية هذا فى البحر وفى البر سواء .

---

(١) انظر الكندى ، الولاة والقضاة ، ط. جست ، ص ٦٤ .

(٢) الكندى ، ص ٦٥ .

امارة أندلسية في الاسكندرية :

وأغلب الظن أن الخوارج عندما كانوا يدخلون الاسكندرية كانوا يفعلون ذلك على أنهم من المتطوعة القادمين للاقامة فى الثغر من أجل الجهاد والرباط ، طلبا للشهادة فى سبيل الله وقت الحرب ، وانقطاعا لأعمال الورع والعبادة فيما بين ذلك . وهكذا كان يتردد على الاسكندرية طلاب العلم وكذلك طلاب الجهاد من أدنى البلاد وأقصاها . وكان للاندلسيين موقفهم الخاص فى طلب السببين جميعا . فإلى جانب طلاب المذهب المالكى عرفت الاسكندرية فى أواخر القرن الثانى الهجرى / ٨ م جماعة من البحريين الأندلسيين الذين كانوا يترددون عليها والذين توثقت صلتهم بالمدينة حتى أنتهى الأمر باستيلائهم عليها واستقلالهم بها عن والى الفسطاط فى العقد الأول من القرن الثالث الهجرى/٩م .

ولقد شرح بعض الكتاب قضية هؤلاء الأندلسيين فقالوا إنهم من سكان الحى الجنوبى من قرطبة الذى كان يعرف « بالربض» ، والذين كانوا قد ثاروا بتحريض من فقهاء المالكية على أميرهم الحكم بن هشام ثورة عارمة انتهت بأن قضى عليها الأمير بالحديد والنار ، وانتقم من الثوار انتقاماً رائعاً فأجلاهم عن ربضهم بعد أن أمر بحرثه وزرعه حتى عرف الحكم بلقب الربضى — نسبة إلى الحى التعس . وبينما اتجه كثير من القرطبيين من أهل الربض نحو سواحل المغرب وعمرت جماعات منهم مدينة فاس التى كان ينشئها الأدارسة وقتئذ ، واتخذوا لهم بها حياً على ضفة الوادى هو الذى عرف باسم «عدوة الأندلسيين » ، أبحرت جماعات أخرى نحو شرق المتوسط حيث نزلوا بساحل الاسكندرية ثم استولوا عليها ، وساعدهم على ذلك أن الأحوال فى مصر كانت مضطربة منذ أيام الرشيد ، وزاد اضطرابها نتيجة للصراع الذى قام بين الأمين والمأمون (١) .

---

(١) عن ثورة الربض ونقد الروايات انظر بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ، ط ١٩٤٤ ، ص ١١٩ — ١٢١ ، وعن اضطراب الأحوال فى مصر والاسكندرية انظر الكندى ، الولاه والقضاه ، ص ١٤٣ ، ١٤٧ ومابعدها .

والحقيقة إن هذا التفسير ليس صحيحاً تماماً ، فاذا كانت مدينة قرطبة قد عرفت عدداً من الاضطرابات التى قام بها العامة فان ثورة الربض الكبرى اندلعت بعد سنة ٢٠١ هـ / ٨١٧ م بينما الحوليات المصرية تسجل وجود الأندلسيين فى سواحل الاسكندرية قبل ذلك بسنتين ، فى سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٥. فالكندى يسجل فى «قضاة مصر وولاتها» : أن هؤلاء الأندلسيين «كانوا قد قفلوا من غزوهم فنزلوا الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان » (١). كما يسجل الكندى أيضاً رواية منسوبة إلى ضمام ابن اسماعيل ، تقول : « إنى على الاسكندرية من أربعين مركباً مسلمين وليسوا بمسلمين تأتى على آخر الصيف أخوف منى عليها من الروم»(٢). وهذه الروايات تعنى أن الأندلسيين كانوا غزاة بحريين ، وأن الحرب — التي وسعوا دائرتها من سواحلهم فى شرق الأندلس إلى شرق البحر المتوسط — كانت صناعتهم ، وأنهم كانوا قد اعتادوا ارتياد ساحل الاسكندرية ، فيما بين غاراتهم ، للبيع والشراء . وهذا ما لم يكن يتأتى لجماعات التعساء من أهل السوق وغيرهم الذين أخرجوا فى التو واللحظة من ديارهم بأهليهم وذراريهم .

ويوضح الكندى انه لم يكن يسمح للأندلسيين ، عند ورودهم الاسكندرية بمراكبهم ، أن يدخلوا المدينة وانما كان الناس يخرجون إليهم للمتاجرة . وهذا يعنى أن الأندلسيين لم يكونوا يهتمون إلا بما يحتاجون إليه من ميرة أو سلاح أو غيرها من الأسباب . وعندما أتوا فى سنة ١٩٩ هـ ٨١٥ م كانت تحملهم أربعون مركبا بمعنى أنهم بلغوا حوالى أربعة أو خمسة آلاف رجل على زعم أن شحنة المركب تبلغ مائة إنسان فى المتوسط أو أكثر قليلا . أما عن تدخلهم فى شئون الاسكندرية فكان نتيجة لاضطراب الأحوال فى مصر واستجابة لطلب والى المدينة الأسبق عمر بن هلال الحديجى

---

(١) الكندى ، ص ١٥٨ ومابعدها ، وانظر مقالنا فى تاريخ الاسكندرية (ط . محافظة الاسكندرية سنة ١٩٦٣) ، ص ٢٦٧ .

(٢) الكندى ، ص ١٦٤ .

الذى خرج على والى الفسطاط (المطلب بن عبد الله) . ومع أن أهل الاسكندرية ثاروا بالأندلسيين عندما نزلوا بالمدينة وردوهم إلى مراكبهم بعد أن طردوا الحدبجى ، وقتلوا عدداً منهم – الا أن اضطراب الأحوال فى الفسطاط سمح بعودة الحدبجى ونزول الأندلسيين من جديد إلى البر . ولكن الوفاق لم يستمر طويلا بين عمر بن هلال والجند الأندلسى الذى أثار خواطر أهل الاسكندرية – كأى جند مجتمع فى مدينة من المدن – بما كان يقوم به الرجال من أعمال نسبت إلى الافساد . وكان بين الطرفين نزاعات ودماء حتى اضطر ابن هلال إلى اعادتهم إلى سفنهم (١) .

ولم يتقبل الأندلسيون هذا الاجراء فتربصوا بالوالى وساعدتهم ظروف المدينة المضطربة التى انتشرت فيها أعمال السلب والنهب حتى قامت جماعة من المتطوعة بحفظ الأمن والنظام تحت شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسمى هؤلاء أنفسهم بالصوفية . وكان من الطبيعى أن ينتهى الأمر بالصدام بين الصوفية بقيادة زعيمهم أبى عبد الرحمن وبين الوالى ، وأن يعرض الاندلسيون خدماتهم على الصوفية وأن يضموا إلى جانبهم أيضاً العرب اللخميين فى المنطقة . وتمخضت هذه الأحداث عن مقتل الوالى الحدبجى ، ولم ينته العام التالى (سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٦ م) الا وكان الاندلسيون قد تخلصوا من العرب اللخميين بقوة السلاح كما استخلصوا الاسكندرية لأنفسهم . وبعد أن تركوا زعيم الصوفية يدير شئون المدينة لبعض الوقت حتى أثبت فشله هو وجماعته ، انتهى الأمر بأن تخلصوا منه هو الآخر (٢) واستقلوا بالمدينة التى صارت أشبه ما تكون بامارة اندلسية من امارات الطوائف فى مصر ، طوال أكثر من عشر سنوات .

ونجح المحاربون البحريون فى السيطرة على اقليم الاسكندرية ، ومنعوا اللخميين من الرجوع إلى أرض اسكندرية ، كما هزموا عرب بنى مدلج

---

(١) الكندى ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٢) الكندى ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

ولم يسمحوا لهم بالعودة إلى مواطنهم حول الاسكندرية الا بعد أن اعترف والى الفسطاط بالأمر الواقع . وهكذا ظل الأندلسيون يسيطرون على الاسكندرية ويشتركون في الصراعات الدائرة من أجل امارة الفسطاط - إلى سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م حينما أرسل الخليفة المأمون قائده الكبير عبد الله ابن طاهر بن الحسين لاقرار الأمور في مصر . ونجح ابن طاهر في اجلاء الأندلسيين عن الاسكندرية صلحاً ، فابحروا إلى جزيرة اقريطش (كريت) التي استولوا عليها ، وكونوا بها دولة أندلسية جديدة عاشت إلى منتصف القرن الرابع الهجرى ١٠ م أى إلى قبيل نقلة الفاطميين إلى مصر (١) .

وإذا كنا لا نعرف كيف حكم الأندلسيون الاسكندرية ، وكيف كان أسلوبهم في حياتهم اليومية طوال هذه الفترة ، فلا ريب أنهم نظموا المدينة على طريقتهم الأندلسية وحسب تقاليد المغامرين من رواد البحار . والأمر يتطلب جديداً من المعلومات لمعرفة نوع الأثر الذى تركوه في الاسكندرية وهو الأمر الذى لا يتنافى مع طبيعة الأشياء .

المغاربة في أحواز الاسكندرية قبل مجيء الفاطميين :

وبعد ذلك لا نجد ذكراً لمشاركة المغاربة والأندلسيين في أحداث الاسكندرية السياسية إلى أن ينتهى القرن الثالث الهجرى/ ٩ م . ومع مطلع القرن الرابع / ١٠ م تبدأ المحاولات الفاطمية لدخول مصر من المغرب ويأخذ بربر البحيرة يسببون المتاعب لوالى الاسكندرية (المظفر بن ذكا) . والظاهر أنهم شعروا بالحنين نحو أبناء جلدتهم بربر المغرب من الجند الفاطمى الذين تعرفوا عليهم في سنة ٣٠٢ هـ /٩١٤ م (٢) . هذا بينما أخذت

---

(١) انظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله الفاطمى ، القاهرة ١٩٤٧ ، الملحق الأول ص ٣٠٣ - ٣٠٤ (حيث يحث المعز أبا الحسن الاخشيدى على التعاون معه وحشد الاسطولين الفاطمى والمصرى لمساعدة مسلمى كريت ضد الغزوة البيزنطية) .

(٢) عن اضطراب بربر البحيرة منذ أواخر العصر الطولونى ، الكندى ، ص٢٤٣ ، وعن حملة ٣٠٢. أنظر ص٢٦٩ ، وعن إجراءات ذكا ضد المشتبه فيهم ، ص ٢٧٤ ، وعن اختلاف ذكا وبربر البحيرة ، ص ٢٧٥.

الاسكندرية تستقبل جماعات من الوافدين من «لوبية ومراقية» (برقة) اللذين نزحوا أمام القوات الفاطمية الزاحفة نحو مصر ، كما حدث فى سنة ٣٠٤ هـ ٩١٦ م (١) . ولا ندرى ماذا فعل هؤلاء المناكيد فى المدينة ، وذلك أن كثيراً من أهل الاسكندرية جلوا عنها بمجرد علمهم بدخول الجيوش الفاطمية إلى برقة (لوبية ومراقية) سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م (٢) .

وهكذا كان أهل الاسكندرية ما بين فار أمام الفاطميين ومتعاون معهم عند قدومهم ، لتنقلب الآية بعد خروجهم فيفر المتعاون ويعود الهارب ، إلى أن ينتهى الأمر بنجاح الفاطميين فى دخول الاسكندرية ـ ومصر بقيادة جوهر سنة ٣٥٨ / ٩٦٩م ، وكان لمغاربة (بربر) البحيرة ، كما رأينا ، وللجند المغربى الذى كان فى القوات المصرية ـ الذى أثار الاضطراب وكان يلجأ إلى برقة (٣) ـ دورهم فى معاونة القوات الفاطمية خلال محاولاتها المتكررة .

المرحله الثانيه : الاسكندرية مركزعلمى يتردد عليه طلبه المغاربهوالاندلسيين أيام الفاطميين والايوبيين :

وبذلك تبدأ المرحلة الثانية التى تمثل العصر الفاطمى ، عصر التشيع الذى أحدث نوعاً من القطيعة بين المشرق العباسى وبين مصر والشام والمغرب . وإذا حق لجورج مارسيه ـ فى كتابة عن العلاقات بين المغرب الاسلامى والمشرق فى العصورالوسطى (٤) ـ أن يسمى هذا العصر بالأزمة الفاطمية ، فالمعروف أن الأزمة كانت على الصعيد الرسمى بين الحكومات وليس على المستوى الشعبى . فقد ظلت العروبة والاسلام أشبه بجواز سفر يمكن بفضله التنقل بين المشرق وبين المغرب ـ حتى بعد استقلال المغرب عن الفاطميين ـ دون اعتبار للاختلافات المذهبية أو النزاعات الحكومية .

---

(١) الكندى ، ص٢٧٤ .

(٢) الكندى ، ص٢٧٥ .

(٣) أنظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، أحداث سنة ٣٢٣هـ ، ج ٣ ص٢٥٢ .

(٤) أنظر هامش٢ ص٦ .

وفيما يتعلق بالاسكندرية فبعد أن كانت ثغراً أو جبهة قتال بحرية — أصبحت على أيام الفاطميين مركزاً تجارياً عالمياً ، وتوثقت صلاتها بكل أوروبا فقدمت اليها السفن من بزنطة ومن المدن الايطالية ، كما ترددت عليها السفن الفرنسية من مارسيليا (١).

ومن الناحية العلمية ، بعد أن كانت الاسكندرية معبراً لطلاب العلم الوافدين من المغرب والأندلس فى طريقهم إلى الفسطاط والمشرق ، صارت من أهم المراكز العلمية فى العالم الاسلامى بفضل أجلة العلماء الذين استقروا فيها بتشجيع من كبار رجال الدولة الفاطمية . وعلى عكس ما كان يتوقع لم تشتهر الاسكندرية كمركز للتشيع بل ذاع صيتها كمركز لعلوم الحديث والفقه على المذهبين الشافعى والمالكى اللذين راجا فى مصر من قبل . ويرجع الفضل فى الابقاء على السنة قوية فى البلاد إلى السياسة المتزنة التى سار عليها الخلفاء الفاطميون الذين اكتفوا بجعل التشيع مذهباً رسمياً للدولة دون فرضه على سائر أبناء الشعب من غير الموظفين الرسميين .

وهكذا لم ينقطع ورود قوافل الحجاج وطلاب العلم من مالكية المغرب والأندلس إلى الاسكندرية ومصر على أيام الفاطميين . فمن أجلة من رحل فى طلب العلم منهم إلى مصر والشرق : الوليد بن بكر بن مخلد الأندلسى (توفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م) (٢) ، ومحمد بن عمر الفخار القرطبى المالكى (توفى ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م) الذى عرف بالحافظ عالم الأندلس ، والذى

---

(١) أنظر : W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. Edition française, paris, 1885, p.p. 53, 92, 94.

(٢) أبو العباس الوليد بن بكر بن مخلد العمرى (من أهل سرقسطة) . ومن الطريف أنه عندما دخل أيام الفاطميين (أيام التشريق) « كان ينقط الغين (فى لقبه فيجعله الغمرى) حتى يسلم .... وقال إذا رجعت إلى الأندلس جعلت النقطة التى على الغين ضمة » . ومما يذكر أن أبا الطاهر السلفى كان وهو فى الاسكندرية يدون بعض الأحاديث مسندة إليه . أنظر الصلة لابن بشكوال ، ترجمة رقم ١٢٩٥ ، ج ٢ ص ٥٨٢ ، وقارن النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٢٠٦ حيث يجعل وفاته فى سنة ٣٩٣ هـ .

سمع الحديث وحدث وحج وجاور (١) . وكان ممن قدم الاسكندرية منهم فى طريقه إلى الحج : القاضى أبو مطر المعافرى (توفى ٣٤٠هـ / ٩٥١ م)(٢)، وامام القيروان المالكى الذائع الصيت أبو عمران الفاسى (٣) الذى يرجع إليه الفضل فى تعرف حجاج الملثمين على عبد الله بن ياسين فقيه المرابطين ومؤسس دولتهم الأول .

والحقيقة إن علماء الأندلس ، بصفة خاصة ، لم يكتفوا بأخذ العلم بل شاركوا فى التدريس وترأسوا حلقات الدرس ومنهم حماد بن الوليد الكلاعى الذى حدث بالاسكندرية ببعض تواليفه (٤)، وأبو على الحسن بن خلف الأموى الذى سمع الناس منه بالاسكندرية سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م (٥) .

والظاهر أن خلفاء الفاطميين كانوا مضطرين أمام تمسك أبناء شعبهم بمذاهبهم السنية إلى قبول الأمر الواقع ، فعدلوا عن نشر التشيع — فى بعض الأحيان — وساعدوا علماء السنة بل وبنوا لهم المدارس ، وكذلك فعل وزراؤهم . فالخليفة الغريب الأطوار ، الحاكم بأمر الله، عندما أراد اكتساب العامة إلى جانبه ، «أمر بعمارة دار العلم وفرشها ونقل اليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السنة شيخين أحدهما أبو بكر الأنطاكى، وخلع عليهما.. وجمع الفقهاء والمحدثين اليها.. وأظهر الميل إلى مذهب الامام مالك، والقول به(٦).

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص٢٦٨ (وأنظر ابن بشكوال ، الصلة حيث يرد ذكره فى ص١٥١) .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٠٤ .

(٣) موسى بن عيسى بن أبى حاج الغفجوى (الورفجومى ؟) الفاسى . طلب العلم بالأندلس وحج وسمع بمكة ومصر والقيروان كما زار بغداد سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م. كان من أحفظ الناس وأعلمهم. جمع حفظ المذهب المالكى وحفظ حديث النبى وكان يقرى القرآن بالسبعة ويجودها مع المعرفة بالرجال والمعدلين منهم والمجرحين (٣٦٨ — ٢٩ — ٤٣٠هـ / ٩٧٨ — ٧ — ١٠٣٨م) أنظر الصلة لابن بشكوال ، ترجمة رقم ١٢٢٣ ، ج ٢ ص٥٥٢ وما بعدها .

(٤) نفح الطيب للمقرى ، ج ١ ص٥٨٦ .

(٥) أنظر حسن المحاضرة للسيوطى ، ص٢٢٨ .

(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، أحداث سنة ٤٠٠هـ ، ج ٤ ص ٢٢٢ .

هذا ، ولو أنه قتل العالمين بعد ذلك وأغلق دارالعلم، كما تقول الروايات (١).

ولقد أمدت مكتبة دار العلم الاسكندرية بالكثير من كتبها التى سيرت فى النيل سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م ، عندما اضطربت أحوال القاهرة المالية واستولى كبار رجال الدولة على كتب المكتبة وفاء لبعض ديونهم . فقد صارت هذه المكتبة من نصيب عماد الدولة بن أبى الأفضل ابن المحترق الذى حملها معه إلى الاسكندرية حيث أقام (٢) ، ثم ان الكتب نقلت بعد وفاته إلى بلاد المغرب (٣) ، مما يعنى أن علماء المغاربة والأندلسيين كان لهم بالاسكندرية شأن وأى شأن .

ونقل الكتب إلى الاسكندرية يعنى أن الثغر أخذ ينافس العاصمة كمركز علمى — بعد أن بدأ الضعف على خلفاء الفاطميين وأخذ الوزراء يستبدون بهم . ولقد بدأت أولى معالم هذه المنافسة عندما بنى الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى جامع الاسكندرية — المشهور حالياً بجامع العطارين — فى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م (٤) .

مشاهير علماء الاسكندرية ومشايخها على أيام الفاطميين والأيوبيين :

وأول من ظهر من المشايخ الأعلام فى الاسكندرية — بعد ذلك بقليل — أندلسى من أهل الثغر الأعلى حيث مدينة طرطوشة ، هو العالم المشهور الشيخ أبو بكر الطرطوشى ، الفقيه الصوفى المالكى الأندلسى (توفى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) (٥) ، صاحب الضريح المعروف بشارع الباب الأخضر ، والذى أعطى اسمه لذلك الحى من منطقة الجمرك . عرف الشيخ

---

(١) نفس المصدر ، ج٤ ص٢٢٣ .

(٢) أنظر المقريزى ، الخطط ، ط مصر ١٣٢٤ ، ج٢ ص٢٥٤ ، وأنظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، ج٢ ص ٢٩٥.

(٣) نفس المصدر .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص١١٩.

(٥) أنظر الصلة لابن بشكوال (محمد بن الوليد بن خلف) ترجمة رقم ١١٥٣ ، ص٥١٧ وقارن النجوم الزاهرة ، ج٥ ص٢٣١ ، وأنظر نفح الطيب للمقرى، ج١ ص٣٦٨ — ٣٦٩.

الطرطوشى بالزهد والورع والتدين ، كما كان متواضعاً متقللا من الدنيا قوالا للحق ، راضياً باليسير (١) ، وشيخنا هو مؤلف كتاب «سراج الملوك» فى تنظيم الدولة وأدب المجتمع ، وهو أيضاً صاحب كتاب آخر يعرف بكتاب «سراج الهدى» الذى يصفه ابن خلكان بأنه حسن فى بابه (٢) والذى ربما كان موضوعه بعض أبواب التصوف الذى يتضمنها الكتاب الأول — كما نستشعر .

ولقد عاصر الطرطوشى بالاسكندرية المقرىء المجود أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى بكر عتيق بن خلف المعروف بابن الفحام (توفى ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) . وابن الفحام صقلى الأصل سكن الاسكندرية وصار من شيوخ قرائها حتى قصده الناس من النواحى لعلو اسناده وإتقانه ، وله تأليف سماه «التجويد» فى القراءات السبع (٣) . ومن المعاصرين أيضاً الفقيه المحدث أبو الحجاج بن عبد العزيز الميورقى الأصل ثم الاسكندرى (توفى سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م) (٤) ، وابن الحطاب وهو محمد بن أحمد بن ابراهيم الرازى ثم المصرى (توفى ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م) الذى صار شيخ الاسكندرية وأحد العدول بها ، كما صار مسند الديار المصرية (٥) . ومنهم أيضاً أبو الحسن بن مشرف الأنماطى (٦) .

وعلى أوائل أيام الطرطوشى ارتبط اسمه باسمى علمين من أعلام

---

(١) نفس المصدر .

(٢) وفيات الأعيان ، ترجمة رقم ٥٧٧ ، ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٤٧ ، وانظر السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ١٧٢ (ابن الحطاب) .

(٦) انظر ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ترجمة طارق بن موسى المخزومى البلنسى الذى سمع بالاسكندرية عن الطرطوشى قبل سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م (رقم ٩٢٩ ، عن الطرطوشى ومعاصريه: ابن مشرف والرازى والسلفى) وانظر نفح الطيب ، ج ١ ص ٥٨٧ .

الاسلام : أولهما مشرقى ، وهو حجة الاسلام أبو حامد الغزالى الطوسى — صاحب إحياء علوم الدين وأستاذ النظامية فى بغداد — الذى يقال إنه حضر إلى الاسكندرية سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م) ، وهو فى طريقه إلى المغرب للقاء يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين (١) . وثانيهما مغربى بربرى ، وهو محمد ابن تومرت (توفى ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م) الذى أقام بالاسكندرية فى ذلك الوقت ، وهو فى طريق عودته إلى المغرب ليقوم بدعوته التى انتهت بقيام دولة الموحدين فى المغرب والأندلس . ولقد حضر ابن تومرت دروس الطرطوشى بالاسكندرية ، وكان وهو فى الطريق إليه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويلقى من الناس بسبب ذلك الكثير من العنت (٢) . هذا ، وإذا كانت بعض الروايات غير الموثوق بها تقول إن الفرصة سنحت لابن تومرت ليلقى الغزالى بالاسكندرية (٣) ، فان ذلك يعنى — على كل حال — ان الاسكندرية كانت مركزاً علمياً مرموقاً ، وأنها كانت محط أنظار طلاب العلم والمعرفة من المغاربة .

ومن الأندلسيين والمغاربة الذين التقوا بالطرطوشى وأصحابه من علماء الاسكندرية محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربى المعافرى (ولد فى شعبان ٤٦٨ هـ / مارس ١٠٧٦ م وتوفى بفاس ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) الذى أقام عند الطرطوشى ، وهو فى صدر شبابه وبصحبة والده ، والذى غادر الاسكندرية إلى الاندلس بعد وفاة والده فى أول سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م(٤)

(١) انظر ابن خلكان ، ط بيروت تحقيق احسان عباس ، ج ٤ ص ٢١٧ .

(٢) انظر نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الاقصى ، نشر بروفنسال ، باريس ، ١٩٤٨ ، ص ٣٥ (نص من تاريخ الموحدين لمؤلف مجهول) . وابن القطان ، نظم الجمانة ، تحقيق محمود مكى ، منشورات كلية الآداب ... الرباط ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) انظر عباس بن ابراهيم ، الاعلام ، ج ٢ ص ٣٦٠ — ٣٧٩ ، وانظر عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، القسم الاول ، ص ١٦١ .

(٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١١٨١ ، ص ٥٣١ ، ابن خلكان ، ط . التجارية ، ترجمة رقم ٥٩٨ ، ج ٣ ص ٤٢٣ — ٤٢٤ ، ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ط مصر ، ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، وانظر نفح الطيب المقرى ، ج ١ ص ٣٤١ — ٣٤٥ (رحل إلى المشرق سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م ، وسمع بالاسكندرية من الأنماطى ، وله تآليف فى شرح موطأ مالك بن أنس) .

ومنهم محمد بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن بشر الانصارى المعروف بالميورقى الذى لقى الطرطوشى سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م (١) ، ومحمد بن ابراهيم بن أحمد الغسانى الذى توفى بمراكش سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م (٢) ومحمد بن عبد الرحمن بن الطفيل الأشبيلى (توفى حوالى ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م)(٣) ، وطارق بن موسى بن يعيش المخزومى (البلنسى) الذى قام برحلة ثانية إلى المشرق سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م (٤) .

وعندما وصل الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى (ولد سنة ٤٧٠ هـ / وتوفى ٥ ربيع الآخر ٥٧٦ هـ / ١١٨٠م) إلى الاسكندرية فى سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م — بعد أن طاف الدنيا حافياً ولقى المشايخ — تأكدت نهضة الاسكندرية العلمية . إذ استقر السلفى — والسلفى لقب فارسى يعنى الثلاث شفاه لأنه مركب من كلمتى «سى» بمعنى ثلاث و«لبة» أو «لفه» بمعنى شفه لأن الشيخ كان مشقوق الشفه العليا (٥) — بالثغر وأخذ ينشر تعاليم المذهب الشافعى الذى كان قد انتشر انتشاراً عظيما فى المشرق ، وخاصة بعد بناء المدارس النظامية فى بغداد ونيسابور . وفى سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م أنشأ الوزير العادل على بن السلار مدرسة لتدريس الفقه الشافعى عرفت باسم المدرسة العادلية ، استقر للتدريس فيها الحافظ السلفى (٦) ، وبذلك بدأت مدرسة الحديث السكندرية تنافس مدارس عواصم المشرق .

---

(١) انظر نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٠١ .

(٢) انظر عباس بن ابراهيم ، الاعلام ، ج ٣ ص ٢ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٨ .

(٤) انظر نفح الطيب ، ج ١ ص ٥٨٧ .

(٥) انظر ابن خلكان ، ترجمة ٤٤ ج ١ ص ١٠٧ ، وانظر العبدرى الرحلة ، نشر محمد الفاسى ، ص ١١٤ ، وقارن النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٨٧ .

(٦) ابن خلكان ، ترجمة السلفى رقم ٤٤ ، ج١ ص ١٠٥ ، وترجمة العادل بن السلار ، رقم ٤٨٥ ج٣ ص ٤١٧ . وقارن ابن قنفذ القسنطينى ، كتاب الوفيات ، بيروت ١٩٧١ ، الذى يقول « وسلفة بكسر السين المهملة قرية بالمشرق. وعن المدرسة العادلية ومن كان يتردد عليها من المغاربة ليأخذ عن السلفى أنظر معجم السفر للسلفى ، مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية المصور بكلية الآداب ، ج ٢ ص ١٣١ (ترجمة عبد الله بن الحسن المذرى) ، ج ٢ مجلد ١ ص ١٣١ —١٣٢ (ترجمة عبد بن محمد الزناتى الضرير) : ج ٢ مجلد ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ (عن عبد الله بن عثمان الكزولى) ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ح ٨ قسم ١ ، ٤ ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

وإلى جانب مدرسة السلفى بل وقبلها قامت بالاسكندرية مدرسة للحديث عرفت بالعوفية نسبة إلى الفقيه أبى الطاهر بن عوف الزهرى المالكى (توفى ٥٨١هـ / ١١٨٥ م) (١) ، كما عرفت أيضاً بالحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ إذ بناها وزيره رضوان بن ولخشى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م لتدريس الفقه المالكى (٢) :

ولقد شهد كل من ابن عوف والسلفى نهاية الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين الذى كان يجلهما ويقدر علمهما حتى أنه كان عند قدومه إلى الاسكندرية يحضر مجلسيهما بصحبة أبنائه (٣) .

واجتذبت مدرسة الحديث السكندرية هذه المغاربة والأندلسيين من كل صوب وحدب ، منهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبى من أهل مرسية (توفى ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م) الذى لقى أبا الطاهر ابن عوف ، كما لقى ابن الحضرمى والحرانى وأبا الفضل الغزنوى وأبا الرضا أحمد بن طارق ابن سنان (٤) ، ومنهم أبو عمر أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر النفزى الشاطبى (ولد ٥ شوال سنة ٥٤٢ هـ / ٢٧ فبراير ١١٤٨ م) الذى لقى السلفى وابن عوف والذى توفى بالأندلس فقيداً فى وقعة العقاب المشئومة سنة ٦٠٩ / ١٢١٢ م (٥) . وممن كان يحضر مجالس السلفى بالاسكندرية

---

(١) عن ابن عوف أنظر ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ص ٩٥ – ٩٦ ، حسن المحاضرة ، ص ٢٠٨ (أبو الطاهر اسماعيل بن مكى بن اسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى الاسكندرانى) .

(٢) عن انشاء المدرسة الحافظية انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، المخطوط المصور بكلية الأداب ، ورقة ١٣٨ ظهر .

(٣) مرآة الزمان ، ح ٨ قسم ١ ص ٣٦٦ ، (عن سماع صلاح الدين الموطأ منه) ، حسن المحاضرة ص ٢٠٨ وأنظر ابن خلكان ، ط . النهضة المصرية القاهره ١٩٤٨ ، ح ٢ ص ٤١٥ (عن سماع الملك العزيز بن صلاح الدين من السلفى وابن عوف الزهرى) وقارن النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١٢٧ .

(٤) عباس بن ابراهيم ، الإعلام ، ج ١ ص ٢٣٦ .

(٥) انظر ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ترجمة ٢٦٢ ، وقارن عباس بن ابراهيم الاعلام ، ج ١ ص ٣٤٤ – ٣٤٥ حيث الاسم أحمد بن محمد بن هارون وحيث يختلف من أخذ عنهم من الشيوخ بمصر الذين ضمن ذكرهم برنامجيه « النزهة والتعرف بشيوخ الوجهة » ، و « ريحانة النفس وراحة الأنفس فى ذكر شيوخ الأندلس » . وكان النفزى الشاطبى من أكابر المحدثين ، حافظا للموطأ والبخارى ، ذا حظ وافر من الأدب ، كما كان صالحا متقشفا زاهدا فى الدنيا .

أبو محمد عبد الله البنوشي المعروف بالسابح وهو افريقي جاب المغرب والمشرق ثم استوطن الاسكندرية حيث بنى مسجداً وصهريجاً للسبيل من أموال المسلمين (١) . ومن أشهرهم أبو الحسن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الرهبيل (توفى ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م) الذى سمع فى سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م من السلفي والحضرمي ، كما أخذ الناس عنه . ولقد تزاحم طلبة العلم بالاسكندرية على ابن الرهبيل لسماع مؤلفات أبي عمر والمقرى ، وصارت له بذلك عندهم وجاهة (٢) . وآخر من أخذ عن السلفي من المغاربة هو القاضي أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد السلام بن المقدسية السفاقسي (توفى فى جمادى الأولى ٦٥٤ هـ / مايو – يونية ١٢٥٦ م) (٣) . وتقول بعض الروايات أن السلفي أجاز قطب الصوفية الشهير – سلطان العارفين – ابن العربي ، صاحب الفتوحات المكية فى معرفة أسرار المالكية ، الذى كان فى مقتبل عمره عند وفاة السلفي (٤) .

المرحلة الثالثة : عصر التصوف والرحالة المغاربة :

وبذلك تنتهي المرحلة الثانية من التقسيم الذى اقترحناه ، وتبدأ القرون الثلاثة الأخيرة التي تكاد تعادل دولة المماليك (مع بعض من الدولة الأيوبية). وإذا كانت المرحلة الأولى قد اتصفت بالنسبة للاسكندرية بأنها عصر الرباط والمذاهب المعارضة للخلافة من المالكية إلى الخارجية ، وبأنه كان للمغاربة والأندلسيين نشاطهم فيها على المستويين العلمي والحربي ، وإذا كانت

---

(١) أنظر معجم السلفي ، مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية المصور ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ج ٢ ص ١٢٩ – ١٣٠ .

(٢) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج١ ص ٢٦١ – ٢٦٢ ترجمة رقم (٦٩٣) ، نفح الطيب المقرى ، ج١ ص ٥٨٥-٥٨٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ٤٠ .

(٤) عن ابن عربي (أو ابن العربي) وهو أبو بكر محيى الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن العربي الأندلسي الصوفي الفقيه الظاهري المشهور (ولد بمرسيه سنة ٥٦٠ هـ / ٤ – ١١٦٥ م وتوفى فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ/١٧ نوفمبر سنة ١٢٤٠ م) صاحب التصنيفات فى التصوف أنظر ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ط . النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ ترجمة رقم ٤٣٩ ص ٤٧٨ – ٤٨٢ ، عباس بن ابراهيم ، الأعلام ، ج١١٩ .

المرحلة الثانية قد بدأت بهبوب رياح التشيع الفاطمى على الإسكندرية مصحوبة بنشاطات المغاربة العسكرية ومؤثراتهم الاجتماعية التى لا نعرف حتى الآن الكثير منها وانتهت بانشاء مدارس الحديث فى المدينة ، فإن المرحلة الثالثة والأخيرة يمكن أن تسمى بعصر التصوف السكندرى . وهذا التصوف وإن كان يمكن أن يوصف بأنه مغربى أو بلفظ أصح أندلسى لحما ودماً ، فان الظاهرة التى تستحق الذكر هى أنه يختلف تماماً عن تصوف المرحلة الأولى أى التصوف النشيط الايجابى الذى تميزت به رباطات السواحل ومحارسها المجاهدة . وذلك أن هذا اللون من تصوف القرون الاسلامية المتأخرة اتصف بالسلبية أو الانطوائية إذ انقلب الجهاد فيه إلى مجاهدة النفس ، كما سنرى . ومن أهم مصادر هذه الفترة ، كما سبقت الاشارة ، كتب الرحلة المغربية ، ولهذا قلنا أنه عصر الرحالة المغاربة أيضاً .

فخلال هذه الفترة استمرت رحلات المغاربة والأندلسيين — وخاصة أهل المغرب الأقصى — إلى المشرق للحج وطلب العلم ، وظلوا يزورون الاسكندرية للاستزادة من الحديث وفقه مالك بن أنس . ومنذ بداية القرن السابع الهجرى / ١٣ م أخذوا يدونون رحلاتهم ، ويسجلون فيها مشاهداتهم وأسماء مشايخهم المشارقة إلى جانب أساتذتهم المغاربة حتى صارت كتب الرحلات أشبه بكتب التراجم أو فهارس العلماء التى تسمى عند المغاربة أيضاً بالبرنامج . وعلى عكس ما يمكن أن يظن من أن هـذه الرحلات قد تعنى افتقار بلاد المغرب إلى العلم فان سعى علماء المغرب فى جمع الحديث وطلب العلم يؤكد عناية فائقة بالعلوم ، وخاصة بعد أن انتقل مركز الثقل السياسى إلى البلاد المراكشية بقيام دولتى المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس جميعاً . وبفضل هجرة علماء الأندلس أصبحت مدينة مراكش حيث جامع على بن يوسف ثم جامع عبد المؤمن — الكتبية حالياً — مركزاً علمياً زاهراً كما زاد ازدهار العلوم فى فاس حيث جامع القرويين .

ولقد افتخر المغاربة بذلك فقالوا : «إن جامع القرويين يكاد ينبع العلم

من حيطانها » ، كما قالوا : إن «جامع على بن يوسف يكاد البر ينبع من حيطانها» ، وإن «حضرة مراكش هى بغداد المغرب» . ولقد عبر المغاربة عن مراحل رحلة العلم أو هجرته من المشرق واستقراره فى بلادهم عندما شبهوا العلم بالخبز ، وقالوا ، إنه « ولد بمكة ، وربى بالمدينة ، ودق بمصر ، وغربل بالأندلس ، وعجن بمراكش ، وأكل بفاس»(١).

وحق للمغاربة أن يعتزوا برحلاتهم فى سبيل العلم ، وفى ذلك يستجل الرحالة العبدرى ما أنشده تاج الدين الغرافى فى الاسكندرية أثناء قيامه برحلته سنة ٦٨٨ ﻫ / ١٢٨٩ م :

علم الحديث فضيلة تحصيلها ... بالسعى والتطواف فى الأمصار
فاذا أردت حصولها بإجازة ... فقد استعضت الصفر بالدينار (٢)

وفى هذا المعنى يقول العبدرى التلمسانى المعروف بالأبلى (ولد ٦٨١ ﻫ / ١٢٨٢ م توفى ٧٥٧ ﻫ/ ١٣٥٦ م) الذى حج وركب البحر من تونس إلى الاسكندرية قبيل سنة ٧١٠ﻫ وهو الذى أخذ عنه ابن خلدون : « إنما أفسد العلم كثرة التآليف ، وأذهبه بنيان المدارس.. وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التى هى أصل جمع العلم .. وأما البناء فلأنه يجذب الطلبة لما فيه من مرتب الجرايات فيقبل بهم على مايعينه أهل الرياسة للأجراء والقراء منهم.. ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة ..» (٣) . وهذا رأى تربوى (بيداجوجى) له وزنه ، فبمثله نادى

(١) انظر عباس بن ابراهيم ، الإعلام ، ج ١ ص ٧١ ، ٧٤ ، ١٥٩ على التوالى .

(٢) الرحلة (نشر جامعة محمد الخامس بمعرفة محمد الفاسى ، ص ١١١ ، وانظر عباس بن ابراهيم ، الاعلام (عن رحلة العبدرى) ، ج ٣ ص ٢١٦ . والحقيقة إن الاجازة كان لها خصومها — وخاصة بين الرحالة . فمما يروى عن أبى ذر بن أحمد الهروى أنه كان يقول : « لو صحت الاجازة لبطلت الرحلة » (ابن بشكوال ، الصلة ؛ ترجمة سليمان بن خلف بن سعد الباجى القرطبى (٤٠٣ ﻫ/ ١٠١٢ م — ١٩ رجب ٤٧٤ ﻫ/ ٢٤ ديسمبر ١٠٨١ م) رقم ٤٤٩ ، ص ٢٠١ . أما عن المدافعين عن الاجازة فمنهم الوليد ابن بكر بن مخلد العمرى السرقسطى (توفى ٣٩٢ﻫ/ ١٠٠٢م) الذى ألف فى جواز الاجازة كتابا سماه « الوجازة فى صحة القول بالاجازة » (ابن بشكوال ، ترجمة رقم ١٢٩٥ ص ٥٨٢) .

(٣) عباس بن ابراهيم ، الإعلام ، ج ٣ ص ٢٧٥ .

حديثاً – ليون تولستوى فى كتابه «ما هو الفن» عندما نعى على الدولة إقامة مدارس للفنون (التشكيلية) على زعم أنها تحد من انطلاق المواهب وتضع الطلبة فى قوالب جامدة (١) . وكثير من أساتذة الجامعة حالياً يشكون من عقم طريقة التدريس بالجامعات فى بلادنا ، بعد أن كثر عدد الطلاب وحل الكتاب محل الأستاذ إلى حد كبير . ويعتنق المقرى مثل هذا الرأى عندما ينادى بالنهى عن الأخذ من المختصرات ويحض على الرجوع إلى أمهات الكتب حتى تستند الأحكام العلمية إلى أصولها الصحيحة (٢) .

والحقيقة إن رحلات المغاربة تعتبر من أهم مصادر موضوعنا لما تحويه من مادة حية وليدة المشاهدة والواقع . ومن أقدم وأشهر أصحاب الرحلات ابن جبير الأندلسى (محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى أو الشاطبى – توفى ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) الذى قام برحلات ثلاثة إلى المشرق ، وظل يتردد «بين الحرمين وبيت المقدس والاسكندرية ، وهو يزداد فضلا وورعاً وعلماً إلى أن مات بالاسكندرية » (٣) . ولقد وصف ابن جبير الإسكندرية وعرف ببعض منشآتها المدنية على أيامه ، مثل : فندق الصفّار الذى نزل فيه والصبانة القريبة منه . ويا حبذا لو كان أطال فى مثل هذه المعلومات التى تندر أو تنعدم فيما لدينا من المصادر . ولقد بين ابن جبير دقائق العمل «الجمركى» من تدوين أسماء الركاب والجهات التى قدموا منها ثم التفتيش وتحصيل الضريبة الجمركية (المكس) منهم ، وكان معظمهم من المغاربة الذاهبين إلى الحج . كذلك وصف أعمال صلاح الدين فى سبيل نشر العلم ورعاية طلبته بالاسكندرية ، من العناية بالمدارس والربط وصرف الجرايات (٤) . وما يهمنا بصفة خاصة من رواية ابن جبير تلك الفقرات التى يقول فيها « ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان فى كل يوم ، بالغاً ما بلغوا ، ونصب

---

(١) أنظر كتابة « ماهو الفن » (بالفرنسية) .

(٢) أنظر عباس بن ابراهيم ، الاعلام ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

(٣) نفح الطيب ، ج ١ ص ٥٧٥ – ٥٧٨ ، وانظر عباس بن ابراهيم ، الاعلام ، ج ٣ ص ٩٠ .

(٤) ابن جبير ، الرحله (تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر) ص ٧ ، ١٠ .

لتفريق ذلك كل يوم انساناً أميناً من قبله . فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد ، بحسب القلة والكثرة ، وهكذا دائماً . ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك » (١).

من هذا النص يفهم أن الاسكندرية انفردت دون سائر مدن مصر بموقف خاص بالنسبة للمغاربة فقد كانت فيها جالية دائمة من فقراء المغاربة الذين يأخذون معونة عينية من الدولة بلغ أفرادها ألف شخص وأكثر ومع أننا لا ندرى إن كان هؤلاء المغاربة يمثلون جماعة خاصة من فقراء الوافدين منهم على الاسكندرية ، فان هذا لا يمنع أن يكون من بين هؤلاء طلبة العلم والقادمين فى طريقهم إلى أداء فريضة الحج . فهذا ما يفهم من نص آخر من الرحلة يقول إن صلاح الدين لم يستمع إلى نصح الناصحين له ، الذين قالوا أن من بين من يأخذون الجراية اليومية من المغاربة المياسير الذين ليسوا فى حاجة اليها ، وذلك عندما تهيأ له رؤية بعض القادمين من طرابلس للحج «وقد ذهبت رسومهم عطشاً وجوعاً»، دون نظر إلى ما كانوا يحملونه من المال (٢) .

واستمرت رحلات علماء المغاربة ابتداء من القرن السابع الهجرى / ١٣ م ، واستقبلت الاسكندرية الكثيرين منهم ممن وفدوا عن طريق البحر كما فعل ابن جبير ، ،وعن طريق البر كما فعل العبدرى فى رحلته سنة ٦٨٨ هـ /١٢٨٩ م ثم ابن بطوطة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ ، أوعن طريق البحر والبر جميعا كما فعل البلوى سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م فى رحلته المعروفة « بتاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » . وأغلب الظن أن طلب العلم لم يكن وحده سبب اتجاه الأندلسيين والمغاربة نحو المشرق والاسكندرية منذ القرن الخامس الهجرى / ١١ م ، إذ اتخذت الرحلة بالنسبة للأندلسيين شكل هجرة أمام ضغط الاسبان العنيف على المسلمين إثر نجاحهم فى حرب الاسترداد المعروفة «بالركونكستا» ، ولا سيما بعد سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م، التى حققوا فيها أكبر انتصاراتهم على جيوش الموحدين

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠ .

(٢) ابن جبير ، ص ١١ .

فى موقعة حصن العقاب (Las Novas de Tolosa) التى فقد فيها أبو عمر أحمد بن هارون النفزى الشاطبي الذى لقى — كما رأينا — أبا الطاهر السلفى فى الاسكندرية وغيرها من علماء مصر ، والذى كان من أكابر المحدثين وجلة الحفاظ المسندين للحديث والأدب بلا مدافعة (١)

الاسكندريه مدرسة للتصوف :

ويقول شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى الشهير بسبط ابن الجوزى (توفى ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) صاحب كتاب «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» فى أحداث سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م : «وفيها قدمت القاهرة وسافرت إلى الاسكندرية فى هذه السنة ، فوجدتها كما قال الله تعالى : ذات قرار ومعين ، معمورة بالعلماء مغمورة بالأولياء الذين هم فى الدنيا شامة : كالشيخ محمد القبارى والشاطبي وابن أبى شامة (٢) ويردف أبو المظفر ذلك قائلا : وهى أولى بقول القيسرانى فى وصف دمشق :

أرض تحل الأمانى من أماكنها بحيث تجتمع الدنيا وتفترق
إذا شدا الطير فى أغصانها وقفت على حدائقها الأسماع والحدق

ولكن ابن تغرى بردى يعلق على ذلك بقوله : وأين قول أبى المظفر من قول مجير الدين محمد بن يعقوب بن على بن تميم فى وصف الاسكندرية :

لما قصدت سكندرية زائراً ملأت فؤادى بهجة وسرورا
مازرت فيها جانباً إلا رأت عيناى فيها جنة وحريراً (٣)

والحقيقة إن معظم مشايخ الاسكندرية الحاليين هم من أهل المغرب

(١) انظر فيما سبق هامش (١ ص ٢٩) .
(٢) انظر مرآة الزمان ، ط . حيدر اباد ، ١٩٥٢ ، جـ ٨ قسم ٢ ، ص ٧٤١ — ٧٤٢ (حيث القراءة محمد الساوى بدل القبارى) ، وقارن النجوم الزاهره ، جـ ٦ ص ٣٤٧ (حيث القراءه ابن أبى أسامة بدل ابن أبى شامة) .
(٣) نفس المصدر .

والأندلس الذين وفدوا فى القرن السابع الهجرى / ١٣ م على الخصوص ، ولو أن رائدهم الطرطوشى استقر بالاسكندرية منذ أواخر القرن الخامس /١١ م . فلقد ذكرنا وفاة ابن جبير بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وكان قبره يزار ، كما كان الدعاء عنده مستجاباً (١) مما دعا بعض الباحثين إلى الظن بأن ضريح سيدى جابر هو فى الحقيقة ضريح ابن جبير ، والفكرة يمكن أن تكون مقبولة فعلا . أما سيدى الشاطبى فهو أندلسى من مدينة شاطبة (من مدن الثغر الأعلى) انقطع للعبادة والتعليم بالثغر حيث كان ذائع الصيت فى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م حينما زار سبط ابن الجوزى الاسكندرية . وكان موضع ضريح الشاطبى — الموجود الآن فى عمارة الأوقاف القريبة منا — رباطاً على شاطىء البحر سكنه الشيخ ومريدوه ، عرف برباط سوار (٢) .

أما سيدى القبارى فهو أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى اللكى المشهور بالقبارى الاسكندرانى ، وهو مغربى والمعروف أنه توفى فى ٦ شعبان سنة ٦٦٢ هـ / ٥ يونيه ١٢٦٤ م(٣)، أى قبل الشاطبى بعشر سنوات . أما سيدى المرسى أبو العباس (أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى) — تلميذ أبى الحسن الشاذلى المغربى — فهو أندلسى من مدينة مرسية بشرق الأندلس ، قدم من بلدة مرسية وأقام بالاسكندرية وبها توفى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م(٤)، أى بعد وفاة السيد البدوى (المغربى الفاسى) شيخ طنطا الشهير (سنة ٦٧٥ هـ ١٢٧٦ م) بحوالى عشر سنوات (٥) .

---

(١) نفح الطيب ، جـ١ ص ٥١٥ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م — رمضان ٦٧٢ هـ / مارس ١٢٧٤ م عرف بالزهد والإنقطاع إلى الله تعالى . وتتلمذ على شاطبى آخر أقدم منه وهذا الأخير كان تلميذاً لأبى العباس الراسى أنظر نفح الطيب ، ح ١ ص ٣٩٤ ، حسن المحاضرة ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٢٤٣ ، ص ٢٤٥ (عن الذهبى) .

(٣) اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، ح ٢ ، ص ٣١٥ — ٣١٦ ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٣١ . وعن لك وهو اسم مدينتين : أحداهما فى جليقية والثانية من نواحى برقة بين الاسكندرية وطرابلس الغرب وكانت تابعة لعمل الاسكندرية زمن ابن الشباط (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢م) . أنظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ح ٤ ، ٣١٥ — ٣١٦ ، ابن الشباط ، وصف الأندلس ، تحقيق مختار العبادى ، طبع مدريد ١٩٧١ ، ص ١٥١ ، ص ١٧٧

(٤) حسن المحاضرة ، ص ٢٤٠ ، نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤١٩ وما بعدها .

(٥) حسن المحاضرة ، ص ٢٤٠ .

هؤلاء المشايخ من الزهاد والعباد جعلوا من اسكندرية القرن السابع الهجرى / ١٣م مدرسة للتصوف بعد أن كانت فى القرن السادس / ١٢م مدرسة للفقه والحديث بفضل الزهرى والسلفى . وبينما أخذت الاسكندرية الحديث — ابتداء — من المشرق نجد أنها أخذت تستقبل التصوف من المغرب . والحقيقة إن بلاد الأندلس والمغرب كانت — كما سبقت الاشارة — موطن التصوف دون منازع ، بسبب الصراع المستمر مع الأسبان فى الأندلس ، الذى اتخذ شكل حرب صليبية مبكرة . ولقد ترتب على ذلك أن التصوف المغربى الأول كان من النوع الايجابى العنيف الذى يتمثل فى مجاهدة الأعداء فى الثغر أو الرباط ، والعزوف عن الدنيا بطلب الاستشهاد ويكفى النظر فى بعض كتب التراجم الأندلسية مثل صلة ابن بشكوال لنرى كيف كان عدد كبير من العلماء الزهاد من أهل البلاد ومن المشرق يعتبرون الرباط فى ثغور الأندلس الثلاثة ، وهى : الثغر الأعلى مقابل مرقسطة ، والأوسط مقابل طليطلة ، والأدنى مقابل لشبونة فى جنوب البرتغال الذى كان يعرف «بالغرب» ، من أعمال البر والتقرب إلى الله . فنهم أحمد بن على بن هاشم المقرى المصرى (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م — آخر شوال ٤٤٥ هـ / ١١ فبراير ١٠٥٤ م) الذى رحل إلى الأندلس ودخل سرقسطة مجاهداً سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م (١) .

وكان ثغر طليطلة يحظى بعدد كبير منهم ، مثل : أحمد بن محمد الأموى المعروف بابن ميمون (٣٥٣هـ/٩٦٤م— شعبان ٤٠٠هـ / مارس ١٠١٠م) الذى التزم الرباط بطليطلة بعد عودته من المشرق سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٢) ؛ وعبد الله بن محمد بن عيسى النحوى المعروف بابن الأسلمى الذى قدم طليطلة مجاهداً (٣) ، وعبد الله بن سعيد بن أبى عوف العاملى الذى استوطن

---

(١) ترجمة رقم ١٨٣ .
(٢) ترجمة رقم ٣٥ .
(٣) ترجمة رقم ٥٧٤ .

طليطلة ، وكان يرابط فى رمضان بحصن وَلْمش (١) ، ومنهم ميمون بن بد
القروى (ولد سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) الذى أتى من قيروان افريقية
ليسكن طليطلة مرابطاً بها (٢) .

أما عبد الله بن سعيد بن لباج الشنتجيالى (توفى فى ٤ رجب ٤٣٦ هـ
يناير ١٠٤٥ م) فإنه خرج من قرطبة فى صفر سنة ٤٣٣ هـ / أكتو
سنة ١٠٤١ م بنية الرباط فى الغرب (جنوب البرتغال) ، ولم يعد إلى قرط
إلا فى جمادى الأولى سنة ٤٣٦ هـ / نوفمبر ١٠٤٤م (٣) .

هذا ، كما كان منهم من جاهد بماله ، مثل : خلف بن أحمد بن خلف
الرخوى ، وهو من أهل طليطلة ، الذى أوقف (حبس) بعض أملا
ليبتاع من الغلة خيلا يجاهد عليها فى سبيل الله (٤) . أما سلمان بن ابراه
ابن هلال القيسى ، وهو من أهل طليطلة أيضاً ، فقد فرق جميع ماله وانفه
إلى الله عز وجل ولزم الثغور إلى أن توفى بحصن غُرساج حيث ذكر
النصارى كانوا يقصدونه ويتبركون بقبره (٥) .

وإلى جانب ذلك هناك ذكر لبعض العراقيين الذى شاركوا فى صلب
الحوض الغربى للبحر المتوسط ، مثل : موسى بن عبد الله بن الحسن الكو
الأصل (توفى فى ٢٧ رمضان سنة ٤٨٦ هـ / ٢٣ اكتوبر ١٠٩٣ م) الذ
صار إلى صقلية — وقتما كان النورمنديون يغزونها على العرب — ثم د
الأندلس مجاهداً (٦) .

---

(١) ترجمة رقم ٥٨٧ .
(٢) ترجمة رقم ١٢٧٨ .
(٣) ابن بشكوال الصلة ، ترجمة رقم ٥٩٣ .
(٤) ترجمة رقم ٣٧٤ .
(٥) ترجمة رقم ٤٤٥ .
(٦) ترجمة رقم ١٢٢٦ .

ولقد كان هذا التصوف فردياً فى أول الأمر ثم أنه أصبح جماعياً منظما فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١ ، ١٢ م) بقيام دولتى المرابطين والموحدين ، ودخولهما الأندلس كرد فعل لحرب الاسترداد الاسبانية التى أصبحت صليبية ثانية فى الطرف الآخر من المتوسط .

والظاهر أن فشل دولتى العباد المجاهدين (من المرابطين والموحدين) فى الوقوف أمام الأسبان الذين ظلوا يضغطون على العرب حتى سواحل المغرب ، أحدث رد فعل فى التصوف المغربى فانقلب إلى تصوف سلبى فبدلا من مجاهدة العدو أخذ الزهاد يجاهدون أنفسهم بالمبالغة فى التعبد وتعذيب الجسد . وبدلا من قهر العدو بقوة السلاح اتجهوا إلى الله يدعونه أن ينزل مقته وغضبه على أعدائه أى على أعدائهم . وفى هذه الظروف انتشرت الربط والزوايا فى بلاد المغرب ، وبعد أن كان معظمها على سواحل البحر مقابل العدو (١) انشىء الكثير منها فى الدواخل بل وفى قلب المدن الكبرى — كما كان الحال فى خانقاوات المشرق . واجتذب الزهد والتصوف كثيراً من الناس ، وهؤلاء عملوا على الرفع من شأن مشايخهم والاعتقاد فى بركتهم وفى كراماتهم ومعجزاتهم (٢) .

ومن الانصاف لمشايخ الاسكندرية من الأندلسيين والمغاربة أن نسجل أنهم عندما رحلوا عن بلادهم نحو مصر والمشرق فضلوا الإقامة بشجاعة فى الاسكندرية على زعم أنها ثغر ورباط أى جبهة قتال ، تحدوهم رغبة صادقة فى مواجهة أخطار العدو البحرى وحث الناس على الجهاد . وفيما بين ذلك كانوا ينقطعون إلى أعمال الورع والزهد والتقوى .

---

(١) انظر البكرى عن ربط سواحل المغرب ومحارسه فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ .. الخ .

(٢) عن متصوفة المغرب فى القرن السابع الهجرى انظر كتاب المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى ذكر صلحاء الريف لعبد الحق البادسى ، ترجمة كولان الفرنسية ، فى الارشيف المراكشى ، ج ٢٦ . وعن متصوفة منطقة سجلماسة (تافللت) يوجد كتاب والاحياء والإنتعاش فى تراجم سادات زاوية أيت عياش لعبد الله بن عمر بن عبد الكريم العياشى (الاعلام لعباس ابن ابراهيم ج ١ ص ١٢٢) .

ورغم اعتكاف هؤلاء الزهاد فقد كان وجودهم لازماً للمجتمع السكندرى (أو لأى مجتمع آخر فى ذلك الوقت) إذ أنهم حاولوا تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما كانوا يتعرضون للأمراء وكبار رجال الدولة ينصحونهم ويحذرونهم ويرهبونهم ، فكانوا أشبه ما يكونون بجهاز شعبى — كما يقال الآن — للرقابة على الأخلاق العامة وكذلك على الإدارة الحكومية . والمثل لذلك ما فعله الطرطوشى مع الوزير الفاطمى الكبير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى حينما وعظه بغليظ الكلام ورهبه (١) . أما ابن جبير — أو سيدى جابر فله فى الترفع عن الاستذلال لأصحاب السلطان أشعار ، منها :

من الله فاسأل كل أمر تريده ... فما يملك الانسان نفعاً ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم ... من الكبر فى حال تموج بهم سكراً
وإياك أن ترضى بتقبيل راحة ... فقد قيل عنها أنها السجدة الكبرى(٢)

أما أبو العباس المرسى ، تلميذ الشاذلى وأستاذ ابن عطاء الله السكندرى، فانه كان يدعو إلى الكسب الحلال ونبذ المال الحرام ، وكان له فى معرفة الحرام والحلال كرامات اشتهرت بين الناس (٣) . أما القبارى فكان — على عكس الكثير من العباد — نشطاً يبجل العمل فلا يأكل إلا من كده وكسب يده ، فكان يفلح بستانه فى ظاهر الاسكندرية ، منقطعاً عن الناس ويأكل من رزقه القليل،وذلك مبالغة فى الحرص على ضمان طيب طعامه (٤) .

وهكذا كان زهاد الاسكندرية — بفضل سلوكهم وطريقتهم — يفرضون نوعاً من الرقابة على الحكومة ، كما كانوا يضربون المثل للعامة من الناس

(١) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٦٩ ، وابن خلكان ، ترجمة رقم ٥٧٧ .

(٢) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٥٧٧ .

(٣) عن كرامات أبى العباس (فى معرفة طيب الطعام من خبيثه)،نفح الطيب ،جـ ١ ص٤٢١ .

(٤) انظر أبوشامة ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٣١ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، ح ٢ ، ص ٣١٥ — ٣١٦ .

فى حسن السلوك والمعاملة . والحقيقة إنه إذا كان الفقهاء والعلماء معلمين للخاصة من الناس ، فقد كان مشايخ الصوفية هؤلاء معلمين للجمهور من أبناء الشعب .

وازدهار المدرسة الصوفية السكندرية (موطنا) الأندلسية المغربية (أصلا) فى القرن السابع /١٣م لايعنى اندثار المدرسة السنية ــ مدرسة الحديث . فقد سارت تعاليم كل من المدرستين جنباً إلى جنب فى تواز وانسجام . فرغم أن هؤلاء المتصوفة اهتموا بالعلم اللدنى أو بعلم السماء إلا أنهم لم يهملوا علوم الدين ــ مثل غيرهم من صوفية المشرق الذين رفعوا عن أنفسهم التكاليف . فالمعروف أن أبا العباس المرسى كان متمسكاً بمذهبه المالكى ، وأنه كانت له قدم راسخة فى العلوم الاسلامية حتى كان يقول : «شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه» (١) . وعن هذا الطريق استمرت الاسكندرية مركزاً لعلم الحديث والعلوم النقلية .

هذا ، وعلى عكس ما هو معروف من أن الاسكندرية كانت مهداً للعلوم العقلية أو العلوم القديمة ، فإننا لا نعرف فى الاسكندرية وقتئذ من كان يهتم بالعلوم العقلية ، على عكس القاهرة التى جمع علماؤها بين العلوم النقلية وبين العلوم العقلية . وربما كان عدم اهتمام السكندريين بالعلوم العقلية راجعاً إلى تأثير المغاربة والأندلسيين الذين تعصبوا للفقه المالكى دون سواه . وربما كان اهتمام علماء القاهرة بالعلوم العقلية راجعاً إلى الأثر المشرقى بعد هجرة علماء خراسان والعراق ــ بدورهم مثل علماء الأندلس ــ نحو مصر والقاهرة أثر انهيار المشرق أيام الغزو المغولى ، منذ أوائل القرن السابع الهجرى / ١٣ م ثم سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . والمشرق كما نعرف اهتم بعلوم الاسكندرانيين القدماء أشد الاهتمام ، وأنجب أشهر علماء العلوم القديمة منذ الرازى وابن سينا والبيرونى كما ترعرعت فيه علوم الحديث وخرجت منه أشهر مجموعات الصحيح منها .

---

(١) انظر النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٣٧١ .

وبناء على ذلك نرى القاهرة وقد وجهت أنظارها نحو المشرق وتأثرت به كما قلنا ابتداء — بينما الاسكندرية قد اتجهت بأنظارها نحو المغرب ووقعت تحت تأثيره . وما سجله العبدرى فى رحلته (سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) يؤيد رأينا هذا. فالعبدرى يذم علماء القاهرة ، بسبب: «اكبابهم على المعقول عن المنقول ، واعتقادهم أن من لا يحسن المنطق لا يحسن أن ينطق» (٢) ثم هو يعلق على ذلك قائلا : «تالله لقد أغرق القوم فى مالا يعنيهم ، وأظهروا الافتقار إلى مالا يغنيهم .. لأن أقل آفاته أن يكون شغلا بما لا يعنى الانسان واظهار حوج إلى ما أغنى عنه الرب المنان والذى دعا بعض الفضلاء إلى مطالعته هو اتقاء شره والحذار من غوائله وفكره .. » (١) .

ويؤكد العبدرى التلمسانى المعروف بالأبلى (توفى ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م) شيخ ابن خلدون — اهتمام علماء القاهرة على أيامه ، مثل : ابن دقيق العيد (أبى الفتح بن على القشيرى — الذى لقيه العبدرى ووصفه بالشيخ المحدث الأصولى) وابن الرفعة والصفى الهندى والتبريزى وغيرهم من أهل خراسان بالمعقول . ولم يستطع الرجل المالكى — المتعصب لمالكيته — أن يستفيد من هؤلاء الأساتذة العقلانيين: «فلم يكن قصاراه إلا تمييز أشخاصهم» (٢) .

وكان هذا الدرس القاسى سبباً فى تغيير مجرى حياة الأبلى العلمية فما أن حج وعاد إلى تلمسان حتى انكب على دراسة المنطق ثم أنه نزل على الشيخ ابن البنا ولازمه وتضلع عليه فى المعقول والتعاليم والحكمة (٣) .

---

(١) الرحلة ، ص ١٣٠ .

(٢) انظر عباس بن ابراهيم ، الإعلام ، ج٣ ص ٢٧٣ ، هذا ولو ان ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ، ط ١٩٥١) يبرر ذلك باختلاط عقله لفترة من الوقت (ص٣٤ — ٣٥).

وعن ابن دقيق العيد (٦٢٥ — ٧٠٢ هـ / ١٢٢٨ — ١٣٠٢ م) انظر ابن حجر ، الدرر الترجمة رقم ٢٥٦ ، وعن ابن الرفعة وهو نجم الدين أحمد بن محمد بن مرتفع الانصارى (٦٤٥ — ٧١٠ هـ) انظر حسن المحاضره ، ص ١٤٢ — ١٤٣ ، وعن الصفى الهندى وهو محمد بن عبد الرحيم ابن محمد (ولد بالهند سنة ٦٤٤ / ١٢٤٦ م وتوفى فى ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) ، انظر ابن حجر ، الدرر ، ترجمة رقم ٢٩ ، وعن التبريزى وهو أبو الحسن على بن عبد الله (توفى سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥ م) ، انظر السيوطى ، حسن المحاضره ، ص ٢٥١ .

(٣) انظر عباس بن ابراهيم ، الاعلام ، ج ٣ ص ٢٧٣ .

وهكذا أخذت القاهرة — بعلومها العقلية — تؤثر فى المغرب ، والمفروض أنها أثرت أيضاً فى مشايخ الاسكندرية وعلمائها وإن أعوزنا الدليل على ذلك . فابن رشيد الرحالة السبتى (توفى ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) الذى أتى إلى الاسكندرية — قبيل مجىء العبدرى — فى سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٨٤ م أخذ بها عن الشيخ الصالح العدل أبى عبد الله بن عبد الخالق بن طرخان القرشى (١) . واسم طرخان هنا يلفت النظر إلى أنّ أثر المشرق البعيد بدأ يظهر بين علماء الاسكندرية ، كما كان يظهر فى القاهرة ، وإربما ظهرت معه العلوم العقلية أيضاً — ولو أن رحالة المغاربة لايشيرون إلى ذلك صراحة .

الرحالة المغاربة ومجتمع الاسكندرية :

وإذا كان الرحالة المغاربة قد كالوا المديح للاسكندرية ولعلمائها ومشايخها فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعامتها . فالعبدرى يقول عن الاسكندرية (سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م) إنها «مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الاشراق اللامع والطلاقة وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة ، كلّ عنها ظفر الزمان ونابه وملّ منها جيش الحدثان وأحزابه .... آخذة من الكفر وأهله بالخنق حتى أبدلتهم من الصافى المروق الكدر المرنق فسامروا الأسف مسامرة الندى للمحلق ، ودجا عليهم ليل هم أدلهم بعد نهار سرور تألق » (٢) .
ولكنه بعد مديح الاسكندرية المجاهدة ينتقد أهلها أشد النقد حتى قال : «أكثر أهلها رعاع ضرر بلا انتفاع ، مع سوء أخلاق ومرارة مذاق ، وقلوب رباها الضغن تربية الأولاد وجفاها الخير والصلاح لما عمرها من الشر والفساد . الخير فيهم فعل لا يتصرف والغريب بينهم نكرة لا تتعرف» (٣) .
وهو ينتقد لهجة أهل الاسكندرية وسوء معاملتهم للغرباء فيستطرد : «إن رأوه (الغريب) زادوا الوجوه جهامة .. وجمجموا قولا رماه اللكن عن

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٣ ص ٢٥١ ، وعن ابن طرخان وهو محمد بن عبد الخالق الاموى الاسكندرانى (توفى ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) انظر حسن المحاضرة للسيوطى ، ص ١٧٦ .
(٢) الرحلة ، ص ٩٠ .
(٣) الرحلة ، ص ٩٢ .

عن قوس العجمة سهامه ، الحسد فيهم مضطرم النيران . . تمالؤوا على كل وصف شأن وما زان وتواصوا على تطفيف المكيال والميزان ، فإن عاملهم غريب لم يلق منهم إلا ما يريب ، يتخذونه هدفاً ولكل منهم فيه سهم مصيب حتى يخرج من ماله بغير نصيب .. » (١) . وأغلب الظن أنه كان من أسباب تحامل العبدرى الشديد على السكندريين مسألة الاجراءات الجمركية الشديدة أو الدقيقة التى تعرض لها ومن معه من حجاج المغاربة ، وهى المسألة التى أصبحت ديوانية تقليدية فى مصر دون غيرها من البلاد العربية والإسلامية — على ما نرى . فلقد سبق أن شكا ابن جبير من إجراءات الجمرك (الديوانة) فى الإسكندرية قبل ذلك بأكثر من نصف قرن — والتى كانت تتلخص فى تدوين أسماء ركاب السفينة والبلاد التى جاءوا منها وسؤال كل واحد عما لديه ثم أخذ الضريبة (المكس) التى بلغت دينارين على كل عشرة دنانير (أى ٢٠٪) على أيام البلوى سنة ٧٣٧ هـ / ٦ — ١٣٣٧ م — أى بعد العبدرى بحوالى خمسين سنة (٢) . ربما كان ذلك هو السبب الذى جعل العبدرى يصب جام سخطه على أهل الاسكندرية حتى أنه نسب اليهم — فى غمرة حماسة — ذلك التفتيش ، وهذا ما لم يفعله ابن جبير الذى ألقى مسئوليته على أهل الديوانة (الجمرك) .

هذا ولم يتنبه ناشر رحلة العبدرى وهو الأستاذ الفاضل محمد الفاسى إلى هذا الأمر فى متن الرحلة ، رغم أنه تنبه إليه فى مقدمته لها (٣) ، إذ أنه وضع التفتيش الجمركى فى الاسكندرية ، كما وصفه صاحب الرحلة ، تحت عنوان : «اعتراض أهل الاسكندرية للحجاج » (٤) . ومما يحمد للأستاذ محمد الفاسى أنه يقترح فى نفس المقدمة على أساتذة التاريخ

---

(١) الرحلة ، ص ٩٢ .

(٢) انظر ابن جبير ، ص ٧ ، وانظر البلوى ، نسخة مصورة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية مخطوط دار الكتب ، ورقة ١٥ وجه .

(٣) العبدرى ، الرحلة ، ص ك .

(٤) العبدرى ، الرحلة ، ص ٩٣ .

بجامعة الاسكندرية دراسة مسألة التفتيش الجمركى فى الاسكندرية ، كما أثارها الرحالة المغاربة فى العصور الوسطى ، فى ضوء الظروف الاقتصادية والسياسية والعسكرية للحروب الصليبية على أساس أنه ربما كان السبب الأول لها هو التفتيش عن الجواسيس الذين قد يندسون بين الحجاج والتجار(١). والفكرة طريفة وتستحق النظر ، ولكنها إذا كانت ملحة فى رحلة ابن جبير الأولى فانها بعد الانتصارات التى تحققت على الصليبيين بيدى صلاح الدين ، قبل رحلة ابن جبير الأخيرة ، لم يعد لها نفس الالحاح. أما على أيام رحلة البلوى سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م فكانت الحروب الصليبية فى الشام قد انتهت منذ مدة ولو أن الأعمال العدائية مع أهل قبرص وردوس لم تنقطع نهائياً . وتبقى بعد ذلك — مسألة الضريبة الجمركية التى بلغت على عهد البلوى عشرين بالمائة مما يحمله الحجاج من النقود ، وأغلب الظن أنها كانت أكثر المسائل الحاحاً فى ذلك الوقت . يؤيد ذلك ما يسجله النويرى السكندرى بعد حوالى ثلاثين سنة وإثر مفاوضات الصلح بعد غارة القبارصة المشهورة على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٤٦٥ م من أن مطالب ملك قبرس كانت تتلخص فى تخفيض الضريبة على متاجره من الخمس إلى العشر ، وأن يعفى حجاج قبرص إلى كنيسة القيامة من دفع المكوس (٢) .

هكذا يمكن تفسير سخط العبدرى على أهل الاسكندرية فى إطار اجراءات الديوان الدقيقة والضريبة الباهظة . ويستفاد من الرحلة العبدرية أن أخبار ابن جبير كانت مسجلة فى كتب بعض علماء الاسكندرية من ذوى الأصل المغربى ، والذين كانوا يتناقلونها فيما بينهم . فقد التقى العبدرى بنور الدين أبى عبد الله بن زين الدين أبى الحسن يحيى بن الشيخ وجيه الدين أبى على منصور بن عبد العزيز بن حباسة الاسكندرى الذى أملاه — فى مدرسة جده وجيه الدين — من كتابه ما دلونه من أخبار ابن جبير التى كان قد حدثه بها الشيخ الصالح أبى العباس أحمد بن عمرو بن محمد السبتى الحميرى

---

(١) العبدرى ، الرحلة ، المقدمة ، ص ك .

(٢) النظر النويرى ، الالمام بالاعلام . مخطوط دار الكتب المصور بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٧٣٧م ورقة ١٢٦ ظهر .

بثغر الاسكندرية سنة ٦٦٢ هـ / ٦٣ — ١٢٦٤ م (١) . وعن هذا الطريق سنحت الفرصة للعبدرى لكى يدون أخبار ابن جبير فى الاسكندرية نقلا من كتاب الحباسى ، كما نقل القصيدة المطولة التى نظمها ابن جبير — والتى لم يسجلها فى رحلته — وفيها يمدح صلاح الدين ويفخر بانتصاراته على الصليبيين وفتح القدس ، وذلك كتمهيد لمطالبته بالغاء الاجراءات الجمركية وما كان يؤخذ من حجاج المغاربة من الضرائب (٢) .

وقبل أن يتحدث العبدرى فيمن لقيه من أعلام الاسكندرية يكاد يعتذر عما بدر منه فى حق أهل الاسكندرية ، إذ يقول : « .. ولكنها نفثة مصدور ولفظة جرى بها المقدور ، وبودى لو لم أر إلا حسناً فأذكره ولم ألق إلا مشكوراً فأشكره ، ولو كان القبيح يحمل بغير أوصافه والناقص يكمل بذكر أسلافه لكان أهل الاسكندرية أجمل الناس حسناً وأكملهم فى كل معنى ، بوجود بعض الأفراد فيهم وسكنى الآحاد المبرزين فى العلم والدين بمغانيهم .. » (٣) . ومع أن العبدرى ينص على أنه التقى ببعض علماء الاسكندرية الذين طلبوا اليه أن يكتم ذكر أسمائهم زهداً وورعاً ، فإنه يعرفنا بعدد من الأعلام منهم . وكان شيخ الاسكندرية على أيامه هو أبو الحسن علي زين الدين بن محمد بن منصور الجذامى المالكى المعروف بابن المنير الاسكندرى — أخو القاضى ناصر الدين أحمد الاسكندرانى مريد القبارى وصاحب سيرته (٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م — أول ربيع ٦٨٣ هـ / ١٨ مايو ١٢٨٤ م) ، وضريحه فى مسجد والده وهو المعروف حالياً بجامع سيدى المنير بالقرب من مسجد الطرطوشي بشارع الباب الأخضر من حي الجمرك (٤) ولقد وصفه العبدرى الذى قرأ عليه تأليفه فى شرح البخارى وحصل منه

---

(١) العبدرى ، الرحلة ، ص ٩٣ .
(٢) انظر العبدرى ، الرحلة ، ص ٩٤ — ٩٦ .
(٣) انظر العبدرى ، الرحلة ص ٩٩ .
(٤) الرحلة ، ص ١٠٠ وما بعدها ، وعن ناصر الدين بن المنير انظر النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦١ ، والهامش عن جامع المنير الذى أعيد بناؤه سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ص ١٤٠ .

على الإجازة ، كما قرأ عليه بعض أحاديث السلفى وصدراً لموطأ مالك رواية يحيى بن يحيى وغير ذلك، بأنه «الفقيه العالم الكامل الرئيس الأوحد القاضى العادل ، شرف الفقهاء والمفتين ، وسطة قلادة المدرسين ، صدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين ، وحيد العلماء وبحر المصنفين ..» (١). وبالاضافة إلى ذلك سجل القصيدة النبوية لابن المنير ، كما سجل ألغازاً شعرية له ولأخيه المرحوم القاضى أبى العباس ناصر الدين ، ورد على ذلك بأشعار له بعث بها من القاهرة (٢) .

ولقى العبدرى بالاسكندرية المحدث تاج الدين الغراف العراق وأخذ عنه وسمع من أشعاره ، كما سمع الغراف بدوره من شعره وقيده فى برنامج شيوخه (٣) . ولقى بها أيضاً أستاذ العربية فى هذا الوقت أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الزناتى (٦٠٦ — ٦٩٣ هـ / ١٢٠٩ — ١٢٩٤ م) الذى أنشده عدداً من الأشعار فى وصف المنار والبحر وفى بخل أهل الاسكندرية (٤) . من ذلك :

إن كنت تحسن تشبيه المنار فقل   كما أقول وصفها مثل ما أصف
طالت فطاولت الأرض السماء بها   لو لم تقف جازت الجوزاء لاتقف
كأنها غادة قامت على شرف   تأتى الجوارى اليها ثم تنصرف

ومنه :

يامنكرا من بخل أهل الثغر ما   عرف الورى أنكرت ما لا ينكر
إن كان قد صحت نتانة أهله   فمن الثغور كما علمت الأبخر (٥)

---

(١) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٠٠ .
(٢) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٠٢ — ١٠٧ .
(٣) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٠٩ وما بعدها . وعن الغراف وهو تاج الدين على بن أحمد بن عبد المحسن الشريف محدث الاسكندرية (توفى ٧٠٤هـ/١٣٠٥م) انظر حسن المحاضرة ، ص ١٧٧ .
(٤) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٢٠ — ١٢٢ (وانظر حسن المحاضره للسيوطى ، ص ٢٤٦) .
(٥) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٢٠ — ١٢٢ (وانظر حسن المحاضره للسيوطى ، ص ٢٤٦) .

وشاعرنا هو والد محمد (بن محمد بن عبد الله) الزناتى الذى عرف بلقب الاسكندرى (توفى فى رجب سنة ٧٢٥ هـ / يونيه ١٣٢٥ م) والذى سمع وحدث بالاسكندرية (١) .

والظاهر أن شكوى المغاربة من سوء حظهم من أهل مصر أصبحت تقليدية ، حتى أن المقرى صاحب نفح الطيب بعد ما دخل مصر سنة ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩ م وتزوج بها وأقام سئل عن حظه بمصر فقال ، على لسان ابن الحاجب :

ياأهل مصر وجدت أيديكم	فى بذلها فى السخاء منقبضة
لما عدمت القرى بأرضكم	أكلت كتبى كأننى أرضه

هذا إلى جانب ما أنشده ، هو نفسه :

تركت رسوم عزى فى بلادى	وصرت بمصر منسى الرسوم
ونفسى عفتها بالذل فيها	وقلت لها عن العلياء صومى (٢)

وأغلب الظن أن مرجع شكواهم هذه ، مما اعتبروه بخلا من أهل مصر هو أن مصر بصفتها بلداً حضريا يعيش أهله — على وجه العموم — فى مساكن مكتظة ، وينصرفون إلى أعمالهم اليومية حتى أنهم يأكلون أولا بأول من الأسواق ، كما لاحظ رحالة المغاربة ، لاتمكنهم ظروفهم المعاشية هذه من الانقطاع إلى استقبال الضيوف ، وممارسة عادة المبالغة فى المجاملة — ومثل هذا ما نأخذه على الأوروبيين حالياً . وذلك على عكس البلاد العربية الأخرى التى عرفت حياة البساطة أو البداوة التى تسمح بنوع من المشاركة المعاشية بالنسبة للغرباء أو عابرى السبيل ممن كانت توجد لهم بمصر منشآت تهيىء لهم الحياة الطيبة ، كما فى المدارس بالنسبة للطلبة والعلماء أو الخانقاوات والتكايا بالنسبة للفقراء من الوافدين .

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ص ١٩١ .

(٢) انظر عباس بن ابراهيم ، الإعلام ، جـ ٢ ص ١٠٦ .

وممن سمع منهم العبدرى بالاسكندرية الشيخ محمد بن سليمان بن أحمد المراكشى الصنهاجى البياتى (٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م – آخر ٧١٧ هـ / أوائل مارس ١٣١٨ م) (١) .

ولم تسلم القاهرة من لسان العبدرى أيضاً ، فقال فيها : «مدينة كبيرة القطر وساكنها يحاكى عديد الرمل والقطر ، وهى مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها فى سطر ..» (٢) . أما عن عامة أهلها فقال فيهم : «وحسبها شراً أنها جرين لحثالة العباد ووعاء لنفاية البلاد ، ومستقر لكل من يسعى فى الأرض بالفساد ، من أصناف أهل الشقاق والعناد والالحاد ، استولى الحسد على قلوبهم واستوى الغش فى جيوبهم فنار الحسد مضطرمة فى الجوانح وسهم الغش ممزوج فى عسل النصائح ..» (٣) . ومما لاحظه عليهم من العيوب : «قلة الحياء وعدم التنزه عن الخناء والفحش ، ومن قلة التستر عند قضاء الحاجة والأكل..» (٤) . وهو يأخذ عليهم تهارشهم فى الطرقات ، وقضاءهم الوقت فى لعن أسلافهم ، ومن ذلك ما يقوله — وهو فى طريق العودة من الحجاز : «وسمعت شخصاً منهم ينادى رفيقه فى الركب فلما أتاه لعنه ولعن أباه وقابله الآخر بمثل ذلك وتهارشا زماناً ثم قعدا يأكلان» (٥) .

والحقيقة إننا قد نجد مثل هذه العادة — التى قد يعجب لها الغرباء من أهل الجد والسذاجة — بين أهل الاسكندرية والقاهرة ، وإذا كان العبدرى يقول إنه لم ير مثل هذا فى المغرب والأندلس والحجاز فربما كان ذلك صحيحاً . أما فى الشام فأغلب الظن أن الأمر ليس كذلك ، بل ربما

---

(١) نفس المرجع ، جـ ٣ ص ٢٤٨ – ٢٤٩ ، وعن الصنهاجى «نزيل الاسكندرية» انظر ابن حجر ، الدرر ، جـ ٣ ص ٤٤٧ (ترجمة ١٢٠٢) .
(٢) الرحلة ، ص ١٢٥ .
(٣) الرحلة ، ص ١٢٥ .
(٤) الرحلة ، ص ١٢٦ .
(٥) الرحلة ، ص ١٢٧ .

زعمنا بدورنا — إذا جاز لنا أن نسجل بعض ملاحظاتنا، كما فعل العبدرى — أن عادة استخدام السباب ولعن الأسلاف بين عامة الإسكندرية والقاهرة ربما كانت أثراً من مؤثرات أهل الشام . هذا ما عرفناه من عامتهم فى الإسكندرية فى الثلاثينيات من قرننا هذا ، وهو أيضاً ما عايناه فى بعض أسواق دمشق وبيروت منذ سنوات قلائل ، من : سباب الأقارب وعدم التورع عن التشدق بالدين .

ويكاد البلوى — وهو العف اللسان — يصف بعض عامة الاسكندرية سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م بمثل هذه الأوصاف عندما يتحدث عن مغامرة ركوبه البحر فى طريق العودة ، بعد أن كان متردداً إثر ما لاقاه من أهوال البحر وهو فى طريق المجيء وإعلانه التوبة عن ذلك بمجرد أن وطأت أقدامه ساحل الاسكندرية . فلقد ركب البلوى المركب فى مرسى المنار (الأنفوشى حالياً) ، وعندما فاجأت العاصفة سفينته قرب طرابلس الغربية فى مرسى العمارة ، توقف «الرائيس ، رائيس الجفن» (المركب) الذى يصفه البلوى بأنه : «رجل من الأرذلين يلقب بالفُنْش» — أى الفونس بما يعنى أن بحارة الإسكندرية كانوا يعترفون فى ذلك الوقت بمهارة الأوروبيين والإيطاليين منهم أو الأسبان ، على ما نظن ، حتى قلدوهم باتخاذ أسمائهم ألقاباً لهم — وأعلن أنه سيبقى على البر أيام الشتاء وهى ثلاثة أشهر . ولكى يظهر «الفنش» عزمه على القعود ويرغم الركاب على ترك السفينة ، كما يقول البلوى : «حلف باللازمة المغلظة وأيمان الطلاق الموكدة ، ثم رفع إلى السماء يديه وشرع فى سب والديه ، والدعاء بالذبح على ولديه » (١) . ورغم نزول «نحو المائتى رجل مشرقين ومغربين» فلقد أظهر البلوى العزم على البقاء فى المركب لولا أن احتال عليه «الفنش» حتى أقنعه بالنزول إلى بعض المواضع على أن يعود إلى الجفن عندما يتحسن الجو . وما أن نزل البلوى وأخوه الذى كان بصحبته حتى «رفع الخبيث شراعه ووافق شيطانه الغوى وأطاعه وراح وتركنا منبوذين بالعراء ، مطروحين فى وسط الصحراء حيارى من أمرنا سكارى ، لاندر أغرباً سلك أم رجع القهقرى » (٢) .

---

(١) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٦٢ وجه .

(٢) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٦٢ ظهر .

ومع أن هذه الحادثة كان يمكن أن تؤدى بالبلوى إلى كيل الذم إلى عامة أهل الاسكندرية ، كما فعل العبدرى ، ولكنه اكتفى بتوجيه النقد إلى الاجراءات الجمركية الدقيقة ، كما فعل ابن جبير ، ثم إنه انصرف إلى تسجيل نشاطاته العلمية بالاسكندرية ولقاءاته بالعلماء — وهذا ما سنعود اليه .

ورغم ما كاله العبدرى لأهل الإسكندرية من الذم فالظاهر أنه لم يرتح كثيراً لإقامته فى القاهرة ، رغم نزوله ضيفاً بالمدرسة الظاهرية حيث مدح محدثها الكبير شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن ابن شرف الدمياطى الذى رحل فى طلب العلم حتى صار أوحد وقته ، والذى سجل شيوخه فى معجم من أربعة أسفار إذ ينيفون على ١٢٧٠ (ألف ومائتين وسبعين) شيخاً (١) ثم نزوله بالمدرسة الكاملية على صاحبها الشيخ المحدث الأصولى أبى الفتح محمد بن على القشيرى المعروف بابن دقيق العيد (٢) . رغم ذلك فلقد ذم علماء القاهرة على العموم ، كما سبقت الإشارة ، لاشتغالهم بالعلوم العقلية . وإلى جانب ذلك فإنه عندما رجع إلى القاهرة مريضاً من رحلة الحج ، ورغم عناية أستاذه الدمياطى به ، يقول إن جو القاهرة غير ملائم له ويكاد — يدلل على ذلك بأنه ما إن عاد إلى الاسكندرية حتى «ثابت إليه قوته وعادت إليه صحته» (٣) .

والظاهر أن تعصب العبدرى ضد المنطق والفكر الحر الذى رآه فى القاهرة رافقه تعصب آخر من جانب المغاربة ضد أهل الذمة من اليهود والنصارى فى مصر ، وكانوا يتمتعون بحرية لا يعرف مثلها أهل الذمة

---

(١) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٣٣ ، وانظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ترجمة رقم ٢٥٢٥ ، جـ ٢ ، ص ٤١٧ — ٤١٨ (عن الدمياطى الذى ولد بتبريز فى آخر سنة ٦١٣ هـ مارس ١٢١٧ م ونشأ بدمياط ، وتوفى فى ١٥ من ذى القعدة سنة ٧٠٥هـ / ١٩ مايه ١٣٠٦ م .

(٢) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، وانظر فيما سبق ، ص ٤٢ (عن ابن دقيق العيد) .

(٣) الرحلة ، ص ٢٣٤ .

فى المغرب . فلقد حرض بعض وزراء المغاربة الذى أتى إلى القاهرة وهو فى الطريق إلى الحج سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩م ضد النصارى واليهود حتى اتخذ السلطان الملك الناصر محمد اجراءات تعسفية ضدهم كان لها رد فعل قوى ضد أهل الذمة فى الإسكندرية (١) .

أما البلوى (أبو البقاء خالد بن عيسى) الأندلسى (٢) ، الذى زار الاسكندرية سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م ، فقد شكا من التفتيش الجمركى فى الديوان والضريبة ، حيث : «أقرت اليد على القليل والكثير والحقير والنقير .. والغنى والفقير .. ، وفتشت الأوساط وعم الزحام والاختلاط وكثر الهياط والمياط حتى خرج المخزون والموزون وبرز المعكوم والمختوم وعند الله تجتمع الخصوم ، فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان ظلماً وعدواناً وجوراً وطغياناً ، فاستشعرت الأسف ونسيت كل رزء سلف .. » (٣) . أما عن المدينة فلا يذكر عنها إلا خيراً ، إذ يقول : «وبعد مرارة تلك المواقف المهينة أعقبت حلاوة دخول المدينة ، فنسينا مالقينا وكأنا أبداً ما شقينا .. فلم أر مدينة أحسن منها وضعاً ولا أبدع رفعاً ولا أوسع مسالك ولا أعلى مبانى ولاأسمى مراقى ولاأجمل مرسى . . »(٤). ويتبع ذلك بقوله : «فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة وصورة الجنة فيها منقوشة ، كوكبها يقظان وجوها عريان وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها مسك أذخر .. وكفاها أن ليلها كالنهار فى تصرف العباد وإعادة مسائها كصباحها وهو غير المعتاد» (٥) .

وبعد عودته من الحج إلى الاسكندرية فى أوائل سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧م

---

(١) النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ١٣٢ — ١٣٤ .

(٢) عن البلوى (أبو البقاء خالد بن عيسى بن ابراهيم بن أبى خالد البلوى — صاحب الرحلة المسماة : تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق) ، انظر نفح الطيب ، جـ ١ ص ٥٩٦ .

(٣) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ١٥ وجه .

(٤) الرحلة ، المخطوط ورقة ١٥ ظهر .

(٥) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ١٥ ظهر .

نزل منها «بالمدرسة الموسومة بالعلمية منزلا تشتهيه الأنفس وتلذ له الأعين وتسبح من حسنه الأفواه والألسن» (١) . وبعد مغامرته فى مركب «الفنش» ، كما سبق ورغم ما عاناه فى عودته من طرابلس إلى الاسكندرية هو وأخوه ماشيين حتى وصلا ، كما يقول : «وكأنا أخرجنا من القبور نخبر عن النفخ فى الصور وهول يوم النشور» ، فإنه نزل بالمدرسة العلمية المتقدمة الذكر حتى نسى ما مضى فانبسطت نفسه ورجع إليه عقله وحسه (٢) .

أما عن الجفن (المركب) ، فكان قد رجع إلى مرسى المدينة قبل البلوى الذى ذهب إليه واسترجع ما كان فيه ، وخاصة مجموعة كتبه التى كان قد قال عنها : «وتحملت فقد كل شىء وتجلدت إلا فقد الكتب فلم يبق لى جلداً ولا عزيت عليه خلداً» (٣) . ورغم اعتذار «الفنش» وخجله لما فعله فقد انتبذ الناس جفنه وعظموا ذنبه ، واكتفى البلوى بأن خلى بينه وبينهم ولم تر عينه بعد ذلك عينه ، وانصرف للقاء العلماء (٤) .

وممن أخذ عنه البلوى من علماء المغاربة والأندلسيين — وطناً أو أصلا — بالإسكندرية قاضى المالكية وجيه الدين أبو زكريا يحيى بن عبد الله الصنهاجى البزيدى (ولد فى ١٣ ربيع الأول سنة ٦٦٧ هـ / ٢١ نوفمبر ١٢٦٨ م) ، الذى يصفه بأنه «حسن الأخلاق ، حسن الهيئة ، جميل اللباس ، سمح اللقاء مليح التأنيس .. يقظ ، حاضر الذهن ، كأن خاطره جمرة تتقد» (٥) . ولقد سمع عليه تآليف كثيرة بمنزله . كذلك لقى من العلماء المسندين والأولياء المهتدين : الشيخ الصالح شرف الدين أحمد بن على بن عبد العزيز الكتامى الشافعى (الشهير بابن المصفى) . . لقيه بمنزله من الاسكندرية فسمع

(١) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٦٢ وجه .
(٢) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٦٤ وجه .
(٣) الرحلة ، المخطوطورقة ٦٢ ظهر .
(٤) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٦٤ وجه .
(٥) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ١٦ ظهر .

عليه عدداً من التصانيف منها كتاب الشهاب للقاضي القضاعي وجزء وفير من الموطأ ، كما ألبسه الشيخ خرقة التصوف (١) . ومنهم أيضاً الشيخ العالم المصنف نور الدين علي بن يونس بن عبد الله الهواري التونسي الذي يقول فيه : «.. طلع على الأبصار ملاكاً إلا أن الغرب مطلعه ..» (٢) .

ومن أشهر من لقيهم بالاسكندرية الشيخ الفقيه شرف الدين أبو البركات محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله المالكي الاسكندري (تلميذ أبي العباس المرسي) (٣) ، ثم من أسرة بني المنير اللامعة بالاسكندرية : الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن شرف الدين ابن محمد بن المنير(٤).

وبعد محاولة فاشلة ثانية للسفر بحراً إلى المغرب عشي عيد الفطر سنة ٧٣٨ هـ / ٢٢ ابريل ١٣٣٨ م ، عاد البلوي من طريق إلى مرسى منار الاسكندرية لينزل هذه المرة للاقامة بالمدرسة السراجية (٥) ، وأخيراً تهيأ له السفر إلى تونس في أول جمادى الأولى سنة ٧٣٩ هـ / ١٥ ديسمبر سنة ١٣٣٨ م (٦) .

أما ابن بطوطة الذي مر بمصر وهو في طريقه إلى المشرق سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ثم في طريق العودة سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م (أي قبل زيارة البلوي وبعدها) ، فهو يسجل أنه عندما زار الاسكندرية كان سلطان أفريقية (تونس) المخلوع ، وهو أبو يحيى زكريا بن أحمد الحفصي المعروف باللحياني ، مقيما بها ضيفاً على السلطان الملك الناصر محمد بدار السلطنة

---

(١) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ١٧ وجه و ١٧ ظهر . وعن ابن المصفي (شعبان سنة ٦٤٩ هـ/ اكتوبر ١٢٥١ م — شوال ٧٤٤ هـ/ ابريل ١٣٤٤ م) انظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ترجمة رقم ٥٤٨ ، جـ ١ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ١٨ ظهر .

(٣) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ١٧ وجه .

(٤) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٧٢ وجه .

(٥) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٧٣ ظهر .

(٦) الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٨٢ وجه .

بالاسكندرية ، وكان بصحبته اثنان من حجابه وواحد من وزرائه (١) . والظاهر أن اللحيانى ، اعترافاً منه بجميل الضيافة سمى واحداً من أبنائه «المصرى» ، كما سمى ثانياً منهم «الاسكندرى» . ويذكر ابن بطوطة ان اللحيانى مات بالاسكندرية وكذلك ولده «الاسكندرى» ، أما ابنه «المصرى» فقد عاش بها دهراً (٢) .

وإذا كان معظم من رآهم البلوى ، والعبدرى قبله ، كانوا من العلماء الفقهاء فإن معظم من لقيهم ابن بطوطة بالاسكندرية كانوا من الصالحين والأولياء من أصحاب الكرامات . فمن التقى بهم من المغاربة القاضى فخر الدين الريغى (٣) ووجيه الدين الصنهاجى (الذى لقيه البلوى) (٤) ، والشيخ الصالح أبو عبد الله الفاسى الذى كان يعد من كبار أولياء الله (٥). ومن المعاصرين لهؤلاء من مغاربة الاسكندرية (أصلا أو إقامة) شمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام الريغى التونسى المالكى (٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م — صفر ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) الذى درس بمدارس القاهرة والذى ناب فى الحكم بالحسينية ثم ولى قضاء الاسكندرية ، ولو أن ولايته هذه لم تحمد لاتهامه بأخذ الدراهم فى قضاء الحوائج (٦) .

وممن لقيهم من أولياء الاسكندرية — ذوى الأضرحة المشهورة الآن —

---

(١) اللحيانى هو أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الواحد بن أحمد بن محمد اللحيانى (توفى سنة ٧٢٧ هـ / ٦ — ١٣٢٧ م) ، انظر النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ص ٢٦٨ .

والوزير هو أحمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن يوسف المرادى القرطبى الذى توفى بالاسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة ٧٣٦ هـ / اكتوبر — نوفمبر ١٣٣٥ م (انظر المقريزى ، السلوك جـ ٢ قسم ٢ ، ص ٤٥٤) .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة (ط . التجارية سنة ١٩٥٨) ، ص ١٠ .

(٣) ابن بطوطة ، ص ١٠ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ص ١٤٩ — ١٥٠ .

العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، والشيخ ياقوت الحبشى تلميذ أبي العباس المرسى (١) .

وبعد ابن بطوطة بحوالى سبعة عشر عاماً يسجل سكندرى أندلسى الأصل هو محمد بن قاسم المالقى الاسكندرانى مشاهداته ومعلومات شهود العيان عن غارة القبارصة الشنيعة على الاسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م فى كتابه «الالمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية» (٢) . والذى يفهم من النويرى عن أحوال الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى / ١٤ م أنه كان للمغاربة بالمدينة — من المتوطنين والوافدين — نشاطاتهم المرموقة فى أعمال البحر ، حربية كانت أم سلمية . فالنويرى ينص على أن الأمير يلبغا الخاصكى الذى كان أشبه بالوصى على عرش السلطان الصغير الأشرف شعبان ، كان يكثر من قواد المغاربة فى البحر لاعتيادهم على ذلك (٣) . كما يسجل أكثر من مرة أن الذى نصح قائد الاسكندرية المملوكى حينئذ بالتحصن داخل المدينة والقتال من وراء

---

(١) عن الشيخ الصالح المعتقد ياقوت بن عبد الله الحبشى الشاذلى (توفى ١٨ جمادى الثانى سنة ٧٣٢هـ / ١٧ مارس سنة ١٣٣٢ م) انظر النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٩٥ ، وانظر حسن المحاضرة ، ص ٢٤١ .

(٢) مخطوط دار الكتب المصور بكلية الآداب ، وانظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ١٤٢ ، السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ ، ص ٦١٦ (فى علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال).

(٣) انظر النويرى ، كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية ، ط حيدر أباد ، ١٩٦٩ ، ج ٢ ص ١٤٣ — ١٤٨ ، وقارن المقريزى السلوك ، تحقيق سعيد عاشور ، ط . دار الكتب ، ١٩٧٠ ، ج ٣ قسم ١ ، ص ١١٣ . والظاهر أن أمر استخدام المغاربة فى البحر فى مصر كان قد أصبح عملا تقليدياً فى مصر منذ مطلع القرن السابع الهجرى . هذا ما يفهم من رواية أبو الحسن على بن سعيد المغربى الذى رحل إلى مصر عن طريق البحر مرتين : الأولى سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ووصل إلى الاسكندرية بعد أن كاد مركبه يقع بين أيدى العدو ، والمرة الثانية سنة ٦٦٦هـ = ١٢٦٧ ، وفيها ينص على أن «سائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول إلا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر . وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف ، وهم فى القدوم عليها بين حالين : إن كان المغربى غنيا طولب بالزكاة وضيق عليه ، وإن كان مجردا فقيرا حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول» (نفح الطيب المقرى ، ج ١ ، ص ٥٩٨) .

الأسوار ، بدلا من التعرض للمغيرين على الشاطىء المفتوح ، هو أحد تجار المغاربة المعروف بعبد الله البنا ، وأن سبب رفض نصيحته هو الخوف من أن يخرب الفرنج مشاهد الصالحين ومزارات الأولياء وربطهم الواقعة فى القرافة المكشوفة على الساحل فى مقابل السور (١) . وأول من تصدى لطلائع مراكب القبارصة جماعة من المغاربة المجاهدين الذين نزلوا بأنفسهم إلى الماء وأمسكوا بأيديهم أول سفينة معادية ليجعلوها هدفاً لنيران المدفعية الساحلية ، ولو أنهم دفعوا حياتهم ثمناً لهذه المخاطرة الشجاعة التى لم تجد من اخوانهم تأييداً ذكياً (٢) .

هذا ، كما أن الذى وقع عليه عبء الأخذ بثأر الغارة القبرصية المدمرة — التى يمكن اعتبارها من العوامل الحاسمة فى اضمحلال المدينة فى القرن التاسع الهجرى / ١٥ م ، قبل تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح — هو الرئيس ابراهيم التازى (المغربى) ، رئيس دار الصناعة بالاسكندرية الذى خرج فى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م فى بعض السفن التى هاجمت بعض الجزر الواقعة تحت سلطان صاحب قبرص ، وعادت بالمغانم والأسرى (٣). ولو أن ذلك لم يمنع القبارصة — أثناء غارة التازى — من الاستيلاء على زورق للمغاربة كان راسياً بأقصى «المينة» وأخذه بما عليه من السلع التى قدرت ببضعة عشر ألف دينار بعد أن فتكوا برجاله. ولو كان «الرايس ابراهيم التازى حاضراً بغربانه التى سافر بها مغازياً .. » لكان أخذ مراكب «تلك الحرامية بسرعة» (٤) .

---

(١) أنظر النويرى؛ الالمام بالاعلام؛ مخطوط الهند المصور بمكتبة كلية الآداب ورقة ٧٩ وجه ، ولسخة برلين ورقة ١٠٣ وجه .

(٢) انظر النويرى، الالمام بالاعلام ، حيدر أباد ، ١٩٦٩ ، جـ٢ ص ١٤٦ ، المخطوط لسخة برلين ورقة ١٠٣ ظهر.

(٣) انظر النويرى ، الالمام بالاعلام مخطوط دار الكتب المصور بكلية الآداب رقم ٧٣٧م ورقة ٩٧وجه — ٩٩وجه حيث النص الخاص بذكر خبر ابراهيم التازى رايس دار الصناعة بالاسكندرية وما فعله فى الأفرنج من المخازى » ، المخطوط نسخة الهند ص ٢٦١ ظهر — ٢٦٣ وجه . وانظر نص النويرى فى طبعة حيدر آباد ، جـ ٢ ص ٣٤٨ ، وقارن المقريزى، السلوك ، ح ٣ قسم ١ ، ص ١٥٩ حيث يسمى التازى « الحاج محمد التازى المغربى رايس البحر » .

(٤) النويرى ، الالمام بالاعلام ، المخطوط لسخة دار الكتب؛ ورقة ٩٨ وجه — ٩٩ وجه ، لسخة الهند ، ورقة ٢٦٢ وجه و٢٦٢ ظهر ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، الملحق ، ص ٥٧١ — ٥٧٢ .

وهكذا كان نشاط المغاربة في الاسكندرية يزداد مع مرور الوقت حتى شمل في النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى / ١٤ م مجالات الدفاع عن المدينة ضد غارات الفرنج التي شارك فيها الأسبان ضد الكتلان بصفة خاصة . أما عن علماء الاسكندرية من الأندلسيين والمغاربة وزهادهم (وطنا أو أصلا) فقد ظلوا في نشاطهم التقليدى بالمدينة ، كما دخل بعضهم في سلك الوظائف الحكومى .. فمن الأسر المغربية التي اشتهرت في الاسكندرية بالعلم والرياسة أولاد التنسى (١) . وممن ولى قضاء الاسكندرية منهم كمال الدين التنسى المالكى (محمد بن محمد بن محمد — توفى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) ، الذى خلفه في القضاء ابنه محمد الذى عرف بلقب الاسكندرى (ابن الكمال التنسى) (٢) . ومنهم ناصر الدين أحمد بن محمد جمال الدين ابن عطاء الله (٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م — ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) الذى ولى قضاء المالكية على عهد ابن خلدون (٣) . أما أبو عبد الله القارىء المالكى المغربى (توفى بالاسكندرية سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) الذى عرف بأنه كان أحد الفضلاء فقد «ناب في الحكم» (٤) . وممن ذاع صيته عبد الله بن محمد بن سهل المرسى المغربى نزيل الاسكندرية، الذى اشتهر «بالشيخ نهار» ، وكان ممن يعتقد فيه حتى أن نائب الاسكندرية صلاح الدين بن عرّام كان يوليه اهتماماً شديداً ، وتذكر عنه مكاشفات كبيرة وكرامات . ولقد توفى الشيخ نهار بالاسكندرية في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٧٨٠ هـ / ٢١ سبتمبر ١٣٧٨ م ودفن بتربة الديماس (كوم الدكة) (٥) . ومنهم أبو عبد الله محمد بن

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ٩٠ .

(٢) عن كمال الدين التنسى انظر المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ قسم ١ ص ٢٦١ ، وعن ابنه محمد الاسكندرى ، انظر ابن حجر ، الدرر ، جـ ٤ ص ٢٣٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ص ٩٠ .

(٤) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ص ١٤٩ .

(٥) انظر ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ص ١٨٤ ، أما المقريزى فيقرر أن وفاته كانت في سنة ٧٨٥ هـ ؟ السلوك ، جـ ٣ قسم ١ ص ٣٥١ ، جـ ٣ قسم ٢ ص ٥١١ . بينما سجل السيوطى أنها كانت في ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م ، حسن المحاضرة ، ص ٢٤٢ (طبع حجر) وانظر النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ص ١٩٤ .

عبد الملك بن عبد الله .. المرجانى ، التونسى الأصل ، الاسكندرانى الدار (٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م — شوال ٧٨١ هـ / يناير ١٣٨٠ م) الذى اشتهر إلى جانب الخير والصلاح والعبادة ومعرفة الفقه والتفسير ، بأنه كان يعرف علم «الحرف» (١) . ويذكر عن أبى عبد الله الدكالى الذى مات بالاسكندرية (سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) أنه كان «أعجوبة الدهر في عظمة الزهد والدين وخشونة العيش والسير على طريق السلف» (٢) .

ومن بين وفيات القرن التاسع (١٥ م) يذكر ابن حجر سالم بن عبد الله ابن سعادة بن طاجين القسنطينى نزيل الاسكندرية (توفى فى أواخر سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م) . ولقد عرف القسنطينى بسواد لونه حتى كان يظن أنه من الموالى وهو يؤكد أنه من الأنصار ، كما عرف بملازمته للقاضى برهان الدين بن جماعة وبمصاحبته لجمال الدين بن على الاستادار ، وكان له تردد كثير إلى القاهرة ، وكان للناس فيه اعتقاد (٣) .

وممن ذكرهم السخاوى من المغاربة والأندلسيين السكندريين فى وفيات القرن التاسع (١٥ م) اشتهر أبو الطيب محمد بن أحمد بن محمد بن علوان المالكى التونسى السكندرى (ولد بتونس سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م وتوفى بالاسكندرية سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م) بأنه من أكابر المالكية : إذ حدث وسمع عليه عدد من مشاهير العلماء بالمدينة (٤) . وكان أبو بكر بن عبد الرازق الدكالى المالكى الذى توفى فى مكة (سنة ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م) ، ممن تفقه فى الاسكندرية عند محمد بن يوسف السكندرى ، وعرف عند أهل الاسكندرية بصلاح أحواله حتى اعتقدوا فيه وفى كراماته (٥) . . وممن استقر فى قضاء الاسكندرية الشيخ شهاب الدين أحمد بن سعيد التلمسانى المغربى — بعد قدومه من دمشق — وذلك فى المحرم من سنة ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م بعد وفاة قاضيها جمال الدين عبد الله بن الدمامينى (٦) .

---

(١) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ص ٢٠٧ .
(٢) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ص ٥٤٣ .
(٣) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٣ ص ١٤٨ .
(٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٧ ص ٧٧ .
(٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١١ ص ٤٧ .
(٦) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٥ .

ومن كتاب الاسكندرية خلف بن على بن محمد المغربى الأصل التروجى المولد الشافعى السكندرى (٧٦٠ ﻫ/ ١٣٥٩ م - رجب ٨٤٤ ﻫ / نوفمبر سنة ١٤٤٠ م) الذى قطن الاسكندرية ، فى كنف خاله العلامة برهان الدين ابراهيم بن محمد بن أحمد الشافعى ، حيث قرأ على علماء البلدة وقتئذ ، ومنهم الشهاب (شهاب الدين) الغزنوى وأبو القاسم اليمنى التونسى ثم البرهان العقيلى الأندلسى . ولقد تردد التروجى على القاهرة وكان ممن أخذ عنهم من علمائها مؤرخنا ابن خلدون . ولقد ارتفع شأنه فى الثغر حتى صار شيخ الشافعية بها بل والمالكية . والمعروف انه كان يرفض الوظائف الحكومية والمناصب ، وأنه كان يفضل الرزق من كسب يده . وعرفت للتروجى عدة تآليف ، منها : «فضائل الاسكندرية» الذى لم يصل - للأسف - إلينا (١) .

ومنهم أحمد بن محمد بن عمر الصنهاجى السكندرى المولد والمنشأ والوفاة القاهرى الحسينى الدار (١٣ رجب ٧٨٠ ﻫ / ٦ نوفمبر ١٣٧٨ م - ١٧ من ذى القعدة ٨٥٥ ﻫ / ١٢ ديسمبر ١٤٥١ م). نشأ الصنهاجى بالاسكندرية وكان ممن أخذ عنهم العلم قريبه الشهاب أحمد بن محمد مخلوف الحسينى المالكى السكندرى ، والزين عبد الرحمن العجلونى التونسى نزيل الثغر . ورغم أنه أقام فى القاهرة ابتداء من سنة ٨٠٩ ﻫ / ١٤٠٦ م إلا أنه كان يزور الاسكندرية ، بلده ، حيث كان قد ولى مشيخة المدرسة البسامية ، فى كل سنة (٢) .

أما محمد بن عثمان بن ظافر المغربى البجائى المالكى (٨٢٧ ﻫ / ٣ - ١٤٢٤ م - بعد ٨٦٠ ﻫ / ٥ - ١٤٥٦ م) فانه حج وزار القاهرة ودمشق وطوف فى البلدان ، وأخيراً طابت له الاقامة فى الاسكندرية (٣) .

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ﺟ ٣ ص ١٨٤ ، وانظر فيما سبق هامش ٤ ص ٧ .

(٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ﺟ ٢ ص ١٦٠ - ١٦١ وقارن أيضاً التبر المسبوك له ، ص ٣٥٦ .

(٣) السخاوى ، الضوء اللامع ، ﺟ ٨ ص ١٤٦ .

ومن اشتغل بالافتاء الشريف أبو محفوظ محرز بن على بن مسعود الحسنى المغربى التونسى المالكى نزيل الاسكندرية والمعروف بابن الرفا (المولود بتونس سنة ٧٩٥هـ/ ٢ – ١٣٩٣م) (١) . ونشأ الشهاب أحمد ابن الزينى عبد الرحمن العسلونى بن منصور المقرى الفكر (نسبة إلى قبيلة من بلاد المغرب) المالكى السكندرى (٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م – ٨٧٠هـ؟ ١٤٦٥ م ؟) بالاسكندرية وقرأ على والده العالم الزينى ، وصارت له إمامه الجامع الغربى بالاسكندرية لمدة ٣٥ (خمسة وثلاثين) عاماً . وبعد ذلك «جلس شاهدا بباب البحر» لفترة من الزمان ثم إنه ترك الامامة والعمل بالقضاء واشتغل بالتجارة – وكان السخاوى ممن قرأ عليه بالاسكندرية (٢) .

ومن الصالحين من أهل الثغر اللذين التقى بهم السخاوى : أبو الفضل العز (عز الدين) عبد العزيز بن مسلم بن دال المستنانى (نسبة إلى بعض قبائل المغرب) المالكى المغربى السكندرى (توفى فى رجب ٨٧٤ هـ / يناير ١٤٧٠ م) الذى عرف بالورع والتقلل من الدنيا ، والذى كان لأهل الثغر فيه اعتقاد زائد (٣) . ومن العلماء الزهاد أيضاً أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يوسف التونسى الأصل المغربى المالكى ، الذى أخذ العلم بالبرلس والقاهرة وحج وزار بيت المقدس قبل أن يقيم بالاسكندرية ويأخذ فى التردد ما بين الاسكندرية وتروجة من حيث تزوج . وكان أبوعبد الله التونسى زاهداً يتكسب بالخياطة وهو فى خلوته أو فى بيته إلى أن مات بالثغر فى شعبان أو رمضان سنة ٨٨٨ هـ / اكتوبر أو نوفمبر ١٤٨٣ م (٤) .

أما ابراهيم بن سعد بن ابراهيم .. الحضرمى الأندلسى المغربى الذى عرف بالحربى وبابن الصباغ فكان أبوه من تجار الاسكندرية الأثرياء . ولقد رحل أبن الصباغ إلى القاهرة حيث التقى به السخاوى الذى رآه : «فهما ذكياً ذا أنسه بالطلبة وميل إلى التحصيل» من بين من قرأ عليهم

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٤٠ .
(٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ١ ص٣٣٥.
(٣) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٤ ص ٢٣٥ .
(٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٨ ص ١١٧ .

من العلماء . ولكنه ما أن علم بوفاة والده حتى ترك الدراسة والتدريس وأسرع بالعودة إلى الاسكندرية حيث توفى بعد قليل من الوقت أول سنة ٨٩٣ هـ / ديسمبر ١٤٨٧ م دون أن يستفيد من التركة (١) .

وهكذا نجد خلال القرن التاسع الهجرى / ١٥ م كثيراً من العائلات السكندرية المغربية الأصل التى تهتم بالعلم وتشتغل بأمور القضاء والفتوى والشهادة ، أو التى تعمل بالتجارة . ولكنه ما أن يأتى القرن العاشر / ١٦ م حتى يكون الاضمحلال قد خيم بجناحيه على الاسكندرية . هذا ما يتضح من حوليات ابن اياس فى كتابه المعروف ببدائع الزهور ، ولو أن ذلك لن يمنع المغاربة من القيام بدورهم الايجابى فى المدينة المحتضرة .

فإذا كان المغاربة فى القرنين السابع والثامن للهجرة / ١٣ — ١٤ م قد فرض عليهم المشاركة فى أعباء الحرب البحرية ضد الفرنج ، كما سبقت الاشارة (٢) ، فالظاهر أن هذا « التكليف » ظل واقعاً على أكتافهم فى مطلع القرن العاشر / ١٦ م . ففى رجب أو شعبان من سنة ٩١٥ هـ / اكتوبر — نوفمبر ١٥٠٩ م فرض السلطان على طائفة المغاربة بكل من مصر والاسكندرية مبلغ ٣٢ (اثنين وثلاثين) ألف دينار — من أصل ٥٠ (خمسين) ألفاً كان قد أنفقها — لفك أسار (شراء) عدد من المغاربة من بلاد الافرنج (٣) . هذا ، ولم يمنع ذلك — رغم الاشارات الأليمة إلى افلاس الدواوين من أن يكون حجاج المغاربة موضع عطف السلطان ورعايته بالقاهرة . ففى نفس السنة أمر السلطان باعطاء دينار أشرفى لسبعين رجلا وامرأة منهم ، ممن وقفوا له ، برسم «ثمن بقسماط» (٤) . وفى سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م كان

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١ ص ٥١ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٥٦ وهامش ١ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، نشر جمعية المستشرقين الالمانية ، جـ ٤ ، ص ١٦٤ .

(٤) ابن اياس ، جـ ٤ ص ١٦٦ .

رئيس الأسطول هو حامد المغربي الذى نجح فى القبض على حوالى مائتى رجل «وجدهم يتعبثون بسواحل البرلس» (١).

والذى يفهم من ابن اياس فى أخبار سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م أن سبب خراب بندر الاسكندرية — وكذلك دمياط واقليم البحيرة — يتلخص فى ثلاثة أشياء ، أولها : « تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند» ، وهو يقصد بذلك سيطرة البرتغال على طرق التجارة الشرقية فى المحيط الهندى وجنوب البحر الأحمر مما أدى إلى انقطاع السفن من جدة اعتباراً من سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨ م ، قبل أن تنقطع عن التردد على الاسكندرية سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣م ، مما كان له أثره على افلاس دواوين الدولة المالية وتعطلها (٢). والسبب الثانى هو افساد العربان فى منطقة البحيرة المحيطة بالاسكندرية (٣) . أما ثالث الأسباب ، الذى يأتى عقب ذلك على أنه السبب الرئيسى لخراب الاسكندرية ، فيكمن فى السياسة المالية المتعسفة بالنسبة لفرض الضرائب على المتاجر الواردة والصادرة . وذلك ان جباة الضرائب (القبّاص) «صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال» ، بمعنى أن الضريبة الجمركية التى كانت تبلغ عشرين بالمائة أيام البلوى (سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م)(٤)، والتى أثارت سخط المغاربة حينئذ ، بلغت مع مطلع القرن العاشر — على أيام آخر سلاطين المماليك قانصوة الغورى — مائة بالمائة ، حتى امتنع تجار الفرنج وتجار المغاربة من الدخول إلى الثغر (٥) .

---

(١) ابن اياس ، جـ ٤ ص ٢٢٠ . هذا ويشير ابن اياس إلى أن الرئيس حامد المغربى كان قد سار فى السنة التالية ٩١٨هـ / ١٥١٢م إلى بلاد ابن عثمان (الأتراك العثمانيين) لشراء بعض معدات الأسطول من الأخشاب والحبال والمكاحل وانه رجع بعدد منها موسوقة فى مراكب (جـ ٤ ص ٢٨٥) .

(٢) ابن اياس ، جـ ٤ ص ٣٥٩ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٥٢ .

(٥) بدائع الزهور ، جـ ٤ ص ٤٢٤ . هذا ولو أن ابن اياس يشير إلى وجود بعض تجار البنادقة فى الاسكندرية الذين نثروا بعض ذهب وفضه على رأس الغورى عند زيارته للمدينة فى ذلك الوقت .

وهكذا نصل إلى أبواب العهد العثمانى فى مصر وقد آل أمر اسكندريتنا المحروسة ــ التى كانت من أجل مدائن الدنيا ــ «إلى الخراب حتى قيل طلب الخبز فيها فلم يوجد ولا الأكل» ، كما يقول ابن اياس (١) .

ويتضح لنا من هذا العرض السريع أنه منذ فجر الاسلام وحتى مطلع القرن العاشر الهجرى / ١٦ م كان للاسكندرية علاقة وثيقة بكل من بلاد المغرب والأندلس ، حتى ليمكن تسميتها بما يعرف فى المصطلح السياسى الحديث بالعلاقة «الخاصة» ، أى المميزة عن غيرها من العلاقات بالأطراف الثالثة .

والذى يمكن ملاحظته أن هذه العلاقة كانت تسير على المستويات الثلاث التى تربط عادة بين البلدان والجماعات ذات المصالح المشتركة ، ونقصد بذلك : السياسية والاقتصادية والثقافية أو الفكرية ــ وأقواها بطبيعة الحال وأكثرها دواماً هى روابط الثقافة والفكر التى مازالت تتمثل حتى الآن ، فى مشايخ الاسكندرية من الأندلسيين الذين يحيون فى مخيلتنا ذكريات «الفردوس المفقود» وعلى هذه المستويات الثلاث كان مسار تيار التأثير والتأثر يتراوح مابين الاتجاه من الاسكندرية نحو المغرب والأندلس أو العكس تبعاً للظروف وحسب مقتضى الحال . ففى أول الأمر كانت الروابط سياسية عسكرية تتبعها علاقات ثقافية دينية أو توازيها مع مسار الجيوش الرسمية من المشرق إلى المغرب أو مع المهاجرين نحو الغرب أفراداً أو جماعات . وكانت أولى نتائج هذه الحركة هو استقرار عدد من العرب المصريين فى المغرب والأندلس ، والاهتمام بعلم الحديث هناك مما انتهى بازدهار مذهب الامام مالك بن أنس فى تلك الأقطار ، وكان لعلماء مصر وللمالكية الاسكندرية دورهم فى هذا المجال ، كما كان لبلاد المغرب والأندلس

(١) بدائع الزهور ، جـ ٤ ص ٤٢٤ .

جهودها فى نشر المذهب فى مصر والاسكندرية ؛ ويرجع الفضل إلى رحلة الحج فى تهيئة استمرار الصلة بين الإسكندرية ومصر وبين تلك البلاد .

وعندما استقرت الأمور فى المغرب والأندلس وبدأت تنتعش عواصمها السياسية والثقافية بدأ تأثير المغرب والأندلس يظهر بشكل أوضح فى مصر والاسكندرية ، فكان لهم دورهم فى نشاط مدارس الاسكندرية المالكية والشافعية التى انتعشت على أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومنذ العصر الأيوبى وطوال عصر المماليك كان الأثر المغربى الأندلسى ، بشكل خاص ، واضحاً فى الاسكندرية . وساعد على ذلك اضطراب الأحوال فى الأندلس كنتيجة طبيعية لزيادة ضغط الاسبان فى حربهم ضد العرب المعروفة «بالركونكستا» أو حرب الاسترداد . ولقد ترتب على ذلك أن مشاركة المغاربة والأندلسيين فى أمور الاسكندرية تعدت النطاق العلمى والثقافى إلى مجالات الجهاد وخاصة فى البحر ضد الفرنج . ولقد أظهر المغاربة والأندلسيون كفاءة ممتازة فى النشاط البحرى فى الاسكندرية حتى انتهى الأمر بأن جعلت السلطات المملوكية فى القاهرة أمر المشاركة فى الجهاد البحرى أشبه ما يكون «بتكليف» خاص بالمغاربة فالأغنياء منهم عليهم المساهمة بالمال للاعداد للحرب البحرية ، وعلى الفقراء منهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية فى البحر — قسراً إن لم يكن طواعية ، كما سبقت الاشارة (١) .

وخلال كل ذلك ظل رحالة المغاربة يترددون على الاسكندرية ويأخذون عن علمائها ويعطونهم من علمهم ، وهم فى الطريق إلى القاهرة والحجاز أو وهم فى طريق العودة . وبفضل هؤلاء الرحالة تزودت المكتبة العربية بمادة تاريخية وفيرة عن الاسكندرية وعن أحوال مجتمعها مما لا يتيسر وجوده فى غير أدب الرحلة من المصادر . ومما لا شك فيه أن أدب الرحلة المغربية يشكل مادة علمية لا تقدر لدراسة أحوال الاسكندرية ومصر خلال العصر العثمانى أيضاً ، وإلى عهد قريب . والأمر يتطلب اهتمام دارسى تاريخ مصر الحديث .

---

(١) انظر فيما سبق ص ٥٦ ، وهامش ٣ ص ٦٢ .

الجاليات الأوروبية فى الاسكندرية
فى العصور الوسطى

الدكتور عمر كمال توفيق

مقدمة :

تمتعت الاسكندرية منذ نشأتها بمركز خاص مرموق فى العلاقات بين الشرق والغرب ، سواء أكانت هذه العلاقات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، وذلك نتيجة لعوامل متعددة ، منها موقع الاسكندرية «الاستراتيجى» بين أوربا والشرق الأقصى ، وسياسة حكام مصر القائمة على تشجيع حركة التجارة العالمية المارة بها ، وكذلك التطورات التاريخية المختلفة التى مرت بها أوربا . ومن أهم مظاهر تاريخ الاسكندرية فى العصور الوسطى ، كانت تلك الجاليات الأوربية التى أقامت بها ، ولعبت دوراً له أهميته بالنسبة للمجتمع السكندرى والمصرى عامة كما كانت له آثاره الهامة فى المجتمع الأوربى . وكان وجود هذه الجاليات مرتبطاً بقيام حركة التجارة بين الشرق والغرب التى تمر بالاسكندرية ، هذه الحركة ازدهرت بشكل خاص فى عهد النشاط التجارى الكبير الذى قام فى غرب أوربا ، والذى يعرف باسم النهضة أو الثورة التجارية الوسيطة ، التى ظهرت منذ أواسط القرن الحادى عشر الميلادى ، واستمرت إلى أخريات العصور الوسطى . وقد كان هذا النشاط الاقتصادى والاجتماعى لمدينة الاسكندرية وانتشار الجاليات الأوربية بها ، بعكس الرأى القديم الذى قال به بعض المؤرخين ، بأن المدينة اضمحلت فى العصر الوسيط حتى كادت تصبح خرابا وأنها لم تنتعش إلا مع ميلاد القرن التاسع عشر الميلادى .

ان بحث موضوع الجاليات الأوربية فى الاسكندرية فى العصور الوسطى لايزال يتطلب جهداً علمياً كبيراً ، لعدة اعتبارات منها : اتساع الموضوع

من الناحية الزمنية والجغرافية . فهو يمتد زمنياً لعدة قرون إذا ما حاول الباحث أن يتتبعه منذ بداية الفتح الاسلامى للإسكندرية عام ٢١ هـ أو أواخر ٦٤١ م ، حتى أخريات القرن الخامس عشر الميلادى . ومن الناحية الجغرافية ، فان تلك الجاليات الأوربية جاءت من أصول متباينة من أنحاء مختلفة من حوض البحر المتوسط ، سواء أكانت تلك التى جاءت من المجتمع الأوربى الشرقى بدولته البيزنطية - أو بلاد الروم على حد تعريف العرب لها - وحضارتها الهلينستية وعقيدتها الارثوذكسية ، أو تلك الجاليات التى وفدت من بلاد متعددة من المجتمع الأوربى الغربى بدوله التى قامت على أسس لاتينية جرمانية وعقيدتها الكاثوليكية .

ومما يزيد فى صعوبة دراسة الموضوع ، طبيعة المصادر التى يتحتم على الباحث الرجوع اليها وتحليل مادتها . فهى مصادر مختلفة متباينة ، منها ما هو عربى وما هو أفرنجى ، وتشمل الحوليات وكتب الجغرافيين والرحالة والملاحين ، والمؤلفات التى اهتمت بالتطورات الاجتماعية وكتب الفقه والتشريع والتجارة والأدب ، هذا بخلاف الوثائق الرسمية . وفضلا عن ذلك فالمادة اللازمة لدراسة الموضوع متناثرة وفى العديد من جوانبه الهامة نجدها قليلة نسبياً ولا تروى غلة الباحث . ولقد صنف بعض كبار المؤرخين الحديثين أمثال دبنج Depping ، وهايد Heyd ، وشاوب Shaube ، وأمارى Amari ، ولوبيز Lopez ، مؤلفات لها أهميتها وقدرها فى عدد من جوانب هذا الموضوع . الا أن المكتبة التاريخية فى حاجة إلى المزيد من الجهود والابحاث لاستكمال دراسة جوانبه التى لا تزال تحتاج إلى عناية الباحثين .

وسوف نحاول فى هذه الدراسة تحديد أبعاد موضوع الجاليات الأوربية فى مجتمع الاسكندرية الوسيط ، مع بيان الظروف والمراحل التى ظهرت فيها ، والعناية بشكل خاص بإظهار ما كان من نشاطها فى عصر النهضة التجارية الكبرى التى قامت فى الغرب الأوربى وامتدت آثارها إلى كثير من بلاد الشرق عامة وإلى الاسكندرية بوجه خاص ، كما سنقوم بعرض

وتحليل النظم التي عاشت فى ظلها هذه الجاليات ومظاهر نشاطها فى مجتمع الاسكندرية .

يرجع وجود الجاليات الأوربية فى الاسكندرية إلى ما قبل العصور الوسطى وبداية الفتح الاسلامى للمدينة . ويجب الا يغيب عن أذهاننا أن الامبراطورية الرومانية القديمة ، التى اعتبرت البحر المتوسط بحيرة رومانية ، كانت تنظر إلى الاسكندرية ، التى تمتعت بموقع هام فى حوض هذا البحر ، نظرة خاصة وجعلتها مركزاً لادارة ولايتها الرومانية فى مصر لسنوات طويلة.وقد ورثت الامبراطورية البيزنطيةعن الامبراطورية الرومانية هذه النظرةالتقليدية إلى الاسكندرية التى ظلت تحتفظ بالكثير من مظاهر نشاطها بما فى ذلك النشاط التجارى كمركز بين الشرق والغرب . ويشير الكاتب يوحنا ملالاس John Malalas الذى وصل فى حولييته إلى عام ٥٦٣ م إلى النشاط التجارى فى عهد الرومان فى المحيط الهندى عبر الاسكندرية ومصر والبحر الأحمر . كما تفيد بعض المصادر بوجود جالية بيزنطية كبيرة بالاسكندرية عند فتح العرب لها ، ولابد أن هذه الجالية تتكون من كبار موظفى الدولة البيزنطية فى مصر ورجال الحامية والتجار وغيرهم . كما نستدل من هذه المصادر على أن نسبة من أفراد هذه الجالية بقيت بالمدينة عقب قيام الحكم العربى بها إذ يقول المؤرخ العربى ابن عبد الحكم : «ان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال ، فلحق بأرض الروم أهل القوة ،وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفاً مع ما قد روا عليه من المال والمتاع والأهل . »

اضمحلال نشاط مصر التجارى فى بداية العصر الاسلامى وآثاره :

وعقب الفتح العربى للاسكندرية دخلت المدينة فى مرحلة تاريخية فقدت فيها أهميتها السابقة كمركز سياسى وتجارى ، ولم تعد تتمتع بذلك النشاط التجارى السابق . كما أصبحنا لا نسمع عن نشاط يذكر للجاليات الأوربية فى هذا الثغر ، وكان ذلك نتيجة لعوامل متعددة .ومن أول هذه العوامل كان الصراع الذى قام بين المسلمين والامبراطورية

البيزنطية فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط ، وكذلك ما حدث من حروب بين المسلمين والدول الأوروبية الموجودة فى الجزء الغربى من هذا البحر ، مما لم يتح المناخ اللازم للقيام بنشاط تجارى مستقر . ويلاحظ المستشرق آدم متزفى كتابه (الحضارة الاسلامية) أن المسلمين فى تاريخهم الأول لم يهتموا بالاشتغال بالتجارة ، ويفسر ذلك بأنهم كانوا حينئذ من الشعوب الحربية التى تنظر إلى التجارة نظرة الاحتقار ، كما يضيف أن الامويين كانوا لا ينظرون للتاجر بعين التقدير لأنهم كانوا جيلا من الفرسان ، وأنه لم يقم لطبقة التجار فى عهدهم شأن يذكر . ومهما يكن من مدى صحة رأى هذا الكاتب فالملاحظ أنه لم يكن من السهل الحصول على اسم لتاجر كبير مسلم فى مصر فى كتب الحوليات والتراجم فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، وربما كان ذلك دليلا على أن التاجر الجدير بالتسجيل لم يكن قد ظهر بعد .

ومن العوامل التى توضح ركود حركة التجارة أوضاع غرب أوربا من القرن الرابع إلى أواخر القرن العاشر الميلادى ، تلك الأوضاع التى لم تسمح بقيام نشاط تجارى دولى ذو شأن . فالامبراطورية الرومانية فى الغرب كانت تمر بمرحلة اضمحلال داخلى فى الوقت الذى عانت فيه من الأخطار الخارجية وعلى رأسها غارات وهجمات الجماعات الجرمانية ــ حتى انتهى الأمر بسقوط الامبراطورية فى الغرب سنة ٤٧٦ م ، وقيام عدة دول وأمارات جرمانية على أنقاضها . ثم ان نظام المدينة الغربية أخذ فى التدهور وذبلت حياة المدينة وأضمحل معها النشاط التجارى الذى كان يتمركز فى حوض البحر المتوسط ، وتغلب على المجتمع الأوربى الغربى الطابع الزراعى الذى صاحب انتشار النظام الاقطاعى . وإن ما وجد من نشاط تجارى فى الغرب الأوربى حتى آخريات القرن العاشر الميلادى كان إقليمياً ومحدوداً إلى حد كبير .

بداية انتعاش تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط :

ولكن مع ظهور الدولة الطولونية وقيامها (٢٥٤ ــ ٢٩٢ هـ)

(٨٦٨ – ٩٠٥م) بدأت مصر عهداً جديداً من الاستقلال المحلى وفيه أخذت تغير سياستها الداخلية والخارجية ، بعد أن بدأت تحصل على كيانها الخاص وشخصيتها الذاتية ، كما أخذ نشاط مصر التجارى يتجدد . إلا أن هذا النشاط لم يكن كبيراً فى أول الأمر ولم يصبح على مستوى أوسع الا مع مجىء العصر الفاطمى (٣٥٨ – ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ – ١١٧١ م) وقبل أن يظهر التجار الأوروبيون الغربيون من جديد ، لعب اليهود دورهم فى التجارة الدولية مستغلين على ما يبدو ظروف الصراع بين المسلمين والاوربيين لصالحهم – ومما يلقى ضوءاً على نشاطهم التجارى ما جاء فى كتاب المسالك والممالك للجغرافى ابن خرداذبة (عام ٣٠٠هـ) حيث يقول : «كانت مصر مسلك التجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والفرنجية والأندلسية والصقلية ، وانهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق» .

أما الدولة البيزنطية ، فاذا كانت مرحلة الصراع الأولى بينها وبين البلاد الاسلامية قد أعاقت النشاط التجارى بين الجانبين ، الا أن هذه الدولة التى كانت تمرست على الحياة التجارية فى تلك البلاد الاسلامية التى كانت من قبل ولايات تابعة لها ، لم يكن من الطبيعى أن تنصرف نهائياً عن صلاتها الاقتصادية معها ، خاصة وأنها سبيل هام للحصول على منتجات الشرق . والمرجح أن السفن البيزنطية فى أول الأمر لم تحاول الاتجار مع موانى مصر والشام . الا أن المصادر العربية أخذت تكشف النقاب عن وجود صلات تجارية بين بيزنطة والعالم الاسلامى وان كانت فى أول أمرها محدودة . والظاهر أن أهم اتصال تجارى اسلامى بيزنطى كان يقع عن طريق البر لا البحر . فالمقدسى صاحب كتاب (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) (ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧م) يذكر صراحة أن الطريق بين الأراضى البيزنطية والأراضى الاسلامية طريق برى عبر آسيا الصغرى .

وما لبثت الدولة البيزنطية أن اهتمت بأن تعقد مع مصر معاهدات واتفاقيات تفاهم وصداقة ، وأصبح الامبراطور البيزنطى يراسل الأخشيد

فى مصر بدلا من طريقته السابقة « إذ جرت العادة الاتخاطب الاخليفته » وذلك على ما ذكره المؤرخ ابن سعيد فى كتابه (المغرب فى حلى المغرب) . وقد عمل الأخشيد على توطيد الصلة بين مصر وبيزنطة ، وعمل وغيره من ساسة العصر على تنشيط التجارة لما لها من أهمية ، ومما يدل على ذلك ما جاء فى رسالة الأخشيد إلى الامبراطور البيزنطى مما يوضح رغبة الأخشيد الصادقة فى التعامل التجارى معه ، فهو يقول كما يذكر ابن سعيد «أما ما أنفذته — امبراطور بيزنطة— للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأذنا لهم فى البيع وفى ابتياع ما أرادوه واختاروه لأنا وجدنا جميعه مما لا يحظره علينا دين ولا سياسة . وعندنا من بسطك وبسط من يرد من جهتك والحرص على عمارة ما بدأتنا به ورعايته ، ورب ما غرسته أفضل ما يكون عند مثلنا لمثلك . » وان مثل هذه المعاهدات والاتفاقيات لهو مما يعبر عن اتجاه مصر إلى التعامل التجارى والاستفادة من ذلك المركز السياسى الذى أخذت تحتله على أثر ضعف الدولة العباسية .

ومع بداية الحكم الفاطمى فى مصر واستقلالها عن الدولة العباسية ظهر تنافس تجارى كبير بين مصر وبغداد ، وقد حرصت مصر على بناء نشاطها التجارى . حقيقة ان الخليج العربى استمر يلعب دوره فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب فى العصر العباسى الأول ، وكان قيام الدولة العباسية متخذة من بغداد عاصمة لها ، عاملا فى استمرار هذا النشاط . ولكن مع ضعف هذه الدولة ، وعلى أثر تجدد النشاط التجارى فى البحر المتوسط ، أخذت نسبة كبيرة من تجارة الشرق تتحول من طريق الخليج

العربى نحو البحر الأحمر ثم مصر وموانيها ومنها الاسكندرية . ولقد أهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بهذه المدينة وجعلوامنها قاعدة لاسطولهم فى البحر المتوسط أخذت المدينة فى استرجاع ازدهارها السابق . وتزايدت العلاقات التجارية بين بيزنطة والفاطميين فى مصر ، حتى ان الرحالة ناصر خسرو ، الذى زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر قد مر فى طريقه على طرابلس بالشام ، وكانت خاضعة لخليفة مصر الفاطمى ، لاحظ نشاط

التجارة ووجود سفن للروم وغيرهم وأنها كانت تدفع ضريبة العشر لحكومة مصر . وقد وقعت اتفاقيات تجارية جديدة بين مصر وبيزنطة مثال اتفاقية عام ٤٣٧ هـ ــ ١٠٤٥ م .وان اغارة الأسطول البيزنطى على سواحل مصر وثغورها ومنها الاسكندرية لهوبما يعكس اهتمام بيزنطة بهذه المراكز التجارية الهامة . ولقد شاهدت القاهرة فى العصر الفاطمى نشاط التاجر البيزنطى ، أما التجار اليهود فقد أصبحت لهم جالياتهم فى مصر ووصلوا إلى البحر الأحمر .

ومهما يكن من أمر فمع ما وجد من صلات تجارية بين المسلمين والدولة البيزنطية وما قام به اليهود من نشاط تجارى ، ونجاح الفاطميين فى اقامة دولة كبيرة امتدت من المغرب إلى مصر والشام وحوض البحر الأحمر ، فان التجارة العالمية كانت محدودة نسبياً ولم تؤثر الا تأثيراً محدوداً فى مجتمعات العصور الوسطى وخاصة المجتمع ا لاسلامى ومجتمع غرب أوربا ، أما نصيب أوربا الكاثوليكية من تجارة الشرق فى العصر الوسيط الأول فكان هزيلا للغاية .

نهضة الغرب التجارية فى العصر الوسيط : عواملها وآثارها :

ولقد استجدت ظروف وعوامل فى المجتمع الأوربى وحوض البحر المتوسط أدت فى النهاية إلى قيام تلك الثورة أو النهضة التجارية الكبرى فى غرب أوربا التى امتدت آثارها إلى الشرق عامة وإلى الاسكندرية خاصة . كان المؤرخون فيما مضى يرجعون الفضل فى احياء النشاط التجارى بين أوربا والشرق الأدنى ــ الليفانت ــ إلى الحركة الصليبية ، قائلين أن هذا النشاط انما جاء كنتيجة من نتائج هذه الحركة . ولكن أصبح من المسلم به حالياً ان ا لحركة الصليبية لم تكن الا مجرد عامل مساعد قوى أسهم فى احياء النشاط التجارى ، الذى كان قد بدأ طريقه قبل قيام الحركة الصليبية بسنوات عديدة . والواقع ان عودة ظهور التجارة الدولية على مستوى واسع انما يرجع فىأساسه إلى عوامل أخرىسابقة على عهد الحركة الصليبية. ومن أهم هذه العوامل كان النشاط التجارى للبندقية وغيرها من المدن

التجارية الايطالية الأخرى التى أصبحت بمثابة مراكز الطليعة فى تجارة البحر المتوسط ، وذلك بحكم موقعها على أبواب أوربا والشرق وبحكم خبرتها فى التجارة وتقدمها على غيرها من شعوب غرب أوربا فى كل ما يتعلق باقتصاديات المدن وكذلك لحاجتها إلى البحث خارج بلادها عن موارد اقتصادية تكمل بها موارد بلادها غير الكافية .

ويضاف عامل أساسى آخر فى احياء تجارة الشرق ، وهو يرجع لانتصار قوى الغرب البحرية فى حوض البحر المتوسط . فقد شاهد النصف الثانى من القرن الحادى عشر انتصار أساطيل غرب أوربا على القوى البحرية لكل من المسلمين والبيزنطيين ، تلك القوى التى طالما تحكمت فى حوض البحر المتوسط منذ أوائل العصور الوسطى . ومع أخريات القرن الحادى عشر الميلادى صار الأوربيون الكاثوليك سادة كورسيكا وسردينيا وصقلية وجنوب ايطاليا والاقاليم الساحلية فى الشام ، وأصبحوا يتحكمون فى المسالك البحرية بين شرق البحر المتوسط وغربه . وتعتبر الحروب الصليبية التى أسفرت عن تأسيس الامارات الصليبية فى الشام بمثابة المرحلة الأخيرة فى اتصال الغرب اللاتينى بالشرق الاسلامى مباشرة . وترتب على ذلك أنه أصبح من الممكن للتجار الغربيين أن ينقلوا السلع من الشرق إلى الغرب مباشرة على سفن تابعة للغرب . وهكذا أصبح الغرب اللاتينى منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى يتحكم فى شئون تجارته الخارجية دون الحاجة لوساطة أو تدخل الدولة البيزنطية أو غيرها . فقد أصبحت لسفنه السيادة على كثير من أنحاء البحر المتوسط فيما بين الاندلس والشام . وخلال ذلك كله غدت ايطاليا بشكل خاص مركز الوساطة الرئيسى فى التجارة بين الشرق والغرب .

وقبل قيام الحركة الصليبية أخذت سفن الغرب التجارية تتوافد على الاسكندرية وغيرها من الموانى الاسلامية الواقعة فى شرق البحرالمتوسط فظهرت فى ميناء الاسكندرية سفن البنادقة وجنوه وأمالفى ومرسيليا وغيرها . ولقد نجح الصليبيون بعد ذلك فى إقامة اماراتهم اللاتينية فى الشام

في أخريات القرن الحادى عشر الميلادى ، وعمدوا بعد ذلك إلى توسيع رقعة هذه الامارات وتمكنوا من البقاء في الأراضى المقدسة إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . وقد نتج عن اقامة الأوربيين — الفرنج — فى الشام أن زاد تعرفهم على منتجات الشرق ، فزاد إقبالهم عليها وانتقلت الأذواق الجديدة إلى الغرب اللاتينى وانتشرت فيها . وتأتى على قمة السلع التى أصبح الغرب فى حاجة إليها التوابل والبهارات التى تستعمل فى المحافظة على المأكولات وكذلك لصناعة العقاقير كما اهتم الغرب بالحصول على سلع أخرى مثل البخور والعطور والاحجار الكريمة وغير ذلك . أما الشرق فكان فى حاجة إلى استيراد خامات معينة من الغرب مثل الأخشاب، وخاصة تلك التى تستعمل فى صناعة السفن ، والمعادن كالحديد والنحاس . وهكذا أخذت حركة التجارة بين الشرق والغرب فى التزايد فى حجمها ، كما اشتركت فيها دول غربية أخرى إلى جانب المدن التجارية الايطالية .

ولابد أنه ظهر فى أول الأمر تعارض بين الحركة التجارية من ناحية ، وذلك الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين والذى أصطبغ بصبغة دينية من ناحية أخرى . الا أن المصلحة المشتركة مالبثت أن تغلبت على فكر الجانبين الاسلامى والصليبى . أما الدول الايطالية ، فانها كانت تسهم فى العدوان الصليبى عندما كان ذلك يخدم مصالحها التجارية ، وفيما عدا ذلك فانها كانت تحرص على استمرار علاقتها التجارية مع مصر لما كانت تجنيه من ورائها من فوائد ضخمة . وإن من أحسن ما يصور موقف البندقية وغيرها من دول الغرب التجارية ، تلك العبارة المأثورة عن البنادقة التى جاء فيها : «فلنكن بنادقة أولا ومسيحيين بعد ذلك». ومن الطريف أن نذكر ان المؤرخ وليام الصورى والذى كان يشغل منصباً دينياً هاماً فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، سجل فى تاريخه المعروف باسم (تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر) ملاحظاته الشخصية عندما وجد تعارضاً بين الحرب ضد مصر والاتجار معها . وقد كتب معرباً عن أسفه لحماس المكابرين من الصليبيين الذين كانوا على حد قوله يجهلون البلاد ويريدون الحرب بأى ثمن ، ذاكراً أن التجارة مع مصر كانت دائماً

مصدراً للربح والعزة للفرنج . ومن أحسن ما يصور تفهم المسلمين للموقف ازاء مشكلة العداء ضد الفرنج والتعامل التجارى معهم كانت تلك التذكرة التى بعث بها السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة العباسى المستعين بالله . ففى حين أنه ينظر إلى البنادقة والبيازنة والجنوية كأعداء خطرين على الاسلام الا أنه يقدر ماللتجارة معهم من أهمية . ومما جاء فى هذه التذكرة « .. كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الاسلام فى الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما منهم الآن الا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ونؤثر ولا يؤثرون»

وان ظاهرة استعداد كل من المسلمين والفرنج للاتجار بالرغم ما كان ينشب بينهم من قتال قد لفتت نظر الرحالة ابن جبير الذى زار الشرق فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى . وقد دون ابن جبير فى ذلك ملاحظاته التالية : «واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك، وتجار النصارى لا يمنع أحدهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم وهى الأمنة على غاية وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال . وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية والدنيا لمن غلب . هذه هى سيرة أهل البلاد فى حربهم وفى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلماً وحرباً ، وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفى الحديث عنه » .

العوامل التى أدت إلى توجيه التجارة العالمية إلى مصر و الاسكندرية :

هذا وقد تضافرت عدة عوامل فى توجيه حركة التجارة الدولية وما ترتب على ذلك من انتشار الجاليات الأوربية فى هذه المدينة إلى الطريق المار بمصر عامة والاسكندرية بصفة خاصة — ويقع فى المرتبة الأولى من هذه

العوامل مما تميز به طريق البحر الأحمر على غيره . حقيقة أن التجار عرفوا أكثر من طريق للتجارة بين الشرق والغرب للحصول على تجارة الشرق . الا أنهم أخذوا يتبينون تدريجياً مميزات طريق البحر الأحمر الذى يربط مصر وموانيها وخاصة ميناء الاسكندرية ، وتفوقه على غيره من الطرق الأخرى التجارية بين الشرق والغرب . فالطريق البرى الممتد من الصين إلى آسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود كثيراً ما ماعانى منه التجار بسبب عدم استقرار الأوضاع في البلاد التى يمر بها ، فضلا عن اعتداءات قطاع الطرق واللصوص على التجار وقوافلهم . كما أخذ التجار ينصرفون عن استعمال الطريق البحرى عبر الخليج العربى بسبب تزايد نشاط القراصنة ومغامرى البحار من سكان جزر البحرين وأخذت المراكب الواردة من الشرق الأقصى تتحول عن ذلك الطريق إلى اليمن وميناء عدن بالذات لتسلك الطريق إلى البحر الأحمر ثم إلى الموانى المصرية . وفى نفس الوقت ظهر مالطريق البحر الأحمر ومصر من مميزات ، فقد كان أكثر الطرق استقراراً وأقلها نفقات وعناء ، كما كانت لا تكثر به المخاطر . وباستثناء المنطقة البرية التى تفصل البحر الأحمر عن النيل كانت المتاجر الصادرة من الشرق الأقصى تنقل بطريق البحر وتتبع خطاً مباشراً يعتبر أقصر الطرق وأقلها مشقة لوصول السلع الشرقية إلى موانى الغرب الأوربى سواء أكانت فى ايطاليا أو فرنسا أو اسبانيا وغيرها . وان المؤرخ الصليبى وليام الصورى ، وهو الملم بشئون العلاقات بين الأوربيين والمسلمين فى الشرق فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، قدترك لنا وصفاًدقيقاً لحركة تجارة «الترانسيت» التى كانت تمر بمصر حيث جاء فيه «وكانت الاسكندرية تتلقى من مصر العليا عن طريق النيل فيضاً من موْن الطعام من كل صنف وكذلك ثروة من البضائع من كل صنف تقريباً . وإذا كان هناك أى شىء تحتاج اليه البلاد ، كانت تحمله السفن من البلاد الواقعة عبر البحر ، بكميات وافرة ونتيجة لذلك فان الاسكندرية أصبحت تشتهر بتلقى كميات كبيرة من البضائع من كل وصف ، وتفوق ما يصل إلى أية مدينة ساحلية أخرى . وإن كل

ما يحتاج اليه ذلك الجزء من عالمنا فى التوابل واللؤلؤ والنفائس الشرقية والسلع الأجنبية ، فإنه كان يحمل اليها — الاسكندرية — من الهند وسبأ وبلاد العرب والاثيوبيتين وكذلك من فارس والبلاد الأخرى المجاورة . وكانت كل هذه البضائع تحمل إلى مصر العليا عن طريق البحر الأحمر الذى يشكل الطريق من هذه الأجناس الينا . وكانت البضائع تفرغ فى ميناء عيذاب على ساحل ذات البحر ومنها تهبط مع مجرى النيل صوب الاسكندرية. »

وقد جاء بعد المؤرخ وليام الصورى ، الرحالة المعروف ماركوبولو الذى قال أن طريق البحر الأحمر ومصر هو أقصر طرق تجارة الشرق وأقلها عناء فى نقل التجارة ، وأنه هو الذى يمد الاسكندرية بما يسد حاجة الأسواق الأوربية من التوابل . ويؤكد رأيه من بعده الرحالة بيجوليتى الذى عاصر المرحلة المتأخرة من عصر الحركة الصليبية وكان خبيراً بشئون تجارة الشرق ، فقد ذكر أن طريق مصر كان أهم الطرق لنقل الفلفل وغيره من التوابل الثقيلة الحمل .

وهكذا تزايدت أهمية مصر كطريق للتجارة الدولية ونشطت بها التجارة حتى أن الوصف الذى أطلقه على مصر الجغرافى العربى المقدسى فى العصر الاسلامى بأنها «بلد التجار» يسرى عليها كذلك بكل تأكيد فى عصر النهضة التجارية والحركة الصليبية .

والعامل الثانى الرئيسى الذى أدى إلى ازدهار تجارة مصر والاسكندرية وانتشار الجاليات الأوربية بها يرجع إلى ذلك المبدأ السياسى الذى اتبعته مصر منذ حكم صلاح الدين الأيوبى حتى آخر العهد المملوكى ، والقائم على تحكم مصر فى البحر الأحمر وعدم السماح للتجار الأوربيين بالنفاذ اليه ، وقصر حركة التجارة بهذا البحر على التجار المسلمين . فان مصر بواقع تحكمها فى طريق البحر الأحمر التجارى أصبحت تجنى ثروات كبيرة دعمت اقتصادها وقوت من جهادها ضد الصليبيين ولم تكن على استعداد لأن يمس

أحد هذا الوضع . وكانت مصر تقوم بنقل سلع الشرق من ساحل البحر الأحمر إلى موانيها الواقعة على البحر المتوسط وخاصة الاسكندرية ومنها كان يحصل التجار الأوربيون على البضائع ويقومون بنقلها إلى الغرب . وكان معنى ذلك قصر نشاط الفرنج التجارى على موانى مصر الواقعة على سواحل البحر المتوسط بما فيها الاسكندرية .

والعامل الثالث ويرتبط بمدينة الاسكندرية نفسها التى مالبثت أن أصبحت الميناء الأول لمصر على ساحل البحر المتوسط بحكم موقعها الجغراف الرائع واتصالها بالنيل عن طريق خليجها . ومن الأمور الهامة التى شجعت التجار على التوجه إلى هذا الثغر كان منارها الذى كان يساعد السفن فى الاهتداء اليها . وقد تحدث عن مزايا هذا المنار الرحالة بنيامين التطيلى الذى زار مصر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى وسجل ذلك بقوله : «ولازال منار الاسكندرية يهدى السفائن الغادية والرائحة ويشاهد على بعد مائة ميل نهاراً وفى الليل ينبعث منه نور يهتدى به الملاحون» ويروى الرحالة ابن جبير ان المنار كان يظهر على بعد أكثر من سبعين ميلا ، وان كان الرأى السائد حالياً بين عدد من المحققين انه كان يظهر على بعد خمسة وعشرين ميلا . هذا وكان للاسكندرية ميناءان الشرقية والغربية . وقد أعجب بمرسى المدينة الرحالةابن بطوطةوعده من أكبر المراسى فى العالم.هذاوقد اعتنت السلطات الحكومية بتيسير المواصلات إلى الاسكندرية وخاصة شريانها المائى الذى يصل بفرع رشيد لامداد المدينة بما يلزمها من الماء وكذلك لتوفير طريق النقل المائى ، وقامت هذه السلطات بتطهير هذا الطريق من الغرين وغيره مما قد يعوق الملاحة به .

أما دمياط المنافسة للاسكندرية فقد اضمحلت أهميتها أمام تزايد حركة الاسكندرية التجارية . ومن أسباب ذلك كان تخريب بعض اجزاء من دمياط بعد فشل حملة القديس لويس على مصر والخوف من تجدد الهجمات الصليبية على دمياط وكذلك ردم فم بحر دمياط فى عهد السلطان بيبرس مما عرقل حركة السفن الكبيرة ومنعها من الوصول إلى دمياط مباشرة . وأمام ذلك أصبحت السفن الكبيرة تفضل فى معظم الأحيان الاتجاه إلى الاسكندرية .

والعامل الأساسى الرابع الذى أدى إلى توجيه النشاط التجارى إلى طريق مصر والاسكندرية نجده فى موقف مصر وتشجيعها لحركة التجارة. فقد أدركت كل من مصر والدول التجارية الأوربية الفوائد الاقتصادية الضخمة التى تترتب على استمرار وانتعاش التجارة. ولذا فقد حرص حكام مصر على تشجيع تجارة «الترانسيت» ومنح التجار الأجانب الضمانات والتسهيلات اللازمة كما سعت الدول التجارية الأوربية إلى ابرام الاتفاقيات والمعاهدات مع حكام مصر وارسال السفراء والرسل إليهم لتحقيق مصالحهم وقد حفظ لنا التاريخ العديد من هذه المعاهدات وكذلك أخبار السفارات المتبادلة.

سياسة مصر ازاء الدول التجارية : الاتفاقيات التجارية :

نتيجة للعوامل السالفة الذكر نشطت تجارة «الترانسيت» فى مصر عامة والاسكندرية خاصة وانتشرت الجاليات الأوربية فى الاسكندرية فى ظل سياسة حكام مصر القائمة على تشجيع الجاليات التجارية الأجنبية وما عقدته مصر من المعاهدات والاتفاقيات فى عصر النهضة التجارية الوسيطة والحركة الصليبية، سواء أكان ذلك ما عقدته فى عهد الدولة الفاطمية أو الدولة الأيوبية أو الدولة المملوكية. والظاهرة الشائعة فى هذه الإتفاقيات حرص مصر على تشجيع التجارة ومنح الامتيازات للتجار الأجانب من ناحية، واهتمام التجار الأوربيون بتدعيم صلاتهم التجارية بمصر من ناحية أخرى. ولتفهم الظروف التى عاشت فيها الجاليات التجارية فى الاسكندرية فى هذه المرحلة الهامة من العصور الوسطى لابد من استعراض هذه المعاهدات. وسنتتبع فيما يلى سياسة مصر وأهم ما عقدته من اتفاقيات ومعاهدات فى عهد كل من الدول الفاطمية والأيوبية والمملوكية.

من أهم الاتفاقيات التى عقدتها مصر فى عهد الفاطميين كانت إتفاقياتها مع التجار البيازنة. وتشير المصادر المعاصرة إلى أن هؤلاء التجار كانوا من أول من نجح فى توطيد دعائم تجارتهم بداخل مصر. ففى عام ١١٥٤م وصل سفير للبيازنة يدعى رانيرو بوتاتشى Raniero Bottacci إلى

الخليفة الفاطمى الظافر بهدف تحسين العلاقات بين مصر وبيزا . وبمقتضى الاتفاقية التى عقدت ، وعدت بيزا بألا تقدم أية مساعدة لفرنج الشام أو الاشتراك فى أية حملة صليبية ضد مصر . كما وعدت مصر بيزا بأن تعامل تجارها وحجاجها معاملة حسنة مشترطة أن يرعوا حرمة الصداقة بين البلدين . كما نصت مصر على أن تعيد إلى البيازنة فندقهم السابق بالاسكندرية كما سمحت لهم باستعمال فندق آخر فى مدينة القاهرة نفسها. وأرتضت مصر أن تقوم بيزا بشراء جميع السلع التجارية من مصر ماعدا ما يلزم البلاد منها للقتال مثل الحديد والأخشاب والقطران ، تلك السلع التى حرمت مصر تصديرها .

وربما كان أهم ما يجدر بنا أن نشير اليه فى أمر هذه الاتفاقية بين مصر وبيزا ما كان من أمر الفندق الذى سمح به خليفة مصر للبيازنة فى القاهرة فان هذه حالة خاصة جاء ذكرها فى المصادر وتنص على موافقة الفاطميين على قيام تجار أو بيين بالاتجار داخل الأراضى المصرية ، وليس على سواحلها فحسب، على النحو الذى أمر به السلطان صلاح الدين الأيوبى فى ذلك المبدأ الذى وضعه والذى التزمت به مصر فى عهد الدولة الأيوبية ودولة المماليك .

لقد مرت مصر بعد ذلك بمرحلة اضمحلال الدولة الفاطمية وسقوطها وظهور صلاح الدين الأيوبى على مسرح الحوادث التاريخية وقيام الدولة الأيوبية — وقد بدأت بذلك سياسة مصر الاقتصادية الجديدة القائمة على قصر مكان التبادل التجارى بينها وبين الدول التجارية الأوربية على السواحل المصرية فى البحر المتوسط بل وعلى موانى معينة كما بين ابن مماتى فى كتابه (قوانين الدواوين) ولا ريب أن السلطان صلاح الدين لم يفته ادراك ما كان للفرنج من قوة بحرية ابان عملياته العسكرية فى الشام وخاصة أمام عكا . وكان من الطبيعي الا يطمئن السلطان إلى ذلك التفوق البحرى ، فى حالة إذا ما نفذت المراكب الصليبية من أبواب مصر المطلة على البحر الأحمر .

وكان هناك من الأحداث ما يدل على تطلع الأوربيين للتوسع فى البحر

الأحمر . ويتحدث المؤرخ أبو شامة عن محاولات الصليبيين للاستيلاء على قلعة أيلة (العقبة) وكيف أن صلاح الدين لم يرض عن وقوع هذا الثغر فى أيدى الصليبيين ، وحرص على استرجاعه والحيلولة دون دخولهم إلى البحر الأحمر . وكان من أهم ما حدث فى هذا المجال ظهور رينودى شاتيون بارناط صاحب الكرك — على مسرح الحوادث ، ووصول حملة صليبية إلى ميناء عيذاب ، وهو أهم ميناء تجارى لمصر على ساحل البحر الأحمر فى هذا الحين ، وكان ذلك عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م . وكان ذلك يشير إلى خطة ترمى إلى التوسع التجارى ، أكثر منها محاولة تنبع من دافع دينى لتهديد الأراضى الاسلامية المقدسة فى الحجاز . وقد دل موقف صلاح الدين الحاسم على سياسته لتطهير البحر الأحمر من الصليبيين وجعله أيله «معقلا لجهاد المسلمين وموئلا للمسافرين» على حد قول أبى شامة ، كما وصلنا من أقوال صلاح الدين ما يشير إلى الدافع الذى جعله يحدد سياسته القائمة على منع دخول الصليبيين إلى البحر الأحمر وذلك فى الرسالة التى وجهها إلى أخيه الملك العادل ، ونائبه فى مصر ، ويأمره فيها باعدام الصليبيين الذين وقعوا فى الأسر أثناء مغامرتهم فى البحر الأحمر . فقد قال « وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر بطريق ذلك البحر أو يعرف» .

ولقد نجح صلاح الدين كما نجحت مصر من بعده فى منع التجار الأوربيين من الوصول إلى البحر الأحمر وحددت لهم الموانى المصرية الواقعة على ساحل البحر الأبيض لمزاولة نشاطهم التجارى . وكان عليهم أن يرتبوا أمرهم على هذا الأساس

الا أن صلاح الدين مع سياسته الحاسمة فى منع التجار الأوربيين من مزاولة التجارة فى البحر الأحمر ، فقد سمح لهم بممارسة نشاطهم التجارى فى مدن مصر الساحلية الواقعة على البحر المتوسط بل ، لقد بذل كل ما يمكن من التسهيلات لتشجيع هؤلاء التجار . وعلى سبيل المثال عقد السلطان فى عام ١١٧٣ م اتفاقية مع بيزا عقب وصول مبعوثها الديبراندوس Aldeprandus التزم فيها بسياسة منع الأوربيين من دخول البحر الأحمر

كتجار ، الا أنه وافق على منح البيازنة فندقاً لاقامتهم بالاسكندرية وبه كنيسة وحمام ، كما سمح لهم بالحرية لممارسة شعائر دينهم وباستعمال موازينهم الخاصة ، وشجعهم على حمل بضائع غربية معينة إلى مصر وهى الحديد والخشب والقطران . ونص فى هذه الاتفاقية على تيسير اجراءات ديوان الخمس . كما وفدت إلى مصر فى الفترة الممتدة من عام ١١٧٦ حتى عام ١١٨٠م من عهد صلاح الدين ، ثلاث سفارات بيزية كلها ترمى إلى تسوية بعض المسائل والحصول على امتيازات جديدة للجالية البيزية بالاسكندرية .

هذا وقد عملت كل من البندقية وجنوة على تنشيط تجارتها مع مصر ، وصادف ذلك تشجيعاً من جانب صلاح الدين . وقد عقدتا معه معاهدات لم تصل نصوصها إلى أيدينا الا أنه وجدت بعض الاشارات اليها . فنحن نعرف أن حاكم البندقية الدوج سبستيانو تزيانى Sebestiano Ziani عقد صلحاً مع صلاح الدين كما أرسلت جنوة إلى مصر فى عام ١١٧٧ م سفيراً اسمه ريبيوس فولتا Rebeus de Volta هذا وعندما ظهر خطر الحملة الصليبية الرابعة فى الغرب ، ذهبت سفارة مصرية إلى البندقية بهدف تحويل هذه الحملة عن هدفها فى مهاجمة مصر ووعدت الأخيرة البنادقة بامتيازات تجارية كبيرة فى مدينة الاسكندرية وبعد ما انحرفت هذه الحملة عن هدفها متجهة إلى القسطنطينية أرسلت البندقية سفارة إلى مصر سنة ١٢٠٨م والظاهر انها جاءت لتحصل البندقية على ثمن موقفها بالنسبة لهذه الحملة.

ولقد قدمت مصر أثناء العهد الأيوبى امتيازات هامة للدول التجارية الأوربية . وقد ورد ذكر أهم الامتيازات التى منحت للبندقية فى عهد كل من الملك العادل الأول والعادل الثانى والصالح نجم الدين أيوب وغيرهم وواصلت بيزا مساعيها للمحافظة على امتيازاتها فى الاسكندرية والزيادة منها . فقد أرسلت بيزا فى عام ١٢٠٧ سفيرا يدعى مرتزوكو Marzocco لعقد معاهدة مع الملك العادل الأول. كما جاء سفير بيزى آخر فى عام ١٢١٥م وتمكن من عقد اتفاقية لتأمين البيزيين على أنفسهم فى الاسكندرية وضمان الحرية لهم . كما أن هناك ما يفيد بأن بيزا تمكنت بواقع اتفاقياتها مع مصر

من الاحتفاظ بفندقها وتمثيلها القنصلى فى الاسكندرية وغيرها من الثغور المصرية إبان الحركة الصليبية .

أما العلاقات بين مصر وجنوة فالمعلومات التى وصلتنا عنها قليلة نسبياً ولكننا نعرف مثلا أن الملك العادل الأول كان على صلة وثيقة بأحد الجنوية ويسمى كليام ، الأمر الذى جعل رجال السلطان يتوجسون خيفة من ذلك على أساس أن يكون جاسوساً للفرنج . كما نسمع عن وصول رسل آخرين من جنوه لمقابلة السلطان ، وعن عقد معاهدة صلح بينها وبين مصر سنة ١٢٩٠ م لتصفية خلافات قامت بينهما .

وفضلا عن علاقات مصر مع المدن التجارية الكبرى الثلاثة فى ايطاليا فقد كانت لمصر علاقات مع مدن تجارية أخرى مثل راجوسا وأنكونا اللتين نعرف بوصول سفنهما إلى مصر . ولم يقتصر الأمر على ايطاليا وما جاورها ، فنحن إذا انتقلنا إلى فرنسا وجدنا أن مرسيليا كانت لها علاقات تجارية قديمة مع مصر منذ فترة سابقة وازدادت ازدهاراً خلال القرن الثالث عشر الميلادى وكان لتجار مرسيليا قنصلهم الخاص بالاسكندرية كما كان لمونبيلييه جالية تجارية بمدينة الاسكندرية ترجع إلى ما قبل القرن الثالث عشر الميلادى وكذلك عرفت الاسكندرية التجار من أرغونه وقتالونيا ، بل لقد وضعت برشلونة قانوناً بحرياً يعرف باسم Consulade de Mare كان من أهم ما جاء فيه تلك البنود الخاصة بالعلاقات التجارية بين برشلونة ومصر ، وحركة النقل البحرى بين برشلونة والاسكندرية على وجه الخصوص . وقد حرص كل من جيمس الأول وابنه بطرس الثالث ثم الفونس الثالث على توطيد العلاقات مع مصر ، وعقد الأخير مع السلطان المملوكى المنصور قلاوون معاهدة دفاعية هجومية فى ٢٥ ابريل عام ١٢٩٠ م كان من أبرز ما جاء فيها بنود خاصة بالتجارة بين البلدين . هذا وقد وجدت بلدان أوربية غربية أخرى كانت لها علاقاتها التجارية مع مصر بطريق مباشر أو غير مباشر ، مثل انجلترا التى قال عنها الجغرافى ابن سعيد أنها كانت

تتاجر مع الاسكندرية عن طريق اربونه ، وكان اقليم أكويتين تابعاً لانجلترا، مما يسر مرور التجارة .

هذا وإذا كانت تجارة مصر الخارجية فى العهد الأيوبى قد شملت العديد من بلدان الغرب اللاتينى ، فقد امتدت كذلك إلى الإمبراطورية البيزنطية ، والصلة بين هذه الامبراطورية ومصر قديمة وسابقة على عهد نهضة غرب أوربا التجارية الا أنه يجب أن نلاحظ أن تجارة مصر مع بيزنطة انما تأتى فى درجة ثانية تلى علاقات مصر مع دول الغرب اللاتينى . فالدولة البيزنطية كانت قد بدأت طريقها نحو الاضمحلال والانحلال سياسياً واقتصادياً . ومهما يكن من أمر فان هذه الدولة ظلت تعمل على تدعيم صلاتها مع حكام مصر . فقد أرسلت إلى صلاح الدين الأيوبى وفداً عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م لتحقيق ذلك كما نسمع عن وجود سفن تجارية بيزنطية راسية فى الاسكندرية على مارواه المؤرخ العينى . ومهما كان من قيام الخلافات بين مصر والدولة البيزنطية ، فقد حرصت مصر على تقديم حمايتها للتجار البيزنطين فى الاسكندرية . ويشير المؤرخون المقريزى وابن شداد والعماد الاصفهانى إلى تكرر الاتصالات بين الدولتين ، ولا ريب ان ذلك قد حقق المناخ المناسب للنشاط التجارى .

وقد نتج عن سياسة مصر فى التجارة الخارجية فى العهد الأيوبى من حيث تحديد مناطق نشاط التجار الأوربيين بسواحل البحر المتوسط أن أصبح للتاجر المصرى حرية الانطلاق فى ميدان التجارة بداخل البلاد مما أدى إلى تضاعف جهود تجار مصر كما فقد التجار اليهود ذلك المركز التجارى المرموق الذى كانوا يتمتعون به فى الفترة السابقة ، وذلك على أثر تغيير سياسة مصر التجارية وكذلك ما حدث من تطور فى غرب أوربا أبان الثورة أو النهضة التجارية الوسيطة . كما نلاحظ أن مع التطورات التى حدثت سواء فى الشرق الاسلامى أو العالم الأوربى بشقيه الغربى والشرقى ، أصبحت الكلمة العليا فى البحر الأحمر للمسلمين ، كما أصبحت الكلمة العليا فى البحر المتوسط للافرنج .

ولم يقع تغير فى سياسة مصر التجارية فى عصر المماليك وأهم ما يبرز فى هذا المجال أن مصر بقيت فى هذا العصر حريصة على اتباع السياسة التى وضعها صلاح الدين الأيوبى وطبقت بنجاح فى العهد الأيوبى وظلت مصر متمسكة بمبدأ اغلاق البحر الأحمر فى وجه التجار الأوربيين ، الا أنها فى نفس الوقت استمرت فى العمل على اجتذاب هؤلاء التجار للاتجار فى موانيها الواقعة على البحر المتوسط ، بما كانت تبذله من عهود وتعقده من مواثيق مع الدول الغربية .

وأثناء عهد المماليك ، ظهرت فى الغرب الأوربى بوضوح حركة مناهضة للاتجار مع مصر . فإن ميزان الصراع بين المسلمين والصليبيين أصبح ضد صالح الآخرين . وتبين للغرب جلياً أن مصر هى مركز الثقل أو القلب بالنسبة للجانب الاسلامى ضد الصليبيين وأنها تستمد قوتها الاقتصادية والعسكرية من حركة التجارة الدولية المارة بها والتى تربح من ورائها أموالا طائلة . كما كان تجار الغرب يمدون مصر بالأسلحة والرقيق الذين اعتمد المماليك عليهم اعتماداً أساسياً فى تشكيل جيشهم . وأمام تدهور موقف الامارات الصليبية فى الشام وسقوط عكا التى كانت آخر المراكز الصليبية فى أيدى المسلمين فى سنة ١٢٩١ م ، أخذت البابوية وأنصارها من دعاة الحركة الصليبية يقومون بحملة دعاية نشطة لغرض مبدأ التحريم التجارى . وأصدرت البابوية القرارات والمراسيم التى تحرم على المسيحيين الاتجار مع سلطان مصر والامارات التابعة له . وأحياناً كانت هذه القرارات محدودة فى نطاقها وأحياناً أخرى ، اتسعت دائرة التحريم التجارى سواء أكان ذلك فيما يتعلق بأصناف السلع أو مدة الاتجار . وقد أصدر مثلا البابا كليمنت الخامس فى عام ١٣٠٨ م منشوراً جديداً يحرم فيه على المسيحيين الاتجار مع المسلمين فى شتى أصناف السلع التجارية ، ويهدد من لا يلتزم بذلك بالحرمان من رحمة الكنيسة ومصادرة أملاكه وفقدان حريته وانزاله منزلة الرقيق .

ولقد انكب دعاة الحركة الصليبية على دراسة موضوع التحريم

التجارى وضرب مصر اقتصادياً لكى يتمكن الصليبيون من ضربها عسكرياً ووضعوا فى ذلك العديد من المؤلفات التى تعبر عن آرائهم وما توصلوا اليه من مشروعات . وسلم غالبيتهم بأنه من العبث ارسال حملة عسكرية صليبية ضد مصر مباشرة لما كان من تفوق مصر العسكرى ، وذهب مارينو سانودو فى كتابه (اسرار المؤمنين بالصليب) إلى القول بضرورة فرض حصار اقتصادى على مصر لمدة عشر سنوات ، حيث أن ذلك فى رأيه سيؤدى حتما إلى تخريب اقتصاد مصر . أما الداعية رامون لول فقد رأى فى كتابه (النهاية) أن امتناع الغربيين عن شراء التوابل من الاسكندرية والشام التابعة لسلطان مصر ، سيؤدى إلى القضاء عليه وعلى دولته اقتصادياً ، وانه سيمكن الصليبيين من تحقيق النجاح إذا ما قاموا بحملة عسكرية ضد المسلمين . والواقع ان كثيرين من دعاة الحركة الصليبية ، وقد تبينوا أهمية النتائج التى تحصل عليها مصر من تجارة الشرق والغرب ركزوا على ضرورة ضرب مصر اقتصادياً سواء أكان ذلك بتحريم التجارة معها أو تحويل التجارة إلى طريق آخر ، الأمر الذى كان لابد أن يؤثر على مصر عامة والاسكندرية خاصة ، وبالذات فيما يتعلق بنشاط الجاليات الأوربية ووجودها بالمدينة .

الا أن موقف البابوية وآراء دعاة الحركة الصليبية لم تحظ بالقبول لدى الدول التجارية الأوربية التى كانت تفضل مصالحها التجارية واستمرار التعامل مع مصر فى عهد المماليك . ولم تنجح البابوية كما لم يوفق الدعاة الصليبيون فى جعل تلك الدول تعدل عن نشاطها التجارى مع مصر بشكل فعال . بل نستطيع القول أن تلك الدول استمرت تزاول تجارتها بنشاط ولم تكن على استعداد لتضحى بمصالحها فى هذا الصدد . ففى عهد السلطان الملك الصالح اسماعيل وصل رسول من البندقية يدعى نيكولو تزينو Nicolo Zeno وتمكن من عقد اتفاقية مع السلطان لتسوية بعض مطالب التجار وكان ذلك فى سنة ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٤ م . كما نسمع عن اتفاقيات تجارية جديدة بين البندقية ومصر مثل تلك التى أبرمت فى عام ٧٥٦ هـ (١٣٥٥م) ، ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) . وبمقتضى تلك الاتفاقية الأخيرة سمح سلطان مصر لقنصل البندقية فى الاسكندرية بشراء بضائع لا تزيد قيمتها

عن الفي بندق دون أن يسدد عنها رسوم ، كما أقر السلطان بتوفير سبل الراحة للبنادقة باغلاق أماكن اللهو القريبة من فندق البندقية بالاسكندرية . ونحن نسمع كذلك عن تجديد اتفاقيات تجارية مع دول غربية أخرى ، وذلك مثل الاتفاقية مع جنوه سنة ١٣٥٠ م .

نشاط الجاليات الأوربية بالاسكندرية والنظم التي عاشت في ظلها :

ترتبت على هذه العوامل السالفة الذكر ، بما فيها موقع مصر والاسكندرية الجغرافي المتميز وسياسة حكام مصر في تشجيع حركة التجارة ، والنهضة أو الثورة التجارية التي قامت في الغرب الأوربي ، وما عقد من اتفاقيات أن نشطت تجارة «الترانسيت» بمصر عامة والاسكندرية خاصة . وقد اتجهت إلى الاسكندرية التي أصبحت محط رحال التجار من أوربا وغيرها ومركز نشاطهم التجاري لسنوات طوال . وللاسف فانه ليس من اليسير تكوين صورة متكاملة عن نشاط الاسكندرية التجاري من المصادر العربية أو الأجنبية التي دونها الكتاب الذين زاروا المدينة وعاصروا أحداثها في العصر الوسيط . فالمؤرخ النويري السكندري الذي عاش في مدينة الاسكندرية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) والذي ترك اخباراً هامة عن الاسكندرية ، لم يوضح لنا مظاهر نشاطها التجاري والاجتماعي ، على النحو الذي فعله المؤرخ المقريزي في بيان مظاهر هذا النشاط في القاهرة . ومهما يكن من أمر فما عرفت به الاسكندرية كان نشاطها التجاري الاجتماعي الكبيرة الذي يتميز بوجود جاليات تجارية أجنبية . وأن المؤرخ روبرت لوبيز Robert Lopez وهو من أبرز المؤرخين الحديثين في تاريخ التجارة في حوض البحر المتوسط في العصر الوسيط ، يرى أنه بالرغم من الامتيازات الكبيرة التي حصل عليها الايطاليون بالممتلكات الصليبية في الأراضي المقدسة ، فان ما عقدوه بها من الصفقات التجارية لا يعادل ما تم لهم عقده بمدينة الاسكندرية .

هذا وقد وصف بعض الكتاب الغربيين المعاصرين نشاط الاسكندرية التجارى ، وما حفلت به من جاليات أجنبية متعددة وخاصة الجاليات الأوربية الغربية . وسجل المؤرخ الصليبي وليام الصورى ملاحظاته فى أخريات القرن الثانى عشر قائلا : «ان الناس من الشرق والغرب يتجمعون هناك باعداد ضخمة ، فالاسكندرية هى سوق العالمين» . أما الرحالة بنيامين التطيلى الذى كان على شاكلة غيره من اليهود ، له نظرة تجارية عميقة ، فإنه أثناء زيارته للاسكندرية ، تعرف على ما يبدو إلى عدد من ربابنة السفن والتجار بها ، وحصل منهم على معلومات هامة فى كل من المجال التجارى ونشاط الأجانب بها . وإن معلوماته وإن كانت لا تحوى الكثير من التفاصيل ، الا أنها تلقى ضوءاً هاماً على موضوعنا . فقد ترك لنا ثبتا شاملا باسماء البلاد التى وفد تجارها إلى المدينة وعددها الكبير . من بلدان أوربا التى ورد ذكرها فى هذا الثبت: البندقية ولومبارديا وتسكانيا وصقلية وأمالفى ورومانية وهنغاريا وبلغاريا وراجوسة وروسيا وألمانيا وسكسونيا والدانمرك ونورمانديا وفريزيا والنرويج وفرنسا وآنجو وبرجنديا وبروفنس وجنوة وبيزا واراجون ... ويظهر من هذا الثبت كثرة بلاد الغرب الأوربى التى تعاملت مع الاسكندرية فى هذا العصر والتى جاءت جاليات تجارية منها . ومع تنوع أصول هذه الجاليات التجارية الأوربية وانتمائها إلى بلدان أوربية مختلفة فقد كثرت أعداد أفرادها فى الاسكندرية وقد ذكر المؤرخ المقريزى ما يدل على وجود نحو ثلاثة آلاف منهم فى الاسكندرية فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى — أوائل القرن السابع الهجرى .

ولقد تكونت النظم التى عاشت فى ظلها الجاليات الأوربية من نظم الحكم والادارة المعمول بها فى مصر ، والتى قامت بطبيعة الحال على أسس إسلامية ، وكذلك القرارات والمراسيم التى أصدرها السلطان بشأن معاملة التجار الأجانب ، ومواد الاتفاقيات التى أبرمت بين حكام مصر والدول التجارية الأوربية .

ولقد سمح قانون مصر القائم على الشريعة الاسلامية ، بنشاط هذه

الجاليات الأوربية على أساس أنها من طائفة المعاهدين ، على أن يكون هذا النشاط داخل حدود معينة . فقد سمح للافرنجي بالمتاجرة في الاسكندرية وغيرها من المراكز الاسلامية التي حددها القانون ، طالما كان التاجر المعاهد مخلصاً وملتزماً بأعماله التجارية ، ودون أن يتجاوز ذلك إلى ما يخالف القانون . هذا وكانت المحافظة على أرواح التجار الأجانب ركناً أساسياً في سياسة حكام مصر . وان ما صدر من الفتاوى ليدلنا على اهتمام الفقهاء بمعالجة موضوع نشاط التجار المعاهدين بمصر وما رسموه من القواعد المشروعة لنشاطهم . ومن أتم ما ظهر في هذا المجال كانت فتوى قاضي القضاة تقي الدين السبكي (٦٨٣ – ٧٥٦ هـ / ١٢٨٤ – ١٣٥٥ م) التي تناول فيها موضوع تأمين تجار الغرب المسيحيين ، ومدى التزام المسئولين بذلك ، والأمور التي تجعل من الفرنجي خارجاً على القانون ، وكذلك تحديد العقوبات التي يوقعها العمال المحليون على التجار الأجانب المخالفين دون الرجوع إلى السلطات العليا . ومما جاء في هذه الفتوى : «أن هؤلاء الذين دخلوا في دار الاسلام في التجارة بأمان ليس حكمهم حكم أهل الذمة ، بل حكم المستأمنين والمعاهدين .. وعقد الأمان أضعف من عقد الذمة» . ومن الأمور التي كانت توقع بالمعاهدين في دائرة العقاب كان ضرب المسلم أو اغوائه على ترك دينه واعتناق المسيحية وغير ذلك .

وقد لجأت سلطات مصر الحاكمة لنظام الفنادق من أجل تنظيم اقامة الجاليات الأوربية بالاسكندرية وتهيئة المكان المناسب لسكناهم ونشاطهم ، مع الحرص على وضعهم تحت الرقابة . وفي محاولة تتبع أصل نشأة نظام الجاليات التجارية وما ارتبط بها من قيام الفنادق في العصور الوسطى فإن بعض المؤرخين يقولون أن هذا النظام الذي يعبر عن قيام نواة أجنبية مستقلة في قلب بلد من البلاد ، قد جاء أصلا من الصين وأنه انتقل بعد ذلك إلى بلاد حوض البحر المتوسط سواء أكان في أوربا أو في الشرق . ويمكن تلخيص رأيهم على النحو التالي : انهم يرون أن الدولة الرومانية والدولة الفارسية الساسانية لم تمنع قبائل أجنبية بأسرها من الاقامة على أراضيها مع احتفاظها بقوانينها الخاصة ، إلا أنها حرمت على التجار الأجانب تخطي مدناً معينة ،

تقع على مقربة من الحدود ، وهى المدن التى تعقد بها الأسواق الدولية التى تشرف عليها الدولة . وكان المفروض على هؤلاء الأجانب بعد انتهاء الأسواق أن يرجعوا إلى بلادهم . ولكن فى الصين ، دون غيرها ، وجدت بها منذ القرن الثامن الميلادى جاليات مستقلة مستقرة ، من التجار الأجانب الذين سمح لهم بالاقامة فى البلاد ، كما سمح لهم بحرية التنقل داخلها . ثم أن هذا النظام وجد بعد ذلك بقليل فى الهند وبلاد الخزر ، كما بدأ وجوده فى الامبراطورية البيزنطية من القرن العاشر . وانتهى الأمر بأن قام هذا النظام فى البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط .. الا أنه لبيان مدى صحة هذا الرأى بشأن رجوع أصل نظام الجاليات إلى الصين فنحن لازلنا نحتاج للمزيد من من الأبحاث المتعمقة والادلة الثابتة .

ومهما يكن من أمر ، فالعلاقة بين لفظى فندق التى انتشرت فى اللغة العربية و Fundaco الايطالية من ناحية ، وبين النزل والأحياء الخاصة بالتجار فى بقية أوربا من ناحية أخرى ، هى علاقة واضحة على الرغم من التغيرات الكبيرة التى اعترت هذا النظام فى تاريخه الطويل . وهذا ويجدر بنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن لفظ فندق أو Fundaco الذى شاع استعماله منذ القرن الثامن هو أصلا من الكلمة اليونانية xenodochium التى تتكون من شقين : (xenon) ويعنى الغريب ، dochium ويعنى نزل أو مكان لاستقبال الغرباء وبذلك يكون معنى الكلمة أصلا نزل الغرباء

ومهما يكن من أمر فالفنادق أصبحت المأوى الذى تنزل به جاليات تجار الدول والمدن الأوربية المختلفة فى مدينة الاسكندرية . ويقول الرحالة بنيامين التطيلى بأنه كان لتجار كل أمة من الأمم ، التى ذكرها فى ثبته ، فنادقهم الخاصة بهم ، كما تدعم روايته رواية أخرى ، إذ ذكر الرحالة سمعان السمعانى الذى زار الاسكندرية ، بأن لكل مدينة تجارية هامة من مدن الفرنج ، الواقعة على سواحل البحر المتوسط ، فندق وقنصل خاص بالاسكندرية . وتستثنى من ذلك البندقية التى كانت لها جالية كبيرة بهذا الثغر ، فقد حصلت به على فندقين لها بالمدينة .

ويغلب على الظن أن هذه الفنادق كانت تقام داخل المدينة على مقربة من باب البحر الذى يشرف على الميناء الشرقى ، مكان رسو سفن الأفرنج — والفنادق كانت مبان ضخمة عالية وهى فى ذلك أشبه بالحصون ، وهى فى العادة من أكبر مبانى المدينة . وكانت تتكون من عدة طوابق . والطابق الأسفل كان يضم مخازن البضائع وحوانيت تعرض فيها السلع . وتفتح هذه الحوانيت من الداخل على ساحة تفرغ فيها البضائع وتخزن وتشحن . والجزء المتبقى من الساحة كان يزرع بأشجار جميلة تذكر كل جالية بأوطانها وكانت الطبقات العليا بالفندق يسكنها التجار . وقد سمحت سلطات مصر بحرية العبادة فى هذه الفنادق ، فأقامت كل جالية بفندقها أماكن مخصصة لعبادتها . بل لقد تجاوز الأمر ذلك فقد سمحت مصر بأن تضم فنادق الدول الكبرى كنائس هامة مثل كنيسة القديس نيقولا بفندق البيازنة ، وكنيسة القديس ميخائيل بفندق البنادقة . ومن باب تيسير سبل المعيشة والراحة لنزلاء الفنادق كان لكل منها حمام ومخبز خاص ، كما أباحت السلطات المصرية للأوربيين احتساء الخمر داخل الفنادق . ولم يقتصر النشاط بفنادق الافرنج بالاسكندرية على استقبال التجار وخزن بضائعهم ، بل كانت الفنادق كذلك بمثابة أسواق هامة ومراكز للتجارة ، فيقول عنها بنيامين التطيلي : «ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم وهم فى ضجة وجلبة ، يبيعون ويشترون » .

وفضلا عن ذلك كله ، ومن باب الاحتياط ، فانه عندما كان يحل الليل ، كان يغلق أبواب الفنادق من الخارج موظف حكومى خاص . كما أنه أثناء صلاة الجمعة من كل أسبوع كانت تغلق هذه الفنادق ، ويمنع الفرنجى من مبارحة فندقه والتجول فى شوارع المدينة . وكان اغلاق الفنادق ظهر الجمعة يستمر ساعتين أو ثلاثة . ولا ريب أن الهدف من ذلك كان تفادى وقوع أى احتكاك بين المسلمين وا لافرنج ، والحرص على أرواح الآخرين وسلامتهم . وباستثناء هذه القيود كان للافرنجى حرية التنقل فى المدينة من الصباح حتى غروب الشمس .

وكان يتولى الاشراف الأعلى على كل جالية وفندق من جالياته

وفنادق الأوربين قنصل خاص . والواقع أننا لازلنا فى حاجة لمزيد من الدراسة للدور الذى قام به القناصل فى الدول الاسلامية . وهناك من يرى أن انشاء هذه الوظيفة كان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . وكأن القنصل هو الذى يسمح للتاجر بالاقامة فى الفندق ، وهو الذى يمثل مصالح دولته فى المدينة ويرعى شئون مواطنيه ، ويعمل على التغلب على العقبات التى قد تثار أمامهم ، كما كان عليه تنظيم كافة الأمور المتعلقة بالتجارة . هذا ودخلت فى اختصاصات القناصل مسائل أخرى . فالسلطات المصرية كانت لا تسمح للفرنجى بدخول الاسكندرية الا بعد موافقة قنصل الدولة التى يتبعها ، على أن يقدم القنصل معلومات دقيقة عن كل تاجر قبل السماح له بنزولها . هذا وكان على القناصل متابعة ما يتم فى ديوان الخمس فيما يختص بتجار دولته . وكان يعاون القنصل من بنى وطنه بعض المعاونين يرأسهم شخص يدعى الفندق ، ومهمة هؤلاء المعاونين مساعدة القنصل فى أداء مهامه ومنها توفير سبل الراحة للنزلاء .

وهنا تجب ملاحظة أن هذه الفنادق التى أنشأت من أجل اقامة الجاليات الأوربية لم تكن بالمستعمرات الأجنبية على أرض مصر ، وأنه ليس لنزلائها امتيازات تفرض على مصر أو تذعن لها حكومتها . وانما كانت هذه المنشئات تضعها الحكومة المصرية طواعية من باب التسهيل والتنظيم لاقامة هؤلاء التجار ، وكانت لمصر الحرية فى اغلاقها كلما قررت ذلك ، إذا ما خرج أعضاء الجالية أو بعضهم عن النشاط التجارى المشروع ، أو إذا ما قامت الدولة التى تنتسب اليها الجالية بعمل اعتبرته مصر عملا عدوانياً .

كما كانت الجاليات الأوربية تخضع لنظم أخرى فرضها المسئولون بالمدينة ، وتتسم بالدقة والحزم ، سواء أكان ذلك فيما يختص بشئون الجوازات والأمن أو ما يتعلق بشئون الرسوم والمقررات الجمركية . فالمسئول عن الملاحة عندما يلحظ سفينة واردة إلى الميناء فعليه بابلاغ حاكم المدينة الذى يتخذ من الاجراءات ما يلزم لاستقبالها والاشراف على رسوها ونزول

الركاب والبضائع . وعند رسو مراكب التجار الأوربيين كان يتوجه اليها موظفو الديوان ومعهم العشاريات وهى مراكب صغيرة بالمجاذيف قليلة العمق لتحمل البضائع والركاب من القراقير أو السفن الكبيرة إلى الساحل . هذا ويقوم موظفون مختصون باثبات أسماء الركاب بمعرفة شكريانها أو «القبطان» وكان عليه جمع ركاب سفينته وتقديم أسمائهم ، وهؤلاء يتحتم على كل منهم أن يقدم بياناً عما معه من أموال وسلع . ويقدم الرحالة ابن جبير وصفاً لما كان يحدث بعد ذلك . ويبدو أن «القبطان » كان يصطحب الركاب ليمروا معه على مركز حاكم المدينة ثم على القاضى ثم على ديوان الخمس وكان المقرر فى كل مرحلة من هذه المراحل أن يقوم موظفون مختصون بسؤال الركاب وتسجيل اسمائهم .

وبعد تفريغ بضائع المركب وحملها إلى ديوان الخمس الذى وجد به ثلاثون مخزناً ، كانت تجرى عملية تفتيش مرة أخرى بشكل دقيق ، يجرى فيها تفتيش الركاب وكل ما يخصهم فرداً فرداً ، ويفرض على كل منهم أن يقسم يميناً بأنه لا يخفى شيئاً . ويقول ابن جبير واصفاً ما يحدث فى ديوان الخمس : «فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما قل منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفى اثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم ..» ويكاد يطابق نفس الوصف فى بيان دقة وشدة ديوان الخمس لما ذكره رحالة أوربى من القرن الرابع عشر الميلادى وهو فريسكو بالدى ومما قاله فى ذلك : «فتولانا بعض الضباط ، وأخذوا فى عدنا كالبهائم ، ثم اثبتوا العدد فى دفاترهم ، ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشاً دقيقاً وتركونا فى حراسة قنصل فرنسا ، ثم حملت أمتعتنا إلى الديوان وأعيدت وفحصت فحصاً شديداً ..» وأشار كذلك إلى دقة وحزم رجال الديوان كتاب آخرون . وربما كان من أسباب حرص ودقة رجال الديوان ، ذلك العدوان الصليبى الذى كان

لا يزال يتجدد من وقت لآخر ، فمصر كان عليها أن تتحرى عن الشخصيات التى تفد عليها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حرصت البلاد على الحيلولة دون التهرب من دفع الضرائب والرسوم المقررة .

كان التجار الأوربيون يخضعون لمعاملة ضرائبية محددة ، وان كانت قد تفاوتت فى نسبتها فى بعض الأحيان طبقاً لظروف الاتفاقيات التجارية التى عقدتها مصر مع الدول الأوربية على مر السنين . فالتاجر الأوربى سواء أكان من الدولة البيزنطية أو من دول الغرب الأوربى ، كان عليه أن يدفع عن نفسه كرسم لدخول المدينة ، قطعة ذهبية أو قطعتين ، وتعرف هذه الضريبة بمكس السماح . وكان يعفى من هذا الرسم رجال الدين . أما ما يكون فى حوزة التاجر الافرنجى من نقود ، فيدفع عنه ضريبة معينة . أما ما يصطحبه من سلع تجارية فيدفع عنها ضريبة تعرف بضريبة الخمس . وقد أورد ذكر هذه الضريبة كل من القلقشندى وابن مماتى . ويشرح القلقشندى مثلا موقف الشرع والدولة من هذه الضريبة التى تفرض على «تجار الكفار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية» فيقول : «أعلم ان المقرر فى الشرع أخذ العشر من بضائعهم التى يقدمون بها من دار الحرب إلى بلاد الاسلام ، إذا شرط ذلك عليهم . والمفتى فى مذهب الشافعى رضى الله عنه ، أن للامام أن يزيد فى المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه إلى نصف العشر للحاجة إلى الازدياد من جلب البضاعة إلى بلاد المسلمين ، وأن يرفع ذلك عنهم رأساً إذا رأى فيه المصلحة . وكيفما كان الأخذ ، فلا يزيد فيه على مرة من كل قادم بالتجارة فى كل سنة ، حتى لو رجع إلى بلاد الكفر ثم عاد بالتجارة فى سنته ، لا يؤخذ منه شىء الا أن يقع التراضى على ذلك ، ثم الذى ترد اليه تجار الكفار من بلاد الديار المصرية ثغر الاسكندرية وثغر دمياط ، المحروستين ، تأتى اليهما مراكب الفرنج والروم والبضائع ، فتبيع فيها أو تختار منها ما تحتاج اليه من البضائع ، وقد تقرر الحال على أن يؤخذ منهم الخمس وهو ضعف العشر ، عن كل ما يصل لهم فى كل مرة وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً» .

وهكذا فقد نصت تعليمات السلطان على تنظيم معاملة التجار الأوربيين فى ديوان الخمس ، وارتبط ذلك بطبيعة الحال بالاتفاقيات المختلفة التى عقدها الخليفة مع الدول التجارية الأوربية . وكثيراً ما أصدر الخليفة أوامره بعدم التلاعب بمصالح التجار الأجانب طالما كانوا يؤدون ما عليهم من رسوم . فنصت على حرية التجار فى بيع سلعهم ، كما أمر ديوان الخمس بالتزام القيمة الحقيقية للسلع عند تحديد الضرائب ، وألا يفرض على التاجر الأجنبى أن يدفع ضرائب على بضائعه الا بعد وصولها إلى الميناء . كما نص عدد من الاتفاقيات بين مصر والدول التجارية على أنه عندما تقترض الحكومة من تاجر أوربى مالا ، فيجب على ديوان الخمس أن يخصم هذا القرض من الضرائب المستحقة على التاجر . ومن الأوامر التى نصت عليها الاتفاقيات لمنع تلاعب بعض الموظفين بديوان الخمس ، أن التاجر الأوربى لا يجوز أن يدفع ضريبة الخمس عن السلعة الواحدة الا مرة واحدة ، وذلك تفادياً لما قد يحدث فى حالة فصل موظف مسئول عن ديوان الخمس واحلال موظف آخر محله .

وبصفة عامة أهتمت مصر بتوفير الأمن والطمأنينة للتجار الأجانب وعملت على تأمين مصالحهم وذلك لما كانت تجنيه من فوائد من ورائهم ، وتشهد على ذلك بعض الوثائق التى سجلها المؤرخ القلقشندى . ومنها تلك الوثيقة الهامة المرسلة إلى أحد كبار المسئولين عن الاسكندرية فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وقد جاء فيها : « وليتلق ... كذلك تجار الجهة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليحسن لهم الوفادة وليعاملهم بالمعدلة المستفادة ، فان مكاسب الثغر منهم ومن الله الحسنى وزيادة .. » وجاء فى وثيقة أخرى موجهة لمسئول فى الاسكندرية : «... ويجتهد فى تحصيل أمواله — ثغر الاسكندرية — وتحصين ذخائره ، واستخراج زكاته وتنمية متاجره ، ومعامله التجار الواردين اليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه ، والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ، فانهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع على ما تجنه الصدور ، وإذا بذر لهم حب الاحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور

وليعتمد معهم على ما تضمنته المراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخر وقت ، ولا يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت ... » وفضلا عما سبق ذكره ، فمن باب التسهيلات التى بذلتها مصر للتجار الأجانب ، كانت موافقتها على ألا يؤخذ تجار دولة بجريرة أحد منهم . وفى حالة موت أحد التجار وافقت مصر على نقل أمواله وممتلكاته إلى ورثته فى بلدة عن طريق قنصل دولته فى الاسكندرية ، أو عن طريق من يكون برفقته من التجار . هذا وقد أجازت لبعض التجار الأجانب التعامل بنقدهم واستعمال موازينهم ومكاييلهم ومقاييسهم .

وفيما يتعلق بالقضاء والعدالة فقد كان القناصل الأوربيون هم الذين يفصلون فى المنازعات القائمة بين أفراد الجاليات الأوربية . ولكن إذا قام خلاف بين تاجر افرنجى وآخر من المسلمين ، فيكون الاحتكام إلى قاضى المدينة . هذا وكان للقنصل الحق فى الرجوع بشكوى بنى وطنه من التجار إلى السلطان دون أن يمنعه أحد عن ذلك . ومن أهم الشواهد على اهتمام سلاطين مصر بتوفير العدالة للتجار الأجانب ما ذكره المؤرخ أبو الفدا عندما عزل السلطان المملوكى الناصر محمد قاضى مدينة الاسكندرية بسبب عدم مراعاته العدالة مع تاجر افرنجى .

وإذا كانت علاقات الجاليات الأوربية مع السلطات الحاكمة بمصر وكبار تجار البلاد مظهراً من مظاهر حياتهم فى مجتمع الاسكندرية ، الا أنه وجدت لهذه الجاليات كذلك اتصالات هامة مع هيئات قامت بدور فعال فى تمكينها من مزاولة نشاطها بالمدينة . وأهم هذه الهيئات كان الوسطاء أو السماسرة ، والتراجمة ، والمغربلين والحمالين . وكان بعض كبار السماسرة يحاولون فرض أنفسهم على التجار مع تحديد عمولة كبيرة على كل صفقة تجارية يتمونها مما لم يسترح اليه التجار الأجانب . ولذا صرنا نجد فى بعض الاتفاقيات شروطاً تنص على اتاحة الفرصة أمام صغار السماسرة لما يترتب على ذلك من فائدة للتجار الأوربيين كما حاول بعض المترجمين استغلال التجار ، الا أن عدداً من المعاهدات قد نصت على الحد من ذلك ، وقررت

ألا يأخذ المترجم أجراً عن جهده فى الترجمة للصفقة الواحدة الا مرة واحدة . كما حاولت بعض الاتفاقيات الأخرى تنظيم العلاقة بين التجار الافرنج ومغربلى البهار وكذلك الحمالين الذين كانوا يقومون بنقل البضائع على ظهور الجمال والحمير .

الخاتمة :

وهكذا ولعدة قرون شاهد مجتمع الاسكندرية نشاطاً كبيراً قامت به الجاليات الأوربية . وظلت الاسكندرية مركزاً أساسياً للتجارة بين الشرق والغرب ، تلك التجارة التى درت على مصر أرباحاً طائلة ، وكانت المصدر الأساسى لتدعيم اقتصادها ، وعاملا أساسياً فى مساندتها فى سياستها الخارجية بفضل ما اعدته من جيش قوى مكنها من دفع الخطر عن الوطن العربى سواء أكان ذلك ضد الصليبيين أو ضد التتار .

الا أنه وقعت تطورات وأحداث خطيرة فى كل من مصر والغرب الأوربى ، أدت إلى وضع حد للنشاط والازدهار الاقتصاديين للاسكندرية ، وعادت فى النهاية بنتائج وبيلة على مصر . فإن سلاطين المماليك الجراكسة ما لبثوا أن فرضوا احتكارهم التجارى على أهم السلع التى كان الغرب يستوردها عن طريق مصر ، ألا وهى التوابل مما أدى إلى ارتفاع أثمانها ارتفاعاً فاحشاً . وكان الضيق الذى ساد الغرب من جراء ذلك ، عاملا هاماً فى دفع الدول التجارية الغربية إلى مواصلة الجهود لاكتشاف طريق بحرى مباشر إلى الشرق الأقصى ، يتجنب المرور بمصر وقد تحقق ذلك فى عام ١٤٩٨م عندما تمكن فاسكوداجاما Vasco da Gama البرتغالى من اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، فاتحا بذلك طريقاً جديداً للتجارة العالمية مع الشرق الأقصى ومعلناً فى نفس الوقت ضياع أهمية طريق مصر ، لما ترتب على ذلك من تدهور اقتصاد مصر واهتزاز قوتها السياسية وسقوطها فى أيدى الاتراك العثمانيين فى سنة ١٥١٧ م . وأن المؤرخ ابن اياس الذى عاصر هذه الأحداث الخطيرة والذى زار الاسكندرية فى ذى الحجة عام ٩٢٠هـ /١٥١٥م قد سجل وصفاً مؤسفاً لما انتاب الاسكندرية من محن ، حيث كتب :

«.. وكان ثغر الاسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب .. ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار ، لا من المسلمين ولا من الفرنج وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب ، وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر. فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب» وهكذا فقدت الاسكندرية تلك المكانة التى تبوأتها لمدة طويلة ، وانتهى ذلك الدور الهام الذى قامت به الجاليات الأوربية فى مجتمع الاسكندرية فى العصر الوسيط والواقع أنه مضت سنوات عدة قبل أن تعاود الجاليات الأوربية ظهورها فى مجتمع الاسكندرية لتستأنف نشاطها به ، ولم يكن ذلك قبل مطلع القرن التاسع عشر الميلادى .

مجتمع الاسكندرية فى العصر العثمانى

للدكتور عمر عبد العزيز عمر

بذل الباحثون وعلماء التاريخ جهوداً كبيرة فى دراسة تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصور القديمة والاسلامية والحديثة . ولكن الدراسات التى تناولت تاريخ المدينة فى العصر الحديث بالذات تكاد تعد على أصابع اليد ، ولا تتعادل مع الدراسات التى تناولت تاريخ الاسكندرية فى العصور القديمة والوسيطة . ورغم قلة تلك الدراسات والأبحاث ، فانها تقتصر على بحث تاريخ المدينة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، أى منذ نزول الحملة الفرنسية بها عام ١٧٩٨ ، والحملات العسكرية الاستعمارية التى تعرضت لها المدينة خلال نفس القرن . أما دراسة تاريخ الاسكندرية فى العصر العثمانى ، فلم تحظ باهتمام الباحثين والمؤرخين ، بل مروا فى بحوثهم ودراساتهم على هذا العصر مروراً سريعاً ، واعتبروه عصر تأخر واضمحلال بالنسبة لتاريخها ، وعصر انحطاط وانتكاس لحضارتها .

ومما لاشك فيه أن الباحث فى تاريخ هذه الفترة يواجه العديد من الصعاب ، التى ينبغى أن نسجلها بالتفصيل فى مقدمة هذا البحث . لقد اضمحلت مدينة الاسكندرية خلال العصر العثمانى وأصبحت فى عداد القرى بعد فترة طويلة من الازدهار والعظمة . ففى العصر الأيوبى وعصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة ، كانت الاسكندرية القاعدة البحرية فى مصر ، والمركز الصناعى والتجارى الأول فى البلاد . وكانت علاوة على ذلك مستقر العلوم ، ومقصد الفلاسفة والأدباء ورجال العلم والفن طوال العصر الاسلامى ، وكان معظم نزلائها من المغرب الاسلامى والأندلس وهذا يفسر التأثير الأندلسى المغربى الغالب على هذه المدينة (١) . وقد

وصفها صاحب كتاب الاستبصار فى القرن السادس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بقوله : «والاسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها ، وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها وإتقانها ، وسعة شوارعها وطرقاتها ، وهى برية بحرية ، وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ما ليس ببلد مع طيب هوائها وتربتها» (٢) . وفى خلال القرن الرابع عشر ارتفعت مكانة الاسكندرية ، فبعد أن كانت ولاية يتولاها وال من أمراء الطبلخاناه جعلها السلطان الأشرف شعبان نيابة يحكمها نائب من الأمراء المقدمين ، له ما للسلطان فى القاهرة ، فله دار النيابة — وهى مقر حكمه — ، وجعل فى دار النيابة هذه كرسياً للسلطنة . (٣) ولكن قبيل الفتح العثمانى لمصر مباشرة ، رسم ابن إياس صورة شوهاء لمدينة الاسكندرية تدل على مبلغ ما وصلت اليه المدينة من تأخر واضمحلال . فأصاب الاسكندرية ما أصاب مصر جميعها من إهمال ، فانكمشت عن ذى قبل ، ونعق بوم الخراب فى نواحيها ، وأقفرت شوارعها ، وخربت دورها . وسوف يعالج الباحث بالتفصيل فى هذا البحث العوامل والظروف التى أدت إلى تدهور المدينة واضمحلالها قبيل العصر العثمانى وخلاله .

أما الصعوبة الأخرى التى يواجهها الباحث فهى ندرة المعلومات الموجودة فى المصادر التاريخية المعاصرة عن مدينة الاسكندرية . فالمصادر التاريخية المتعلقة بتاريخ مصر العثمانية كثيرة ومتعددة ، الا أن المادة العلمية الموجودة فى تلك المصادر تقتصر فى غالبيتها على مدينة القاهرة فقط ، وعلى الطبقة الحاكمة والصفوة العسكرية الموجودة فيها . حقيقة أن القاهرة قد سيطرت على الحياة السياسية فى مصر وأن البكوات قد سيطروا على العاصمة ، الا أنه قد حدثت بعض التطورات الهامة خارج القاهرة ورغم ذلك لا نحصل الا على لمحات بسيطة عنها من المصادر . وستظل معلوماتنا عن طبيعة المجتمع المصرى وتكوينه فى العصر العثمانى قاصرة وناقصة حتى يتسنى للباحثين قراءة الجزء الأكبر من الوثائق التركية الخاصة بمصر العثمانية ، وحتى يوجد من يتعلم قراءة خط القيرمة ، ويتمكن من

دراسة ما تتضمنه مخطوطاته من معلومات . فتشتمل الوثائق التركية الموجودة بأرشيف عابدين والقلعة بالقاهرة على وثائق خاصة بمحافظة الإسكندرية منذ عام ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ (وهى السنة التى دخلت فيها مدينة الاسكندرية فى حوزة محمد على) إلى عام ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣ . (٤) كما تحتوى دار الوثائق على أكبر مجموعة من الوثائق الخاصة بمصر العثمانية قبل عهد محمد على من بينها دفاتر التزامات الجمارك التى يوجد منها نحو مائتى سجل من ١١٢٣ هـ/ ١٧١١ إلى ١٢٤٥ هـ/ ١٨٢٩ (٥) . كما تشتمل كذلك على عدد من الوثائق الصادرة من المحاكم الشرعية فى مصر ، التى تشمل غالباً عدداً عظيما من الحجج أو القرارات الصادرة من القضاة بشأن مختلف الأمور ، أهمها يتعلق بنقل الممتلكات وتوارثها (٦) . أما بقية المصادر التركية المنشورة عن تاريخ مصر العثمانية فهى متعددة وكثيرة الا أنها تتعلق بالقاهرة والصراع على السلطة والقضاة والأوجاقات العسكرية والأحوال المالية والاقتصادية . وبخصوص المصادر الوصفية التى كتبها الرحالة فلا يوجد منها سوى القليل جداً مثل كتاب افليا شلبى (١٦١٤ – ١٧٨٣) «سياحة نامه» (استانبول ، ١٨٩٨ – ١٩٣٨) ، وقد خصص الجزء العاشر الذى نشر عام ١٩٣٨ لوصف حالة مصر أثناء زيارته لها فى نهاية القرن السابع عشر . والكتاب كغيره من كتب الرحالة الأجانب يصف الحالة العامة فى مصر ومدنها وأسواقها وأبنيتها العامة (٧) .

ورغم تعدد كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر خلال العصر العثمانى فإنهم لا يعطون مدينة الاسكندرية الاهتمام الأكبر بسبب الخراب والتدهور الذى أصابها . كما أن هؤلاء الكتاب بسبب الأوضاع العامة فى مصر فى العصر العثمانى لم يتمكنوا من التغلغل فى الحياة المصرية ودراستها دراسة وافية . وأهمية كتب الرحالة كمصدر أساسى فى تاريخ مصر لم تبدأ الا فى القرن التاسع عشر بكتاب ادوارد وليم لين (E.W. Lane) The manners and Customs of modern (Egyptians . كما أن مجموعة الدراسات التى كتبها علماء الحملة الفرنسية فى مؤلفهم الكبير «وصف مصر»

(Description de l'Egypte) لا تصور أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية تصويراً دقيقاً الا فى الفترة السابقة للاحتلال الفرنسى مباشرة . والمصدر العربى المعاصر الذى تحدث عن الاسكندرية ولا يختلف كثيراً عن الروايات التى جاءت فى كتب الرحالة هو «الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة» لكاتبه محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى . وقد كتب ابن أبى السرور فى مقدمة مخطوطه : «خطر لى أن أجمع كتاباً فى فضايلها (مصر) ومآثرها وعجائبها مع ذكر ملوكها الأوايل والأواخر وما خصصت به من الخصايص والمفاخر ليس بالقصير المخل ولا الطويل الممل . يتنزه فيه الناظر وينشرح بمطالعته الخاطر وتنبسط النفوس بذكره فى المجالس ويتفكه به السامع والجالس وسميته الكواكب السايرة فى أخبار مصر والقاهرة». وهذه المقدمة تبين منهج الكتاب الذى يتناول فصله الأخير أخبار الاسكندرية والمنارة وما فيهما من العجايب ، والكتاب فى الواقع دراسة للخطط المصرية فى ذلك العصر .

والصورة التى رسمها معظم الكتاب - معاصرين أو غير معاصرين - عن مدينة الاسكندرية صورة قاتمة مظلمة ، فكتب على مبارك عن المدينة يقول : «كانت الاسكندرية بل وسائر الديار المصرية قبل استيلاء المرحوم محمد على باشا عليها وتوجيه نظره اليها فى غاية من الاضمحلال وسوء الأحوال مع قلة العدد والعدد قليلة المتاجر والأسفار ، كثيرة الفتن والأشرار ، قعدت أعرابها على أذناب الطرقات ، واستعملت القتل والسلب فى كل الأوقات ، ليس لأهلها فكرة فى اكتساب أنواع المعارف والصنائع ، ولا لهم خبرة بما يستوجب كثرة محصولات المزارع ، فلما جلس على التخت وذلك لاثنى عشر يوماً خلت من ربيع الأول سنة ١٢٢٠ من الهجرة الموافقة لسنة ١٨٠٥ من الميلاد التفت اليها بل إلى القطر جميعه ، ووجه اليه جميل أفكاره ، وشمله بجليل أنظاره ، وأخذ فى اصلاح ماأفسدته التقلبات الدهرية ، وحيث كان غير خفى على ذكائه أهمية موقع الاسكندرية من الديار المصرية ، وأنها بالنسبة للقطر جميعه كالرأس بالنسبة للانسان سيما وهى من أعظم ثغور الاسلام ، وعليها المدار فى تحصين القطر ، وسد عوراته ،

صرف اليها همته العلية ، واحتفل بها احتفالات سنية ، وأجرى فيها من محاسن الترتيبات والتنظيمات ما أوجب لها العمارة وتزايد الخيرات ، وكثر فيها الصادر والوارد ، فعاد إليها وسيم نضرتها ، وقديم شهرتها ، فبعد أن كان بها من الأنفس قبل أيام المرحوم محمد على لا يزيد عن ٨٠٠٠ نفس وذلك وقت دخول الفرنساوية الديار المصرية سرت فيها العمارة سريان الماء فى العود الأخضر ، وأورق غرس سعدها وأثمر حتى بلغت عدة أهلها ٦٠٠٠٠ نفس ، ثم فى سنة ١٨٣٠ بلغت ١٣٠٠٠٠ نفس . وهكذا لم تزل فى الزيادة فى عهده وعهد خلفائه من بعده إلى أن صارت من أمهات الأمصار ، وهرع الناس اليها من سائر الأقطار حتى بلغت عدة أهلها فى عصرنا هذا أعنى سنة ١٢٩١ هجرية ٢٧٠٠٠٠ نفس ، وبعد أن كان لا يرى فى ميناها القديم غير مراكب شراع قليلة ترد اليها فى بعض الأوقات ببضائع قليلة من نحو البلاد التى على سواحل البحر الرومى وجهات إيطاليا صارت كل يوم يرد إليها وافر من المراكب شراعية وبخارية ، تجارية وحربية من جميع الجهات ، تجلب اليها مبالغ جسيمة من أنواع محصولات الأقطار ، وذلك بسبب ما جدده بالاسكندرية من الآثار السنية ، والمنافع الوطنية ، فانه قد نزع عنها جلابيب الاحداد وكساها حلل الاقبال والإسعاد ، وأحدث فيها مبانى جميلة ، وعمائر جليلة ، وأمر باصلاح ما تهدم من أسوارها ، وتجديد ما اندرس من آثارها ، واحتفل بذلك احتفالا ، زائداً تحسينها لهيئتها وحرصاً على عمارتها » (٨) .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن الآن : متى بدأ هذا الانهيار ؟ ولماذا ؟ لقد عاشت الاسكندرية فى أيام المماليك عصراً زاهراً نهضت فيه اقتصادياً وعمرانياً ، ويصور الرحالة ابن بطوطة هذا التوسع العمرانى أصدق تصوير بقوله : «هى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها » (٩) . وكانت الاسكندرية أهم ثغور مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ،

وحلقة الاتصال بين طرق التجارة العالمية فى العصور الوسطى . ولذلك انتعش الاقتصاد السكندرى انتعاشاً ملحوظاً بسبب الرسوم الباهظة التى كانت تفرضها حكومات مصر على السلع والمتاجر التى يأتى بها التجار الفرنج ، وتعرف هذه الرسوم بضريبة الثغور . كما كانت الأسكندرية أهم مركز فى مصر لتصدير التوابل ، وهى تجارة مصر الأولى مع أوروبا المسيحية ، وعلى هذه التجارة اعتمد سلاطين المماليك فى تنمية موارد الدولة . وزاد من هذه الموارد احتكار سلاطين المماليك لتجارتها وتجارة بعض الحاصلات مثل السكر والأخشاب والمصنوعات المعدنية . وبلغت هذه الاحتكارات ذروتها فى أيام الأشرف برسباى (١٤٢٢ — ١٤٣٨) الذى أصدر فى عام ١٤٢٨ مرسوماً حرم فيه شراء التوابل من غير مخازن السلطان ، وفرض رسوماً باهظة على الواردات والصادرات ، وجعل الاسكندرية الميناء الوحيد لتجارة التوابل (١٠) . فارتفعت أسعار بعض السلع الشرقية ارتفاعاً هائلا ، واجتمع البنادقة على الأشرف برسباى فى عام ١٤٣٢ عن طريق ممثلهم فى الاسكندرية ، ولما لم يجبهم السلطان إلى مطالبهم ، قطعوا علاقاتهم بمصر ، وأرسلوا أسطولهم إلى الاسكندرية لاعادة التجار البنادقة إلى بلادهم . وأمام هذا التهديد عاد برسباى إلى صوابه ، ومنحهم شروطاً أفضل فيما عدا احتكار الفلفل (١١) .

وكانت الاسكندرية إلى جانب شهرتها التجارية العظيمة مدينة تحيط بها المزارع والحقول ، وكانت أرضها تنبت بوجه خاص النخيل والكروم والزيتون والتين واللوز والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين . وقد شاهد ابن جبير عند رحيله من الاسكندرية إلى دمنهور بسيطاً من الأرض «كله محرث يعمه النيل بفيضه ، والقرى فيه يمينا وشمالا لاتحصى كثرة» (١٢). وكان العنب يكثر برمل الاسكندرية . ولما حفر الناصر محمد بن قلاوون خليج الاسكندرية ، استغنى أهل الاسكندرية عن الصهاريج ، وقام الناس بالزراعة على طول الطريق إلى الاسكندرية . ولكن هذه الترعة لم تلبث أن سدت وطمرتها الرمال ، فتلف الجزء الأكبر من الحقول والبساتين المحيطة بالاسكندرية ، وتلاشت القرى . وعندما أعاد برسباى حفر الخليج

(ترعة الأشرفية) لم تعد البساتين كما كانت من قبل إذ أخذت الاسكندرية تسير سيراً حثيثاً نحو الاضمحلال . وبالاضافة إلى حرفتي التجارة والزراعة ، اختص جماعة من أهل الاسكندرية بصيد الأسماك ، بحكم وقوع الاسكندرية على البحر المتوسط من جهة ، وقربها من بحيرتي ادكو ومريوط من جهة ثانية ، ووصول خليج الاسكندرية إلى المدينة متفرعاً من النيل من جهة ثالثة . وترتب على هذه الحرفة صناعة تجفيف السمك وتمليحه ، فكان السمك إذا تم صيده «يوضع على أنخاخ ويملح ويوضع فى الأمطار ، فاذا استوى بيع وقيل له الملوحة والصير ، ولا يكون ذلك الا فيما كان من السمك فى قدر الأصبع فما دونه ، ويسمون هذا الصنف إذا كان طرياً بسارية ، فتؤكل مشوية ومقلية » (١٣) .

وقبل العصر العثمانى كانت الاسكندرية تشتهر بكثرة صناعاتها مثل صناعة النسيج وصناعة الخزف وصناعة الزجاج ، وصناعات أخرى متعلقة بالكروم . ولقد أجمع المؤرخون العرب الذين كتبوا عن الاسكندرية على تفوق صناعة النسيج فى المدينة فى العصر الاسلامى . ويرجع سبب تفوق الاسكندرية فى هذه الصناعة على غيرها من مدن مصر والشام إلى أنها ظلت تحتفظ بعد الفتح الاسلامى بمركزها القديم ، فلم تتأثر بهذا التغيير السياسى والدينى ، وقامت دور الطراز فى الاسكندرية وغيرها بانتاج كسوة الكعبة والخيام والأعلام والخلع التى كان يخلعها الولاة على من شاءوا من الناس لتشريفهم . ولكن صناعة المنسوجات أخذت تضمحل منذ القرن الخامس عشر ، ثم لم تلبث دار الطراز أن تعطلت زمن برسباى ، ولم تعد الاسكندرية تنتج من النسيج الا ما كان يتولى بعض الأفراد صنعه . ففى عام ٨٣٧ هـ لم يتجاوز عدد الأنوال بالاسكندرية ثمانمائة نول ، فى حين بلغ عدد أنوال الاسكندرية فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ١٤٠٠٠ نول . (١٤) ونتيجة لاشتهار المدينة بالصناعة عاش فيها عدد كبير من التجار والصناع وأرباب الحرف .

ولقد بدأت معالم التدهور والاضمحلال فى حياة الاسكندرية الاقتصادية تظهر فى عصر الأشرف برسباى ، ويرجع ذلك فى حقيقة الأمر

إلى وقعة القبارصة (١٣٦٥) التى تسببت فى تدمير المدينة وتخريب عمرانها، فلم تستطع رغم قيام نواب السلطنة بالتعمير أن تنهض من عثرتها ، وتستعيد نشاطها حتى القرن التاسع عشر . ففى حوالى القرن الخامس عشر ، أصبح القسم (الحى) العاشر من المدينة خالياً من السكان نظراً لما أصاب المدينة من تخريب فى الداخل ، فأصبحت مهجورة، فى الوقت الذى كانت تتداعى فيه المنازل الواحد بعد الآخر ، حتى لم يعد وسط المدينة يصلح للسكنى ، فقل عدد قاطنيه من الأهالى. وأورد إما نويل بيلوتى (Emmanuel Piloti) —الذى أقام أكثر من ثلاثين عاماً فى أراضى المسلمين قضى معظمها بالاسكندرية— فى مقاله الذى يوصى فيه البابا يوجين الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) بأن يبادر بمد يد المساعدة للمسيحيين فى مصر : «أدى افساد الحكم الذى فرضه حكام القاهرة على البلاد إلى أن أصبحت الاسكندرية — وهى مدخل دولتهم ومفتاحها — مهجورة من السكان ، بالرغم من أنها مدينة كبيرة وجميلة ، تكتظ بالمنازل المزينة بالنقوش . وتحتوى قصورها الجميلة على الكثير من الرخام والأبنية ذات الزخارف . وبالرغم من ذلك ، فقد نزح عنها سكانها وهجروها . وقد رأيت فى أيامى بيوتاً ومساكن كان الواحد منها يساوى ثلاثة أو أربعة آلاف دوقة Ducas ، ولا يتعرض لها أحد بالشراء إلا للحصول على رخامها المنقوش وغيره من الأشياء الثمينة الموجودة بداخلها . ويرسل هؤلاء ما يأخذونه منها إلى القاهرة عن طريق النيل ، حيث يعيدون استعماله فى قصورهم . ولذا ، يمكن القول بأن الاسكندرية ليست إلا مدينة هجرها سكانها ، وستظل على هذا النحو حتى يأتى المسيحيون لغزوها وسكناها وإعادتها إلى ما كانت عليه من قبل» (١٥) .

وإذا كانت غزوة القبارصة بالغة الأثر فى تاريخ المدينة وعمرانها ، فان اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ كان بمثابة ضربة قوية أصابت كيان الاقتصاد المصرى . ففقدت المدينة بذلك أهميتها التجارية ، وانقطعت الصلة بينها وبين أوروبا والعالم الخارجى ، وخاصة بعد أن اضمحل شأن معظم الدول التى كانت تتجر مع مصر وأهمها

جمهورية البندقية والجمهوريات الإيطالية الأخرى ، وضعفت كذلك صلة الاسكندرية بموانى الشام والدولة العثمانية ، فقد حلت مكانها دمياط ورشيد لأنهما أقرب منها إلى هذه الموانى . وقد أثر هذا التدهور الاقتصادى فى العمران السكندرى ، فتحولت بساتين الاسكندرية الخضراء إلى أراض قفراء . كما تحول عدد كبير من التجار الأجانب إلى السوق الأوروبية فراراً من تعسف نواب السلطنة فى الثغر وانتشار الأوبئة . ويبدو أن انتشار الأوبئة كان له أثر بالغ فى اضمحلال المدينة ، ونقص عدد السكان ، وقد وصف السفير القشتالى بدرو مارتير (Pedro Martir) ، الذى وصل إلى الاسكندرية فى ديسمبر عام ١٥٠١ ، حالة المدينة فقال : «وعند مرورنا بداخل الدور ألفيناها أنقاضاً ، وفسروا لنا سبب هذا الخراب المتزايد ، فنسبه بعضهم إلى انتشار الأوبئة ، وعلله بعضهم بكثرة الحروب وثورات الأهالى ، بينما أرجع آخرون السبب الأساسى إلى تعسف السلاطين واستبداد نوابهم فى المدينة ... فان جميع السلاطين الذين يتولون السلطنة كانوا ينهبون أهالى الاسكندرية ، إذ كانت — باستثناء دمشق — المركز التجارى الرئيسى لجميع بلاد السلطان ، ومستودع البضائع والسلع ، ولذلك كانوا يسلخونهم كما لو كانوا غنما ، فاذا ما بلغ الوشاة والمخبرين خبر عن تاجر مثر أخرجوا منه المال بقوة التعذيب بدون أدنى عذر سوى رغبتهم فى مصادرة ماله ، ولذلك كله ، كم كان يرتجف التجار وبعض الأهالى المياسير ليلا ونهاراً خوفاً على حياتهم بسبب ثرواتهم التى يمتلكونها» (١٦) .

وليس من الانصاف أن نذكر أن تدهور الاسكندرية جاء على يد العثمانيين ، وانما بدأت المدينة — كما سبقت الاشارة — تشهد الخراب والتأخر فى أواخر العصر المملوكى . وخير دليل على ذلك وصف ابن إياس لزيارة السلطان قنصوه الغورى للاسكندرية فى يناير عام ١٥١٥ ، أى قبل الفتح العثمانى بعامين . وينطق هذا الوصف بأن المدينة كانت قد وصلت فى تأخرها وخرابها إلى الحضيض فهو يقول : «وكان ثغر الاسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب ... ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد

من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشر أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح . وكانت الاسكندرية من أجمل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص – رضى الله عنه – أربعـــة آلاف دار محكمة البناء ، مفروشة بالرخام الملون وفى كل دار منها حمام تختص بهـا ، وكان بهـا اثنا عشر بقال يبيعون البقولات من بعـــد العصر إلى العشاء ، وكان بها أربعون ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف انسان ، وكان بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار الذى هى بها الآن» (١٧) .

ولم يلبث هذا الاضمحلال والانكماش أن بلغ أشده عندما فقدت مصر استقلالها وتحولت إلى مجرد ولاية تابعة للامبراطورية العثمانية عام ١٥١٧ . ولقد شاركت الاسكندرية فى حركة المقاومة ضد العثمانيين ، فكانت تزود طومان باى بالزرد والسلاح ما بين نشاب وقسى وبارود . (١٨) ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم الأول عندما توجه إلى ثغر الاسكندرية «احتوى على السلاح الذى كان بالأبراج أخذها جميعاً » . (١٩) وشهدت الاسكندرية بعد أن شنق العثمانيون طومان باى على باب زويلة ، قدوم عدد كبير من أهل مصر الذين أمر السلطان سليم بارسالهم إلى القسطنطينية (٢٠) ، وكانوا من الكثرة بحيث استهلكوا فى الشرب مياه الصهاريج بالمدينة ، فقلت هذه المياه وغلى ثمنها ، ويقول ابن إياس فى هذا الصدد : «وجماعة من الذين سافروا دخلوا إلى ثغر الاسكندرية فوجدوا الصهاريج التى بها مشحوتة من المياه فبلغ ملء كل كراز خمسة أنصاف وذلك من كثرة الخلق الذى اجتمعت هناك ولا سيما لما دخل اليها عسكر ابن عثمان» . (٢١) وأقام الرجال الذين تقرر ترحيلهم إلى القسطنطينية فى أبراج الاسكندرية ، بينما أقامت النساء فى الخانات .

وقد رحل السلطان سليم الأول إلى ثغر الاسكندرية وأقام بالثغر ثلاثة أيام استولى خلالها على السلاح الذى كان مكدساً بأبراج المدينة . وفى بداية عهد الاحتلال العثمانى ، رسم بيرى رئيس — أحد أمراء البحر العثمانيين فى عهد سليمان القانونى — خريطة واقعية للمدينة . ففى داخل سور المدينة، نرى المسجدين الجامعين — حيث أدى السلطان سليم الأول صلاة الجمعة فى الجامع الغربى فى يوم الجمعة الموافق ٦ يونيه — كما نرى مرتفعين على بعد قريب من باب البحر. أما فى شرق المدينة عند باب رشيد، فنرى بعض المنازل التى كانت لا تزال قائمة ، ومادون ذلك فهو خراب . (٢٢) ولقد استمرت هجرة سكان المدينة خلال العصر العثمانى حتى أصبحت أسوار المدينة العربية على ضيقها بالنسبة لأسوار المدينة الأصلية فى عصر البطالسة أوسع مما يلزم . واكتفى السكان الباقون بالاقامة على الرقبة التى تكونت حول « الهيبتاستاد » بين الميناء الشرقية والميناء الغربية وسميت هذه المنطقة بالمدينة التركية . وفى الواقع كانت المدينة التركية عبارة عن بضعة صفوف من المنازل تتخللها بعض الجوامع الصغيرة . وهكذا انحصر عمران الاسكندرية إبان العصر العثمانى فى المنطقة الواقعة خارج باب البحر المؤدية إلى شبه الجزيرة . وبينما كانت هذه المنطقة تعمر بالمبانى الجديدة لتصبح المركز العمرانى الجديد لثغر الاسكندرية ، وتحل محل القصبة التى أصبحت تعرف باسم المدينة العربية ، اقتصر العمران داخل الأسوار إبان القرن السابع عشر الميلادى على عدة فنادق كان يستخدمها التجار لنزولهم ولخزن متاجرهم ، بالإضافة إلى كنيستين وعدة أديرة ومساجد . ولكن هذه الخانات والفنادق لم تلبث أن تلاشت فى القرن الثامن عشر ولم يعد لها وجود .

وفى الوقت الذى كان فيه القنصل الفرنسى بنوا دى ماييه (Benoît de Maillet) بالاسكندرية فيما بين عامى ١٦٩٢ و ١٧١٨ ، لم يسكن المدينة القديمة أكثر من مائة شخص . وقد روى ماييه أن المرء فى ذلك الوقت لم يكن ليستطيع الخروج صباحاً أو مساء دون أن يعتريه الخوف من أن يتعرض للسرقة . ومن المعتقد أن الأهالى فى تلك الفترة كانوا

يقيمون خارج السور فى الاسكندرية الثالثة التى بنيت من بقايا الاسكندرية الثانية (الاسكندرية الاسلامية) ، وهذه الأخيرة انشئت على أنقاض الاسكندرية الأولى (اسكندرية العصرين البطلمى والرومانى) . وقد تم تهجير معظم سكان المدينة من الميدان الموجود شمالى السور إلى ذلك اللسان الذى يصل المدينة القديمة بجزيرة فاروس والذى نما بسرعة بعد ردم الميناء الشرقى بالرمال (٢٣) . وفى عام ١٧٣٧ ، أورد القبطان فردريك لويس فوردن ، قائد الأسطول الدانماركى ، فى كتابه «سياحة فى مصر وبلاد النوبة» الوصف التالى للمدينة : «مدخل الميناء الجديدة (يقصد الميناء الشرقية) محصن ببرجين صغيرين أقامهما الأتراك وقد بنيا بناء عادياً لا يلفت النظر ، الا أن المواقع التى أقيما عليها لها شهرة ، فقد أقيم البرج الأول الكبير على جزيرة فاروس ، وأقيم البرج الثانى فى موقع مكتبة الاسكندرية الشهيرة» . ولم يجد فوردن حين مروره فى المدينة العربية القديمة داخل الأسوار فى هذا الوقت « إلا خراباً فى خراب وأطلالا فوق أطلال وآثاراً متهدمة وقاذورات فى كل مكان ما عدا بعض الجوامع والكنائس والحدائق . » (٢٤) وهكذا ظلت الاسكندرية تسير نحو التأخر والاضمحلال بخطى حثيثة ، وقل سكانها حتى أصبحت — كما يصورها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر — قرية صغيرة تقيم فيها حامية ضعيفة قليل عددها لا تستطيع أن ترد عنها أى معتد ذى قوة (٢٥) . ولا يختلف عن هذا الوصف كثيراً ما كتبه مسيو ميور (Mure) ، قنصل فرنسا فى مصر ، فى تقريره الذى قدمه لحكومته فى عام ١٨٧٣ ، يرغبها فى المجىء إلى مصر والاستيلاء عليها ، فقد قال فيه: « إن مرافىء الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهليين الذين انتظموا فى سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثمانى ، أما قلعة المنارة فهى فى ظاهرها فخمة ، ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية بها لا تصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا فى أيام الأعياد» (٢٦)

وقد لاحظنا أن الثغور المصرية حظيت فى إدارتها باهتمام خاص فى العهد المملوكى ، فقد اعتبر ثغرا الاسكندرية ودمياط من النيابات ، أما باقى الأقاليم المصرية فكانت من الأعمال ، وكان حاكما الاسكندرية ودمياط نائبين ، بينما كان حكام الأقاليم كشافاً فقط . وكانت نظرة المماليك إلى الثغور باهتمام لها ما يبررها ، لأن تجارة أوروبا مع الشرق كانت تحط رحالها فى تلك الثغور ، كما أنها كانت المداخل لأى غزو محتمل . ولنفس الأسباب اهتم العثمانيون بعد فتح مصر عام ١٥١٧ بالثغور المصرية ، فقد حرص السلطان العثمانى على اخضاع ثغور دمياط والاسكندرية والسويس لسلطته المباشرة ،فأخرج إدارتها عن النطاق المحلى وجعل أمر تعيين القبودانات الثلاثة قباطين تلك الثغور بقرار مباشر من الباب العالى . وبذلك خرجت ادارة الثغور المصرية عن اشراف السلطات المحلية وذلك للأهمية القصوى التى كانت تنظر بها الدولة العثمانية إلى تلك الثغور ، الا أنه يجدر ملاحظة أن ثغور رشيد والعريش والقصير كانت فى مرتبة تالية من حيث أهميتها ولم يخضع حكامها لاشراف الباب العالى . وكان ضباط وأفراد أوجاق المتفرقة يقومون بحفظ القلاع المصرية ومن بينها قلاع الاسكندرية ودمياط وأبو قير (٢٧) . وكانت مهمة قبودان الاسكندرية هى حفظ القلاع ، وربط البنادر والحكم بين الرعايا بالعدل والشفقة (٢٨) . وكانت الأموال التى تجمع من الثغور تخصص لبناء السفن اللازمة لحماية السواحل المصرية ، ولإمداد الأسطول العثمانى بالسفن اللازمة عند الحاجة . وكان أهم القبودانات هو قبودان الاسكندرية الذى كان يقوم بإمداد الأسطول العثمانى بأربع قطع بحرية فى حالة تواجده فى شرق البحر المتوسط ، وست قطع بحرية فى حالة قيامه بحملات بحرية فى غرب البحر المتوسط . وكان فى حوزته ما لا يقل عن خمسين سفينة كبيرة وعدد كبير من السفن الصغيرة لحراسة السواحل المصرية ، وحماية السفن المصرية المرسلة إلى استانبول تحمل الجزية والقمح. وبعد عام ١٧٥٧ استطاع بكوات المماليك شغل مناصب صنجق الاسكندرية ودمياط كدليل على ضعف السيطرة العثمانية على مصر (٢٩) .

وتأثر نمو المدن المصرية واضمحلالها بالظروف الاقتصادية والسياسية السائدة فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى . لقد كان بمصر عدد كبير من المدن تشبه القرى فى بعض المظاهر ، فهى صغيرة المساحة قليلة السكان ولها الطابع الزراعى . وكان ذلك هو الطابع العام للمدن المصرية فى مطلع العصر العثمانى لأن المدن لا تزدهر الا حيث تزدهر الصناعة والتجارة وتنمو الأسواق بداخلها . ومثل ذلك الازدهار لم يتحقق لغالبية المدن المصرية فأضحت وكأنها قرى كبيرة ، ويبدو أن التدهور الذى أصاب المدن المصرية فى العصر العثمانى كان عاماً ، فقد تحولت الاسكندرية من مدينة زاهرة إلى بلدة لا يكاد يبلغ سكانها ١٠,٠٠٠ نسمة ، الا أنه بالرغم من ذلك اكتسبت بعض المدن أهمية تجارية كبيرة بسبب أهمية موقعها بالنسبة للتجارة الداخلية فصمدت نسبياً وحافظت إلى حد ما على أهميتها التجارية . ومن أمثلة ذلك المنصورة لوقوعها على الطريق بين القاهرة ودمياط ، وقوص وقنا وهما عند نهاية طريق الصحراء بين النيل وساحل البحر الأحمر ، وأسيوط التى تبدأ عندها وتنتهى إليها قوافل السودان ، وإسنا الواقعــــة على الطريق الخارجى إلى إقليم سنار ، والمحلة الكبرى وكانت مركزاً لمنطقة شهيرة بزراعة الكتان والحبوب وبها نشاط صناعى ملحوظ . (٣٠) وبطبيعة الحال اتسع نطاق التجارة فى تلك المدن عنها فى المدن الأخرى ، وبرز فيها بعض التجار الذين كانوا وسطاء بين بعض المنتجين وصغار التجار وبين أصحاب الوكالات من كبار التجار الذين مارسوا تجــارة الجملة فى حاصلات مصر المختلفة واتصلوا بالأجانب ومارسوا عمليات التصدير والاستيراد .

ورغم الاضمحلال الذى أصاب الاسكندرية فقد بقيت فيها بعض الصناعات المحلية القليلة مثل صناعة المنسوجات الحريرية التى كانت الاسكندرية قد اشتهرت بها قبل العصر العثمانى ، إذ اختصت فى العصر المملوكى بصناعة الشاش الحرير السكندرى المموج بالذهب والسقلاطون (وهو نوع من النسيج المصنوع من الحرير مطرز بالذهب) . كما استمرت فى الاسكندرية فى العصر العثمانى صناعة ونسج الملابس المغربية وهى ملابس

قطنية كان يرتديها عامة الناس فى الدلتا ، وصناعة الملابس الصوفية التى استخدمها البدو فى الصحراء الغربية ، وصناعة الصابون . وقام البدو بتزويد الاسكندرية بالصودا التى حصلوا عليها عن طريق حرق النباتات الصحراوية المحتوية على القلويات (٣١) . كما أن القلويات كانت تصدر من الاسكندرية إلى سورية لنفس هذا الغرض (٣٢) ، ولكن وجد بالاسكندرية ذاتها عدد من معامل الصابون التى كانت تستورد الزيت الخاص بصناعة الصابون من جزيرة كريت (٣٣) . كذلك كان النبيذ يستخرج من الكروم بخاصة فى مدينة الاسكندرية ، إذ كان الكروم يزرع فى المناطق المجاورة للمدينة . ونخلص من هذا إلى القول بأن الصناعة فى الاسكندرية فى العصر العثمانى اقتصرت على بعض الحرف الضرورية للاستهلاك المحلى ، وكانت فى جلها حرفاً يدوية . ونظراً لعدم وجود أهداف خاصة بالتصدير فى العصر العثمانى انتكست نتيجة لذلك المراكز والتجمعات الصناعية الكبرى التى كانت مزدهرة فى الاسكندرية ودمياط والمحلة الكبرى ، وأصبحت أغلب الصناعات فى الأقاليم لا تنتج إلا ما يكفى حاجة الاستهلاك المحلى .

وهناك عوامل مختلفة ساعدت على تدهور الصناعة فى الاسكندرية وغيرها من المدن المصرية خلال العصر العثمانى نذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

١ — منذ أن سيطر العثمانيون على مصر عاشت البلاد فى عزلة سياسية وفكرية واقتصادية مما ساعد على انتكاس الصناعة المصرية وتخلفها . فبينما نمت المدن فى أوروبا وازدهرت الجامعات وأخذت العلوم التطبيقية تبهر العقول فى ميادين الصناعة والمواصلات ، تدهورت المدن المصرية وفقدت الاسكندرية مركزها الهام وتضاءل عدد سكانها .

٢ — أغفل الحكم العثمانى تنفيذ خطط انشائية وتبع ذلك ضعف الانتاج وتوقف نمو الصناعة فى مصر . فلا نرى تجمعات صناعية أو نمواً لصناعة معينة بل إن ما يلفت النظر اختفاء كثير من الأماكن التى كانت ذات شهرة

واسعة فى العصور الوسطى ، فلا نجد أسماء تنيس (بالقرب من دمياط) وشطا (بالقرب من تنيس ودمياط) ودبيق (٣٤) وهذه كلها كانت بلاداً تشتغل بإنتاج أفخر أنواع النسيج الموشى بالحرير والذهب . واختفت كذلك صناعة السفن الحربية وفقدت الاسكندرية أهميتها كمركز صناعى ممتاز (٣٥) .

٣ – عندما دخل السلطان سليم مصر ظافراً نقل من مصر إلى الآستانة أساطين صناعة البناء من مهندسن وبنائن ونقاشن ونجارين وحدادين ومزخرفين . وتبدو أهمية هذا العامل فى اضمحلال الصناعة المصرية ، من أن أسرار كثير من الصناعات كانت خاضعة لاحتكار أسر معينة والملك لم يكن نقل مشايخ طائفة حرفية بالأمر الهين ، خاصة إذا كانت تلك الحرفة من الحرف الدقيقة التى انحصر سرها فى أشخاص معينين .

٤ – تسرب الضعف خلال العصر العثمانى إلى نظام الطوائف الحرفية بعد أن اختفت الحوافز التى كانت سبباً فى رواج الصناعة والتى كانت عاملا من عوامل ازدهار تلك الطوائف ، فاتجهت نحو الاحتكار وأغلقت الباب فى وجه التجديد والابتكار (٣٦) . وقد أدى ذلك إلى عدم توسيع قاعدة الحرفين فى المهنة الواحدة فانزوت فى إطار ضيق ، وأدى تضييق القاعدة إلى ندرة ظهور النوابغ والمبتكرين فى مجال الحرفة . وربما كان الموت أو حدوث كارثة مفاجئة سببا فى اختفاء صناعة لا يعرف سرها إلا أولئك القلة الذين فارقوا الحياة .

وفى مجال التجارة لم تكن الأسكندرية أحسن حالا ، فلقد كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول أساطيل أوروبا التجارية عن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطى ضربة قاسية للتجارة المارة بالأراضى المصرية . وقد حاول السلطان سليم الأول استعادة مركز مصر فى التجارة الشرقية ، فعقد فى ١٤ فبراير عام ١٥١٧ معاهدة مع جمهورية البندقية أقر لهم فيها الامتيازات والتسهيلات التى كانوا يتمتعون بها فى عهد المماليك بشأن تجارتهم فى الاسكندرية (٣٧) . وأعلن السلطان فى المعاهدة ضرورة معاملة البنادقة

بالاحترام والعدالة ، وأن لا يضاروا فى أنفسهم ولا فى أموالهم فى أثناء إقامتهم بالاسكندرية أو دمياط أو غيرهما من ثغور مصر . كما نصت المعاهدة على أن لا يؤدى البنادقة سوى الرسوم المفروضة ولا يلزموا ببيع أشياء لا يودون بيعها . ونصت كذلك على أن يكون لقنصل البندقية وحده حق محاكمة مواطنيه وليس للقاضى المسلم أن يتدخل فى هذا الشأن . وتعتبر هذه المعاهدة حلقة فى سلسلة الامتيازات التى وقعها السلطان سليم مع الدول الأوروبية الأخرى وخصوصاً فرنسا . وعلى الرغم من أن العثمانيين تركوا ثغرالاسكندرية مفتوحاًللبنادقة ،فان الاضمحلال السريع لهذه السوق لم يكن منه بد . واضمحلت أهمية السوق المصرية منذ منتصف القرن السادس عشر إلى حد أن جمهورية البندقية لم يبق لها فى الاسكندرية سوى نائب قنصل .

ومن ناحية أخرى ، لم يحاول أحد من ولاة الدولةالعثمانية الذين تتابعواعلى حكم مصر تحسين الملاحة فى الموانى المصرية ، وذلك لقصرمدة الوالى وعدم الاهتمام بالاصلاحات طويلة المدى ، كما أن موانى مصر كانت خاضعة لإشراف الحكومة العثمانية مباشرة ، وكلا السببين راجع إلى طبيعة نظام الحكم العثمانى. كما أن الحكومة العثمانية بسياستها الخاطئة ، احتكرت الجزء القديم من ميناء الاسكندرية وهو الجزء الصالح لرسو السفن ، واضطرت السفن تبعاً لذلك إلى الرسو خارج الميناء تحت رحمة العواصف والرياح . حقيقة أن ذلك أثر فى تحول ميناء الاسكندرية العظيم إلى قرية ، الا أنه قامت علاقات ضعيفة وغير نشطة مع دول البحر المتوسط وغرب أوروبا . ولم تشمل صادرات مصر سلعاً مصنوعة فى العصر العثمانى ، وإنما صدرت بعض منتجات البلاد من الأرز والقطن والقمح والشب والنطرون وبعض الأعشاب الطبية . وفى أواخر القرن الثامن عشر جاءت تجارة مصر مع دول أوروبا أساساً عن طريق الاسكندرية ، بينما اتجهت نسبة ضئيلة منها إلى ميناء دمياط . وكانت تفرغ بضائع تجار البندقية فى مخازن الاسكندرية حتى يصل تجار القاهرة لشرائها . وكان يصل ميناء الاسكندرية عادة كل عام حوالى ست أو سبع سفن بندقية . ولذلك وجدت فى الاسكندرية بيوتات تجارية بندقية وتسكانية (٣٨) . وكانت الواردات والصادرات تخضع لإشراف

جمرك الاسكندرية لتقدير الضريبة اللازمة . وطبق نظام الالتزام على جمرك الاسكندرية ، فكانت رسومه تباع إلى الملتزمين الذين أشرفوا على تحصيل الرسوم الجمركية وتوريدها إلى خزانة الروزنامه ، مع أخذ قيمة معينة من المال فى نظير ذلك . وكان يدير الجمرك من قبل الملتزم الجمركى أو «أمين الجمرك» ، وهو يهودى فى العادة ويسمى بالمعلم ويعاونه طائفة من الكتبة .

ويستطيع الباحث فى ضوء العرض السابق لأحوال المدينة الاقتصادية وأحوال المعيشة فيها أن يستشف الفئات المكونة لمجتمع الاسكندرية خلال العصر العثمانى . فكان يعيش فى المدينة بعض الحرفيين (٣٩) والتجار وأفراد الحامية التى عهد إليها بحماية قلاع المدينة وحصونها وأهل الذمة والبدو وبعض رجال الدين من أئمة المساجد والقضاة والمفتين . ولا يمكننا القول بأنه ظهر فى ثغر الاسكندرية فى تلك الفترة عدد كبير من العلماء البارزين كما كان الحال فى مدينة القاهرة بسبب وجود الجامع الأزهر ، بل إن بعض علماء الاسكندرية كانوا يذهبون سنوياً إلى القاهرة للتدريس بالأزهر. فيتحدث المرادى عن الشيخ على الأسمر العالم الفقيه بقوله : «كان كل سنة يأتى من اسكندرية بعد عيد الفطر إلى الجامع الأزهر يدرس به ثم يرجع إلى بلده فى أول الثلاثة أشهر .» (٤٠) ولقد كانت طبقة المشايخ هذه من أخصب وأنشط الطبقات المصرية فى القرن الثامن عشر. ولم يجد عامة الشعب المصرى ملجأ يلجئون اليه فى نكباتهم سوى مشايخهم وفقهائهم ، يناشدونهم التوسط والشفاعة لدى السلطان الحاكمة لرفع المظالم عنهم . وعبر الشعب المصرى عن استيائه من أعمال النهب والظلم التى تعرض لها خصوصاً خلال حكم مراد بك وابراهيم بك .

ونستطيع أن نتبين من خلال ما ورد فى كتاب الجبرتى أن هذا العهد كان عهداً مليئاً بالقلاقل والاضطرابات ولم تكن الاسكندرية بمعزل عن هذه التطورات . ففى عام ١١٩٩هـ / ١٧٨٤ حدث شغب فى مدينة الاسكندرية ، والتفاصيل التى يرويها الجبرتى تدل فعلاً على خطورة هذا الشغب . فيقول

الجبرتى : «ورد الخبر بوصول باشا مصر الجديد إلى ثغر الاسكندرية وكذلك باشا جدة ووقع قبل ورودهما بأيام فتنة بالاسكندرية بين أهل البلد وأغاث القلعة والسردار بسبب قتيل من أهل البلد قتله بعض أتباع السردار فثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه ويصفعونه بالنعالات » . (٤١) واستطاعة أهالى الاسكندرية أن يقبضوا على السردار وأن يفعلوا به ما فعلوا يدل على جسامة هذا الاضطراب . والغريب أن تاريخ الفتن والثورات فى مصر اليونانية يدل على أن سوق الحكام المكروهين على حمير فى شوارع الاسكندرية وإهانتهم على هذا النحو كان من الطقوس التقليدية المصاحبة لفتن الاسكندرية وثوراتها .

ويعطينا الجبرتى صورة أخرى لما كان يحدث داخل مجتمع الاسكندرية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، فيقول فى أحداث عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ : «ورد الخبر بوقوع حادثة بالاسكندرية بين عساكر العثمانية وأجناس الأفرنج المقيمين بها ، واختلفت الرواة فى ذلك . وبعد أيام وصل من أخبر بحقيقة الواقعة وهى أن على باشا رتب عنده طائفة من عسكره على طريقة الافرنج ، فكان يخرج بهم فى كل يوم إلى جهة المنشية ويصطفون ويعملون مرش واردبوش ثم يعودون ، وذلك مع انحراف طبيعتهم عن الوضع فى كل شىء فخرجوا فى بعض الأيام ثم عادوا ، فروا بمساكن الافرنج ووكالة القنصل ، فأخرج الافرنج رءوسهم من الطيقان نساء ورجالا ينظرون ركبهم ، ويتفرجون عليهم كما جرت به العادة ، فضربوا عليهم من أسفل بالبنادق ، فضرب الافرنج عليهم أيضاً ، فلم يكن إلا أن هجموا عليهم ، ودخلوا يحاربونهم فى أماكنهم والافرنج فى قلة ، فخرج القناصل الستة ومن تبعهم ونزلوا إلى البحر ، وطلعوا غليون الريالة وكتبوا كتاباً بصورة الواقعة ، وأرسلوه إلى إسلامبول وإلى بلادهم ، وأما العسكر أتباع الباشا فإنه لما خرج الافرنج وتركوا أماكنهم دخلوا إليها ، ونهبوا متاعهم وما أمكنهم ، وأرسل إلى القناصل

خورشيد باشا فصالحهم ، وأخذ بخواطرهم ، واعتذر إليهم ، وضمن لهم ما أخذ منهم ، فرجعوا بعد علاج كبير ، وجمع الباشا علماء البلدة وأعيانها وطلب منهم كتابة عرض محضر على ما يمليه على غير صورة الحال ، فامتنعوا عن الكتابة إلا بصورة الواقع ، وكان المتصدر للرد الشيخ محمد المسيرى المالكى ، فمقته ووبخه ، ومن ذلك الوقت صار يتكلم فى حقه ويزدريه إذا حضر مجلسه » . (٤٢) ويدل هذا النص على مدى نفوذ العلماء والدور الذى قاموا به واعتراضهم على أعمال الفوضى التى ارتكبها الجنود العثمانيون فى الثغر ، بل إنهم رفضوا طلب الباشا كتابة تقرير مزيف بخالف ما وقع فى مدينتهم من أحداث .

ولقد عانى مجتمع الاسكندرية مثلما عانت بقية أجزاء مصر من تضاؤل سلطة الباب العالى فى البلاد التى أصبحت مجرد سلطة شكلية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وكان الباشوات يحسون بضعفهم فيذعنون لأوامر المماليك ، وقد أدى ذلك إلى اختلال الأمن واضطراب الأحوال وانهيار النظام فى مصر . وقارىء الجزء الثانى من الجبرتى يجد أن تاريخ مصر فى زمن حكم مراد بك وابراهيم بك أى فى السنوات السابقة على الحملة الفرنسية مباشرة مطابق للتقارير التى استند إليها بونابرت وتاليران عن تجمع السخط فى مصر على حكم الأتراك والمماليك إلى درجة تهدد بالانفجار . ولم يسلم مجتمع الاسكندرية من أعمال النهب والسلب والعنف والقمع والظلم والاضطهاد التى مارسها مراد بك وابراهيم بك . فيقول الجبرتى : «شرع مراد بيك فى السفر إلى جهة بحرى بقصد القبض على رسلان والنجار قطاع الطريق ، فسافر وسمع بحضوره المذكوران فهربا ، فأحضر ابن حبيب وابن أحمدوابن فودة وألزمهم باحضارهما ، فاعتذروا اليه فحبسهم ثم أطلقهم على مال وذلك بيت القصيد ، وأخذ منهم رهائن ، ثم سار إلى طملوها وطالب أهلها برسلان وقال لهم أنه يأوى عندكم ، ثم نهب القرية وسلب أموال أهلها وسبى نساءهم وأولادهم ثم أمر بهدمها وحرقها .. ولم يزل فى سيره على هذا النسق حتى وصل إلى رشيد فقرر على أهلها جملة كبيرة

من المال وعلى التجار وبياعين الأرز فهرب غالب أهلها ، وعين على اسكندرية صالح أغا كتخدا الجاويشية سابقاً وقرر له حق طريقه خمسة آلاف ريال ، وطلب من أهل البلد مائة ألف ريال ، وأمر بهدم الكنائس ، فلما وصل إلى اسكندرية هربت تجارها إلى المراكب ، وكذلك غالب النصارى ، فلم يجد إلا قنصل الموسقو ، فقال أنا أدفع لكم المطلوب بشرط أن يكون بموجب فرمان من الباشا أحاسب به سلطانكم ، فانكف عن ذلك وصالحوه على كراء طريقه ، ورجع وارتحل مراد بيك من رشيد» (٤٣).

وفى مطلع القرن التاسع عشر تلقى مجتمع الاسكندرية الصدمة الأولى التى أحدثها نزول قوات بونابرت أرض الاسكندرية لاحتلال مصر وتحويلها إلى مستعمرة فرنسية . وقبل وصول الفرنسيين بيومين ، رفض أهل الاسكندرية السماح لقوة بريطانية بقيادة نلسن بالبقاء فى ثغرهم لأنها «بلاد السلطان» . ويقول الجبرتى فى هذا الصدد : «فى يوم الخميس حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانجليز ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً ، فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقايق (مركب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر ، واجتمعوا بكبار البلد ، والرئيس إذ ذاك فيها والمشار اليه بالابرام والنقض السيد محمدكريم ، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم انجليز حضروا للتفتيش عن الفرنسيين لأنهم خرجوا بعمارة (أى أسطول) عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندرى أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول ، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن فقالت رسل الانجليز نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الأمداد بالماء والزاد بثمنه ، فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا ، فعندها عادت رسل الانجليز وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية وليقضى الله أمراً كان مفعولا» .. (٤٤).

ومنذ اللحظة الأولى التى هبطت فيها أقدام الفرنسيين ثغر الاسكندرية ، حصن الاسكندريون أسوار مدينتهم وزودوا قلاعها بالامدادات والذخائر ونصبوا المدافع القديمة على أسوار المدينة استعداداً لملاقاة العدد ، واحتشد القادرون من الأهالى على الأسوار مسلحين بما استطاعوا حمله من البنادق والرماح. ولما تمكن الفرنسيون من اقتحام أسوار الاسكندرية «رجع أهل الثغر إلى التترس فى البيوت والحيطان» ، وصاروا يطلقون على الفرنسيين النيران من نوافذ البيوت وفى الشوارع . وقد بادر السيد محمد كريم إلى إخبار مراد بك بقدوم الأسطول الفرنسى ، وأرسل اليه ثلاثة عشر رسولاً يطلب النجدة وقال فى رسالته : سيدى ، إن العمارة التى حضرت مراكب عديدة مالها أول يعرف ، ولا آخر يوصف لله ورسوله داركونا بالرجال» . ويؤخذ من تقرير نابليون إلى حكومة الإدارة أن «كل بيت كان قلعة» . وفى رواية لأحد جنود الحملة أن الرصاص انهال عليهم من داخل المساجد، ولكنهم لم يراعوا حرمة هذه الأماكن فاقتحموها ولم يبقوا فيها على أحد . وفقد الفرنسيون فى هجومهم على الاسكندرية حوالى أربعين قتيلا ومائة جريح ، وكان من بين الجرحى كل من الجنرال كليبر الذى أصيب فى رأسه ، والجنرال مينو وقد أصيب فى جملة مواضع ، كما أن بونابرت نفسه كاد أن يصاب بطلق نارى فى أحد شوارع المدينة الضيقة . فلما «أعيا الاسكندريون الحال ، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال ، وليس ثم عندهم للقتال استعداد ، لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته... (طلبوا) الأمان ، فأمنوهم ، ورفعوا عنهم القتال ، ومن حصونهم أنزلوهم ، ونادى (كبير) الفرنسيس بالأمان فى البلد ، ورفع بنديراته (الأعلام الفرنسية) عليها ، وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه ، فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره اليه وأن يضعوا الجوكار (شارة الثورة الفرنسية المثلثة الألوان) فى صدورهم فوق ملبوسهم» .

وبدأ نابليون عندئذ فى تنفيذ سياسته التى حاول بها استرضاء المصريين فكان على الفرنسيين أن يظهروا أمامهم محررين لا غزاة ، أى أنهم جاءوا لكى يقضوا على ظلم وتعسف العبيد المماليك ، وليضمنوا لفلاح الأرض

المضطهد ثمار كده » . وكان على نابليون أيضاً أن يبين أن وجود الفرنسيين في مصر لن يؤثر إطلاقاً على علاقات الصداقة بين الامبرآطوزية العثمانية وفرنسا ، وحاول نابليون أن يتخذ من العلماء وسطاء بين الشعب والفرنسيين . فكان أول عمل قام به هو إذاعة منشوره المطبوع باللغة العربية في ٢ يوليو وتعليقه في جميع أرجاء المدينة عقب اجتماعه بأعيانها . والمنشور يبين كيف أن نابليون تعمد التأثير على المشاعر الدينية للمسلمين ، وكيف جمع جمعاً غريباً بين هذا وبين الشعارات التحررية المألوفة في فرنسا ، كما وضع في منشوره أساس حكومة أهلية يدير شئونها «العلماء والفضلاء وبذلك تصلح حال الأمة كلها» . وبعد أن اجتمع نابليون بزعماء الأهالى في الاسكندرية أبرمت وثيقة في ٤ يوليو بالعهود التي أخذها الفريقان كل منهما على الآخر وقضت بأن «يستمر أعيان المدينة على العمل بقوانينهم والقيام بشعائرهم الدينية وفض المنازعات بينهم مع مراعاة العدل والابتعاد عن مسالك الهوى ولهم أن يختاروا القاضي الذي يتولى القضاء في محكمة الشرع من خيار العلماء المشهود لهم بالاستقامة والتقوى وعليه أن لا يقضي في أمر إلا بعد الرجوع إلى رأي مجلس العلماء » . وقد وقع على هذا الاتفاق من شخصيات الاسكندرية : إبراهيم البرجي مفتي الحنفية ، وسليمان الكلاف مفتي المالكية ، ومحمد المسيري ، وأحمد عبد الله الشافعي ، وحسن كانيد ، وعباس القويضي ، ومصطفى محمد . (٤٥)

ويذكر على مبارك في خططه : «يظهر أنه في تلك الأوقات كانت أهمية اسكندرية منحصرة في إيراد الجمرك لا غير ، ولذا لم يجد جيش الفرنساوية من يصده ويردعه ، وأخذت المدينة بقليل من العساكر.. ولما دخل الفرنساوية كان داخل المدينة أشبه شيء بمباني الأرياف ، وكانت حاراتها ضيقة غير مستقيمة ، والمنازل متلاصقة قليلة الارتفاع وأكثرها أرضي ، وكان لا يوجد بها غير جامعين للمسلمين وديرين للنصارى ، وكان ما حول البلد جميعه خراباً ، وكان إذا وجه الانسان وجهه إلى أي جهة يجد بعض قطع الأعمدة والصخور ملقاة على وجه الأرض أو مدفونة بها ، وكان يوجد

وسط ذلك كثير من كوش الجير تدل على أن الأهالى كانت تحرق ما بقى من المنازل القديمة ، وكانت الأرض تحفر لإخراجها منها وترتب على ذلك وجود حفر كثيرة فى أرض المدينة ، فكم هلك من آثار المدينة العتيقة بهذه الأسباب». (٤٦) وفى الواقع دهش الفرنسيون لمظهر الاسكندرية الذى خيب آمالهم ، ذلك أن الفخامة القديمة أصبحت أثراً بعد عين . فكانت شوارعها قذرة غير مرصوفة ، مقفرة من الشجر إلا النخل القليل ، ولكن فيها مساجد وأسواقاً وناساً . وكان الطاعون الدملى قد ختم غارته لتوه ، والأغنياء لا يزالون مختبئين فى دورهم بدافع الخوف من الفرنسيين أكثر من الطاعون ، ولكن سرعان ما عادت الحياة سيرها المألوف . وكتب أحد الفرنسيين إلى أخيه يقول : «إنك ترى فى الأسواق الخراف والحمام والتبغ ، ثم عدداً كبيراً من الحلاقين يضعون رءوس زبائنهم بين ركابهم كأنهم يستعدون لقطعها لا لحلقها ، لكنهم غاية فى الخفة والمهارة» (٤٧) .

ولاحظ الفرنسيون أن النساء كن قليلات فى شوارع الاسكندرية إلا نساء الطبقات الدنيا اللائى أثار مظهرهن تقزز الفرنسيين . وكن يرتدين جلباباً واحداً ، أزرق فى العادة ، ويسرن حافيات الأقدام عاريات السيقان ، ويلطخن حواجبهن بالكحل وأظافرهن بالحناء ، أما الأطفال فعراة . ولكن مظهر الذكور وقع من نفوس الفرنسيين موقعاً أفضل ، فكتب بونابرت إلى حكومة الإدارة يقول : «هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رحالتنا . إنها أمة هادئة باسلة ، معتزة بنفسها» . وكتب أخوه لوى فى خطاب لجوزيف بونابرت يؤمن على هذا الرأى فقال : «إن فى الشعب رباطة جأش مدهشة . فلا شىء يهزهم ، وليس الموت عندهم أكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الانجليزى . . . أما طلعتهم فمهيبة وسحننا نحن ، حتى أقواها وأبرزها ملامح ، تبدو كوجوه لأطفال إذا قيست بسحنهم» . وكتب أحد الجنود الفرنسيين يقول : «قد يبدو زى الأهالى لأول وهلة عديم الشكل . ولكنى بعد أن تأملته جيداً أدركت أنه أكثر مهابة من زينا . فهم يحلقون رءوسهم ويلبسون طاقية حمراء صغيرة يسمونها بالعربية طربوشاً ، ويطوون حولها عمامة خمس طيات أو ستا .

ويرتدون عدة قفاطين فضفاضة من الحرير أو القماش بعضها فوق بعض ، وكلها طويل يصل إلى الكعب كأثواب الكهان . أما سيقانهم ، وأرجلهم في الغالب ، فعارية ، وهم يطلقون لحاهم فتطول وتضفى أحياناً على شيوخهم مهابة وجلالا» . (٤٨) وأدهش أحد كتاب الحملة للوهلة الأولى ما خيم على مدينة الاسكندرية من سكون وحزن فكتب يقول : «لم يذكرنى بضجيج البلاد الأوروبية ونشاطها غير ضجيج العصافير ونشاطها» .

اهتم بونابرت أثناء وجوده فى الاسكندرية ببعض الأمور الهامة ، فنظراً لقلة ما كان يملك من عملة ، فقد فرض قرضاً بضمان إضافى من حصيلة الجمارك المنتظر جمعها فى الميناء . ثم حصل على نقود من التجار المحليين نظير سبائك من الذهب والفضة ، على أنه لجأ إلى هذا الاجراء مرة ثانية بعد وصوله إلى القاهرة ، إذ شحن منها مقادير من الأرز والحبوب إلى تجار الاسكندرية طالباً اليهم أن يردوا السبائك ويقبلوا هذه السلع بديلا عنها . كما جرد أهل الاسكندرية من السلاح وصدرت الأوامر بأن يضعوا الشارة المثلثة الألوان دليلا على ولائهم للجمهورية . واختص كبار المشايخ وبضعة من صفوة الأعيان بلبس الوشاح الأزرق والأحمر والأبيض ، وبتلقى التحية العسكرية ، ولكن هذا التمييز لم يمس قلوبهم مساً عميقاً كما ينبغى . واقتضى الأمر ترك حامية بالاسكندرية وتحصينها بوسائل دفاع قوية ، وأصدر بونابرت سلسلة من الأوامر تحقيقاً لهذا الغرض . وأذاع أمراً جاء فيه «أن القائد العام يريد أن يستمر الأهالى يؤدون شعائرهم الدينية فى المساجد كما كانوا من قبل ، ويحظر على الفرنسيين جميعاً من عسكريين وملكيين دخول المساجد أو الاجتماع على أبوابها ، وعليكم أن تأمروا ضباط الفرق بأن يتلوا هذا الأمر على جنودهم وأن يعيدوا تلاوة أمر القائد العام الخاص بمعاقبة النهب والتعدى على النساء ، وعليكم أن تعدموا رمياً بالرصاص كل من يخالف هذه الأوامر ، ومن المهم أن يدفع كل جندى من الجنود ثمن ما يبتاعه فى المدينة وأن يحافظوا على أموال الأهالى وكرامتهم ، وعلينا أن نكتسب صداقتهم وأن لا نعادى سوى المماليك » (٤٩) .

وقبل أن يزحف بونابرت بجيشه على القاهرة عين الجنرال كليبر قومنداناً وحاكماً لدائرة الاسكندرية وضواحيها ، كما أمر بإبقاء السيد محمد كريم حاكماً للمدينة . ولقد بذل كليبر كل ما فى وسعه لتوطيد مركز الفرنسيين فى الاسكندرية من الوجهتين العسكرية والإدارية ، ولكن مهمته فى الاسكندرية كانت شاقة لأن حالة الحرب جعلت الاسكندرية فى شبه حصار بحرى فشل حركة السفن وعطل التجارة التى هى أكبر مورد لثروة الأهالى . لذلك أخذ الكساد يضرب فى المدينة و تشتدالفاقة والضيق بالأهالى فيزداد تذمرهم وسخطهم من الاحتلال الفرنسى . ومن ناحية أخرى شكا كليبر غير مرة إلى بونابرت من الجنود الذين لم يكبحوا جماح أنفسهم ، وذكر فى أحد المرات أن بحارة الأسطول قد خربوا ضواحى أبو قير فكانوا يغتصبون ثمار الأشجار ويقطعون النخيل من جذوعه ، وقد لفت كليبر نظر الأميرال برويس قومندان الأسطول إلى كفهم عن هذا العدوان قائلا له : « إنكم تقدرون عواقب هذا السلوك فى إثارة روح الكراهية فى نفوس الأهالى فى الوقت الذى نحن محتاجون فيه إلى كسب قلوبهم» .

ورغم حكمة كليبر والجهد الذى بذله فى تحسين علاقة السلطات الفرنسية بأهالى الاسكندرية ، فإن روح السخط كانت كامنة فى جوانحهم ، والواقع أنهم مارضخوا للحكم الفرنسى الا إذعانا للقوة ، وكانوا يتحينون الفرص للمقاومة . ففى ١٣ يوليو عام ١٧٩٨ وقعت حادثة فى الاسكندرية كادت تفضى إلى هياج عام لولا ما اتخذه كليبر من الحكمة والحزم ، فقد قتل فى هذا اليوم أحد جنود مدفعية الأسطول ، ولم يعرف قاتله ووجدت جثته ملقاة فى الشارع ، وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم أحد الضباط فمات غرقاً . وقعت الحادثتان فى وقت واحد ، وترامى الخبر فى المدينة وتحفز الأهالى للهياج . فاتخذ كليبر وسيلة الشدة فى معالجة الموقف ، فاعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن ، واستدعى السيد محمد كريم والقاضى الشرعى وكبار الأعيان وطلب منهم البحث عن الجناة ومعاقبتهم طبقاً لقوانين البلاد ، وهدد بشنق من تقع عليهم القرعة من الرهائن.

إذا لم يعاقب الجانى فى خمسة أيام ، وتعهد السيد محمد كريم وزعماء المدينة بتعقب الجناة ومحاكمتهم ولكن البحث لم يؤد إلى نتيجة ما ، وتبين أن القاتل واسمه السيد أحمد قد نجا بنفسه وأفلت من القصاص . فحوكم غيابياً بالمحكمة الشرعية ، وحكم عليه قاضى الاسكندرية بالقصاص بمحضر جمع من العلماء وأعيان المدينة ، وكتب بذلك إعلام شرعى . وعقب هذه الحادثة أصدر كليبر منشوراً إلى الجنود حدد فيه ما يلى : (٥٠)

١ — كل من يدخل مسكن أحد المسلمين فى مكان النساء يعد محرضاً على القتل والاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام .

٢ — كل من يتسلق بيتاً من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لأى من الأسباب يعد سارقاً ويحكم عليه بالاعدام .

٣ — من يصيد الحمام داخل المدينة باستعمال الآلات النارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الأهالى للقتل والخطر كما حدث من قبل يعد قاتلا ويحكم عليه بالاعدام .

٤ — كل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية فى المساجد أثناء صلواتهم أو وضوئهم يعد محرضاً على الإخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام .

ولم يلبث كليبر أن ارتاب فى نيات السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية وأمر بالقبض عليه فى ٢٠ يوليو لاتهامه بتحريض الأهالى والعربان بمهاجمة كتيبة الجنرال ديموى التى كانت تطوف بالمنطقة المجاورة لتأمين مواصلات الفرنسيين . ومحمد كريم سكندرى أصيل ، بدأ حياته قبانياً بالثغر ، وكان عنده — كما قال الجبرتى — «خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة فأحبه الناس ، واشتهر ذكره فى ثغر الاسكندرية ورشيد ومصر » . ولقد أهلته هذه الصفات لتولى أكبر مناصب المدينة ، فقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك بالثغر. وأبقاه بونابرت حاكماً على الاسكندرية وقبل الرجل المنصب ليثير الصعاب أمام الفرنسيين فى كل خطوة يخطونها . وبعد اعتقال محمد كريم جمع كليبر

أعيان المدينة وأبلغهم خبر القبض عليه للريبة فى إخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وطلب إليهم أن يختاروا حاكماً للمدينة غيره . فوقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجى الغريانى ، ووعدوا بمعاونته فى تأدية وظيفته . وكان موقف حاكم الاسكندرية الجديد دقيقاً للغاية لأن محمد كريم كان محبوباً محترماً من الأهالى ، وكتب كليبر إلى بونابرت رسالة توضح حالة الحاكم الجديد النفسية ، كما توضح حالة الأهالى قال فيها : «أخبرنى السيد محمد الغريانى قبل أن يقبل وظيفة المحافظ أن أهالى الاسكندرية يختلفون عن سائر أهالى القطر بأنهم أصعب مراساً وأقرب إلى القلق والهياج ، وأبدى لى بعض استدراكات وملاحظات تخص ادارة المدينة ، فأجبته على ملاحظاته بأن الرجل الذى يتنبأ بمصاعب الوظيفة جدير بأن يعرف كيف يصطلح بها ويتغلب عليها ، وبذلك أقنعته بقبول المنصب» (٥١) وقد قبل السيد محمد الغريانى وظيفة المحافظ ، وكان الشيخ محمد المسيرى كبير علماء المدينة يعاونه فى عمله (٥٢) ، وكان أول عمل طلبه كليبر منهما أن يساعدا على تحصيل السلفة الإجبارية التى فرضها على تجار المدينة فطلبا منه إنقاص هذه السلفة فنزل منها خمسة عشر ألف فرنك يحصلها من إيراد الجمرك . وعقب اعتقال السيد محمد كريم أخلد أهالى الاسكندرية إلى السكينة وكفوا عن المظاهرات العدائية ، وكتب كليبر يقول : «تسود السكينة مدينة الاسكندرية بعد اعتقال السيد محمد كريم ، ولم تعد تنتشر إشاعات السوء المقلقة للخواطر والمثيرة لروح الهياج ، وأقبل كل انسان على عمله» . وبعد نقل محمد كريم إلى القاهرة ، اتهم بخيانة الفرنسيين ، وبدأت محاكمته ، وفى يوم ٥ سبتمبر أصدر بونابرت أمره بإعدامه رمياً بالرصاص ومصادرة جميع أملاكه وأمواله ، ولكنه سمح له بأن يفتدى نفسه بدفع غرامة قدرها ثلاثون ألف ريال فى مدى أربع وعشرين ساعة . لكن محمد كريم كان يؤمن بأنه برىء ، وأنه كان يجاهد فى سبيل الدفاع عن وطنه ، فإذا كان الوطن يتطلب منه التضحية بأغلى ما يملك ، بروحه ، فانه ليجود بها غير ضنين . لقد حاول فانتور كبير تراجمة الحملة أن يغريه بدفع الفدية ، فقال له : «أنت رجل غنى ،

فماذا يضيرك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ ؟» فأجابه السيد محمد كريم إجابة الرجل المؤمن صادق الإيمان : «إذا كان مقدراً على أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدراً لى الحياة فعلام أدفعه» .. وظل السيد محمد كريم على إصراره ، فحمل فى اليوم التالى ٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ إلى ميدان الرميلة حيث أعدم رمياً بالرصاص .

وقد كان مجىء الفرنسيين – فى الواقع – فاتحة عهد جديد لمجتمع الاسكندرية ، فقد أصبحت مرة ثانية قاعدة عسكرية وبحرية وخرجت منها الحملة الفرنسية إلى رشيد والقاهرة . وعول بونابرت على أن تكون الاسكندرية نقطة الاتصال بين مصر وفرنسا ، ووضع أحد مهندسى الحملة ملاحظات فى تخطيط المدينة . واهتم الفرنسيون بتجديد القلاع القديمة وإنشاء قلاع جديدة ، وذلك للدفاع عن المدينة ضد السفن الانجليزية التى كانت تراقب الشواطىء المصرية ، وبنوا قلعتى كوم الدكة وكوم الناضورة . غير أن الاسكندرية – وإن كانت قد عادت إليها أيام الحملة الفرنسية أهميتها الحربية كقاعدة عسكرية – ظلت مدينة صغيرة وربما ساءت حالتها الاقتصادية عن ذى قبل ، فالحكم الفرنسى كان حكماً عسكرياً صارماً ، وفى أثنائه ضرب الكساد أطنابه فى المدينة ، واشتد بها الضيق للحصار البحرى الانجليزى المستمر ، ولإمعان الفرنسيين فى فرض الضرائب على الأهالى ، وانتشار الأوبئة . وطبقاً لتقدير لوبير تناقص عدد سكان مدينة الاسكندرية إلى حوالى سبعة آلاف نسمة . هذا فضلا عن أن الانجليز قطعوا السد الفاصل بين بحيرتى مريوط وأبى قير فى أثناء وجود الفرنسيين بالاسكندرية لحرمانهم من المياه العذبة وعزلهم عن سائر القوات الفرنسية فى مصر ، فاندفعت مياه بحيرة أبو قير – ومعها مياه البحر المتوسط لأنها كانت متصلة به – نحو بحيرة مريوط ، وظل السد مقطوعاً والمياه تعزل الاسكندرية عن باقى الأراضى المصرية وتحرمها من مياه النيل العذبة مالا يقل عن ثلاث سنوات (١٨٠١ – ١٨٠٤) إلى أن أصلح السد وأعيد وصل الترعة العذبة إلى الاسكندرية .

ولقد تعرضت الاسكندرية كغيرها من أنحاء مصر لحالة من الفوضى والاضطراب التى سادت البلاد فى أعقاب خروج الحملة الفرنسية عام ١٨٠١. ففى عهد الباشا على الجزائرلى (١٨٠٣ — ١٨٠٤) ، الذى بقى فى المدينة ، تذمر منه أهالى الاسكندرية وسخط عليه القناصل بسبب سوء حكمه . وفيما يتعلق بأهالى الاسكندرية فقد ذكر الجبرتى أن مدة إقامة الجزائرلى بالاسكندرية كانت عهداً من الجور والظلم ومصادرات الناس فى أموالهم وبضائعهم وتسلط عساكره عليهم بالجور والخطف والفسق ، هذا إلى جانب ترذيله لأهل العلم وإهانته لهم ، حتى إنه كان يسجن الشيخ محمد المسيرى الذى هو أجل مذكور بالثغر المزور » . (٥٣) وأما فيما يتعلق بالأجانب ، فإنه لم يحترم «حقوقهم» التى خولتهم إياها «الامتيازات» ، فأهان أعلامهم وشاراتهم الموضوعة على متاجر ومنازل رعايا دولهم . وأمام هذه الاعتداءات المتكررة انسحب الأجانب إلى السفن الأجنبية الراسية بالاسكندرية ، بينما انسحب القناصل إلى سفينة القبطان بك رئيس العمارة العثمانية بالميناء ، ورفعوا شكاواهم إلى سفراء دولهم بالآستانة ، وعندئذ اضطر الجزائرلى إلى توسيط أحمد خورشيد وجانم أفندى (رئيس الجمرك) والقبطان بك وغيرهم من كبار العثمانيين بالاسكندرية لفض هذه الأزمة ، فتم الصلح قبل مغادرة الجزائرلى للاسكندرية بأيام قليلة . ومنذ مبارحة على الجزائرلى الاسكندرية انفرد بشئونها أحمد خورشيد ، وكانت مهمة هذا أن يمنع سقوط الاسكندرية فى أيدى البكوات .

وعندما سلم الباب العالى بتعيين محمد على باشا على مصر ، ظل الديوان حريصاً على استبقاء الاسكندرية معقلا للنفوذ العثمانى فى مصر ، والحلقة التى تصل بين السلطنة والولاية ، والمكان الذى فى وسع عماله المرتبطين به مباشرة أن يراقبوا منه مجريات الحوادث ونشاط محمد على خصوصاً . ولذلك أصدر الباب العالى فرماناً يثبت أمين أغا فى حكومة الاسكندرية عام ١٨٠٥ ، وقد استرعى هذا الاجراء فى الظروف القائمة نظر القنصلين الفرنسى والانجليزى ، فنقل دروفتى ، القنصل الفرنسى ، هذا الخبر إلى حكومته فى ١٦ أكتوبر ١٨٠٥ ، وعلق عليه بقوله : إن صدور هذا

الأمر الخاص من القسطنطينية بتعيين أمين أغا لحكومة الاسكندرية «براً وبحراً» يشير «على مايبدو إلى أن الباب العالى إنما يريد التمسك بهذا المكان (الاسكندرية) مستقلا عن باشوية مصر» . كما أن القنصل البريطانى مسيت كان يسعى فى الاسكندرية لتهيئة الرأى العام لاسكندرى لقبول فكرة احتلال الثغر بجند بريطانيين ، فبدأ محاولاته لكسب الشيخ محمد المسيرى إلى جانبه وخصوصاً أنه عرف بميوله الفرنسية . ولقد كتب دروفتى إلى حكومته يخبرها بأن تعالت الهتافات فى الاسكندرية يوم ٤ يونية ١٨٠٥ «بحياة السلطان جورج» يهتف بها — كما قال — العربان الذين وزع الوكلاء الانجليز عليهم المال من أجل تحريك الشعب وحضه على الهتاف بحياة ملك بريطانيا .

وكان القنصل البريطانى يخشى وقوع الاسكندرية فى يد محمد على لأنه يؤيد المصالح الفرنسية . وتحدث فى هذه المسألة مع القبطان باشا وحاكم الاسكندرية وجعلهما يعترفان بأن هذه المدينة سوف تتحول إلى صحراء قاحلة إذا وقعت فى قبضة الأرناؤود . ولم يكتف مسيت بمسعاه لدى القبطان باشا وحاكم الاسكندرية بل استمال إليه الشيخ محمد المسيرى ، فأعلن الشيخ للقبطان أنه إذا خوله هذا الأخير مقاومة الأرناؤود استنفر الأهلين وتزعمهم بنفسه لمنع الأرناؤود من دخول الاسكندرية . ومع أن مسيت أخفق فى محاولته الحصول على تأييد الشيخ المسيرى للمصالح البريطانية ، فانه أصاب نجاحاً فى مساعيه مع «الشوربجى» رئيس قضاة الاسكندرية (سيدى قاسم غريانى) الذى ما إن وصلت الأخبار فى أوائل يونيه ١٨٠٦ بتوقع قطع العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا واحتمال دخول انجلترا الحرب ضد الدولة العثمانية حتى انتقل إلى سفينة انجليزية فى الميناء تجنباً للمخاطر التى اعتقد لامحالة سوف يتعرض لها إذا نشبت الحرب فعلا بين الدولة العثمانية وانجلترا . وقد ظل الشوربجى من أنصار «المصلحة الانجليزية» وحضر بعد ذلك نزول جيش فريزر بها واستيلاءه عليها ثم هاجر مع من هاجروا من

الاسكندرية عند تسليمها إلى محمد على . وعلاوة على ذلك فقد نصب مسيث شباكه لاستمالة السلطات الحاكمة فى الثغر وعلى رأسها أمين أغا حاكم الاسكندرية .

وبعد ظهر يوم ١٦ مارس عام ١٨٠٧ وصلت حملة فريزر إلى الاسكندرية. وفى ٢٠ مارس استسلم أمين أغا حاكم الاسكندرية التركى ، ووافق على أن ينتقل هو وصالح أغا قومندان البحرية وسائر موظفى الإدارة وجميع العسكر فى السفن العثمانية إلى ميناء تركى بسلاحهم وعتادهم كأسرى حرب ، ولم يكلف الانجليز الاستيلاء على الاسكندرية سوى ستة قتلى وثمانية جرحى فحسب . وقد وقع على شروط تسليم الاسكندرية الحاج محمد خطاب والشيخ ابراهيم باشه عبد الله (زوج ابنة الشيخ محمد المسيرى) وهما يمثلان أعيان الاسكندرية ، ثم محمد نعيم أفندى مندوباً عن أمين أغا . ويرجع هذا النصر الرخيص الذى أحرزه الانجليز فى الاسكندرية إلى عدة أسباب (٥٤) :

١ — كانت الاسكندرية فى ذلك الوقت مستقلة عن باشوية القاهرة وتابعة رأساً إلى الآستانة ، وكان أمين أغا حاكم المدينة لا يميل إلى الاعتراف بسلطة محمد على الذى وصل إلى باشوية القاهرة ضد رغبة الباب العالى . وكان يخشى هذا الحاكم وكذلك أهل الاسكندرية عموماً أن تخضع مدينتهم لسطوة الألبانيين ، فينهبها هؤلاء ويعيثون فيها فساداً . وكانت الطبقة ذات النفوذ فى الاسكندرية من التجار الذين لا يعنيهم سوى ضمان مصالحهم التجارية وأمنهم على أموالهم وأشخاصهم فحسب . واعتقدوا أنه إذا حدث الغزو الأجنبى ونزل الغزاة بمدينتهم ، فإن ذلك من شأنه أن يعود عليهم بالنفع المحقق من حيث زيادة نشاط الحركة التجارية فى الثغر .

٢ — لم تخضع مدينة الاسكندرية لسلطان باشا القاهرة ، ولم يشعر أهلها بوجود روابط قوية تربطهم بسائر مواطنيهم ، وكان لا مفر من أن تصبح ميداناً فسيحاً لدسائس الوكلاء الانجليز الذين عملوا على إشاعة روح

التخاذل بين الأهلين ورؤسائهم ومشايخهم وبذلوا قصارى جهدهم لاستمالة حاكم المدينة أمين أغا وصالح أغا ، كما استطاع مسيت أن يطمئن إلى انحياز الشيخ محمد المسيرى إلى جانبه .

٣ — كان من الواضح أن الاسكندرية سوف تعجز عن صد أى هجوم يقع عليها ، ويقوم به جيش منظم على الطريقة الأوروبية ومزود بأسلحة الحرب الحديثة ، وذلك بسبب ضعف تحصيناتها وحاميتها وقلة عدد الجنود بهذه الحامية . وزاد من تدهور الموقف عدم جدية أمين أغا والسكندريين فى الدفاع عن مدينتهم . وتأهب أهالى الاسكندرية لمنع الأرناؤود من دخول المدينة للدفاع عنها . وكتب قنصل فرنسا يقول إن «سكان الاسكندرية جميعهم قد تسلحوا فى ليل ١٤ مارس لدفع الأرناؤود إذا حضروا ، وأن أمين أغا يؤكد انتفاء الحاجة إلى هؤلاء الجنود حيث إن أهل الاسكندرية فى وسعهم وحدهم الدفاع عنها» .

ولقد كان من أهم النتائج المباشرة لحملة فريزر ، تمكين محمد على من الاستيلاء على الاسكندرية التى كانت خارجة عن حكمه قبل مجىء الحملة . فبعد أن بدأ إخلاء الجنود البريطانيين لمدينة الاسكندرية فى ١٣سبتمبر١٨٠٧، عين محمدعلى كتخدا بك (طبوز أوغلى) حاكماً عليها فدخل المدينة يوم ١٧ سبتمبر مع خمسين من رجاله . وأرسل الكتخدا بك خبر احتلاله الاسكندرية إلى محمد على ، فغادر دمنهور فوراً على رأس ألفين من جنده ، وفى صبيحة ٢٠ سبتمبر ١٨٠٧ دخل محمد على الاسكندرية على دوى المدافع التى أطلقت من طبياتها تحية له ، «وكانت هذه هى المرة الأولى التى تطأ قدما محمد على فيها أرض الاسكندرية» . وبادر القناصل والأعيان وكبار التجار والمشايخ والعلماء ورؤساء الجند بتقديم التحية ، ثم نزل الباشا يزور المدينة وتحصيناتها وقلاعها ومخازنها . وكان أول ما استرعى انتباه محمد على أن الخزانة بالاسكندرية خالية من المال ، فأمر بفحص حسابات الجمارك وسجلات احتكارات الصودا وأصناف السوائل ، وتبين من هذا الفحص أن الأموال المحصلة منها والتى كان يجب أن تمتلىء بها خزانة الحكومة

بالاسكندرية ، قد بددت . ولذلك فقد أخذ من التجار الأوروبيين بالثغر سلفة قدرها عشرون ألف ريال تقوم جمارك الاسكندرية بسدادها لأصحابها من إيراداتها .

وقد ترتب على جلاء الانجليز عن الاسكندرية أن غادرها كثير من أولئك الذين اعتقدوا أنهم صاروا موضع كراهية عظيمة بسبب صداقتهم ومعاونتهم للانجليز ، وقد لجأ بعض هؤلاء إلى البريطانيين حتى يحملوهم على ظهر سفنهم معهم . بينما هاجر عديدون من سكان الاسكندرية ، مسلمين ومسيحيين على السواء ، ومن بين هؤلاء الأخيرين أسر لبنانية كثيرة ذهبت إلى الشام ، كما قصد بعض المهاجرين إلى وجاقات الغرب ، ونزح قسم كبير من فقراء الاسكندرية إلى الصحراء ليعيشوا مع البدو فى خيامهم ، وقد حذا حذو هؤلاء المهاجرين كثيرون من أهل رشيد كذلك . ومن بين الذين هاجروا من الاسكندرية الشيخ محمد المسيرى وقد نزل كتخدا بك طبوز أوغلى بداره عند دخوله الاسكندرية ، ثم الشوربجى أو رئيس قضاة الاسكندرية سيدى قاسم غريانى ، وأما الشيخ ابراهيم باشه زوج كريمة الشيخ محمد المسيرى وأحد الموقعين على اتفاق تسليم الاسكندرية إلى الانجليز ، فقد آثر أن «يقبل قدمى» محمد على ، يطلب للصفح منه على الهجرة من الاسكندرية ، فعفا عنه الباشا ، وأمنه على حياته وخلع عليه «فروة ثمينة» .

حواشى البحث

١ – راجع : جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

٢ – الاستبصار فى عجائب الأمصار لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٠ .

٣ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٩ ، ص ٣٥١ – ٣٥٤ .

٤ – Jean Deny, *Sommaire des Archives turques du Caire*, (Cairo, 1930), pp. 125, 447 — 50.

٥ – انظر : ستانفوردج شو ، الوثائق المصرية فى العهد العثمانى (١٥١٧ – ١٩١٤)، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٦ ، ص١٥٢ .

٦ – S.J. Shaw, Tukish source—materials for Egyptian history, in *Political and Social change in modern Egypt*, (ed. P.M. Holt), London, 1968, p. 41.

٧ – Shaw, *op.cit.*, p. 47.

٨ – الخطط التوفيقية ، جـ ٧ ، ص ٤٩ – ٥٠ .

٩ – مقتبساً فى السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٤٢٧ .

١٠ – صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢ ، ص ٤٣ .

١١ – S. Lane—Poole, *History of Egypt in the Middle Ages*, (London, 1936), p. 340.

١٢ — مقتبساً فى السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ،

١٣ — المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص١٩١ ، مقتبساً فى السيد عبد العزيز السابق ، ص ٥٢٤ .

١٤ — السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٥٢٥ — ٥٣٢ .

١٥ — بول كاله ، صورة عن وقعة الاسكندرية فى عام ٧٦٧ هـ / ج ١ وتعليق : درويش النخيلى وأحمد قدرى محمد ، مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ص ٣٧ — ٣٨ .

١٦ — السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

١٧ — ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ ، ص ٢٣ ٤

١٨ — ابن إياس ، ج ٥ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

١٩ — ابن إياس ، ج٥ ، ص ١٨٣ .

٢٠ — ابن إياس ، ج ٥ ، ص ١٨٤ .

٢١ — ابن اياس ، ج ٥ ، ص ١٨١ .

٢٢ — بول كاله ، المرجع السابق ، ص ٣٨ — ٣٩ .

٢٣ — المرجع السابق ، ص ٣٩ .

٢٤ — فؤاد فرج ، الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ٤٣ — ٤٤

٢٥ — انظر : Iney, *Voyage en Syrie et en Egypte*, vol. i, Paris, an vii, pp. 2 — 8.

٢٦ — عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ١ ٧٣ ، ١٦٣ .

٢٧ — *Ottoman Egypt in the age of the French* ,' *n*, Cambridge, Mass., 1964, pp. 38, 85.

٢٨ — محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨ — ١٨٠١) الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، ص ٥ ١

٢٩ — v, *op. cit.*, pp., 80 — 81.

٣٠ — راشد البراوى ومحمد حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى الحديث ، القاهره ، ١٩٤٥ ، ص ٢٥ .

٣١ — ey, *op. cit.*, vol. ii, p. 196.

٣٢ – C. de Savary, *Lettres sur l'Egypte*, Paris, 1785 — 6, vol. i, p. 44.

٣٣ – C. Olivier, *Voyage dans l'Empire othoman, l'Egypte et la Perse*, Paris, 1807, vol. ii, p. 9.

٣٤ – قرية من قرى دمياط تنسب إليها الملابس الثقيلة والعمائم الشرب الملونة .

٣٥ – انظر : البراوى وعليش ، التطور الاقتصادى فى مصر ، ص ٢٢ .

٣٦ – المرجع السابق ، ص ٢٣ .

٣٧ – شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .

٣٨ – Shaw, *op. cit.*, pp. 125 — 128.

٣٩ – يشير على مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ٧ ، ص ٧٤ – ٧٥) بالتفصيل إلى عدد الطوائف الحرفية الموجودة بمدينة الاسكندرية بعد عهد محمد على ويقدرها بحوالى ٢٦٩٠٠ نفس ، وبلغت عدد الطوائف ١٤٢ طائفة وتشتمل على: «برابرة خدامين وحمارة وعتالين فى المينا وبياعين خضار ، وعربجية جر ، وقهوجية ، وجزارين بالأسواق ، وبنائين ومناولين ، وبنائين مقابر ، وزياتين وعصارين ، ودخاخنية ، ونجارين ، وقماشة ، وطحانين ، وصيادين سمك ، وكيالين ، وقبانية ، ومراكبية ، وحدادين وبرادين ، وحلاقين ، وشغالة فى القطن ، ونحاتين حجر ، وآلاتية ، ومركجية ، وسقائين ، وبراسمية ، وعلافين» ، وعربجية ركوب ، وطباخين ، وخفراء مخازن ، وخدمة بالسلاخانات ، وخياطين ، وزراعين ، وخدمة صمايدة ، وأصحاب حمير أجرة ، وصباغين ، وفرانين ، وخبازين ، وجزمجية ، وتجار غلال ، وفحامين ، وسراحة خضار ، وسمكرية ، ونجارين مراكب ، ومرخمين ، ودهانين جزم ، وتبانين ونجارين بلط ، وتجار بهائم ، ونقاشين بيوت ، وتجار سوق الدقيق ، وبياعين ليموناتو ، ولبانة ، وعطارين ، وعقادين ، وحطابة ، وبياعين سكر ، وصواغين أولاد عرب ويهود ، وبياعين فراخ وطيور ، وبياعين ثياب قديمة ، وصيادين أبى قير ، ومبيضين نحاس ، وخبابتة الرمل ، وسرباتية ، ومغربلين ، وحصرية ، وبياعين خشب ، وتجار نحاس ، وتجار حرير ، ومنجدين ، وبحارة المينا ، وفطاطرية ، ونجارين ، وحمالة النقل ، وسقائين فى البيوت وحمامية ، ومركوبجية ، وبياعين فواكه يابسة ، وبياعين حمص ، وصنايعية فى الكتان ، وبياعين سمك مالح ، وطربوشجية ، وبياعين عسل ، وبياعين سلطة ، وبياعين فخار بلدى ، وأصحاب حمير ، وشبكشية ، ومسلكاتية ، وفراشين ، ومبلطين ، وبياعين سمك ، وبياعين كنافة وعرضحالجية ، ودلالين فى الحمير ، وبياعين جلود ، وخردجية ، وبياعين أقمشة مقاعدية ، وزراعين خضار ، وبياعين فى الحارات ، وبياعين حلويات تركى ، ودلالين سوق الترك ، وتراجمة ، وسباكين ، وبياطرة ، وبوابين ، ومحدثين فى القهاوى ، ودلالين فى الخيول ، وساعاتية ، وبياعين براميل ، وخفر المغالق ، ودلالين فى العقارات ، وحبالة

وخراطين ، ومرخمين ، ورقاصة ، وقبانية الحطب ، وبياعين محار أفرنكي ، ونقاشين على المعادن وخماسرة ، وصياوف ، وبرامين حرير ، وقرجوز ، وحداد ، وكتبية ». ونستدل من هذه القائمة على ظهور بعض الحرف الجديدة تمشياً مع تطور المدينة العمراني منذ عهد محمد على .

٤٠ – محمد خليل المرادى ، سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، جـ ٣ ، ص ٢٥٩ .

٤١ – الجبرتى ، عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٩٣ .

٤٢ – الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ .

٤٣ – الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ١٠٢ – ١٠٣ .

٤٤ – الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٢ – ٣ .

٤٥ – الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ص ١٧٥ – ١٧٦ .

٤٦ – على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٧ ، ص ٤٤ .

٤٧ – ج . كرستوفر هيرولد ، بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٠ .

٤٨ – المرجع السابق ، ١٠١ .

٤٩ – عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ص ١٧٥ .

٥٠ – المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

٥١ – نفس المرجع ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

٥٢ – بعد موقعة أبى قير البحرية رأى كليبر أن يستميل أهالى الإسكندرية ويتبع حيالهم طريق المسالمة ، فأنشأ فى الإسكندرية ديواناً على غرار ديوان القاهرة ، وعين لرئاسته الشيخ محمد المسيرى ، وأصدر بذلك منشوراً إلى الإسكندريين فى ٢١ أغسطس ١٧٩٨ . وكانت للشيخ المسيرى منزلة كبيرة عند بونابرت ، فكتب إليه رسالة من القاهرة يقول فيها : « لقد سرنى ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وانك تعلم مبلغ احترامى لك منذ عرفتك وأتعشم أن يجىء الوقت الذى أستطيع أن أجمع عقلاء البلاد وعلماءها ، وأن أضع نظاما موحدا مؤسسا على مبادىء القرآن ، تلك المبادىء الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم . »

٥٣ – محمد فؤاد شكرى ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ – ١٨١١) ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، جـ ١ ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ .

٥٤ – المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٠٥ – ٦١٤ .

المؤثرات الأوروبية فى مجتمع الاسكندرية
فى العصر الحديث
(١٨٠٥ – ١٩٣٩)

للدكتور / حسن محمد صبحى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

مدينة الاسكندرية هى الباب الغربى لمصر ، منها يتم الاتصال بحراً بأوروبا والغرب ، وفيها يصب سيل القادمين بحراً من الغرب إلى مصر . وقد كان ميناؤها الجوى (النزهة) إلى عهد قريب يسهم فى إحكام هذا الاتصال، عبر الاسكندرية ، بين مصر وأوروبا .

ويود بعض الكتاب من الأوروبيين أن يذهب بعيداً فى وصف الاسكندرية بأنها فى تاريخها الطويل كانت اما مدينة يونانية أو مسيحية أو مهملة طواها النسيان — كما كان الحال ابان الفتح الاسلامى أو العثمانى كما يدعون . هؤلاء يبالغون أيضاً حينما يذكرون أن نور الاسلام «لم يتوهج أبدا بشدة» فى مدينة الاسكندرية ، وأن المدينة فى أوائل الأربعينات من القرن العشرين لا تحمل طابع المدينة الاسلامية رغم وجود مساجد أبى العباس المرسى والأباصيرى والنبى دانيال والعطارين والشوربجى وسيدى جابر . فاهتمام المدينة بهذه المساجد كان حينئذ — كما يرون —— منصباً على الناحية المعمارية والتاريخية لها (١) .

---

(١) أنظر : Leprette, F., Egypt — Land of the Nile. p. 72.

ولكن إذا طرحنا جانباً مسألة المبالغة فى ذلك الحديث ، والنظرة الضيقة للأمور التى تشوب هذا الرأى ، فهناك لا شك مسحة من الحقيقة نبعت منها هذه الخواطر . تلك هى حقيقة الطابع الأوروبى الذى كان – ولا يزال البعض منه – يميز بعض أحياء المدينة حينئذ ، وهذه المؤثرات الأوروبية التى تأثر بها بشكل عام مجتمع الاسكندرية فى العصر الحديث ، منذ أن كون محمد على دولته فى مصر واستعان فى ذلك بخبرات الأوروبيين ، وحتى عهد قريب .

هذه المؤثرات كانت تتفاوت ، شدة أوضعفاً ، من عهد إلى آخر ، فهى متعلقة بظروف مصر الداخلية من جانب ، وبعلاقات مصر بالخارج من ناحية أخرى . وعلى ذلك فالحديث عن هذه المؤثرات يستلزم تتبع تلك الظروف التى عاشها الأوروبيون فى المدينة منذ عهد محمد على ثم عباس وسعيد واسماعيل وتوفيق حتى العهد الملكى ، وتتبع تطور هذه والمؤثرات فى هذه العهود بالتالى فى مجتمع الاسكندرية . وسوف نكتفى بالحديث عن هذه المؤثرات فى ذلك الاطار ، دون ماتعمق فى دراسةمدى تأثر المجتمع الاسكندرى بها ، وربما كان ذلك يهم باحثا فى علم الاجتماع بدرجة أكبر .

من ناحية أخرى ، يمكن القول بكل تأكيد بأن الاسكندرية لم تتأثر بالأوروبيين مثلما تأثرت بوجود الجالية اليونانية بها . أما فيما عدا ذلك من جاليات أوروبية فهذه كان يتم تأثيرها غالباً فى المجتمع الاسكندرى من خلال اليهود بالمدينة والمنتمين إلى هذه الجنسية أو تلك .

لذلك سنتكلم عن هذه المؤثرات الأوروبية بوجه عام ، مع توجيه عناية خاصة إلى المؤثرات اليونانية ، فهذا موضوع يستحق العناية ، بل ويستحق الدراسة الجادة من الجانب العربى ، إذا كان للمكتبة العربية أن تثرى بدراسات تتعلق بالاسكندرية ومصر ،وهى دراسات كتبت وطبعت بمصر وبالاسكندرية خاصة بواسطة يونانيين اتخذوا من مصر وطناً ثانياً لهم. كذلك سنولى يهود الاسكندرية عناية خاصة فى بحثنا . فهم – ككل – يمكن

اعتبارهم أجانب ، أو منتمين إلى أوروبا أكثر من انتمائهم إلى مصر . فهم مثلا يجعلون اللغة الفرنسية لغة للتعليم فى مدارس ومؤسسات الحلف الاسرائيلى "alliance israelite" ، وكانت الحكومة الفرنسية تعلم ذلك جيداً حتى أن وزارة التعليم الفرنسية كانت تمنح المدارس اليهودية فى مصر مجموعة من الكتب المدرسية كل عام (١) .

أولا — عصر محمد على

يرجع إلى محمد على فضل بعث الحياة فى مدينة الاسكندرية مرة أخرى(٢) بعد أن كانت أهميتها قد اندثرت من قبل لقرون عديدة ، وآلت مكانتها إلى ثغر رشيد (٣) .

صحيح ان مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر كان بداية عهد جديد للمدينة التى أصبحت قاعدة عسكرية وبحرية ، ولكنها ظلت مع ذلك مدينة صغيرة وربما ساءت حالتها الاقتصادية عن ذى قبل ، فقد ساد الكساد المدينة واشتد بها الضيق للحصار البحرى الذى ضربه الانجليز حول المدينة ولامعان الفرنسيين فى فرض الضرائب على الأهالى .

وأصبحت المدينة — بفضل مشروعات محمد على — ثانية مدن القطر سكاناً بعد القاهرة . ففى أوائل عهد محمد على كان عدد سكان المدينة بضعة آلاف (٤) ثم أخذ العدد يتضاعف من بعد عام ١٨٢١ . ففى تلك

---

(١) أنظر : Lambelin, L'Egypte et L'Angleterre. p. 199.

(٢) أنظر : محمد مصطفى صفوت : الاسكندرية فى العصور الحديثة ص ١١٠ . وكذلك جمال الدين الشيال : الاسكندرية ص ٢٥١ .

(٣) عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية ص ١٤٠ (نقلا عن كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر — ترجمة محمد مسعود . ص ٤١٣ — ٤١٥) .

(٤) اختلف الكتاب فى هذا المجال . فبعضهم يذكر أربعة آلاف والآخر عشرة آلاف بينما يقدر جومار Jomard أحد علماء الحملة الفرنسية عدد سكان الاسكندرية فى عام ١٨٠٠ ب ١٥٠٠٠ نسمة

أنظر : محمد صبحى عبد الحكيم : الاسكندرية ص ١٧٩ .

الفترة دب النشاط التجارى فى المدينة ، واتخذت قاعدة للأسطول ، ونفذت فيها المشروعات . ذلك ضاعف عدد سكانها أربع مرات فى عشرين عاماً ، فارتفع عدد السكان إلى ٦٠,٠٠٠ نسمة فى الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٤٠ . وفى الفترة من ١٨٤٠ إلى عام ١٨٤٨ وصل عددهم إلى ١٤٣,٠٠٠ نسمة على أقل تقدير (١) .

الأجانب فى المدينة فى عصر محمد على :

من الثابت ان الأمن قد استتب فى انحاء القطر فى عهد محمد على ، فأمن الفرد على حياته وعرضه وماله عن ذى قبل . وقد شجع استقرار السلام عدداً كبيراً من الأجانب على الوفود إلى مصر للتجارة وتوظيف رءوس أموالهم فيها أو لخدمة الدولة . ساعد على ذلك أيضا سياسة محمد على ازاء الأجانب . فهو قد جهد لادخال الطمأنينة إلى نفوسهم ، ومارس التسامح ، والغى ما كان متبعاً من اجراءات ازاء المسيحيين — إذ كانوا يمنعون من ركوب الخيل وارتداء الملابس ذات الألوان الخاصة بالمسلمين — واذن للرهبان ببناء الأديرة كما أذن للكنائس أن تدق النواقيس ولرؤساء الطوائف أن تقيم القداس علناً . كذلك احترم محمد على الأجانب أمام الشعب ، وعطف عليهم وأولاهم ثقته وشجعهم ، ومنح من استخدمهم منهم المرتبات السخية وتوطدت الصداقة بين محمد على والبعض منهم مثل Tossizza ، Zizinia ، كما اتخذ منهم أطباءه الخصوصيين مثل غيطانى بك Gaétani وكلوت بك Clot .ومن الواضح ان محمد على كان يهدف بذلك إلى انشاء الصلات الوثيقة مع الغرب للنهوض بدولته ومسايرة ركب التقدم وتنمية قوته (٢) . فالباشا كان يقول انه يريد أن يحمل الشعب المصرى على أن يشارك أوروبا تلك العلوم والآراء التى كانت سبب تفوقها (٣) .

---

(١) محمد صبحى عبد الحكيم : نفس المرجع ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة — مصر محمد على . ص ٢٢ — ٢٣ .

(٣) تقرير بواليكومت Boislecomte (يونيه ١٨٣٣) — المرجع السابق ص ٢٣٥

وسياسة محمد على الاقتصادية ومشروعاته ومطامحه فى الخارج قد أوجبت العناية بتنظيم العلاقة مع الأجانب فى مصر . ذلك يفسر نشاط التمثيل القنصلى فى مصر فى عهده مع تنظيمه على قواعد ثابتة . وقد جاء بتقرير هودجسون Hodgson (٣ مارس ١٨٣٥) ان عدداً غير قليل من الدول قد انشأت لنفسها قنصليات فى مصر. وهذه الدول كانت بريطانيا والروسيا والنمسا وسردينيا وهولندا واسبانيا والسويد وتسكانيا وصقلية والدانمرك وبروسيا واليونان والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا. وكان القناصل الانجليز والفرنسيون والروس يتنقلون مع الباشا حيث كان يعقد ديوانه شتاء فى القاهرة وصيفاً فى الاسكندرية ، فهؤلاء كانوا مندوبين سياسيين فى نفس الوقت . أما سائر القناصل – ومنهم عدد يشتغل بالتجارة لحسابهم الخاص وبموافقة حكوماتهم – فكانوا لا يبرحون الاسكندرية (١) .

وكان للقنصل على رعايا دولته ولاية قضائية فى الشئون المدنية والجنائية بالنسبة للقضايا التى تنشأ بين هؤلاء الرعايا من دولته . ولهذا يعتبر البعض ان كل جالية أجنبية بمصر كانت تكون شبه مستعمرة بها. وقد منح الأجانب تسهيلات بالنسبة للتجارة قد لا يتمتع بها أهل البلاد . فبينما يدفع الافرنج ضريبة جمركية قدرها ٣٪ يدفع المسلمون ٤٪ . وكان لجميع الدول التى تربطها بالباب العالى معاهدات ان تسهم على قدم المساواة بنصيب فى التجارة الحرة، فلا تمنح احداها أية أفضلية ولا توضع عراقيل فى سبيل رعاياها (٢) . ومع ذلك فحكومة الباشا كانت تمارس نفوذها فى البلاد كاملا دون معوق. فالقضايا مثلا التى يقوم فيها النزاع بين أجانب ومصريين كان يفصل فيها الباشا بنفسه أو الهيئة التى يعهد اليها بذلك نيابة عنه . وفى الحالات التى تتعدد فيها «تبعية المتقاضين» ، كانت تنظر قضاياهم لجنة تحكيم مختلطة (٣) .

---

(١) التقرير الثانى للاميريكى هودجسون Hodgson فؤاد شكرى – نفس المرجع ص ٢٧٢.

(٢) نفس التقرير ونفس المرجع ص ٢٨٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٦ .

وعلى ذلك فقد شهد عصر محمد على نزوح الأجانب بكثرة إلى مصر عامة والاسكندرية خاصة لأول مرة . هذه الزيادة الملحوظة فى عدد الأجانب فى عصر محمد على وفى القرن التاسع عشر هى من المظاهر السكانية الجديرة بالتسجيل . ففى عام ١٨٠٠ لم يكن عدد الأجانب فى مصر كلها يتجاوز مائة نسمة (١) . ثم أخذ عددهم يتضاعف مرات ومرات حتى بلغ عددهم فى عام ١٨٣٣ ـ كما جاء بتقرير بواليكومت Boislecomte ٤٨٨٦ نسمة (٢) ، وهذا الرقم قفز إلى ٤٦,١١٨ نسمة فى عام ١٨٩٧ .

وعدد كبير من هؤلاء الأوروبيين استحضرهم محمد على للعمل فى المصانع والجيش والأسطول كمهندسين ومساحين وأطباء وغير ذلك . وكان معظم هؤلاء من الفرنسيين . كذلك وفد غيرهم مع الطفرة التجارية العظيمة التى شهدتها البلاد والتى كانت الاسكندرية مركزها الأول . فقد تأسس بها بعد عام ١٨٢٠ كثير من بيوت المال والأعمال التى تتولى تجارة الصادر والوارد ، من فرنسية ونمسوية وسويسرية ويونانية وغيرها . وكان هؤلاء الأجانب من الرعايا الانجليز والنازحين من جزيرة مالطة ، وقد مثلوا فى عام ١٨٣٣ أكثر من ٦٠٪ من مجموع الأجانب بالاسكندرية (٣٠٠٠) ، ويليهم فى العدد التسكانيون ومعظمهم من اليهود (٥٠٠) واليونانيون (٤٠٠) والفرنسيون (٣٠٠) والنمسويون (٢٩٦) ، ثم اعداد قليلة من أهل مملكة نابلى وسردينيا واسبانيا وسويسرا وكذلك الألمان والرومانيين وجزر البليار (٣) .

نلحظ ان اليونانيين بوجه خاص قد بكروا فى المجىء إلى مصر منذ

---

(١) محمد صبحى عبد الحكيم – مدينة الاسكندرية . ص ٢٦٩ .

(٢) التقرير الثانى لبواليكومت Boislecomte (أول يوليو ١٨٣٣). فؤاد شكرى – نفس المرجع ص ٢٤٦ .

(٣) أنظر : – تقرير بواليكومت الثانى – المرجع السابق ص ٢٤٦ ، وفؤاد شكرى : نفس المرجع ص ٢٤ ، ومحمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية . ص ١٨٩ .

عام ١٨١١ ، وانخرط عدد منهم فى جيش محمد على ، كما اشتغلوا عامة بالشئون التجارية . أما الفرنسيون فقد كثر وفودهم إلى مصر عقب انهيار امبراطورية نابليون بونابرت أى منذ عام ١٨١٥ واسهموا فى بناء دولة محمد على (١) . وكذلك كان للايطاليين فى أوائل عصر محمد على جاليات كبيرة فى ثغور مصر ، كما كانت اللغة الايطالية هى اللغة الأجنبية الأكثر شيوعا وتداولا ، بل لقد كانت هى لغة المخاطبات الرسمية حتى بين القنصليات غير الايطالية . وكان هؤلاء الايطاليون يعرفون اللغة العربية ، كما كان عامة الأهالى فى الاسكندرية يتكلمون الايطالية . ويقول رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابة «تخليص الابريز» عند كلامه عن الاسكندرية ابان رحلته إلى باريس ، ان أغلب السوقة بمدينة الاسكندرية يتكلم بشىء من اللغة الايطالية (٢) .

وكان لوجود الأجانب فى الاسكندرية باعدادهم المتزايدة أثره فى امتداد العمران بالمدينة وفى تحديد اتجاه ذلك الامتداد. ففى أول القرن التاسع عشر كانت المدينة تقتصر على حى الجمرك وحى المنشية تقريباً . وفى منتصف القرن كانت المدينة قد امتدت فى اتجاهين : نحو الشمال لتشمل حى رأس التين وحى الانفوشى الحاليين ، ونحو الجنوب الشرقى لتشغل قلب المدينة التجارى الحالى حتى شارع صفية زغلول وطريق الحرية وامتداده حتى شارع سيدى المتولى فى الجنوب . وكانت معظم المبانى والمنشآت التى اقيمت فى هذه المنطقة الثانية خاصة بالأجانب . فقد سجل مولر Charles Muller فى خريطته التى رسمها للمدينة عام ١٨٥٥ ثلاث عشرة قنصلية واعداداً أخرى من الفنادق والمطاعم والمقاهى والكنائس الافرنجية والمستشفيات الأجنبية ، وهذه كلها كانت مركزه فى هذه المنطقة وحدها . ومنذ ذلك الوقت و هذه المنطقة هى قلب المدينة التجارى . ومن الثابت أن معظم الأجانب الذين

---

(١) فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ٢٤ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ١٢ .

وفدوا على الاسكندرية خلال عصر محمد على كانوا يقيمون فى قلب المدينة حول ميدان محمد على (المنشية) (١) .

ويرجع امتداد المدينة فى الاتجاهين الشمالى والجنوبى الشرقى إلى أمورمنها منح محمد على للبعض من المصريين والأوروبيين من مختلف الجنسيات الأراضى على ضفتى ترعة المحمودية بعد حفرها ، فأقاموا عليها المنازل تحيط بها المزارع والحدائق ولا سيما على الضفة الشمالية ، ابتداء من موضع قصر انطونيادس الحالى فى الشرق حتى حى كرموز الحالى فى الغرب (٢) .

وفى عهد محمد على تملك الأجانب مساحات من الأراضى ، وعدداً كبيراً من المنازل والمخازن ، وكان التسجيل فى الغالب يتم باسم السيدات الافرنجيات . وقد حدث ذلك رغم المشكلات التى كانت تحوط مسألة تملك الأجانب لعقار ثابت . فالأجنبى بحكم اعفائه من الضرائب كان لا ينبغى عليه بالتالى تملك عقار ثابت ، فهذه كانت خاضعة للضرائب . ولذلك كانت الحكومات الأوروبية تعمد إلى اصدار تعليمات تمنع رعاياها من امتلاك الأرض (٣) .

ولاشك ان مصر ابان عصر محمد على قد جنت من وجودالأجانب اجل الفوائد . ويرى باورنج فى تقريره (مارس ١٨٣٩) ان ذلك الأمر لم يكن مقصوراً على ما أداه الأجانب للبلاد من خدمات مباشرة بما لديهم من علم ودراية ، ولكن المامهم الواسع بجميع ما ادخل إلى مصر من ضروب الاصلاح قد اشاع فى نفوس المصريين احتراماً عميقاً لما أحرزوه من علوم لها التفوق والامتياز ، كما اشاع وجودهم نوعاً من التسامح ازاء تلك الآراء

---

(١) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) محمد صبحى عبد الحكيم : نفس المرجع ص ١٤١ .

(٣) من تقرير باورنج John Bowring (مارس ١٨٣٩) أنظر فؤاد شكرى ص ٦٣٤ .

التى أخذ أثرها ينتشر انتشاراً سريعاً بين أفراد الشعب (١)

ولكن نلحظ انه قد نزحت إلى مصر أيضاً جماعات أوروبية من عناصر سيئة ، جاءت بهدف الاثراء السريع وعن كل طريق ، كالتآمر والكيد والخديعة فى معاملاتهم التجارية مع الأهالى أو حتى مع الباشا نفسه . وهؤلاء كانوا اما من المغامرين أو الفارين من العدالة فى بلادهم (٢) .

وبشكل عام قام الاجانب فى الاسكندرية بنشاط من كل نوع ، وعلى رأسه النشاط التجارى. صحيح انه لم يكن هناك ما يميز اخلاط السكان من اليونانيين والمالطيين والافرنج عامة الذين يعيشون فى الاسكندرية عمن يماثلهم من طبقات الأجانب المقيمين فى مراكز التجارة فى حوض البحر المتوسط ، الا أنهم أضفوا على المدينة — كما كان يقول محمد على — طابعاً أوروبياً — وساعد على ذلك عيشة الترف التى كان يعيشها بالاسكندرية الكثير منهم (٣) . وقد كان التجار الأوروبيون يقومون بجميع العمليات التجارية بين مصر وأوروبا ، وكذلك الملاحة فى ميناء الاسكندرية كانت فى أيدى الأوروبيين وحدهم (٤) .

وقد اورد باورنج قائمة باسماء التجار المقيمين بالاسكندرية تضم ٧١ تاجراً ، وهم أوروبيون فى مجموعهم . وتضم القائمة بعض اسماء ليهود مرموقين كما تضم اسماء كانت لا تزال معروفة فى الاسكندرية أو فى القاهرة إلى عهد قريب مثل أفرينو Avierino ، ولمبروزو Lumbroso وسكاكينى Sakakini وزيزينيا Zizinia ، وزغيب Zogheb (٥)

---

(١) تقرير باورنج Bowring أنظر محمد فؤاد شكرى : بناء دولة — مصر محمد على ص ٣٩٢ .

(٢) فؤاد شكرى : بناء دولة — مصر محمد على . ص ٢٤ .

(٣) ، (٤) من تقرير بواليكومت — أنظر فؤاد شكرى : بناء دولة — مصر محمد على ص ٢٣٥ — ٢٣٤ .

(٥) تقرير Bowring المرجع السابق ص ٥٤٢ — ٥٤٤ .

وأصدر الفرنسيون بالاسكندرية صحيفة اسمها Le Moniteur Egyptien على غرار الصحيفة الشبيهة بالرسمية والتى كانت تصدر بالآستانة باسم Le Moniteur Ottoman وكانت هذه الجريدة تطبع فى مطبعة سراى الاسكندرية التى لم يعن احد بذكرها أو الاشارة اليها رغم أهميتها ، ففى تلك المطبعة وجدت مجموعات من الحروف اللاتينية بأشكال وأحجام مختلفة (١) . وكانت حكومة محمدعلى تحتضن هذه الصحيفة للرد على الصحيفة التركية. بدأت هذه الصحيفة تظهر فى١٧ أغسطس سنة١٨٣٣ ثم احتجبت فى مارس من العام التالى . وهناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن الفرنسيين قد أوحوا إلى الباشا باصدار هذه الصحيفة لتكون وسيلة لتسديد خطأ من يحيد عن الجادة من الأوروبيين (٢) .

كانت هذه نبذة عن الأجانب فى عهد محمد على فى مصر عامة ، وفى الاسكندرية بوجه خاص . بالاضافة إلى ذلك ، فهناك أحداث بالمدينة صنعها الأوروبيون ، أو مشروعات بالمدينة ضربوا فيها بسهم وافر ، وكان لهذه كلها أثرها على المجتمع الاسكندرى . هناك مثلا حملة فريزر (١٨٠٧) وهناك مشروع حفر ترعة المحمودية التى خطط له وأشرف على تنفيذه أوروبيون ، وهناك مختلف المشروعات التى أسهم الأوروبيون فى تنفيذها مثل ترسانة الاسكندرية وغيرها من المشروعات بالمدينة .

حملة فريزر (مارس — سبتمبر ١٨٠٧) :

فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ دخل فريزر Fraser وجنوده إلى الاسكندرية دون مقاومة . ويبدو أن الانجليز نجحوا فى استمالة الأهالى اليهم بعد أن حملوا السلاح ضدهم فى أول الأمر ، بينما فر القنصل الفرنسى Drovetti إلى القاهرة واتصل بمحمد على يحثه على قتال الفرنسيين (٣) ، وظل الانجليز

(١) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ٢٠١ ، ٢١٢ .

(٢) فؤاد شكرى : بناء دولة — مصر محمد على — ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٣) Fraser to Windham, 27 March 1807. (Douin, pp. 35-36)

بالمدينة ستة أشهر ثم تم الجلاء عنها ١٩ سبتمبر ١٨٠٧) . ولا شك أن الانجليز قد أثروا على المجتمع الاسكندرى فى تلك الفترة .

يقول المسيو مانجان ان الانجليز قد اشتروا (أمين اغا) محافظ الاسكندرية التركى كى يسلم لهم المدينة دون مقاومة ، فالحكومة التركية كانت تعد الاسكندرية حينئذ تابعة لها مباشرة ، فكانت تعين حاكمها (١) . ولكن نزول الانجليز إلى البر بشاطىء العجمى يوم ١٧ مارس ، ثم زحفهم إلى الاسكندرية ودخولهم المدينة دون أن تطلق رصاصة واحدة ، ذلك لا يوحى بوجود شيء من مثل هذا العداء الذى سبق أن أظهره أهل المدينة بالنسبة للفرنسيين من قبل. والواقع ان الفرنسيين قد علموا بأمر الحملة الانجليزية الموجهة إلى الاسكندرية من قبل مجيئها ، وعلى ذلك أخذ الفرنسيون فى المدينة فى محاولة اقناع قومندان المدينة والسكان بها للسماح لفرقة من الألبانيين بالدخول إلى المدينة لتقوية الحامية ، ففى هذه الاثناء كانت قوات الألبان تتدفق على الموانىء المصرية وخصوصاً دمياط (٢) ، وأخذ ماجور ميست Misset ، المقيم البريطانى بالاسكندرية ، بالتالى فى العمل لفشل هذه الخطة ، فأوعز إلى قومندان المدينة انه بالسماح للالبان بالدخول إلى المدينة ، فانه انما يغامر بسلطته عليها . كذلك جهد ميست فى اقناع الأهالى بوجهة نظره ، وتذكيرهم بالمتاعب التى يسببها الالبان حيثما يتواجدون (٣) .

بالاضافة إلى ذلك ، فأهداف حملة فريزر كانت تحتم على الانجليز كسب ود أهل الاسكندرية ، على أساس ان النجاح فى ذلك انما هو هدف حربى فى حد ذاته . فمن المعروف ان هدف حملة فريزر لم يكن غزو مصر ، وانما الاستيلاء على الاسكندرية واتخاذها قاعدة انجليزية تمنع الفرنسيين من العودة إلى الاستقرار فى مصر ، ومساعدة وحماية هذه الاحزاب

---

(١) الرافعى : عصر محمد على . ص ٣٩ . ولكن محمد على على أية حال بسط نفوذه وسلطانه على المدينة عقب جلاء الانجليز عنها . نفس المرجع ص ٨١ .

(٢) Misset to Fraser, 23 March 1807. (Douin, p.27)

(٣) Misset to Fraser, 15 March 1807. (Douin, p. 21).

الموالية لبريطانيا فى مصر وجعلها دائماً على علاقات حسنة مع بريطانيا (١) وجاء فى تعليمات Windham إلى Fox أن من يقود تلك الحملة ينبغى — إلى جانب تمتعه بكفاءة عسكرية — ان يحرز تلك الصفات التى تمكنه من الحصول على الثقة فى المدينة سياسياً ومدنياً (٢) . ومن الثابت أيضاً ان مغامرات الانجليز بعدئذ فى رشيد والحماد كانت انما لتأمين تموين الاسكندرية وضمان الدفاع عنها .

ونجاح الانجليز فى استمالة أهل الاسكندرية اليهم ، وحرص الانجليز بالتالى على أن يكونوا عند حسن ظن أهل المدينة بهم يتضح فى أكثر من وثيقة من وثائق الحملة . فالمقيم الانجليزى ميست يرسل إلى Windham —ابان احتلال الانجليز للمدينة — يقول ان أهل الاسكندرية يفضلون العيش على الأرز والزيت فحسب ، على تسليمهم المدينة إلى الالبانيين (٣) . ويكتب الادميرال Sir John Duclworth إلى Sir Thomas Louis يقول انه يخشى اضطرار الانجليز إلى الانسحاب من الاسكندرية تاركاً أهالى المدينة الذين منحهم الانجليز حمايتهم معرضين لانتقام اعدائهم ،وتلويث سمعة البريطانيين فى مصر بالتالى(٤). أخيراً نجد أن الانجليز فى معاهدتهم مع محمد على قبل رحيلهم من الاسكندرية ينصون على العفو العام عن سكان الاسكندرية لتعاونهم مع الانجليز ابان الاحتلال، كما يؤمنون الأهالى على أرواحهم وأملاكهم :

ومع ذلك فاستقرار الانجليز فى الاسكندرية لم يستمر بسهولة كما توقعوا. ففريزر يصارح Windham — بعد فشل الأول فى رشيد — بأنه من الخطأ اتخاذ الاسكندرية مركزاً بريطانياً فى بلاد تكن العداء للانجليز ، أما إذا كان

---

(١) Windham to Fox, 21 Nov. 1806 (Douin, p.2)

(٢) نفس المصدر .

(٣) Misset to Windham, 29 April 1807. (Douin, p. 90).

(٤) (1st. May 1807. I id. p. 94)

(٥) "Terms agreed upon for the evacuation of Alexandria, 14 September 1807." Douin, p. 164.

هناك بد من الاحتفاظ بالاسكندرية كمركز بريطانى ، فيجب أن يتم ذلك إما بالاتفاق مع الباب العالى ، أو فى ظل قوة بريطانية كبيرة ترسل إلى فريزر يستطيع لانجليز عن طريقها ، وبمساعدة أحد الاحزاب فى مصر ، أن يكونوا سادة للبلاد (١). وبدأ الانجليز يحسون بمتاعب وجودهم بالاسكندرية وأن وجودهم بالمدينة ، لمجرد تحقيق الهدف الذى من أجله أتوا اليها وهو السيطرة على نقطة بحرية رئيسية ومنع الفرنسيين من اعادة تثبيت أقدامهم فى مصر ، مستحيل . وفطن الانجليز إلى أنه عليهم أن ينغمسوا فى متاهات السياسة الداخلية وأن ينضموا إلى جانب أو آخر فى هذا الصراع المستمر بالبلاد ، الأمر الذى يكبدهم بدون داع خسائر عسكرية (٢) . من ناحية أخرى نجد أن الانجليز يختلفون فيما بينهم حول امكانهم الدفاع عن الاسكندرية ضد قوات محمد على (٣) ويبدو انهم لم يكونوا على ثقة تامة فى ضمان صداقة أهل الاسكندرية لهم فى هذا المجال .

ومسألة ابقاء تموين الاسكندرية بالمواد الغذائية مستمراً ، كانت من شواغل المحتلين للمدينة . وكانت هذه من الأسباب التى دفعتهم إلى مغامراتهم فى رشيد والحماد وكوارثهم هناك بالتالى . على أى حال تمكن الانجليز — بالرشوة غالباً — من الحصول على كميات وفيرة من القمح للمدينة ، كما تدفقت السفن تحمل الخمور والمنتجات الأوربية مثل الزيت والصوف والخشب من مالطة واليونان إلى الاسكندرية (٤) ..

وهكذا أخذت متاعب الانجليز ابان وجودهم بالاسكندرية تتكشف

---

(١) Fraser to Windham, 1st, May 1807. (Ibid p. 92)

(٢) Castlereigh to Fox, 17 May 1807. (Douin, pp. 106—107)

(٣) Misset to Castlereigh, 18 May 1807. (Douin, p.110)

(٤) Fraser to Fox, 18 May 1807. (Douin, P. 111)

وأيضاً :

Captain Hallowell to Vice-Admiral Thornbrough, 21 May 1807. (Douin, p. 118)

وتزداد . وفى تقرير كتبه أحد ضباط فريزر تبين انه لا يمكن الاعتماد على السكان العرب ، وانه إذا كان على الانجليز أن يحاربوا محمد على خارج المدينة فلابد من ترك حامية انجليزية بالاسكندرية ، فهذا هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بالمدينة (١) . . كذلك نجد أن الأهالى من حول مدينة الاسكندرية –بعيداً عن متناول الانجليز – لم يترددوا فى خطف الانجليز ، فى مغامرات فردية خارج نطاق العمليات العسكرية ، وامتلاكهم كعبيد ، أو بيعهم للانجليز مقابل مائتى جنيه للفرد (٢) . ثم اتضح للانجليز ، ومن وجهة النظر السياسية ، ان الاستيلاء على الاسكندرية كان أقل أهمية من تأمين سلامة صقلية ، وأقل شأناً إذا قيس بهدف الانجليز الكبير : الهجوم على العدو فى ايطاليا (٣) . وانتهى الأمر بانسحاب الانجليز من المدينة (١٩ سبتمبر ١٨٠٧) .

الاجانب ومشروعات محمد على بالاسكندريه :

كان حفر ترعة الاسكندرية عملا أساسياً وضرورياً لمدينة الاسكندرية لكى تنمو وتزدهر وليمكن الانتفاع من موقعها . وتتضح أهمية هذه الترعة من تتبع الزيادة فى عدد السكان للمدينة . فحسب تقدير سكان مصر فى عام ١٨٢١ على أساس من كشوف الضرائب – وهو أول تقدير بعد تقدير جومار Jomard – أحد علماء الحملة الفرنسية – يتضح ان سكان الاسكندرية لم يزيدوا خلال العشرين عاماً الأولى من القرن التاسع عشر . ثم يبدأ النمو فى زيادة عدد سكان المدينة بعد عام ١٨٢١ ، بعد افتتاح ترعة المحمودية فى نفس العام وتهيئتها بالتالى طريقاً سهلا للمواصلات بين المدينة وداخل القطر وامدادها المدينة بالمياه العذبة للشرب وغيره (٤) .

---

(١) Fraser to Windham, 21 May 1807. (Douin, p. 117)

(٢) Fraser to Fox, 14 May 1807. (Douin, pp. 102—103)

(٣) Castlereigh to Fox, 14 une 1807. (Douin, p. 133)

(٤) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية ص ١٧٩ – ١٨٠ .

وقد ساعد حفر ترعة المحمودية على تغيير معالم الاسكندرية وسماتها سكانياً وعمرانياً . ويذكر لينان باشا Linant مهندس القناطر الخيريه — ان مدينة الاسكندرية كانت فى عام ١٨١٠ مدينة عربية صرفة ، وكان النادر من الأوروبيين المشتغلين بالتجارة فيها ، والقناصل وحدهم كانوا هم الأجانب بالمدينة . أما المواصلات التجارية الداخلية مع الاسكندرية فكانت تجرى بطريق البحر من دمياط أو رشيد (١) . وكان ذلك الأمر — كما يقول على مبارك فى «الخطط» — يسبب مشقات زائدة لأهل المدينة والطارئين عليها من أهل القطر والأغراب (٢) .

وعهد محمد على بتصميم حفر الترعة إلى مهندس فرنسى «المسيو كوست Coste » ، وهو كبير المهندسين الذى أتم حفر الترعة وتشغيلها ، وكان فى هذه الاثناء يقيم قرب عمود السوارى بالاسكندرية . ولما تم المشروع افتتحت الترعة فى ٢٤ يناير عام ١٨٢٠ (٣) . وأفادت الاسكندرية من ذلك كثيراً . فمنذ ذلك الحين انحصرت دائرة التجارة فى الاسكندرية ، وصارت السفن تنساب فى الترعة بين الاسكندرية والداخل تحمل حاصلات البلاد أو وارداتها ، وبذلك صارت المدينة ملتقى المتاجر الذاهبة إلى داخل البلاد أو الآتية منها . لذلك جعل محمد على ناظر التجارة المصرية مقره الاسكندرية ، ولكى يباشر أيضاً مبيع الحاصلات الخاصة بالتصدير إلى التجار الأوروبيين (٤) . واتسع نطاق العمران بالمدينة تبعاً لذلك . فمياه الترعة قد ساعدت على الاكثار من الزرع وغرس الأشجار والحدائق فى ضواحى المدينة ، وابتنى الاغنياء القصور وانشأوا البساتين على ضفاف الترعة فى جهات كانت من قبل جرداء . ونشاط التجارة الخارجية قد لفت أنظار شركة الهند الانجليزية ، فأتفقت مع محمد على على نقل طرود البريد

---

(١) عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية . ص ٨٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٣) الرافعى : عصر محمد على ص ٤٤٠ ، عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية ص ٦٩ .

(٤) عمر طوسون : نفس المرجع ص ١٤١ .

والمسافرين عن طريق السويس إلى القاهرة ثم الاسكندرية ومنها بحراً إلى أوروبا (١) .

وقد قام كوست كذلك بانجاز جملة مشروعات بمدينة الاسكندرية ، ومنها بناء الابراج التلغرافية التسعة عشر من الاسكندرية حتى قلعة القاهرة (١٨٢١ – ١٨٢٢) . وفى ابان ذلك كان كوست ينقل لمن خبرته وعلمه إلى المصريين ، وقبل سفره إلى فرنسا جمع كل تلاميذه وترك لهم كل البيانات والرسوم والتفاصيل لكى يتمكنوا من الاستمرار فى الأشغال التى بدأوها (٢) .

وبانتهاء حفر ترعة المحمودية تكون مدينة الاسكندرية قد تهيأت لتقوم بدورها الذى أراده لها محمد على . رأى الباشا أن الاسكندرية هى المرفأ الوحيد الذى تستطيع أساطيله اتخاذه مكمناً امناً لها – إذا كان له أن يبنى أساطيل تحمى حكمه فى مصر وتحقق أطماحه فى الخارج . فبعد موقعة نفارين البحرية (اكتوبر ١٨٢٧) رأى محمد على ان ينشىء أسطولا جديداً بأيد مصرية ، وهكذا بدأت فكرة تأسيس دار صناعة (ترسانة) كبرى بالاسكندرية لبناء السفن الحربية . وكانت هناك ترسانة قديمة بالمدينة يهتم بها الباشا ، وهذه صارت نواة للترسانة الجديدة (٣) .

واستعان محمد على لتحقيق هذا المشروع بمهندس فرنسى على جانب كبير من المهارة والاخلاص (سيريزى Cerisy) ، وهو مهندس بحرى فرنسى من طولون . ودرس سيريزى المشروع ، وبدأ فى اخراجه إلى حيز التنفيذ . وعهد اليه بمجموعة من العمال المصريين جىء بهم من سائر أنحاء

---

(١) الرافعى : نفس المرجع ص ٤٦٣ .

(٢) عمر طوسون : نفس المرجع ص ٧٣ .

(٣) يقول Galloway فى تقريره – الذى جاء ضمن تقرير (جون باورنج) – أنه فى عام ١٨٢٧ بدىء فى اقامة الترسانة على يد مسيو سيريزى – أنظر : فؤاد شكرى : بناء دولة . ص ٤٨٥ .

القطر ، ومنهم تكونت فرق الحرفيين ، فكان منهم النجارون والحدادون والقلافطة والسباكون والميكانيكيون .. الخ . واستعان سيزيرى بجماعة من الصناع الأوروبيين ، الفرنسيين والايطاليين والمالطيين ، فى تعليم المصريين مختلف الصناعات وفى تولى رئاسة الاقسام الصناعية فى الترسانة . وكان يعاون سيزيرى فى ذلك أيضاً واحد من أمهر عمال الاسكندرية كان يعمل فى الترسانة القديمة وهو الحاج عمر . وهكذا استطاع أن ينجز العمل فى وقت قصير وتم بناء الترسانة فى عام ١٨٣٠ (١) . وقد حذق المصريون الصناعات المختلفة فى الترسانة حتى ضارعوا الأوروبيين فيها ، فاستطاع محمد على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء ، وصار الشطر الأوفى من الأعمال ينجز بأيدى العمال المصريين ، ولم يحتفظ من الأوروبيين الا بفئة صغيرة من المعلمين . واتقان المصريين لصناعات الأوروبيين وفنونهم وتأثرهم بهم ، ذلك جعل شخصاً مثل galloway يقول «وعلى الرغم من أن العمال الوطنيين لا يمكن الموازنة بينهم وبين زملائهم الأوروبيين ، الا اننا إذا راعينا المدى الذى بلغوه من حيث التعليم أدركنا انهم يأتون بالعجائب ، وبخاصة من يشتغلون منهم ببناء السفن ، فهؤلاء أقرب إلى العمال الأوروبيين ممن يعملون فى نواحى الصناعة الأخرى (٢) .

وهكذا ، وفى عام ١٨٣٤ أصبحت بالاسكندرية ترسانة كاملة بنيت على مساحة واسعة ، وأحواض للسفن ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع ، بعد ما كان المكان ساحلا مقفراً فى عام ١٨٢٨ . وصارت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية ، كما صارت معهداً لتدريب الشبان المصريين على بناء السفن وترميمها واعداد ما يلزمها من الآلات . وقد اتسعت أعمال الترسانة وكثر عمالها حتى بلغ عددهم نحو ثمانية آلاف عامل من الأهالى حذق منهم نحو ١٦٠٠ صناعة السفن فاستغنت مصر عن ابتياع السفن

---

(١) الرافعى : عصر محمد على ص ٣٢٨ — ٣٢٩ ، ٣٣٢-٢٣٣ وكذلك المرجع السابق .
(٢) تقرير galloway فؤاد شكرى : بناء دولة — ص ٤٨٧ .

من الخارج (١) وكانت السفن التى يتم انشاؤها تقام لها الحفلات الفخمة ابتهاجاً بنزولها إلى البحر كالحفلات التى تقيمها الحكومات الأوروبية فى ثغورها البحرية لمناسبة انشاء البوارج الكبيرة ، وكان محمد على يحضر بنفسه معظم هذه الحفلات ، كما كان أهل الاسكندرية يحضرون هذه الاحتفالات مع عائلاتهم وأطفالهم (٢) .

ولم يكتف محمد على بانشاء مدرسة بحرية بالاسكندرية لتمد أساطيله حاجتها من الرجال ، بل كان يختار بعض الضباط ويرسلهم إلى فرنسا وانجلترا لاتمام علومهم بها وممارسة الفنون البحرية على ظهور السفن الحربية الأوروبية . وهؤلاء عادوا إلى مصر بعد اتمام علومهم وتجاربهم ووزعوا على السفن الحربية المصرية . كذلك قام هؤلاء بترجمة مؤلفات عن البحرية من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية أو التركية ، كما انشأ أحدهم (مظهر باشا) — وكان قد تلقى العلم فى فرنسا — فنار الاسكندرية بشبه جزيرة رأس التين (٣) .

وتوسيع ميناء الاسكندرية وتعميقها وانشاء الأرصفة الجديدة بها (١٨٢٨ — ١٨٣٣) بمعرفة دى سيزيزى أيضاً (٤) ، وسماح محمد على للسفن الأوروبية التجارية والحربية بالدخول فى الميناء الغربية — بعد أن كان غير مباح لها من عهد المماليك أن ترسو الا فى الميناء الشرقية (٥) ، ذلك جعل السفن الأجنبية تتوافد إلى ميناء الاسكندرية ، فاتسعت حركة التجارة

(١) الرافعى : نفس المرجع ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٣٧ .

(٣) الرافعى : نفس المرجع — ص ٣٣٩ — ٣٤١ .

(٤) فؤاد فرج : الاسكندرية . ص ٤٦ .

(٥) وكان يسمى ميناء الافرنج . وجاء هذا الوصف فى مكاتبة من محمد على إلى وخازنه بخصوص مصب ترعة الاسكندرية اللى ينبغى أن يكون و فى البحر المالح من جنب ميناء الافرنج » أنظر : عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية ، ص ٩٩ .

فيها (١) . ويقول كلوت بك فى كتابه (لمحة عامة إلى مصر) ان منظر السفن الأوروبية فى ميناء الاسكندرية ، تخفق عليها اعلام الدول المختلفة كان يبعث فى نفوس الشبان المنتظمين فى سلك البحرية روح الغيرة والحماسة ويستفزهم إلى الرغبة فى اطلاع الخبيرين فى السفن كل يوم على ما حذقوه من الحركات فى المناورات . ونما بذلك فى نفوسهم احساس الشمم وتنبيه الشعور بالكرامة ، وكانت هذه المظاهر من أقوى العوامل على تنافسهم فى احراز أوفر قسط من العلوم والفنون (٢) .

وقد ضمت الاسكندرية مستشفى بحريا عمل به الأطباء الأجانب . وكان ذلك المستشفى خاصاً بالأسطول ، ولكن كان يسمح بدخوله لأفراد من غير موظفى الحكومة بأمر من المحافظ ، فكان ان خصص قسم منه لاستقبال الحوامل . ويذكر Bowring ان الحوامل من أهل الاسكندرية كن يقبلن مساعدة الأطباء الافرنج لهن ويقبلن العلاج بالمستشفى البحرى بالمدينة (٣) .

إلى جانب ذلك يذكر Bowring فى تقريره ان ادخال التنظيم الغربى فى جيوش بلاد شرقى المتوسط قد اسفر عن نتائج أخرى على جانب كبير من الأهمية . فقد صحب الأخذ بهذا التنظيم الغربى الجديد تطبيق العلوم الميكانيكية والاستفادة من التعليم واستخدام المعارف الطبية ، فضلا عن ادخال نظام عام سمته الطاعة واحترام المرءوسين لروسائهم . فان تحويل أفراد الجيش من أقوام شاعت فيهم روح التمرد والفوضى — كما كان يرى باورنج — إلى جماعة من الجنود دربت تدريباً منظما على الطاعة والنظام فى مختلف المراحل ، ذلك كان فى حد ذاته اقراراً لمبدأ من مبادىء النظام لم يلبث أن شمل المجتمع بأسره . وقد ظهر ذلك واضحاً بين ملاحى الأسطول

---

(١) الرافعى : نفس المرجع . ص.ص ٣٣٩ — ٣٤١ .

(٢) الرافعى : نفس المرجع . ص ٣٤٤ .

(٣) فؤاد شكرى : بناء دولة . ص ٤٨٢ .

من أهل البلاد (١) .

ومع ذلك فيمكن القول انه حتى بالنسبة لدار الصناعة بالاسكندرية فلم يكن كل ما اتى من أوروبا خيراً خالصاً لمصر، وشاهد المجتمع الاسكندرى بعضاً من الجانب السيء للأوروبيين . فاقدام محمد على على انشاء ترسانة الاسكندرية قد ازعج بعض البيوت التجارية الأوروبية التى كانت تربح كثيراً من وساطتها فى التوصية فى الخارج على بناء السفن الحربية لمصر . فاخذت هذه تدس الدسائس لمسيو سيريزى وتثبط العزائم وتذيع شائعات السوء عن فشل مشروعه بين العمال ، وسعت إلى تحريضهم على العصيان والشغب . وكان العمال المالطيون والليفورنيون يحرضون زملاءهم من عمال ترسانة طولون الذين كانوا يعملون معهم ويحضونهم على التمرد ، بل وأدى الأمر أحياناً إلى الارتباك والخلل . فقد حدث مثلا ان قطعت حبائل سفينة من منشآت الترسانة عند نزولها إلى البحر ، وكان ذلك بفعل فاعل وبقصد اتلافها . كذلك لم تنقطع دسائس الأوروبيين حتى بعد انتظام العمل بالترسانة ، مثل توريد أصناف المعدات الرديئة اللازمة لبناء السفن .. الخ (٢).

وإلى جانب مشروعات المحمودية وترسانة الاسكندرية، هناك مشروعات أخرى تمت فى هذه الفترة وكان للأجانب اليد الطولى فى تنفيذها، وهناك أيضاً مظاهر متعددة لنشاط الأجانب فى المدينة أثرت على أهلها بوضوح . فالأوروبيون اضطلعوا بالنصيب الأكبر فى حركة التعليم فى مصر ، رغم ما صادفوا من عقبات كأداء بسبب اختلاف طرائق التفكير والمشاعر بين المسلمين والمسيحيين واختلاف التقاليد . ومن المعروف ان الاسكندرية قد ضمت مدارس متعددة المستويات فى هذه الفترة . فكانت هناك مدرسة تجهيزية تضم ٥٠٠ طالب وأخرى ابتدائية بها ٢٠٠ تلميذ ، ومكتب للمبتديان يمد المدارس التجهيزية بالطلاب ، ومدرسة ثانوية للطب

(١) تقرير باورنج- فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٤٧٣ - ٤٨٣ .

(٢) الرافعى : نفس المرجع ص ٢٣٣.

(فى عام ١٨٣٧)، ومدرسة بحرية لاعداد الجند للأسطول (الغيت عام ١٨٣٦) ومدارس للتدريب العملى على ظهر بعض سفن الأسطول (١) .

ومع ذلك فالتعليم الأوروبى فى مصر كانت له نقائصه أيضاً . فمن المهم أن نذكر ان عدداً قليلا جداً من الأوروبيين أنفسهم هم الذين حصلوا فى بلادهم على قدر كاف من التعليم يؤهلهم لأن يكونوا معلمين ومشرفين على التعليم بالخارج (٢) . من ناحية أخرى كان الأوروبى الموظف فى الحكومة يعلم تماماً انه سوف يفصل من عمله يوم يستطيع أى من المصريين أن يقوم بعمله بصورة أو بأخرى . ولم تكن تلك الحقيقة مدعاة لأن ينقل الأوروبيون معارفهم باخلاص إلى المصريين (٣) . إلى جوار ذلك فيبدو ان المدارس الأوروبية لم تفلح فى ازالة ما فى الاذهان بشأن الفوارق بين الطبقات أو فى ايصال التعليم إلى الطبقات الدنيا من الشعب . وكان التعليم أحياناً عقبة تحول دون سعة الرزق ، فالفتى لا يكاد يتعلم حتى يزهد فى احتراف أية صناعة ويفضل أن يعمل كاتباً ضئيل الايراد محدوده (٤) .

والاوروبيون فى الاسكندرية ، ومنذ أن هاجر الكثيرون منهم إلى المدينة فى عصر محمد على كنتيجة لتركز نشاط مصر التجارى بها ، قد قد اسهموا فى النهوض بالمدينة ونظافتها وجمالها .. الخ . وبذلك ساعدوا محمد على كثيراً فى اتجاهه لتنظيم المدينة ، وكان قد بدأ ذلك عام ١٨٠٧ — ١٨٠٨ بانشاء «ديوان ملكى الاسكندرية» وذلك هو أساس ما عرف فيما بعد بمحافظة الاسكندرية ، ثم انشأ محمد على بعد ذلك المجلس الصحى (١٨٣٤) وكان يتكون فى معظمه من اعضاء أوروبيين (٥) . وقد سمح محمد على للقناصل

---

(١) فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٦٣٧ ، ٦٧١ ؛ جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) من تقرير باورنج — فؤاد شكرى : بناء دولة . ص ٦٦١ .

(٣) من تقرير لاحد المهندسين الانجليز عن الصناعة وحالة الطبقة العاملة فى مصر (١٨٣٨) . نفس المرجع السابق . ص ٧٣٣ .

(٤) من تقرير باورنج . المرجع السابق . ص ٦٦٥ .

(٥) جمال الدين الشيال : الاسكندرية — طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر . ص ٢٥١ .

الأوروبيين بتنظيم جميع أعمال ذلك المجلس وادارتها ، على أن تتكفل الحكومة المصرية بدفع النفقات ، فشيدت المنازل الصحية ، وعين الموظفون بموافقة المجلس ، واقترح المجلس على الحكومة هدم الأكواخ التي يسكنها الوف من الناس يعيشون في القذارة والرطوبة (١) . وقد أحدث هذا المجلس في المدينة جملة من التحسينات والتغييرات كان من أثرها امتداد العمران في المدينة القديمة وتنظيمها على الوجه الذى نراها عليه الآن ، كذلك قرر هذا المجلس ازالة الجبانات القديمة من وسط المدينة ونقلها إلى خارج الأسوار كما عمل على ردم المستنقعات بالمدينة (٢) . ومن المعروف انه في عصر محمد على قد خطط الميدان المعروف الآن باسم المنشية ، وشيدت المباني المحيطة به من كل جهة على الطراز الأوروبي (٣) . ويذكر Bowring في تقريره أن «لجنة تنظيم الاسكندرية» — وكان القنصل البريطاني هو رئيسها على الدوام — قد أسست للنهوض بمدينة الاسكندرية من حيث نظافتها وتوافر الشروط الصحية بها وجمال منظرها .. الخ . وقد عملت هذه اللجنة الكثير في سبيل رفاهية المدينة ، إذ اهتمت بتسهيل حركة المرور في الشوارع وتهوية المنازل ، وملاحظة المباني القائمة أو المراد اقامتها بوجه عام ، فكان لا يمكن إن يشيد بناء جديد الا إذا اقرته اللجنة ، كما كان لها أن تأمر بازالة جميع ما يقلق الراحة ويؤثر في الصحة العامة . كذلك يذكر باورنج ان هذه اللجنة نجحت في ادخال كثير من ضروب التحسينات ، وان الوالى نفسه وجميع موظفى حكومته كانوا يخضعون لأحكام هذه اللجنة (٤) .

وفيما يتعلق بخدمات الأوروبيين لمحمد على عموماً يمكن القول بأن الفرنسيين قد فعلوا الكثير في هذا المجال . فالجيش انشيء على النظام الأوروبي

---

(١) تقرير Bowring. أنظر فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٦١٢ .

(٢) جمال الدين الشيال : نفس المرجع . ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٣) فؤاد شكرى : نفس المرجع . ص ٦٩٤ — ٦٩٥ .

(٤) نفس المرجع السابق . ص ٦٣٥. أنظر أيضاً محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية ص ١٤٨ — ١٤٩ .

ودرب على الخطط الحديثة على يد سليمان باشا . وأدى ضباط البحر الفرنسيون خدمات عظيمة للبحرية المصرية ، وكان على رأسهم سريزى بك Cerisy الذى تولى الاشراف على دار الصناعة بالاسكندرية كما ذكرنا ، وبسون بك Besson الذى كان يشغل المركز الثانى فى قيادة الأسطول . ومدارس الطب وعلومه عامة مدينة أكبر الدين لكلوت بك Clot . هذا إلى أن مسيو لينان Linant وكثيراً غيره من الفرنسيين قد بثوا — كل فى اتجاهه — روح التقصى وحب التعلم . كذلك هناك من الانجليز مثل جالوى بك Galloway الذى قام بخدمات فى هذا المضمار ، كما أضاف الاسبان والألمان جديداً إلى العلم (١) .

ومع ذلك فان الآثار المصرية القديمة قد تعرضت على يد الأجانب — كما يقول Bowring لتخريب لا مثيل له. فمهما قيل عن اهمال العرب أو طيش الأتراك فى مجال تخريب هذه الكنوز ، فان جيلا واحداً من الأوروبيين الذين انتشروا فى جميع انحاء مصر بدعوى حب الفن والتنقيب عن الآثار المصرية القديمة ، قد أحدث فى الآثار المصرية القديمة من التحطيم والتشويه والهدم ما لم يحدثه الحكم الاسلامى طوال قرون كاملة (٢) .

ثانيا - عهود عباس وسعيد واسماعيل

كان عباس الاول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) قليل الثقة فى جهود محمد على وابراهيم فى الاصلاح الداخلى ، فأعرض عن الاصلاح وبالغ فى ذلك حتى يعد حكمه القصير انتكاساً للنشاط فى عصر محمد على . فعباس اعتقد ان جده قد افسح المجال للنفوذ الأوروبى فى مصر عامة واضعف الدولة العثمانية . ولذلك وضع عباس سياسته على أساس هدم النفوذ الأوروبى وتوثيق عرى الصداقة مع الباب العالى (٣) . ولعل لذلك لم يقم عباس بشىء يذكر من أعمال العمران فى مدينة الاسكندرية .

---

(١) من تقرير باورنج — فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٦٩٨ — ٤٨١ .

(٢) من تقارير باورنج - المرجع السابق . ص ٦٣٦ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : مجمل تاريخ مصر الحديث ص . ٣٤٥ ، ٣٤٣ .

ولكن حدث ما أدى بعباس إلى نزاع مع السلطان العثمانى ، فاتجه إلى السياسة الانجليزية يعتمد عليها فى الدفاع عما حصل عليه محمد على لمصر. وبلغ من شدة الأزمة ان خشى عباس ان يستخدم الباب العالى القوة لتنفيذ اطاعه ، فشرع يجمع الجند ويحصن الاسكندرية . كذلك أرسل وزيره (نوبار) إلى لندن ووثق صلته بالانجليز ، ووقع مع شركة انجليزية عقداً لانشاء خط حديدى بين الاسكندرية والسويس (١) ، نفذ منه فى عهده الجزء الواصل من الاسكندرية إلى كفر الزيات (١٨٥٤) ، بعد أن عهد بتخطيط العمل إلى المهندس الانجليزى روبرت ستيفنسن Stephenson. وكان لانشاء ذلك الخط أثر فى عمران مدينة الاسكندرية ونموها وازدياد أهميتها (٢) وفى أواخر عهد عباس جاء إلى الاسكندرية (١٨٥٣) الدكتور برون Perron العلامة الذى كان قد تولى منصب مدير مدرسة الطب المصرية فى عهد محمد على (١٨٣٩) ، وفى الاسكندرية عمل كطبيب حر (٣) .

أما عصر سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) فيعتبر من الوجهة الداخلية امتداداً لعصر عباس الأول . فقد انتهى حكمه وليس بمصر سوى المدرسة الحربية بالقناطر ومدرسة الطب بالقاهرة .

ومع ذلك فقد حظيت مدينة الاسكندرية فى عهده باهتمام خاص ، فقد كان يحب المدينة وكان له قصر بالقبارى يقيم فيه (٤) . وإذا كان التعليم القومى فى عهده قد أصيب بنكسة شديدة ، فقد حظيت المدارس التى انشأتها الجاليات الأجنبية والطوائف الدينية غير الاسلامية بالرعاية

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٣ — ٣٤٤ .

(٢) محمد مصطفى صفوت : مجلة الغرفة التجارية . ص ١١٢ ؛ عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل (١) ص ١٣ — ١٤ .

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ٦٢—٦٣.

(٤) محمد مصطفى صفوت : مجلة الغرفة التجارية ص ١١٢ ، الرافعى : عصر اسماعيل (١) ص ١١ .

والمال من سعيد (١) . وفى عهده تم انشاء الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة ، وطهرت ترعة المحمودية تطهيراً يعتبر حفراً جديداً لها ، وتم وصل الاسكندرية بالقاهرة بخطوط التلغرافات الحديثة .

وفى عهدسعيد أيضاً أعيدتنظيم هذه المحاكم الخاصة بالتجارة Tribunaux de commerce (قانون شريف باشا فى ٣ سبتمبر ١٨٦١) . فمحاكم التجارة التى كانت قد انشئت فى عهد محمد على ظلت قائمة إلى عهد سعيد ، وهى المسماة «مجالس التجارة» فى الاسكندرية والقاهرة . ولكن كثرة نزوح الأجانب إلى مصر عامة والاسكندرية خاصة ، جر معه ازدياد المشاكل المتعلقة بالأجانب ، الأمر الذى جعل جهات الادارة لا تستطيع التفرغ لحسمها .

وعلى ذلك يصدر قانون شريف باشا ، وبمقتضاه صارت المحكمة التجارية تتكون من أربعة قضاة : اثنين من كل من المصريين والأوروبيين المرموقين بالمدينة (القاهرة والاسكندرية) ، ويرأس المحكمة مصرى. من ناحية أخرى تكون كل محكمة بمثابة محكمة استئناف للأخرى ، وفى هذه الحالة تتكون من ثمانية أعضاء نصفهم من المصريين والنصف الآخر من الأجانب ويرأسها مصرى أيضاً . وأحكام هذه المحكمة تترجم إلى الفرنسية وتنشر فى النشرة التجارية . وكانت تلك المحاكم تستخدم القوانين البحرية والتجارية الفرنسية السائدة التى لا تتعارض مع القوانين الاسلامية .

والتمييز بين الشئون التجارية والمدنية كان مسألة حساسة ، ومن هنا ولد فى الواقع القضاء المختلط ، الذى كان فى حقيقته تطوراً للقضاء التجارى (٢) .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : مجمل تاريخ مصر الحديث . ص ٣٥٠ .

(٢) Lamba, Henri, De L'Evolution De La Condition Juridique Des Eurpopéens En Egypte. pp. 73 — 74.

وفى عصر اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ، عاد للاسكندرية نشاطها البحرى والاقتصادى ، وصحب ذلك تقدم اجتماعى كبير ، ولعب الأوروبيون فى المدينة دوراً فى ذلك التحول . فقد اشتد اتصال مصر بأوربا ، وازداد عدد المصريين الذين يسافرون إلى أوروبا ، وكثر عدد الأجانب بالمدينة ، واتسعت مصالحهم الاقتصادية والمالية والثقافية ، وظهر هذا التحول الاجتماعى فى المسكن والملبس وتنظيم الميادين واقامة الحدائق والنافورات والتماثيل ، وانشاء المسارح والاقبال على حفلات الغناء والتمثيل والموسيقى . كذلك ظهر هذا التحول فى النشاط التعليمى وظهور الصحف وعمل دراسات علمية عن المدينة (١) .

لقد أصبحت الاسكندرية فى عهد اسماعيل مدينة حديثة تتمتع بكل تتمتع بكل ما تتمتع به المدينة الحديثة ، وارتفع عدد سكانها إلى الضعف أى إلى نحو مائتى ألف من السكان (٢) . وأخذ عدد السكان الأجانب فى الاسكندرية فى التزايد ، شأنهم فى ذلك شأن سائر سكان المدينة ، حتى بلغوا ٤٢,٨٨٤ نسمة فى عام ١٨٧٨ ، ويمثل هذا الرقم ٦١,٦٪ من جملة الأجانب فى مصر ، بينما لم يكن فى القاهرة سوى أقل من ١٦ ألفاً من الأجانب (٣) . وكان اليونانيون أكبر الجاليات الأجنبية فى الاسكندرية ، إذ كان عددهم ٢٠,٨٣٠ نسمة أى ما يقرب من نصف عدد السكان الأجانب فى المدينة ، ويليهم فى الترتيب العددى الايطاليون (٨٩٩٣) والفرنسيون (٨٤١٧) ثم الانجليز (٢١٩١) (٤) .

---

(١) أنظر أحمد عزت عبد الكريم : مجمل تاريخ مصر الحديث . ص ٣٧٢ .

(٢) محمد مصطفى صفوت : مجلة الغرفة التجارية . ص ١١٣ .

(٣) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينه الاسكندرية ص ١٩٠ . ويذكر الباحث فى نفس الوقت أن سكان مدينة الاسكندرية قد توقفوا عن النمو تقريباً أو على الأقل انخفضت درجة نموهم بشكل ملحوظ خلال الثلاثين عاماً (١٨٥٠—١٨٨٠)، ويميل إلى الأخذ بالرأى القائل أن معدل الزيادة فى تلك الفترة كان ٥٪ سنوياً . نفس المرجع ص ١٨٤ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٩٠ .

والتحول الذى طرأ على مدينة الاسكندرية نتيجة لهذا التيار الأوروبى الجارف فى عهد اسماعيل قد شمل تجارتها وأسواقها ، كما تأثرت به أيضاً صناعاتها . يذكر Vaujany – وكان مديراً بمدرسة الألسن بالقاهرة – ان حى السوق بالاسكندرية هو كل ما يذكر المرء بالمدينةالشرقية أو العربية. كذلك يقول ان أسواق الاسكندرية تختلف عن أسواق القاهرة . فالجو الأوروبى من وراء البحار قد نفذ إلى قلب المدينة العربية ، وجعلها تفقد هذا الجو العربى . وعلى ذلك فقد أخذت التجارة فى الانسحاب من قلب المدينة وتنتقل إلى الشوارع الأكثر ازدحاماً وتعرضاً لأن يطرقها الناس ، وبدأ التجار فى أن يهجروا مدينتهم العتيقة فى الداخل ، ويعرضون بضائعهم على الطريقة الأوروبية فى «معارض» تجتذب انتباه المارة بمعروضاتها المصنوعة فى الخارج . أما الصناعة الوطنية فقد أخذت دائرتها تضيق يوماً بعد يوم ، وذلك بسبب الصناعات الشبيهة والتى تصل رأساً من أوروبا إلى مخازن التجار. ذلك سبب انسحاب الصناعة الوطنية من ميدان المنافسة (١) .

وقد كان اسماعيل يشجع الأجانب فى الاسكندرية كما فى القاهرة بالتبرع لهيئاتهم ورجال الدين منهم بمنحهم الأراضى أو الأموال من حين إلى آخر (٢) . وعلى ذلك فقد انشىء الكثير من المدارس التى أقامتها الجاليات الأجنبية التى نالت من عطف اسماعيل وهباته الشىء الكثير (٣) . وأحياناً

---

(١) De Vaujany, H., Alexandrie et La Basse — Egypte. Paris. 1885 p. 140.

(٢) أنظر مثلا : «أمر كريم إلى نظارة الأمور الخصوصية» فى ٣٠ يونيو ١٨٦٣ (سجل ١٩٠٢) . أوامر عربية – اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية . ص ٣١ (بخصوص منح الهبات لهيئات الأجانب بالاسكندرية مثل اللاتين ، ورهبان مدرسة إيكول كرتين ، وراهبات سيردى شاريتيه ، ومكتب وفقراء ومستشفى جماعة الروم الكاثوليك والبروتستانت واليهود والمارون والسوريان والأرمن والكاثوليك ... الخ) .

(٣) صفوت . مجلة الغرفة التجارية ، ص ١١٣ ؛ جمال الدين الشيال : الاسكندرية ص ٢٥٨

كان يتعدى تشجيع اسماعيل للتعلم الأجنبي مجرد المساعدة ، فالمدرسة الألمانية بالمدينة مثلا ، إلى جوار الكنيسة والمستشفى الألمانيتين ، هذه كلها استمرت خاضعة للقضاء القنصلي الألماني وليس للقضاء المختلط ، وذلك بمقتضى البروتوكول المعقود مع ألمانيا فى عام ١٨٧٥ (١) .

كذلك عمل الأجانب فى المدرسة البحرية التى انشأها اسماعيل — فى غمار عمله على تجديد الأسطول المصرى — وفى هذه المدرسة درست المناهج البحرية الحديثة ، وتخرج فيها عدد من المصريين والنابهين مثل اسماعيل سرهنك صاحب كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار (٢) .. فى نفس الوقت عهد اسماعيل إلى شركة انجليزية تدعى شركة جرنفلد انفاذ مشروع توسيع ميناء الاسكندرية والقيام بأعمال الاصلاح فيها مقابل بضعة ملايين من الجنيهات (٣).

وفى عهد اسماعيل كانت الاسكندرية مركزاً للمعهد العلمى الفرنسى الذى انشأه نابليون (٤) . ورغبة نابليون الثالث فى الحصول على رسم لمدينة الاسكندرية فى العصر البطلمى أدت إلى اخراج دراسة ممتازة للاسكندرية القديمة . فحوالى عام ١٨٦٦ ابدى نابليون الثالث هذه الرغبة إلى اسماعيل ، الذى كلف بدوره محمود باشا الفلكى برسم الخريطة المطلوبة وصرح له فى نفس الوقت بعمل الحفريات اللازمة فى أى جهة بها للحصول على النتيجة المطلوبة . وقام محمود باشا الفلكى فى ظل صعوبات مختلفة بعمله بنشاط ، ونجح فى رسم خريطة للاسكندرية القديمة ونشر على العالم لأول مرة خريطة صحيحة لما كانت عليه المدينة فى العصر اليونانى (٥) .

---

(١) Lloyed, Egypt Since Cromer. p. 373.

(٢) صفوت : مجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية . ص ١١٢ .

(٣) الرافعى : عصر اسماعيل (١) ص ٩٢ .

(٤) صفوت : نفس المرجع . ص ١١٣ .

(٥) فؤاد فرج : الاسكندرية ص ٤٩ .

وقد ازداد عمران المدينة فى عهد اسماعيل ، وكان ذلك — إلى حد كبير — نتيجة لنمو تجارة المدينة بنمو الصادرات المصرية والواردات الأجنبية ، ونزوح كثير من الأجانب إلى المدينة بالتالى ، وتأسيس كثير من الشركات الأجنبية ، وافتتاح فروع لشركات النقل والسفن والملاحة والمصانع ، وفروع لبعض المصارف الأجنبية . وقد يبدو لأول وهلة أن افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية (١٨٦٩) قد اضعف النشاط التجارى للاسكندرية ، ذلك النشاط الذى أذكاه اتمام انشاء الخط الحديدى بين القاهرة والسويس (١٨٥٨) ، واتصال المدينة بالسويس بالتالى ، ولكن الواقع أن تجارة مصر الخارجية . استمرت فى النمو بعد افتتاح القناة حتى ان ميناء الاسكندرية كان يضيق بهذه التجارة ، وزادت نسبة النشاط التجارى فى الميناء إلى ٩٤٪ من الصادرات المصرية كلها فى الفترة (١٨٦٣ — ١٨٧٣) . وقد نظمت عمليات التبادل التجارى بعد عام ١٨٧٢ على يد عدد كبير من التجار الأجانب الذين أقاموا بالاسكندرية منذ ذلك التاريخ (١) .

فكان من مظاهر العمران بالمدينة أن اختطت بها شوارع واحياء جديدة ولا سيما ضاحية الرمل التى انشأ بها اسماعيل قصر الرمل . وقد وهب اسماعيل قطعاً كثيرة من أراضى تلك الضاحية إلى كثير من الأجانب ، فأقاموا عليها القصور الجميلة تحيط بها الحدائق الغناء ، ومن هؤلاء الكونت زيزينيا (٢) ولا تزال منطقة من الرمل تسمى باسمه حتى اليوم . وضاحية الرمل كانت منذ حوالى المائة عام صحراء جرداء بها قرية صغيرة تسمى «الرملة» يعمرها قليل من السكان ، وهى احدى قرى خمس كانت تتناثر بالمنطقة هى الحضرة والرملة والسيوف والمندرة وأبو قير . وبينما كان سكان هذه القرى يتزايد كانت الاسكندرية بحدودها تضيق بسكانها الذين أخذوا يتطلعون نحو الشرق

---

(١) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية . ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٢) صفوت : مجلة الغرفة التجارية . ص ١١٣ ؛ الشيال : الاسكندرية . ص ٢٥٦

حيث الأراضي المتسعة الرخيصة . وقد كان الأجانب أكثر تقديراً من المصريين لقيمة هذه الأراضي ، فأخذوا في شرائها ، وكان أول أجنبي أقدم على احتلال الأراضي بضاحية الرمل هو الكونت زيزينيا الذى اشترى قطعة كبيرة من الأرض من عائلة أبي شال ، وبعدها أقبل الأجانب على شراء الأراضي هناك، فكانت القطعة التي تتراوح مساحتها بين سبعة وعشرة أفدنة تباع بعشرين قرشاً (١) .

وفي وسط المدينة كان هناك ميدان محمد على ، مركز التجارة الأوروبية في الاسكندرية وحيث تنتهي أهم شوارعها ، وهناك أقامت المدينة تمثالا بديعاً من البرونز لمحمد على (١٨٧٢) صنعه المثال الفرنسي Jaquemont ، وكان قد عرض بمعرض باريس في نفس العام ، ونصب على قاعدة بديعة من الرخام الايطالي . وبالاضافة إلى ذلك كان الميدان محاطاً بالنصب التذكارية الجميلة والفنادق الفخمة ، والمتاجر الغنية (٢) .

وقد دعت الحاجة ازاء نمو مدينة الاسكندرية إلى تنظيم الضروريات اللازمة للعمران ، كالمياه والنور الكهربائي والمجارى . وقد شهدت الأسكندرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولا سيما في عصر اسماعيل ظاهرة انشاء المرافق العامة والاهتمام براحة ورفاهية السكان . وظهر ذلك الاهتمام بالمدينة منذ أن تولى اسماعيل حكم مصر ، فقد أصدر (فبراير سنة ١٨٦٣) أمراً إلى محافظ المدينة «بتسوية شوارع الاسكندرية حتى المحمودية ، والاهتمام بكنسها ورشها وتنظيفها ، وترتيب الخدمة اللازمة لهذه الأشغال ، وتنظم الانفار اللازم ترتيبها » (٣) .

---

(١) صبحي عبد الحكيم : الاسكندرية . ص ١٦٦ .

(٢) Vaujany, Alexandria p. 125. ، فؤاد فرج : الاسكندرية. ص٢٩ .

(٣) أمر كريم في ٢ فبراير ١٨٦٣ (سجل ٥٢٥ معية تركى) اسماعيل كما تصوره الوثائق . ص ١٩٠ .

وفى نفس العام (يناير ١٨٦٣) افتتح الخط الحديدى من الاسكندرية إلى موقع محطة بولكلى الحالى عن طريق جامع سيدى جابر ، وذلك بقطار من أربع عربات تجرها أربعة خيول . وكانت الحكومة المصرية قد منحت ذلك الامتياز إلى سير ادوارد سان جون فيرمان (٦ اغسطس ١٨٦٠) ثم وافقت الحكومة على التصريح لفيرمان بانشاء شركة مساهمة للقيام بذلك المشروع ، وبذلك تكونت شركة "Strada Ferrata Tra Alessandria e Ramle" (ابريل ١٨٦٢). وفى صيف عام ١٨٦٣ استعملت قاطرة بخارية لجر العربات بدلا من الخيول وقد حلت شركة أخرى باسم "The Alexandria & Ramleh Railway Co. Ltd." محل الشركة السابقة فى صيف عام ١٨٨٣ عقب الاحتلال البريطانى للبلاد (١) .

وفى سنة ١٨٦٥ منحت الحكومة شركة «ليبون وشركاه» امتياز انارة مدينة الاسكندرية وضواحيها بغاز الاستصباح ، ثم عدل هذا الامتياز بمنح الشركة حق الاضاءة بالكهرباء (٢) .

وتعتبر الاسكندرية من أسبق مدن القطر المصرى فى انشاء المجارى تحت الأرض ، فقد انشئت أولى عمليات المجارى بها فى عام ١٨٧٨ ، وأخذ المشروع فى التوسع تمشياً مع تزايد السكان المضطرد (٣) .

وفى عهد اسماعيل وصلت أنابيب المياه العذبة للمنازل بعد أن عهد الخديوى إلى احدى الشركات الأجنبية أمر توصيل المياه العذبة من المحمودية إلى المدينة وتوزيعها بواسطة وابور مياه الاسكندرية . وهذه الشركة كانت قد تأسست وأبرم العقد الأول معها فى عهد سعيد ، ثم تحرر العقد النهائى فى عهد اسماعيل (٤) .

---

(١) مجلة الغرفة التجارية لمدينة الاسكندرية ص ١٧٧.

(٢) فؤاد فرج : الاسكندرية ص ١٠١ ، محمد صبحى عبد الحكيم : الاسكندرية ص ١٥٨ .

(٣) محمد صبحى عبد الحكيم : الاسكندرية ص ١٥٩ .

(٤) الرافعى : عصر اسماعيل (٢) ص ٢٦ .

كذلك انشئت فى عهده المسارح فى الاسكندرية كمسرح زيزينيا ، وانشئت حديقة النزهة بجوار ترعة المحمودية وجعلت متنزهاً عاماً ، وانشىء المستشفى اليونانى ، وافتتحت المحكمة المختلطة فى سراى الحقانية (١٨٧٦) ، وبنيت الكنائس للاروام والفرنسيين والايطاليين (١) .

وإن الحديث عن الأوروبيين فى الاسكندرية ، وفى غيرها ، فى عهد اسماعيل ، ومؤثراتهم بالتالى فى المجتمع الاسكندرى يقتضى ان نقف عند عند ماكتبه قاض هولندى مثقف سبر غور الأمور فى مصر ، وعمل بالمحاكم المختلطة فى عهد اسماعيل . فيقول القاضى Van Bemlen ان علاقات الحكومات الأوروبية بمصر لم تقم الا على قاعدة تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وان سياستها المبنية على الأثرة والانانية لم يتخللها أى شعور بالعطف أو الواجب نحو مصر ، ومعظم الأوروبيين الذين جاءوا إلى هذه البلاد كانوا من أحط الطبقات ، ولم يكن يهمهم الا الاثراء على حساب البلاد » (٢) . فاذا اضفنا إلى ذلك نزعة اسماعيل الأوروبية ورغبته فى استكمال استقلال مصر وجعلها قطعة من أوروبا ، واسرافه فى استخدام المال سواء لذلك الغرض أم فى معاركه الدبلوماسية فى القسطنطينية وفى العواصم الأوروبية ، سهل تفسير ذلك التدخل الأوروبى — حكومات وجاليات — فى شئون البلاد ، ثم طغيان هذا النفوذ الذى شل سلطة الخديوى ثم أبعده عن حكم مصر . فالجاليات الأوروبية لم تكن لها أهمية ما بالنسبة لشئون مصر الداخلية فى عهدى محمد على وعباس ، ولكنهم نالوا شأواً عظيما فى عهد سعيد واسماعيل حتى صاروا خطراً على السلطة وعلى الأهلين ، وساعدت المشروعات التى قاموا بها على ازدياد نشاطهم . وقد أخذ نفوذهم يتسلل فى عهد سعيد الذى كان كثير التسامح والسخاء معهم مجيباً لمطالبهم . وفى عهد اسماعيل زاد طغيان الأجانب وانتفعوا من تبذير الحكومة وسفهها (٣) .

---

(١) صفوت : مجلة الغرفة التجارية ص ١١٣ .
(٢) الرافعى : عصر اسماعيل (١) — ص ٨٩ .
(٣) الرافعى : عصر اسماعيل (٢) — ص ٢٨٦ .

وعلى ذلك فالأوروبيون فى مدينة الاسكندرية لم يعودوا يكونون مجرد جزء من المجتمع الاسكندرى ، بل صاروا أيضاً جزءاً من الحكومة ، فاشتركوا فى الادارة وحظوا بنصيب من السلطة التنفيذية فى المدينة . فقد أعيد تنظيم البوليس فى الاسكندرية فى عهد اسماعيل ، و استخدم البوليس فى المدينة خمسين رجلا من الأوروبيين أغلبهم من السويسريين(١) .

وفى عام ١٨٧٥ انشئت المحاكم المختلطة ، وكان للقضاة الأجانب الأغلبية ، ولهم رئاسة الجلسات فيها (٢) ، وافتتحت المحكمة المختلطة فى الاسكندرية فى سراى الحقانية فى العام التالى (١٨٧٦) . كذلك قضى مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ بفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية واسند المرسوم ادارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية — وهى التى رهنت ايراداتها وفاء لفوائد الدين الممتاز — إلى لجنة مختلطة من خمسة مديرين منهم اثنان انجليزيان واثنان مصريان ، وواحد فرنسى ، ويكون احد المديرين الانجليز رئيساً للجنة . وهؤلاء يتولون ادارة ميناء الاسكندرية ولهم السلطة على موظفيها ، وعليهم تسليم ايراداتها إلى صندوق الدين (٣) .

وأخيراً ، فلا ينبغى إذن أن ننسى ان الأجانب قد جاءوا إلى المدينة فى عهد اسماعيل برءوس أموالهم التى استثمروها فى انشاء المتاجر والمصارف والبيوت المالية والشركات والمشارب والملاهى ومحال الدعارة ، وفتحوا الثغرات لخروج ثروات الأهالى إلى أيديهم . وقد لجأ الناس إلى الاستدانة منهم ، وذلك أدى إلى تبعية الثروة القومية للأجانب . وإذا كان بعض رءوس الأموال الأوروبية قد أسهم فى تقدم البلاد ورفاهيتها ، فذلك كان على حساب الاستقلال الاقتصادى (٤) .

---

(١) من ستانتون «القنصل الانجليزى» إلى الخارجية الانجليزية ٧ أكتوبر ١٨٦٩ (إسماعيل كما تصوره الوثائق . ص ١١٩) .

(٢) الرافعى : عصر اسماعيل (٢) ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٣) نفس المرجع ص ٧٧ — ٧٩ .

(٤) الرافعى : عصر اسماعيل (٢) ص ٣١٥ — ٣١٦ .

والامتيازات الأجنبية عامة كانت من عوامل طغيان نفوذ الأجانب المالى . فهم لم يكونوا يؤدون العوائد الشخصية ولا عوائد الحرف أو عوائد المحلات التجارية والصناعية ، ولم يكونوا يؤدون سوى ضريبة العقارات وحتى هذه كانوا لا يعترفون الا بما يروق لهم منها . ولم يلتزموا بشيء من التكاليف العامة سوى الرسوم الجمركية . وفى هذا المجال كانوا أيضاً يتحايلون على التخلص منها بتنظيم حركة واسعة النطاق من التهريب . فكان كثير من الواردات يجرى تهريبه من السواحل والثغور ، وتقف الامتيازات الأجنبية حجر عثرة فى سبيل تفتيش السفن والمنازل وضبط المهربات. وترتب على هذه الفوضى ان زادوا ثراء على ثراء .. (١)

ويشهد عهد توفيق (١٨٧٩ – ١٨٩٢) الاحتلال الانجليزى الشامل للبلاد (١٨٨٢) ، وذلك بعد أحداث عاشتها مدينة الاسكندرية ادرك ابانها الشعب فى المدينة حقيقة المشاعر التى يكنها له الأوروبيون ، وزادت الشقة بعد ابين الجانبين .

فمنذ استقالة وزارة البارودى ومرابطة الأسطولين الانجليزى والفرنسى تجاه الاسكندرية (مايو ١٨٨٢) وقد أخذ الأجانب يهاجرون من القاهرة والأقاليم إلى الاسكندرية ليكونوا تحت رعاية الأسطولين وعلى مقربة منهما . وفى تلك المحنة التى كانت تمر بها البلاد اتضح ان عواطف الجاليات الأوروبية فى الاسكندرية أو فى غيرها لم تكن مشوبة بروح الود أو العطف على مصر ، فقد كان الأوروبيون عامة يبغون وقوع البلاد تحت السيطرة الأوروبية . بل وأخذ الأوروبيون فى المدينة يستعدون للقتال ضد الأهلين ، وعقد قناصل الدول فى الاسكندرية عدة اجتماعات سرية تشاوروا فيها فى تأليف قوة دفاع أوروبية فى المدينة ضد الأهالى . ولمح الأهالى هذه الاستعدادات وشراء الأوروبيين للأسلحة ، فتوجسوا شراً ، وازداد شعور السخط على الدول الأوروبية وعلى رعاياها ، واشتدت عوامل الفتنة

---

(١) الرافعى : نفس المرجع ص ٣١٧ – ٣١٨ .

وهياج الخواطر ، وفى تلك الظروف تحدث تلك الحادثة بين الأجانب والشعب الاسكندرى والمعروفة باسم مذبحة الاسكندرية (١١ يونية ١٨٨٢) (١)

ويزيد الأمر بالمدينة فداحة بعد ضرب الأسطول البريطانى لها بالقنابل (١١ يوليو ١٨٨٢) ، ثم نشوب الحرائق بها فى اليوم التالى ، وكان قد اشعلها العرابيون فى محاولة لمنع استخدام الانجليز للمدينة كقاعدة لهم . ومن المعروف أن بعض الأوروبين وبخاصة من الأورام والمطالسين قد اشتركوا فى اضرام الحرائق ، وكانوا يقصدون من ذلك المطالبة بالتعويضات بعد انتهاء الحرب ، واشتركوا أيضاً فى النهب ، كما يذكر جون نينيه ، عميد الجالية السويسرية فى مصر (٢) .

ويعود الاستقرار إلى المدينة بعد نجاح الغزو البريطانى ، ومجىء لورد دفرين Dufferin ودراسته لأوضاع البلاد ، ووضعه لتوصياته إلى حكومته – والتى أخذت بها – بخصوص أسلوب العمل الانجليزى فى مصر (٣) فعاد النشاط والنمو إلى المدينة . وكان من الطبيعى أن ينجم عن نمو المدينة تكوين هيئة يناط بها أمر المدينة ، فكان ان انشىء مجلس بلدى المدينة بمرسوم فى ٥ يناير ١٨٩٠ . وكان يتكون من أعضاء مصريين وآخرين من الأجانب ، على أنه لا يجوز انتخاب أكثر من عضوين من جنسية واحدة من الأجانب . وكانت اختصاصاته شبيهة بهذه التى كانت «للجنة التنظيم» التى تكونت فى عهد محمد على . وكان للمجلس كذلك أن يقرر الرسوم والعوائد لانجاز المشروعات المحلية وفرض الضرائب على السكان . وقد كان لهذا المجلس الفضل فى تخطيط الأجزاء الجديثة من مدينة الإسكندرية ، ولا سيما تلك التى عمرت خلال القرن الحالى (٤) .

---

(١) الرافعى : الثورة العرابية . ص ٢٨٩ – ٢٩١ .

(٢) الرافعى : الثوره العرابية ص ٣٦٤ – ٣٦٥ .

(٣) أنظر : حسن صبحى : اليقظة القومية الكبرى (بيروت ١٩٦٦) ص ٦٧ – ٧٠

(٤) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية . ص ١٥٦ ، فؤاد فرج : الاسكندرية ص ٩٠ – ...

وفى عهد عباس حلمى (١٨٩٢ — ١٩١٤) يكون الاحتلال البريطانى قد وطد أقدامه فى مصر ، ويظهر واضحاً زيف ادعاء الانجليز بأن بقاءهم فى مصر انما هو أمر موقت ، ويتبين انهم ينوون البقاء فى مصر إلى ما شاء الله ، ولا سيا بعد عقدهم الصفقة الاستعمارية المشهورة مع فرنسا (ابريل ١٩٠٤)

ومع اعادة استقرار الأمور بالمدينة بعد الاحتلال البريطانى ، يعود النشاط الأوروبى ليستمر فى مختلف مجالاته . ويعطينا تعداد عام ١٨٩٧ ما يكمل صورة نمو الأجانب فى المدينة خلال القرن التاسع عشر . فقد بلغ عدد الأجانب فى الاسكندرية تبعاً لذلك التعداد ٤٦,١١٨ نسمة أى ما يعادل ١٤,٥٪ من جملة سكان المدينة . ونلحظ انه حتى ذلك الحين كان الأجانب يميلون إلى السكنى فى قلب المدينة حيث يتركز النشاط التجارى . وكان اليونانيون أكثر الأجانب عدداً حينئذ (١٥,١٨٢ نسمة) يليهم الايطاليون (١١,٧٤٣) ، ثم الانجليز (٨٣٠١) ، والفرنسيون (٥٢٢١) ، والنمساويون (٣١٩٧). وكان عدد الأجانب التابعين لهذه الدول الخمس يعادل ٩٤,٦٪ من جملة الأجانب فى المدينة (١) .

ثالثا : فى القرن العشرين

الأوروبيون فى المدينه :

واصل الأجانب فى الاسكندرية تزايدهم خلال الربع الأول من القرن الحالى بصفة عامة ، ثم بدأت نسبة التزايد فى التناقص التدريجى . وهذه ظاهرة لم تقتصر على مدينة الاسكندرية وحدها بل شملت مصر عامة ، فكان من الطبيعى أن تتناقص نسبة الأجانب فى الاسكندرية إلى عدد السكان فى المدينة . فهى قد نقصت مثلا من ١٤,٥٪ من عدد سكان المدينة عام ١٨٩٧ إلى ٧٪ من عدد السكان بها فى عام ١٩٤٧. ومع ذلك فنلحظ :

(أولا) ان مدينة الاسكندرية كانت لم تزل حتى قبيل ثورة

---

(١) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية . ص ١٩٠ — ١٩١ .

عام ١٩٥٢ موطناً لكثير من الأجانب المقيمين في مصر ، فعدد الأجانب بها كان يمثل حينئذ ٤٣,٥٪ من مجموع الأجانب في مصر كلها .

(ثانياً) تناقص نسبة الأجانب في المدينة إلى عدد السكان بها لم يكن يعني دائماً تناقص اعداد الأجانب . ففي عام ١٩١٧ كان عدد الأجانب في المدينة ٨٤٧٠٥ نسمة ونسبتهم ١٩٪ وفي عام ١٩٢٧ زاد عددهم فصار ٩٩٦٠٥ نسمة بينما نقصت نسبتهم إلى ١٧,٤٪ . وواضح ان ذلك يرجع إلى زيادة عدد سكان المدينة .

(ثالثاً) كانت ظروف مصر في النصف الثاني من القرن الماضي والربع الأول من القرن الحالي تساعد وتشجع الأوروبيين على الاقامة في مصر بسبب زيادة رءوس الأموال الأوروبية وزيادة النشاط الأوروبي بالتالي . ثم تناقص عدد الأجانب بعد ذلك نتيجة لعوامل منها دخول المصريين بالتدريج في ميدان النشاط الاقتصادي ، ومن ناحية أخرى كان عدد كبير من الأجانب يفضل التجنس بالجنسية المصرية .

(رابعاً) فيما يتعلق بمناطق تركز الأجانب في المدينة ، نلاحظ ان ذلك التركيز حدث على طول الواجهة البحرية للمدينة من ميدان المنشية غرباً إلى منطقة بولكلي تقريباً شرقاً . كذلك نلحظ انهم كانوا يفضلون السكنى قرب البحر وانهم يتجهون بمرور الزمن نحو الشرق فحسب حيث كان تعدادهم فيها يزداد باضطراد بينما يتناقص في الغرب ، ويدل على ذلك تعداد سنتي ١٨٩٧ ، ١٩٤٧ .

(خامساً) بينما كان مستوى المعيشة يبلغ ادناه في الأحياء التي يقل فيها وجود الأجانب ، كان يصل اعلاه في الأقسام التي تزيد فيها نسبة الأجانب . ومن ناحية أخرى كان ارتفاع نسبة الأجانب في بعض الأقسام له أثره في خفض نسبة المواليد ونسبة الوفيات أيضاً في تلك الأحياء ، بينما ترتفع هذه النسبة للمواليد والوفيات أيضاً في الأحياء التي يندر فيها

وجود الأجانب (١) .

وقد اسهم الأوروبيون فى المدينة فى أحداثها بصورة أو بأخرى ، فى الربع الأول من القرن الحالى ، كما صارت مؤثراتهم فى المدينة أكثر عمقاً وفاعلية . ففى فترة ما قبل الحرب العالمية لم تقف الصحافة الأوروبية بمعزل عن الأحداث السياسية بالمدينة ، فهى تشارك فيها مؤيدة أو معارضة حسبما تقضى مصالح من تمثلهم . ونشاط مصطفى كامل السياسى فى المدينة — وبعضه كان خطباً باللغة الفرنسية — وجد صدى فى صحافة الأوروبيين بالمدينة ، ولا سيما فى صحيفة Le Phare d'Alexadrie اليونانية وصحيفة La Reforme الفرنسية (٢) .

وفى ابان الحرب العالمية ، حينما حول الحلفاء الوجه البحرى إلى معسكر حربى ، كانت الاسكندرية مرتعا لجنود الحلفاء يمضون بها اجازاتهم . فى نفس الوقت كانت الاسكندرية قاعدة لحملة غزو البحر المتوسط بقيادة Sir Ian Hamilton التى كان عليها محاولة الاستيلاء على غاليبولى(٣) .

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى ومجىء احداث عام ١٩١٩ ، انحصر النزاع فى المدينة بين القوات البريطانية والأهالى ، فكان هناك صدام بينهما فى كل مركز مهم بالمدينة (٤) . ومع ذلك فقد اشترك الأوروبيون أحياناً فى أحداث فترة ما بعد الحرب بالمدينة . فالشيوعيون الايطاليون قد نشطوا فى المدينة

---

(١) أنظر ، محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية . ص ٢٦٩ — ٢٧٤ .
وأنظر كذلك تقرير كتشنر (٢٧ مايو ١٩١٤) إلى F.O. عن الأجانب فى مصر حسب تعداد ١٩٠٧ .
(Lloyd, Egypt Since Cromer. Vol. I p. 269.)

(٢) أنظر الرافعى : مصطفى كامل . صفحات ٥٥ و ٥٩ و ٨٠ و ١٢١ و ١٣٦ و ٢١٨ .

(٣) Lloyd, op. cit. p. 185 & 214.

(٤) Ibid. p. 298.

س درجة نشاطهم فى بلادهم ، وذلك فى عمار بدء الدعاية البلشفية عملها
المحيط العالمى (١) . كذلك شاهدت الاسكندرية محاولات البلشفية
سلل إلى مصر عام ١٩٢١ ، وقد اشترك فى الترويج لذلك فى المدينة
د العمال الأوزوبيين من اليهود (٢) .

والمجتمعات الأوروبية فى الاسكندرية فى الواقع كانت منظمة وفعالة
غم ما كان يبدو من تباينها وتفرقها . فاذا طرحنا جانباً الجماعات المحبة
زلة كالانجليز الذين لا يندمجون مع أحد غير الانجليز ، وغالباً ما كان
ك يتم فى نادى سبورتنج ، وكذلك إذا استثنينا الفرنسيين ، الذين لا وقت
يهم للحياة الاجتماعية ، وانما معظم اهتمامهم كان منصباً على جمع المال
قتصاده للعودة بمدخراتهم إلى فرنسا ، فان الأجانب — حتى أكثرهم
دماجاً فى الحياة المصرية — كانوا يحتفظون بطابعهم الأوروبى . فكل جالية
روبية فى المدينة كانت تنتمى إلى مجتمع منظم بعناية ، كل له اعياده
نومية ، وكنيسته أو معبده ، ورجال الدين ، ومدارسه ، ومستشفياته
مدافنه . كذلك كان لكل مجتمع حفلاته المتميزة الخاصة للزواج وغيره (٣).

والأوروبيون فى الاسكندرية رغم انهم مارسوا جميع الحرف التى يمارسها
صريون بلا استثناء الا أنهم كانوا يمسكون بقياد النشاط التجارى فى
لدينة ، كما كانت لهم مكانتهم فى المجتمع الاسكندرى ، وهم الذين كانوا
ضعون المثل فى السلوك وفى الأزياء (٤) . كذلك يلاحظ ارتفاع نسبة
وى الأعمال غير المنتجة بين الأجانب بالمدينة ، وكانت التلمذة أهم
ك الأعمال ، فمن الواضح انهم كانوا أشد حرصاً على التعليم من المصريين(٥) .

(١) Ibid. p. 253.
(٢) Lambelin, L'Egypte et L'Agleterre. p. 201.
(٣) Leprette, F., Egypt-Land of the Nile p. 84.
(٤) Ibid. p. 83.
(٥) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية ص ٢٧٦ .

وحسب تعداد عام ١٩٤٧ كان الأجانب فى الاسكندرية ينتمون إلى دول خمس هى على الترتيب : اليونان — ايطاليا — بريطانيا — فرنسا — تركيا . فهؤلاء كان مجموعهم يزيد على ٩٠٪ من مجموع الأجانب فى الاسكندرية (١) .

أما الايطاليون فقد جاءوا إلى مصر فى حركات هجرة فردية قبل توحيد بلادهم فى القرن الماضى ، واستمر هذا النشاط فردياً بعد ذلك . فهذه الهجرة إلى مصر ، بعكس هجراتهم إلى تونس قبل الاستعمار الفرنسى ، أو إلى ليبيا بعد ذلك — قامت على اكتاف الأفراد دون مساعدة حكوماتهم أو المؤسسات الاقتصادية أو المالية أو الصناعية فى ايطاليا (٢) . . وقد عمل الايطاليون فى الاسكندرية كصانعى اقفال وصانعى اثاث ، ورؤساء عمال ، وامتلكوا حظائر السيارات ، كما عملوا أطباء ومحامين (٣) وفى مجال البناء . وذلك مهم بالنسبة للعمل الايطالى فى مصر ، فالبعض يرى ان الايطاليين فى مصر — بعقولهم وايديهم العاملة — قد تنافسوا فى بناء مصر أكثر من من اهتمامهم بالحصول على مزايا جماعية لهم (٤) .

وكانت الجالية الايطالية بالاسكندرية تقدر فى أوائل الثلاثينات من القرن الحالى بـ ٢٧ ألفاً ، وكانت لهم مجموعة من المدارس أهمها هذه التى تقع فى شارع الخديوى (رأس التين الثانوية الآن) ، وتلك التى فى الشاطبى (كلية الزراعة بجامعة الاسكندرية حالياً) ، كذلك كان ولا يزال لهم مستشفاهم بالمدينة ، وكان يسمى مستشفى بنيتو موسولينى بالحضرة . ومن صحفهم بالاسكندرية Il Messagero Egiziano ومن مؤسساتهم الاقتصادية ما كان يسمى Banco di Roma الذى صار فيما بعد البنك الايطالى المصرى Banco

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٤ .

(٢) La Bourse Egyptienne. 15 fevrier 1933.

(٣) Leprette, op. cit., p. 82.

(٤) La Bourse Egyptienne.

والخط Banca Commerciale Italiana والبنك التجارى Italo-Egiziano البحرى Lloyd Triestino ، والغرفة التجارية الايطالية بالاسكندرية (١).
ومن شعرائهم « جوسيبى أونجاريتى » الذى ولد بشارع منشة بمحرم بك (١٨٨٨) وتأثر ببيئة الاسكندرية ، وأصبح شاعراً عالمياً ، وصادق الفنان محمد ناجى والشاعر أحمد شوقى (٢) .

أما الفرنسيون فى الاسكندرية فيبدو أنهم كانوا ينظرون إلى نشاطهم بمصر كامتداد لنشاط أجدادهم الذين جاءوا مع نابليون بونابرت إلى مصر والذين عاونوا محمد على فى مشروعاته . وهم لذلك قد تعاونوا مع المصريين فى المجالات الثقافية والفنية والصناعية . وعلى ذلك فيمكن القول بأن أهمية المؤثرات الفرنسية على المجتمع الاسكندرى إنما تكمن فى مؤسساتهم التعليمية فى المدينة ، فهذه كانت كثيرة ومتعددة الدرجات . ففى أوائل الثلاثينات كانت معاهد الفرنسيين تضم ١١,٠٢١ طالباً منهم ٥٦١ فرنسى . وكان يقوم بذلك النشاط ثلاثون مؤسسة فرنسية بالاسكندرية ، منها البعثة العلمانية Mission Laique التى كانت تمتلك وتدير Le Lycée d'Alexandrie والفرير Frère Des Ecoles Chrietiennes التى كانت تمتلك كلية سان مارك ، وكلية سان كاترين فى محرم بك وباكوس .. الخ (٣) .

وبالنسبة للبريطانيين فى الاسكندرية ، فرغم أن معظم أعضاء الجالية البريطانية بالمدينة من أهل مالطة ، الا أن المؤثرات الانجليزية فى مجتمع الاسكندرية كانت واضحة . فكانت لهم مدارسهم ، ومستشفاهم ، ونشاطهم الخيرى والانسانى ، ومؤسساتهم الاجتماعية والتجارية .. فهم قد أسسوا كلية فيكتوريا (١٩٠١) بالمزاريطة على نمط المدارس الانجليزية public schools ، لكل التلاميذ من مختلف الجنسيات ، ثم نقلت إلى مقرها الحالى (١٩٠٩) وقد اعترفت الحكومة المصرية بشهادتها كمناظرة لشهادة البكالوريا المصرية بقرار من مجلس الوزراء . كذلك كان لهم مدرسة St. Androw's

---

(١) Ibid.
(٢) نقولا يوسف : شعراء أوربيون على صفات الاسكندرية : «الهلال» أغسطس ١٩٧٢
(٣) La Bourse Egyptienne. 15 fevrier 1933.

(١٨٥٩) التي استقر المطاف بها في حي السلسلة (١٩٠٠) حيث منحتها الحكومة قطعة أرض بتدخل من اللورد كرومر . وكان لهم مدرسة للبنات Scottish School (١٨٦١) ، ثم تأسست British Boy's (١٩٢٨) بعد بادرة من لورد لويد Lloyd وكان مندوباً سامياً لبريطانيا من قبل(١).

وبالاضافة إلى المستشفى الانجليزى Anglo-Swiss — وبه عيادة خارجية — كان للانجليز مؤسساتهم الخيرية في المدينة . فكان هناك British Benevolent Fund لمساعدة الرعايا الانجليز ، . وكان هناك بيت العجائز للسيدات Cottage home for Old Ladies كما كان لهم مؤسساتهم الاجتماعية مثل British Legion لمساعدة قدامى المحاربين ، ونادى البحارة والجنود Sailors' & Soldiers Institute ، وبيت البحارة Alexandria Merchant Seamen's Home ، الذى صار يستقبل بعد ذلك البحارة من كل الجنسيات ، كما كونوا فرقاً للكشافة (١٩١٢) وأخرى للمرشدات (١٩٢١) ، وكان لهم ناد للكتاب British Book Club وجمعية لهواة الدراما والموسيقى ، ونادى سبورتنج ، والاتحاد Union Club ، وكان اللورد كرومر أول رئيس له وعضويته كانت مفتوحة لكل الجنسيات . كذلك تأسس نادى اليخت British Boat Club (١٩١٩) (٢) .

والغرفة التجارية الانجليزية باسكندرية (١٨٩٦) كانت كتلة تعمل لها السلطات المصرية والبريطانية كل حساب ، على أساس ان اعضاؤها يعبرون عن الرأى العام البريطاني في مصر . وحتى عام ١٩٣٠ كان رئيس تلك الغرفة بالاسكندرية يرأس أيضاً الغرفة التجارية الانجليزية في مصر كلها

وإلى الانجليز في الاسكندرية يرجع الفضل في تأسيس جمعية الرفق بالحيوان بالمدينة Society for the Prevention of Cruelty to Animals

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) نفس المرجع السابق .

وذلك بمبادرة من سير كوكسون Sir Charles Cookson القنصل البريطانى فى الاسكندرية . وقد صار لهذه الجمعية فيما بعد مستشفى كبير بمحرم بك صار يتسع فى الثلاثينات من القرن الحالى لعلاج ١٥٠ من الحيوانات الضخمة كل يوم ، ويقدم خدماته لحوالى أربعة أو خمسة آلاف حيوان فى العام (١) .

الجاليه اليهوديه فى الاسكندريه :

فى أوائل الثلاثينات كانت الجالية اليهودية فى الاسكندرية تبلغ ٣٠ ألفاً وتكون مجموعة من أشد ما تكون نشاطاً فى المدينة وأكثر ما تكون تأثيرا فى المجتمع الاسكندرى (٢) .

والجالية اليهودية فى الاسكندرية كانت تتشكل من يهود من مختلف الجنسيات ، والكثير منها كان يحمل الجنسية المصرية . ولكنها — فى تنظيمها ونشاطها بشكل عام — كانت ذات صبغة أوروبية . فمن بين أعضاء مجلس ادارة معبد الياهوحنابى بالمدينة نرى اسماء أوروبية وردت بقائمة Bowring عن كبار تجار الاسكندرية ، مثل Montercorboli ، وهناك البارون منشه Yaecoub de Menasce الذى انتخب رئيساً للمجلس الدائم للجالية اليهودية بالاسكندرية (١٨٧١) (٣) . ومع ذلك ، فبالنسبة لليهودى كانت مسألة يهوديته أهم من الجنسية التى ينتمى اليها. فاليهودى سواء كان سفاردى Sefardim أم اشكنازى Askenazim ، من مراكش أو سمرنه أو سالونيكا أو سوريا أو ايطاليا ، فهو باستمرار يهودى ، ويعيش داخل مجتمعه كيهودى . أما جنسيته ، وهى دائماً لا تعدو مسألة جواز السفر الذى يحمله ، فلم تكن تعنى سوى شيئاً قليلا . وعلى ذلك فهو يصمم على اغلاق متجره فى أعياده مثل Purim . وفى يوم Kippur تغزو جموع

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) أنظر : Taragan, Bension, Les Communautés Israélites D'Alexandrie. pp. 42 — 44.

اليهود شارع النبي دانيال ، يحمل كل منهم تحت إبطه كيساً من المخمل يضم الكتاب المقدس (١) .

وكانت توجد بالمدينة أرستقراطية يهودية ميزت المجتمع ، وهى ارستقراطية قديمة ترجع إلى القرن التاسع عشر . وهذه الطبقة تقضى الصيف فى أوروبا ، فى انجلترا أو فرنسا ، ونساوها على جانب كبيرمن الاناقة. وكان لهم مساكنهم الخاصة (فيلاتهم) فى الأحياء الراقية ، حيث يستقبلون المسئولين البريطانيين ، ورجال السلك الدبلوماسى والقضاء ، والخاصة من الأجانب ، وكبار الموظفين المصريين ، وكذلك الشخصيات البارزة من السواح الأجانب . والقليل من هذه الارستقراطية اليهودية من كان يحمل الجنسية المصرية ، فالغالبية منهم كانت تفضل الانتماء إلى احدى الدول الكبرى كانجلترا وفرنسا والنمسا وايطاليا .. الخ . وفى نفس الوقت كانت هذه الطبقة تسعى إلى الحصول على وظائف القنصل أو نائبه بالنسبة للدول الصغيرة ، فى مدينة الاسكندرية (٢) .

واليهود قد وجدوا بالاسكندرية من قبل مجىء الحملة الفرنسية ومحمد على إلى مصر . فقد اجتذبت الاسكندرية اليها يهود رشيد وادكو فى عام ١٧٠٠ ، وهؤلاء استقروا فى ضاحية إلى الشرق من المدينة ، ثم أخذت المدينة فى منتصف القرن ١٨ تجتذب اليها أيضاً يهود رشيد ودمياط والقاهرة . ومجىء الأوروبين بكثرة إلى مصر فى عهد محمد على وما بعده من ناحية ، وظروف أوروبا فى القرن التاسع عشر — فيما يتعلق بمبادىء الثورة والتحرر ، بالاضافة إلى التطور الصناعى والاقتصادى ، (٣) ذلك كان له أثره على يهود الاسكندرية من حيث التنظيم والقوة . وعلى سبيل المثال ، كانت لمسألة مقتل القسيس الكاثوليكى فى دمشق ، الأب توماس ، واستخدام

---

(١) Leprette, Egypt — Land ofthe Nile. p. 84.

(٢) Lambelin, op. cit. pp. 193 — 194.

(٣) أنظر : حسن صبحى : التآمر الصهيونى ضد الأمة العربية . ص ١٤ — ١٨ .

دمه فى صنع «الماتسوت» (١) (١٨٤٠) ، نتيجة سعيدة (٢) ، كما يقول اليهود ، فيما يتعلق بهذا الاتصال الجديد الوثيق بين يهود أوروبا ويهود الشرق. وافتتح اليهود فى القاهرة والاسكندرية مدارس لهم سميت مدارس كريميه Ecoles Crémieux ، وتردد كريميه نفسه على مدينة الاسكندرية مراراً بعدئذ مراقباً مسألة تنظيم الجالية اليهودية بها، وانتخب المجلس العام Conseil Général للجالية عام ١٨٥٤ . كذلك كانت تلك الحادثة مناسبة ليقدم الانجليزى سير موسى منتفيورى مساعداته للجالية اليهودية بالاسكندرية مادياً ومعنوياً، وبذلك تمكنت الجالية من اتمام معبدها بالاسكندرية Eliahou Hannabi (١٨٥٠) (٣) .

وفى اكتوبر ١٨٩٧ كونت جماعة الاليانس ، أو الحلف الاسرائيلى L'Alliance Israélite . مدرستين احداهما للبنين والأخرى للبنات (٤) . وهذه الجماعة قد تأسست فى الأصل فى فرنسا عام ١٨٦٠ وسميت Alliance Israélite Universelle (٥)

(١) تعاون فى ذلك – انقاذا للمتهمين اليهود فى تلك الجريمة كل من الفرنسى أسحق موسى كريميه المعروف فى فرنسا باسم Adolphe Crémieux – الذى صار وزيراً للعدل بعدئذ عام ١٨٧٠ ، الانجليزى موسى منتفيورى Sir Moses Montefiore

أنظر : حسن صبحى : المرجع السابق ص ١٥ – ١٦ ، ابراهيم أمام . الماتشوت والصهيونية – بحث نشر بالمجلة المصرية للعلوم السياسية (نوفبر ١٩٦٢) .

(٢) Taragan, Bension, op. cit. p. 42.

(٣) Ibid.

(٤) غنيم ، أحمد محمد وآخرون ، اليهود والحركة الصهيونية فى مصر . ص ٣٧ .
وكذلك : Taragan, Bension, op. cit. p. 108.

(٥) ذلك أن اليهود فى القرن ١٩ – وفى غمار محاولتهم لتنظيم أنفسهم – وجدوا أنهم فى حاجة إلى أكثر من المجهودات الفردية لحماية مصالحهم . وكان يهود فرنسا أول من نظم أنفسهم بقصد حماية اليهود فى الخارج . لذا تتكون هذه الجماعة التى انهمكت فى أنواع من النشاط السياسى والثقافى والترفيهى لليهود ، ولا سيما فى شرق أوربا والبلاد الاسلامية . وكان يقابلها فى انجلترا ماسمى Anglo-Jewish Association للاخذ بيد الحلف الاسرائيلى العالمى ومساعدته على القيام برسالته .

وهكذا استطاع يهود الاسكندرية تنظيم أنفسهم بالمساعدات والخبرات الأوروبية وانشأوا مختلف المؤسسات للخدمات التعليمية والصحية والرياضية والإجتماعية بالمدينة ، وقدموا الخدمات للمهاجرين من اليهود الذين وفدوا على الاسكندرية فى مناسبات من الخارج . ثم جاءت الحركة الصهيونية لتستعين باليهود فى الأقطار العربية ، وليس من المستبعد انها كانت تعمل كما يرى البعض (١) على نسف انتمائهم إلى هذه الاقطار ليكونوا أداة طيعة للحركة .

وفى مجال النشاط الصهيونى خارج فلسطين فى اعقاب مؤتمر بازل (١٨٩٧) لعب المجتمع اليهودى فى الاسكندرية دوراً تزايدت أهميته بمرور الأيام . ففى عام ١٩٠٨ أسس عدد من يهود المدينة جمعية صغيرة عرفت باسم بنى صهيون Béné Zion لتتبنى برنامج بازل(٢)، وفى العام التالى تكونت جمعية جديدة من مهاجرى الروسيا تحت اسم زائيرى زيون Zeire Zion(٣).

ولكن يبدو أن النشاط الصهيونى فى المدينة لم يلق النجاح المنتظر حينئذ، فالحركة كانت تقف على قدميها بكل صعوبة . ورغم انضمام «بنى صهيون» إلى «زائيرى صهيون» فى جمعية واحدة (١٩١٠) ، ظل نشاطها محدوداً ينحصر فى الاحتفال بذكرى هرتزل أو بيع بضعة عشرات من «الشيكل» (٤) وجمع بعض النقود للصندوق القومى اليهودى .

= أنظر : حسن صبحى : نفس المرجع ص ١٦ . وكذلك .
Parkes, James, A History of the Jewish People p. 157.

(١) هذا رأى الكاتب أحمد بهاء الدين كما أبداه فى تقديمه لكتاب أحمد غنيم . اليهود — والحركة الصهيونية فى مصر .

(٢) ضمنت مؤلف هذا المرجع الذى استقينا منه هذه المعلومات (Taragan, B.:)

(٣) غنيم : نفس المرجع ص ٢٠ ، Taragan, p. 124.

(٤) رسم العضوية فى المنظمة الصهيونية ، وكانت قيمته تعادل المارك الألمانى فى ذلك الوقت ، ويدفعه كل يهودى مؤيد لبرنامج بازل . أنظر : =

ثم بدأت الحركة الصهيونية فى المدينة تلاقى النجاح والانتشار ، وربما ساعد على ذلك قيام الحرب العالمية الأولى وزيارات فايتزمان Dr.Weizman للاسكندرية . فعند بداية الحرب زاد عدد اليهود فى الاسكندرية ، ولا سيما الفقراء منهم ، نتيجة لهجرة اليهود من فلسطين . كذلك وفد على الاسكندرية عدد من يهود الروسيا ورومانيا ومن خارج أوروبا ، يجذبهم إلى ذلك ماسوف يجدونه فى مصر من حرية فى العمل وامكانيات للتطور (١) . ففى عام ١٩١٥ جاء إلى الاسكندرية أكثر من عشرة آلاف من يهود فلسطين وكان من بينهم نسبة كبيرة من الروس . وازداد اعضاء الجمعية الصهيونية ، وصارت اجتماعاتهم تعقد فى المعبد الكبير Eliahou Hanabi (٢) . فى نفس الوقت أحسن كل من يهود الاسكندرية ، وأهلها عامة ، والحكومة المصرية ، استقبال المهاجرين اليهود . ونظمت لهم الدولة أمر استضافتهم وتنظيم عملية الغوث لهم . وأمر لهم السلطان حسين كامل باعانة يوميــــة قدرها ٨٠ جنيهاً زيدت إلى مائة جنيه . وعاش المهاجرون فى الاسكندرية فى بحبوحة من العيش ، وبنيت لهم المعسكرات والمنازل والمطابع ، واعدت لهم الحدائق والطرقات المرصوفة ، واقيمت لهم المدارس وورشة للحياكة والاشغال اليدوية .. الخ (٣) .

ويتضاعف بعدئذ نشاط الصهيونين فى الاسكندرية . فقد اسهمت جماعة Zeiri Zion فى تكوين فرقة راكبى البغال الصهيونية Zion Mule Corps التى أدت للانجليز خدمات كثيرة ابان حملة غاليبولى ، كما اشترك بعض اعضاء هذه الفرقة بعد حلها (١٩١٦) ، فى تكوين الفيلق اليهودى (١٩١٧)

Don Peretz, The Middle East Today, p. 248.

وكذلك : دكتور حسن صبحى : نفس المرجع : ص ٢٥ ، أسعد عبد الرحمن : المنظمة الصهيونية ص ٣٨ .

(١) غنيم : نفس المرجع ص ١٢ — ١٣ .

(٢) Taragan, B., op. cit. p. 4

(٣) غنيم : المرجع السابق ص ٢٢ ، ٢٤ .

الذى اشترك مع اللنبى فى دخول فلسطين . وفى عام ١٩١٨ كون اليهود فى الاسكندرية «لجنة مناصرة فلسطين» Comité Pro Palestine بتشجيع من حاييم فايتزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ابان مرور ه بالاسكندرية. وفى عام ١٩٢٥ تكونت بالمدينة «المنظمة الصهيونية للاسكندرية» وانتخب البارون منشة Baron Jacques Elie de Menasche رئيساً لها (١) .

وبالنسبة ليهود الاسكندرية ، فاذا طرحنا مسألة سعيهم وراء المال وجمعه والسيطرة على الناحية الاقتصادية فى المدينة أو البلاد عموماً جانباً ، وجدنا ان دورهم بالنسبة لمجتمع الاسكندرية لم يكن محدداً ولم يكن لهم وجهة بعينها . فهم تارة لا يجدون ما يشكون منه بالنسبة لوضع البلاد فى ظل الاحتلال البريطانى ، فقد كانوا حينئذ يتمتعون بالحرية التامة ، وبشىء من التقدير والاعتبار . وكانت أمورهم المالية والاقتصادية والمعيشية ناجحة بها . كذلك نراهم يعقدون صلات من المودة مع القيادة البريطانية والسلك الدبلوماسى والمجتمع الراقى بالمدينة . وعلى ذلك فكان اليهود يرون انه ليس بالامكان أحسن مما كان ، فلم يتطلعوا إلى تغيير سياسى أو انقلاب اجتماعى (٢) .

ولكنهم سرعان ما يجدون ان عليهم أن يعملوا حساباً لعوامل أخرى جديدة . فالحركة الوطنية المصرية فى أعقاب الحرب لاتلبث أن تقوى ، والحقد بالنسبة لليهود المهاجرين من أوكرانيا أو بولندا إلى فلسطين بمجرد مجىء هربرت صمويل إلى فلسطين يقوى فى قلوب المسلمين والمسيحيين هناك على السواء . وخشى اليهود تسرب الحقد إلى مصر ، فكان السبيل إلى تحاشى الخطر المنتظر هو الاسهام فى الحركة الوطنية المصرية . وهكذا أسس اليهود فى مصر صحيفة الحرية La Liberté باللغة الفرنسية وشعارها حماية

---

(١) Taragan, B., op. cit. pp. 126-127 ، غنيم : اليهود والحركة الصهيونية. ص ٢٥ .

(٢) Lambelin, op. cit. p. 196.

مصالح مصر "organe de défense des intérêts de l'Egypte"
واتخذت تدافع عن سعد زغلول والوفد (١) .

وهم من ناحية ثالثة يساعدون أو يروجون لهذه الحركة الاشتراكية أو الشيوعية التى شاهدتها مصر فى أوائل العشرينات من القرن الحالى . ويميل البعض إلى الاعتقاد بأن خلو الميدان فى مصر ، فى اعقاب الحرب العالمية الأولى ، من العنصر المصرى لتنظيم الجهود فى سبيل المبادىء الاشتراكية قد أدى إلى استيلاء العنصر الأجنبى على البيادة فى هذا المضمار (٢) . ولكن من الثابت على أية حال أن اليهود فى الاسكندرية قادوا تلك الحركة . ففى عام ١٩٢١ شاهدت مصر محاولة بلشفية للتسرب إلى مصر ، وذلك حينما اتى بعض عملائها من أنقرة للترويج للحركة الشيوعية . وهؤلاء كان هدفهم الاساءة إلى الانجليز المسئولين عن العدوان الحربى اليونانى حينئذ ، وكل هؤلاء العملاء كانوا من يهود الأناضول . وكان يساعدهم ويروج لهم فى الاسكندرية احد العمال الأوروبيين من اليهود ، وكانوا جميعاً يهدفون إلى تهييج طبقات الفلاحين والعمال ، ولا سيما عمال الترام بالمدينة . ولكن الحركة لم تنجح على أية حال فى المدينة أو الريف (٣) .

وهكذا عاش اليهود فى مدينة الاسكندرية ، يمارسون نفوذاً ملموساً فى عدة مجالات ، فى المجال التجارى ، والمجال الحكومى وسلطات الاحتلال ، والمجال السياسى والاجتماعى ، وذلك فى ظل مجلس عام من قادتهم من مختلف الجنسيات يدير جانباً من ذلك النشاط .

---

(١) Ibid. p. 197.

(٢) أنظر : عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦ ص ٥١٣ ، والفصل الخاص بنفس المرجع عن « التيارات اليسارية فى الحركة الوطنية . »

(٣) Lambelin, R., op. cit. p.p. 201—202.

الجاليه اليونانيه بالاسكندريه :

كانت الجالية اليونانية بالاسكندرية باستمرار هى أكبر الجاليات عدداً . وحسب تعداد عام ١٩٤٧ كانت نسبتهم فى المدينة تبلغ حوالى نصف عدد الأجانب بها (١) . وكان اليونانيون فى الاسكندرية يشعرون انهم فى بلادهم ، فهى مدينة الاسكندر قبل كل شىء ، وهم دائمو الترحال بين الاسكندرية وبلاد اليونان ، وهم يستقرون بها وبغيرها من مدن وقرى القطر ، بأعداد كبيرة . وكان «البقال» اليونانى هو أول أوروبى يراه الانسان فى كل مكان ، حتى فى القرية المصرية (٢) .

وقد بدأت العائلات اليونانية تستقر فى الاسكندرية فى عهد محمد على . ومنذ حوالى عام ١٨٣٠ اندمج اليونانيون فى المدينة فى جالية Communauté ، بمعنى أنهم كونوا منظمة كبيرة قوامها القومية اليونانية ولها نظامها التعليمى ونشاطها الخاص بالخدمات والمشروعات . وحالما حصلت اليونان على استقلالها من الباب العالى فى أوائل الثلاثينات من القرن الماضى ، وضعت الجالية اليونانية بالاسكندرية نفسها تحت حماية الدولة الوليدة ، وصار قناصلها العامون الرؤساء الفخريين لتلك الجالية (٣) .

وفى مدى قرن من الزمان استطاع اليونانيون بكثير من الجهد والمثابرة التأثير فى المدينة التى اعتبروها وطنهم الثانى . فقد احتلت جاليتهم مكانة مرموقة بين الجاليات الأوروبية الأخرى ، وتضاعفت مؤسساتهم المالية بالمدينة مثل Tozziza ، Salvago, Benachi, Cozzika .. الخ . وشهدت المدينة العلماء منهم والادباء والتجار ورجال المال والأعمال (٤) .

واليونانيون بالاسكندرية — إلى جانب نشاطهم التجارى والاجتماعى

---

(١) محمد صبحى عبد الحكيم : مدينة الاسكندرية ص ٢٤٧ — ٢٧٥ .

(٢) Leprette, op. cit. p. 83.

(٣)،(٤) La Bourse Egyptienne. 15 fevrier 1933.

قاموا بنشاط علمى واعلامى بعيد المدى فى المدينة . وقد تعدى تأثير هذا النشاط الجالية اليونانية ذاتها إلى الجاليات الأخرى ، كالفرنسية والايطالية ، بل وصل أحياناً إلى أهل المدينة باللغة العربية .

ففى خلال المائة عام الماضية انتج يونانيو القطر المصرى ما يقرب خمسمائة وخمسة آلاف كتاب وكتيب أغلبها طبع فى مصر والقليل منها طبع بالخارج (١) . هذه الكتب كتبت باليونانية ، كما كتب البعض منها باللغات العربية والفرنسية والانجليزية ، وقد تناولت شتى الموضوعات والفنون ، فمن أدب وفن إلى تاريخ وعلم وفلك وآثار ، وموضوعات تتعلق بالديانة المسيحية وأيضاً بالاسلام .

وفى خلال الفترة ما بين عامى ١٨٦٢ ، ١٩٧٢ أصدر يونانيو مدينة الاسكندرية وحدها ٢٥٣ جريدة ومجلة ، أغلبها باللغة اليونانية ، ولكن البعض منها كان باللغة العربية أو الفرنسية أو الانجليزية . وقد كان البعض منها يصدر بعدة لغات فى نفس الوقت (٢) . وهذه هى الصحف التى ظهرت فى هذه الفترة بغير اللغة اليونانية :

La Larquette (بالفرنسية عام ١٨٩٩)

Le Phare d'Alexandrie (بالفرنسية عام ١٨٧٤)

Arrivi (بالفرنسية والعربية عام١٨٨٢) - Arrivage du Jour (بالفرنسية عام ١٨٨٨ ، وكانت من قبل تسمى Arrivi) — الخبر المصرى (بالعربية ١٨٨٨) — النور التوفيقى (بالعربية ١٨٨٨) — المنارة (بالعربية ١٨٨٨) (٣)

---

(١) قام بجمع هذه الكتب الأستاذ الدكتور أوجين ميخائيليدس ، مدير معهد الدراسات اليونانية بالاسكندرية ، وهى موجود حالياً بمتحف القنصلية اليونانية بالاسكندرية حيث يشرف عليها الدكتور أوجين .

(٢) أنظر : سجل مصور للصحافة اليونانية فى الديار المصرية (١٨٦٢ - ١٩٧٢) للدكتور أوجين ميخائيليدس . ص ٣٠٠ - ٣١٥ .

(٣) يعود الدكتور يوجين فيذكر فى نشرة مكتبة دار البطريركية بالاسكندرية (مصر =

— انيس الجليس (بالعربية ١٨٩٨) (١) La Vallée du Nil (بالفرنسية ١٩٠٨) — Journal du Commerce at de la Marine (بالفرنسية ١٩٠٩) — Τὸ Ἐλπιδεῖον L'Elpidée (بالفرنسية واليونانية ، ١٩١٢) — Courier des Bourses (بالفرنسية ١٩٢٢) — Grammata (بالفرنسية ١٩٢٢) — Athletic News (بالانجليزية ١٩٢٤) — Cinema (بالفرنسية ١٩٢٤) Maalèsh (بالفرنسية ١٩٢٤) — Scientifique Egyptienne (بالفرنسية ١٩٢٤) — Le Phare Egyptien (بالفرنسية ١٩٢٥) — اليوناني المتمصر Αἰγυπτιώτης Ἕλλην (بالعربية واليونانية ١٩٣٢) — الراعي الصالح (بالعربية ١٩٤٠) — Gymnase Averoff (بالفرنسية ١٩٤٠) — The Nile (بالانجليزية ١٩٤٧) — بريد الشركات (بالعربية ١٩٥٠) — مجلة الرابطة اليونانية — العربية (كانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية فى اثينا، ثم صدرت بعض اعدادها فى عام ١٩٥٠ بمدينة الاسكندرية) — قبرص — Chypre Κυπρος (باللغات العربية واليونانية ، والفرنسية والانجليزية عام ١٩٥٠) (٢).

وهناك الكثير من أهل الاسكندرية من اليونانيين ممن قدموا دراسات لكل من الجالية اليونانية والمصريين أو للأجانب بها فى مجالات متعددة ، كالتاريخ والأدب واللغة .. الخ تتعلق بمصر عامة والاسكندرية خاصة .

كما أخرجت مطابع الاسكندرية كتباً ليونانيين تتعلق بقضايا مصرية ومن هؤلاء على سبيل العد لا الحصر :

= فى آداب اللغة اليونانية المعاصرة — ص ١١٢) أن ذيمتريوس موسخوناس بك (١٨٣٧ — ١٨٩٥) قد أصدر صحيفة الخبر المصرى عام ١٨٨٧ والمنارة عام ١٨٨٩ والنور التوفيقى عام ١٨٩٢ .

(١) من الصحف الهزلية أيضاً ، والتى أصدرها اليونانيون بالقاهرة فى عام ١٩٠٣ : البابغلو المصرى — البهلول — النور — أبو الهول .

أنظر : د . أوجين — سجل مصور للصحافة اليونانية فى الديار المصرية ص ٢٦٨

(٢) أنظر نفس المرجع السابق صفحات : ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ — ٢٦٥ ، ٢٦٧-٢٦٩ .

١ — جراسيموس بنداكيس (١٨٣٨–١٨٩٩) الذى ولد بالاسكندرية وقد الف «ابحاث مصرية» باللغة اليونانية الذى طبع بالمدينة عام ١٨٩٨ ، ومعجما فى اللغتين العربية واليونانية طبع بالاسكندرية عام ١٨٨٥ ، وله أيضاً ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة اليونانية فى ثلاث طبعات أخرجت الاسكندرية طبعة منها عام ١٨٧٩ (١)

٢ — سكوتيدس ، وكان من رجال السلك اليونانى فى الاسكندرية ، ونشر فى سنة ١٨٨٢ مقاله بعنوان «ازمة مصر فى سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٢» . (٢)

٣ — كرينوس ذى كاسترو : وكان فناناً موسيقياً له عدة مصنفات منها «يونانيو الاسكندرية» الذى طبع بالاسكندرية عام ١٩٥٠ .

٤ — الدكتور اوليمبوس وكان يصدر مجلة طب الاسنان فى الاسكندرية (١٩٢٨) (٣) .

٥ — الدكتور نيقولا مافريس كتب «أغانى مصرية شعبية» وطبع بالاسكندرية عام ١٩٣٤ .

٦ — اثناسيوس بوليتس : وله كتاب فى جزئين بعنوان «اليونانيون ومصر الحديثة» وقد طبع بالاسكندرية فى عامى ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ (٤).

٧ — أخيراً فمن العلماء اليونانيين المعاصرين الأستاذ الدكتور أوجين مخائيليدس ، ويشغل حالياً منصب مدير معهد الدراسات اليونانية

---

(١) د. أوجين ميخائيليدس — مصر فى آداب اللغة اليونانية المعاصرة من سنة ١٨٠٠ لغاية سنة ١٩٧٠ (مطبوعات معهد الدراسات الشرقية لمكتبة دار البطريركية فى الاسكندرية) ص ١١٢ — ١١١ .

(٢) نفس المرجع ص ١١٠ .

(٣) نفس المرجع ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٤) نفس المرجع ص ١٠٦ — ١٠٧.

بالاسكندرية، وكان من قبل مديراً لمجلات دار بطريركية الروم الارثوذكس بالاسكندرية. وله- كماتذكر نشرة دار البطريركية في الاسكندرية(١)- مجموعة كبيرة من المصنفات يربو عددها على الألف وأكثر من مائتي بحث علمي. ومن مؤلفاته المطبوعة بالاسكندرية: مختصر تاريخ دير طور سيناء (١٩٢١) المجدد على عبد الرازق وكتابه فى الخلافة(١٩٢٦) - اليونانيون ومستقبلهم فى مصر (١٩٢٧) - سجل مؤلفات اليونانيين المتمصرين فى الديار المصرية (فى جزئين سنة ١٩٤٠، سنة ١٩٦٦) - التطور الحديث للشعوب العربية (١٩٤٣) - كنيسة الاسكندرية أثناء ثورة عرابي باشا ١٨٨١ - ١٨٨٢ (١٩٤٧) - من حياة الدكتور طه حسين (١٩٥٩) - سجل صحف اليونانيين فى الديار المصرية (١٩٦٤) - الصحافة الدولية فى أولى خطوات حياتها فى مصر من سنة ١٧٩٨ لغاية ١٨٨٢ (١٩٦٥) - سجل مصور للصحافة اليونانية فى الديار المصرية ١٨٦٢ - ١٩٧٢ (١٩٧٢).

وبالاضافة إلى كل ذلك، فهناك نشرات يونانية لا تزال تصدر للآن فيها الكثير عن الأبحاث الخاصة بمصر، مثل نشرة معهد الدراسات الشرقية لمكتبة دار بطريركية الروم الارثوذكس بالاسكندرية المسماه «انالكتا Ανάλεκτα» أى المنتخبات من سنة ١٩٥٢، وهذه تصدر باشراف الدكتور تيودورس موسخوناس، وكذلك نشرة معهد الدراسات اليونانية بالاسكندرية باشراف الأستاذ الدكتور أوجين ميخائيليدس (٢).

كذلك شهدت الاسكندرية شعراء يونانيين أثرت بيئة الاسكندرية فيهم، فى شعرهم، وأثروا هم بالتالى على المجتمع الاسكندرى. وانتجت مطابع الاسكندرية فى نفس الوقت ترجمات عربية لنماذج من أشعار اليونانيين. فقد نشر الدكتور أوجين مثلا بعض ما ترجمه الياس معوض (بطريرك انطاكية وسائر المشرق) من اليونانية إلى العربية فى كتابه «من الشعر اليونانى

(١) أوجين ميخائيليدس: مصر فى آداب اللغة اليونانية المعاصرة ص (١٠٧).
(٢) نفس المرجع ص ١٠٣

الحديث وذلك فى نشرة معهد الدراسات اليونانية بالاسكندرية (١).

أما بالنسبة للشعراء اليونانيين من أهل الاسكندرية ، فنهم الشاعر قسطنطين كفافيس (١٨٦٣ - ١٩٣٣) . وقد ولد كفافيس بالاسكندرية وارتاد المقاهى حيث كان يتردد جموع الأدباء والفنانين من أهل الاسكندرية وزائريها . ويبدو ان الشاعر كان ضجراً بالاحتلال البريطانى للبلاد ؛ فهو - كما يذكر نقولا يوسف (٢) - فى طوافه بأنحاء الاسكندرية التى احتلها الغزاة الانجليز ومرح فيها أعوانهم الملاك كان يشعر أنه يشبه الطائر الحبيس فى القفص . وهذه مشاعر - إن صحت - تكون قد أسهمت بلا شك فى إذكاء الروح الوطنية وبث مشاعر الحقد ضد المستعمر ، ولاسيما وان الشاعر كان يقطن منزلا (٣) - لا يزال موجودا للآن - فى حى كوم الدكة من عام ١٩٠٨ حتى وفاته عام ١٩٣٣ ، وهذا هو نفس الحى الذى أنجب فى هذه الأثناء أيضاً فنان الشعب سيد درويش (٤) .

وقد عاصر كفافيس عدد من شعراء الاسكندرية مثل «قسطنطين قسطنطينيدس» الذى ولد بالاسكندرية (١٨٩٠) والذى كان يجيد الحديث بالعربية . وقد نظم قسطنطينيدس الشعر عن الريف والفلاح وأرض الفراعنة. وفى الاسكندرية انشأ مع أصحابه الادباء نادياً أدبياً اسموه «نادى الحياة الجديدة» ، وأصدروا عام ١٩٠٤ مجلة «الحياة الجديدة» التى ظلت تصدر حتى عام ١٩٢٧ ، وفيها نشر الشعراء والكتاب اليونانيون أشعارهم ومقالاتهم ، وبدا فى ذلك الانتاج أثر البيئة الاسكندرية البحرية . ولقسطنطين دواوين شعرية ، ومن قصائده ما يحمل هذه العناوين : متحف الاسكندرية -

---

(١) أوجين ميخاليلدس : كتب كنسية - دينية يونانية فى مطبوعات و مخطوطات عربية . ص ٥١ .

(٢) أنظر مقالته بالهلال - أغسطس ١٩٧٢ (شعراء أوربيون على ضفاف الاسكندرية)

(٣) بشارع شرم الشيخ المتفرع من طريق الحرية رقم ٤ ، أنظر نقولا يوسف نفس المرجع.

(٤) نلاحظ أن ذلك يتعارض مع ماذكره الرافعى عن الأروام ووصفه اياهم بأنهم كانوا أشد الجاليات الأوربية كرها للوطنيين (الثوره العرابية ص ٣٠٣) .

كليوباترا — الاسكندر الأكبر يخاطب مصر — الفلاح المصرى — قبرص الثائرة على الاستعمار .. الخ . كذلك ترجم قسطنطين بعضاً من آثار صديقه الشاعر واصف غالى إلى اليونانية عام ١٩٣٠ .

وخلال النصف الأول من القرن العشرين توالى أيضاظهور الشاعرات الأوروبيات الاسكندريات وجلهن من اليونانيات ، ونشرن أشعارهن فى الصحف والمجلات بالمدينة . ومنهن «افيجينى باليولوغو بتروندو» التى اشتغلت بالتعليم ،وفى قصائدها نرى مناجاة الاسكندرية وامجادها ومصروأهلها وكفاحها . وهناك «البزابيث تساراس» وكانت تعمل محررة بجريدة «تشيدروموس» التى لم تزل تصدر بالاسكندريةمنذ عام ١٨٨١ . وأخرجت البزابيث مجموعتها المسماة « الاسكندرية المكافحة » التى استلهمتها من أحداث الحرب العالمية الثانية ، وبلغت مجموعاتها الأدبية ١٦ كتاباً طبعت جميعها بالاسكندرية. كذلك اكتبت عن الأغانى المصرية الشعبية وترجمت نماذج منها ، كما ترجمت نماذج من الشعر العربى للمتنبى وابن الرومى وغيرهما إلى اللغة اليونانية (١) .

هؤلاء الأدباء والشعراء كما نرى كانوا حلقة وصل بين البيئة المصرية والثقافة اليونانية ، واسهموا فى ظهور حركة أدبية نشيطة بالمدينة ، وكتبوا عن الاسكندرية ، وترجموا من العربية إلى اليونانية. ولكن يمكن انيقال إن تأثر هؤلاء بالبيئة الاسكندرية كان أقوى من تأثر البيئة بهم . من ناحية أخرى ، فهم بلا شك قد أثروا فى المجتمع الاسكندرى الأوروبى أكثر من تأثيرهم بالنسبة للغالبية العربية من ذلك المجتمع .

خاتمة :

لقد ترك الأوروبيون بصماتهم على كثير من مظاهر الحياة فى مدينة الاسكندرية وفى مبانيها وحدائقها وشواطئها.. الخ . فالاسكندرية وقد حوت

---

(١) نقولا يوسف : نفس المرجع .

سكاناً من مختلف بلاد أوروبا قد اكتسبت بذلك صفة تعدد الجنسيات cosmopolitism ، وفشلت فى أن تخلق لها طابعاً محلياً فى العمارة تتسم به . فالانجليز فى ضاحية الرمل قد بنوا لانفسهم منازل خاصة cottages على الطراز الانجليزى تحوطها مساحات من السندس الأخضر . والايطاليون قد زينوا منازلهم بشرفات pergolas على الطراز الفلورنسى ، وشيد اليونانيون والمعجبون بالفن الاغريقى المدارس والعمائر وقد بدت واجهاتها على الطراز الاثينى (١) .

وفى شارع شريف(٢) — الحى التجارى فى المدينة — كنت ترى اعلام الدول ترفرف أيام الآحاد والعطلات على كل باب وشرفة بالشارع . فهذا حانوت يعرض منتجات باريس . وبجانبه مكاتب لويد فلسطين للملاحة ، وبائع كتب اغريقى بجوار تاجر السجاد من القسطنطينية ، وهناك حانوت «بقال» من نابلى وبجواره دانمركى يعرض اطباقاً من من «البورسلين» ومنتجات بلاده من الجبن والزبد ، وآخر من بلغاريا يصنع «الزبادى» yoghurt الذى كان أهل الاسكندرية يعرفونه باسمه الأوروبى ... الخ. هذا بجوار حوانيت الزهور والحلاقة والمجوهرات والحلوى والمصارف وشركات التأمين .. الخ . فاذا طرحنا هذه الصفة «الدولية» لذلك الشارع جانباً ، كان شارع شريف نموذجاً لأى شارع تجارى فى جنوا أو مرسيليا . وفى ذلك كان ينافس ذلك الشارع شارعا فؤاد وسعد زغلول. وشواطىء الاسكندرية فى الصيف تكاد تجعل المرء يعتقد انه انما يقضى الصيف فى مصيف أوربى مثل Cannes (٣) . ولاتزال أماكن من المدينة تحمل اسماء أوروبية حتى اليوم مثل كامب شيزار ، وسبورتنج ، ستانلى جليمونوبولو ، زيزينيا ، .. الخ .

وصار الرجل الاسكندرى معروفاً بأنه — قبل كل شىء — رجل أعمال

---

(١) Leprette, op, cit. p.79.

(٢) صلاح سالم الآن .

(٣) Ibid.p. 78&81.

يهدف إلى تكوين ثروة ، وكانت لمضاربات «بورصة» القطن والأوراق المالية فى المدينة أثرها على المجتمع الاسكندرى . أما المرأة الاسكندرية فقد شهرت بالفتنة والجمال والجرأة والرغبة فى التمتع بالحياة joie de vivre والفطنة واللباقة ، وقد جذبت هذه الصفات للمرأة بالاسكندرية انتباه الكتاب الأوروبيين . وكانت أجمل نساء المجتمع الاسكندرى اليونانيات واليهوديات (١) .

وإلى جوار حب العمل والمغامرة بالنسبة لأهل الاسكندرية ، صحب ذلك ميل إلى اللهو والاستمتاع بالسرور ، وحاجتهم إلى أوقات الاسترخاء والراحة سعياً لصحة الاعصاب . لذا فهم ينهمكون أحياناً فى الرياضة وإقامة المعسكرات فى الصحراء .

أخيراً نرى البعض يود — فى وصفه للحياة الاجتماعية فى مدينة الاسكندرية فى أواخر الثلاثينات — أن يعيد قول الشاعر الاغريقى القديم Herondas عن الاسكندرية ، ويؤكد أنها حينئذ تشبه تماماً ما وصفها به Herondas من قبل (٢) . حين قال :

«ان الاسكندرية اليوم لتشبه بيت افروديتى . ففيها يجد المرء كل شىء : الثروة ، والرياضة ، وسماء ندية ، ومناظر جميلة ، وشبان يتميزون بالوسامة ، و أنبذة طيبة ، ونساء جميلات على درجة من الجمال بحيث يمكن مقارنتهن فقط بالالهات اللاتى يختارهن الاله Paris الذى اختار افروديتى من قبل .. »

---

(١) Ibid p. 95 - 97.

(٢) Chidiac Bey R., Alexandrie p. 92.

مراجع البحث

أولا : دراسات خاصة بمدينة الاسكندرية

— الشيال ، جمال الدين : الاسكندرية — طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر — دار المعارف .

— مبلوت ، محمد مصطفى : الاسكندرية فى العصور الحديثة (بحث نشر فى كتاب الغرفة التجارية بالاسكندرية بمناسبة المعرض الصناعى عام ١٩٤٩) .

— طوسون ، الأمير عمر : تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية — الاسكندرية ١٩٤٢ .

— عبد الحكيم ، محمد صبحى : مدينة الاسكندرية — القاهرة ١٩٥٨ .

— فرج ، فؤاد : الاسكندرية — دار المعارف ١٩٤٢ .

— يوسف ، نيقولا : شعراء أوربيون على ضفاف الاسكندرية — مقالة نشرت بمجلة الهلال . أغسطس ١٩٧٢ .

— Chidiac Bey, R., Alexandrie. Editions Touristiques Karnak. Le Caire.

— La Bourse Egyptienne — Numero Special sur L'Egypte "Communautés et Colonies" 15 fevrior 1933.

— Douin, G., et Mamme Fawtier-Jones, E. C., L'Angleterre et - L'Egypt La Campage de 1807. Le Caire 1928.

— Taragan, Bension, Les Communautés Israélites D'Alexandrie. Alexandrie 1932.

— Vaujany H. De, Alexandrie et La Basse Egypte. Paris 1885.

ثانياً : أعمال تدور حول الأجانب ونشاطهم فى مصر

أبوكف ، أحمد وغنيم ، أحمد محمد : اليهود والحركة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ — ١٩٤٧ . كتاب الهلال — يونية ١٩٦٩ .

— ميخاليليدس ، أوجين (مدير معهد الدراسات اليونانية بالاسكندرية) .

١ـ سجل مصور للصحافة اليونانية فى الديار المصرية (١٨٦٢ —

١٩٧٢) – الاسكندرية . ١٩٧٢ .

٢ – مصرى: آداب اللغة اليونانية المعاصره – من سنة ١٨٠٠ – لغاية سنة ١٩٧٠ – (من مطبوعات معهد الدراسات الشرقية لمكتبة دار البطريركية فى الاسكندرية «أناليكتا» رقم ١٩) . الاسكندرية ١٩٧٠ .

٣ – كتب كنسية – دينية يونانية فى مطبوعات ومخطوطات عربية (نظره خاطفة على مر الأجيال) الاسكندرية ١٩٧١ .

— Lamba, Henri, De L'Evolution De La Condition Juridique Des Européens En Egypte. Paris 1896.

ثالثاً : دراسات ووثائق فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر

– تقارير القناصل وغيرهم :

١ – تقرير البارون بواليكومت Baron de Boislecomte (٢٩ يونية ١٨٣٣) .

٢ – التقرير الثانى لبواليكومت (أول يوليو ١٨٣٣)

٣ – تقرير جون باورنج Bowring مارس ١٨٣٩

٤ – التقرير الثانى للاميريكى هودجسون W. B. Hodgson (٢ مارس ١٨٣٥).

٥ – تقرير جالوى R. H. Galloway وقد أورده باورنج فى تقريره .

٦ – تقرير لأحد المهندسين الانجليز عن الصناعة وحالة الطبقة العاملة فى مصر (٣ فبراير ١٨٣٨).

وهذه التقارير جميعها منشورة فى كتاب الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى (وآخرين) : بناء دولة – مصر محمد على – القاهرة ١٩٤٨.

– جندى بك ، جورج وتاجر ، جاك : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية – القاهرة ١٩٤٧ .

– الرافعى ، عبد الرحمن

١ – عصر محمد على – القاهره ١٩٤٧ .

٢ – عصر اسماعيل (جـ ١) ، (جـ ٢) ١٩٣٢ .

٣ – الثوره العرابية – القاهرة ١٩٤٩ .

٤ – مصطفى كامل – القاهرة ١٩٤٥ .

- الشيال ، جمال الدين : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على. القاهرة ١٩٥١.
- عبد الكريم عزت : مجمل تاريخ مصر الحديث (١٧٩٨ – ١٨٧٩) – بحث منشور بكتاب المجمل فى التاريخ المصرى ١٩٤٢ .
— Lambelin, Roger, L'Egypte et L'Angleterre Vers L'Independance De Mohamed Ali Au Roi Fouad. Paris 1922.
— Leprette, Fernand, Egypt — Land of the Nile. Translated from french by Lillian Goar. Cairo 1944.
— Lloyd, Lord, Egypt since Cromer. Vol. I. 1933.

مجتمع الاسكندرية والحركة الوطنية

دكتور محمد محمود السروجى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

تعتبر مدينة الاسكندرية – بلا ريب – المرآة التى انعكست عليها حداث مصر فى العصر الحديث ، بحيث يمكننا القول ان الحركة الوطنية الاسكندرية صورة للحركة الوطنية فى مصر كلها ، وأن تاريخ مصر لحديث يمثل سجلا ضخما تشغل الاسكندرية منه صفحات طوالا .

ونظراً لاتساع هذا الموضوع وتشعبه ، فقد رأيت أن أقصره على لحركة الوطنية فى الاسكندرية فى فترة الاحتلال البريطانى التى امتدت ن عام ١٨٨٢ إلى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

كانت الاسكندرية فى السنوات السابقة على قيام الثورة العرابية بقليل لدينة عظيمة ، وميناء هاماً من موانى البحر المتوسط . فبفضل اتصالها الخطوط الحديدية المارة بمناطق الانتاج أن نشطت حركة التجارة الصادرة نها وأهمها القطن ، والواردة اليها وعلى رأسها المصنوعات بمختلف أشكالها أنواعها . بحيث نجد أن نسبة الصادرات المصرية منها قد بلغت ٩٤٪ ن اجمالى صادرات مصر فى الفترة من عام ١٨٦٣ إلى عام ١٨٧٢ .

ونتيجة للنمو المطرد فى حركة التجارة مع دول أوربا ، أن ازداد عدد الأجانب المقيمين بالاسكندرية زيادة ملحوظة . ففى عام ١٨٧٨ بلغ ٤٢,٨٨٤ نسمة . وهؤلاء يمثلون نسبة ٦١,٦٪ من مجموع الأجانب لمقيمين بمصر كلها .

هذا من ناحية أهميتها كأكبر ميناء فى مصر تتركز فيه تجارة البلاد الصادرة والواردة . أما من ناحية التعليم ، فبالاضافة إلى المدارس الحكومية قامت الجمعية الخيرية الاسلامية التى انشئت بفضل جهود عبد الله النديم ومعاونة أغنياء المدينة من أمثال سعد الله بك حلابو ، بفتح العديد من المدارس الحرة تمشياً مع سياسة الجمعية فى العمل على وقف انتشار النفوذ الأجنبي وتسلطه على مرافق البلاد وعلى ثرواتها ، وذلك عن طريق بث الوعى القومى فى نفوس النشء بالتعليم والتثقيف .

أما من ناحية الوعى القومى والسياسى فقد وجدت العديد من الصحف التى عبرت عن آراء شعب مصر وعن مبادئه وأهدافه . فقد عرفت الاسكندرية الصحافة قبل غيرها من مدن القطر . ففيها صدرت عدة صحف ومجلات كان لها دور كبير فى ايقاظ الوعى القومى ، وفى توجيهه لمقاومة النفوذ الأجنبي فى مصر .

من هذه الصحف ، صحيفة «الكوكب الشرقى » التى أصدرها سليم حموى بمدينة الاسكندرية فى عام ١٨٧٣ ، وجريدة «الأهرام» التى أنشأها سليم وبشارة تقلا فى عام ١٨٧٥ ، وجريدة «الاسكندرية» التى أصدرها بمعاونة سليم نقاش سنة ١٨٧٨ .

وإلى جانب هذه الجرائد العربية ظهرت جرائد أفرنجية ، مثل «الفار دالسكندرى» فى سنة ١٨٧٤ ، وجريدة «البروجريه اجبسيان» ، وجريدة «الريفورم» .

وقد ترتب على ظهور تلك الجرائد والمجلات فى هذه الفترة التى ازداد فيها التدخل الأجنبى ، وازداد فيها تورط مصر فى الديون وعلت فيها صيحات أقلام الشيخ جمال الدين الافغانى ، والشيخ محمد عبده ، وعبد الله النديم وغيرهم ، مع كثرة عدد الأجانب ،ووجود الامتيازات الأجنبية أن أطرد نشاط الحركة الفكرية ، ونما الشعور الوطنى والوعى السياسى .

كانت الأحوال فى مصر بصفة عامة ، وفى الاسكندرية بصفة خاصة مهيأة لقيام الثورة العرابية . وحدثت الثورة ، واسهمت الاسكندرية فيها منذ بدايتها — لا كما ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الاسكندرية لم تقم بنصيب كبير فى الدور الأول من الثورة — وتفسير ذلك أنه حينما استند الخديو توفيق على مذكرة بريطانيا وفرنسا للاطاحة بوزارة محمود سامى البارودى الوطنية وأبعاد عرابى عن البلاد ، وقفت حامية الاسكندرية ورجال الشرطة بها موقفاً حازماً للحيلولة بين الخديو وضرب الحركة الوطنية فى مهدها ، فأرسلوا اليه ببرقية يوضحون فيها بانهم لا يرضون عن عرابى بديلا ، وانه إذا مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يعد عرابى إلى منصبه كوزير للحربيةأصبحوا غيرمسئولين عما يترتب على هذا الرفض من نتائج .

حدث هذا أثناء وجود قطع من الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى مياه الاسكندرية ووجود الآلاف من الأجانب والعديد من المؤسسات الأجنبية بها . ولذا كان لهذا الموقف الصلب من رجال الجيش والشرطة بالمدينة فى مواجهة نوايا الخديو فى تصفية الثورة خطره وأهميته . فلم يجد الخديو بداً من النزول على رغبتهم فى ابقاء عرابى على رأس وزارة الحربية والبحرية لحفظ الأمن والنظام .

ولن أدخل فى تفاصيل ما حدث بالاسكندرية ، وما تعرضت له من خراب ودمار فى محاولتها لصد الاعتداء الانجليزى فليس هذا مجال البحث . وانما أقول ان الاسكندرية قد تعرضت ،فى هذا الغزو لمحنة لم تتعرض لها مدينة أخرى من مدن القطر .

وليت الأمر اقتصر على الخراب والدمار فحسب ، بل امتدت أيدى سلطات الاحتلال — فى ظل الأحكام العرفية — إلى التنكيل بالوطنيين والزج بهم فى أعماق السجون لأتفه الشبهات .

استولى اليأس على المصريين عقب الهزيمة ، وأصيبت الحركة الوطنية بنكسة شديدة ، وشعر السكندريون بأنهم غرباء فى مدينتهم ، وان الأجانب

هم أصحاب البلاد الحقيقيون ، وأن قوات بريطانيا لم تأت الا لحمايتهم وصيانة مصالحهم .

فى هذا الوقت الذى استسلم فيه المصريون لليأس ، وخيل اليهم بألا خلاص لهم من قبضة الاحتلال بعد أن غلبوا على أمرهم ، وأصبحوا عزلا من السلاح ، مع ضعف الدولة العثمانية الذى يزداد يوماً بعد يوم ، وعدم تحرك الدول الأوروبية التى وقفت من أحداث مصر موقف المتفرج ، وكأن الأمر لا يعنيها فى كثير أو قليل — فيما عدا فرنسا — ولكنها كانت قد فقدت ما لها من نفوذ متفوق وكلمة مسموعة فى أوربا بعد هزيمتها أمام بروسيا فى حرب السبعين فى هذه الظروف الحالكة السواد بدت بارقة أمل تمثلت فى شخصية الزعيم مصطفى كامل .

بدأ صوته يرتفع لأول مرة بعد الاحتلال منادياً باستقلال مصر وتحريرها وذلك فى عام ١٨٩٠ ، وكان وقتذاك لا يزال طالباً بالمدرسة الثانوية .

كانت مهمة مصطفى كامل جد عسيرة . كان عليه أن يحول اليأس الذى استولى على قلوب المصريين إلى أمل ، وأن يخرج الأمة من ذهول الصدمة إلى ثواب الرشد . كان عليه أن يبين لها طريق الخلاص بعد أن تعددت أمامها السبل وتشعبت الدروب . فمن الناس من كان ينادى بالاستسلام بقضاء الله وقدره ، ومنهم من كان يهمس بضرورة مداراة الانجليز والتكيف مع الأمر الواقع ، وفريق ثالث كان يرى القيام بحركة اندفاع يائسة قد تخطىء أكثر مما تصيب .

وأمام هذا التشتت والتفرق الذى يورد البلاد موارد التهلكة وقف مصطفى كامل ليحدد للمصريين معالم الطريق ، ويأخذ بيدهم إلى السبيل الصحيح .

كان عليه أن يدعو إلى منهجه بالكلمة المقروءة والمسموعة على السواء . ومن حسن حظ الاسكندرية أن يكون لها النصيب الأوفى من أخطر وأهم خطبه السياسية فى مناهضة الاستعمار والمطالبة بالحرية والاستقلال .

ففى ٣ مارس ١٨٩٣ ألقى مصطفى كامل أولى خطبه السياسية بالمسرح العباسى بمدينة الاسكندرية . ويذكر على فهمى كامل - أخو مصطفى كامل - فى ايثار مصطفى كامل لمدينة الاسكندرية على غيرها من مدن القطر فيقول : «وما اختار ذلك الثغر الجميل الجليل ليرن فى ارجائه صدى أول خطبة سياسية له فى وادى النيل الا لأنه كان يعتقد اعتقاداً ثابتاً أن سكان ذلك الثغر على جانب عظيم من الحماسة والوطنية ، وقد حفظ لهم التاريخ الحديث أجمل ذكرى فى الشمم وعزة النفس والاباء» .

والحقيقة فان مدينة الاسكندرية تقلبت عليها أحداث جسام منذ مجىء الحملة الفرنسية وما تلاها من أضطرابات . ثم ابتليت بالغزو البريطانى وما ترتب عليه من تبعات ثقال . كل هذا جعل أهلها أكثر يقظة وتنبهاً لما يجرى حولهم وأكثر فهماً لأساليب الغزاة المستعمرين .

وفى حقيقة الأمر فان الصحافة الأوربية بالاسكندرية لم تكن كلها ضد الأمانى المصرية فى ذلك الوقت ، بل كان بعضها متأثراً إلى حد ما بأهداف الحركة الوطنية والمصالح القومية . فتلك الصحف قد تأثرت بالواقع المصرى بحكم تشابك وارتباط المصالح الأجنبية بالمصالح المصرية .

وهناك ميزة أخرى انفردت بها الصحافة الأوربية - ولم تستطع الصحافة العربية أن تشاركها فيها - ألا وهى حرية النقد التى تتمتع بها بحكم الامتيازات الأجنبية التى كانت تبسط عليها مظلة من الحماية ضد تدخل السلطات البريطانية الحاكمة .

ونظراً لما أحدثته الخطبة الأولى من أثر لدى الجاليات الأجنبية بالاسكندرية أن طلبت تلك الجاليات من مصطفى كامل الحضور إلى الاسكندرية ليشرح لها باللغة الفرنسية وجهة نظره فى الوضع السياسى فى مصر . وفى ١٣ ابريل سنة ١٨٩٦ لبى الدعوة ، فوقف بمسرح زيزينيا خطيباً بلغة فرنسية فصحى زهاء ساعة ونصف شرح فيها القضية المصرية بأسلوب منطقى مقنع كان له صدى فى نفوس مستمعيه من وطنيين وأجانب.

تابع مصطفى كامل باهتمام شديد الأحداث السياسية العالمية ، نظراً لما لها من أثر لا ينكر على القضية المصرية . فكان كلما جد جديد فى هذا الميدان ، بادر بتوضيح وجهة نظر مصر فى تلك الأحداث. وغالباً ما كان يختار مدينة الاسكندرية لتكون المنبر الذى يعلن من فوقه آراءه وأفكاره ، فمعظم خطبه الشهيرة وتصريحاته التى صارت مضرب الأمثال فى الوطنية قيلت فى تلك المدينة . فالاسكندرية من هذه الناحية قد أوحت اليه بالكثير من الآراء والأفكار ، وكانت عاصمة الجهاد الثانية دون مراء .

وفى سنة ١٨٩٨ حاول مصطفى كامل أن يستغل الحرب التى نشبت بين الدولة العثمانية وبلاد اليونان لصالح القضية المصرية . ففى تلك الحرب انتصر الأتراك على اليونانيين واحتلوا جزءاً من أراضيهم . ولما كانت بريطانيا تعطف على اليونانيين فقد طالب مصطفى كامل الدولة العثمانية أن تشترط لعقد الصلح مع اليونان واجلاء قواتها عنها أن تجلوا القوات البريطانية عن مصر أولا .

وعندما علمت الجالية اليونانية بالاسكندرية بهذا النبأ غضبت غضباً شديداً ، وأخذت تهاجم مصطفى كامل فى صحفها وتتهمه بعدائها وبالتعصب الدينى . ولما كانت الجالية اليونانية أكبر الجاليات الأجنبية فى مدينة الاسكندرية وجد مصطفى كامل أن الحكمة تقتضى توضيح موقفه لليونانيين بالثغر حتى لا يزيد الأمر تفاقما . وفى مسرح زيزينيا (٨ يونيه ١٨٩٧) القى خطاباً سياسياً هاماً فى حشد كبير من أهل الاسكندرية من وطنيين وأجانب ، استهله بحث المصريين على التمسك بعرى الوحدة فى تلك الظروف الحرجة التى تمر بها مصر . ثم تعرض لموقف مصر من الحرب التركية اليونانية ، ودافع عنه دفاعاً مجيداً ، وفسر هذا الموقف بقوله : «ان مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزى واشتراك أفراد من الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراح عام ضد الانجليز فى مصر» .

وفى ختام خطابه اقترح على الحاضرين اصدار قرار يتضمن الاحتجاج

على الاحتلال الانجليزى ، والتعبير للمقيمين الأجانب عن عواطف المودة التى تربطهم بالمصريين . كما اشتمل القرار على مطالبة الباب العالى بالاتفاق مع الدول الأوربية لحل المسألة المصرية بما يحقق استقلال البلاد .

كان مصطفى كامل فى حاجة دائمة إلى الاتصال بمواطنيه ، وخصوصاً أهل الاسكندرية ، لتبصيرهم بتطورات الموقف الدولى ، وأثر هذا التطور على المسألة المصرية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى للرد على الدعايات المغرضة التى تشنها الصحف الأوربية ضده لتفتيت وحدة الامة وعرقلة سير الحركة .

وحاول الانجليز ضرب الحركة الوطنية عن طريق اثارة الفتنة بين شطرى الأمة من مسلمين ومسيحيين . ولما كان لهذا السلاح خطره الشديد على وحدة الأمة وعلى كفاحها من أجل الاستقلال ، كان لزاماً على مصطفى كامل أن يهب للرد على هذا التدبير الذى خططت له الصحف الأوربية وكانت الاسكندرية المكان المناسب لهذا العمل . ففى يوم ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ اجتمع بعدد غفير من أهل الثغر من وطنيين وأجانب فى مسرح زيزينيا ووقف فيهم خطيباً قائلا : «كلما جئت الاسكندرية ، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التى جعلت لكم مقاماً محموداً بين بنى وطنى ، أعود شاعراً بأن لى فى هذه المدينة الزاهرة أساتذة فى الوطنية ، عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها» .

ثم عرج على موضوعه الأساسى الذى جاء من أجله ، ألا وهو محاولة سلطات الاحتلال تفريق صفوف الأمة ، فقال : «كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة فالاقباط أخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق .» وكان لهذا الخطاب أثره المحمود فى تهدئة النفوس الثائرة وفى طمأنة الوطنيين على سلامة وحدة الأمة ومتانتها .

كان لعقد الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا فى عام ١٩٠٤ صدى أليم فى نفوس شعب مصر ، وعلى رأسه مصطفى كامل . فلقد كان مصطفى كامل يعتمد على معارضة فرنسا للاحتلال البريطانى لمصر فى مقاومته له . ولم تكن تلك المعارضة من قبل فرنسا من أجل مصر أو حباً فى تحرير الشعوب المستضعفة من ربقة الاستعمار ، فلقد تورطت فرنسا من قبل فى احتلال الجزائر وتونس وفى مناطق أخرى من العالم ، وانما كانت معارضتها لأسباب استعمارية بحتة تتعلق بتقسيم مناطق النفوذ فيما بينهما .

ورغم عنف الصدمة فقد شعر مصطفى كامل بأن شعب مصر فى حاجة ماسة إلى كلمة منه تنير له الطريق وتزيل عنه آثار الهزة ، وتستنهض عزائمه وكان مصطفى أشد منه تلهفاً إلى هذا اللقاء للتشاور فيما يجب عليهم عمله بعد هذا التطور الخطير فى الموقف الدولى آنذاك .

وفى مسرح زيزينيا بالاسكندرية وقف فى مساء ٧ يونيه سنة ١٩٠٤ يتناول هذا الموضوع الهام تحت عنوان «الموقف السياسى لمصر وواجبات المصريين» ، استهله بقوله : «لقد وقفت بينكم هذا الموقف مراراً ، وعرضت عليكم آرائى فى شئون الوطن ومصالحه تكراراً ، ولكننى لا أظن أن الحوادث دعت المصريين فى وقت من الأوقات للنظر فى حاضرهم ومستقبلهم ، واستحثتهم لتبادل الأفكار فيما هم عليه وما يصيرون اليه كما دعتهم فى هذا الوقت الذى خاب فيه بعض الآمال ، وتساءل الناس هل قضى علينا أم لا يزال لنا مخرج من هاتيك الظلمات ، وطريق للنجاة من ذلك الحكم الأجنبى وتلك السيطرة الانجليزية ؟» .

ثم يوجه حديثه إلى الذين تسرب اليأس إلى نفوسهم ، واعتقدوا فى استحالة حل المسألة المصرية بعد اتفاق الدولتين ، قائلا : «ولكننا نرى أن محبة الأوطان ليست مما تميل النفس اليه ساعة ثم تنفر منه ساعة أو وسيلة للكسب تنقضى بانقضائه ، انما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت

مصائبه واشتد كربته » . وفى ختام خطابه دعا مواطنيه إلى الاعتماد على النفس فى مواجهة الاحتلال .

وكان لهذا الخطاب أثر كبير ونقطة تحول فى كفاح مصطفى كامل إذ انطلق من الاسكندرية شعار الاعتماد على النفس ، وعدم الايمان بقيمة المساعدات الخارجية ، فالقضية أولا وقبل كل شىء قضية مصر ، ولا تهم الا مصر وحدها ، وأن مساندة أية قوة خارجية لا تعد أن تكون نوعاً من المساومة .

وكان مسك الختام خطبته التى ألقاها بالاسكندرية فى مساء ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ بمسرح زيزينيا حيث ضاق بالآلاف من الحاضرين ، وكانت الخطبة فى أعقاب حادثة دنشواى التى هزت الضمير العالمى ، وزعزعت (عرش) اللورد كرومر فى مصر ، وارغمت بريطانيا على اتباع سياسة المداراة إلى حين .

تناول مصطفى كامل فى خطبته التى يصح أن نسميها بخطبة الوداع موضوعات شتى أكد فيها على ضرورة اعتماد الأمة على مجهوداتها وحدها لاسترداد الاستقلال المسلوب . ففى هذا المعنى يقول : «ان العزلة التى صرنا اليها بعثت فينا روحاً جديدة ، وارشدتنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها ، وهى أن الأمم لا تنهض الا بنفسها ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها» .

ثم يوضح أن الكفاح من أجل الاستقلال هو من أنبل الغايات وأشرفها ، ويردد فى هذه الخطبة الكثير من الشعارات التى تناقلتها الألسن جيلا بعد جيل مثل : «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً» .و«لا قوام لأمة ، ولاسلامة لبلاد الا بقوة العقيدة الوطنية».و «ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان» .

كان هذا الخطاب من أقوى خطبه وآخرها بمدينة الاسكندرية ،

تناولته الصحافة المحلية والأجنبية بالكثير من التعليق . ومن أبرز ما جاء به توجيه الأمة نحو تحقيق الجلاء كاسمى هدف تسخر من أجله الجهود ، فاستطاع بذلك أن يضع الأمة على بداية الطريق المؤدية إلى الاستقلال لا سيا بعد أن خرج الحزب الوطنى ، الذى سمى بحزب الجلاء ، إلى حيز الوجود كحزب رسمى فى تلك السنة .

ومما تجدر الاشارة اليه أن أهل الاسكندرية كان لهم الفضل فى ظهور الحزب الوطنى فى ذلك الوقت ، فيذكر مصطفى كامل فى صحيفة اللواء (١٠ اكتوبر سنة ١٩٠٧) فى هذا الصدد قوله : «وانى من ساعة وصول الاسكندرية (٧ اكتوبر سنة ١٩٠٧) إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله يطالبنى بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لأمتهم المتشربين بمبادىء الشهامة والارادة والاقدام» .

لم تطل الحياة بمصطفى كامل بعد هذه الخطبة ، فسرعان ما لقى ربه بعدها بأربعة شهور . فخيم على البلاد حزن عميق ، وخاصة الاسكندرية الذى عرفته خطيباً لا يشق له غبار ، ومناضلا لا تثنيه عن عزمه الصعاب مهما عظمت . مات بعد أحيا الأمل فى نفوس مواطنيه ، فكان حقاً ما نظمه شاعر النيل فى رثائه :

مات الذى أحيا الشعور وساقه   إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

أيدت الاسكندرية محمد فريد خليفة مصطفى كامل فى رئاسة الحزب ووقفت وراءه للعمل على تدعيم الحزب حيث لم يتسع وقت مصطفى كامل لذلك ، خصوصاً وأن الأحزاب الأخرى كحزب الأمة وحزب الاصلاح كانت تناوىء فكرة الجلاء ، وهو أهم مبدأ من مبادىء الحزب الوطنى .

نشط أعضاء الحزب الوطنى بالاسكندرية فى الدعوة لمبادىء الحزب ، فنظموا اجتماعاً كبيراً فى مسرح زيزينيا (٧ مارس سنة ١٩٠٧) حيث وقف ويصا واصف عضو اللجنة الادارية للحزب خطيباً مشيداً

بفضل مصطفى كامل ووصفه بأنه المؤسس الحقيقى للوطنية المصرية الحديثة وتولى فى هذه الخطبة الرد على مطاعن اللورد كرومر وعلى ما ادعاه بأن الحركة الوطنية تتصف بالتصعب الدينى ، فنفى وجود الصبغة الدينية تماماً ، وتساءل قائلا : «فهل لو لم يكن المسيحيون على تفاهم مع اخوانهم المسلمين فى فكرة الوطنية ، أكانوا يشتركون معهم فى تلك المظاهرة الكبرى التى جرت لفقيد الشرق والوطنية ؟ ثم أن حزبنا أيها السادة مفتوح لمن يريد الدخول من المسلمين والاسرائيليين والمسيحيين ، ومن دخلوا فيه تكون لهم جميع الحقوق ، ويجتمعون فى جميع الاجتماعات ، وينتخبون فى جميع الانتخابات فان كل ما نعمله نعمله نهاراً» . وكان هذا الدفاع من أحد أعضاء الحزب المسيحيين أبلغ رد على تلك الادعاءات .

وإذا كانت الاسكندرية قد شدت اهتمام مصطفى كامل فآثرها بأهم خطبه وأخطرها ، فانها لم تلق مثل هذا الاهتمام من خليفته محمد فريد ، ولو انه قد حاول فى بداية الأمر أن يسير على نهج سلفه ، فزارها فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٨ حيث ألقى خطاباً سياسياً بمسرح زيزينيا احتشد لسماعه عدة آلاف ، ركز فيه على موضوعين هامين هما : حث الأمة على مضاعفة جهودها لنيل الدستور ، والتمسك بمبدأ الجلاء . وهاجم الاحزاب التى تدعو إلى الاصلاح دون التشبث بالجلاء .

وختم خطابه بالدعوة لتدعيم وحدة الأمة ، وتوثيق عرى الأخاء بين المسلمين والأقباط قائلا : «كونوا جميعاً اخواناً أبناء وطن واحد ، أى كونوا مصريين قبل كل شئ» .

بدأت سلطات الاحتلال الانجليزى تضيق ذرعاً بنشاط الحزب الوطنى ، لا سيما بعد أن امتد هذا النشاط إلى نادى المدارس العليا الذى انشىء سنة ١٩٠٦ . والذى كان يضم الصفوة المثقفة من أبناء مصر ، وامتد أيضاً إلى انشاء التعاونيات فى المجال التجارى والزراعى ، فأعادت فى سنة ١٩٠٩

قانون المطبوعات لتقييد حرية الصحافة ، وأخذت تتعقب جريدة اللواء بالانذار تارة والمصادرة تارة أخرى .

كذلك صدر قانون النفى الادارى الذى يبيح للسلطة الادارية نفى الأفراد الذين ترى أنهم خطر على الأمن العام إلى الواحات الداخلة . وقد استخدمت الحكومة هذا القانون سلاحاً ضد المعارضين لها ، ولا سيما من أعضاء الحزب الوطنى .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وكان أول عمل لسلطات الاحتلال إضطهاد أعضاء الحزب الوطنى ومطاردة أنصاره وتشتيت شملهم واعتقال الكثيرين منهم ، والزج بهم فى أعماق السجون والمعتقلات ، منها سجن الحدراء بالاسكندرية ، ومعتقل سيدى بشر وقد اعتقل عبد الرحمن الرافعى ، وعبد اللطيف المكباتى بعض الوقت فى سجن الحدراء .

عانت البلاد الكثير من ويلات الحرب ، ولا سيا الاسكندرية التى كانت تتمتع بمركز حربى ممتاز ، والتى كانت تمثل قاعدة هامة للاسطول البريطانى وللعمليات الحربية ،فى مصر . ومن ثم كانت قبضة سلطات الاحتلال على أهلها شديدة ، فانتهكت حرماتهم ، وأهدرت آدميتهم ، وسخروا لخدمة الاغراض الحربية الانجليزية فى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، وطالب سعد زغلول وزملاؤه بالغاء الأحكام العرفية والاعتراف بحق مصر فى الاستقلال ، والسماح له ولبعض رفاقه بالسفر إلى فرنسا لعرض قضية بلادهم على مؤتمر الصلح فى فرساى ، رفضت بريطانيا هذه المطالب . وتطورت الأمور فى مصر سراعاً حيث تم القبض على سعد زغلول وبعض زملائه ونفيهم إلى جزيرة مالطة . فتعالت صيحات الاحتجاج من كل جانب ، وقامت المظاهرات فى انحاء البلاد للتعبير عن سخطها لهذا الاجراء التعسفى .

قام طلبة المدارس فى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ بمظاهرة سلمية لم يحدث فيها ما يعكر الصفو . وتبعتها مظاهرات عمت سائر مدن القطر ، ومنها الاسكندرية حيث قام طلبة المعاهد الدينية والمدارس بالاضراب يوم ١٢ مارس احتجاجاً على ما قامت به سلطات الاحتلال . بدأ التجمع فى ميدان مسجد أبى العباس المرسى حيث يوجد طلبة المعاهد الدينية والمدارس (وسيكون لهذا المسجد نفس الدور الذى لعبه الجامع الأزهر فى ثورة ١٩١٩ ، إذ سيصبح مركز التجمع الثورى ، وبداية انطلاق معظم المظاهرات التى خرجت منه تجوب شوارع الاسكندرية ، ملتحمة فى طريقها بالقوات الانجليزية ، فيسقط العشرات من القتلى ، وأصواتهم تدوى بحياة مصر وباستقلال مصر والسودان) ثم اتجهت المسيرة صوب مبنى المحافظة القديم بشارع رأس التين هاتفة بالحرية والاستقلال . واستطاعت سلطات الاحتلال أن تفضها دون اراقة دماء .

استمر الحال على هذا النحو عدة أيام حتى حدثت مظاهرة يوم ١٧ مارس سنة ١٩١٩ التى أحاط بها الجنود البريطانيون فى حى الأنفوشى وكانت تتألف من طلبة المعاهد الدينية والصناعية والثانوية وجموع من العمال ومنعوها عن مواصلة السير بعد أن سقط منها ستة عشر قتيلا ، وأربعة وعشرون جريحاً .

ومما يلفت النظر أن أخطر تلك المظاهرات هى التى كان يلتئم شملها عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وكانت سلطات الاحتلال تعمل ليوم الجمعة ألف حساب ، فتعلن فيه حالة الطوارىء بين قوات الشرطة ، وتقف بعض الفصائل الانجليزية عند تقاطع الشوارع الهامة استعداداً لما قد يحدث .

ولم تذهب دماء الشهداء سدى فاضطرت سلطات الاحتلال أمام المظاهرات التى لا تنقطع إلى الافراج عن سعد زغلول وزملائه ، كما قررت ايفاد لجنة ملنر إلى مصر لدراسة أحوال البلاد لمحاولة التوفيق بين مطالب مصر ومصالح بريطانيا فى اطار الحماية البريطانية .

لم يكن هدف لجنة ملنر سوى فرض حماية مقنعة على مصر يتحقق في ظلها جوهر الاحتلال، ويضفي على الوجود البريطاني صفة الشرعية. هبت مصر هبة رجل واحد تطالب بمقاطعة اللجنة، وقامت المظاهرات تأييداً لهذا المطلب الجماعي، منها مظاهرة الاسكندرية في ٢٤ اكتوبر عقب صلاة الجمعة من مسجد أبي العباس المرسي تجوب شوارع المدينة هاتفة بسقوط لجنة ملنر ومطالبة بالاستقلال، وكان عدد المتظاهرين حوالي خمسة عشر ألفاً، فتصدت لها قوات الشرطة وفصيلة من الجيش البريطاني سقط على أثرها خمسة قتلى وأربعون جرحى.

وقد أحدث تدخل القوات البريطانية استياء شديداً لأهل الاسكندرية فتجددت الاضطرابات في مختلف انحاء المدينة واعتصم سكان رأس التين داخل حيهم بعد أن أقاموا المتاريس في كل الشوارع المؤدية اليه وبعد أن قاموا بحفرها لعرقلة سير سيارات الشرطة والجيش.

وتكررت الأحداث الدامية وتكرر تدخل قوات الجيش البريطاني الذي كان يؤدي إلى مزيد من القتلى والجرحى كل يوم. ولم تستطع الحكومة القائمة وقتذاك السيطرة على رجال الشرطة أو الجيش لأنها كانت خاضعة لاشراف السلطات البريطانية. واستمر هذا الموضع قائماً من اعلان خبر اعتزام الحكومة الانجليزية ارسال اللجنة حتى مجيئها، وبل وطوال مدة بقائها في مصر.

وأمام اصرار المصريين على مقاطعة اللجنة أن أصدرت بياناً تعلن فيه بأنها لم تأت إلى مصر الا «للتوفيق بين أماني الشعب المصري ومصالح بريطانيا في مصر، مع عدم نسيان المحافظة على حقوق الأجانب».

مكثت اللجنة ثلاثة شهور في مصر واقترحت حلا وسطاً لا يفرض على مصر، وانما عن طريق «عقد معاهدة ترضى عنها مصر نظير تعهد بريطانيا العظمى بالدفاع عن سلامتها واستقلالها: معاهدة ترضى فيها أن تسترشد ببريطانيا العظمى في علاقاتها الخارجية، وتعطيها حقوقاً معينة

فى الأراضى المصرية . كأن يكون لبريطانيا الحق فى ابقاء قوة حربية فى مصر لحماية مصالح انجلترا فى مصر ، أى سلامة مواصلاتها الامبراطورية ، كأن يكون لانجلترا بعض الرقابة على التشريع والادارة المصرية فيما يختص بالأجانب » .

كان معنى ذلك تخلى مصر عن الثورة وربطها بعجلة المفاوضات لاستخلاص نوع من الاستقلال الذاتى المحدود فى ادارة شئونها . وقد جذبت عجلة المفاوضات سعد زغلول ولكنها لم تحقق ما يريد، ثم جاء دور عدلى ليحدث بينه وبين سعد نزاع حول رئاسة وفد المفاوضات ، هذا النزاع الذى أدى إلى انقسام طوائف الشعب على نفسها ، وأدى بالتالى إلى قيام المظاهرات وإلى الاشتباكات التى حدثت فى يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٢١ فى حى الهاميل باسكندرية بين المتظاهرين ونفر من الأجانب تطور إلى تبادل اطلاق النار من الجانبين وإلى الاعتداء على المحال التجارية الأجنبية واشعال العديد من الحرائق .

وتكرر نفس الشىء فى اليوم التالى ، ولكن تدخل القوات البريطانية أدى إلى قتل ثلاثة وأربعين ، واصابة مائة تسعة وعشرين ، وقد وجدت الحكومة البريطانية ضالتها المنشودة فى هذا الحادث ، فأعلن تشرشل وزير المستعمرات البريطانى وقتئذ بأن الوقت لم يحن للجلاء عن مصر خوفاً من القضاء على الجاليات الأجنبية فى القاهرة والاسكندرية .

ماذا كان موقف المرأة السكندرية من أحداث الثورة ؟ لقد اسهمت المرأة السكندرية فى الثورة اسهاماً عملياً ، فبدأ شعار مقاطعة البضائع الانجليزية يتردد فى اجتماع عقدته بعض سيدات المدينة المنتميات لجمعية «أمهات المستقبل» ، حيث أصدرن بياناً إلى سيدات مصر يطلبن منهن كل ما له صلة ببريطانيا ، وأن يقسمن القسم التالى : «أقسم بالله وبسعد فى منفاه أن أقاطع جميع البضائع الانجليزية واللغة الانجليزية ، وكل ما له علاقة

بالانجليز ، وأن ألبس الحداد حتى يعود سعد وزملاؤه » . وكان لهذا النداء صداه فى كل انحاء البلاد .

وإذا كانت المرأة فى القاهرة قد خرجت إلى الشارع فى مظاهرات وطنية أسوة بالرجل ، تطالب بالجلاء والاستقلال متعرضة لاهانات الجنود البريطانيين ، فان المرأة فى الاسكندرية وقفت موقفاً عملياً يقوم على سلاح المقاطعة ، وهو سلاح خطير عانت منه بريطانيا الشىء الكثير .

وإذا انتقلنا إلى العمال والحركة العمالية فى الاسكندرية بصفة خاصة نجد أن هذه الحركة كان يدفعها تياران فى نطاق فكرة التناقض الطبقى بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال .

التيار الأول : وهو تيار الحزب الوطنى ، وقد اتسم نشاطه بتأسيس التعاونيات ، فالنقابات . تلك النقابات التى انشئت لحفظ حقوق الفلاحين قبل الملاك ، ورعاية مصالح العمال قبل أصحاب العمل . وقد بذل كتشنر كل ما يستطيع من جهد لتصفية هذا التيار ، وساعدت على ذلك ظروف الحرب العالمية الأولى . فخلا بذلك الميدان أمام التيار الاشتراكى وحده . ولكن هذه الفرصة المواتية لم تحقق لهذا التيار ما كان يصبو اليه ، نظرا لمغادرة كثير من العمال الأجانب البلاد فى فترة الحرب .

والتيار الثانى ، وهو التيار الاشتراكى فلم يكن مصرياً صميما ، بل كان مدفوعاً بعناصر أجنبية أهمها اليونانيون والايطاليون . فدخول هؤلاء فى الحركة العمالية قد صبغها بالصبغة الاشتراكية .

واستطاع المد الثورى للعمال أن يكوّن ثلاثا وثلاثين نقابة فى مدينة الاسكندرية فى الفترة الممتدة بين سنتى ١٩١٨ و ١٩٢١ . وقد اسهمت العناصر الاشتراكية بنصيب كبير فى ثورة ١٩١٩ ، مما حدا بالانجليز إلى اتهام الحركة العمالية المصرية بالبلشفية .

وأمام هذا النشاط الزائد للتيار الاشتراكى تحرك الوفد بسرعة لاحتضان

الحركة العمالية لتقييد تحركاتها داخل الاطار المرسوم للحزب تحت رئاسة عبد الرحمن فهمى سكرتير الحزب .

ومع ذلك لم تكن سيطرة الوفد على النقابات العمالية كاملة ، إذ اقتصرت على القاهرة وحدها ، بينما ظل الاشتراكيون الأجانب تحت رئاسة جوزيف روزنتال يقومون بنشاط واسع فى الاسكندرية بعيداً عن اشراف الوفد . ونجحوا فى تأسيس اتحاد النقابات ، ومركزه الاسكندرية فى سنة ١٩٢١ .

واصل روزنتال نشاطه للعمل على توسيع القاعدة الاشتراكية ، وذلك عن طريق ضم بعض المثقفين إلى الحركة لتكوين الحزب الاشتراكى المصرى وقام الحزب بالفعل ، ولكن عوامل الانقسام أخذت تدب فى صفوفه ، لاسيما بين جناحيه المتعارضين : جناح المعتدلين ، ويمثله سلامه موسى وآخرون . وكانوا ينادون بالاشتراكية الفابية ، وبتوسيع قاعدة الحزب لتضم الطبقة المتوسطة من الأغنياء .

وجناح المتطرفين الذين يتمسكون بضرورة بقاء قيادة الحركة الاشتراكية فى قبضة العمال دون سواهم . وتوكيداً لهذا الرأى اجتمع هذا الجناح بالاسكندرية وقرر فصل المعتدلين من عضويته .

وفى حقيقة الأمر فان تخوف الوفد من التيار الاشتراكى قد حرمه من نشاط عنصر هام كان من الممكن أن يستفاد منه فى اضفاء مسحة اشتراكية على الحركة الوطنية المصرية . ولكن قيادة الوفد — بحكم تكوينها — أبعد ما تكون عن التفكير الاشتراكى .

كان صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ نهاية لفترة الاحتلال التى أشرنا اليها فى بداية هذا البحث ، وبداية لفترة جديدة أخلت فيها الثورة مكانها لمفاوضات طويلة ، مملة ، متكررة .

وقبل أن أختتم بحثى هذا يجب أن أشير — بشىء من الايجاز — إلى بعض

الشخصيات السكندرية التى اسهمت بجهدها فى ثورة ١٩١٩ بصفة خاصة والحركة الوطنية بصفة عامة .

ولنبدأ بالمربية الكبيرة السيدة نبوية موسى التى كانت تمثل كفاح المرأة السكندرية فى سبيل تنشئة جيل من الشابات المؤمنات بوطنهن . حصلت نبوية موسى على شهادة البكالوريا فى عام ١٩٠٧ ، وتقدمت لمدرسة الحقوق لمتابعة دراسة القانون . ونظراً لما عرف عنها من وطنية ومن كره للاحتلال فقد حرمت من دخول امتحان الليسانس بسبب القيود التى فرضتها سلطات الاحتلال على تعليم البنات .

سلكت بعد ذلك طريق التدريس ، وتدرجت فى سلك الوظائف التربوية من مدرسة بالمدارس الابتدائية إلى ناظرة مدرسة المعلمات ، ثم إلى مفتشة ، فكبيرة المفتشات . وبذلك كانت أول مصرية تشغل هذا المنصب الكبير فى ذلك الوقت .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ بدأت نبوية موسى تعمل على تعبئة قوى الطالبات والعناصر النسائية بالمدينة . فخشيت سلطات الاحتلال من نشاطها نظراً لما كانت تحظى به من احترام وتقدير كبيرين . فألقت القبض عليها ونقلتها فى قطار خاص من الاسكندرية إلى القاهرة بحجة خطورتها على المصالح البريطانية ودأبها على مناوأة سياسة دنلوب مستشار وزارة المعارف وقتذاك .

ومن الشخصيات الهامة فى تاريخ الاسكندرية محمود بيرم التونسى . ولد فى ٤ مارس سنة ١٨٩٣ بحى الانفوشى — هذا الحى الشعبى الذى سيصبح له شأن كبير فى ثورة ١٩١٩ — قرب مسجد البوصيرى . تعلم القراءة والكتابة فى حلقات الدرس التى كانت تقام بهذا المسجد . ولكنه لم يكمل دراسته واكتفى بقراءة ما كان يقع تحت يديه من الكتب الزهيدة الثمن التى كانت تعرض حول المسجد ، وكثيراً ما كان يستبدلها بغيرها فى مقابل بضع مليات .

وقد أولع بيرم بمجالسة الزجالين والاستماع إلى شعراء الربابة فى المقاهى البلدية المنتشرة فى حى الانفوشى ورأس التين . كما كان كثير التردد على مكتبة البلدية بشارع أبى الدرداء . وتأثر فى صباه بعبد الله النديم ، والقوصى ، وعثمان جلال وغيرهم .

وأهمية بيرم تظهر بشكل واضح فى تصويره البارع لحياة العمال والباعة والصيادين والطبقات الدنيا من الشعب . وليس هذا بغريب فقد كان واحداً منهم اشتغل بقالا ونجاراً ثم بقالا مرة أخرى . ومن هنا كان فهمه العميق لما يعانيه هؤلاء من متاعب المهنة التى كان مردها فى النهاية إلى سياسة بريطانيا فى مصر .

وخلال الحرب العالمية الأولى اشتطت بلدية الاسكندرية ، التى كان معظم أعضائها من الأجانب ، فى فرض الضرائب على الطبقة الفقيرة المعدمة ، فهاجم هؤلاء الأجانب مخاطباً البلدية فى قصيدة ساخرة نشرها فى جريدة أهالى الاسكندرية كان مطلعها :

يابائع الفجل بالمليم واحدة كم للعيال وكم للمجلس البلدى

وفى مايو سنة ١٩١٩ أصدر نشرة اسماها المسلة (لا هى جريدة ولا هى مجلة) جاءت مليئة بالنقد الاجتماعى وبالحملة على سلطات الاحتلال .

وبنفى سعد زغلول وقيام الثورة كتب العديد من الأزجال التى هاجم فيها الاحتلال الانجليزى . وعندما اتسع نطاق الحركة الوطنية رأى بيرم أن الوقت قد حان لينتقل إلى القاهرة ليسهم بنصيب أوفر فيها .

وقد التقى بيرم مع سيد درويش وتعاون الاثنان فى نطاق محدود أثناء وجودهما بالاسكندرية . ثم التقيا ثانية فى القاهرة فى أوائل الثورة حيث أخذ بيرم ينظم العديد من الأناشيد الوطنية التى قام بتلحينها سيد درويش وراجت بين مختلف الأوساط وشاعت على ألسنة الجماهير .

وإذا تناولنا زميله وشريكه فى الكفاح الشيخ سيد درويش نجد أنه قد تفتحت عيناه على مدينة الاسكندرية التى عانت الشىء الكثير من قسوة قوات الاحتلال وجبروتها . فى هذه البيئة التى خلقت الكثيرين من الرجال من أمثال عبد الله النديم ، والتى دوى فى أرجائها صوت مصطفى كامل يزلزل قواعد الطغيان ، نما سيد درويش وترعرع متأثراً بكل ما يحيط به ، وبما تعانيه مختلف طبقات الشعب ، ولا سيما الطبقة الكادحة من شظف العيش وظلم الحكام .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى غضب سيد درويش مع شعب مصر لاعلان بريطانيا الحماية على البلاد وتنصيب السلطان حسين كامل سلطاناً عليها بعد أن أبعدت الخديو عباس حلمى الذى بدا فى نظر المصريين فى ذلك الوقت كرمز لاضطهاد المحتلين ، وعبر عن هذا فى أغانيه .

كذلك قام سيد درويش بتلحين نشيد وطنى استوحاه من كلمات مصطفى كامل فى مناجاة مصر «بلادى بلادى لك حبى وفؤادى» هذا النشيد الذى ذاعت شهرته ، وردده الكبار والصغار ، والشيوخ والأطفال بل ومازالوا يرددونه حتى يومنا هذا .

وقبل أن يغادر سيد درويش الاسكندرية إلى القاهرة لحن نشيد مصر والسودان ، حيث كانت المناداة بوحدة القطرين على كل لسان .

من هذا نرى أن السيد درويش لم يكن فناناً فحسب ، وانما كان جندياً من جنود ثورة ١٩١٩ ، سلاحه الأغنية الشعبية التى أقضت مضاجع المحتلين وازكت الثورة فى النفوس .

وخلاصة القول فان مدينة الاسكدرية كانت ومازالت المدخل الرئيسى لمصر ، طرقه مختلف الغزاة على مر العصور ، وقاوم أهلها كل هؤلاء الغزاة ، ورصيدها من البطولة والتضحية كبير ، ولا سيما فى العصر الحديث وقد حاولت فى هذه العجالة أن ألقى بعض الضوء على حلقة من حلقات كفاحها الطويل . وأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك،والله ولى التوفيق .

الحركة الادبية فى الاسكندرية

فى مرحلة الانتقال

للاستاذ الدكتور محمد زكى العشماوى

ان البحث عن قسمات مميزة لما يمكن أن يسمى «بالأدب السكندرى» مستقلا عن التيار العام للأدب العربى ، ومنفرداً بخصائص أو سمات فنية خاصة ، تطبعه بالطابع المحلى ، وتجعله منتمياً لبيئة «سكندرية» بالمعنى الدقيق للكلمة أمر يصعب العثور عليه لأسباب أهمها :

(أولا) أنه على الرغم مما للاسكندرية من شخصية تاريخية متميزة ومستمدة من موقعها الجغرافى الذى جعلها عبر التاريخ حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، والذى أتاح لها أن تكون مستقرا للعرب القادمين إليها من شمال أفريقية ، ولبعض شعوب البحر الأبيض المتوسط النازحين اليها فى عصرنا الحديث من اليونان والطليان والفرنسيين ، والذين كان لاستقرارهم فى الاسكندرية وامتزاجهم بأهلها تأثير خاص فى بيئاتها ثقافياً واجتماعياً .

وعلى الرغم مما كان لهذه المدينة العريقة من دور خطير فى التاريخ القديم حين كانت ملتقى حضارتين من أرقى الحضارات فى العالم : الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة اليونانية .. نقول على الرغم من ذلك فإنه من العسير أن نعثر على الاسكندرية الحديثة معزولة عن الحركة الأدبية العامة التى تنتمى بجذورها المتينة إلى التراث العربى القديم من ناحية ، والتى تنبعث من قلب الحياة العربية الحديثة من ناحية أخرى ، تلك الحياة التى فرضت صيرورتها واستمرارها على الرقعة الكاملة للأمة ، قائمة على صعيد واحد من الحياة ، هو أشبه اليوم بالصعيد البركانى الذى تتعدد التفجرات فى ثناياه ، ومع ذلك فلا تلبث هذه التفجرات إلا قليلا حتى تشمل الأرض العربية كلها ، فلا يكاد مكان منها يهدأ أو يستقر إلا ريثما ينقضى الفاصل بين كل تفجر وآخر .

(ثانياً) أن البيئة المكانية لم يكن لها فى أى مرحلة من مراحل تاريخنا الأدبى هذا التأثير الذى يجعل من أدب مكان ما طابعاً مستقلا أو فريداً أو مصبوغاً بالصبغة المحلية الخالصة .

فالأدب العربى على مدى عصوره المختلفة ، ومع اتساع رقعة الأمة وتباعد أطرافها ، لم يكن فى مجموعه غير أدب واحد يعبر عن حضارة واحدة ، والمتعمق فى هذا الأدب يلاحظ أنه كلما اكتمل أدب أى شعب من شعوب هذه الأمة صار جزءاً لا يتجزأ من الأدب العام الذى هو فى جملته تعبير عن عبقرية واحدة ، أو قل هو وميض عقل واحد ، فما كنت تلمحه على ضفاف دجلة والفرات ، هو ما كنت تراه على ضفاف النيل أو على الشواطىء العربية للبحر الأبيض المتوسط .

ولعل هذه أن تكون ظاهرة عامة فى آداب الأمم الأخرى ، فقد نادى «برونتيير» الناقد الفرنسى منذ عهد قريب بنظرية مؤداها أنه لا وجود للآداب الأوربية منفصلة، فالأدب الأوروبى مع اختلاف شعوبه وحدة لا تتجزأ ، وهو عند برونتيير تعبير عن أفضل ما استطاع الانسان الأوروبى أن يفكر فيه أو يحلم به أو يعبر عنه .

(ثالثاً) فى بعض المراحل التى مرت بالعالم العربى ، والتى أتيحت له فيها فرصة الاتصال والامتزاج بشعوب وثقافات أو حضارات أمم أخرى لم تكن الأمة العربية تنقل ما تتلقاه من هذه الشعوب كما هو ، بل كانت تتمثله وتهضمه وتأخذ منه ما يتلاءم وجوهر حضارتها ، وما تسمح به لا تلبث أن تحيله إلى طبيعتها .

فعلى الرغم من أن الحضارة العربية لم تبق منعزلة عن غيرها ، وأنها لم تنفصل عن العالم بل كثيراً ما تفاعلت حضارتها مع حضارات أخرى كاليونانية والرومانية ، فإنها ظلت محتفظة برغم هذا التفاعل بذاتيتها المتمثلة فى ذاتية شعوبها والمستمدة من تراثها وحضارتها .

(رابعاً) أنه باستثناء بقية طيبة من خمرة الكلاسيكية الأدبية الأصيلة

عند نفر من أدبائنا المعاصرين لا يزالون يحتلون مكانهم فى الرقعة الفسيحة من عالمنا العربى ، لم يبق فيما نسميه بالأدب الحديث أو المعاصر مايسمى بالظاهرة أو التيار أو النزعة أو ما أشبه ذلك من تسميات تنصرف إلى الدلالة على الانقسام والتعدد والتقابل ، بل أصبح الأمر أقرب إلى التوحد من حيث الطابع العام الغالب للشعر العربى المعاصر ، وهو طابع هذا الشعر الذى استقر الاصطلاح عربياً وعالمياً على تسميته بالشعر الحديث ، ونقصد هنا حداثة الكيان الشعرى بجملته شكلا ومضموناً .

من أجل هذه الأسباب وغيرها يصبح «الأدب السكندرى» ذو الطابع المميز بشكله ومضمونه والمختلف بقسماته وسماته عن الطابع العام لأدبنا العربى والمستقل عنه شيئاً لا وجود له .

أما الشيء الذى له وجود حقيقى ، والذى هو جدير باهتمام الباحثين ودراستهم هو هذا الدور الايجابى الرائد الذى قام به أدباء الاسكندرية فى تطور الأدب المعاصر ، وتلك الإضافة الحقيقية فى مجال التعبير عن أكثر التجارب الأدبية نضجاً ، والتى أثبتت ، بما لا يدع مجالا للشك ، بأن الاسكندرية كانت وما تزال إلى يومنا هذا على أهبة دائمة وحضور مستمر للتفاعل مع أية حركة تطورية حضارية .

وحقيق بنا أن نعترف بأن الاسكندرية قد أتيح لها من المواهب الرائدة والخالقة ما يمكن لها أن تنتصر فى المعركة التى اضطر الأدب الحديث إلى معاناتها منذ ظهرت أولى طلائع التطور فى حياتنا الأدبية وعلى مدى نصف قرن أو أكثر .

وإذا كان هدفنا فى بحث كهذا أن نقيس مدى الشوط الذى قطعته حركة الأدب فى الاسكندرية وعلى مدى نصف قرن أو أكثر قليلا فلن يتحقق لنا ذلك إذا نحن لجأنا إلى العرض الكتالوجى الذى يحاول الشمول فلا يحقق الا السطحية ، ومن ثم فسوف نحاول ما استطعنا تجنب إحصاء الأسماء وسرد التاريخ وتتبع الأحداث والرجال ، وإلا وقعنا فيما نخشاه من العرض المبتسر .

لذلك سوف نلزم أنفسنا من الآن بزاوية محددة صارمة التحديد فنقتصر على ما يعيننا على إبراز ملامح الحركة الأدبية فى الاسكندرية من خلال مرحلة بارزة فى تاريخ أدبنا الحديث — وهى : مرحلة الانتقال .

وسوف تكون وقفتنا مع الشعر أكثر من وقفتنا مع غيره من فنون الأدب الأخرى لا لشىء الا لأن التجارب الشعرية فى هذه المرحلة كانت أكثر نضجاً وانتشاراً من التجارب الأدبية الأخرى . وربما أكثر سعة وعمقاً .

مرحلة الانتقال :

ونعنى بها تلك المرحلة التى أعقبت حركة الأحياء التى تزعمها محمود سامى البارودى ، والتى قامت تستهدف ربط حلقات التاريخ التى كانت قد انفصمت عندما نضب الشعر العربى بعد عصور العباسيين ، وذلك بطغيان الصنعة ، واختفاء الأصالة وراء قضايا تقليدية ميتة .

فكان الشعر فى عصر الجمود هذا ، كما يصوره العقاد ، كلاماً منظوماً لا يستهدف غير الوزن ، ولا يستكثر الا محسنات الصنعة حتى تحول الشعر إلى ما يشبه الشواهد والمنظومات التى كانت تشيد بها كتب البيان والبديع ، فظهر فى الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخمين . وراح الشعراء يتبارون فى اللعب بالألفاظ وجمعها ، كما يتبارى الأطفال فى جمع الحصى الملون وتنضيده (١) .

فكان لابد ، وحالة الشعر هذه ، أن تنشأ حركة شعرية ناهضة تحطم أسوار الجمود وتدك حصونه ، فبدأت حركة البعث الجديدة التى تزعمها البارودى والتى استطاعت أن تجعل الماضى يرتد إلى الحاضر ، وأن تبعث إلى الحياة أروع النماذج فى تراثنا الأدبى ، فبدأت العيون تتفتح على ثروة فكرية

(١) الشعر المصرى بعد شوقى ص ٥

وأدبية هائلة خلفها لنا أسلافنا الأولون فنشطت عملية أحياء لأمهات الكتب العربية القديمة ونشرها فى الناس .

هذا الارتداد إلى الماضى والامتداد به إلى الحاضر كان قد أنقذ الأسلوب الشعرى مما كان قد تردى فيه ، فأصبح لدينا مستوى من التعبير الأدبى والشعرى يكاد يضاهى ما انتهى اليه الشعراء العباسيون من تجارب شعرية ، فكان فيها رنين الأقدمين وصوتهم وطرائق صياغتهم كما وعتها آذان شعراء حركة البعث أو مرحلة الأحياء هذه من أمثال البارودى وحافظ وشوقى .

وعلى الرغم مما حققته هذه الردة إلى الماضى من قدرة على التقاط الرنين الموسيقى ، واحتذاء ما ادخرته الأذن المرهفة والحافظة المستجيبة والمتعاطفة للنماذج الشعرية القديمة ، فهى لم تكن فى جملتها الا نوعاً من التعاطف مع التراث العربى القديم حقق نوعاً من المحاكاة السمعية لرنين الشعراء القديم ، التى ربما صدرت عن طبع وسليقة ومع ذلك ظلت مكبلة بعائق الولاء العقائدى لنماذج الشعر القديمة والمحافظة على النسق الذى تحتذيه فى أمانة كما يحتذى الخطاط ذو اليد الصناع «الذى لا يخط الخط ابتداء» بل يجرى على مثال سابق أمامه فيحتذيه بقلم بين أصابعه . وهذا ما كان يجعله البارودى منهجا له إذ يقول فى صراحة :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلما

فلا يعتمدنى بالاساءة غافل فلابد لابن الأيك أن يترنما

كان احتذاء الماضين فى عهد البارودى يعتبر اضافة حقيقية بل انتصاراً يبتهج له الشاعر وقدرة لا يبلغها الا الشعراء الحقيقيون ، هذا إذا قسنا ما يقوله بما كان يتردد فى عصره من ركاكة وفسولة . من أجل هذا رأينا شموخ البارودى وزهوه ونشوته حين يجد نفسه استطاع أن يتكلم كالماضين قبله .

على أن مرحلة الإحياء هذه لم يكن من الحكمة أن تستمر طويلا ، فقد بدأت تظهر على أثرها حركات انتفاض وتحرر ، ووثبات انعتاق من طغيان ورتابة السير مع تطور الزمن على لون واحد من التعبير ، وقد ساعد على تيقظ الوعى عند الكتاب والشعراء ما كان من نقل الثقافة العربية واتساع حركة الترجمة وزيادة عدد المبعوثين والدارسين بالخارج ، فانفسح المجال أمام صفوة من المفكرين والأدباء لكى يتزعموا حركة تحرير تهدف إلى جعل اللغة العربية والشعر الحديث قادراً على التفاعل مع حركة التطور الحضارية ، وعلى التعبير عن مطامع الحياة العربية الجديدة . ورأينا الكتاب والمصلحين ورجال الدين والساسة والأدباء يتجهون فى مصر نحو حركة تحرير فى شتى مناحى الحياة ، فكرس قاسم أمين جهوده نحو تحرير المرأة ، وحاول الإمام محمد عبده أن يفسر الدين على أساس يساير به الحياة ، وقامت جماعة من المثقفين تدعو إلى إنشاء الجامعة المصرية ، ودعا مصطفى كامل ولطفى السيد وغيرهما إلى الحركة الوطنية والكفاح السياسى . وحمل العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى من جانب وخليل مطران من جانب آخر لواء تحرير الأدب فكانوا أول دعاة للتجديد فى شعرنا المعاصر .

مظاهر التطور الثقافى والأدبى :

وقد شهدت الاسكندرية فى مرحلة الانتقال هذه يقظة فكرية عالية ، ووعياً ثقافياً يكاد ينافس ، إن لم يفق ، ما كان يضطرم فى قلب العواصم العربية الأخرى من إحساس بالرفض وإصرار على ضرورة التغيير وبعث حياة أدبية جديدة ، ولقد ساعد الاسكندرية على ذلك عدة عوامل جعلت من المدينة مركز إشعاع ومنطلقاً للتحرير .

من هذه العوامل نشأة الصحافة التى كان لها أبعد الأثر فى تنشيط الهمم نحو حركة بعث جديدة . ولعل الذى ساعد على ازدهار الصحافة وإعطائها هذه القدرة التى تجعل منها وسيلة لتغذية العقل وتربية الرأى ، واثارة الفكر الدافع إلى التطور والنهوض والسمو بالنفس، أن الذين كانوا ينهضون بعبء توجيهها جماعة من المثقفين ثقافة عربية وأوربية فى وقت معاً ، فقد نزح

إلى الاسكندرية منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن وفود من اللبنانيين الذين كانوا قد تزودوا بقدر من الثقافة الأوروبية عن طريق الارساليات التى كانت ترسلها لهم انجلترا وفرنسا، جاءوا إلى الاسكندرية هرباً من بعض الضغوط السياسية والاجتماعية .

ومن أبرز أعلام الصحافة فى الاسكندرية سليم تقلا (١٨٤٩ ـ ١٨٩٢) وشقيقه بشاره تقلا (١٩٥٢ ـ ١٩٠١) اللذان وفدا إلى الاسكندرية فى عام ١٨٧٥ وأسسا بها صحيفة الأهرام ، وظلت الأهرام تصدر فى الاسكندرية حتى نقلت إلى القاهرة عام ١٨٩٩ .

على أن الجدير بالذكر أن الرجلين كانا من المشتغلين بالتعليم قبل اشتغالهما بالصحافة ، وأنهما كانا يجمعان بين الثقافتين الأوروبية والعربية فقد تعلم تقلا اللغة العربية على الشيخ نصيف اليازجى ، واشتغل فترة بتدريس اللغة العربية ، وكان أديباً وناظما للشعر .

ومن طلائع الأدباء الثوار الذين حملوا لواء الدعوة إلى نهضة فكرية وثقافية بالاسكندرية، واتخذ من الصحافة منبراً لدعوته عبدالله النديم الذى أصدر مجلة التبكيت والتنكيت عام ١٨٨١ ثم أصدر بعدها صحيفة الطائف فى يولية من نفس السنة ، وكلنا يعلم مكانة عبد الله النديم والدور الريادى والثورى الذى كان يقوم به من أجل إيقاظ الرأى وتحرير الفكر .

ومن رواد الصحافة الذين تركوا أثراً عميقاً فى حركة التطور الفكرى والثقافى بالاسكندرية أخوان آخران هما نجيب الحداد (١٨٦٧ ـ ١٩٩٨) وأمين الحداد (١٨٦٨ ـ ١٩١٢) والمتعمق فى حياة هذين الرجلين وفى نشاطهما الفكرى والأدبى يدرك أنهما من المجاهدين بالكلمة وخصوصاً نجيب الحداد الذى عاصر وهو بالاسكندرية الثورة العرابية، ثم احتلال الانجليز لمصر، وضرب الأسطول الانجليزى للاسكندرية فى يولية ١٨٨٢ .

فكانت لهذه الأحداث الدامية أثرها العميق فى نفسه ، ألهبت مشاعره ،

وجعاته أحد الذين سخروا أقلامهم فى غير هوادة لمحاربة الاستعمار والتنديد به واستنهاض همم الشعب العربى للتضامن والاتحاد وتحريره من التخلف والاستكانة والجمود ، وبناء الحياة بناء يقوم على حضارة صناعية وزراعية وعلى نشر التعليم ومحاربة الجهل .

ولم يكن عمل نجيب الحداد الصحفى، سواء فى جريدة الأهرام أوفى جريدة لسان العرب الذى أصدرها عقب استقالته من الأهرام ، إلا نفساً حاراً ودعوة جادة إلى الاصلاح، وذلك من خلال ما ظهر له من مقالات وقصائد وتمثيليات . فقد كان إلى جانب عمله الصحفى أحد الذين أسهموا بنصيب كبير فى الحركة المسرحية فى عصره ، فقد ظهر له من المسرحيات ما بين مؤلف ومترجم نحو ثلاثين رواية ، عدا ما كان ينظمه من مسرحيات غنائية ، وما كان يقدمه للحركة القصصية بتأليف القصص وترجمتها .

وعلى الرغم من قصر حياة نجيب الحداد فقد كانت أعماله غزيرة المادة ، ومتعددة الجوانب، وقد جمع بعضها فى كتاب بعد وفاته صدر فى عام ١٩٠٣ بعنوان :

«منتجات الشيخ نجيب الحداد» ثم أعيد طبعه عام ١٩٠٦ . وقد قرأ المنفلوطى هذا الكتاب وأعجب به ووصف كاتبه بقوله : «كان من أحسن كتاب هذا العصر، وشاعراً من أرق شعرائه ، ومترجماً من أقدر المترجمين على الترجمة السهلة الفصيحة» (١)

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الدور الريادى الذى قامت به الصحافة فى مدينة الاسكندرية أن نشير إلى علم من أعلامها هو رشيد شميل (١٩٥٣ — ١٩٢٨) الذى أسس أطول الجرائد عمراً بالاسكندرية وهى جريدة البصير اليومية التى انشئت عام ١٨٩٧، واستمرت تصدر بالاسكندرية نحو خمسة وستين عاماً ، وقد أتاحت لها هذه الحياة الطويلة ، أن تضم بين صفحاتها

---

(١) أعلام الاسكندرية ص ٤٧٢

معظم ماكان يسطره شعراء الاسكندرية وكتابها من إنتاج أدبى ، وأن تكون مصدراً من أهم المصادر فى تاريخ الحياة الأدبية والفكرية لأدباء الاسكندرية فى عصرنا الحديث .

ويطول بنا الحديث لو أننا أخذنا نستقصى تاريخ الصحافة وأعلامها فى تلك الفترة . ويكفى أن نشير إلى أن ما ظهر فى الاسكندرية فى الفترة ما بين عامى ١٨٧٣ ، ١٩٢٩ كان نحواً من مائة وثلاثين صحيفة .

وعلى الرغم من قلة ما ذكرناه عن الصحافة فإن المتتبع لتاريخها فى تلك الفترة يستطيع أن يدرك دور الاسكندرية الرائد، وأثر هذا الدور فى مرحلة طرحت العديد من التساؤلات والقضايا التى فرضتها التغيرات السريعة التى كانت تنتاب وجه الحياة العربية ، فى لحظة من لحظات التطور فى حياتنا المعاصرة.

ولعل أهم النتائج التى حققتها هذه الثورة الصحفية أن الذين كانوا يتولون الكتابة فى ذلك الوقت ، وهم صفوة من طلائع المثقفين الجادين ، لم يكونوا يتخذون الصحافة تجارة لكسب المال ، ولإزجاء فراغ القارئين ، وإثارة مشاعره السطحية العابثة ، ومنحه الراحة التى تعمل على أن يتلقى ما يتلقاه لكى يتثاءب فكره آخر الأمر ثم ينام ، كما يحدث عادة لقارىء الصحيفة فى أيامنا هذه .

بل كانت للصحافة رسالة أخرى كانت تستهدف تهيئة المناخ الصالح الذى يجعل القارىء مشاركاً للكاتب ومفكراً معه ، فكانت بذلك أداة من أدوات تحقيق الذاتية الواعية، ووسيلة لإيقاظ التفكير وتدعيم الرأى المستقل والعمل على نموه ونضجه .

وثانى هذه النتائج تكوين رأى عام مصرى . فقد أوجدت صحافة الاسكندرية التربة الصالحة لظهور هذا الرأى العام الموحد الذى يسعى إلى عقلية تؤمن بالأمة الموحدة فى جنسها وعقائدها وآمالها وأهدافها . ويكفينا فى هذا المجال أن نذكر جهاد صحيفتين هامتين لأحد أعلام الصحافة فى الإسكندرية ، واحد الذين قادوا ثورتها وهو عبد الله النديم فى صحيفتيه

المشهورتين « التنكيت والتبكيت» ثم «الطائف » من بعدها. يقول جورجي زيدان في مقاله عن تاريخ النهضة الصحافية :

«فلما تولى الخديوى توفيق اندفعت الصحف فى الحرية ، وحدثت ثورة أفكار وطنية وظهرت جرائد ثورية نقادة منها « التنكيت والتبكيت » و«الطائف» والمفيد (اكتوبر ١٨٨١ لمحررها حسن الشمسى) خافتها الحكومة فعمدت إلى تقييد الصحافة فسنت قانون المطبوعات سنة ١٨٨١ ، فلم تجدها ذلك نفعاً ، لأن الثورة كانت قد أخذت مجراها ، فأفضت إلى الحوادث العرابية المشهورة . ويقول الأستاذ أحمد أمين عن عبد الله النديم» . :

(كان عبد الله النديم لسان الأمة فى عهده بخطبه ، وقلمه ، وصحفه ، ينشر آراءه ومشاعره فى أكبر عدد ممكن من الأمة ، وبذلك كله يساعد على نمو رأى عام مصرى يؤمن بالحلم الثورى، ويتطلع إلى الاصلاح فى الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية » .

وثالث هذه النتائج الهامة التى حققتها النهضة الصحفية بالاسكندرية تكوين قطاع عريض من المثقفين المستنيرين أفسحت لهم الصحافة المجال للتعبير بأقلامهم وتجاربهم ، فظهر بالاسكندرية لفيف من الكتاب والشعراء كما سيتضح من هذا البحث الدور الطليعى فى التقاط الأبعاد الجوهرية للحظة من لحظات التطور فى تاريخنا الحديث ، وفى قيادة حركة تحرير الأدب واللغة من سيطرة القوالب التعبيرية التقليدية التى استنفد الاستعمال المتكرر الرتيب المتمادى فى الرتابة والتكرار عدة قرون كل ما كانت تحتويه من طاقات الحياة ، وامتص منها كل ما حملته عبر الحياة التاريخية الطويلة لاستعمالها من نبضات إنسانية ودلالات إيحائية .

على أن الصحافة لم تكن العامل الوحيد من عوامل التفجر الثقافى والفكرى بالمدينة ، فقد نشطت إلى جوارها حركة الترجمة الأدبية نشاطا ملحوظا كان له أثره فى توجيه شباب ذلك الجيل إلى منبع آخر من منابع الثقافة ، أخذ يتدفق جنباً إلى جنب مع حركة البعث للقديم .

ففى الوقت الذى بدأت فيه مصر تجنى تراث مكة والمدينة ودمشق

وبغداد كانت حركة الترجمة التى نهض بها رفاعة رافع الطهطاوى، وتلاميذه فى مدرسة الألسن، تستمر فى إطلالتها على العالم العربى محاولة نقل التراث الأوروبى فى الشعر والمسرح والسياسة والاجتماع وشتى ألوان المعرفة الإنسانية ، هادفة إلى إيجاد منبع لثقافة جديدة دائمة التدفق ومواكبة لحركة إحياء التراث العربى القديم .

ولقد كان للاسكندرية نشاط ظاهر فى حركة الترجمة هذه ، فقد انتشر بين أدبائها معرفة اللغات الأجنبية عن طريق الايفاد فى بعثات إلى الخارج، أو عن طريق الارساليات التبشيرية التى كانت ترسلها أوروبا إلى سوريا ولبنان ، والتى تعلم على يديها كثير من اللبنانيين والسوريين اللغات الأجنبية ، ثم وفدوا على الاسكندرية واستقروا فيها فكان من هؤلاء من أسهم بنصيب موفور فى ترجمة الكثير من الروايات عن اللغتين الانجليزية والفرنسية. ويكفى أن نعلم أن مطابع الاسكندرية قد أخرجت ما بين نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ما يقرب من تسعين رواية معظمها مترجم عن الفرنسية . (١)

المسرح :

وإذا كانت الترجمة قد أعانت على إتاحة الفرصة أمام أدباء الاسكندرية للاتصال بالتراث الأوروبى ، وفتح نوافذهم على العالم الحى فيه ، فقد ساعدت من جانب آخر على أن يكون لهذه المدينة فضل السبق فى ظهور رافد جديد من روافد الثقافة وهو المسرح ، الذى رأى النور أول ما رآه على أرض الاسكندرية ، فاستقبلته المدينة وفرحت به ، وهيأت له من صدرها وقلبها مكاناً دافئاً ، ثم غذته ورعته وتركته يتوالد ويتكاثر حتى صار كالنبات الزاحف الذى أخذ ينتشر فى داخل مصر كلها شجرة .. شجرة .

كانت أول فرقة مسرحية وصلت إلى مصر هى فرقة سليم نقاش ابن شقيق مارون نقاش ، فى وقت كان الناس ينظرون فيه إلى الممثل نظرتهم

(١) الحركة الادبية فى الاسكندرية الحديثة ص ٥

إلى المهرج ، ولكن مجتمع الاسكندرية الذى كان أكثر تحرراً من مجتمع القاهرة؛ جعل سليم نقاش يختار الاسكندرية مكاناً لفرقته فنزلت بها فى ديسمبر عام ١٨٧٦ ، وكانت تتكون من اثنى عشر ممثلا ، وأربع ممثلات وبدأت فى عرض أعمالها على مسرح «زيزينيا» بشارع شريف، واختارت فى بداية نشاطها روايات مترجمة عن الفرنسيين فقدمت هوراس ، ومتريدات ثم رواية عايدة .

ثم تولى يوسف خياط الاشراف على الفرقة بعد سليم نقاش واستمرت تعمل على مسرح زيزينيا، ولاقت بعض النجاح بما قدمت من أعمال جديدة.

وأما أحمد أبو خليل القبانى الذى قدم إلى الاسكندرية من سورية فى عام ١٨٨٤ فقد كان له دور مختلف عن دور زميليه السابقين، إذ يرجع إليه الفضل فى تمهيد الطريق أمام المسرح الغنائى، وإفساح المجال أمام عباقرة هذا الفن اللذين خرجوا من الاسكندرية ثم فرضوا سلطانهم بعد ذلك على مصر كلها .

وليس فى نيتنا أن نتلبث طويلا عند نشأة المسرح العربى ، وما مر به من أحداث أو ما قطعه من أشواط من أجل تدعيم أركانه ، وتثبيت ذاته فهذا مجاله بحث آخر ، ومع ذلك فقد كان من الضرورى أن نشير هنا إلى أن نشأة المسرح العربى فى الاسكندرية وخروجه منها إلى القاهرة قد كان حدثاً له دلالته .. كما كان له تأثيره الخاص فى جمهور الاسكندرية ومجتمعها من ناحية ، وفيما تلا ذلك من نهضة ثقافية وفنية من ناحية أخرى .

فنحن نعلم ما كان يلقاه المسرح فى تلك الفترة من صعوبات ، وما كان يواجه به من سخرية واستخفاف بل وازدراء أحياناً ، وإذا كان من العسير جداً على المجتمع العربى فى وقت كهذا أن يقبل البدع أو يهضم المبدعين، أو يستسيغ الخروج على المألوف من آداب الأوائل شعراً كان أو نثراً ،أوأن يرتاح لمشهد رجل يقف على خشبة المسرح ليلعب دوراً أو يتقمص شخصية ، فما بالك لو رأى المرأة تخرج على تقاليدها فتشارك الرجل تلك المهزلة ؟؟

ومع ذلك فقد قبله جمهور الاسكندرية وأقبل عليه وشجعه ولقيت بعض أعماله نجاحاً ، ولم تكن هذه هى الفائدة الوحيدة التى جناها المسرح، فثمة فوائد أخرى كانت أكثر أهمية نذكر منها ذلك النشاط الملحوظ لدى كتاب تلك المرحلة وأدبائها الذين أخلوا يؤلفون ويترجمون للمسرح. ولعلنا نذكر جهود نجيب الحداد فى هذا المجال تأليفاً وترجمة ، وما أسهم به أديب اسحاق الكاتب الصحفى الثائر (١٨٥٦ — ١٨٧٤) ، فقد راح يؤلف ويترجم لفرقة سليم نقاش ،ومما ترجمه مسرحية أندروماك لراسين وشرلمان المترجمة ثم غرائب الاتفاق المؤلفة ، كما ترجم عن الفرنسية رواية سماها «الباريسية الحسناء» . ومن هؤلاء طانيوس عبده «١٨٦٩ — ١٩٣٦ الكاتب الصحفى الساخر الذى أسهم بجهوده وكتاباته فى المجالين الصحفى والأدبى ، وترجم للمسرح بعض التمثيليات منها هاملت لشيكسبير .

وهكذا نرى أن نشأة المسرح بالاسكندرية قد تبعتها حركة نشطة فى التأليف والترجمة وتقديم النص المسرحى وتزويد المكتبة العربية بلون جديد من الكتابة الأدبية لم يكن للعرب بها عهد من قبل .

على أن الشيء الجدير بالاهتمام حقيقة ، والذى ترك خطا عميقاً فى تاريخ نهضتنا ، المعاصرة وكان للاسكندرية فيه فضل الريادة الحقيقية، فهو المسرح الغنائى الذى أرسى دعائمه علمان من أعلام نهضة فن الغناء المعاصر هما الشيخ سلامه حجازى وسيد درويش. فإن البذرة التى غرسها أبو خليل القبانى فى الاسكندرية ، وفى وقت لم يكن الفن المسرحى يعرف غير خيمة (الأراجوز) (أو القره كوز) ومن الأبطال غير أبى زيد الهلالى وعنترة والزير سالم ، قد أتيح لها فيما بعد أن تصبح على يد هذين الرجلين سنديانة كبيرة غزيرة الإثمار وارفة الظلال .

وعندما انضم إلى هذين الرائدين شاعر مصر العظيم بيرم التونسى السكندرى المولد والنشأة تحققت معجزة الغناء العربى التى هزت مملكة بأسرها، وامتدت أصواتها إلى العالم العربى كله، فكان أول انقلاب جذرى فى تاريخ

موسيقانا العربية يكشف عن عصر جديد، ووجه جديد لا يستعير لغة الآخرين ولا ينطق إلا بصوته .

وما كاد يرتفع صوت الشيخ سلامة حجازى فى الاسكندرية حتى أخذ المسرح العربى يتطلع إلى الصوت الجديد . وبدأت الأدوار الغنائية تحتل مكانها على المسرح ، وتقدمت فرقة القرداحى والحداد لسلامة حجازى تعرضان عليه احتراف التمثيل معهما ، وبدأ القيام منذ عام ١٨٨٥ بالدور الأول الغنائى فى مسرحية «مى وهوارس»، ثم انضم إلى فرقةاسكندر فرحبالقاهرة، وظل ممثلها الأول ست سنوات ، قدم خلالها عدداً من الروايات منها تليماك ، والافريقية ،والرجاء بعد اليأس . ونشط التأليف للشيخ سلامةحجازى، وكان من أبرز من قام بالتأليف فى تلك الفترة نجيب الحداد،وطانيوس عبده ،وفرج انطون،والياس فياض، واسماعيل عاصم وغيرهم ، وقد جمعت الروايات بين الترجمة والاقتباس والتأليف . نذكر منها على سبيل المثال شهداء الغرام المقتبسة عن «روميو وجوليت» وصلاح الدين الأيوبى»، وغانيةالأندلس، وهملت ، وابن الشعب . وقد شاع بين الناس العديد من القصائد التى كان يلحنها ويغنيها الشيخ سلامة حجازى فكانوا يرددونها ويتغنون بها ، وذاع صيت الرجل فى أنحاء العالم العربى، بل لقد أثنت عليه ساره برنارممثلة فرنسا الأولى فى ذلك العهد، وعبرت عن تأثرها بغنائه وفنه بكلمة عقب مشاهدتها لمسرحية غادة الكاميليا التى أدى فيها دور البطولة .

ولقد كان الشيخ سلامة حجازى بحق نقطة تحول ، فى تاريخ الغناء العربى ، فهو الذى مهد للموسيقى والغناء المسرحين، فقد وصف محمود تيمور فى كتابه «حياتنا التمثيلية» عهد الشيخ سلامة حجازى بأنه كان عهداً بين التمثيل القديم والجديد ، وأنه هو الذى مشى بالجمهور من الحالة الرثة إلى الحالة النضرة، وهيأه لاستقبال الفن الصحيح الذى ماز لنا نتخبط لتحقيقه على حد قواه .

سيد درويش :

وإذا كان سلامة حجازى قد خطا الخطوة الأولى بالموسيقى العربية من الزمن الثابت إلى الزمن المتسع لكل لحظة ، فإن الشيخ سيد درويش كان قائد حركة التطور الذى سبق بخطواته الزمن وألقى بنا على أرض الدهشة ، وسافر بنا إلى مدن الغرابة ، فلم تعد الألحان عنده انتظاراً للمنتظر ، كما كانت على أيدى تجارى الموسيقى وببغاواتها ، بل أصبحت ألحانه شوقاً لما لا يأتى، وانتظاراً لما لا ينتظر. إن مغامرات الشيخ السيد مع المجهول كانت مغامرات رائدة بكل ما فى الكلمة من معنى . فقد ألقت الموسيقى العربية بظهور هذا الفنان تلك التركة الثقيلة عن ظهرها، وأخذت تستقبل وعيها الوجودى وتدرك قيمة الكلمة وقيمة النغمة فى التعبير عن واقعنا الاجتماعى والسياسى والوطنى . وإذا الشعب المصرى يجد لأول مرة الصوت القادر على الترجمة عن أفراحه وأحزانه ، والمصور بالحركة والكلمة والإيقاع لحياة طوائفه وطبقاته ، والمتجاوب تجاوباً حقيقياً مع مشاعر جيله .

ففى خلال ست سنوات فقط من الانتاج الفنى الغزير استطاع هذا الرجل الأعجوبة أن يخلق المسرح الغنائى الكامل أو ما يسمى بالأوبريت، ويضع ألحان اثنتين وعشرين مسرحية، ومن أشهرها العشرة الطيبة التى ألفها محمود تيمور (١٩٢١) ، (وفيروز شاه» التى لحنها لفرقة جورج أبيض ، «وكلها يومين»، وكليوباترة لمنيرة المهدية،وقدم لفرقة عكاشة : هدى ، وعبد الرحمن الناصر، والدرة اليتيمة ، ولفرقة الكسار: ولسه ، وراحت عليك ، والبربرى فى الجيش «وأم أربعة وأربعين» ومرحب بالانتخابات» .

فكانت كل أوبريت من هذه صورة استعراضية لحياة مختلف طوائف الشعب، فلم يترك فئة من فئاته ،أومهنة من مهنه الا أعطاها وجهها وصوتها، ولون ثيابها،وأسلوب معيشتها حتى لكأنه كان يغوص فى لحم الحياة ، ويشتبك بتفاصيلها اليومية،فجاءت ألحانه جميعها انفعالا بالعصر وبالأرض وبالانسان

فى الشعر والنقد :

وبعد فقد قصدنا من هذه الوقفة القصيرة التى وقفناها عند هذه المرحلة من أن نسلط الضوء على بعض جوانب من حياة الاسكندرية الثقافية والأدبية، كان لها تأثيرها المباشر فى نقل الحياة من مرحلة السكون التاريخى إلى مرحلة الحركة والتجاوز — كان التاريخ فى تلك المرحلة شرارة تضىء للمستقبل ولم يكن استرخاء على مائدة التخدير، أو تقوقعاً وانسحاباً فى الدهاليز الرطبة. بل كان انتفاضة أيقظت الوعى، وفتحت العيون وجددت الآذان، وكانت أفكار تلك الحقبة التى امتدت على مدى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ونهاية الربع الأول من القرن العشرين بفلسفاتها ومذاهبها، ما كان فيها منقولا عن الغرب، وما كان نابعاً من تراثنا كانت بمثابة الهزة فى القشرة الأرضية التى صدمت الجهاز العصبى لمجتمع الاسكندرية فشعر بأنه أخف وزنا، وأكثر قدرة على الدخول فى مدار حضارى مع العالم.

ولم تكن الصحوة صحوة صحافة ومسرح وتأليف وترجمة فحسب بل كانت صحوة فتحت أعين الشعراء وآذانهم، فصاروا يرفضون ما كان الناس يرونه نهاية الطرب، وأصبح الايقاع اللغوى المتحصن وراء الدروع التقليدية للشعر صداعاً لا تحتمله الأذن العربية المعاصرة فدوت أول صيحة للتجديد فى الشعر، وانطلقت من اتجاهات ثلاث: صيحة صدرت عن شعراء الديوان العقاد وشكرى والمازنى، وأخرى من شعراء أبولو وثالثة من شعراء العرب الذين نزحوا فى مطلع هذا القرن إلى المهاجر الأمريكية.

فبعد إعادة الحياة إلى الصورة التراثية للقصيدة العربية القديمة التى حمل لواء بعثها محمود سامى البارودى، وتبعه فيها حافظ وشوقى والتى يمكن أن نسميها بمرحلة الشعر الكلاسيكى قديمه وجديده، وذلك لخضوعها للمقاييس النقدية التى نادى بها الشيخ حسين المرصفى ناقد الكلاسيكية الأول، جاءت مرحلة أخرى كانت بمثابة ثورة جذرية شاملة على نظرية النقد التى سادت مرحلة الأحياء وما قبلها، والتى كانت تتطابق مع طبيعة الصورة التقليدية للشعر، وهى الثورة التى شنها العقاد وزميلاه شكرى والمازنى على شوقى

من ناحية ،وعلى أسلوب القصيدة العربية القديمة وطرائق تصويرها من ناحية أخرى .

إلى أى حد يمكن أن نعتبر هذه الثورة حداً فاصلا بين عهدين؟ وإلى أى مدى استطاعت أن تصحح الكثير من موازين الشعر سواء على المستوى النقدى أو المستوى الابداعى ؟ أو بعبارة أخرى إلى أى حد تمكنت هذه الثورة أن تقيم أول محاولة منهجية يتحقق فيها الاتساق المذهبي بين نظرية النقد ونظرية الشعر ؟

ولكى تواكب الإجابة على هذه الأسئلة ما نحن بصدده سوف نجعل إجابتنا عليها من خلال دراستنا لاثنين من شعراء الاسكندرية الذين كان لهم دور طليعى رائد فى هذه المرحلة الأولى من مراحل التطور وهم عبد الرحمن شكرى ، (١٨٨٦ — ١٩٥٨) وأحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢ — ١٩٥٥)

أما أولهم وهو عبد الرحمن شكرى فهو أحد الرواد الثلاثة الذين قادوا حركة العصيان ضد الأنماط اللغوية والبلاغية التى التصقت بشكل القصيدة ومضمونها، تلك الأنماط التى أزعجهم أن تظل فارضة نفسها على الشعراء حتى جعلتهم على اختلاف أزمانهم وعصورهم يسكنون عصراً واحداً فكانوا جميعاً ، سواء منهم من عاش فى القرن الأول أو الثانى أو الرابع عشر للهجرة ، ذوى أعمار واحدة ، يمشون عبر التاريخ وهم يتناوبون زياً واحداً لا يتغير ، ولا يهم قصر الزى أو طال ، ناسب العصر أو لم يناسبه (١) .

وعلى الرغم من أن اللغة تتحول تحولا حتمياً من لحظة إلى أخرى ، بحكم ما تفرضه عليها فيزيولوجيتها الخاصة، ونموها الكيماوى والعضوى ، وأنها تتحرك باستمرار دون أن نشعر بحركتها اليومية ، وعلى الرغم من أن الشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا حقق لنفسه عالمه اللغوى الخاص به ، وعلى الرغم من أن الشعراء لا اللغويين ، ولا النحويين ، ولا معلمى الانشاء هم الذين يحركون اللغة ويطورونها . على الرغم من ذلك كله فقد ظل الشعراء

---

(١) راجع قصتى مع الشعر لنزار قبانى .

يكررون ما قاله الأوائل دون محاولة واحدة لكسر جدار الخوف الذى يحول بينهم وبين الدخول فى مغامرة جديدة مع اللغة .

فكل إبداع مغامرة ، ومن لم يستطع أن يغامر مع اللغة فسوف يضع نفسه فى دائرة تضيق عليه يوماً بعد يوم حتى تخنقه (١) .

والغريب أن شعراءنا الأوائل كانوا يدركون هذا كله فالشاعر العظيم عندهم هو الذى يصدر من طبع وأصالة ، ألم يفطن المتنبى إلى مثل هذه الحقائق فى قوله :

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله ... إذ القول قبل القائلين مقول

ثم ألم يتحدث عن شعره فى زهو فيقول إنه قادر بما يحتوى عليه من إمكانات وطاقات خلاقة أن يفجر النور من الظلمة ، ويحول الجهل إلى علم.

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

ثم ألم يصف قصيدته بقوله :

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

كان لكل من هؤلاء لغته ، وإيقاعاته ، ولفتات ذهنه ، وقدراته الخاصة ، وكانت لديهم قيمهم التى تنبع من حياتهم وطبيعة مجتمعاتهم .

هؤلاء كيف نقلدهم ؟ ألم تأخذ لغتهم حرارتها وفروسيتها وتطرفها وإيقاعاتها من إيقاع الحياة ؟أليس ما فى هذه اللغة من توتروحرارة وعنفوان وحركة ، وصوت ولون هو أشبه ما يكون بوقع أقدام جيش بألوية تخترق الأرض تحت ضربات أقدامه ؟ كيف يقلد المتأخرون إذن سذاجة الأوائل ، وهم أعقد من ذنب الضب كما يقولون ؟ إن أى محاولة معاصرة لتقليد هذا الشعر هى محاولة محكوم عليها بالفشل لسبب بسيط جداً وهو أن أى شاعر ، معاصراً كان أوقديماً لايمكن إلا أن يكون ذاته ، ولن يستطيع أن يكون غير ذلك ، مهما بذل من جهد. وليس ، معنى هذا أن الشاعر المجدد قد تبرأ

---

(١) المرجع السابق

من كل ارتباطاته التاريخية والوراثية والثقافية، وصار شيئاً منفصلاً عن هذا كله . لم يقل أحد هذا ، فليس فى استطاعة انسان أن يخرج من جلده أوأن يتبرأ من المؤثرات النفسية والعضوية المنحدرة اليه من أصلاب أجداده ، فهى جزء مكمل لذاته، لا يمكن فصله إلا إذا فصل لون الزهرة عن رائحتها. فالتاريخ بكل امتداداته يعيش فى الحاضر، والشاعر لا يدين فى ابداعه للحظة الحضارية التى يصدر عنها ويمارس فيها إبداعه الفنى فحسب ، بل هو مدين مع ذلك وإلى حد كبير إلى زمان مركب يمد جذوره طولا وعرضاً فى أعماق التاريخ وخزائنه .

وعلى ذلك فإن الشاعر المجدد ، هو الذى تكون له عينان ذكيتان نافذتان يرى بهما الأشياء رؤية جديدة ويخلقها خلقاً آخر، وعندما يتيسر للفنان أن يقدم إحساسه بالحياة فى صورة فنية ، ولزم بالضرورة أن يكون قادراً على أن يحتفظ بهذه الصورة حية إلى الأبد حاملة معها طزاجة تعبيرها على الدوام فى كل زمان ومكان . فإن ما يخلق جديداً فى مجال الفن سوف يبقى جديداً إلى الأبد .

ومن هنا كان من الممكن للشاعر «الجديد» أن يكون قديماً إذا كان ينقل ولا يخلق ، وعلى العكس من ذلك من الممكن للشاعر القديم أن يكون «جديداً» إذا كان يخلق ولا ينقل .

هذا هو معنى التجديد والتقليد فى الشعر بل وفى الفن عامة ، ومن هنا كانت الدعوة إلى التجديد ليست هدماً للقديم ، كما قد يظن البعض ، وإنما هى دعوة إلى أن يكون فى كل عمل فنى دنيا مبتدعة وفريدة فى ذاتها لا يمكن مقارنتها بغيرها ، وهى عندما تصبح ملكاً للزمن وللتاريخ لن تصبح جديدة أو قديمة ، وإنما هى ببساطة ما هى أو ما تكون عليه فى ذاتها ولذاتها.

أما المعاصرة فهى شىء آخر. إنها إدراك من الشاعر للانسانية من خلال عصره أو تحت حجاب عصره ، وعندما نقول إن هذه القصيدة معاصرة إنما نعنى أن القصيدة استطاعت أن تحقق الإحساس بالعصر فى صورها

وكلماتها وموسيقاها بل وفى طرائق تعبيرها وصياغتها ، وفيما تتضمنه من فكر العصر وقيمه وما تطرحه من قضايا الانسان فى عصر ما . ومن ثم فالشاعر المعاصر هو ذلك الذى يستطيع أن يعبر عن أشد المشاعر الانسانية فاعلية فى زمنه ، وأكثرها، شيوعاً وذيوعاً بين معاصريه وأعمقها تأثيراً فى أفكار الناس وأذواقهم .

على أن قيمة الاحساس بالعصر لن تتحقق عن طريق شعر يعطيك أوصافاً للعصر من الخارج، فإن مثل هذه الأوصاف الخارجية لا تلبث أن تتجرد مفضوحة على التو تحت نظر أى خبير بالنسيج الشعرى . ومن هنا كان لابد للمعاصرة إذا شاء لها أن تكون فناً أن تحقق تلك الدنيا المبتدعة فى ذاتها، والتى لا يمكن مقارنتها بغيرها، والتى جعلناها أساساً للصورة الحية إلى الأبد والطازجة على الدوام .

ولقد يكون من المفيد أن نقف تلك الوقفة التى حاولنا فيها تحديد الخطوط المميزة لهذه المصطلحات النقدية التى شاع الخلط فى استخدامها فى مراحل متعاقبة من عصرنا الحديث، وخصوصاً فيما ينشب بين الشعراء والنقاد من معارك حول ما يسمونه بالتقليد والتجديد والمعاصرة . فما أشد حاجتنا لمثل هذا التجديد فى دراستنا للشعر ونقدنا ناله .

مذهب عبد الرحمن شكرى النقدى :

والذى يهمنا الآن هو أن ننظر فى الخطوط البارزة لمذهب شكرى فى الشعر وآرائه الفنية فى التجديد والاضافات الحقيقية التى استطاع أن يقدمها على المستويين النظرى والتطبيقى .

ولعل أبرز ما أثاره شكرى من قضايا تتعلق بتحرير الشعر من قيود الجمود والتقليد قضية الوحدة العضوية للقصيدة، وهى قضية لها خطورتها وأهميتها، لا لأنها أحد المعاول التى استخدمها بحق وبغير حق بعض نقاد العصر للاطاحة بقيمة القصيدة العربية القديمة ؛ ولكن لأنها مسألة تتعلق بالدرجة الأولى بعملية الإبداع الفنى ، ولأنها ثانياً أحد الوسائل الهامة فى تجديد نظرتنا للشعر، وتغيير أحكامنا عليه وتعديل موقفنا إزاءه .

وإذا كان موضوع الوحدة بهذه الخطورة، فمن الممكن إذا فهمت على حقيقتها، أن تكون وسيلة بناءة لأهدامه ، فتعيننا على إحياء القديم وإثرائه وتغيير أحكامنا عليه بحيث يصبح القديم تجربة حية فى نفس الناقد .

يقول شكرى فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه :

«إن القراء من الجمهور إذا قرءوا قصيدة جعلوا يلتقطون ما يناسب أذواقهم، ثم ينبذون ما بقى من غير أن يبحثوا عن السبب الذى جعل الشاعر ينظم فى قصيدته هذه المعانى .. ويحكمون على قصيدته بأبيات منها تستهويهم ، إما بحق وإما بباطل، لأنهم يعدون كل بيت وحده تامة ، وهذا خطأ. فإن قيمة البيت فى الصلة التى بين معناه وموضوع القصيدة ، إذ البيت جزء مكمل ، ولا يجوز أن يكون شاذاً خارجاً عن مكانه من القصيدة بعيداً عن موضوعها . ومن أجل ذلك لا يصح أن نحكم على البيت بالنظرة الأولى العجلى الطائشة . بل بالنظرة المتأملة الفنية .

فينبغى أن ننظر فى القصيدة من حيث هى شىء فرد كامل من حيث هى أبيات مستقلة .. وكما ينبغى للنقاش أن يميز بين مقادير امتزاج النور والظلام فى نقشه كذلك ينبغى للشاعر أن يميز بين جوانب موضوع القصيدة وما يستلزمه كل جانب من الخيال والتفكير (١)»

هذه هى الدعوة الأولى التى ينبغى أن تسبق جميع الدعوات للفصل بين التقليد والحرية، ذلك لأنها ترتبط كما قلنا بجوهر الشعر وحقيقته ، ولأنها تقضى على كثير من الأعشاب الضارة المنتشرة فى حقل النقد الأدبى ، والتى شاعت فى ساحة الفن عصوراً طويلة ، ولم تستطع الثورات التى قامت فى وجهها أن تشيد مذهباً أو تقتلع الخطأ من جذوره ، إما لقوة التقاليد أو لكسل النقاد عن شن حملاتهم الفعالة فى ملاحقة الخطأ إلى مساربه ودوربه ثم القضاء عليه .

فإذا كنا نعتبر العمل الفنى تجسيداً للحظة شعورية أو لموقف نفسى

(١) مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكرى

أو لرؤية الفنان للحياة والوجود ، وإذا كنا نعتبره يصدر عن تجربة هي في جوهرها عاطفية أمكننا أن نتصور أن مثل هذه التجربة لا يمكن تحقيقها أو العثور عليها إلا من خلال هذا الإحساس الواحد والمنتشر في أجزاء العمل الفني ، والذى ينساب في كيانه كما تنساب العصارة الخضراء من الجذر إلى الساق إلى الأغصان إلى الأوراق فتلون الشجرة كلها بلون واحد .

ومن هنا يصبح للقصيدة كيان عضوى واحد يتكون من مجموعة من الخلايا الحية "كل خلية تحمل في داخلها من العناصر ما تحمله الخلية الأخرى فتنمو القصيدة من داخلها نمواً متدرجاً حتى تصل إلى نقطة تجمع أخيرة أو ما يسمى بالأثر الكلى الموحد .

وإذن فالعاطفة هي التي تهب القصيدة وحدتها وتماسكها ، وهي التي تحقق الانصهار بين أجزاء العمل الفني" الواحد فلا يبقى أى عنصر محتفظاً بالطبيعة التي كانت له قبل أن يتحول إلى عمل فني .

خذ مثلا عنصر الفكرة أو الصورة أو النغم أو الاحساس، إن كل عنصر من هذه العناصر لن يظل على طبيعته الأصلية التي كانت له قبل دخوله في العمل الفني ، بل سوف يتخلى بالضرورة عن شيء من ذاته ويكتسب شيئاً من ذوات الأجزاء الأخرى ، وبالتالي تصبح الفكرة المستقلة عن الشعور، أو الصورة المنفصلة عن النغم ، شيئاً لاوجود له في داخل القصيدة .

ومعنى هذا الشكل العضوى «أن كل سطر في القصيدة يلد السطر التالي له ، وأن كل كلمة تنجب الكلمة التي تليها» (١) لذلك كان حذف بيت في القصيدة معناه تعطيل خلية حية عن وظيفتها .

على أن أهم ما في هذا الفهم الجديد للقصيدة هو ما سوف يترتب عليه من نتائج في مجال الحكم على الشعر وتقويمه :

---

(١) كولردج ص ٩٣

فمثل هذه النظرة إلى الشعر سوف تقضى بطبيعة الحال على التمييزات التى ملأت ساحة الفن والتى أشهرها التميز بين المضمون والصورة، والتميز بين التجربة وترجمتها المادية ، ثم التميز بين الصورة الشعرية والسياق التى وردت فيه ،وذلك بعد أن أصبح اعتماد كل جزء من الأجزاء المكونة للعمل الفنى اعتماداً كلياً على الأجزاء الأخرى هو معيار جودة القصيدة .

وفى مجال النقد التطبيقى سوف لا تفيدنا القراءة التقريرية الذهنية للقصيدة فى فهمها أو تحليلها، وبالتالى فى إعطاء حكم فيها،فلم تعد القصيدة ما تعنيه ، بل صارت ما «تكونه» أو تحققه .ومعنى ذلك أنه لايكفينا فى فهمها والكشف عن قيمتها الحقيقية الوقوف عند حدود المعنى الظاهرى،بل لابد من البحث عن الأبعاد الأخرى التى تكمن وراء صورها وكلماتها وأنغامها والسعى وراء القوى الإيحائية فيها، وتتبع الخيط العاطفى المتصل والذى يربط بين أجزاء العمل كله والذى يضفيه الشاعر على الكل .. كل ذلك من خلال فهم يستمد أحكامه من العلاقات التى أمامه، إذ كل قصيدة أثر فنى مستقل تستمد أحكامها من ذاتها ، ولا تتحكم فيها الا قوانينها الذاتية .

ومما أثاره شكرى من قضايا فى هذا المجال قضية التصوير المجازى فى الشعر ،وهو موضوع متصل اتصالا وثيقاً بموضوع الوحدة، بل هو نابع منها فقد تحدث عن قيمة ضروب التشبيه والاستعارة والمجاز فى الشعر وعن وظيفتها فيقول :

«قد تكون القصيدة ملأى بالتشبيهات، وهى بالرغم من ذلك تدل على ضآلة خيال الشاعر ، وقد تكون خالية من التشبيهات وهى تدل على عظم خياله وقيمة التشبيهات فى إثارة الذكرى أو الأمل أو عاطفة أخرى من عواطف النفس أو فى اظهار حقيقة ، ولا يراد التشبيه لنفسه ، كما أن الوصف الذى استخدم التشبيه من أجله لا يطلب للذاته وإنما يطلب لعلاقة الشىء الموصوف بالنفس البشرية وعقل الانسان .. ويقول إن أجل الشعر هو ما خلا من التشبيهات البعيدة والمغالطات المنطقية » :

وهنا يلتقى شكرى مع آخر ما انتهى اليه النقد المعاصر فى ثلاث حقائق هامة ، أولها أن الصور المجازية فى الشعر لا تقصد لذاتها، وإلا كانت مجرد شكل خارجى، فالتشبيه أو الاستعارة أو أى ضرب من ضروب المجاز ليس الا نوعا من التجسيد الحى للتجربة يعين فى التعبير عن حالات الشاعر النفسية، وذلك بما ينطوى عليه من إحساس هو جزء أصيل من معنى القصيدة الكلى. والحقيقة الثانية أنه لا تمييز بين اللغة العارية واللغة المزخرفة فى الشعر. فليس لإحداهما ميزة على الأخرى، وليس حتما على الشاعر لكى يجيد أن يمتلىء شعره بالتشبيهات أو الصور البلاغية ، فالشاعر يصل إلى أعلى مستوى الجودة لمجرد التعبير تعبيراً صادقاً وموحياً عن موقف نفسى دون أن يكون فى شعره صورة مجازية واحدة ، والشواهد على ذلك كثيرة ، خذ بيت أوس ابن حجر المشهور فى الرثاء :

أيتها النفس أجملى جزعاً   فإن ما تحذرين قد وقعا

أو بيتى ذى الرمة اللذين يصوران لحظة من لحظات اليأس والشعور بالفقد، حين قطع الشاعر رحلته الطويلة إلى بيت حبيبته فلم يجد أحداً ، فجلس فى صحن الدار شارد اللب لا يجد ما يعزيه الا ما يخطه من خطوط فى الرمال، يخطها ثم يمحوها ، أو ما يجمعه من حصى ثم يلقيه :

عشية مالى حيلة غير أننى   بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده   بكفى ، والغربان فى الدار وقع

ثلاثة عناصر منعزلة فى الطبيعة وحد بينها الشاعر ، وأضفى علينا من خلالها هذا الاحساس بالفقد ، هى لقط الحصى والخط فى الترب ، ثم الغربان الواقعة . ليس فى البيتين تشبيه أو استعارة ومع ذلك فهما معاً يجسدان صورة لموقف الشاعر النفسى فى أصدق عبارة وأبسطها .

والحقيقة الثالثة :

ما اشتمل عليه نص شكرى من حملة على التشبيهات البعيدة والمغالطات المنطقية . وهنا أيضاً يلمس شكرى نقطة هامة فى التصوير الفنى فى الشعر

فثمة فرق كبير بين تشبيه يقصد به مجرد إيجاد العلاقة الجزئية والشكلية أو المنطقية بين طرفى التشبيه، وبين تشبيه هو جزء من نسيج التجربة الحى . من أجل ذلك فرق النقاد بين ما يسمى بالصور التقريرية، والصور الإيحائية فى الشعر. فالصورة التقريرية التى لا تحقق الا المهارة أو التطابق والتناظر بين المشبه والمشبه به هى صورة ثابتة محدودة غير نامية ، كما أن العالم الخارجى للفنان منفصل فيها عن العالم الداخلى ، ففرق بين بيت ابن المعتز فى وصف الهلال

أنظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وبين قول أبى العلاء فى وصف نجوم الليل .

كأن نجوم الليل زرق أسنة بها كل من فوق التراب طعين

فالصورة فى بيت ابن المعتز صورة ثابتة فهى مجرد تسجيل لمدركات الحس خارج نطاق الشاعر، أما الصورة فى بيت أبى العلاء صورة نامية غير مقصودة لذاتها، استطاع الشاعر فيها أن يخلع على الظاهرة الطبيعية وهى النجوم، رؤيته للحياة ، حين جعل نجوم الليل سهاماً مصوبة إلى صدور البشرية منذ عهد آدم إلى الآن، وأن الناس فوق هذا الكوكب العجوز ليسوا الا ضحايا أبرياء، تصوب إلى صدورهم السهام ويساقون إلى مصيرهم المحتوم و هم عاجزون.

هذه بعض لمحات من مذهب شكرى الفنى فى الشعر وأرائه الفنية فيه ، وهى من الأمثلة اليسيرة، ومع ذلك فهى تدل على خطورة ما طرحه هذا الناقد الرائد من فكر، فى مرحلة لم تكن أذهان الناس قادرة على تتبع مثل هذه الآراء وفهمها ، وبالتالى قبولها .

فلسنا نعتقد أن ما يقوله شكرى عن الوحدة قد فهم فى دقة هذا الفهم الذى انتهى إليه النقد الآن . فلم تكن الدراسات الوافية قد طرحت على الناس ليدركوا معنى الوحدة على هذا النحو ، كل ما فهموه منها أنها وحدة لمعنى أو ترابط أجزاء القصيدة ، أو قدرة الشاعر على الخروج من ماوضوع إلى آخر ،أو تحقيق التسلسل المنطقى بين الأبيات . وهذا كله شيء ومعنى الوحدة العضوية كما نفهمه شيء آخر . فقد ظل النقد يخلط

بين ما يسمى بالوحدة المنطقية ، ووحدة الموضوع ،وبين مانسميه اليوم بالوحدةالعضوية أو الفنية زمناً طويلا،حتى أتيح لها من الدراسات والشروح ما أبان عن حقيقتها وقيمتها ، وفرق بين ما يسمى بالوحدة المنطقية ووحدة الموضوع .

ومع ذلك ، فإن ما فطن اليه شكرى من الحقائق النقدية قد كان تحولا من غير شك فى مسار حركة النقد الأدبى ، وخطوة كبيرة نحو تحرره من أساليبه الجامدة .

شكرى والإبداع الفنى :

بقى أن نجيب على الجانب الثانى من السؤال الذى طرحناه آنفاً وهو الجانب الخاص بما أضافه شكرى من إضافات على مستوى الإبداع الفنى ، والحقيقة أن شكرى ظل محافظاً على سماته الشعرية برغم الفترة الزمنية الطويلة التى نظم فيها الشعر ، وبرغم ما طرأ على هذه الفترة من تغيرات سريعة ، وعلى الأخص فى السنوات العشر الأخيرة من حياته التى ظهر فيها تحول كبير فى مسار الشعر العربى الحديث على يد جيل من الشعراء أثاروا العديد من القضايا والمشاكل لم يطرحها أى من الأجيال السابقة .

ظل شكرى مع ذلك محافظاً فى شعره على سمات مرحلة الانتقال الذى كان أحد أقطابها ، والتى من أبرز خصائصها ظاهرة التوتر بين الشكل. فعلى الرغم من التطور الذى أحرزته القصيدة على يد شعرائنا الثلاثة شكرى والمازنى والعقاد، فإن هذا التطور قد انصب على مضمون القصيدة أكثر من شكلها وأسلوب صياغتها . قد يذهب البعض إلى أن هؤلاء قد كشفوا عن وجوههم الطبيعية ولم يستعيروا وجوه الآخرين ،وقد يقال إنهم كانوا مدفوعين على حد قول شكرى بذلك الشره العقلى الذى يجعل الشاعر راغباً فى أن يفكر كل فكر وأن يحس كل إحساس . وقد نرى فى بعض شعر شكرى هذا التحرر من التزام القافية الواحدة ، والتخفيف من صرامة الوزن ومحاولة تطويعه للتجربة الجديدة ، على نحو ما فعل فى بعض شعره المرسل

الذى حافظ فيه على وحدة البيت العروضية مع التحرر من القافية .. قد يقال هذا كله ونصدقه ، ولكن الشىء الذى قد يقال ولا نصدقه هو أن يكون أحد هؤلاء، وأعنى شكرى والعقاد والمازنى، قد طرح للتداول لغة جديدة تتناسب مع مضامينهم الجديدة ، وتنهى حالة التناقص والتوتر بين أصواتهم وما فى ضمائرهم. فقد ظلت لغتهم وأساليب صياغتهم تستقبل الناس بالزى المحافظ على الياقة المنشاة ورباط الرقبة الأسود . وهذا ما عنيته بظاهرة التوتر بين الشكل والمضمون التى كانت ثمة غالبة على شعر مدرسة الديوان، وإليك شاهداً على ما أقول بعض أبيات من قصيدة تعتبر من أرق ما نظم شكرى عنوانها «خميلة الحب» :

تمهل ،رعاك الله ،أقضى لبانتى ... وأتل على تلك الرياض تحيتى
فإنى تعلمت الهوى فى ظلالها ... وفيها رأيت الحسن أول رؤية
تمهل خليلى فى رباها ، فعندها ... نظرت فلم أملك على الحب نظرتى
نظرت إلى زهرين ، زهر نباتها، ... وزهرة حسن ناضر،أى زهرة
هنا، قد عرفت العيش حماً ضياؤه ... وقد كان قد ما فى سواد الدجنة
هنا، نالنى سحر الهوى فى نسيمها ... هنا ، كان بدء الحب قد ماونشوتى
هنا، مهد آمالى ،هنا حلم يقظتى ، ... هنا، سكرت نفسى غراماً وجنت

هذه الأبيات على رغم ما قد يبدو فيها من انطلاقة ، ورشاقة فى اللفظ — قلما تراها فى شعر شكرى — ما تزال غير قادرة على تمزيق الغشاء الذى ألقته العادة حول مفردات الشعر القديم وأفكاره وعواطفه، ونسجته حول نفسها مع تقادم الزمن . ومن الغريب أنك قد تجد عند شوقى أو اسماعيل صبرى من المعانى التقليدية ما صيغ صياغة شاعرية أرق من صياغة هذا الرائد المجدد .

والسبب فى تقديرى يرجع إلى أن شكرى برغم ميله إلى الانطوائية والاستبطان الذاتى، والتأمل الطويل فى داخل النفس الذى كان ثمة من سمات شخصيته ، فقد كان الرجل يخضع نفسه لمراقبة العقل الدائمة . فإن توقد الاحساس كان يقابله من الناحية الأخرى سيطرة عقلية أضفت على شعره شيئاً من الجفاف.

هذا بالاضافة إلى أن المرحلة لم تكن قد تخلصت تماماً من الموروث الشعرى وسلطانه القاهر .

أحمد زكى أبو شادى :

فإذا انتقلنا بعدذلك إلى أحمد زكى أبى شادى ، وجدنا أنفسنا أمام شاعر لم يتح له من أسباب الشهرة ما أتيح لشكرى وزميليه شعراء الديوان ، على الرغم من الدور الكبير الذى قام به فى تلك المرحلة ، وعلى الرغم من أن إضافاته فى مجال الإبداع الفنى كانت أغنى من إضافات شعراء الديوان ، مع غزارة فى الإنتاج وتعدد فى الشعر واتجاهاته .

ولعل السبب فى علو صوت شعراء الديوان عن غيرهم من رواد جيلهم الآخرين من أمثال خليل مطران ، وأحمد زكى أبى شادى حملتهم النقدية الصارمة التى شنوها فى غير هوادة على شوقى خاصة ، والشعر التقليدى عامة. كانت مقالاتهم أقوى بكثير من أشعارهم ، وكان تأثيرها فى حركة التطور أعمق من تأثير شعرهم . ولا ينبغى أن ننسى أن مهمتهم كانت تمرداً ورفضاً وتخطيطاً ، أما تغيير الصورة فيقع عبء تحقيقه وتنفيذه على من جاءوا بعدهم.

من أجل ذلك لم يرتفع صوت أحمد زكى أبى شادى فى ذلك الوقت كما ارتفع صوت زملائه شعراء الديوان ، على الرغم من الدور القيادى العظيم الذى قام به ، وما تحمله فى سبيله من تضحيات ، ويكفى أنه تزعم ريادة حركة شعرية وأدبية واسعة بتكوينه جمعية أبولو ، وإصدار مجلة أبولو التى تعتبر أول مجلة أدبية رائدة فى الشرق العربى جمعت من الطاقات والتف حولها من الأدباء والكتاب والشعراء ، مالم يتوافر لأى مجلة أدبية أخرى ، كما كان لها فضل رعاية وتشجيع كثير من المواهب الأدبية المتفتحة فى ذلك الوقت . ولا تستطيع أن تحصى العدد الضخم من الشعراء الذين أفسحت لهم هذه المجلة صدرها ، ولو أتيح لهذه المجلة أن تعيش عمراً أطول ، لكان للأدب والشعر فى هذه الفترة شأن آخر ، فقد صدر العدد الأول منها فى سبتمبر ١٩٣٢ واختير لرئاستها الشاعر أحمد شوقى ، ثم تولاها من بعده خليل مطران أستاذ أبى شادى

الأول ، ومع ذلك فقد كان أبو شادى هو محرك هذه المجلة ورائدها ، وأخذت المجلة تصدر حتى عام ١٩٣٥، ثم توقفت لأسباب أهمها العجز المادى الذى حال دون استمرار صدورها . ومع ذلك فقد ظل أبوشادى يعمل بطاقة فريدة فى نوعها ، كان طول حياته معنياً بالشعر والشعراء ، والمجتمع المصرى، وحبه للجمال، وهيامه بالطبيعة ، فوق عنايته الخاصة بمثله الأخلاقية التى عانى الكثير من جرائها إلى آخر لحظة فى حياته فهو الذى يقول :

لم يبق الا أن يكسفن بعضنا بعضاً وأن تتسابق الأموات
ماذا يرجى بعد أن طعن الهوى روح الأخاء، وساءت الشهوات

على أن تبرمه، وضيقه بالحياة ومعوقاتها ، كان ممزوجاً دائماً ابالأمل وتوكيد القيم الإيجابية فى الحياة فيقول :

شربت فلسفتى من نبع آلامى وقبلها عب منه قلبى الدامى
وما برحت أغنى زاخراً أبداً كأن آلام قلبى لسن آلامى
كأن دمعى أناشيد قد احتبست حتى تراق على قدسى أنغامى

ويؤكد روح التصميم والتفاؤل هذه فى قصيدة أخرى حيث يقول :

فعمرى لا يقاس بعمر جسمى ونفسى لا تذل ولو أذل
وهذا الجسم ليس له فناء فكيف الروح وهو هو الأجل
وأقسم إننى أحيا كأنى أعيش على الدوام ولا أضل
ولى ملك الطبيعة وهى حولى كأم كم تعين وكم تدل
تعاف لى الفناء وكيف ترضى فنائى وهى لى أم وخل

وقد كان يضيق ويألم ويسخط ويثور على مايراه من اعوجاج، ولكن حبه للحياة وللناس كان أقوى من هذا كله :

ما شكاتى من الأنام عداء، أنا منهم فى عدائى لنفسى
هو عتب المحب ، مهما قسا العتب ، فما يأسى الأليم بيأسى
ليس سخطى سوى شوق وجدانى لإصلاحهم ، وإيثار حسى

كم سفيه ينالنى وأنا الحانى على روحى بروحى وأنسى
وعتـابى له يلاحقه الصفح ، وياربما أعـاقب نفسى

ولم يكن أبو شادى صاحب مذهب محدد فى الشعر ، بل كان موسوعة اتسعت لكافة المذاهب والفنون الشعرية الحديثة . (١)

ولعل من أهم ما يذكر لأبى شادى من أضافات حقيقية فى مجال الدعوة إلى التجديد ، والتى ربما كانت خافية على كثيرين منا اهتمامه بالمسرح ومتابعته له ، وإلمامه بتطور فنونه عند الغربيين مما شجعه على أن يخوض تجربة رائدة فى محاولة خلق مسرحيات شعرية غنائية ، على نمط فن الأوبرا الذى رأى أبو شادى أنه من الممكن أن يعد فناً أدبياً ، فكانت محاولة لخلق هذا الفن فى مصر ، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى بدأت تظهر فيه مسرحيات شوقى الشعرية ، فكانت هذه سمة أخرى من سمات طموحه وطاقته الإبداعية التى لم تعرف التوقف لحظة .

ألف عدداً من هذه الأوبريتات إذا صح تسميتها كذلك ، واختار موضوعاتها من التاريخ القديم والحديث ،ومن عالم الأساطير والرموز . منها أوبرا «احسان» «وأردشير» و«والآلهة» «والزباء» .

ولم يتح لهذا الفن الجديد الذى أقبل عليه أبو شادى جاداً ومخلصاً أن يستمر، فلم يلبث أن انقطع عنه بعد فترة ، وعاد إلى شعره الغنائى مرة أخرى ،ومع ذلك فقد كانت محاولة لإرساء فن الأوبرا المصرية التى كنا نود أن تحظى بتشجيع أكبر ، وأن يتعهد الفكرة من بعده شعراء أخرون ، غير أن الوقت الذى ظهرت فيه هذه الأعمال لم يكن يسمح بتوفير كافة الإمكانات لنجاحه ، فقد كان بحاجة إلى طاقات غنية فى فنون مختلفة تجمع بين التمثيل والتلحين والغناء والموسيقى .

---

(١) الشعر المصرى بعد شوقى ص ٩٠

ولم تتوقف تجارب أبى شادى الطموحة عند هذا الحد ، فقد أراد أن يقتحم بشعره مجال القصة الاجتماعية الذى سبقه إلى شىء منها أستاذه خليل مطران فى قصيدة «الجنين الشهيد» ، والتى كانت تعتمد على شىء من العناصر الدرامية . لم يقنع أبو شادى بما قدمه أستاذه فى هذا المجال ، ويبدو أن طواعية الشعر فى يديه وسهولة نظمه عنده قد شجعته على أن يمارس هذا الاتجاه الجديد ، فنشر فى كتابين منفردين قصيدته «نكبة نافارين» ومفخرة رشيد فى عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٥ ، ثم أعقبهما بقصتين اجتماعيتين كبيرتين كتبهما شعراً ونشرهما فى عام ١٩٢٦ ، إحداهما قصة عبده بك ، والأخرى قصة «مها»

وعلى الرغم من هذه المحاولات الجريئة فى ميدانين جديدين على الشعر العربى ، فإن مجال أبى شادى الحقيقى لم يكن فى القصة والمسرح بقدر ما كان فى شعره الغنائى الذى اتسم بالتنوع والشمول والغزارة والرغبة الجامحة للتطور والتجديد وخوض كل سبيل لذلك ، بل لقد خطا أبعد من زملائه فى الخروج على الشعر العمودى ، والتحرر من الشكل المألوف للقصيدة العربية ، فتراه ينظم فى مهجره شعراً يعتمد على نظام التفعيلة الواحدة على نحو ما فعل فى قصيدته «الثلج فى الربيع» . ولعله كان يجارى بطموحه المعروف شعراء الغرب فى التحرر من أوزانهم الكلاسيكية ، يقول داعياً للسلام

كلهو الربيع
ينمق للأرض عمراً جديداً
وكم يستعين
ويضمن حلم العفاة
فلا لوعة ترهق
ولا يائس يطرق
كأنا سبحنا بنور القمر
وفيه اللجين الحيى
طهور «نبيل» سخى

فيغمر أرواحنا
ويبدع أفراحنا
ويقتل أتراحنا
فيخلق دنيا لنا
ترف بكل الغنى
وأثمنه نورها

وكان أبو شادى يؤمن بإطلاق النفس على سجيتها ، وكان يصف شعره بأنه مثل الأتى، ومثل الجدول الجارى . ولعل فى هذين الوصفين من الصدق ما يجعلهما أساساً لتفسيرنا لما كان يرتفع إليه من جودة ، وما كان يهبط اليه أحياناً أخرى من القصور والنثرية، فقد أعانه إطلاق نفسه على سجيتها على وفرة الإنتاج من ناحية ، وعلى اكتساب لغة نشيطة متحركة مشتبكة بأعصابه وتفاصيل حياته، ولكن إطلاق نفسه على سجيتها كان كثيراً ما يحاصره الفكر فيعوق لغته عن طلاقتها، فتنحدر لغته إلى التقريرية النثرية، فقد كان بحاجة فى بعض شعره إلى أن يكافح اللغة بغية إخفاء الفكر .

وبعد ، فهذه بعض ثمار الحركة الأدبية فى الاسكندرية فى مرحلة الانتقال التى بدأت من أواخر القرن التاسع عشر إلى حوالى منتصف القرن العشرين ، حاولنا أن نظهر الجوانب الايجابية فيها ، دون إغفال لبعض الجوانب السلبية .

كانت المؤثرات التى عايشها مفكرو وأدباء مرحلة الانتقال قد بهرت أنفاسهم ، وجعلتهم يتطلعون إلى ثورة جديدة فى شتى مناحى الحياة . ولقد استطاعت الصرخات التى أطلقتها صدور شعرائها وكتابها أن تهز من غير شك أوتار العصر ، وكانت فى بعض جوانبها أشبه بآلام الوضع المبكرة التى تسبق مطلع الوليد الجديد . ولكنها كانت من جوانب أخرى رؤية حديثة ، أشبه بالانقلاب ضد مكتسبات وأوضاع كان لابد لها أن تتغير .

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة العبور الثانية التى كان لمرحلة الانتقال الفضل فى بلوغها ، فمن تحت جناح التمرد يمكن أن تولد الثورة .

وإذا كانت مرحلة الانتقال لم تستطع أن تحل أزمة الصراع بين حرية الفرد وحرية الجماعة ، فإن المرحلة التى تلتها قد تهيأت لها من وسائل النضال ما تحاول به تحقيق حرية الفرد والجماعة معاً عن طريق وعيهما بواقعهما وعياً علمياً ومباشراً مما اكسب مرحلة التحول طابعاً مختلفاً ، وأصبح للفن وللشعر دور آخر فى خلق الصلة بين الانسان وواقعه من ناحية ، وفى التعبير عن طبيعة المرحلة الحضارية التى نعيش فيها بكل أبعادها الانسانية والاجتماعية من ناحية أخرى .

نشأة الصحافة المصرية

فى مدينة الاسكندرية

قام باعداد هذا البحث

الاستاذ شارل شميل

رئيس تحرير جريدة « البصير » سابقا

واشترك فى تنسيقه وتحريره

الاستاذ عبد الحكيم الجهينى

كبير محرريها

فى الصحافة وفى غيرها من الفنون والمهن الرفيعة ، قلما يفضل من جهد المشتغلين بها والمستغرقين فيها مايصرفونه فى تدوين تاريخها وتسجيل تطوراتها ، وتلك لعمرى «قسمة» أكثر منها «تقسيما» . «القسمة» حظ و نصيب وقدر تدفع بأرباب الفن الصحفى وغيره من الفنون والمهن الرفيعة إلى مايشبه التعبد لها والاستغراق فيها . أما «التقسيم» أو ما يعبر عنه فى علوم الاقتصاد والاجتماع الحديثة «بتقسيم العمل» فهو تخطيط لم يتعمده أرباب الفنون عندما تركوا مهمة التاريخ لها والتعمق فى فلسفتها وتطوراتها للقادرين عليه والمتفرغين له من جهابذة التاريخ الفنى والنقد الأدبى يباشرونه وفقا لمناهجهم واتجاهاتهم وفلسفاتهم المختلفة ، دون أن يكون «تقسيم العمل» بمعناه السابق فى اعتبارهم .

وإذا كان ذلك ينطبق على سائر الفنون فلعله فى الصحافة أكثر انطباقاً ، لأنها بماتستوجبه من الاستجابة الوحيية للحوادث والتلبية السريعة للأحداث ، بلا وقف ولا وناء لا تمنح أصحابها من براح الزمن ولا من سعة الوقت ، فوق ما يتطلبه التمرس بالمهنة والتفنن فى أداء الرسالة .

ومن ثم ، فان ما كتبه عن الصحافة فرسانها المعلمون فى عصرها الذهبى ، عصر المقالة والرنين الأدبى ، من أمثال ويكهام استيد ونورمان آنجل فى بريطانيا ، واستيفان لوزان فى فرنسا ، لم يكن تاريخاً للصحافة بقدر ما كان تنويهاً برسالتها العظيمة وطبيعتها من حيث أنها عهدة اجتماعية تدفع أربابها إلى العمل بلا توقف ولا خشية الا من ضمير الجماعة الذى تعبر عنه أحسن تعبير ، وقد بلغ من بهاء الصورة التى قدموها للصحافة أن توجوها ملكة فى عصر انحسار الملكيات وتساقط التيجان ، وأن شجبوا ، تنزيهاً لها عن كل مظان الاغراء ، أن تقدم صحيفة ، أى صحيفة ، إلى قرائها خدمات أو امتيازات مهما يكن مظهرها الانسانى أو الاجتماعى ، خشية أن يكون ذلك على حساب المطلوب منها أساساً ، بل وفقط الا ما هو صدق الخبر ونزاهة التوجيه .

ولعل هذه الخصيصة التى تقعد بمعظم المهنيين عن التغطية التاريخية لمهنتهم وفنونهم ، تقوم عذراً مقبولا لدى القراء أو المستمعين عما سوف يلمسونه فى هذا الحديث من تقصير أو تجاوز لبعض النواحى التفصيلية ، فجل ما ابتغيناه منه هو أن يكون المامة موضوعية بحركة الأعلام ، وتحية وفاء لحملة الأقلام فى ثغرنا هذا البسام .

نشأة الصحافة

وعلى الرغم من قدم هذا الثغر ، وان منشئه صنع بفتوحه العجائبية خلال عقد واحد من السنين ، أضخم الأخبار وأروع التعليقات ، وأنه كان يصحب معه بعض رجال الدعاية والاتصالات ، فان نشأة الصحافة بمعناها الفلسفى العام كانت أقدم ، ذلك أن عمليات الرصد للحوادث والأوامر والموارد كانت معروفة لدى جميع أمم الحضارة ، وقد تواترت بها البرديات المصرية ، والكتابات والنقول التاريخية ، يستوى فى ذلك الصينيون أول من اخترعوا الورق ، وقدماء المصريين الذين برعوا فى استخدام البردى ، واليونان والفرس وغيرهم .

وفى أمم الفطرة والبداوة كان العداءون من رجال القبائل وقارعو الطبول فى الغابات ، ولعلهم لا يزالون حتى الآن ، يقومون بمهام التحذير من الاعداء آدميين كانوا أو وحوشاً أو كوارث طبيعية .

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار «الكاتب المصرى» الذى يعد تمثاله احدى روائع الفن الفرعونى ، عميد الصحافة القديمة بمعناها البدائى ، بل ينازعه هذه الأقدمية أحد وزراء فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، «بكماز» اثبتت برديات متحف اللوفر انه كان معهوداً اليه رسمياً باصدار نشره الدولة ولعله كان من كبار الكهنة .

أما الصحافة بمعناها الحديث ، من حيث هى أوراق سريعة الحركة والتداول ، تحمل الأنباء العمومية والتوجيهات المفيدة ، فقد كانت نبتاً شرعياً لعصر النهضة فعندما استيقظت أوربا من ليل العصور الوسطى وراحت تأخذ بزمام الحضارة فى يدها ، لم ينتظر أبناؤها ظهور الطباعة كوسيلة للنشر فى مجالات الاتصال فعرفت بعض حواضرها حوالى القرن الخامس عشر أنواعاً من الأوراق الخبرية مكتوبة بخط اليد ، يشكل تكثيرها وتداولها بعض المتواليات ، وتجد لها قراء غير قليلين لأغراض التعارف المالى والتجارى والاجتماعى بين باريس وفرانكفورت وأنتويرب ولندن وجنوى وغيرها من الثغور الايطالية ذوات النشاط التجارى مع بلدان البحر الأبيض .

فى عهد الطباعة

ولكن عندما اهتدى الألمان إلى الطباعة باختراع «جوتمبرج» وذلل الفرنسيون صعوبات الصناعة الورقية التى كانت تحصر النشاط الكتابى فى دائرة ضيقة ، أخذت الصحافة الحديثة تجد سبيلها إلى الظهور والانتشار ، وراحت تتزود على مر الأيام بوفرة من ثمرات التقدم التكنولوجى فى ميادين الطباعة والأجهزة الفنية المساعدة وأساليب الادارة الحديثة وسهولة المواصلات وأدوات الاتصال الداخلية والخارجية ، وتسنى لها بهذه الأزواد الوفرة

أن تكون من أعظم قوى التقدم السياسى والاجتماعى وأن تجعل من الرأى العام قوة جماهيرية لها وزنها الكبير وتأثيرها العظيم فى صنع التاريخ الحديث، وصدق شوقى عندما قال :

لكل زمان مضى آية ،وآية هذا الزمان الصحف

وبينما كانت الصحافة فى أمم الحضارة الغربية تتقدم بخطى حثيثة نحو تحقيق رسالتها فى خدمة الأعلام والتوعية ، على تفاوت بين اتجاهاتها وتأثيرها فى الأحوال العامة وتأثرها بها ، كانت منطقتنا فى «أدنى المشرق» لا تجد الوسيلة لمجاراة هذا التقدم لأن أولى أدواته ، وهى «المطبعة» لم تعبر البحر الأبيض الا فى وقت متأخر نسبياً ولم تصل إلى بلادنا الا محمولة على بعض الموجات العاتية للمد الأوربى .

وهكذا قضت الظروف بأن تكون الصحف الأولى فى أرض النيل ، العريقة ببردياتها ونواشرها فى العالم القديم ، هى تلك الدوريات التى أصدرها بونابرت بالفرنسية تحت اسمى La Décade Egyptienne Le Courrier d'Egypte, وبالعربية تحت اسم «التنبيه» التى اقترنت باسم الشيخ اسماعيل الخشاب ، ولم تكد تصدر حتى توارت بالحجاب .

وكان يقوم على شئون النشر والطباعة لأغراض الحملة الفرنسية ، المستشرق «مارسيل» (Marcel) الذى اشترك بقدر ملحوظ فى انشاء المدونة الكبرى «وصف مصر». وقد استعان بمجموعة من المحررين منهم سوريان كانا يقيمان فى روما .وجلب للمطبعة التى اهتم بونابرت بانشائها فى بولاق (مكان المطبعة الأميرية الحالية) .أمهات الحروف الفرنسية والعربية من العاصمة الايطالية . وهنا نلاحظ أن روما كان لها سبق ملحوظ بنشر الطباعة والمطبوعات فى ربوع الشرق الأدنى ، حتى انه بعد ما جلا الفرنسيون عن مصر فى أوائل القرن الماضى ، ورأى محمد على أن يقتدى بهم فى الاستفادة من الدوريات الصحفية ، استخدم بعض تلاميذ العلامة «مارسيل » وأخصهم نقولا مسابكى الذى قاد أول بعثة مصرية تدربت على

فنون الطباعة وتنضيد الحروف العربية (وهى نفس الحروف التركية تقريبا) وكانت هذه البعثة تضم بعض طلاب الأزهر .

وكان من ثمار هذا العمل انشاء «الوقائع المصرية» وقد صدرت بالتركية أولا وبالعربية حيناً ، خلصت بعده للعربية وحدها ، وكانت الوقائع فى أول عهدها جريدة الباشا الكبير يملى أفكاره على محرريها ويراجع موادها بالاستماع إلى محتوياتها قبل طبعها . ولكنها بالرغم من هذه المنزلة ، وربما بسببها ، لم تكن بالجريدة المقروءة ، إلا فى دائرة الحاشية التركية ومأمورى السلطة الحاكمة ، ولذا كان من الضرورى أن تتحرك نحو مصادر الضوء والانتشار باتخاذ اللسان العربى والتوزيع المجانى وبقيت تصدر حتى سنة ١٨٤٩ .

وفيما عدا «الوقائع» التى جاءت بعد غياب الظاهرة الصحفية عن مصر ٢٧ عاماً ، ظلت البلاد محرومة من الصحافة بمعناها الأوسع والأنفع إلى سنة ١٨٦٣ حينما تسنى لرهط من حملة المشاعل الفكرية أن يقنعوا الخديوى بأن دواعى المعاصرة المصرية لأوربا والمواكبة لنهضتها تقضى بظهور صحافة أهلية تؤازر الجهود الاميرية البناءة وتدعو الناس إلى تقبل الجوانب الطيبة من المدنية الحديثة .

ولم يكن سبيل هذا الرهط إلى اقناع الدوائر الحاكمة بأفكارهم خالياً من العقبات ، لكثرة ما هنالك من وجوه التباين بين المقاصد ، ومن أعمال الدسائس وتقلبات الأمزجة والميول الشخصية . فبينما كان أكثر الدعاة إلى فتح الدروب الصحفية الجديدة الحرة من الذرارى الفكرية لثورات التحرير بكل ما تدعو اليه من الحريات المدنية وحقوق الانسان ، ومن المتأثرين بالدعوة الاصلاحية المتفجرة التى كان يقودها جمال الدين الأفغانى ، كان بين الحكام من يتظاهر بمجاراة هذه التيارات حيناً ثم يبطش بها فى كثير من الأحيان .

ولكن مجموعة الأفندية المتعلمين فى مصر من أمثال عبد الله أبو السعود

الذى أنشأ جريدة «وادى النيل» القاهرية وطلائع الوافدين على الكنانة بمعارفهم وفنونهم من جيرتها السورية واللبنانية قبلوا تحديات هذه المرحلة الحرجة وصعوباتها وأخذوا ينشئون الصحف والمجلات والدوريات المختلفة مما لا تدخل الاحاطة به فى هذا البحث — أو هذه العجالة — الا من حيث ما يتعلق منه بالاسكندرية ، وهو بحمد الله غير قليل لأن الاسكندرية بعد رجعة الروح اليها بالمحمودية شريانها الداخلى ، والميناء شريانها الخارجى ، سرعان ما راحت تسترد مكانتها العالمية وتأخذ مركزها الممتاز كواحدة من أعظم الحواضر البيضاء المتوسطة ، وكميناء من أعظم الموانى التجارية يطل على ثلاث قارات .

نهضه الصحافه السكندريه

وفى موكب هذا البعث وجدت الصحافة الحديثة طريقها السلطانى إلى الاسكندرية ، وعلى مهادهاترعرعت بنات الاقلام وبرز بناة الأعلام .

فظهرت فى ١٦ أغسطس من سنة ١٨٧٣ صحيفة «الكوكب الشرقى» لسليم حموى . وقد صدرت فى أول الأمر أسبوعية ثم تحولت إلى جريدة يومية مع تعديل اسمها إلى «شعاع الكوكب» ورغم أنها كانت معتدلة فى سياستها ، فان السلطات الحاكمة ضاقت بها ذرعاً فعطلتها . وقد أصدر الحموى فى سنة ١٨٧٨ جريدة أخرى باسم «الاسكندرية» ولكنها لم تعش الا شهوراً قليلة .

ثم جاءت «الأهرام» وكان تأسيسها فى سنة ١٨٧٥ بداية ملحمة صحفية عظيمة شهدت الاسكندرية فصولها الأولى منذ اتخذت لها داراً صغيرة فى حى المنشية وصدر الترخيص لمؤسسيها الأخوين سليم وبشارة تقلا من نظارة الخارجية بعد أن تعهدا لها «بأن لا تخرج محتوياتها عن التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية ونشر كتب كمقامات الحريرى وبعض ما يتعلق بالنحو والصرف واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية والحكم والنوادر والأشعار والقصص الأدبية وما شاكل ذلك

من الأشياء الجائز طبعها مع مراعاة قانون المطبوعات وبدون أى تعرض للأمور السياسية» .

وقد تلقت محافظة الاسكندرية موافقة النظارة على هذا الترخيص فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٥ وعد هذا التاريخ بدءا لتأسيس «الأهرام» .

وما أن تلقى الأخوان سليم وبشارة تقلا هذه الرخصة حتى راحا يعملان بهمة ومضاء فى انشاء المطبعة ويعلنان عن الصحيفة ويصدران نماذج لها إلى أن صدر العدد الأول من «الأهرام» فى اليوم الخامس من أغسطس سنة ١٨٧٦ . جريدة تصدر يوم السبت من كل أسبوع فى أربع صفحات متوسطة الحجم تتوزع أعمدتها بين الأخبار المحلية والخارجية وبين المقالات الاجتماعية والأدبية .

وقد رحب المثقفون بظهور «الأهرام» وبعثوا اليها من القاهرة بتهانيهم وكتاباتهم ، ومن ذلك تحية للصحيفة الجديدة كتبها الشاب الأزهرى محمد عبده (قبل تخرجه) بالأسلوب التقليدى القديم ثم أتبعها بأربع مقالات فلسفية.

ثم رأى أصحاب «الأهرام» أن يعززوا عملها الأسبوعى المتريث بنشرة يومية أو بملحق يومى سموه «صدى الأهرام» وقد صدر العدد الأول منه فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٧٦ ليلاحق أنباء الأحداث الخطيرة التى كانت تهز الدولة العثمانية فى البلقان وآسيا الصغرى وتثير التذمر بين رجالات الاصلاح من حزب «تركيا الفتاة» وغيرها من التيارات الدولية المشتجرة حول ما كان يسمى فى ذلك الحين «المسألة الشرقية» ولكن السلطات الحاكمة عطلت هذه الجريدة بعد سنتين من ظهورها «لانتقادها بعض تصرفات الحكومة وانتصارها للفلاح المظلوم» وصدر الأمر بالقبض على صاحبها . فأفلت سليم وظل بشارة محبوساً ثلاثة أيام حتى أفرج عنه وعن الجريدة بمساعى بعض الكبراء.

وفى مايو سنة ١٨٧٧ أصدر سليم تقلا جريدة أخرى سماها «حقيبة الأخبار» لاذاعة الأخبار التلغرافية ، وأعقبها بصحيفة «الوقت» التى أغلقت ابان الثورة العرابية .

ولم تتحول « الأهرام » من جريدة أسبوعية إلى جريدة يومية الا مع بداية سنة ١٨٨١ حيث صدرت يوم ٣ يناير من تلك السنة «يومية سياسية تجارية أدبية» ونشرت بياناً عن سياستها الجديدة تعهدت فيه «بأن لا تخلع على أحد نفوذاً ليس له ، وأن لا مدح بلا حق ولا طعن الا بمبرر»وقد استتبع هذا التطور زيادة فى انشطتها التحريرية والادارية والطباعية وأخذت تنشر الصور والأحاديث الصحفية وتتوسع فى الاتصالات الداخلية والخارجية .

وعندما قامت الثورة العرابية كانت «الأهرام» لا تزال فى الاسكندرية وقد تعرضت فى خلالها للإغلاق شهراً واحداً ، واحترقت دارها خلال الفتنة . فانتقلت إلى مكان آخر جددت فيه معداتها وأصدر أصحابها فى التاسع من يونيو سنة ١٨٨٢ صحيفة باسم «الأحوال» ولكنها ضاعت فيما حدث بعد ذلك بقليل من الأهوال .

فقد وقعت الواقعة ومنيت البلاد بالاحتلال وكان على «الأهرام» أن تعرف بعد ذلك مكانها فعرفته ، وأن تتخذ موقفها فاتخذته — معارضة للاحتلال ومطالبة بالجلاء وانتقاداً للسياسة الاستعمارية وانتصاراً لقضايا التقدم مع ميل ظاهر إلى السياسة الفرنسية وغيرها من القوى المتصدية للسيطرة البريطانية فى وادى النيل . وبهذه الصفة فتح «الأهرام» أبوابه لكثير من الأقلام وللشخصيات التى عملت بعد ذلك فى الحزب الوطنى وجماعة «المؤيد» وغيرها .

ولم تنتقل «الأهرام» من الاسكندرية إلى القاهرة الا فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ وتركت فى الثغر وليدتها «صدى الأهرام» ولكنها لم تعمر طويلا .

وقد عمل فى تحرير «الأهرام» السكندرية ، رجالات من الرعيل الأول فى خدمة الصحافة والأدب منهم خليل مطران ورشيد شميل وطانيوس عبده ونجيب الحداد وأمين الحداد وخليل زينيه وعبده بدران وغيرهم .

أما «الأهرام» القاهرية وما حققته خلال عمرها الطويل من فتوح

صحفية عظيمة بوأتها هذه المكانة العالية فى محيط الصحافة العربية بل والعالمية فهو مما لا تطوله هذه العجالة . وقد ألفت فيه كتب ووضعت عنه مطولات . وخلاصة ما يمكن أن يقال عنه هنا أنه ينضح بالثناء على منبت هذه الجريدة ويشهد له بالأصالة فى تربية الأقلام وتنشئة الأعلام .

وهل ينبت الخطى الا وشيجه   وتغرس الا فى منابتها النخل

فهذا أديب أسحق الذى ولد بدمشق ورافق سليم النقاش فى جولاته التمثيلية ورحلاته الفنية بين سوريا ومصر ، وكان من أكبر المتأثرين بمدرسة الافغانى قد آثر لنشاطه الصحفى مدينة الاسكندرية ونقل صحيفته الأسبوعية «مصر» من القاهرة إلى الثغر عام ١٨٧٨ ، وعاونه فى تحريرها وادارتها صديقه النقاش ، ثم أصدرا فى نفس العام جريدة يوميه باسم «التجارة» وقد نالت هاتان الصحيفتان رواجاً كبيراً وتمتعتا بسمعة عالية وكان الافغانى يكتب فيهما تارة باسمه الصريح وتارة أخرى بتوقيع «مظهر بن وضاح» كما راسلهما رجالات من طراز الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وابراهيم اللقانى .

ولم يكن يفوق قدرات عبد الله النديم البيانية الرائعة واحاطته بمعارف عصره السياسية والاجتماعية والعلمية الا حماسته الشديدة للاصلاح ومخاصمته لكل امتياز أو احتكار ودفاعه عن كرامة الانسان المصرى ومن ذلك قوله فى جريدة «مصر» (١٩ يناير سنة ١٨٨٢) :

«أريد أن يكون المصرى فى مقام الانسان مستقلا بوجوده متمتعاً باستقلاله ، فائزاً بحقوقه ناهضاً بواجباته ، يستغل زرعه ويستدر ضرعه» .

وكان طبيعياً أن ينضم عبد الله النديم إلى أديب أسحق وأن يؤلفا ذلك الثنائى الذى يعزف ألحانه الثائرة على صفحات جريدتى «مصر» و«التجارة» السكندريتين . على أنه فى رؤية سياسية واجتماعية بعيدة المدى أيقن الزميلان أنه مهما يكن من شأن الدعايات الوطنية الملتهبة فلابد لتحرير

الشعب من العمل على تثقيفه وتربية قيادات له متعلمة ، فكان من ذلك دعوتهما إلى انشاء «الجمعية الخيرية الاسلامية» واهتمام جريدة «مصر» السكندرية بالدعاية لمدارس تلك الجمعية ونشر أنباء نشاطها وحفلاتها .

وبعد عزل الخديوى اسماعيل وتولى رياض باشا رئاسة الوزراء بدلا من شريف باشا ، أظهرت السلطات الحاكمة ضيقها بمواقف اسحق المعارضة ولم تفلح فى اغرائه بمنصب ولا بمال فأغلقت جريدته وأحس هو بجو النقمة حوله فنجا بنفسه إلى باريس وهناك اتخذ من مجلته الجديدة «مصر–القاهرة» وسيلة للتنديد بسياسة رياض باشا واستعداء الرأى العام ضد السياسة الاستعمارية فى وادى النيل .

وقد تسنى لأديب أن يظفر فى فرنسا بأصدقاء من الطراز الأول فى مجالات الفكر والسياسة والأدب ، بينهم فكتور هوجو الذى وصفه بأنه « نابغة الشرق » ولكن هذه الحظوة التى لقيها من المجتمع الفرنسى الراقى لم تشغله عن التوافى لعشيرته الفكرية فى مصر وكان دائم التراسل مع أستاذه الأفغانى وجماعته . وعندما تغيرت الأوضاع فى مصر وظهرت بوادر الثورة المنتظرة ، عاد الأديب اليها ليكون وسط المعمعة وأصدر من جديد جريدته القديمة «مصر» وراح يتنقل بين الاسكندرية والقاهرة ثم اشترك مع زميله القديم سليم النقاش فى اصدار جريدتى «العصر الجديد» و«المحروسة» عام ١٨٨٠ . وكان شعار «المحروسة» : «مصر للمصريين» . وما هو الا عامان حتى احترقت تلك الجريدة اثناء قصف الأسطول البريطانى للاسكندرية . وقضى لها فيما بعد بتعويض قدره ٤٠ ألف فرنك .

وقبيل هذه الأحداث وعلى مشارف الثورة فان الشيخ حمزة فتح الله أخذ يدافع فى جريدته «البرهان» عن سياسة الخديوى توفيق فيتصدى له أديب اسحق بردود صحفية يدافع فيها عن الحياة النيابية ويقرر بها أن للشعب كل الحق فى الرقابة على أعمال الحكومة .

وعندما فشلت الثورة العرابية ، تعرض الأديب للاعتقال ثم للنفى .

فأقام فى بيروت فترة تولى خلالها تحرير جريدة «التقدم» إلى أن اشتد عليه الداء فعاد إلى مصر مستشفياً بين حلوان ورمل الاسكندرية ، ولكن هذا السراج الوهاج كان على وشك الانطفاء فلم يمض الا ثلاثون يوماً على انتجاعه بلدة «الحدث» فى لبنان على أمل ضعيف فى الشفاء حتى ودع هذه الحياة تاركاً وراءه سيرة مضمخة بعطور الثناء والتقدير .

فى دوحة الأهرام

وإذا أخذنا مجموعة «مصر» و«التجارة» و «المحروسة» ومحرريها على أنها كانت تمثل مدرسة مناظرة «للأهرام» فاننا نجد من جهة أخرى أن دوحة «الأهرام» كانت قد جمعت بلابل صحفية أكبر من أن تستوعبها صحيفة واحدة مهما عظم شأنها ، ومن ثم ظهرت جريدة «لسان العرب» لصاحبيها الأخوين نجيب وأمين الحداد بعد أن عملا فى تحرير «الأهرام» نحو عشر سنين ، وانضم اليهما صديقهما عبده بدران . وقد ظهر العدد الأول من هذه الجريدة فى أول أغسطس سنة ١٨٩٤ ، كما انشأ نجيب الحداد مع صديقه غالب طليمات جريدة يومية سياسية اسمها «السلام» .

وكان «لسان العرب» على ما يقول فيليب طرازى فى كتابه «تاريخ الصحافة المصرية» من الصحف الحرة المسموعة الكلمة وقد جاهر بالحق فى كل مباحثه وناصر حركة الأحرار العثمانيين ضد الاستبداد الحميدى أما انشاؤها فقد كان فى غاية الحسن والرشاقة .

ولكن هذا النجاح الأدبى لم يعصم «لسان العرب» من عواقب الافتقار إلى القدرات الادارية اللازمة لتنظيم العمل الصحفى ، فتحولت من يومية إلى أسبوعية وتنقلت بين القاهرة والاسكندرية ولكنها لم تتوقف الا بوفاة نجيب الحداد وظلت غائبة عن الوجود حتى أعادها عبده بدران فى سبتمبر من سنة ١٩٠٨ بدلا من جريدة «الصباح» .

وكان الحداد من بيت علم وأدب يمت بصلة من القرابة إلى العترة

يازجية ، فأثريا الصحف والمجلات والمسارح بفيض من الفصول والمقالات والروايات الراقية .

وظهرت جريدة «البصير» لصاحبها رشيد شميل بعد أن استقل عن «الأهرام» التى كان يقوم بادارتها فى الاسكندرية مكان خليل مطران الذى تولى ادارتها القاهرية لتتلائم مع بيئة الاسكندرية التجارية والصناعية وتكفيها حاجتها من ناحية الاخبار العامة وبخاصة أخبار الأسواق والأوراق المالية ، على أن تفرد أبواباً للمقالات الأدبية والتاريخية والقصائد الشعرية .

وقد صدر العدد الأول من «البصير» فى أول سبتمبر من سنة ١٨٩٧ وشرح مؤسسه فى مقاله الافتتاحى خطته وأهدافه الوطنية مبيناً أنه انما اختار الاسكندرية مقراً لجريدته تقديراً لمركزها التجارى والصناعى «الذى يتوقف عليه استقلال البلاد» . وتفرعت فيما بعد عن «البصير» أغصان ازدهرت ردحاً من الزمن منها «السمير» وهى مجلة أدبية كان يصدرها قيصر شميل ، و «البصير القضائى» وكان يصدره ثلاث مرات فى الأسبوع الاخوان شارل وموريس شميل فى حجم مصغر ويخصصانه للشئون القانونية والقضائية .

وقد أسهم فى تحرير «البصير» منذ انشائه عدد كبير من حملة الأقلام منهم الشيخ أمين الحداد وعبده بدران وطانيوس عبده وجورج طنوس والياس فياض ونجيب هاشم وسليم عقاد والدكتور ابراهيم الشدودى وتوفيق حبيب (الصحفى العجوز) والياس بدوى وتوفيق طنوس وأحمد صبرى . أما صفحته الأدبية التى كانت تصدر بانتظام كل أسبوع فقد كان فارساها المحليان الشاعر خليل شيبوب وشقيقه الناقد صديق شيبوب الذى كان يوقع فصوله المهمة فى النقد وغيره من فنون الأدب بامضاء «صاد شين» .

وممن عاونوا فى تحرير « البصير » وفى غيره من وجوه النشاط الثقافى سبعة من أسرة شميل ، غير مؤسسة وهم الأخوان أمين شميل المحامى منشىء

مجلة «الحقوق» والدكتور شبلى شميل مؤلف كتاب «النشوء والارتقاء» فى شرح مذهب داروين والتعليق عليه . والشقيقان سبع شميل وقيصر شميل اللذان تعاونا مع أخيهما رشيد شميل فى تحرير «البصير» فى فترتين متفاوتتين والشاعر ماريوس شميل منشىء مجلة «العالم المصرى» وكانت تصدر باللغة الفرنسية فى القاهرة ، وصاحبا «البصير» الشقيقان شارل رشيد شميل وموريس رشيد شميل اللذان ورثا المنشأة عن والدهما فى سنة ١٩٢٨ .

وقد ظلا يصدران «البصير» أربعا وثلاثين سنة من بعده ولكنهما وجدا فى سنة ١٩٦٢ أن الظروف القاهرة التى طرأت على امكانيات الجريدة ومواردها لم تعد تسمح لهما بمواصلة نشاطهما فيها فتنازلا عن امتيازها لمصلحة محرريها ، وقد ظلت تصدر بصورة مصغرة حتى احتجبت فى سنة ١٩٦٤ .

ولنذكر انه فى أواخر سنة ١٨٩٩ أصدر طانيوس عبده فى الاسكندرية صحيفة أسبوعية باسم «فصل الخطاب» كما أصدر فى خريف سنة ١٩٠٣ جريدة «الشرق» اليومية .

صحافة ربع قرن

وإذا كان «البصير» يمثل أطول الصحف السكندرية عمراً (١٨٩٧ — ١٩٦٤) فان له فى ثغرنا لأخوات لم يبلغن مثل عمره حقاً ، ولكنهن لعبن فى ميدان الصحافة السكندرية ادواراً هامة وفى مقدمتهن جرائد «وادى النيل» و «الأهالى» و «الأمة» . وكان ظهورهن نتيجة حتمية لنشاط الشعور الوطنى وتلبية لدواعى التعبير عنه فى كل ما يعرض من الأمور .

وقد أنشأ «وادى النيل» السكندرية محمد الكلزة سنة ١٩٠٨ واستمرت تصدر بانتظام حتى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٦ وان كانت قد توقفت لفترتين من التعطيل أولاهما فى عهد وزارة محمد سعيد باشا الأولى سنة ١٩١٢ والثانية فى عهد وزارة محمد محمود باشا الأولى (كذلك) سنة ١٩٢٨ .

ويرجع سبب تعطيلها المرة الأولى إلى ما قامت به من افشاءات حول ما عرف فى ذلك الحين باسم «فضيحة سوق دبجارديه» . أما سبب تعطيلها الثانى فرجعه موقف المعارضة لوقف الحياة الدستورية. وفى خلال هذه الفترة التى تجاوزت ربع قرن انتقلت «وادى النيل» من مجرد جريدة محلية تهتم باحداث المجتمع السكندرى وتلقى التعضيد من بعض بيوتاته الناهضة إلى جريدة واسعة الانتشار فى القطر وفى خارج القطر ، قويتم الاتصال بالتيارات السياسية التى اتسعت بعد ثورة سنة ١٩١٩ مع ميل إلى الاهتمام بالشئون العربية والاسلامية .

وقد اشترك فى تحرير «وادى النيل» رهط كبير من أرباب الأقلام منهم ابراهيم المازنى وتوفيق فرغلى ومحمد الهياوى ومحمود أبو الفتح وعبد الحميد السنوسى ومفيد الشوباشى وعبد الحميد سالم ومحمد فرحات . وهاجر اليها بأقلامهم وآرائهم فى بعض فترات التأزم السياسى بالقاهرة محمود عزمى وتوفيق دياب وأحمد حسين وفتحى رضوان . واستعانت بادباء ـ لم يكونوا مقيدين عليها ـ ولكنهم امدوها بانتاجهم القيم من أمثال عبداللطيف النشار ويحى حقى وعثمان حلمى وأحمد الشايب .

وقد اشتهر صاحب «وادى النيل» ـ الذى بدأ حياته الصحفية مراسلا لجريدة «اللواء» ـ بمواقفه المتشددة ضد البلدية وترديده العبارة التى أثرت عنه . «لا يرجى للاسكندرية اصلاح الا بالغاء مجلسها البلدى» وكانت له فى ذلك وفى غيره جدليات مع بعض محررى الصحافة الافرنجية . ولما تعرض للاعتقال فى قضية نشر اتهم فيها الكاتب حسن الشريف ، أحس بالعلة تزحف على كليتيه فكان من ذلك احتذاره واهتمامه ببعض المشروعات المالية إلى جانب رعايته لشئون الجريدة .

ولما جاءت الثلاثينات بمتاعبها الاقتصادية كان جهد الكلزة قد قل وصحته قد ضعفت وكثير من مشروعاته قد توقف فاضطر إلى اغلاق «وادى النيل» فى نهاية سنة ١٩٣٦ .

أما «الأهالى» فقد ارتبط اسمها باسم عبد القادر حمزه الذى أنشأها فى فى سنة ١٩١٠ بتعضيد من بعض شركات النشر ولكنها استندت فى الدرجة الأولى إلى كفاية هذا الصحفى الكبير وعلاقاته الوثيقة بذوى الرأى والمشورة من مجموعة سعيد باشا . وعلى الرغم من اختلاف الانتماءات الاجتماعية بينه وبين صاحب «وادى النيل» فانه لم يتردد فى فتح أبواب «الأهالى» أمامه ليعمل معه ريثما تنقضى محنة التعطيل لجريدته .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى تغيرت الصورة ، فبينما كان «وادى النيل» — الذى أفرجت عنه الوزارة الرشدية — يصدر فى عمارة له جديدة ويجد كفايته من الورق ، كانت «الأهالى» تعانى كغيرها من شحة الورق ومن ويلات الرقابة العسكرية ولا تضن مع ذلك بتشجيع المواهب الناشئة ومن ذلك انها هى التى نشرت بواكير أعمال الفنان الشعبى المعروف ، بيرم التونسى ، وكانت عبارة عن قصائد اجتماعية نقدية منها قصيدة عن المجلس البلدى وفيها ذلك البيت الذى سار مسير الأمثال :

يابايع الفجل بالمليم واحدة ... كم للعيال وكم للمجلس البلدى

ولما فارت البلاد بثورة سنة ١٩١٩ اتخذت «الأهالى» حيالها موقف التشدد والانتقاد فى مسائل الزعامة مما أثار حولها الاحتجاجات وعرضها لبعض المتاعب واضطرها إلى الاحتجاب سنة ١٩٢١ .

وقد اشتهرت مقالات عبد القادر حمزة (الذى آثر الصحافة على المحاماة ونشر بواكير انتاجه الصحفى فى جريدة لطفى السيد) بالهدوء والتركيز والاقناع . وكانوا يلقبونها بالعصا لأنها لم تكن فى الغالب تزيد عن عمود وربع عمود .

وكان ممن عاونوا فى تحرير «الأهالى» فرح أنطون وعباس العقاد ومحمد أبو العز وأحمد سعيد والشيخ محمد الجمل .

وعندما نقل عبد القادر حمزة نشاطه الصحفى إلى القاهرة وعدل محوره

السياسى فى اتجاه الولاء للزعامة الزغلولية عمل معه فى «البلاغ» معظم هؤلاء المحررين .

وأما جريدة «الأمة» فقد أصدرها عبد اللطيف الصوفانى فى سنة ١٩٢١ وأسند رئاسة تحريرها إلى محمد مصطفى المهياوى وهو من ألمع كتاب المقالة السياسية الحادة ، وجعلها لسان حال للحزب الوطنى فى الاسكندرية وقد عمل فى تحريرها من رجالات الحزب السكندريين ، سعيد طلبات وسليمان حافظ ومحمد الفرارجى ومحمود عوض جبريل .

وكان لهاموقفاً متشددا فى معارضة مشروع ملنر وعندما تركها المهياوى للعمل فى جريدة «اللواء» بالقاهرة مالت بسياستها فى اتجاه الوفد وتعرضت للتعطيل الادارى بعض الأحيان .

وممن علموا فى تحرير «الأمة» أحمد خيرى سعيد وعبد الحميد سالم وزكريا جزارين واميل خورى (بعض الوقت) وأحمد سعيد وحسن عطية والشيخ الجمل .

وفى عام ١٩٢٤ توقفت «الأمة» عن الصدور .

وفيما عدا هذه المجموعة من الصحف المصرية التى استمرت فى الصدور أعواماً كثيرة أو قليلة ، صدرت فى الاسكندرية صحيفتان يوميتان ولكنهما لم تعمرا الا قليلا ، أولاهما جريدة «الشعب» التى أصدرتها لجنة الوفد المركزية سنة ١٩٢٣ وأسندت رئاسة تحريرها إلى سعد اللبان ، وثانيتهما جريدة «الثغر» التى أصدرها سليمان فوزى سنة ١٩٢٩ ثم لم يلبث أن نقلها إلى دار «الكشكول» فى القاهرة لتحتجب بعد قليل .

وربما لا تتم الاحاطة بهذه المجموعة من الصحافة الوطنية السكندرية إذا اقتصرنا على الدوريات اليومية وأغفلنا الاشارة إلى صحيفة أسبوعية كصحيفة «الاكسبريس» التى كان يصدرها محمود ابراهيم ويكاد ينفرد بتحريرها على طريقته الخاصة فى النقد الصحفى واللواذع الاجتماعية ،

وصحيفة «المسلة» التى كان يصدرها محمود بيرم التونسى على أنها «لا جريدة ولا مجلة» ، ويستخدمها كنشرة متحررة من قيود «الدوريات» للتهكم السياسى المستتر ضد الأوضاع الاحتلالية والاختلالية عندما كانت الأحكام العرفية لا تسمح فى قسوتها بأى افصاح .

والآن ليس فى الاسكندرية جريدة يومية الا جريدة «السفير» التى تصدر فى نطاق محلى وقد أنشأها وعمل بها فريق ممن كانوا فى «وادى النيل».

الصحافة النسوية

وإلى جانب الصحافة السكندرية التى تكفل لها الرجال ، ظهرت فى الثغر صحافة نسوية كانت رائدتها الأولى هند نوفل التى وفدت من لبنان مع أبيها نسيم نوفل وأصدرت فى نوفمبر من عام ١٨٩٢ مجلة «الفتاة» للدفاع عن حقوق الجنس اللطيف والعمل على ترقية المرأة الشرقية من جميع الوجوه وقد صادفت هذه المجلة قبولا لدى ربات البيوت وقرظتها الصحف العربية والأجنبية .

ثم أصدرت اسكندره نعمة الله الخورى مجلة « أنيس الجليس» توسعت لنشاطها الصحفى الذى كان منحصراً فى مجلتها الفرنسية «اللوتس» .

ومما يذكر عن هذه الأديبة الشرقية أنها سافرت إلى روما فى سنة ١٩٠٠ لحضور مؤتمر نسوى فى سبيل السلام وتعرفت على رئيسة المؤتمر والداعية اليه الأميرة دى فيز نيوسكا ، فكانت لديها موضع عطف وتقدير ، وما كان من الأميرة الا أن تبنت تلك الفتاة النجيبة ووهبتها لقبها من بعدها ، فأصبح اسم اسكندره بعد وفاة الواهبة «البرنسيس الكسندرا أفرينو دىفيزنيوسكا».

وقد ظهر العدد الأول من «أنيس الجليس» سنة ١٨٩٨ ولم تتوقف المجلة عن الصدور الا فى نهاية سنة ١٩٥٠ . وفى خلال هذه المدة التفت حولها وصاحبتها نخبة من أدباء الثغر وزواره الممتازين كانوا يلتقون فى صالونها بزيزينيا ، منهم خليل مطران ، واسماعيل صبرى باشا محافظ

الاسكندرية ، والشيخ نجيب الحداد وشيخ العروبة أحمد زكى باشا ، وأنعم عليها شاه ايران وسلطان تركيا بأوسمة الشرف المرصعة .

وقد نشرت «أنيس الجليس» ، لخليل مطران بعض قصائده القصصية ولشيخ العروبة بعض فصوله الأدبية والتاريخية . كما نشرت شعراً لأحمد محرم وكلمات لفليكس فارس وقصيدة لمصطفى لطفى المنفلوطى قيل أن منشئها الأصلى هو السيد توفيق البكرى وان كان المنفلوطى قد أخذ بجرتها لأنها كانت هجاء للخديوى عباس الثانى ومطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وان طال المدى سيبيد

ولم تتوقف الكسندره الخورى بعد احتجاب «أنيس الجليس» عن اهتمامها بالحركة النسوية ولكنها لم تكن سعيدة فى أيامها الأخيرة بسبب نضوب مواردها وقد توفيت فى لندن حيث كان يقيم أولادها ، عام ١٩٢٧ عن ٥٥ عاماً .

وفى ١٨٩٣ أصدرت روزا انطون ، شقيقة فرح أنطون ، مجلة نسوية فى الاسكندرية ، نقلتها بعد عام إلى القاهرة . وأصدر عبد الحميد سالم مجلة «الهوانم» سنة ١٩١٨ وأصدرت نبوية موسى فى يونيو سنة ١٩٢٣ مجلة «ترقية الفتاة» .

الصحافة الافرنجيه

ولم يكن حظ الاسكندرية من الصحافة الافرنجية بأقل من حظها من الصحافة العربية ، بل ربما فاقه من بعض الوجوه ، لأن الصحافة عند القوم كانت أقدم نشأة وأعرق تقاليد .

وقد آثرنا كلمة «الافرنجية» على كلمة «الأجنبية» توخياً للدقة والانصاف لأن هذه الصحافة لم تكن كلها من عمل الأجانب فكان بعضها يصدر للترجمة عن مقاصد الحركة الوطنية والمصالح القومية ، وحتى الذى كان من عمل الجاليات قد تأثر أغلبه بالواقع المصرى والامانى المصرية . ومهما يكن من

بداره فقد كان من غراس الاسكندرية ونتاجها ، ومن ذوقها ومزاجها ، ولا يكاد يفرقه عن الصحافة الأهلية الا فارق اللغة فرنسية كانت أو انجليزية أو ايطالية أو يونانية . ولم يكن بالنادر تنديد أقلام تكتب بالفرنسية أو غيرها من اللغات الافرنجية بأوضاع سياسية أو ادارية لا تستطيع الأقلام العربية أن تنال منها وهى مجردة من وسائل الحماية السياسية التى كانت تتمتع بها الصحافة الافرنجية .

على أن ذلك لم يكن يعنى بالضرورة توافقاً فى كل المواقف المتعلقة بالمصالح المشتجرة ووجهات النظر المتباينة ، فذلك شىء طبيعى ولكنه لا يتعارض مع الولاء الذى تصنعه الاقامة والاستيطان أكثر مما تصنعه اللغة واللسان .

وفيما يلى بيان بالصحف الافرنجية التى كانت تصدر بالاسكندرية ولم يبق منها اليوم على قيد الحياة سوى جريدة «تاشيدروموس» اليونانية ، ثم طائفة من أسماء الذين كانوا يشتغلون بها من حملة الأقلام .

الصحف الفرنسيه

L'Indépendant" — "La Réforme et La Réforme Illustrée" "Le Phare d'Alexandrie"—"Les Nouelles" — "Le Journal d'Alexandrie et La Bourse" — "Le Journal du Commerce et de La Marine" — "Le Phare Egyptien" - "La Gazette d'Orient" — "L'observateur" "L'Economiste" — "La Revue Economqie et Financière" — "La Semaine Financière et Politique" — "L'Informateur" — "Le Journal Suisse" — "Le Journal des Tribunaux Mixtes" et"La Gazette des Tribunaux"

الصحف اليونانيه

"Tachydromos"—"Ephimeris"—"Imerissia Nea" — "Embros" "Anatoli"

الصحف الايطاليه

"Il Commercio" — "Il Messagero Egizziano" — "Il Giornale d'Egitto"-"Cronaca" — "Voce d'Italia".

الصف الانجليزية

"Egyptian Gazette".

أما المحررون الذين كان لهم نشاط فيها فهذا بعض ما تعيه الذاكرة من أسمائهم فى ترتيب حروف الأبجدية .

Victor Adm — René Avellino — Georges Boudagoff — Henri Boutigny — Raoul Canivert —Nicolas Caravia — Athos Catraro — Max di Collato — Edmond Colrat — Gabriel Enkiri — Ernest Degiardé — Georges Dumani Bey — Edmond Dumani — Louis Fléri — A. Geronimo — Pierre Gilly — J. Haicalis Pacha — Henri Kostner — Roger Leoncavallo — Georges Leoncavallo — Edmondo di Pompeo — Maxime Pupikofer —Gisèle de Ravenel — Achille Sékali — Raphael Soriano - Aziz de Saab.

الاسكندرية الثكلى

وإذا كانت الاسكندرية تفتقد الآن ما كان لها من مجد صحفى عريض فحسبها من عزاء أنها كانت أم الصحافة المصرية الحديثة بكل شموخها وتقدمها الذى يقف بها على قدم المساواة مع نظائرها فى أرقى أمم الحضارة .

وقد بذلت فى خلال السنوات الأخيرة جهود كثيرة لانشاء صحافة محلية بالاسكندرية ، ولم يضن القائمون على الحكم المحلى والتنظيم السياسى بتقديم ما لديهم من وسائل التأييد والمساعدات المادية والأدبية ولكن التجارب العملية لم تكن مشجعة لأن الصحافة أصبحت تتكلف الكثير ، والكثير جداً

هذا إلى أن المشكلة بالنسبة للاسكندرية هى — كما يبدو لنا — أنها فى تاريخها الصحفى الطويل لم تعرف الصحافة المحلية بقدر ماعرفت الصحافة العامة وكانت معظم جرائدها منتشرة ومقروءة فى جميع أنحاء البلاد وفى خارجها أيضاً .

أما الصحافة المحلية فهى عطاء تشعر بأنه لا يكفيها «ومن ورد البحر استقل السواقيا» :

شارل شميل

تم بمشيئة الله طبع هذه المحاضرات
فى مطبعة جامعة الاسكندرية ،
يوم الثلاثاء ١٢ من فبراير ١٩٧٥
مراقب المطبعة
محمد يوسف البساطى



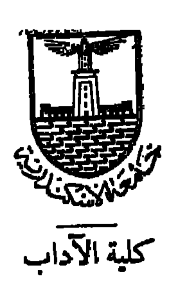
كلية الآداب

مجتمع الإسكندرية

عبر العصور

مطبعة جامعة الإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية



كلية الآداب

مجتمع الإسكندرية

عبر العصور

مجموعة محاضرات ألقيت في ندوة علمية بكلية الآداب في أبريل ١٩٧٣ بالتعاون مع الجمعية التاريخية المصرية

فهــــرس

صفحة